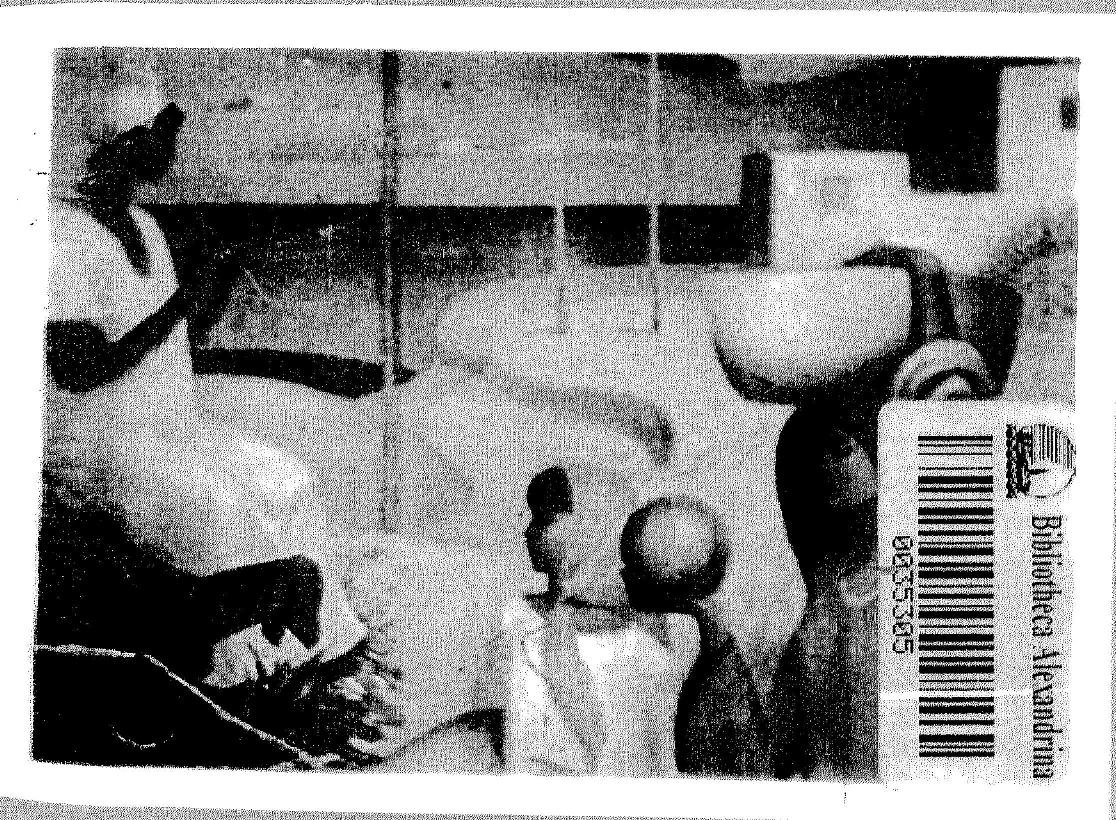
مذكراتي

في السياسة والثقافة

ثروت عكاشة

١



دار الهلال



مذكراتي

في السياسة والثقافة

ثروت عكاشة

١

الطبعة الأولى يناير ١٩٨٨

الطبعة الثانية يناير ١٩٩٠

مذكراتي

في السياسة والثقافة

ثروت عكاشة

١

دار الهلال

صورة الغلاف
«موسيقى ريفية» للفنان حسين بيكار
تفصيل. تصوير زيت على قماش
٨٣ سم × ٦٨ سم
بإذن من البنك الأهلى

الإخراج والإشراف الفنى
الفنان حلمى التونى

إهـــــداء

أهدى هذا الكتاب إلى ابنى محمود علّه يغفر لى ما كان منى من انصراف عنه فى مرحلة من حياته إلى أعمال استغرقتنى ولم تترك لى من الوقت ما يتّسع لأن أبادله عطفى وحنانى ، ولعلّ ما قامت به زوجتى فى حملها هذا العبء عنى فعاشت لابننا تعوّضه وتمنحه ما تملك من عطف وحنان قلّ أن تملك قدرهما أمٌّ ، لعلّ هذا ما يحفزنى هنا إلى أن أشكر لها طيّب جميلها .

ها هى ذى الطبعة الثانية من « مذكراتى فى السياسة والثقافة » ، وقد جاءت مزامنة لطبعة باللغة الفرنسية سوف تصدر قريبا . وما حدانى إلى إصدارها إلا ما رأيته من إقبال القراء على الطبعة الأولى ، ثم ما رأيته من جدل حولها حين ظهرت ، كان سببه فيما أرى ما جاء فى الطبعة الأولى من إيجاز فى بعض الأماكن ، فرأيت أن أفصّل هنا حيث أوجزت هناك وأن أضيف مزيدا من البيان .

ولن يفوتنى وأنا أقدم هذه الطبعة الثانية أن أتجه بالشكر لكل من قرأ وأثنى ، كما لن أبخل بشكرى على من قرأ ونقد ، فلكل صاحب قلم ـ كما يقول ڤولتير ـ معركة ، والمثل العربى يقول : « من ألّف استهدف » .

كلمة أولى

لكل امرىء ما يجول بخاطره صوابا أو خطأ ، والمرء بين هذين الخاطرين حائر ، أيسجّل الخطأ إلى جانب الصواب ليكون حجّة عليه ، أم يجتزىء بالصواب ليكون صاحب الحُجّة على الأيام ، أو يمضى من الحياة بصفحة بيضاء لا يخطّ فيها حرفا من هذا أو ذاك ؟ وتاريخ الوجود كله ليس إلا كلمةً منى أو كلمةً منك أكتبها أنا أو تكتبها أنت ، غير أنه ينبغى أن تكون هذه وتلك الصدق ، لا تحوير فيها ولا تبديل .

هذا ما عنَّ لى عندما جال بخاطرى أن أسجّل ما كان من دور شاركت فيه من قريب أو من بعيد فى تاريخ مصر القريب ، أعنى هذا التاريخ الذى بدأ بقيام الثورة ، ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ، على أن ما كتبته عن مشاهدة ومعاينة فإنما أنقله مطمئن النفس ، وأما ما كان منى رأيا أو تبريراً فأمره بينى وبين الناس يأخذون علىّ وآخذ عليهم فيه ، ومجال القول ذو سعة .

وهذه على أية حال ذكريات مسطورة لم أقصد بها فى مبدأ الأمر إلا أن أتحدّث فيها بينى وبين نفسى ، فما أكثر ما كنت أحسّ الحاجة إلى أن أتأمّل أحداثا لأتكشّف أبعادها وأتبيّن ما وراءها ، وكنت فى لحظات أخرى أحسّ أننا على مفترق طرق فآوى إلى نفسى لأتحدّث إليها . ذلك أن فى طبيعتى شيئاً

من حب العُزلة والرغبة فى التأمل والاستبطان . غير أن سنوات طويلة مرّت وإذا نحن نجد أنفسنا أمام حملة غريبة من مذكرات وذكريات ومقالات ودراسات وأبحاث تعيد تقييم أوضاع سنوات عشناها وأحداث شاركنا فيها ، فأحسستُ أن من واجبى أن أعود إلى الوثائق التى كنت محتفظا بها وإلى ما دوّنته حينا بعد حين لأخرج منها على الناس مشاركا بالرأى فى الجدل الدائر حول ثورة ٢٣ يوليه ، فقد كنت واحدا من الذين شاركوا فى صنعها ، وكان لى رأى فى بعض الأمور ، منه ما أعلنتُه ، ومنه ما أضمرتُه إذ لم تكن ثمة مناسبة للإفصاح عنه ، ومنه ما أيّدته ، ومنه ما أحجمتُ عن إبدائه لموانع مرهونة بظروفها ـ وأعتقد أن من حق غيرى ألا يرى مثل رأيى ـ ووجدت فى نشر هذه السطور مجالا لأفصح عمّا لم يُتَح لى الإفصاح عنه .

هذا وإن الأيام قد تمرّ دون أن يسجّل الإنسان ما يقع له ، كما أن الذاكرة قد يفوتها الكثير مع تعاقب الأيام ، وما أجَلّ المثل القائل بأن الشجرة حين تشيخ تدبّ الشيخوخة أول ما تدبّ فى رأسها ، وما أشبه هذه الرأس بالذاكرة من الإنسان . ولم يطف فى ذهنى وأنا أسجّل واقعة أن أشوّه سمعة إنسان أو ألصق به ما هو منه براء ، فما أصدق جوته حين قال إن المرء حين يبلغ به السّن مبلغه ويعود بذاكرته إلى الوراء شيئا يرى أنه لم يكن ثمة خطأ من حوله إلّا وارتكبه . ولقد كنت فيما أكتب عن رجال عاشرتهم وكان لى على بعضهم مآخذ ، غير أنى كنت إذا ما ذكرتُ ما آخذه عليهم رجعتُ إلى نفسى فقلتُ لعلّ عليك مثل هذه المآخذ . فالحُكم على الناس عسير ، وأعسر منه أن تحكم على نفسك ، ويكاد السّوىّ بين الناس يكون من الاستحالة بمكان . يؤكد قولى هذا عبارة مشهورة للعالم النفسانى كارل يونج : « أرونى فى الوجود كله امرءاً واحداً سويّا ، وسأكون أنا عندها كفيلا بشفائه » .

وأنا هنا لا أؤرّخ للثورة ، بل أذكر ما كان منى من مشاركة أو ما جرى تحت سمعى وبصرى ، فإن ثمة أحداثا كثيرة قد لا يجد القارىء إشارة إليها ولا إفصاحا عنها لأنها ليست مما شهدت ، وأترك لغيرى ممن كانوا شهودها كى يقولوا كلمتهم . كذلك فإنى أومن أنه لا يمكن كتابة التاريخ بموضوعية حقة إلا بعد انقضاء فترة مناسبة على الأحداث ، لأن الادّعاء بكتابة التاريخ من واقع مذكّرات كتّاب معاصرين واتخاذ المؤرخ المعاصر لهم كتاباتهم وثائق تاريخية كافية لإصدار الحكم على عصر كامل بذاته ، والخروج من ذلك بنتائج

محدّدة ، إن مثل هذا المنهج فى تصوّرى هو نوع من الانحياز الذى لايمكن تبرئته من الهوى أو العجلة أو السير فى ركاب السلطة القائمة . فقد يحدث أن تظهر بعد ذلك وثائق تنقض ما كان وتفصح عما كان وراء الأحداث من دوافع ومبرّرات ، ولامعدى عن أن تكشف الأيام إن آجلا أو عاجلا عن خفايا غابت عنا واحتوتها أضابير منسية أو مخفيّة إلى حين ، ستضىء الطريق يوما وتتضح معها الرؤية . ومن البديهيات التى تعلّمناها أن التاريخ الحق لا يُكتب إلا بأقلام مؤرخين غير معاصرين للأحداث حتى لايكون هناك أدنى شك فى نزاهتهم وبُعدهم عن الأغراض والمصالح المادية ، فالمرء ـ كما يقول سير وُلْتر رالى ـ إذا حاول أن يؤرّخ لما حوله عن كثب متحرّيا الحقيقة هشّمت أسنانه تلك الحقيقة ، وركلته كما تركل الدّابة صاحبها . إن البُعد الزمنى يكفل للمؤرخ رؤية أكثر اتساعا ونظرة أبعد غَوْرا ، بقدر مايجعل منه انفصاله عن الأحداث حَكَماً يُطمأن إليه . كما أن العجلة فى إصدار الأحكام على التاريخ لا تكون حكما صحيحا عليه ، وإنى هنا أسوق مثلا تشييد السدّ العالى ، وهو واحد من أروع إنجازات الثورة المصرية ، وقد كانت له دلالات عاجلة أحدثت تغييرا فى الميزان السياسى بالمنطقة ، واستقطب عداء جملة من القوى الداخلية والخارجية ، كما كانت له آثار جانبية معروفة قبل تشييده ، وكان علاجها مطروحا قبل أن تظهر ، غير أن التباطؤ فى تنفيذ هذا العلاج كان سببا فى خروجها إلى حيّز الوجود ، فاتخذ البعض منها ذريعة لإثارة حملة شرسة ضد المشروع وضد الثورة ككل ، وانطلقت ألسنةٌ حداد تصمُه بأنه جريمة فى حق مصر . ولم تتوقف هذه الحملة طوال خمسة عشر عاما ، وكأنما كان ينبغى أن توقظ هؤلاء المجاعةُ التى وقعت فى أغلب بلدان أفريقيا الملاصقة لحدودهم حتى يعرفوا فضله فى إنقاذ مصر من الجفاف الذى اعتصر القارة وأخذ يفتك بالملايين من أبنائها .

وقد يكون من المناسب أن أبسط للقارىء بادىء ذى بدء رؤيتى السياسية وأنا أكتب هذه السطور . فنحن لم نجتمع على إحداث ثورة تنتهى بنا إلى كراسى الحكم لننفّذ من خلالها أهدافنا الستّة المعروفة ـ ولا بأس من تكرارها هنا ـ وهى القضاء على الاستعمار وأعوانه ، والقضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم ، وإقامة عدالة اجتماعية ، وإقامة جيش وطنى قوى ، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة ، وإنما كنا نقصد إقصاء معوّقات تحقيق هذه

الأهداف وإسناد الحكم إلى أكفأ رجال السياسة الموثوق فى وطنيتهم وتفانيهم ، غير أن الثورة فوجئت بأن تحرّكها لم يعد تحرّكا محدودا داخل القوات المسلّحة بل إنه لم يشملها كلها فحسب بل تجاوزها إلى هبّة شعب كامل وقف يؤازرها من اليوم الأول الذى أعلنت فيه بيانها ، وأمكن لهذا اللقاء المذهل بين طليعة الجيش وبين هذه الملايين الغفيرة أن يُرغم الطغيان على أن يطأطىء رأسه ويُخلى الطريق . وكان ما سمّينا به انتفاضتنا هو « الحركة » ، فما لبث الشعب بحسّه التلقائى الصادق أن منحها تأييده ومساندته فسمّاها « الحركة المباركة » . وأدركنا بعد هذا النصر الحاسم أن ما قُمنا به لم يكن انقلابا أو حركة بل كان ثورة حقّة ، ومع هذا فقد استبقينا هذا الإحساس عميقا فى وجداننا وآثرنا أن نلجأ إلى الفعل وأن نحقق كل يوم جديدا ندعّم به حركتنا . وانتظرنا حتى انبرى الشعب مرة أخرى فخلع على حركتنا « المباركة » اسم « الثورة » . غير أن هذا الاعتراف لم يأت هذه المرة على ألسنة البُسطاء من الناس وحدهم وإنما جاء على لسان عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى مقالته الشهيرة بمجلة التحرير فى أول ديسمبر ١٩٥٢ حيث يقول : « لم أفهم إلى الآن لِمَ أظهر رئيس وقائد الجيش [اللواء محمد نجيب] فى بعض خُطَبه كُرْهه لكلمة الثورة وإيثاره كلمة أخرى يسمّى بها ما نحن فيه منذ كانت الأحداث الكبرى التى شهدتها مصر فى أواخر شهر يوليو الماضى وهى كلمة النهضة .. لقد أتيح لنا البدء فى هذه النهضة منذ ثلاثين عاما ، هذه النهضة التى بدأت مع هذا القرن أو قبله بقليل . فأما ما نحن فيه منذ يوليو الماضى فهو أعظم خطرا من النهضة كما ألفها الناس . ليس هو تطورا يحدث هيّنا ليّنا رفيقا فى ظل القانون والدستور . ليس شىء من هذا تطورا ، وليس شىء من هذا ملائما لما كانت مصر تخضع له من نظام مقرّر مألوف ، وإنما هو خروج عنيف على هذا النظام ومحاولة عنيفة لتغييره جملة أو تفصيلا . وليس للحركة التى تخرج على النظام بالقوة وتريد تغييره بالقوة أيضا ، وتخلع ملكا وتولىّ ملكا طفلا وتعلّق نظام المُلك بين الأرض والسماء ، ليس لهذه الحركة اسم إلا الثورة . وحقيقة الواقع أننا نحيا فى ظل الثورة التى تريد تغيير النظم السياسية والاجتماعية التى ألفناها ، تُبقى منها ماتراه خيرا يستطيع البقاء ويلائم الإصلاح ، وتُلغى منها ما تراه شرا لتضع مكانه نُظما جديدة أجدر أن تحقق العدل السياسى والاجتماعى .. » . وليس طه حسين

ممن يلقون القول جزافا أو على عواهنه ، بل إنه يدرك بواطن الأمور وخفاياها وحقيقة مسمّياتها ، وكان إطلاقه اسم الثورة على « الحركة المباركة » لا يبعد عن الحقيقة فى شيء ، وفى كتب السياسة والاجتماع ما يكشف لنا عن مدلولات تلك المسمّيات ، فالثورة كما تقول المراجع : « هى تغيير عام فى مدة محدودة ، وهو ما يباعد بها عن التطور التدريجى . كما تنشأ الثورات عامة عن عجز السلطة القائمة عن أن تدير دقّة الأمور مع الأزمات الطاحنة الشاملة التى تعمّ الطبقات جمعاء فتبلبل خواطرها وتثير نفوسها فتهبّ ثائرة ، وإذا ما تهيأ لهؤلاء الثائرين من يملك زمام الأمر منهم عن وعى ونُضج أطاحوا بالسلطة القائمة . وكلما كانت الثورة اجتماعية كانت أقدر ما تكون على القضاء على المتناقضات اقتصادية كانت أو طبقية ، تلك المتناقضات التى من شأنها أن تعوّق مسيرة التطور الاجتماعى . ويكون أشدّ الناس تأثرا بهذه الثورة وما تنطوى عليه من تغيير ، الجيل الذى يعاصرها وينفعل بها » . وهذا التعريف لا ينافى ـ فيما أرى ـ ما قامت به ثورة ٢٣ يوليه منذ أن قامت إلى أن امتد بها الزمن سنوات أربع ، ولا يستطيع مُنصف أن ينكره عليها . كما أن هذا الخلاف حول تسمية ما وقع فى الثالث والعشرين من يوليه ١٩٥٢ ، إنقلابا كان أم حركة أو ثورة ، لا طائل تحته ولا يمسّ الجوهر ولا الغرَض .

حقا إننا انطلقنا حاملين أهدافا ستّة لا تمثّل برنامجاً تفصيليا دقيقاً لكل منها ، لكنها كانت ترتكز على مفهومين أساسيين ، هما تخليص الوطن من قيود الاستعمار والاستغلال وردّ الاعتبار إلى الشخصية المصرية . ثم إن خلايا الضباط الأحرار قد تجمّعت من رجال مؤمنين بوطنهم وإن تنوّعت مشاربهم السياسية ورؤاهم الاجتماعية . فقد كان بيننا من تأثّر بالفكر الدينى أو بالفكر الماركسى أو بالفكر الليبرالى . كان بيننا من تربّى فى أحضان حزب الوفد ومن لقن السياسة فى حزب مصر الفتاة ، ومن كان عضوا فى جماعة الإخوان المسلمين . ومنّا من لم تكن تجربته السياسية إلا ارتشافا من الكتب الجادّة فى السياسة والتاريخ والاقتصاد . لقد كنا تلاميذ أساتذة الفكر السياسى فى مصر ، وقراء الصحف والمجلات التى تعنى بقضايا الوطن والإنسان المصرى ، وكنا نتابع نشاط الأحزاب المصرية فى دقة وأناة ، فلا عجب إن ألممنا بجميع الاتجاهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى مصر خلال تلك الفترة الخصيبة ، ولا غرو إذ كنا لداتَ هذا التراث السياسى ، عايشناه كما عايشنا الواقع المصرى بكل انتفاضاته وخلجات شعبه ، وإن غلب علينا التعبير عن

آمال الطبقة الوسطى المتعلّمة التى كنا منها ، وشاء القدر أن يضع فى أيدينا السلاح الذى نشارك به فى تحقيق ما نادى به حَمَلةُ القلم . لم نكن خلايا معزولة عن الشعب ولا عن فِكْره وأمانيه ، بل كنا أداته المحقّقة لتطلّعاته . حقا لم نكن أصحاب إيديولوچية محدّدة لأننا لم نكن حزبا سياسيا يعدّ نفسه للوصول إلى كراسى الحكم ، غير أنه كانت لنا مبادىء لا يمكن أن تستخفى وراء الغموض ، بل كانت أكثر وضوحا من أن يختلف عليها اثنان .. وما كان من الممكن أن يخرج فى ليلة ٢٣ يوليه هذا العدد من ضباط الجيش المختلفى الاتجاهات والميول السياسية حاملين رءوسهم على أكفّهم وهم يسعون إلى أهداف غامضة إلا إذا كانوا نفراً لا يجمع بينهم رأى جامع ، بل يعشّش فى وجدانهم بلهٌ غريب . وأستطيع الزعم بأن الثورة قد خطت ـ ولا أقول حقّقت ـ خطوات جادة مخلصة نحو تنفيذ خمس من مبادئها خلال أعوام أربعة ، وإن لم تنفّذ الهدف السادس وهو إقامة حياة ديمقراطية سليمة ، على الرغم من محاولات جادة بُذلت لتحقيقها ، فكانت تتربّص بها التيارات المضادة الجارفة ، فليس ثمة ما هو أنكى على الحرّية من ثورة ناجحة تنكصُ على أعقابها .

أما عن تجربتى الخاصة فقد كانت عن إلمام بشتى المذاهب قارئا ثم دارسا على أيدى أساتذتى بالجامعة ، وإذا أنا بعد هذه القراءات وتلك الدراسات أجدنى صاحب رأى « انتقائى » مستقل بين هذه الآراء المختلفة تُمليه ميولى الليبرالية ، فأخذتُ من هذه المذاهب ما اقتنعت به ، واطّرحت جانبا مالم أرتضه ، وانتهيت من ذلك إلى أمرين : أولهما أن تكون الدولة فى جميع مناحيها « دولة رعاية » على نحو ما نادى به فلاسفة السياسة والاقتصاد بدءا بستيوارت مِلْ وانتهاء بأولوف پالمه ومرورا ببسمارك وهنرى فورد . وثانيهما الالتزام بالجمع بين الأخلاق والسياسة ، لا كما يُقال إذا دخلت السياسة من باب خرجت الأخلاق من باب آخر . فالفرد كما يمتّ إلى الدولة بسبب ، كذلك الدولة تمتّ إليه بأسباب ، وما للفرد من صحة وعافية وفطرة وخُلق بل ورأى ، هذه كلها تتأثر أراد أم لم يرد بالمناخ الذى هيّأته الدولة له . غير أن فى أعماق كل إنسان بذرة روحانية لا تستطيع يد الدولة أن تمتد إليها مهما حاولت ، لأنها أعصى ما تكون على الاستئصال . وهذا ما عليه المفكرون بدءا من سقراط وانتهاء برولز ونوزيك ومرورا بچان چاك روسو وچون لوك .

وأنا مع القائلين بأن يكون الدستور الأخلاقى الذى يسود الأفراد أخطر شأنا من الدستور السياسى ، ومن هنا كان صحيحا تشبيه الفرد بالشمس والدولة بالقمر الذى يستمد نوره من الشمس ، فإذا غريزة « الانتماء » تولد فى النفس وتنمو مع الأيام شيئا فشيئا حتى تؤتى ثمرتها جهدا وتضحية بلا حدود .

على أن لى رأيا أرجو ألا أكون فيه بعيدا عن القصد فى تحديد الفترة التى يمكن أن نطلق عليها « عهد الثورة » التى بدأت فى ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، أهى تمتد إلى رحيل الزعيم جمال عبدالناصر عام ١٩٧٠ ، أم أنها انتهت حقا قبل ذلك ؟ وفى رأيى أن ثورة ٢٣ يوليه لم تتجاوز شهر يونيه ١٩٥٦ حين جرى الاستفتاء على دستور ١٩٥٦ وتولّى جمال عبدالناصر رياسة الجمهورية . فلقد نشأ بهذا الدستور « نظام سياسى » جديد ذو ملامح محدّدة هى « مركزية السلطة » authoritarian ، نظام يجمع السلطة كلها فى يد رئيس الجمهورية دون غيره ودون مساءلة دستورية حقة أمام الشعب . ومن الإنصاف أن نقول إن هذا النظام هو أحد أنظمة الحكم المقننة ، ومن ثم فلم يكن من ابتداع عبدالناصر أو صنعه . هذا إلى أن عبدالناصر لم يدّع يوما أن أسلوب حكمه أسلوب ديمقراطى بمعناه العام . ثم لقد كان يؤمن ـ ولكل أن يؤمن بما يراه ـ أن مثل هذا النظام الذى اتخذه هو الكفيل بأن يحقق ما يصبو إليه من آمال لخير الوطن .

ولقد كان مجلس قيادة الثورة إلى أن نُحِّى الرئيس اللواء محمد نجيب عن رياسة الجمهورية ـ التى كان أول رئيس لها ـ فى نوفمبر عام ١٩٥٤ له وجوده الفعّال ، ولأمر ما جمع عبدالناصر بعد ذلك الأمور كلها فى يده بتفويض من مجلس قيادة الثورة ، فغدا مجلس الثورة ولا مشاركة حقة له فى الأمر . ولكننا لا ننسى لهذا المجلس ما قام به قبلُ من إنجازات وطنية جليلة طوّرت الحياة المصرية تطويرا جذريا جديدا خرج بها من عهود مظلمة إلى حقبة وضّاءة .

ومن هنا كان لنا أن نقول إن « عهد الثورة » كان ثمرة لإرادة جماعة من الثوّار ثاروا لمبادئهم الستة المعروفة ، وإن « عهد مركزية السلطة » مردّه إلى عبدالناصر مبنى ومعنى ، إيجابا وسلبا . وبهذا يكون « عهد الثورة » هو مرحلة توطيد أركانها بتصفية المعارضة الموجّهة ضدها سواء من اليمين أم اليسار أم الأحزاب السياسية ، وتتبّع خصومها فى مؤسسات الدولة ، كما أنه فترة

الاهتمام بقضية التحرر الوطنى وتحقيق الاستقلال السياسى والبدء فى الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى بإصدار قانون الإصلاح الزراعى وإسقاط نفوذ كبار الملّاك الزراعيين . وقد تم ذلك كله بأسلوب التجربة التى قد ينتابها الخطأ ، واعتماد « التوفيقية » أحيانا فى تبنّى المشروعات الإصلاحية.. ولا غرو فقد كان قادة الثورة أنفسهم أمام مسئوليات كبرى وهم بعدُ شباب فى مقتبل العمر لم يخوضوا من قبل تجربة فى مناصب الحكم ولم يُدرَّبوا على ذلك فى حزب سياسى .

وليس ثمة ثورة لم تجد من يكون لها ومن يكون عليها ، فهذا شأن الثورات جميعا . فالثورات عامة لا تخلو من أن يُضار بها نفرٌ ليس عن عَمْدٍ منها ، ولكن تلك طبيعة ما تُحدثه من تغييرات اجتماعية من شأنها أن تثير هؤلاء عليها فكرا وسلوكا . وما من شك فى أن جمال عبدالناصر كانت له صفة الزعامة القوية ، وما من شك فى أنه كان فى وطنيته مضرب الأمثال ، وفى نزاهته وطهارة يده قدوة تُحتذى ، وفى عفّة نفسه أبيّا لا يلين ، ثم ما من شك أيضا فى أنه قد أزاح عن مصر كابوس الاستعمار ، فخاض معارك ضارية لا يستطيع خوضها غيره مع الاستعمار البريطانى والفرنسى القديم ثم مع الاستعمار الأمريكى الجديد ، إلى أن تكاتف عليه هؤلاء وهؤلاء بغية القضاء عليه ، وإذا قوى التسلّط الخارجية ـ التى عهدناها دوما تناوىء كل حاكم جاد يقوم فى مصر أو فى غير مصر من بلدان الشرق ـ لا تترك فرصة تسنح لها للنيل منه بشتى الوسائل والأساليب إلا انتهزتها ، وإذا هم آخر الأمر يبلغون ما يريدون . لقد كان عبدالناصر بحق القوة الدافعة وراء ما نالته مصر الحديثة من وزن عالمى كبير وما حدث فيها من تطور اقتصادى اجتماعى لا سبيل إلى إنكاره ، فلقد أرسى قواعد جديدة للنهضة اجتماعيا وسياسيا وحضاريا ، وحسبه ما قدم فى ميادين التصنيع والزراعة والتعليم وإعادة توزيع الدخل وتحرير الاقتصاد المصرى من سيطرة رأس المال الأجنبى ، كما كان على الدوام نصيراً للمهضومين ففكّ عن الطبقات المستضعفة ربقتها ، كما أتاح لها الفرصة إلى مستقبل أنضر كان يُعدّ من قبيل المستحيلات . وكان أقصى أمله أن يرى العرب أمة واحدة قد اجتمع شملها فى كيان واحد ، بعد أن حظى الإنسان المصرى والعربى عامة على النطاق العالمى باحترام لم يكن له من

قبل . هذا فضلا عن إنجازاته الأساسية الخالدة مثل قانون الإصلاح الزراعى ، وتأميم قناة السويس ، وتشييد السد العالى ، وإحقاق عروبة مصر ، وإقدامه على تحقيق وحدة بين مصر وسوريا غير أنها ما لبثت أن أجهضت ، وتأييده الإيجابى لحركات التحرر وتقرير المصير الأفريقى ، إلى غير ذلك من مآثر جليلة سجّلها التاريخ ولا يستطيع أن ينكرها إلّا جاحد . وما إخال جمال عبدالناصر وسط ما أحاط به من شدائد وأعاصير قد غاب عنه ما قاله أرسطو قديما من عبارة مأثورة : « ما خطر ببال متطلّع إلى أن يقود أمّته أنه سوف يعيش فى رغد وهدوء ، فالطريق إلى السيادة مملوء بالشوك والقتاد » . كما لا إخاله قد غابت عنه قولة بنيتو موسولينى المعروفة : « على القادة أن يتجشّموا المخاطر Vivere Pericolosamente » .

ولكن الضائقين به ممن مسّهم منه ضُرٌّ فى جاههم أو مالهم نتيجة للتغييرات الثورية أو كانوا على رأى سياسى غير رأيه ، أو حصلوا على مغانم لا تُعدّ ولا تُحصى فى عهد من خلفه ، لم يروا فيه إلا شيطانا رجيما لم يجىء على يديه خير ما ، وكأنّى بهؤلاء لم يروا عبدالناصر وإنجازاته إلا وعلى أعينهم منظار أسود ، بينما الحقيقة لا يُفصح عنها إلّا ما هو كُلّى لا جزئى ، فكثيرا ما تكون الجزئيات مشوِّهة لكُنْه الحقيقة . والتعميم كذلك ليس من منطق التاريخ ، فليس ثمة ماهو حُلْو بحت ولا ماهو مُرّبحت ، بل ثمة أيضا ما بين هذا وذاك . وكذا الرجال لا يكون كل ما يصدر عنهم خيرا كله ولا شرّا كله ، فالخير والشر ممتزجان لا يفترقان ، تمازج الخيط الأبيض بالخيط الأسود لُحمةً وسدى .

وإذا كان ثمة فريق ممّن استعان بهم عبدالناصر كانوا على مستوى كبير من الوطنية والشرف والكفاءة تمّ على أيديهم الكثير مما تحقق من إنجازات هامة فى عهده لا سبيل إلى إنكارها ، فلقد كان إلى جانب هؤلاء نفرٌ كانت عليهم تبعة الكثير من السلبيات التى نُسبت إلى تلك الحقبة . وفى علمى أن بعض هؤلاء الذين كان يُوليهم ثقته كانوا يعرضون بعض الأمور التى يرفعونها إليه مُعَمَّاة مزيّفة بما يتفق وهواهم وتحقيق أغراضهم . وقد يقال إنه ليس غريبا أن يقع الحكام فى مثل هذا لاسيما إذا كانوا يحملون أعباء ثقالا كثيرة تحول بينهم وبين النظر فى كل دقيقة من الأمور . ولكنا لا ننسى ولا نحب أن ننسى

أن الحكام مهما ثَقُلت تبعاتهم فهم المسئولون الأُوَل عن كل ما يجرى على أيدى أتباعهم ، ولا يشفع لهم أن يقال إنهم ما كانوا يدرون مما يجرى حولهم شيئا ، فتلك أنكَى وأمرّ . ومن هنا كان على الحكام الذين يحملون مثل هذه الأعباء الجسام أن يكفلوا لشعوبهم ـ التى التفّت حولهم وألقت بمقاليد الأمور بين أيديهم ـ ضمانات تحول دون تسلّط أمثال هؤلاء على مصائرهم .

وفيما عدا حَفْنة من خصوم عبدالناصر لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة عدّا ، التزموا بمواقفهم لم يحيدوا عنها أولا وآخرا حين كانوا موالين لعبدالناصر ثم حين كانوا مخالفين له فى الرأى إبان حياته ، يعلم الله أن من بين الكتّاب الذين يهاجمون الثورة وعبدالناصر الآن مَنْ كانوا على غير هذا فيما سبق بل كانوا يؤيدونه حقا وباطلا حتى لقد كادوا يؤلّهونه . وخير دليل على ما أقول ما جاء بأقلامهم فى الصحف التى كانوا يكتبون فيها ، ومن شاء فليرجع إليها . ولكن المسار لم يكن ممهّدا لهم جميعا على طول الخط ، فإذا عبدالناصر يستبعد بعضهم الواحد تلو الآخر بعد أن انكشف إليه أمرهم ، وما إن انتقل إلى جوار ربّه حتى انقضّوا عليه بكل ضراوة . وما لبث أن انضم إليهم رعيل من الناشئين أغراهم وبهرهم ما حظى به أساتذتهم من مال أو جاه أو نفوذ مؤخرا فمضوا على الدّرب نفسه . وليس بجديد على الحياة أن نرى من كانوا يصفّقون لعبدالناصر حيّا قد انقلبوا عليه ميّتا ، فإذا المآثر كلها مثالب بلا استثناء . ولم يكن عهد عبدالناصر كله سيئات كما يصوّرون ، فعلى الرغم من أولئك الضالعين فى النيل من عهده ، وعلى الرغم ممن وراءهم ، فلا ينكر منصف على « الثورة » ونظام « الحكم الناصرى » إيجابياتهما . إن المرء ـ لاسيما الجيل الناشىء ـ ليحُسّ وهو يطالع تلك الافتراءات أنه لم تكن فى تلك الحقبة زهرة نضرة بل كانت كل الزهرات ذابلة يابسة . ورسالة الكاتب المنصف أن يتناول الأمور بميزان عدل حتى نعطى كل ذى حق حقه لرجال سبقوا إلى رحمة الله ، لكى يبقى الوطن تربة طيبة تجود بالأبطال على مرّ الأزمان ، وإلّا نكون قد كتبنا على أنفسنا أن نعيش أمة لا بطولة فيها .

وما أنا بمتهِّم للكُتاب جُملةً ، بل إنى لأومن الإيمان كله بأن بينهم فى القديم والحاضر من كانوا حَمَلة أقلام طاهرة غير مغرضة ، فلم يستحسنوا من

ـ عبدالناصر إلا ما كان حسنا ولم يستقبحوا منه إلا ما جانب الحق . ثم
على هذا وذاك لم يتَّهموا بالرياء حين أثنوا عليه فرفعوه إلى مرتبة عالية
حياته ، ولم يهبطوا إلى السوقية حين عابوا عليه بعض ما كان بعد مماته .

هل آن الآوان أن نطوى صفحات الماضى بما فيها من خلافات
ـومات ، ونكفّ عن هذا التنابذ والتخاصم والتشهير والتشاتم ، تلك الأمور
لا تليق بأمة لها كيانها الحضارى وماضيها التليد ، فلقد كادت البغضاء
البعض والبعض منا أن تكون أشدّ من البغضاء لخصومنا الألداء الذين
صون بنا الدوائر . والتاريخ يحدّثنا أنه ما من أمة مُنيت بخلافات داخلية
هذا القبيل إلا كان نصيبها الخسارة والضّياع . فواجبنا الذى يُمليه الضمير
ىّ المُفعم بالحب لمصر أن نفتح صفحات جديدة لا يُسطر فيها إلا ماهو ودّ
ـاء وصفاء ، ونطرح جانبا ما هو مدعاة للفُرقة والشقاق .. فنجمع الحبّات
ـناثرة فى عقد واحد والأطراف المبتورة فى جسد واحد ، لا تنابذ ولا
ـحن لبناء هذا الوطن الذى هو أحوج ما يكون إلى أيد متضامّة وقلوب
ـمعة ، حتى لا نمكّن أعداءنا من أن ينالوا منا متفرّقين ؟ وما أظن هذا على
ببعيد .

على أن كونى واحدا من المشاركين فى ثورة ٢٣ يولية لا يجعلنى أقف
ا موقف المدافع عن مسلكها وعن جميع ما اتخذته من قرارات إن خيرا
ـ شرا . إنى أومن بها حقا وأكِنُّ لقائدها الغالى الحب والوفاء والتقدير ،
ـد منحتها الإخلاص الذى هى به جديرة ، وأومن أيضا أنه مما يشين أن
ـق فى المياه التى شربنا منها ، ولكن إذا كنت أعترف بأنها حقّقت من
نجازات ما أحدث أثره لا فى مصر وحدها ولا فى المنطقة العربية فحسب
عبر العالم الثالث كله ، فإنى أعترف أيضا أنه خلال فترة « الثورة » وخلال
ـترة مركزية السلطة » قد وقع فى عهديهما مالم يكن ينبغى أن يقع . وما قد
ه القارىء فى كتابى هذا من خلاف فى الرأى مع الرئيس جمال عبدالناصر
لعته ببعضه فى حياته ما واتتنى الفرصة وبعض آخر عَنَّ لى بعد رحيله ، فهذا
يعنى انتقاصا للودّ الذى كنت ولا أزال أضمره له .. والخلاف فى الرأى
يعة الوجود ولا يستقيم وجود دونه .

وإذا كان هناك من مأخذ بعد استتباب الثورة واستقرارها فهو منهج الحكم

الذى ترسّخ خلال فترة « مركزية السلطة » . فعلى الرغم مما حققته من إنجازات اجتماعية واقتصادية شامخة رائدة ومواقف رائعة فى السياسة الخارجية خاصة إلا أنه قد صحبها ما جنح بها حيناً عن سواء السبيل . وهو ما يفسّره قول الوزير الإنجليزى الأسبق أنطونى ناتنج : « كما كانت إنجازات عبدالناصر شامخة عملاقة ، كذلك كانت سلبياته مأساوية جسيمة » . ومن طبيعة الكثير من الثورات أن تتعجّل خطى مسيراتها فتتبنّى عن صدق وعقيدة الحكم المطلق ليكون مطيّتها إلى أهدافها الكبرى ، متصوّرة فيه سلامتها وسرعة تحقيق إنجازاتها ، وهنا تخطىء خطأ جسيما فى حق نفسها وفى حق الأجيال التالية ، لأنه المكمن الذى يُؤتَى منه الحَذِر . إنه كعب أخيل الذى ينبغى أن يكون درسا نافعا لبناة المستقبل . فالسلطة المطلقة بسحر إغرائها كلما رشف منها الحاكم ـ أى حاكم ـ مُتْعة فجّرت فى أعماقه ظمأ جديدا ، فثمة ذِرْوةٌ خفيّةٌ تستحثّه أن يَبْلُغَها ، كما أن السلطة فيما يقال مدعاةٌ إلى الانحراف ، والسلطةُ المطلقةُ مدعاةٌ إلى الانحراف المطلق .

وإنى لأرى أن أكثر أخطاء الثورة على امتدادها لم تكن وليدة الحاكم نفسه بقدر ما كانت وليدة منهج الحكم الذى يشكّل بيئة تترعرع فى تربتها قوارض النماء . لقد أضاع أسلوب الحكم من الزعيم جمال عبدالناصر فرصة لم تُتح لغيره ، فقد بلغ فى إحدى مراحل حكمه مرتبة أسكنته قلوب الجماهير المصرية والعربية بل والشعوب الأخرى ، حتى كانت تكفى إيماءة من سبّابته لتحرك نحوه الجموع طائعة مختارة . ولو أنه اطّرح عن نفسه النهج السلطوى آنذاك لسار بالشعب إلى ذرى آماله التى كان ينشدها . وإنى لأوقن اليوم ـ ولاسيما بعد أن أنضجتنى تجارب العمر ـ أن اطّراح الحكم الفردى هو طوق النجاة للأمم والشعوب بغير نزاع . فعلى الرغم من بُعد الشُّقة فى النظام الديمقراطى ومن أنه محفوف بالمكاره والمصاعب غير أنه يُفضى آخر الأمر إلى برّ الأمان ، وكأنّى بالمؤسسات الديمقراطية تؤدى دور الحَجْر الصحّى الذى يكبح جماح شهوة السلطة المطلقة المُزْمن ، وهو دور لا غنى عنه رغم ما قد يعتور إجراءاته من بطء وإثقال . على أنه من الإنصاف أن أسجل أيضا أن عبدالناصر قد فطن إلى ذلك بأَخِرةٍ على نحو ما سيرى القارىء بعدُ ، لكن العمر لم يمهله للأسف كى يمضى إلى طريق « الخلاص » .

ومحالٌ أن يكون ثمة نظام سياسى ديمقراطى فى ظل السنين الأولى للثورات ، والتاريخ خير شاهد على ذلك ، إذ لابد للثورات من فترة يُرخَى لها فيها لتحقّق أهدافها التى قامت من أجلها ولتُرسى مبادئها بما تتناوله من تغييرات اجتماعية واقتصادية تحقق للأغلبية وجودها حتى لا يكون للأقلية الطبقية بعدُ فرصة للهيمنة عليها . وما إن تنتهى هذه الفترة حتى يُردّ الأمر إلى الشعب ليختار نظام الحكم الذى يرضاه . ولعل إرخاء عبدالناصر للفترة الثورية كان مبعثه ومبرّره ذلك التأييد الشامل الجارف الذى حظى به لا فى مصر وحدها بل فى شتى الأقطار العربية جمعاء تقديرا لزعامته وإيمانا بأنه الرجل الذى جاد به الزمن ليخلّص مصر بل الشرق من قبضة الاستعمار . من أجل هذا اطمأن الناس به حاكما ثوريا وتجاوزوا عما جاء فى عهده من سلبيات مرّ بعضها فى ثنايا هذا الكتاب ، سُقتها لتكون لنا عظة وعبرة كى لا نقع فى أمثالها فى حاضرنا ومستقبلنا . والتاريخ يحدّثنا أنه ما من عهد هنا وهناك على مرّ الأجيال والأيام خلا من سلبيات ، وهل مِنّا مَنْ هو معصوم من الخطأ ، فما أصدق قولة المسيح عليه السلام : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » ، ثم ما أصدق قوله أيضا ، إنه قبيحٌ بالمرء أن ينظر إلى القذى فى عين أخيه ولا ينظر إلى الخشبة فى عينه . فمن منّا من ليست له زَلّة ، غير أن ثمة فرق بين زَلّة تجىء عن عَمْد ودراية وزلة تجىء عَرضَاً وعفواً . ويُخيّل إلىّ أن العمر لو امتد بجمال عبدالناصر لعالج تلك السلبيات وردّ الأمور إلى نصابها الحق الذى كان ينشده ويبغيه ، ولآمن قبلى بما أقوله الآن وجرى على لسانه ما يجرى به لسانى ، فما كان يجرى فى الخمسينات والستينات يستحيل جريانه فى الثمانينات والتسعينات ، والأزمان تمرّ ومع مرور الأزمان تختلف الظروف والأحوال .

وما من شك أيضا فى أن العنف الثورى ظاهرة تعايش الثورات أنّى كانت ، إذ لا مناص للثورات من أن تحتاط من خصومها لتأمن انقضاضهم عليها . وقد تتفاوت درجات هذا العنف من ثورة إلى أخرى لوفق ما ينزع إليه خصومها . والرأى السّوىّ أن هذا العنف يجب أن ينتهى إلى غاية لا يتجاوزها حسب ما تفرضه الاعتبارات الإنسانية . ولقد كان شعار الثورة المصرية حين قامت أنها ثورة بيضاء ولهذا لم تُرِقْ فيها دماء ، ولم تصحبها ما صحب غيرها من مذابح ،

وإذا هي تضطر مع مرور الأيام إلى مسلك آخر ظنّته أرفق بالخصوم وأرحم حين زجّت ببعضهم إلى المعتقلات للحيلولة بينهم وبين ما يبتغون من ضرب الثورة وإفشال ما رسمته من أهداف ، فإذا هذا اللون من التحفّظ يتحوّل ـ على أيدى زبانية وجلّادين محترفين تبرأ منهم الثورة وثوّارها ولم يسلم عهدٌ من أمثالهم ـ إلى إهدار للإنسانية . وما أظن هذا الذى لحق المعتقلين كان مما يجيزه أحد ، بل لقد وقع على أيدى نفر مرضى القلوب غلاظ الأكباد يفقدون كل مقوّمات الإنسانية ، بهم ظمأ إلى الشرّ وإلى النيل من الضعفاء والتهوين من كرامات الناس ، فلا يمكن أن يخال أحد أن تمضى أجهزة الأمن على اختلاف ألوانها وأسمائها على ما ألفناه عنها قبلُ من عنف وقسوة على أيدى شِرْذِمة من النهّازين المتسلّلين يتظاهرون أمام الناس بأن القوة فى جانبهم وهم فى حقيقة الأمر ضعاف النفوس ضمائرهم خواء . فكانوا أشبه ما يكونون بالجراثيم الخفيّة تبثّ سمومها الفتّاكة التى لم يتضح أثرها الشائن المعيب إلا بأَخِرَة حين كُشف الستار عن تلك الخبايا الرهيبة البعيد على عقل عاقل أن يتخيّلها أو يُجيزها . فما خرجنا يوم خرجنا نحمل رءوسنا على أكفّنا لنحرّر شعبنا من عبودية الاستعمار والسلطة المتعاونة معه لنردّهم مرة أخرى إلى الرقّ والهوان .

ومن أسف أن مثل هذه الأمور لا تسىء إلى القائمين بها فحسب ، بل إلى النظام كله . ومن أسف أيضا أن الثورات ـ كل الثورات ـ تحفلُ بما يَشينها فى نظر الناس ، إذ هى بما يتسلل إليها من أمثال تلك الجراثيم أشبه بالصورة الشاعرية التى رسمها هاينريش هاينى حين قال : « ما أكثر ما تجتذبنا الثورات إليها بروعة هالاتها السحرية عندما نقرأ عنها كلمات أنيقة مُبهرة ، فتكون أشبه ما تكون بالمشاهد الطبيعية الجذّابة المصوّرة على ورق مصقول ، موحية بالصفاء والأُلفة . غير أنك مع الصورة لا يبلغ أنفك منها عفنُ أكوام الرَّوْث ، ولا تقع عينُك فيها على راكد مياه المستنقع » .

كذلك يتساءل الناس لِمَ لَمْ تمض الدولة فى السبعينات فى معاقبة أولئك الجناة جميعهم الذين أساءوا إلى الثورة بتنكيلهم بالناس شرّ تنكيل بعد أن أزيح الستار عن أفعالهم ، فإذا هى تتنكّب السبيل وتكيل بكيلين ، تُدين بعضاً وتغمض العين عن بعض عن عمد ، لا لسبب معقول ولكن لأمور خفيّة لا تزال

مستورة . وما من شك فى أن المؤرخ المُنقِّب سوف يكشف النقاب عنها يوما .

ولقد كنت إبان السنوات الأربع التى كانت عمر « الثورة » ضابطا بالقوات المسلحة ، إلى أن ارتأى جمال عبدالناصر مع قيام نظام « مركزية السلطة » فى يونيه ١٩٥٦ أنه لابد من إعفاء الضباط الأحرار ـ وكان عددهم لا يتجاوز التسعين ـ من الخدمة العسكرية حتى لا يجمعوا بين النقيضين : الجندية والسياسة . ثم شاركت فى نظام « مركزية السلطة » فكنت فيه سفيرا بروما فى الفترة من أكتوبر ١٩٥٧ حتى أكتوبر ١٩٥٨ ، ثم وزيرا للثقافة مرتين ، الأولى من أكتوبر ١٩٥٨ إلى سبتمبر ١٩٦٢ ، والثانية من سبتمبر ١٩٦٦ إلى نوفمبر ١٩٧٠ . وهكذا مكثت سفيرا لمدة سنة أو تزيد ، ووزيرا للثقافة مدة سنوات ثمانى تفصل ما بينهما سنوات أربع كنت فيها رئيسا لمجلس إدارة البنك الأهلى المصرى . ويعلم الله أنى ما سعيت فى أمر من أمور حياتى إلا فى اثنين أولهما اختيارى الكلية الحربية دون غيرها من الكليات ، ثم اختيارى أن أعكف على دراسة الأدب والفن دراسة أكاديمية . أما ما عدا هذا فيعلم الله أيضا أنه لم يكن عن رغبة منى وإنما كُلِّفت به تكليفا ، وأحمد الله أننى كُلِّفت بخدمة الثقافة بعيدا ـ إلى حدّ ما ـ عن الانخراط فى معمعة الصراع على السلطة بما تزخر به من تيارات متنافرة .

وكان لزاما علىّ أن أكتب فيما أكتب عن وزارة الثقافة وعن عهدى بها ، لا إطراء لعمل أدّيته ولا نَيْلًا من عمل غيرى ، فإن كل ما أهدف إليه أن أضع الحقائق بين أيدى الناس تنطق وحدها بما هو لى وبما هو علىّ فى حقل العمل الثقافى . ووجدتنى مدفوعا إلى أن أعرض لقضايا فكرية بينها وبين الثقافة صلات وثيقة ، وكنت فيها على خلاف أحيانا مع آخرين . وقد أدركت أول ما أدركت أن من أولى مهامى أن أجمع مِنْ حولى مَنْ لهم كفاياتهم الممتازة للاضطلاع بما يُسند إليهم ، ولم يكن هذا بالأمر اليسير ، بل كان لابد من تؤدة وأناة . وما أدّعى أنى قد وُفّقت كل التوفيق فيمن اصطفيت فلقد بدا من البعض ما خيّب ظنّى ، ولكن حسبى أنى قد ظفرت بجمهرة من الكفايات المناسبة فى الوقت المناسب ، مهّدتُ لهم السبيل ليعملوا معا فى توافق وانسجام . وأعتذر للقارىء إذا كنت قد فصّلتُ فيما عرضت من أمور العمل الثقافى تفصيلا فيه إسهاب ، ولكن كان لابد من هذا الإسهاب حتى لا يكون

ثمة لبسٌ ولا يكون ثمة مجالٌ لمدّع أن يدّعى ما ليس له . وليس لأحد أن يستهين بما كان لمن سبقوا من تجارب ، فما جاءت تجارب السابقين إلا عن بذل غال استرخصوا فى سبيله ما يملكون من جهد ونفس لايبغون عنه عوضا ولا أجرا . وسُنّة الوجود أن ينتفع الخلف بما ترك السلف وأن يهتدى الحاضر بتجارب الماضى حتى لا يضلّ فى دروب المستقبل .

وما أكثر ما يخلق المسئول لنفسه خصوما مع كل قرار تخطّه يمينه ، فهو بين اثنتين : إما أن يجمد فى مكانه لا يعمل شيئا ، وبهذا قد ينال رضا الناس جميعا ، وإما أن يمضى فى تحمّل المسئولية كاملة ، لا يعنيه رضى البعض أم سخطوا مادام يُصدر فيما يُصدر عن إيمان بأن ما يفعله هو الحق والواجب . وكان هذا شأنى مع البعض ، فكم ثارت خصومات لا لهدف ذاتى ، بل لقرار آمنتُ به استملاء من الواجب وحده فأغضبهم . وكم رأيت من طامعين يرغبون فى المزيد ولا يقنعون بما نالوا ـ وكان فوق ما يستحقون ـ ولم يكن تحقيق رغباتهم مما يتفق وواجب المسئولية ، فالمسئول وإن كان بمِلْكِه أن يفعل ، لكن ثمة واجب يحدّ من فعله . فإذا أنا أخسر بالتزامى بالواجب أفرادا ممن كانوا أصدقاء ، وإذا أنا أراهم بعدُ من أشدّ الناس جحودا وإمعانا فى الخصومة . وهكذا كان لى مع جهودى أصدقاء وأعداء ، وهذا شأن كل عامل ، فمع السكون تنمحى العدواة ، ومع الحركة يتبيّن العدو والصديق .

وما أكثر من أساءوا إلىّ دون سبب أعلمه ، منهم من عادانى مُعلنا عن عداوته دون مواربة وما ضقتُ بمثلهم ، ومنهم من كان يواجهنى بغير ما يُخفى فيلقانى مُثْنيا وإذا ما غاب عنّى أطلق لسانه هاجيا ، ومنهم من كان يدسّ لى فى خفية ، ومنهم من أوليتهم ثقتى وقرّبتهم إلىّ فإذا هم بعدُ عيونٌ علىّ أحَبّ شىء إليهم الغدر بى . فما أصدق حكمة أمنمحات حين قال : « هكذا كان من أكل خُبزى هو أوّل من تنكّر لى ، ومن مددتُ له أنا يدى بالخير هو أوّل مَنْ مدّ يده إلىّ بالشرّ » . وإنى لأصدق القارىء فأقول إنى كنت على وشك أن أضيقَ بهؤلاء غير أنى سرعان ما كنت أستعيد هدأتى حين أذكر قول جبران : « عيشوا نهبا لغشّ الغاش وخداع الخادع . أجل كونوا صيداً للخديعة وارتموا فى حبائلها ولو سخر منكم الناس .... فليس هذا كلّه بضائركم » .

وأخيرا فإذا أحسّ القارىء أنى لم أذكر بعض من أعرفهم بقليل أو كثير ، فليس هذا عن تنقّص لشأنهم وما بذلوه فى سبيل الوطن ، وإنما لقلة ما بين يدىّ عنهم من معلومات تعيننى على أن أذكر ما لهم . ثم أنا فيما أكتب لم أقصد أن أقف موقف المدافع عن نفسى أو أن أضيف إلى جهودى جهدا لم أفعله ، فما هى إلاّ ذكريات رجل أدّى واجبه وتحمّل مسئوليته على قدر ما استطاع فحسب ، فيها ما لى ، وفيها ما علىّ ، وإنه لتخالجنى رغبة شديدة فى أن أُسرّ إلى القارىء بما رآه بعض المعارف والأصدقاء ممن أثق فى أمانتهم معى من عيوبى الذاتية . فقد ذهب أحدهم وهو صحفى مرموق إلى أن بى عصبية فائرة ، وأننى منطو على نفسى متقوقع لا أخرج إلى الناس إلا حين أكون مدفوعا إلى ذلك دفعا ، وأننى فى كثير من الأحيان أُصْدر أحكاما بالغة الحدّة ، ذلك أنى دون إحساس منى بالعداء أتصور الناس فريقين : أبيض وأسود .. مع منهجى أو ضدّه ، وهكذا .

وأضاف أستاذ جامعى جليل كان ومايزال قريب الصلة بى بأنى قليل التحفّظ مع الناس ، إذ أنى أبادر بمنحهم ثقتى دون أن أتبيّن حقيقة دخيلة أنفسهم وهو ما جرّنى إلى أن أضار من البعض ممن منحتهم ثقتى ، وهو أيضا ما يجعلنى بعد ذلك أسقطهم من حسابى دون رجعة ، فأبدو بذلك متقلّبا فى نظر الناس عنيفا . وما أظننى عنفت فى حياتى بادئا ، ولكننى لا أنكر أن هذا العنف الذى كان يبدر منى حينا كان دَوْما ردّا على إساءة لحقتنى .

وعزا هذا كله صديق آخر موصول كل الصلة بالسلوك الإنسانى إلى أن من صفات شخصيتى التطرّف مع رهافة المزاج ، ويسترسل صديقى فيقول إن هذه السمة كانت من الأسباب المباشرة لانطوائى وانعزالى ووقوفى عن مسايرة البعض من الزملاء إلا من كان مثلى نزعة وميولا .

وأقول إن هذا كله حق ، غير أنى آثرت أن أقدّم نفسى إلى القارىء بما رمانى به بعض معارفى وأصدقائى من عيوب ذاتية ، وأحمد الله أنهم توقّفوا عند هذا الحدّ فلم يُضيفوا مزيدا يوجعنى ، فلا يضير المرء أن يعرفه الناس بصفتيه : ما يُحبُّ منه وما يُكره فيه . وما أصدق هذا الصديق الأخير فيما وصفنى به ؛ فلقد أحسست منذ مشاركتى فى الثورة فكراً ورأيا وعملاً ، ثم فى

الوزارة التي تحملت أعباءها سنين ثماني أني كنت بين معظم رفقائي غريبا عنهم نزعةً ومشارب وميولا برغم اجتماعنا على أهداف متقاربة . وفي الحق أيضا إنه لم يكن من طبعي أن أكون محترف سياسة بل كنت فيما نهضت به ذا نزعة ثورية ، وبين هذا الطبع وتلك النزعة اختلاف .

ولعل القارىء يعرفني الآن بعض المعرفة قبل أن يرافقني خلال هذه السطور التي استغرقت ما يقارب نصف قرن ، والتي ستخرج بنا عبر حدود الوطن إلى بلاد أخرى تزخر بأمواج السياسة ، كما تزخر بمواطن جمال فنّي وأثري وطبيعي كانت ملاذي خلال عملي ورحلاتي بالخارج ، فنفذت بسحرها إلى وجداني حتى بتّ لا أملك الانسلاخ عنها . وفي ظنّي أن بعض من تشغلهم الشئون السياسية وحدها سيصرفون النظر عنها ويتعجّلون قلب صفحاتها . وشفيعي في إدماجها ضمن هذه السيرة أنني أعتقد أن البعض الآخر سيركن إليها كلما أثقلته هموم السياسة حتى يستروح في ظلالها بما يُعينه على العودة إلى الموضوعات السياسية ، وجفافها على النفس ثقيل .

وبهذا تكون هذه المذكّرات شقّين : واقع لا مسحة للخيال فيه ، يتناول الثورة ومشاركتي فيها وجانبا من حياتي العامة ، أعني حياتي الرسمية في مصر والخارج ، عسكريا ودبلوماسيا ووزيرا وكاتبا وعضوا بالمجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو . أما الشّق الثاني فتأملات قد يكون للخيال فيها نصيب ، أياما عشتُها بعيدا عن السياسة وخواطر عما شاهدته في أوربا . وهذا الخيال الذي أضفته لم يجيء من مجهول ، وإنما هو لا شك كان مُضْمراً في نفسي ، وما إن أخذت في الكتابة حتى فاض على قلمي . وما أصدق ميكلا نجلو حين كان يقول عن تماثيله إنه لم يُزِدْ على الحجر شيئا ، وإن ما يراه الناس بعد نحته إياها كان مستكنّا في جوف الحجر منذ الأزل ، وكل ما فعله هو أنه أزاح القناع عن السرّ الدفين .

الفصل الأول

تجربتي ضابطاً بسلاح الفرسان



١

شذرات من الأمس البعيد

منذ سنيّ الأولى كان أبى هو مناط حبى وإعجابى ، وكان أشوق ما يصبو إليه أن يرانى رجلا من رجال القانون . من أجل هذا مال بى إلى كلية الحقوق ، ولم تكن بى رغبةٌ إلى تلك الدراسة ، ولم تكن الشهور الستة التى قضيتها بتلك الكلية كفيلة بأن تجذبنى إليها ، فكم كنت أحمل نفسا تواقة إلى الأدب والفن . غير أنه لم يكن بعيداً عن ناظرى أيضا ما كان عليه جدّى وأبى ، فلقد كان كل منهما رجلا عسكريا (١) ، لهذا نزعت نفسى منزعيهما ، وإذا أنا دون علم من أبى ألتحق بالكلية الحربية ، وكأن القدر الذى قدّر لى هذا قدّره لكى أشارك فى ثورة وطنية . وها أنذا أخطّ ما أخطّه الآن لكى أسجل ذكريات تلك الأحداث تباعاً .

وكانت تجربتى فى الانتقال من حياة مدنية إلى حياة عسكرية صارمة مليئة بالمشاق ، كانت ولاشك تجربة حافلة بالدروس البناءة فى تنشئة الشخصية العسكرية من اعتماد على النفس واحترام للقوانين وطاعة للرؤساء ومنافسة شريفة وتعاون كامل مع الفريق وغرس روح الجماعة والشعور بالانتماء الذى

لا يفارق الرجل العسكرى مدى حياته . وكان لابد لنا أن نقضى فترة أولى بالكلية الحربية تسمى « فترة المستجدين » مدتها خمسة وأربعون يوما ، وإذا نحن بعد هذه الفترة قد ألفنا تلك الحياة العسكرية ولم نعد نبرم بها بل على العكس فقد أصبحت محبَّبة إلينا تجرى مجرى الدم فى شراييننا .

ولقد كان لنا فى كثرة من ضباطنا خير قدوة احتذيناها وأطيب مثل تمثّلناه ، حتى أنى ما أزال أذكر بتقدير كبير اللواء عمر الطنطاوى رحمه الله الذى تخرج على يديه جيل بعد جيل أعتقد أن بعضهم مايزالون لهم نشاطهم فى الحياة العامة متأثرين بما بثّه فيهم من قيم رفيعة وتغليب للنفع العام على النفع الذاتى . ولقد كنا جميعا ونحن نهاب فيه صرامته وشدّته محبّين له مطيعين لأوامره ، إذكنا نحسّ أن وراء هذه القسوة حرصا على تنشئتنا تنشئة سويّة صلبة لا تلين . كما لا أنسى اللواء محمد كامل الرحمانى قائد السريّة التى كنت فيها والذى كانت له مثاليته خلقا وعلما ونزاهة ، وكم كانت له من وقفات بعدُ فى الدفاع عن الشرف العسكرى والذّود عن القضايا الوطنية فى السّلم والحرب على السواء .

وفى أعماقى تحيا دائما ذكرى البطل الشهيد أحمد عبدالعزيز الذى كان يدرّس لنا التاريخ العسكرى ، فقد كنا نترقب محاضراته بفارغ الصبر مشوقين إليها لما كانت تحويه من معلومات شيقة وخبرة ثمينة نصغى إليها مبهورين . وكم كانت له من لمحات فى خلايا حديثه تؤجّج فينا العزيمة وتحفز على التضحية والفداء . ولقد كنت بين فريق الفروسية الذى اختاره للركوب الراقى [فريق الركبدارية كما كان يسمى وقتذاك] قفزا فوق السدود ومهارة فى استخدام السيف والمزراق لإصابة الأهداف .. وكنا نراه فى قاعة التدريس غيره فى ساحة التدريب ، فعلى حين كان فى الأولى ليّنا رقيقا كان فى الثانية حازما شديد القسوة ، فما كان يرحم مخطئا من عبارات التأنيب القاسية التى نالنى منها الكثير ، وهو ما ضقتُ به أول الأمر ثم مالبثت أن عدت راضى النفس بعد ما تبينت قيمة قسوته ونفعها لنا . ولقد رأيت فيه دوما التزاما بالرأى الذى يدين به فلا يحيد عنه مهما كلّفه ذلك من صعاب وتضحيات حتى بات مثلى العسكرى الأعلى . وما ننسى له أنه كان أول فدائى استقال من الجيش لتكوين « القوة الخفيفة » التى انضمّ إليها آخرون لمناهضة عصابات الصهاينة فى فلسطين قبل أن تعلن مصر

والدول العربية الحرب عليها ، ثم استشهاده فى سبيل مادعا إليه . وفى الحق لم يكن البكباشى أحمد عبد العزيز قائد فذّا و بطلا لايبارى وقدوة جديرة بالاحتذاء فحسب ، بل كان إلى جانب هذا معلّما يبثّ فى وجدان تلامذته أسمى المبادىء التى تخلق منهم رجالا على طابعه وشاكلته . وما طاف بخيالنا ونحن نوسده الثرى أنا غيّبناه فى باطن الأرض بل كنا نحسّ أننا قد نصبنا نُصبا عاليا يبقى شامخا مدى الحياة .

* * *

وعند التخرج من الكلية الحربية فى أبريل ١٩٣٩ كان ترتيبى الخامس بين زملائى المائة والعشرين فى الدفعة ، وكان من حق الستة الأوائل أن يُخيّروا فى السلاح الذى ينطوون تحت لوائه . وعلى الرغم من شغفى العارم بالانخراط فى سلاح الفرسان ــ وكان ذلك من حقى ــ فقد اخترت عندها أن أنضم الى كتيبة مدافع الماكينة الثانية التى كان موكولا إليها الدفاع عن مرسى مطروح ، وكانت الحرب العالمية الثانية على وشك أن تشبّ . ولعل إحساسى بهذا وحماسى وتوقعى لما سيكون هو الذى جعلنى أختار هذا الموقع ، وما كان أغرم الشباب بأن يشارك فى الدفاع عن الوطن . وكم أسعدنى أن يكون اختيار زميلى وصديقى [الفريق أول] محمد أحمد صادق هو عين ما اخترت . وما كادت أقدامنا تطأ هذه المنطقة حتى أخذنا أماكننا فى الخنادق المحيطة بمرسى مطروح التى كانت خط الدفاع الأول عن مصر .

وهناك التقيت بصديق مجاهد نبيل شريف عاش ومات على حب مصر هو الملازم محمد وجيه خليل . هذا الرجل الذى لم تتحرك فى نفسه قط بذرة الحسد ، إذ كان يولع بالشموخ أنى وُجد و ينعم بالبطولات حيث تكون . وإن المجال لا يفسح لى أن أذكر شيئا عن سيرته العطرة ، فلقد عرفته كارها للاستعمار ثائرا عليه ، لايدخر وسعا فى سبيل مناهضته . وحسبى دليلا على ذلك ما كان منه من تصدٍّ للبعثة العسكرية البريطانية ، وما كانت كرامته ولاوطنيته تسمح له بأن يقبل أى اعتداء على مايمسّ مصر والمصريين . وكان هو أول من فكر فى عام ١٩٣٩ فى تكوين مجموعة من الضباط الذين يدينون بمصر دينونته بها ، انخرطوا فيا أسماه « رجال الفداء » ، وكنت والأخ محمد أحمد صادق من أوائل من

انضموا إليه . وسرعان ما لحقت بنا جملة من الضباط الذين كانت قلوبهم تشتعل وطنية ، وصدر عن هذه المنظمة أولى المنشورات المحرّضة فى القوات المسلّحة .

ولقد بقى محمد وجيه خليل على ولائه للوطن الذى عهدناه فيه منذ أن كنا بحامية مرسى مطروح ، وما ألان من شكيمته ولا هوّن من عزيمته ما كان يلقى من ضربة بعد ضربة من الاستعمار والبوليس السياسى ، مما خطّ به فى صفحات التاريخ خطوطا بارزة هادية من نور تثير الحماس وتدعو الى الفداء وإنكار الذات . وكانت هذه المنظمة التى دعا إليها الصديق الراحل هى من غير شك النواة التى انبثقت منها شتى التنظيمات بعد ذلك .

و يشاء الله أن يلقى محمد وجيه خليل مصيره و يودعنا إلى الخلود فى معركة من معارك فلسطين المبكرة عام ١٩٤٨ . وكان ذلك حين رأى زميلا له هو كمال بشارة ميخائيل — على ما أذكر — سقط جريحا على الأسلاك الشائكة التى تفصل بيننا و بين إحدى المستعمرات الصهيونية وعزّ عليه أن يترك زميله مطّرحا كذلك ، فخف إليه بحمّالة مدرّعة على الرغم من أن الأوامر كانت قد صدرت إليه بوصفه أركان حرب الكتيبة بالانسحاب . ولكن شهامته أبت عليه إلا أن يخالف الأمر ، وإذا هو ينطلق نحوه فى جرأة خارقة ويحمله على كتفيه و يضعه فوق الحمّالة المدرّعة ، وما كاد يقفز إليها حتى أصيب برصاصات رشاشات العدو فلقى مصرعه . فاضت روحه الطاهرة وهو متشبّث بركن من أركان الحمّالة فأسرع السائق به و بزميله الجريح الى حيث مواقعنا . وهكذا استشهد وجيه خليل بطلاً كما كان طوال حياته بعد أن غرس فى نفوس الضباط الذين التفّوا من حوله بذرة الوطنية المتأججة والفداء .

* * *

و بعد قضائى عاما بمرسى مطروح نُقلت إلى سلاح الفرسان بالقاهرة حيث انتظمت فى سلك المدرعات التى أُغرمت بها وأصبحت شغلى الشاغل وموضوعى الأثير الذى أقرأ عنه كل مايقع لى من المجلات والكتب العسكرية الأجنبية . ومما قرأته فى هذا المجال كتاب « الحرب الميكانيكية » (٢) للجنرال فولر الذى ظهر مع مستهل الحرب العالمية الثانية مبشّرا بأسلوب الحرب الخاطفة فى استخدام

الوحدات المدرعة بميادين القتال ، وماذا بصر الفكر العسكرى إلى مناشط الحياة كلها لتوجيهها لخدمة الحرب سواء المجال العلمى أو الدينى أو الفلسفى أو الأخلاقى أو الاقتصادى . ذلك أن غرض المنظّم العسكرى هو تحقيق أعظم النتائج من تسخير القوى الآلية وتوفير القوى البشرية ، فأقدر الجيوش هى أمهرها عتادا لا أكثرها رجالاً . و يعطى الكتاب دراسة الهزائم أهمية كبرى ، فالهزيمة أشبه بعصا المعلم تجعل الجيش الخاسر أبعد نظرا وأكثر قدرة على كسب المعركة التالية من جيش أثمله النصر وجعله أقصر نظرا . كما عنى المؤلف بدراسة حروب العصور الوسطى باعتبارها أكثر الحروب التى لعبت الدروع فيها دوراً مؤثرا فى النصر والهزيمة الى أن جاءت الدبابة فأحدثت ذعرا وفوضى شكّلا دروعا إضافية لها وشحذاً لقوة نيرانها ، وما أقدر الذعر على نزع سلاح الجيش المذعور. وإذ شدّنى ما احتواه هذا الكتاب أحببت أن أنقله الى العربية لما فيه من نفع وفائدة ، وظهرت ترجمتى له تباعا بمجلة الجيش على امتداد عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ . ثم كان أن نشرته إدارة التدريب الحربى برياسة هيئة أركان حرب الجيش فى كتاب جامع أصدرته ووزّعته على ضباط القوات المسلحة كافة . هذا إلى جملة من كتيّبات فنية أخرى عن استخدام المدرعات تكتيكيا وصيانتها ترجمتها أوصنّفتها .

وفى عام ١٩٤٢ تشكّلت قوة خفيفة من الدبابات ومركبات الاستطلاع بقيادة الأمير اسماعيل داود كنت من بين ضباطها ، وعُهد إلى تلك القوة مهمة تأمين جانب القوات البريطانية أثناء هجومها على قوات المحور فى الصحراء الغربية خلال الحرب العالمية الثانية ؛ و بعد انتهاء هذه القوة الخفيفة من مهمتها تلك عادت أدراجها الى القاهرة . ومالبثت وحدات سلاح الفرسان أن أخذت أماكنها على امتداد قناة السويس لحمايتها من الألغام التى كانت تلقيها الطائرات الألمانية . وبعدها عُيّنت مدرسا بمدرسة المدرعات فزادت مطالعاتى فى الفنون والعلوم العسكرية وأخذت أضيف إليها بعض كتب الأدب والتاريخ والسير الذاتية وغيرها مشدود الفكر إلى مجالات الثقافة العامة .

وخلال تلك السنين نشطت التنظيمات السرية فى القوات المسلحة حتى بات لكل سلاح تنظيمه الخاص ، وكانت طبيعتها الوطنية تُملى عليها جميعا التعاطف

مع غيرها من التنظيمات المشابهة ، فشاعت منشورات مختلفة تصدرها تلك التنظيمات منها ما هو صادق ، ومنها ما كان مدسوسا لتشتيت الكلمة . وكان من ديدن هذه التنظيمات المختلفة فى الجيش أن تجمع ماتستطيع جمعه من الضباط فى اشتراكات شهرية ثابتة لتعين بها أسر الضباط المعتقلين أو الذين بطشت بهم السلطة . وحين انتقلت إلى سلاح الفرسان وكنت منضما من قبل كما قدمت الى تنظيم « رجال الفداء » التقيت بالزميل الضابط أحمد حافظ مظهر [الفنان المعروف] وكان هو الآخر منخرطا فى تنظيم سرّى ، وسرعان ما اتصل مابينى وبينه . وذات مرة فى عام ١٩٤٢ حين كنا نخدم فى بورسعيد اتصل به الفريق عزيز المصرى ليدبّر له خطة للهرب من مصر ، فكاشفنى أحمد مظهر بما انتواه عزيز المصرى وأخذنا نفكر معا فى الوسيلة التى نستطيع بها أن نمهّد السبيل لهروبه فاستأجرنا قاربا وأخذنا فى الخروج يوما بعد آخر إلى عرض البحر محاولين التعرف على أماكن الألغام البريطانية المغمورة تحت سطح مياه الميناء حتى لانعرّض حياة عزيز المصرى للخطر إذا ما حاول تنفيذ خطته . وبعد أن فرغنا من إعداد خريطة بما خيّل إلينا معه أنها مواقع الألغام عقدنا اتفاقا مع صاحب « لنش » لكى يحمله إلى أقرب غواصة ألمانية ! وكم نستغرق فى السخرية من أنفسنا — أحمد مظهر وأنا — كلما تذاكرنا تلك الفترة التى غمرنا فيها الحماس الوطنى وكدنا نودى بحياة عزيز المصرى ونحن نظن أننا منقذوه . ثم إننا لنذهل اليوم لأن لغما لم ينسفنا معا فى إحدى تلك الجولات الساذجة ، كما زادت سخريتنا من أنفسنا حين عرفنا أننا ونحن نجابه الموت كل ليلة كان عزيز المصرى قد عدل عن هذه الخطة وأخذ يعدّ العدّة لاستقلال طائرة من السلاح الجوى مالبثت أن سقطت بمجرد إقلاعها .

وكان من بين من ربطت بينى وبينهم مودة وثيقة من ضباط سلاح الفرسان الصديق خالد محيى الدين الذى أنست فيه وحدة المشرب والشغف بالمعرفة ، هذا الى ما كان يتمتع به من سجايا كريمة ونزاهة فى الخلق والتزام بالحق وصدق فى التعامل وتفان فى الإخلاص لما يعتقد ، بما كان يتحلّى به من سماحة فى الطباع وإقبال على الحياة تصحبه بشاشة تكاد لا تفارقه . وكنا لانفترق فى أوقات الفراغ ، أبادله الكتب و يبادلنى إياها ، وأناقشه الرأى فى القضايا الوطنية وما يحيط بنا من أحداث . وكان أملنا الذى ربط بيننا هو السعى الى تطهير الجيش أولا ثم خلاص

لـن مـن الاستـعـمار ومن الظلم والطغيان راجين أن ينعم الوطن بحياة جديدة
نر فيها الحال أمناً و يسود فيها الرخاء .

وفى فبـرايـر ١٩٤٦ ثـارت ثـائـرة مصر وهـبّت الأمة هبّة واحدة تطالب بجلاء
ـوات البـر يطـانيـة ، فـما كان من قوات الاحتلال إلا أن أطلقت النيران من
ـناتها بقصر النيل ـ حيث كانت تستقرّ ـ على المتظاهر ين الذين ازدحم بهم
ان الاسماعيلية [التحر ير الآن] ، فراح ضحية هذا العدوان كثيرون لايحصون
.دا ، وغـضـبـت مصر لهـذا غـضـبـة عامة شديدة شملت المدن جميعاً ، وكان أن
ـكـلـت لجـنـة وطـنـيـة مـن الطلبة والعمال لجمع الصفوف ولمّ الشمل وتوحيد
ـضـال . وفزع اسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء آنذاك ، وأمر بإرسال قوات
ن الجـيـش إلى المـناطق الثائرة لإخماد الحركة الوطنية . وصدرت الأوامر فإذا بى
ـمـن قـوة أرسـلـت إلى المـنـصورة ، وكنت قد تعاهدت مع كثرة من الزملاء عن
متـنـاع عـن الـتـصـدّى لأفـراد الـشعب الثائر ين ، وتحايلنا على ذلك بأن منعنا
لذخـيـرة الحـيـة عن الجنود حتى لايتورط أحد منهم فى إطلاق النار. وكان رجال
شـرطـة فى المنصورة يشاركون قوات الجيش التى نزلت هناك لكبح جماح الثورة .
كان أن تورّط جندى من الشرطة فأطلق الرصاص على المتظاهر ين فأردى واحدا
ـهـم ، فهاجت المنصورة هياجا عارما ، الأمر الذى أصاب مدير الدقهلية بالارتباك
التـجـأ إلى وحـدة الـفـرسـان يـطـلـب منهـا الـعـون حين عجز رجال الشرطة عن
ـتـصـدّى . ولما كنا نؤمن أن من الخطأ الاشتراك فى هذا العمل المعادى للجماهير
قـد راوغـنـاه مـتـعلّلين بحاجتنا إلى أمر كتابى بإطلاق النار، ونحن نعلم استحالة
لك .

٢
صلتى تتوثق مع عبد الناصر وعامر

وفى صيف عام ١٩٤٥ تقدمت لامتحان المسابقة الذى كان يعقد سنويا للالتحاق بكلية أركان الحرب ، وكنت قد أعددتُ لهذا الامتحان العُدّة فى عامين سابقين ، وشاء الله لى أن أكون من بين الناجحين ، وكانت الدراسة فى تلك الكلية وقتذاك تستغرق عامين . وفى هذه الكلية ربطت بينى وبين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر صلات توثقت بعدُ فغدت صداقة حميمة يجمع بيننا شعور وطنى مشترك ، وكان من بين أفراد هذه الدفعة بكلية أركان الحرب أيضا الزميلان زكريا محيى الدين وصلاح سالم . وكانت الدراسة فرصة نادرة لتبادل الرأى فى مختلف المسائل ، ولم يكن معدى من أن تغدو الأحوال السياسية المضطربة فى تلك الظروف التى كانت تمرّ بها البلاد والثورات الشعبية المكتومة والاضطهاد والعسف هى محور الحديث الشائع بيننا والذى تجرى به ألسنتنا . وكنا نحس فى هذا الوقت والجيش فى ظل كثرة من القادة ليس لهم من ثقتنا نصيب أنه لزام علينا أن تتناول أحاديثنا ما عليه الحال العامة . وكنا نحن الضباط نجد أنفسنا أوْلى الناس بالحديث عن هذا ، فكم كنا نحسّ أن الشعب الساخط يرانا شركاء

فيما ترتطم به البلاد من فساد ، وأننا حماة هذا الفساد ، ومعنى هذا أن الشعب كان يرانا العقبة الكأداء في سبيل تحقيق مايطمح إليه ، وما من شك في أن هذا كان يجرح كبرياءنا ونحن مع الشعب ومنه . ولقد قوّى مابيننا روح الأخوة الصافية التي حرّكت منا الضمائر وحفزت فينا الإرادات ووحّدت منا الآراء لكي نقوم بعمل لردّ الأمور إلى نصابها .

وكان مما نأخذه على بعض قادتنا ما يجعلنا نخجل حتى من ارتدائنا للزيّ العسكري ، والشعب ناقم على الحكومة ، ثم هو ناقم على الجيش الذي يقف من وراء الحكومة يساندها ، فكان الجيش في نظر الشعب أشبه بالعصا التي يلوّح بها الملك كلما أراد أن يحقق مأربا شخصيا أو سياسيا . وفي ظل هذه الحيرة التي غشيتنا ونحن نبحث عن السُّبل التي نخرج بها من هذا المأزق ، وكنا من الشباب المتطلّع إلى وسيلة نلجأ إليها لتحقيق أهدافنا رأينا الاتصال بجماعة الإخوان المسلمين لما كنا نتوسّمه فيها من تجرّد في الدعوة . وكان قد سبقنا إلى تلك الجماعة أخ وطني فاضل من الضباط هو المرحوم عبد المنعم عبد الرءوف ، فاتصل به جمال عبد الناصر بوصفه المتكلم باسمنا ليستوضح منه على أي أساس سوف يكون انضمام الضباط للإخوان المسلمين . ومنذ البداية كانت ثمة قضية أساسية يدور حولها الخلاف ، فعلى حين رأى عبد المنعم عبد الرءوف أن انضمام الضباط يجب أن يكون اندماجا دون قيد أو شرط ، كنا نرى أنه يجب أن يكون لمن ينضمون من بيننا كيانهم المستقل في ظل الجماعة . وكان أن استجابت جماعة الإخوان في نهاية الأمر لمطلبنا ، فكان للضباط استقلالهم ، وتكوّنت منهم خلايا شئونها بيد لجنة منهم مختارة من جمال عبد الناصر وعبد المنعم عبد الرءوف وخالد محيي الدين وكمال الدين حسين وصلاح خليفة وجملة غيرهم فضلا عن الضابط المتقاعد محمود لبيب الذي كان همزة الوصل بين المرشد العام ـــ وهو اللقب الذي أضفاه على نفسه المرحوم الشيخ حسن البنا ـــ واللجنة المختارة والخلايا . وكان هذا الضابط الكريم ذا ماض غير مشوب ، هذا إلى ما كان يتميز به من أخلاق سمحة وتواضع محبّب مما جعلنا نُجمع على إجلاله واحترامه . وكانت خليّتي تجمعني بجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وخالد محيي الدين وحسن ابراهيم وغيرهم ، وكانت لنا اجتماعات أسبوعية نتداول فيها الأمر ، كما كنا حريصين مع ذلك على

٢
صلتى تتوثق مع عبد الناصر وعامر

وفى صيف عام ١٩٤٥ تقدمت لامتحان المسابقة الذى كان يعقد سنويا للالتحاق بكلية أركان الحرب ، وكنت قد أعددتُ لهذا الامتحان العُدّة فى عامين سابقين ، وشاء الله لى أن أكون من بين الناجحين ، وكانت الدراسة فى تلك الكلية وقتذاك تستغرق عامين . وفى هذه الكلية ربطت بينى وبين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر صلات توثقت بعدُ فغدت صداقة حميمة يجمع بيننا شعور وطنى مشترك ، وكان من بين أفراد هذه الدفعة بكلية أركان الحرب أيضا الزميلان زكريا محيى الدين وصلاح سالم . وكانت الدراسة فرصة نادرة لتبادل الرأى فى مختلف المسائل ، ولم يكن معدى من أن تغدو الأحوال السياسية المضطربة فى تلك الظروف التى كانت تمرّ بها البلاد والثورات الشعبية المكتومة والاضطهاد والعسف هى محور الحديث الشائع بيننا والذى تجرى به ألسنتنا . وكنا نحس فى هذا الوقت والجيش فى ظل كثرة من القادة ليس لهم من ثقتنا نصيب أنه لزام علينا أن تتناول أحاديثنا ما عليه الحال العامة . وكنا نحن الضباط نجد أنفسنا أوْلى الناس بالحديث عن هذا ، فكم كنا نحسّ أن الشعب الساخط يرانا شركاء

فيما ترتطم به البلاد من فساد ، وأننا حماة هذا الفساد ، ومعنى هذا أن الشعب كان يرانا العقبة الكأداء فى سبيل تحقيق مايطمح إليه ، وما من شك فى أن هذا كان يجرح كبرياءنا ونحن مع الشعب ومنه . ولقد قوّى مابيننا روح الأخوة الصافية التى حرّكت منا الضمائر وحفزت فينا الإرادات ووحّدت منا الآراء لكى نقوم بعمل لردّ الأمور إلى نصابها .

وكان مما نأخذه على بعض قادتنا ما يجعلنا نخجل حتى من ارتدائنا للزىّ العسكرى ، والشعب ناقم على الحكومة ، ثم هو ناقم على الجيش الذى يقف من وراء الحكومة يساندها ، فكان الجيش فى نظر الشعب أشبه بالعصا التى يلوّح بها الملك كلما أراد أن يحقق مأربا شخصيا أو سياسيا . وفى ظل هذه الحيرة التى غشيتنا ونحن نبحث عن السُّبل التى نخرج بها من هذا المأزق ، وكنا من الشباب المتطلّع إلى وسيلة نلجأ إليها لتحقيق أهدافنا رأينا الاتصال بجماعة الإخوان المسلمين لما كنا نتوسّمه فيها من تجرّد فى الدعوة . وكان قد سبقنا إلى تلك الجماعة أخ وطنى فاضل من الضباط هو المرحوم عبد المنعم عبد الرءوف ، فاتصل به جمال عبد الناصر بوصفه المتكلم باسمنا ليستوضح منه على أى أساس سوف يكون انضمام الضباط للإخوان المسلمين . ومنذ البداية كانت ثمة قضية أساسية يدور حولها الخلاف ، فعلى حين رأى عبد المنعم عبد الرءوف أن انضمام الضباط يجب أن يكون اندماجا دون قيد أو شرط ، كنا نرى أنه يجب أن يكون لمن ينضمون من بيننا كيانهم المستقل فى ظل الجماعة . وكان أن استجابت جماعة الإخوان فى نهاية الأمر لمطلبنا ، فكان للضباط استقلالهم ، وتكوّنت منهم خلايا شئونها بيد لجنة منهم مختارة من جمال عبد الناصر وعبد المنعم عبد الرءوف وخالد محيى الدين وكمال الدين حسين وصلاح خليفة وجملة غيرهم فضلا عن الضابط المتقاعد محمود لبيب الذى كان همزة الوصل بين المرشد العام ـــ وهو اللقب الذى أضفاه على نفسه المرحوم الشيخ حسن البنا ـــ واللجنة المختارة والخلايا . وكان هذا الضابط الكريم ذا ماض غير مشوب ، هذا إلى ما كان يتميز به من أخلاق سمحة وتواضع محبّب مما جعلنا نُجمع على إجلاله واحترامه . وكانت خليّتى تجمعنى بجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وخالد محيى الدين وحسن ابراهيم وغيرهم ، وكانت لنا اجتماعات أسبوعية نتداول فيها الأمر ، كما كنا حريصين مع ذلك على

الاختلاف إلى دار الجماعة بالحلمية كل ثلاثاء للاستماع إلى خطبة المرشد العام الذى كان يبز يدنا حماسا إلى حماس ، كما كنا نتردّد عليه أحيانا يحدّثنا ونحدّثه ونتبادل معه الرأى . ولقد نُظّمت خلايانا تنظيما لوحظت فيه السّرية التامة ، حتى ما يكاد ضابط فى خلية ما يعرف غيره من الضباط فى الخلايا الأخرى اللهم إلا عن حدس وتخمين . وما من شك فى أن انتظام الضباط فى الخلايا المستقلة بجماعة الإخوان المسلمين كان البوتقة التى صهرت عددا يُعتد به من الضباط الأحرار فيما بعد .

وكنت فى تلك المرحلة يتناوبنى الشك الذى يساور كل شاب يُعمل فكره فى مستهل حياته ، فلم أترك بابا يقودنى إلى الإيمان إلا طرقته ولم أدع عالما أستطيع الوصول إليه إلا سألته . وما أظننى قد فاتنى الإلمام بالعقائد جملة ، سواء أكانت سماوية أو غير سماوية ، مُنْعِما البحث مستقصيا مقارناً بين ما جاء هنا وماجاء هناك . ثم مضيت أستقصى ما كُتب عن موضوع الإيمان سواء فى العربية أو الإنجليزية ، إلى أن وقعت على كتاب لعالم من علماء النفس يدعى هنرى لنك هو « العودة إلى الإيمان » (٣) اعترف فيه أنه ظل زهاء ربع قرن يستقبل مرضاه الذين كانوا يتصوّرون فيه إلها قادرا على أن يوفّر لهم سبل السعادة ، فكانت رغبته فى تحقيق أمنيات مرضاه سبيلا إلى إيمانه بإله ذى قدرة تُزرى بقدرته ، وأخذ يستشف أدواء المتردّدين عليه بحسّه أكثر مما يتلمّسها بمنطقه ، مؤمنا بعجز العقل عن إدراك كنه كثرة من الأمور العصيّة على الفهم . وقد عرف من استقرائه لكتب التاريخ أن الإنسان جُبل منذ نشأته الأولى على الإيمان بعقيدة ما ، فحتى الإيمان بالخرافات خير من نكران كل شىء وتقديس العقل ثم الإزراء بالديانات ، كما أدرك عقم النظريات شبه العلمية والعقائد الوضعيّة التى ما إن تقوم اليوم إلا ويلحقها التغيير فى الغد ، فى حين أن الاعتقاد بوجود إله هو الاعتقاد الحق الدائم الذى لا تدانيه اعتقادات أخرى ، وإذا ما خلا قلب من إيمان كان عُرضة لأن تتنازعه نزعات شتى يتخبّط فيها دون أن يصل إلى هداية . وإذ قد ارتاحت نفسى إلى هذا الكتاب وما جاء فيه من دعوة إلى ضرورة الإيمان مبنيّة على أسس سويّة ، إذا أنا أنهض إلى ترجمته حتى أسهم بدورى فى تبديد الشكوك التى قد تساور

عقول البعض ، فظهر مطبوعا بالعربية للمرة الأولى فى عام ١٩٤٨ ، ثم طُبع ثانية عام ١٩٥٩ ومرة ثالثة فى عام ١٩٦٤ .

ولم يفتنى كذلك أن أقرأ بعض ما جاء عن المذاهب الفلسفية والجمالية ؛ وكان أكثر ما شدّنى إليه من هذه المذاهب مذهب « الشيبومى » اليابانى [أورهافة الحسّ الخارقة] ، وهى كلمة يابانية يُوصف بها كل ما هو من الجمال رقيق نافذ الأثر غير صارخ ولا يحيط بكُنْهه وصف . فهو ما بلغ الذّروة من كمال ونقاء ولا ينفذ إلى أعماقه إلا من ملك حسّا مرهفا وذوقا شفافا ، ويعمّ كل ما كان ذا صلة بالسلوكيات والفنون . هو فى عمومه الإحاطة بالشىء فهماً وإدراكا لا علما فحسب ، كما هو الصمت المعبّر والتواضع الصادق والإيجاز المبين . وفناً هو التأنق فى بساطة ، وفلسفةً هو الإخلاد إلى التأمل إيجابا لا سلبا والإيمان بما كان فى غير خشية مما سيكون . وإنسانيةً هو سلطة دون عنف . وعلى حين أن الجمال الفاضح ينجذب إليه عامة الناس ، فالشيبومى لا يستهويه إلاّ الجمال الخفىّ الذى لا يلقى بالا لما هو برّاق أخّاذ . ولقد كان لهذا المذهب بما تضمّن وحوى أثره العميق فى نفسى لم يفارقنى حتى اليوم .

وبقينا نحن معشر الضباط فى خلايانا المختلفة موصولين بجماعة الإخوان المسلمين ننشر الدعوة إلى الإصلاح إلى أن قامت حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ ، فحالت أحوال القتال بيننا وبين سيرتنا الأولى مع التنظيم ، إذ كان كل واحد منا قد أصبحت له تبعات ومسئوليات ، ثم ما كان من تشتّت لايستقر فيه أحد فى مكان بالميدان . ولقد أملت علينا تلك الحرب القاسية أنه لابد من تغيير شامل ، بعد مالمسناه فى إعدادها من قصور جرّ إلى مايشبه الهزيمة ، فعقدنا العزم على أن نعدّ العدة لذلك التغيير ، ومن هنا كانت نشأة تنظيم الضباط الأحرار .

وكان تورط الإخوان المسلمين فى أمور غامضة كالاغتيالات ومايجرى مجراها قد نفّر خلايا الضباط منهم ودفعهم إلى اكتشاف حاجتهم إلى تنظيم شامل لايتقيّد بمعتقد مذهبى ، بل تنظيم يضم تحت لوائه مواطنى مصر ، على أى دين كانوا وعلى أى مذهب سياسى عاشوا طالما أن هدفهم هو مصر الوطن الأم . ومن هنا دبّ الخلاف بيننا نحن معشر الضباط وبين المرحوم عبدالمنعم عبدالرءوف الذى خلف

محمود لبيب بعد وفاته ، وكان من رأيه أن التنظيم لايتسع إلا لمن يدين بالإسلام وحده بل وبالتشدد فيه ، فضلا عن أنه كان يرى على العكس مما كنا نرى أن خلايا الضباط يجب أن تكون تابعة التبعية كلها لسلطان الإخوان المسلمين . فكان هذا باعثا إلى نشأة تنظيم الضباط الذى ضم الأحرار منهم للسعى وراء تطهير البلاد من كل عبث والوصول بها إلى تحقيق مايريدون من خير ونفع لمصر ، عن طريق جمع كل القوى الوطنية المؤمنة باستقلال مصر وطرد الاستعمار فى جبهة موحّدة .

وكان مما يجيش فى صدور الضباط عامة عند بدء النزاع فى فلسطين أن يتركوا الجيش إلى التطوّع فى صفوف الفدائيين الذين يناوشون العصابات الصهيونية وهو ما استقر عليه رأى زمرتنا . ولكن الأمور لم تمض هكذا ، فإذا الحكومة المصرية تعلن الحرب على الصهاينة ، وبهذا أفسحت السبيل أمام من كانوا يريدون منا الانضمام إلى الفدائيين ليجدوا مجالا أوسع للتضحية .

٣
أرض فلسطين الذبيحة

وفى عام ١٩٤٢ خلال الحرب العالمية الثانية كنت مبعوثا إلى فلسطين لأتلقى تدريبا حربيا على الأسلحة الحديثة فى إحدى مدارس الجيش البريطانى قرب دير سنيد . وهناك لمست ماكانت تصنعه حكومة الإنتداب البريطانى من تمكين للصهاينة فى البلاد وتنظيم لهجرتهم إليها . ولكى تكفل لهم جوا آمنا أمعنت الحكومة فى تجريد الفلسطينيين من أسلحتهم حتى المدى والخناجر، كما أغمضت العين عما يُهرّب إلى العصابات الصهيونية من سلاح ، بل وساهمت ــ تمهيداً للمعركة المقبلة ــ فى تدريب ضباطهم على القتال والنسف والتدمير، كما مضت تعينهم على الاستيلاء على أراضى فلسطين وإجبار الأهالى على التنازل عنها . وهنا أحب أن أزيح الستارعن شائعة روّج لها المغرضون ألصقت ظلما بالفلسطينيين وهى التنازل عن أرضهم اختياراً ، فلقد قيل إنهم باعوا مايملكون من أرض فى فلسطين للصهاينة للإنفاق على ملذّاتهم وشهواتهم ، والحقيقة إنهم اضطروا إلى التنازل عن تراب أرضهم تحت ضغط حكومة الانتداب حين جعلت هذه الأراضى أرض بناء ، ورفعت بذلك مايُحصّل عليها من ضرائب لم يقو الأهالى على أدائها فنزلوا عن أرضهم صاغرين للحكومة التى نزلت هى الأخرى عنها للغاصبين إما هبات وإما بأسعار رمزية . والغريب أنه حتى صدور قرار التقسيم كان اليهود لايمتلكون أكثر من ست فى المائة من مجموع أرض فلسطين .

وإمعانا فى تدبير المؤامرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حالت بريطانيا بين الجيوش العربية وبين الدخول إلى فلسطين قبل أن تجلو عنها القوات البريطانية الجلاء الأخير، على حين أنهم أباحوا للصهاينة أن يتوغلوا فى البلدان العربية الفلسطينية كيف شاءوا بلدا بعد بلد . وليزيدوا الأمر تعقيداً أباحوا من ناحية أخرى للعرب أن يدخلوا فلسطين بعد جلائهم عنها مزوّدين بعض الدول العربية بالأسلحة ليثيروها حربا مستعرّة بين الصهاينة والعرب ، ويكون لهم من ورائها مغنم يبغونه ، الأمر الذى جعل العرب يتوهمون أن الإنجليز يساندونهم . ولم تغادر قوات الاحتلال فلسطين إلا بعد أن اطمأنت الاطمئنان كله إلى رسوخ أقدام العصابات الصهيونية فى الأرض المغتصبة ، وبعد أن نالت من الصهاينة أنفسهم اعتداءات متكررة لم تستطع قمعها ، هذا إلى ماكان من عجزها — كما تزعم — عن فض الاشتباكات التى طالما وقعت بين العرب والدخلاء . فلقد كان للصهاينة اعتداءات لايقرّها نظام ولا ترضاها حضارة ، منها ذلك الاعتداء على قرية دير ياسين بالقرب من القدس الذى أتت فيه عصابة إرجون زفاى ليومى بقيادة الإرهابى مناحم بيجين على القرية جمعاء فلم يتركوا امرأة ولا رجلا ولا شيخا ولا رضيعا إلا ذبحوه وخلّفوا القرية محتشدة بجثث القتلى . ومثل مافعلوه فى دير ياسين فعلوا مثله فى كفرقاسم وفى يافا ثم فى الحى العربى من حيفا وغيرها . وفى ٢٥ أبريل ١٩٤٨ هبّت الدول العربية واعتزمت إرسال قواتها النظامية الى فلسطين « لتأديب العصابات الصهيونية وإنقاذ العرب من العدوان الغادر بمجرد انتهاء الانتداب البريطانى فى ١٥ مايو ١٩٤٨ » .

ومن المناسب فى هذا المقام أن أكشف عن الحال التى كان عليها الجيش المصرى حينذاك ، فلقد كان همّ الدولة الأول رعاية الأمن داخل البلاد فلم تكل إليه مهمة غيرها ، وقد حال هذا بغير شك دون أن يكون الجيش على أهبة الاستعداد لخوض معركة حربية . لذلك أخذت القيادة المصرية تنظر فيما بين يديها وفيما سيواجهها فى فلسطين وما يجب عليها عمله . ولكنها لم تستطع أن تعدّ للمعركة المقبلة فى فلسطين غير « مجموعة لواء مشاة » تعاونها بعض الوحدات المدرّعة ، لأن سائر القوات الأخرى من الجيش كان منوطا بها حفظ الأمن الداخلى وحراسة القاعدة وخطوط المواصلات فى أنحاء البلاد . وكانت الذخيرة المتوفرة من القلة

بحيث تحدّ من سير العمليات إلا إذا فُتح باب الاستيراد على مصراعيه وإلا إذا قرّرت الحكومة ضرورة الحصول عليها بأية وسيلة ومن أية دولة . وقد قُدّر للذخيرة التى كانت بين يدى الجيش حينذاك أنها تكفى للقتال خمسة عشر يوما للمدافع وشهرا للبنادق والرشاشات ، وكان نحو ستين فى المائة من مركبات الجيش غير صالحة ولا تفى بمطالب مجموعة اللواء . وعلى الرغم من أن « التدريب الانفرادى » للجيش — أعنى تدريب الفرد على القتال — كان مرضيا فلقد كان « التدريب المشترك » — أعنى تدريب الوحدات والأسلحة المختلفة على المشاركة سويا فى القتال — غير ذى جدوى لأن وحدات الجيش لم تكن قد شاركت قبلُ فى مناورات على مستوى مجموعة لواء . وكانت القوات الجوية على حال لم يسمح لها بأكثر من معاونة مجموعة اللواء المقترحة للقيام بأعمال الاستطلاع ومهاجمة الأغراض الأرضية الحيوية ، على حين أن القوات البحرية كانت ماتزال فى بدء نشأتها .

ولقد نيط بالقوات المصرية النظامية أن تحرر القطاع الجنوبى الغربى من فلسطين الممتد من رفح والعوجة الى غزة وبيرسبع على أن تتعاون بعد ذلك مع القوات العربية النظامية الأخرى فى الاستيلاء على تل أبيب . وكان المقدّر أن خطوط مواصلاتنا ستمتد لمسافات كبيرة مما كان سيجعلها هدفا سهلا لإغارات العصابات الصهيونية ، وهو ما كان يقتضى إعداد وحدات نظامية من الجيش ينضم إليها نفرٌ من الأهلين لحماية خط السكة الحديدية الممتد بجوار الساحل وتأمين الطرق ومرافقة حملات التموين . لذلك كان من الواجب البدء فورا فى تدريب مجموعة لواء المشاة على ماستضطلع به من مهام ، ثم الاتصال بقيادات الجيوش العربية لتنسيق الخطة العامة التى يُحدّد فيها اختصاص كل دولة على حدة ، ثم الاتصال بالفلسطينيين داخل فلسطين لتنظيم التعاون بينهم وبين الجيش المصرى أثناء تقدمه .

وسرعان ماتكوّنت طوائف من المتطوعين أخذت أماكنها المختلفة بفلسطين يقودها ضباط عراقيون وسوريون ومصريون ، غير أنها لم تكن للأسف مسلّحةً التسليح الكافى ، هذا إلى أن أسلحتها كانت تختلف أنواعا مما يصعب معه إمدادها

وجرأة ، لم يثنها عن ذلك ماقدمته من شهداء من الضباط والجنود ، يحدوها الأمل فى أن تتمكن من إرجاع الحق المغتصب للفلسطينيين . ثم واصلت القوات المصرية تقدمها يوم ١٩ مايو وكانت بينها و بين اليهود معركة فى ديرسنيد ، و بلغت مدينة المجدل يوم ٢١ مايو، وكانت القوات الجوية توالى غاراتها يوميا على تل أبيب . وعندها كانت قوات المتطوعين المصريين قد وصلت إلى بيت لحم على مقربة من القدس . وفى اليوم الرابع والعشرين تم للقوات المصرية والأردنية الاتصال ببعضها البعض . وفى التاسع والعشرين من الشهر نفسه كانت قواتنا المصرية قد انتهت شمالا الى مدينة أسدود ، وأخذت بعدها تتقدم شرقا الى عراق سويدان والفالوجا وعراق المنشية حتى بيت جبرين ليتم الاتصال بينها و بين قوات المتطوعين فى الخليل و بيت لحم والقدس . وكان الهدف من ذلك هو الفصل بين المستعمرات الصهيونية شمالها عن جنوبها . وفى السابع من يونيه تم استيلاء القوات المصرية على مستعمرة نيتسانيم الواقعة إلى الشمال من أسدود ، وكان لليوزباشى عبدالحكيم عامر دوره البطولى فى اقتحام هذه المستعمرة ، ومن أجل هذا رُقّى ترقية استثنائية .

وما من شك فى أن قيادة القوات المصرية بفلسطين فى خطواتها الموفّقة كانت تُصدرُ عن رَوِيّة وتدبّر وعن وعى بما يحيط بنا من ظروف سياسية واقتصادية . ولكن البليّة التى تعرّض لها الجيش المصرى كانت فى هذا التفاوت بين الضباط والجنود . فعلى حين كان الضباط على درجة من التدريب المتميّز كان الجنود دون المستوى المنشود فى الجندية ، إذ لم يكن التجنيد إجباريا يشمل مستويات الأمة كلها بل كان مقصورا على تلك الطبقة التى تعجز عن سداد البدل ، وكان آنذاك خمسة عشر جنيها . ولذلك كانت الحرب حرب ضباط لاحرب جنود ، وكان من استشهد من الضباط يُربى نسبيا على من استشهد من الجنود .

وقد فوجىء الجيش المصرى بفرض الهدنة الأولى من الحادى عشر من يونيه إلى السابع من يوليه على أن تبقى خطوط القتال دون تغيير، وأن يقف الطرفان دون المزيد جنداً وتسليحاً ، وأن يُحال بين المهاجرين الصهاينة القادرين على حمل السلاح و بين دخول فلسطين ، وأقامت الأمم المتحدة الكونت برنادوت وسيطا للبحث عن حل سلمى للمشكلة ، فاتخذ جزيرة رودس مركزا له .

ولم يلتزم الصهاينة بشروط الهدنة فاستقبلوا المهاجرين الجدد واستجلبوا المزيد من السلاح واستولوا دون قتال على بعض المواقع ، وانتهزت مصر هذه الفرصة وأعادت تنظيم قواتها مقسّمة الجبهة إلى قطاعات وزوّدتها بوحدات جديدة وكتائب من الجيش الاحتياطي والقوات المرابطة ، وبهذا أصبحت القوة المصرية « فرقة مشاة » مزوّدة بالأسلحة المعاونة استعدادا لطرد العدو مما احتله من مواقع أثناء الهدنة واستعداداً لتدمير المستعمرات اليهودية التى تهدّد مواقعنا . غير أن القوات المصرية وجدت نفسها بين أعباء كثيرة شتّتت جهودها ، فضلا عما كان عليها أن تجابهه من أسلحة جديدة وطائرات مقاتلة وصلت للعدو أثناء الهدنة الأولى . وكانت ثمة مؤامرة مكّنت القوات الصهيونية من تطويق مدينتى اللّد والرملة فى وسط فلسطين ، وما إن بدأ العدو فى تطويقهما حتى انسحبت قوات الجيش الأردنى بعد أن استغاثوا بإخوانهم العراقيين غير أنهم لم يجدوا لديهم استجابة . وبذلك تمكّن العدو من الاستيلاء على مدينتين من أهم المدن العربية فضلا عن أفضل مطار بفلسطين وهو مطار اللّد . وكانت نتيجة هذا أن فرّ الكثير من أهالى المدينتين فزادوا من عدد اللاجئين ، كما أعطى هذا الانسحاب الفرصة للصهاينة ليتحركوا كيف شاءوا فى ميدان القتال . ثم إذا بنا نفاجأ مفاجأة أخرى ، وذلك حين صدرت الأوامر للجيش الأردنى بإيقاف جميع العمليات الهجومية والاكتفاء بأن يقف للدفاع فحسب على ألا يطلق النار إلا إذا هوجم ، الأمر الذى كان من شأنه أن يفرغ العدو لمواجهة الجيش المصرى فضلا عن إخلاء الطريق أمامهم لينفذوا إلى النقب . وأخذ العدو يهاجم بعض المواقع المصرية مستغلا خبرته فى القتال ليلا ليشنّ هجماته على النقاط المصرية فى ساعات الظلام ، وكان كل اعتمادهم على حرب العصابات فأخذوا يتابعون غاراتهم تلك فى أضعف النقاط ، ثم تخرج أبواقهم بعد ذلك تهلّل وتطنطن .

وفى اليوم الثامن عشر من يوليه صدر الأمر بإيقاف القتال تنفيذا لقيام الهدنة الثانية ، غير أن قواتنا كانت قد تمكنت فى اللحظات الأخيرة من أن تحتل بلدة العسلوج مرة أخرى بعد أن طردت العدو منها لتأمين طريق العوجة وبيرسبع والخليل ، وهو طريق الإمداد والتموين الذى كانت تعتمد عليه قواتنا الموجودة فى جنوب القدس . وكما هى عادة الصهاينة الغادرة فقد اغتالوا الكونت برنادوت فى

السابع عشر من سبتمبر ، وذلك حين رأوه يقترح حلا لمشكلة فلسطين بإنشاء دولتين إحداهما عربية والأخرى اسرائيلية يربط بينهما نظام اقتصادى واحد و يكون لكل منهما استقلالها المحلى والسياسى والإدارى على أن يكون إقليم الجليل للصهاينة والنقب لفلسطين العربية .

ومما يثير الحيرة حقا ذلك التعاطف الأمريكى مع الصهاينة فقد جاء اعتراف الحكومة الأمريكية بدولة اسرائيل فى اليوم ذاته الذى دخلت فيه الجيوش العربية أرض فلسطين وهو الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ ، وكان هذا يعنى كل التحدّى للعرب . وأكاد أعزو هذا التعاطف إلى أسباب ستة .

الأول منها أنه ثمة مصلحة استراتيجية عليا للولايات المتحدة الأمريكية ، إذ يعنيها أن تعتمد على دولة أكثر ماتكون ولاء لها فى منطقة الشرق الأوسط الحساسة والتى فيها تجاذب وأخذ وردّ ، فلقد وجدت فى اسرائيل خيرعون لها على ذلك . ثم إن أمريكا والغرب كانت لهم تجارب سابقة فى التحالف مع العرب ، غير أنهم إن أفلحوا فى هذا حينا لم يفلحوا حينا آخر . ثم إن الذى لاشك فيه أن أمريكا ودول الغرب قاطبة أخشى ماتخشاه أن تكون للعرب قوة ، ولهذا وجدوا فى هذا الحليف الجديد اسرائيل الذى كان طوع أمرهم و يكاد يأتمر بكل مايأمرون به ومايبغون ليكون داعى فُرقة بين العرب بعضهم و بعض . وهذا ما قد أفلحتْ فيه أمريكا ، فمعظم الحروب التى مانشك أن الغرب كان من ورائها قد أوهنت من عضد الوطن العربى وأثقلته مالاً وكلّفته رجالا ، ثم إذا هذه الحروب آخر الأمر تثير الفُرقة التى نراها بين العرب اليوم دولة هنا ودولة هناك ، وماندرى متى سيكون التئام هذا الشقاق الطاحن .

وثانى تلك الأسباب هو مانعلمه جميعا من تغلغل النفوذ الصهيونى فى الولايات المتحدة حتى باتت الأجهزة الحكومية تأتمر بأمره .

وثالث تلك الأسباب هو ما بين الشعبين الأمريكى واليهودى من تشابه ، فكلاهما شعب نازح . فكما نزح الأمريكان الأُول من دول أوربا المختلفة إلى أمريكا وغالبوا أهلها الأصلاء على أرضهم ، كذلك كان الشعب اليهودى شعبا نازحا هاجر من شتى أقاليم العالم شرقا وغربا إلى فلسطين ليغلب هو الآخر أهل

الأرض من العرب على موطنهم و ينزع الحق من أهله . كذلك لقى الشعبان الأمريكى واليهودى الكثير من الاضطهاد الدينى ، فمرجع الهجرة إلى أمريكا هو ذلك الاضطهاد الدينى الذى ساد أوربا قبل تلك الهجرة ضد « الأطهار» المتزمّتين ، وكذلك كان الاضطهاد الدينى لليهود فى أوربا هو الذى حفزهم إلى البحث عن أرض ينتزعونها و يستقرّون بها مطلقين على أنفسهم اسم الروّاد شأن مهاجرى أوربا إلى أمريكا .

ورابع تلك الأسباب هو ماغمر نفوس هؤلاء.وهؤلاء من تحدّ للسكان الأصليين فى أمريكا وفلسطين من إظهار ملامح التفوق الحضارى ليثبتوا للعالم أجمع أنهم أفضل حالا من المواطنين الأصليين .

وخامس تلك الأسباب أنه وإن كان الشعب الأمريكى معاديا للسامية بطبعه ، غير أنه ليكفّر عن هذه الخطيئة التى تثقل ضميره غالى فى تشجيعه للصهيونية .

ثم لاننسى ماهو معروف من أن الكثرة من رؤساء الولايات المتحدة نهّازون للفرص همّهم الوصول إلى كرسى الرياسة ، وهم ليسوا رجال دولة بقدرماهم سياسيون محترفون تعنيهم مصالحهم الخاصة فحسب ، وقد يضاف إلى ذلك رغبة أمريكا آنذاك فى أن ترث الاستعمار الأوربى فى الشرق الأوسط ، وأن تكون اسرائيل هى قاعدتها فيه . والغريب أيضا أن رأينا أندريه جروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفييتى يقف فى الأمم المتحدة يجاهر بتأييد قيام دولة اسرائيل فى الرابع عشر من مايو قبل أن تعترف بها الولايات المتحدة دولة ، ثم لا تلبث حكومة الاتحاد السوفييتى أن تعترف باسرائيل دولة بعد اعتراف الولايات المتحدة بمالا يجاوز اليومين ، وسمعنا لستالين عبارته المأثورة عنه من أنه يلذّ له أن يقف حاميا نصيرا لدولة يهودية !

وكان مما يروع أن يُسند لكتائب الجيش الاحتياطى والجيش المرابط ماكان يجب أن يُسند إلى الجيش النظامى ، ونحن نعلم كعسكريين تلك الروح التى تسود قوات الاحتياط ، فلا انضباط ولا روح معنوية ولا تدريب أوخبرة عسكرية ، وبهذا يكون الجيش الاحتياطى أقل مستوى من الجيش النظامى ، الأمر الذى دعا

قيادة القوات المصرية بفلسطين أن تطلب من رياسة هيئة أركان حرب الجيش بمصر أن تستبدل بالقوات الاحتياطية وحدات نظامية حتى تكفل للمعارك الحربية بيننا وبين العدو الغلبة والتفوق . غير أن تلك الدعوة من القيادة العسكرية بفلسطين لم تلق من الرياسة بالقاهرة أذنا صاغية ولا وعيا بالمسئولية ، وإذا هي بدلا من أن تستجيب لهذا المطلب المُلحّ تسترسل في غيّها وترسل المزيد من قوات جيش الاحتياط ثم قوات أخرى من الجيش المرابط . ولكى تفيد القيادة بفلسطين من تلك القوات الاحتياطية التى كانت شبه عبء عليها ألحقتها سرية بعد سرية مع الكتائب النظامية لكى تكفل لها لونا من ألوان العون ، وهو وإن كان عونا يسيرا إلا أنه في ميدان القتال قد يفيد شيئا . ولقد كان لهذا الحل شأن ما في الارتفاع بمستوى تدريب القوات الاحتياطية وتخفيف العبء على القوات النظامية ولو قليلا .

وضرب الصهاينة بالهدنة الثانية أيضا عرض الحائط وشنّوا هجمات متتالية على مواقع القوات المصرية التى تجاوز طول جبهتها ثلاثمائة من الكيلومترات مما جعل المهمة الملقاة على عاتقها من الصعوبة بمكان ، إذ كانت قلة غير كافية والثغرات بينها واسعة لا تقع عليها عين ولا يكفلها دفاع . من أجل هذا تمكن الصهاينة من النفاذ من تلك الثغرات في يُسر دون أن يلقوا إلا مقاومة قليلة ، ذلك أن الجيش الزاحف كلما طالت خطوط مواصلاته وبَعُدت عن قاعدة انطلاقه كلما بات كقطعة المطاط التى باتت أدنى إلى التمزّق مع أوهن الضربات . وقد اضطرت قيادة القوات المصرية بفلسطين مرة أخرى إلى إعادة تقسيم الجبهة إلى مناطق وقطاعات وناطت بكل منطقة وقطاع قوة خاصة على قدر ماتسمح الظروف . وكانت للعدو قوة بحرية استطاع أن يفيد منها في نقل مايحتاج إليه بحرا من إمدادات ، وكنا عندها نفقد السيطرة على طرق مواصلاته البحرية مما سهّل له نقل السلاح دون أن يواجه ما يعترضه . ولقد جرّ خرق الصهاينة للهدنة أكثر من مرة إلى أن تنشب الحرب مرة ثالثة في الخامس عشر من أكتوبر ١٩٤٨ وبقيت طيلة خمسة أشهر إلى أن كان توقيع اتفاق الهدنة الأخيرة في ٢٤ فبراير ١٩٤٩ .

والحق إن التنسيق بين أسلحتنا البرية والجوية والبحرية لم يكن وثيقا على النحو المنشود . ولقد كانت الروح المعنوية بين صفوف القوات المصرية مرتفعة

لاسيا حين كُتب لها دخول فلسطين ، ولكن هذه الروح مالبثت أن خمدت شيئا حين تدفّقت الأسلحة والإمدادات على اسرائيل من كل حدب وصوب شرقاً وغرباً ، الأمر الذى هيأ لاسرائيل التفوق عُدّة وسلاحاً ، بينما لم يكن للجيش المصرى من تلك الموارد إلا ما هو محدود يُشْترى ولايوهب .

وما من شك فى أن إدارة المعركة سياسيا كانت على درجة كبيرة من التخلّف سواء من ناحية شرح أبعاد القضية تاريخيا وحضاريا أو كشف أهداف الصهيونية وتعبئة الرأى العام العربى والغربى ، وكذلك من الناحية العسكرية فقد كان للتدخل السياسى فى سير المعركة أسوأ الأثر ، فلم يكن ثمة غرض استراتيجى واضح أمام القوات المحاربة ، فغدت غايتهم الاحتفاظ بما يحتلون من أراض ، أما لماذا وكيف وإلى متى فكل هذا كان أمرا غامضا مشوّش الرؤية والهدف . ولقد تم للقوات المصرية أول مانشبت المعارك احتلال الفسيح من الأراضى جنوبى فلسطين ، واستمسكت بهذه الأراضى استمساكاً لا معدل عنه لأسباب رأتها الإدارة السياسية ، وبهذا أحسّت القوات قصور حركتها الميدانية ، وفقدت ميزة المبادأة التى انتقلت إلى العدو . وعلى حين أصبح الجيش المصرى يعمل على خطوط مواصلات طويلة مهددة كان العدو على العكس من ذلك يعمل على خطوط مواصلات متضامّة آمنة تتيح له خفة الحركة وكيل الضربات هنا وهناك . كذلك أملت السياسة على قائد القوات المصرية التقدم السريع فى مستهل الحملة إلى أن انتهى إلى المجدل وأسدود والخليل وبيت لحم ، فاضطرته هذه العجلة إلى أن يترك مستعمرات للعدو خلف خطوط مواصلاته لم تُطَهّر ولم تؤمَّن فأصبحت مثارا للتهديد الدائم . أضف إلى هذه كله أن الحكومة المصرية لم تتبيّن سياستها إزاء مشكلة فلسطين إلا قبل أن تصدر أوامرها للجيش بالتدخل بأربعة أيام فقط ، فكانت مفاجأة للقيادة المصرية لا لقيادة العدو كما كان ينبغى . وقد اضطرت هذه المدة القصيرة الجيش المصرى إلى أن يعد عدّته على عجل ودون استعداد كاف ، فضلا عن الظروف الصعبة الأخرى التى سلف بيانها .

ومما زاد الأمر عسراً وقوف الجيوش العربية موقف الدفاع فى أماكنها لا موقف الهجوم مما أتاح للعدو أن يواجه الجيش المصرى على انفراد بقواته كلها . وكذلك فإن التعاون كان شبه مفقود بين الجيوش العربية والجيش المصرى ، ولم تكن ثمة

قيادة موحّدة ، هذا إلى أن نوايا السياسة العربية لم تكن خالصة أو جليّة . كذلك كان القتال الليلى مفاجأة للجيش المصرى الذى كان تدريب جنوده عليه محدوداً كما لم يكن مستعداً له بأجهزة القتال الليلى المتاحة للعدو فظل مضطرا إلى خوض معاركه نهاراً فقط . وعلى العكس من هذا كان جيش الصهاينة مدرّبا على القتال ليلاً ونهاراً ومجهّزاً بوسائل القتال الليلى مُلِمّا الإلمام كله بمسالك الأرض التى يعمل عليها ، وهذا مما كبّد الجيش المصرى خسائر جسيمة كان فى الإمكان تجنّبها ، بينما كانت الكثرة من جنود الصهاينة قد شاركوا فى الحرب العالمية الثانية سواء منهم من كان مع الشرق أم الغرب فأفادوا من ذلك أيما فائدة .

أما ضباط الصف فى قواتنا فلم يكونوا على مستوى لائق ، ينقصهم التدريب كما تعوزهم الخبرة مما أثقل بهم عاتق الجيش ، وحرم الضباط من الاعتماد عليهم لقلة ثقتهم بكفاءتهم ، فكان إذا ما أصيب ضابط من الضباط لاتجد الوحدة من يخلفه فى مكانه . ولو أن ضباط الصف كانوا على قدر من الدراية لنابوا عن أولئك الضباط وسدّوا ثغرات كان الجيش فى حاجة ماسة إلى سدّها . أما قلة الطائرات التى كان يملكها سلاح الجو المصرى فقد اضطرته إلى استخدام طائراته فى غير ما خُصّص لها فحدثت البلبلة ، إذ أخذ كل نوع من الطائرات يشارك فى الغرض الذى ليس له ، مما حمّل الطيارين المصريين عبئا لا طاقة لهم به وعرّضهم مع طائراتهم لخسائر وتضحيات جمّة زادهاما كانوا هم عليه من الإقدام والجرأة . وأذكر بالفخر طياراً كان نموذجاً للتضحية الغالية والشجاعة النادرة حتى لقد عُدّ حينذاك أسطورة من الأساطير خافها الصهاينة وكانوا يرجفون بحق لذكر اسمه إلى أن لقى حتفه شهيداً فى المعركة ، هو الطيار « عبد الحميد أبوزيد » رحمه الله .

ومما يسترعى الانتباه حقا أن مراقبى الهدنة حينذاك وكلهم من الغرب لم يكونوا على مستوى الإنصاف والحياد بل كانت ميول بعضهم اسرائيلية . أقول هذا لأنى أربط بين ماكان يحدث من جولات بعضهم بين مواقعنا نهاراً ثم تتبعها الغارات الاسرائيلية ليلاً على نفس المواقع . تُرى هل كان ثمة ارتباط بين هذه وتلك ؟ علم هذا عند الله ، ولكنى أكاد أذهب إلى أن تلك المتع التى كان يهيئها الإسرائيليون لبعض هؤلاء المراقبين من ضعاف النفوس لاشك كانت تغريهم بالانحراف . وظهرت انحرافات أخرى لدى بعض الأعراب ممن كانوا يشتغلون

بالتجارة ، فلم يدركوا ما تمليه عليهم ضمائرهم فأغراهم الجشع إلى المغالاة فى الأسعار مما أرهق أهالى فلسطين وجعلهم يبرمون بحياتهم ، بينما كان الصهاينة حينذاك يشترون بأغلى الأثمان ، فدفع هذا هؤلاء التجار الجشعين إلى أن يستبدلوا بالأسواق الفلسطينية أسواقا صهيونية مما مكّن هؤلاء من شراء مقادير كبيرة من الأسمنت والوقود عاونتهم أشد العون فى حربهم ومكّنت لهم .

ومما كان يثير دهشتى خلال تلك الحرب أنه على حين كانت نشرة الأنباء المصرية تتصدرها مقطوعة موسيقية حماسية لمحمد عبدالوهاب كانت النشرة الاسرائيلية تتصدرها موسيقى رقصة الباكانال المعربدة من أوبرا « شمشون ودليلة » لكَامِيْ سَانْ صَانْص المعبّرة عن نشوة نصر الفلسطينيين القدامى (٤) فى غزة على بنى اسرائيل بعد أن أسلمت دليله الفلسطينية عشيقها شمشون الإسرائيلى إلى قومها الفلسطينيين . وما زالت دهشتى قائمة حتى اليوم ، كما لازلت أتساءل هل فاتت هذه الحقيقة الواضحة على الإذاعة الاسرائيلية ، أم تراها كانت تقصد تذكير الفلسطينيين الجدد بعودة شمشون من جديد ؟

أما ماقيل من أن سبب هزيمة الجيش المصرى فى فلسطين عام ١٩٤٨ الأوحد هو فساد الأسلحة والذخائر التى كانت فى أيدى الجيش فهذا حديث أراه متجاوزا الحقيقة . فلقد كنت خلال هذه الحرب أعمل كما أسلفت فى المخابرات الحربية بالقطاع الجنوبى من الميدان ، وما من شك فى أنى بحكم موقعى كنت على علم بما يدور حولى من شئون حربية ومنها تلك الأسلحة والذخائر . وكل ما حدث هو انفجار أربعة مدافع ٢٥ رطلا عن خطأ فى تعبئة ذخيرتها الإنجليزية . وكان مثل هذا الحادث قد وقع بالجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية ، وأثبتوا هذا فى مراجعهم التى وصلتنا فى مصر بعد انتهاء الحرب فى فلسطين ، واستدراكا لما وقع قامت المصانع البريطانية بإصلاح هذا الخطأ فى ذخيرتنا بعد إيقاف القتال .

ولا أعنى بتسجيل هذه الحقيقة تبرئة ذلك العهد مما استشرى به من فساد ، فلقد كان عدد من رجال القصر والحاشية نفسها قد فرضوا لأنفسهم عمولات على صفقات شراء الأسلحة والذخائر فى تلك الظروف التى كانت فيها أرواح الآلاف من رجالنا معرّضة للخطر فى كل لحظة يتأخر فيها وصول الأسلحة ، فتحوّل هؤلاء إلى الاتجار بأرواح الشعب إلى جانب الاتجار بأقواته ، ومن هنا قامت حملة

الأسلحة الفاسدة . وقد حدث بالفعل عندما اجتمعت لجنة الاحتياجات فى عام ١٩٤٨ لمد الجيش بما يحتاج إليه من أسلحة ومعدات بطريقة لاتخضع للقيود الرسمية أن قامت منافسة بين بعض ضباط سلاح المهندسين و بين نفر من ضباط الذخيرة والمفرقعات من صغار النفوس لتولى هذه المهمة التى لم تخضعها اللجنة لرقابة الضباط الفنيين المتخصصين فى الأسلحة والذخيرة والمفرقعات، وهو ما أتاح الفرصة لآخرين من مدنيين وعسكريين ممن لم تكن لهم الدراية اللازمة الى المشاركة فى جلب الأسلحة والذخائر حتى رأينا الأمير عباس حليم يشارك فى جلب صفقة من تلك الأسلحة وهى صفقة المدفع الإسبانى عيار ١٠٥ مم وذخيرته ، كما قام عبد اللطيف أبورجيله بجلب صفقة الذخيرة عيار ٧٥ مم للدبابات شيرمان من مخلفات الحرب العالمية الثانية فى المسرح الأوربى ، وكذا قام غيرهما بجلب صفقات من القنابل اليدوية من إيطاليا ، وكذا ذخيرة ٠,٣٠٣ من إنجلترا وقنابل من مخلفات الجيش البريطانى فى الصحراء الغربية . والغريب فى هذا أن تلك الذخائر المستجلبة لم تحظ بتفتيش الفنيين المصريين عليها قبل أن تُشحن إلى مصر وفق العُرف السائد . وكان أن اكتشف ضباط الذخيرة الفنيون أن أكثر ما استجلب على أيدى هؤلاء الدخلاء كان غير صالح فطالبوا بإتلافه ولكن طلبهم لم يلق أذنا صاغية ، وشاء الله أن تنفجر هذه الذخائر وحدها تلقائيا فى شهر من شهور الحرّ المعروفة وهو شهر أغسطس ١٩٤٩ ، وكان لهذا الانفجار أثره فى إشعال حريق الجيوشى . ولو أن هذه الذخائر الفاسدة قد وصلت إلى ميدان القتال لكانت عاقبتها وخيمة ماديا ومعنويا .

وانتهت الحرب وأثير هذا الموضوع فإذا الاتهامات تُتقاذَف ، يُلْقى كل فريق التبعة على غيره ، وشنّت الصحافة حملتها ، وإذا الكاتب الأديب إحسان عبد القدوس يدلى بدلوه فى الموضوع بمجلة روز اليوسف بشجاعة فريدة ارتقت به كصحفى مرموق . و يذهب فى اتهاماته إلى أن سبب هزيمة الجيش المصرى فى فلسطين مرجعه إلى الذخيرة الفاسدة التى تسرّبت إليه مع أن هذه الذخيرة كما قلت لم يستخدمها الجيش المصرى فى فلسطين . وكانت الفرصة مواتية لقيادة الجيش لأن تجعل الهزيمة التى منيت بها مردّها الى هذا الذى أثير على لسان هذا الكاتب . كما وجد حزب الوفد الفرصة مواتية أيضا لأن يتهم السراى ويجعلها

شريكة فى هذا الموضوع فأثار استجوابا فى مجلس النواب يسائل فيه المسئولين عن هذا . وردّت السراى تبرّىء نفسها ، وإن كانت شريكة فى جلب الأسلحة والذخيرة الفاسدة التى أشرت إليها . وكان إثبات الرشوة من العسر بمكان على النيابة العامة فجعلت الاتهام مرجعه إلى أسباب فنية . ولقد شغلت النيابة العامة بهذا الموضوع سنين بدأت من أكتوبر ١٩٥٠ وانتهت سنة ١٩٥٣ أى إلى ما بعد قيام الثورة ، فحُفظت بعض الاتهامات وأحيل بعضها إلى المجالس العسكرية العليا وأحيل البعض الآخر إلى محكمة الجنايات .

على أنه بالرغم مما منيت به قواتنا المسلحة من خسائر فى فلسطين كان مردّها إلى الأسباب التى ذكرتها قبل ، كانت هذه الحرب على أية حال تجربة أيقظت العرب من سباتهم وكشفت لهم عما هو محدق بهم من خطر إسرائيلى يعاونه تأييد شامل من الدول شرقا وغربا ، وكانت بحق أول صراع تمتحن به القوات المسلحة المصرية بعد فترة من ركود طويل . وعلى الرغم من أن ما كان بين يدى الجيش من أسلحة كان محدودا قليلا إلا أن ضباطه وجنوده قد بذلوا من التضحيات مالايستوعبه وصف ، وكم عاشوا أياما وليالى فى مستهل الحرب على الكفاف . ومع هذا فقد قبلوا هذه الأوضاع راضية نفوسهم مطمئنين إلى أنهم يؤدون واجبا مقدسا لاينظرون إلى غيره ، ملبّون مايُلقى إليهم من أوامر دون برم أوضيق ، ولعل فى هذا مايفسر تلك الانتصارات الأولى التى أحرزها الجيش المصرى . وكما عوّدتنا المرأة المصرية من مشاركة للرجال فى الشدائد من قديم الزمان ، فقد لمسنا بوضوح وجلاء ما كان منها فى الحرب الفلسطينية من وقفات كريمة إلى جانب الجيش المصرى ، فلم تدخر وسعا فى تمريض الجرحى ومواساة الأسر المنكوبة كما قامت بخدمة اللاجئين الفلسطينيين فى معسكراتهم المختلفة .

* * *

٤
تنظيم الضباط الأحرار

عدنا إلى القاهرة بعد أمل ضاع ، حزانى موتورين وفى نفوسنا ثورة لم نستطع التعبير عنها أو الإفادة منها أو توجيهها . لقد تضافر الاستعمار العالمى مع الحالة السياسية المصرية المضطربة المزرية ، والموقف الرّث لأساليب الحكم فى الدول العربية عامة ، ونتج عن ذلك كله تلك الهزيمة الشاذة التى لم تكن فى واقع الأمر هزيمة عسكرية بل هى تخاذل وتخبّط للسياسة العربية كلها .

وعُيّنتُ بإدارة التدريب الحربى فى رياسة هيئة أركان حرب الجيش ، وعُيّن جمال عبد الناصر مدرّسا بكلّية أركان الحرب ، وعيّن عبد الحكيم عامر برياسة سلاح المشاة ، وبدآ يدعوان إلى تشكيل تنظيم جديد أطلق عليه « الضباط الأحرار» ، وكان من الطبيعى أن أنضم إليهما فور إبلاغهما لى بالشروع فى العمل . كان جمال عبد الناصر هو الداعى الأول لهذا التنظيم ومن ثم فقد أسلمنا إليه القياد ، فما شهدنا عليه إلا نزاهة مسرفة فيما يفعل ويأتى ، وتضحية من أجل الغير ، وإنسانية فيّاضة ، وحرصا على إغاثة كل من تنزل به نازلة مادية كانت أم معنوية ، وبذلا لجهده وماله ووقته فى سبيل قضيه مصر التى كانت شغلنا الشاغل ، فضلا عن حنكته السياسية ودرايته العسكرية وتجرّده المثالى . كانت

هذه الصفات التى طُبع عليها هى التى أهّلته لأن يقود وأن يسوس وأن يكون منا موضع تقدير وإعزاز. و بقدر ما كانت لقاءاتنا به جادة ومثمرة بقدر ما كان يتخلّلها مرح مستفيض ، إذ كان رحمه الله يتميّز بخفّة ظل فريدة ، كما كان يملك قدرة على السخرية اللاذعة التى عادة مايغلّفها بدعابة تخفّف من قسوتها .

وذات يوم من عام ١٩٤٩ وخلال حملة للبوليس السياسى على أحد مقار جماعة الإخوان المسلمين عُثر على كتاب سرى من الكتب الخاصة بالجيش المصرى فى استخدام القنابل اليدوية عليه اسم اليوزباشى جمال عبدالناصر، وهو أمر يحظره نظام الجيش . من أجل هذا استدعاه ابراهيم عبدالهادى باشا رئيس الوزراء إذ ذاك ليسائله فى هذا الأمر بحضور الفريق عثمان المهدى رئيس هيئة أركان حرب الجيش . وكان جمال لبقا حاضر البديهة فى تخلّصه من هذا المأزق إذ قال إنه كان قد أعار هذا الكتاب لليوزباشى أنور الصيحى زميله فى الجيش ، وكان قد استشهد فى حرب فلسطين . ولقد أحس جمال بعد هذه المواجهة أن البوليس السياسى سوف يتعقّبه كما سوف يتعقب من يتصلون به فخفّ إلىّ ليلقانى وليحذّرنى ، كما أوصانى أن أنْهى هذا التحذير إلى صديق لنا ثالث كان على صلة وثيقة بى كما قلت قبل وهو خالد محيى الدين ، وطلب منى أن أدعوه إلى المرور به ليلقاه . وكان هذا الحادث بدء التفكير فى تكوين تنظيم الضباط الأحرار على وجه أكثر دقة وأعمق فهما . وقد علمتُ بعد أن نجحت الثورة أن جمال عبدالناصر فكر منذ ذلك اليوم فى أن يُنظم شبه قيادة من نفر من الزملاء يكون إليها التفكير فيما سيكون وما يصحّ أن يضطلع به الضباط الأحرار. وكان هؤلاء الزملاء الذين فكر جمال ليجعل منهم هذه القيادة سنة ١٩٤٩ هم كمال الدين حسين وخالد محيى الدين وحسن ابراهيم . و بعدها كاشفهم بأنه لايكتم عن صديقه عبدالحكيم عامر سرا ، ولذا رأى أن يضمه إلى تلك الجماعة . وكما فعل جمال فعل حسن ابراهيم فضمّ عبداللطيف البغدادى ، ثم انضم صلاح سالم ، ومالبث أن ضم هو الآخر شقيقه جمال سالم ، و بأَخِرة ضمّ جمال عبدالناصر أنور السادات سنة ١٩٥٢ . وكان طبيعيا أن يبقى هذا التشكيل سرّا خفيّا على الجميع .

وخلال سنتى ١٩٤٩ و١٩٥٠ أصبح التنظيم حقيقة حلّت محل الإيمان والعقيدة فى نفوسنا ، ثم أخذ هذا التنظيم يمتد إلى ما وراء نطاقه المحدود ،

فبدأ يمتد إلى أسلحة الجيش المختلفة ، بل وبدأ يمتد إلى خارج القوات المسلحة ، فقد كانت للمنشورات السرية أثر بعيد فيما دبّ بين الضباط من يقظة وترقّب . ففي الوقت الذى كانت قيادة الجيش تضرب فيه نطاقا حديديا من الرقابة على تحركات الضباط ، وفى الوقت الذى كانت فيه قيادة الجيش تظهر بمظهر القوى المستبد ، وفى الوقت الذى كانت تتجه فيه إلى التنكيل بكل من تسوّل له نفسه التمرد على طاعتها أو الخروج على إرادتها ، فى هذا الوقت عرف الضباط الأحرار طريقهم إلى الضباط على اختلاف مواقعهم فى أسلحة الجيش ، فقاموا بتوزيع المنشورات التى تناقش الموقف السياسى وتكشف عن مساوئه ، وتعرض لسياسة التخبّط والارتجال وتنادى بالحرية والتحرّر . وكانت كتابة هذه المنشورات وطبعها ثم توزيعها على تلك الصورة التى شاعت بها بين الأسلحة ، كان كل هذا كافيا للتدليل على أن تنظيم الضباط الأحرار أقوى من أسلحة البطش ، وأقدر على مواجهة الجبروت ، وأصلب عزما على كسر هذه الحواجز بين الضباط ، بل بينهم وبين الرواد الوطنيين من الشباب خارج هذه الأسلحة .



وقد بدأت منشورات الضباط الأحرار تصدر تباعا منذ عام ١٩٤٩ متضمّنة هجوما عنيفا على الاستعمار البريطانى وعلى عناصر الفساد سواء فى القوات المسلحة أم فى السراى أم فى الحكومة ، وكذا كانت تحضّ على التمرد والثورة والعصيان بين ضباط الجيش خاصة وتكشف الظلم والفساد للشعب عامة ، وذلك لإيماننا بأن ثورة الشعب لا يمكن أن تظفر بالنجاح إلا إذا آزرها الجيش ووقف حاميا لها ، كما كانت تلك المنشورات تهاجم بعض القيادات فى الجيش . أما كيف كانت هذه المنشورات تُطبع وكيف كانت تُوزّع فقد احتال التنظيم لهذا وذاك بحيل كثيرة حتى تجد طريقها إلى مختلف الصفوف . كانت تُرسل فى خطابات تكتب عناوينها بأيد مختلفة ، كما كانت ترسل من جهات مختلفة لتضليل الرقابة ، بل لقد كانت تجد طريقها فى بعض الأحوال

إلى ضباط الجيش على أيدي الضباط الأحرار أنفسهم يحملونها فى حقائبهم إلى إخوانهم فى كل سلاح . وكان الذى يتولى هذا وذاك ـ أعنى اختيار الموضوع والصياغة والتوزيع ـ خالد محيى الدين وجمال عبدالناصر .

وكان أن أصبح كل من تصله هذه المنشورات عضوا فى التنظيم دون أن يعرفه التنظيم . أصبح هذا واضحا من حرص كل ضابط يتلقى منشورا من هذه المنشورات على أن يكتم سرّه ، يخاف على هؤلاء الإخوة من هول ما قد يصيبهم لو أن أمرهم ذاع . وسرت موجة من التعاون الخفيّ بين ضباط التنظيم وبين الضباط خارج التنظيم ، تعاونا قلّ أن يحدث مثله دون تعارف شخصى . وما كان هذا التعارف الشخصى يُغْنى شيئا ، فقد التقت إرادة هؤلاء جميعا حول مافى المنشورات من أفكار ومن حقائق ومن عزم صحيح على عمل شىء للخلاص . ولم تكنْ حركة التنظيم نوعا من أنواع التمرد أو العصيان ولا تعبيراً عن طموح فئة تسعى إلى القوة والجاه ، ولكنها كانت انعكاسا لكل ما كان يساور النفوس من اتجاهات وآمال . لهذا كانت الصفوف المتراصّة خارج نطاق التنظيم تحمى بطريقة إيجابية تنظيم الضباط الأحرار .

ولعل من ردّ الحق إلى أصحابه أن أذكر هنا أنه كانت ثمة تشكيلات سرّية عدّة بين صفوف ضباط الجيش منذ بداية الأربعينات لها هى الأخرى منشورات طُبعت ووزّعت . ولم تكن تلك التنظيمات على صلة وثيقة فيما بينها ، بل كان لكل تنظيم وجهته واستقلاله . وكان من بين هذه التنظيمات تنظيم بسلاح الفرسان يمسك بزمامه اليوزباشى جمال الدين منصور الذى كان بعدُ سفيرا لمصر فى يوغوسلافيا ، ولقد أخذ تنظيمه هذا يمارس نشاطه منذ عام ١٩٤٥ ، وكانت له منشورات بلغت العشرين تُمْهر باسم « ضباط الجيش » . وكان ثمة بطل مجهول وراء كتابة هذه المنشورات على الآلة الكاتبة وطبعها هو المواطن المدنى محمد شوقى عزيز ، بعد أن يعدّها ويصوغها جمال منصور . ثم كانت حملة للبوليس السياسى والمخابرات الحربية تعقّبت هذا التنظيم مما اضطر معه إلى التلبّث عام ١٩٤٨ ثم عاود نشاطه بعدُ ، وأخذ فى إصدار منشوراته .

وكان ثمة لقاء بين الأخ خالد محيى الدين والسيد جمال منصور انتهى الأمر بعده بينهما إلى أن يتعاون تنظيم الفرسان مع تنظيم جمال عبدالناصر - الذى أنشأه عام ١٩٤٩ - فى طبع المنشورات التى صدرت ممهورة باسم « الضباط الأحرار » ، وكان جمال منصور هو من اقترح هذا الاسم ، ثم مالبث هو الآخر أن انضم بعد قليل إلى هذا التنظيم الجديد .

وعند صدور المنشور الثانى الذى صدر فى ٢٢ ديسمبر ١٩٤٩ علم بأمره البوليس السياسى وجمعه كله من البريد قبل أن يصل إلى أصحابه ، ورأى عبدالناصر حرصا منه على أمن المسيرة أن تنقل الآلة الكاتبة وآلة الطباعة إلى بيت قائد السرب عبدالرحمن عنان ، ثم إلى بيت البكباشى حمدى عبيد ، إلى أن انتهى المطاف بهما إلى الحركة الديمقراطية للتحرّر الوطنى « حدتو » التى كانت لها جهودها الإيجابية المساندة لأهداف التنظيم ، فاضطلع القاضى أحمد فؤاد [رئيس مجلس إدارة بنك السويس الآن] بكتابة المنشورات على الآلة الكاتبة بمكتبه بالنيابة العامة ثم طبعها على آلة الجستتنر الخاصة بـ « حدتو » ، كما اشترك أعضاء هذه الحركة من الضباط فى كتابة العناوين . وقد تبدو الآن هذه المهمة سهلة يسيرة ، تنقل ورقا من هنا إلى هناك ، ولكنه لم يكن ورقا عاديا ، إنما كان منشورات سرية للضباط تحضّهم على الثورة بيد رجل عسكرى ومن هنا تأتى خطورتها ، ومن ثم كانت هذه العملية تتطلب رباطة جأش وقوة أعصاب وعزما وإرادة لن تتوفر إلا لمن يضعون إيمانهم فوق رغباتهم . ولن ننسى تلك الأيام التى كان خالد يتجوّل فيها حاملا فى حقيبته الدليل المادى الذى يمكن أن يؤدى به إلى الإعدام رميا بالرصاص ، وكان يمضى مع هذا دون أن تضطرب خطاه الهادئة أو تتضاءل ابتسامته الودودة أو يستشعر أنه يؤدى عملا خطيراً إذ كان يؤمن أنه يقوم بواجب قومى لا معدل عنه .

* * *

ويمكن للقارىء أن يدرك مستوى النضج السياسى الذى بلغه الضباط الأحرار ومدى إحساسهم بنبض الشعب بآماله وآلامه حين يقرأ ما سجّلوه فى منشوراتهم قبل أن تبدأ الثورة ، فسوف يرى فيها أغلب مطالب المثقفين المصريين وأكثر رجال السياسية وطنية وإخلاصا لمصر . فقد أداروا منشوراتهم حول مطالب محدّدة مثل القضاء على الاستعمار الأجنبى الأنجلو أمريكى وأعوانه المحليين من السياسيين ورجال القصر والصحفيين المرتشين ، وإطلاق الحريات العامة للشعب وتكوين جبهة وطنية وإقامة جيش وطنى مجهّز بأحدث الأسلحة وأقدرها على حماية الوطن . بل يمكن أن نتبين منه ارتباط هؤلاء الضباط بأمتهم العربية التى كانوا يؤمنون بأن من واجبهم أن يساهموا معها فى استرداد فلسطين . إن مثل هؤلاء الضباط بمثل هذا الوعى لا يمكن اتهامهم كما يزعُم البعض بسرقة أفكار المثقفين واقتصار دورهم على تنفيذها . لقد كانت هذه المطالب دما يجرى فى عروقهم بقدر ما كانت دماً يجرى فى عروق جميع الشرفاء ، مثقفين مدنيين وفلاحين وعمالا وموظفين وطلبة فى المستويات المتوسطة . فما يمكن لأحد أن يزعم أن الثقافة وقف على خريجى الكليات المدنية أو كتاب الصحف والمجلات ، أو أن الكليات العسكرية تقام داخل أسوار لا تتسرب إليها الثقافة ، فتلك سذاجة فجّة ممن يجهلون للأسف كثيرا من الحقائق حول الدراسة فى المعاهد العسكرية بمختلف درجاتها ، ولكن بعضا من المتصدّرين للنيل من العسكريين لا يعرفون للأسف كثيرا من هذه الحقائق البديهية ، ولا أعتقد أن نسبة غير المثقفين من بين الضباط تختلف كثيرا عن نسبتهم بين خريجى الكليات المدنية . ولست أعنى بهذا أننى أشايع قيام نظام حكم عسكرى ممتد ، فمن المسلّم به أنه ليس النظام الأمثل للحكم فى أى مكان فى العالم حسب ما نستقرئه من أحداث التاريخ .

حقا إن التعميم خاطىء حتى لو صدر عمّن يزعم لنفسه أنه مثقف أو مؤرخ أو محلّل . ترى أكان من الخطأ أن يتبنّى بعض الضباط مطالب شعبهم التى ينادى بها مثقفو بلادهم ويخرجوا حاملين رءوسهم على أكفّهم ليواجهوا الملكية والاستعمار بكل ما كان لهما من بأس وسطوة ، ويخلعوا الملك عن عرشه ، ويجعلوا مصر جمهورية

مستقلة ؟ وإذا فرضنا جدلا أن هؤلاء الضباط لم يكونوا يوم قاموا بهذا العمل الجسور إلا مجرد أداة تـنـفـيـذيـة لأفكار المثقفين ، أفلا يستحق هؤلاء الضباط ولولمسة وفاء وكلمة تقدير لتحركهم ليلة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ وحملهم عن عاتق المثقفين عبء القيام بثورة اجتماعية يعلم الله وحده كيف ومتى كان سيقوم بها المثقفون ؟

* * *

وفى أكتوبر ١٩٥١ حدثت مفاجأة جديدة عندما أعلنت حكومة الوفد إلغاء المعاهدة المصرية البريطانية ، وبدأ الفدائيون يعملون لتطهير منطقة قناة السويس من جنود الاحتلال . وبرغم ما قيل من أن الحكومة لجأت إلى هذا الأسلوب لتطيل بقاءها فى الحكم وتوريط القصر أمام الرأى العام ، برغم هذا فقد قرر الضباط الأحرار أن يدخلو المعركة جنبا إلى جنب مع الفدائيين ، ومنهم من كان من الإخوان المسلمين ومنهم من كان من التنظيمات التقدمية ، استشهد من بينهم الكثيرون ، يجمعهم هدف مشترك هو حماية الوطن . وكانت تجربة جديدة ، أخذ فريق من الضباط الأحرار أذْكر منهم الأبطال الفدائيين كمال رفعت رحمه الله ولطفى واكد وحسن التهامى وغيرهم يقصدون منطقة القناة مع عطلة آخر الأسبوع إذ لم يكن يسيرا عليهم الحصول على الأجازات ليشتركوا اشتراكا متصلا فى المقاومة ، وأخذ البعض يدرّبون الفدائيين على استعمال السلاح فى أماكن متفرقة من القاهرة ، وأخذ فريق ثالث يجمع السلاح من الأسواق ويختبره قبل تسليمه للفدائيين . ومضى فريق رابع يحمل الذخيرة والقنابل ويجوب بها شوارع القاهرة لتسليمها لفرق الفدائيين بعد أن يستوثق من قدرتهم على استخدامها . وهكذا شارك الضباط الأحرار مشاركة فعلية فى معركة القناة تدريبا وإمدادا وقتالا على الرغم مما كان يجابههم بفعلهم هذا من مخاطرة قد تؤدى بأرواحهم وتعرّضهم للسجون والتشريد ، ولكن أملهم فى المستقبل كان عظيما ، وأنه لابد من تغيير سيقع . وأما عنى فقد أصدرت بالاشتراك مع صديق العمر الصاغ أحمد وحيد الدين حلمى فى نوفمبر ١٩٥١ كتيبا بعنوان « أصول حرب التحرير » أشرف على إخراجه فنّيا الفنان عبدالعزيز صادق ، موجّها إلى المدنيين لتعليمهم كيفية اقتحام

معسكرات الاحتلال وقضّ مضاجع المحتلين نشدانا للخلاص ، تناول القواعد العامة للمقاومة الشعبية وتدريبها وأصول التسلّل والنسف والتدمير والحريق ومهاجمة المعسكرات والسفن والمطارات والقتال الليلى والقتال من بيت إلى بيت وعبور الأنهار والقنوات واختراق الأسلاك الشائكة واقتحام الموانع ، وبيع هذا الكتيب بسعر التكلفة . وقد طُبعت من هذا الكتيب طبعة ثانية مجانية بعد هزيمة ١٩٦٧ أصدرتها وزارة الثقافة لتعزيز المقاومة الشعبية بعنوان « دعوة البطولة والمقاومة الشعبية » .

وكنت وقتذاك أحد ضباط التدريب الحربى برياسة أركان حرب الجيش كما أسلفت ، وكان على رأس هذه الإدارة اللواء سعدالدين صبور رحمه الله الذى كان من ألمع ضباط الجيش علما وكفاية . وذات صباح من عام ١٩٥١ استدعانى وتدرج فى الحديث معى حتى وصل إلى موضوع منشورات الضباط الأحرار وفاجأنى قائلا : « إنى لأكاد أحسّ فى تصرفاتك ما يجعلنى أشك فى أنك من الضباط الأحرار ، ولست أدرى لم يهاجمنى هؤلاء الضباط فى منشوراتهم ؟ » . وكان الموقف يملى علىّ أن أنكر صلتى بهذا التنظيم ، وبقى يلحّ علىّ فوعدته بأن أسعى سعيى للاتصال بمن أتوسّم فيه أنه منهم وأسأله عن الأسباب الداعية إلى مهاجمته . وذكرت ذلك لجمال عبدالناصر فيما كان يدور بينى وبينه من حديث حول التنظيم ، فعهد إلىّ أن أطلب من اللواء صبور أن يساعدنى فى مدّ التنظيم بالذخيرة والقنابل اليدوية ليثبت بذلك أنه على ولاء للقضية الوطنية . وعدت إلى اللواء صبور أكاشفه بما أحمل فاستجاب لى وسألنى ما السبيل إلى ذلك ؟ فاقترحت عليه أن نمرّ معا على ميادين الرماية لنأخذ منها ما استطعنا من ذخيرة ، وكان هذا يعنى أن يستنفد الجندى فى الرماية شيئا ويستبقى شيئا نحوزه نحن . ومضى اللواء صبور ينفّذ وعده وما أخلّ به . وكنت أحمل هذه الذخيرة والقنابل اليدوية كل صباح فى عربتى إلى بيتى أولا ثم أنقلها بعد ذلك إلى بيت جمال عبدالناصر أو إلى المرحوم المحامى عبدالوهاب حسنى أو إلى اليوزباشى مجدى حسنين الذى كان يودعها مؤقتا بأحد مخازن سلاح خدمة الجيش لحين توزيعها على القائمين بالفداء . وهذا - أعنى استقطاع قدر من ذخيرة تدريب الجنود - وإن كان يبدو لأول وهلة عملا غير مشروع ، غير أنّا كنا فيما بيننا وبين أنفسنا نبرّره بسعينا لغرض أسمى وأرفع وهو

الدفاع عن الوطن ضد جنود الاحتلال ، وكان هذا الغرض هو الواجب الأول للجيش فلم يكن من الغريب أن يُمَدّ الفدائيون ببعض أسلحة الجيش و بخبرة رجاله .

غير أنى رأيت أن جمال عبد الناصر لم يسكت عن مهاجمة اللواء صبور فى منشورات التنظيم على الرغم مما أبداه لنا من عون ، فاعترضت على ذلك ، لكنه لم يأخذ باعتراضى بحجّة أن هذا التشهير سلاحٌ علينا أن نستفيد منه إلى أبعد مدى .

وكنت آنذاك مسئولا عن تدريب سلاح الفرسان [المدرعات] فضلا عن كل مايتصل بكلية أركان الحرب و بالنشر الحربى فى القوات المسلحة . وكان من أهم واجباتى الاختلاف إلى وحدات سلاح الفرسان مع كل صباح فى ميادين الرماية أوساحات التدريب التكتيكى للمدرعات . ومن ثم كانت صلتى بضباط السلاح تكاد تكون متصلة منذ الثامنة صباحا حتى الحادية عشرة حين أقصد مكتبى برياسة الجيش ، الأمر الذى جعل علاقتى بهم وطيدة ، فلقد نشأت بينى و بينهم الُلفة وثّقت تلك الصلات ، هذا إلى أنى كنت من ضباط هذا السلاح من قديم . غير أن هذا لم يكن من شأنه أن يتيح لى الفرصة لاختيار من أجنّده من بينهم للتنظيم على النحو الذى يتاح لقائد يشارك ضباطه قيامهم ونومهم وعملهم وتدريبهم وأوقات فراغهم فى معسكر منعزل يعمّق التعارف بينهم ، وهو الأمر الذى أتيح لحسين الشافعى حين خرج يقود كتيبتين إحداهما للدبابات والأخرى للسيارات المدرعة استقرّتا على طريق السويس فى الصحراء عقب إلغاء المعاهدة فخلا لَهُ الجو كى يتخيّر من بين الضباط من يرى فيه الصلاحية للانضمام إلى التنظيم ، ووفِّق إلى أن يضم جملة وفيرة من ضباط السيارات المدرعة إلى التنظيم تجاوز عددها العشر ، على حين جنّد خالد محيى الدين ضباطا ثلاثة من الآلاى الأول المدرع قام اثنان من بينهم هما توفيق عبده اسماعيل وأحمد حمودة بضمّ عشرة ضباط آخرين . أما الفرصة التى أتيحت لى فكانت من خلال اختلافى اليومى إلى وحدات الفرسان التى كان الإشراف على تدريبها من صميم مسئوليتى ، وكنت أنتهز الفرصة كى أبثّ فى روع الضباط الأمل فى الخلاص والنهوض بالقضية الوطنية والتلميح إلى ماسنهيىء له من القيام بثورة على النظام القائم ،

جاعلا حديثى إليهم فيما يمس الأمور العسكرية الفنية المدخل الذى أنفذ به إلى قلوبهم . وكنت خلال هذا كله أعجم عودهم وأتبيّن مالديهم من صلابة وإخلاص وتفان فى سبيل المبدأ ، إذ كان العزم أن نسند إليهم فيما بعد مهام جسيمة .

وكان الجيش حينذاك يستعين بنفر من كبار الضباط الألمان استوفدهم للنهوض بمستواه . وكان من بين هؤلاء الضباط الجنرال مُونْزِلْ الذى كان أحد قادة المدرعات المرموقين تحت قيادة الجنرال العبقرى هاينز جُودِير يَانْ أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان من نصيبى أن نعمل سويا . وما من شك فى أنها كانت رفقة مثمرة نافعة أفدت منها الكثير، ولقيت عنه خبرة وعلماً وضعتها فى خدمة سلاح الفرسان . وكان لإخلاصه فيما يسوقه من نصح ومايفصح عنه من تجربة أثره فى الارتفاع بمستوى تدريب المدرعات المصرية . وخلال هذا وقعت لى نسخة من كتاب الجنرال هاينز جودير يان المعنون « قائد البانزر» (٥) فى طبعته الإنجليزية ، فانكفأت على مطالعته مشغوفا بما انطوى عليه من مادة غزيرة ، معجبا بالقائد الذى كان أحد صانعى التاريخ على نطاق واسع من خلال فكره العسكرى المبتكر فى استخدام المدرعات ، وإن قاد هذا الفكر إلى خاتمة لم يكن يتوقعها لوطنه الألمانى . ومع ذلك فقد كان كتابه القيم تسجيلا دقيقا للمعارك العظمى التى خاضتها القوات المدرعة الألمانية تحت قيادته والتى حقق بها ــ رغم ضآلة عددها ــ نصرا خاطفا حين اخترقت فرنسا فى مستهل الحرب العالمية الثانية متجهة صوب القنال الإنجليزى ، وأوشكت بعد عام واحد من اتجاهها نحو الشرق أن تقضى على الجيوش الروسية لولا تردّد القيادة العليا عن دعم انطلاقة جودير يان الجسورة . و يكشف هذا الكتاب الممتع عن أفضل المزايا التى تخلق القائد العسكرى العظيم من دقة الملاحظة وعمق التحليل وسرعة الرّد والثقة بالنفس والقدرة على مفاجأة الخصم وإبقائه فى حالة من الاضطراب الذى ينتهى به إلى الشلل ، هذا إلى جانب قدرته على تعميق المودّة بينه و بين جنده وتحريك إعجابهم والتأثير فيهم بما يحفزهم لبذل أقصى جهد ممكن . فقد كان شديد البراعة فى التحايل على جعل المستحيل ممكنا ، إذ كان واسع الخيال فى الإفادة مما لديه من معدات بإدخال تحسينات على بعض الأسلحة أوتطويرها والإسراع بتجربة ابتكاره ، وهو الأمر الذى لم يُقْدم عليه قائد عسكرى من قبل ، إذ كان ذلك

متروكا للإخصائيين المدنيين والعسكريين ، و يندر أن نجد فى التاريخ مبتدع فكرة تسنح له الفرصة كى يضع نظريته موضع التنفيذ والتطبيق . ولقد كان لجوديريان من القدرة على التخيّل الإنشائى والطاقة الديناميكية والجسارة فى استغلال الفرص التى تسنح له ماهيّأ له أن يخرج على العالم بنتائج ثورية فى فن الحرب . ومما أثار دهشتى أن وجدت بين ثنايا الكتاب اسم الچنرال مونزل يتكرر فى أكثر من موضع موشّى بالثناء عليه من قائده الأكبر فزادنى هذا إعجابا به ، وعُدت أستفسر منه تفصيل ماذُكر فى الكتاب عنه مجملا . وإذا بى أجدنى مسوقا إلى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية بعد أن وجدت فيه من الدروس ماينبغى أن يفيد منه كل مقاتل فى قواتنا المسلحة ، وقدمته إلى القيادة العامة للقوات المسلحة التى تولت طبعة ونشره وظهرت طبعته الأولى عام ١٩٦٠ فى جزئين ضخمين مزوّدين بالخرائط بعنوان « قائد الپانزر» .

وكنت قد قرأت فيما قرأت شيئا عن القائد المغولى چنكيزخان مما كُتب فى العربية لابن الأثير وابن الفرات ومحمد بن النسوى ثم علاءالدين عطاء الملك الجوينى وعبدالله بن فضل الله . ولقد كان يعوز بعضهم حديث لايعرفونه و يُملى على بعضهم الآخر بُغضٌ يحملونه ، فأصابوا فى شىء وأخطأوا فى أشياء . وفى ظل هذه البحوث الإسلامية نشأت محاولات غربية ما أشك فى أن هذا التراث الشرقى كان مادتها ، وكانت بعض هذه المحاولات ترجمة لما كُتب فى العربية و بعضها تأليفا استعين فيه بتلك المادة العربية . أقول لقد قرأت شيئا من هذا وذاك فهالنى هذا التاريخ ، ورأيت فى چنكيزخان فى مبدأ الأمر صورة من الفتوّة العارمة التى لا تأبه للشدائد ، والعنف الصاخب الذى يستهين بالمصاعب ، والإقدام الجرىء الذى يشقّ طريقه وسط العقبات . رأيتُ هذا كله فأعجبت به قائدا فذا من قادة الفرسان . لم تَعْنِنى صورته التى وقع عليها وإنما عنتنى الصورة التى حفزت إليه . ثم رأيته تاريخا بدأ على صورة وانتهى على صورة ، بدأ قاسيا فكان وحشيا وانتهى بالمشاركة فى ألوان من الحضارات ، وكان من هؤلاء الغزاة علماء ومشرّعون . ثم لقد كان تاريخا على كل حال شغل من تاريخ العالم صفحات طويلة ، وكان شأنه شأن كل غزو إن اتصف بالشرّ لما فيه من سلب وعدوان فله جوانبه الإيجابية لما فيه من إيقاظ للشعور وإثارة للهمم ، فأصدرت فى عام ١٩٥١ الطبعة الأولى من

كتاب « چنكيز خان » ، وما أردت أن أقف منه موقف المؤرخ وإنما أردت أن أجعل منه قصّة أقصها ، لا أسرده سرد المؤرخين بل أدع تفاصيل ذلك لهم وحسبي أن أستصفي منه دقيقه الحيّ . فلقد اكتسحت جيوش المغول الوديان والسهول والجبال والقفار والغابات لأنها كانت متّحدة متآخية ، يجمع بينها شعور واحد بخطورة ما تحمل من تبعات فحققت هذه القبائل البربرية المتوحشة معجزات عسكرية مازالت حديث التاريخ يقف عندها المؤرخون حيارى . وعلى الرغم من تخلّفها وتأخرها فإنها صرعت شعوبا ذوات حضارات عريقة وأذعن لبطشها أهل هذه الحضارات ، وذلك بفضل وحدتها وانقسام هؤلاء انقساما جرّهم إليه الترف الضالّ والشهوات العابثة والخلاف القاتل . كان بى إكبار حين أخرجتُ هذا الكتاب فى شبابى فى طبعته الأولى لچنكيزخان قائدا وفارسا ، تستهوينى المُثل الجريئة المملوءة شجاعة وإقداما ويستهوينى لو يشيع بين الناس ذكرُها . كما كان بى إشفاق على شعبنا العربى فأردتُ أن يجد من يقرأ هذا الكتاب منهم ما يوحى إليه بمواطن ضعف الشعوب وقوتها ، غير أن مرور الأيام جعلنى أشعر بالرثاء لچنكيزخان وللدولة التى أنشأها على الجماجم ، ولا أرى فيه إلا أحد مجرمى الحروب الذين يقتلون الأبرياء ويعصفون بالحضارات ويهدمون المثل الإنسانية ، لاتحفزهم إلى ذلك غير نوازع شريرة كامنة فى نفوسهم المريضة ، فسجلت تحوّل نظرتى هذه فى مقدمات الطبعات الأربع التى ظهرت بعد ذلك وآخرها عام ١٩٩٠ .

كذلك ترجمت عن الإنجليزية فى تلك الآونة رواية للكاتب الأمريكى الساخر ثورن سميث الذى بعثنى شغفى به إلى قراءة كل ماصدر عنه ، واخترت من بين مؤلفاته رواية « سروال القس » Bishop's Jaegers التى صدرت طبعتها الأولى سنة ١٩٥١ والثانية سنة ١٩٧٦ .

وكانت قيادة الجيش وقتذاك تطرح فى العام بعد العام مسابقات فى البحوث والدراسات العسكرية لتستحثّ الضباط على البحث والدراسة والتنقيب فيما يتصل بالاستراتيجية وفنون الحرب . وكانت لهذه المسابقات جائزة تعطى لأول المتسابقين تسمى « جائزة فاروق الأول العسكرية » . وقد سعدت بالفوز بالجائزة

الأولى عام ١٩٥١ عن موضوع « تأثير الأسلحة الذرية على الموقع الاستراتيجى لمصر » الذى نُشر بعد ذلك فى مجلة الجيش .

وإذ لم تكن نظم الجيش تبيح لضباطه الكتابة في الصحف والمجلات ، وكنت حريصا على أن تظهر لى دراسات فى موضوعات أدبية وفنية مختلفة ، لذا كنت أمدّ الصحف لاسيا صحيفة « المصرى » بمقالات متنوعة فيا بين عامى ١٩٤٥ و١٩٥٢ كانت تُنشر باسم ثروت محمود . على أن التعارض بين صفتى ضابطا فى القوات المسلحة وصفتى كاتبا لم يكن هو وحده الذى حدا بى لاختيار هذا التوقيع ، لكن ربما كان التردد هو السبب . وليس مما يخفى على أحد أن أى كاتب يبدأ مترددا يتلمّس الثقة بنفسه ، فإذا ما تأكد لديه أنه قادر على أن يطرق هذا الميدان واجه الناس بشخصيته كاملة . هذا التفسير أشعر به الآن بعد أن مرّت السنوات وتأكدت بى الثقة والقدرة على الكتابة ، أما يومها فلا أظن أنى كنت قادرا على أن أتبيّن هذه الحقيقة فى نفسى بل ربما كنت أنكرها لوأنها ألحّت علىّ .

وبعد أن أتممت دراساتى العسكرية العليا بكلية أركان الحرب رأيت أن أضيف إلى العلم العسكرى علما بشئون الأدب والصحافة . وكانت تُعقد حينذاك للقبول فى قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول مسابقة جُزتها والتحقت بالكلية ، وكان يزاملنى فى هذه الدراسة المرحوم الصديق يوسف السباعى . وحصلت فى عام ١٩٥١ من الكلية على دبلوم الترجمة والصحافة المعادل لدرجة الماچستير التى تؤهلنى لتسجيل رسالة للدكتوراة . وقد درست على أيدى أساتذة أجلاء يأتى على رأسهم الدكتور حسين كامل سليم والأستاذ محمود عزمى والدكتور عبدالله العربى والدكتور ابراهيم عبده والدكتور على راشد والدكتور سويلم العمرى والدكتور عبداللطيف حمزة ثم الدكتور لويس عوض الذى لفتنى إلى قدره تعدّد مناحى المعرفة فيه ، هذا إلى منهجه العلمى الشائق مما أفدتُ منه كثيرا . كما شدّتنى إليه مواقفه الليبرالية التى تجلّت أكثر ما تجلّت فى احتضانه تلامذته من مختلف المذاهب والجنسيات والعقائد ، فكان بيته مفتوحا لهم دائما بمكتبته الزاخرة بالمراجع الثمينة وبدفء ودّه الأصيل .

وإذ كنت شغوفا بالاستماع إلى الموسيقى بجانب المطالعة فقد كانت لى فرحة خاصة بخلاص العالم من الحرب العالمية الثانية ، فقد أتاحت نهايتها لمصر أن تفد إليها للمرة الأولى أجهزة الاستماع الحديثة المتميزة بنقاء الصوت high fidelity وكثرة من الأسطوانات التى تتسع لأعمال موسيقية تزيد فترة أدائها على الساعة long playing . بعد أن كانت لا تزيد قبل ذلك عن خمس دقائق ، فاجتذبت هذه وتلك أعدادا كبيرة من عشاق الموسيقى بقدر ما أتاحت للمبدعين مزيدا من الإمكانات التى تحفز مواهبهم .

كذلك عرفت الطريق مع كثرة من المصريين إلى دار الأوبرا التى كان جُلّ روادها الأُول من الأجانب بعد أن عادت تُحيي مواسمها الشتوية فرق الأوبرا الإيطالية وفرق الباليه الأوربية من أمثال فرقة المركيز دى كويڤاس وغيرها . أما مكانى فكان يتأرجح بين مقاعد الصفوف الأخيرة أو أماكن الوقوف الخلفية لوفق ماتسمح به ميزانيتى المتواضعة . وكان أن استقبلت القاهرة عام ١٩٤٦ حدثا فنيا باهرا فى حقل الموسيقى ، إذ وفد إليها أوركسترا ڤيينا الفيلهارمونى يقوده كليمانس كراوس ليقدم سبع حفلات متوالية متعددة البرامج بدار سينما ريڤولى ، ويعود الفضل فى تنظيم تلك الظاهرة الثقافية إلى طاهر باشا أحد ثراة مصر وقتذاك . وفى العام التالى وفد أوركسترا برلين الفيلهارمونى يقوده ولهلم فورتڤانجلر أعظم قادة القرن العشرين ليعزف فى نفس الدار سبع ليال متصلة . وكنت حريصا على ألاّ تفوتنى هذه الحفلات الأربع عشرة لا أنقطع عن واحدة منها .

ووجدتنى إزاء تلك الحفلات الأخيرة قد استبان الطريق أمامى ، فبعد سنوات طوال عاش العالم فيها على الاستماع إلى الموسيقى على نحو موضوعى مرسوم فرضه المايسترو العالمى توسكانينى ، إذا الأمور تختلف فنعود نسمع الموسيقى بأداء تعبيرى مطلق على يد فُورتڤانجلر الذى كان التجسيد الحق للتقاليد الرومانسية الألمانية ، فلم يلتزم بنص الكراسة الموسيقية حرفيا بل مضى إلى ماوراء الألحان باحثا عن جوهرها الخفىّ الذى يُضفى على الأداء الموسيقى روعة وجلالا ، حتى غدت لقيادة الأوركسترا على يديه صفة الخلق الفنى الذاتى ، فيحسّ المستمع وكأن عناصر الموسيقى جميعا نابعة من ذاتها لا طارئةٌ عليها ، فلقد وُهب فورتڤانجلر

قدرة يطوّع بها عصيّ الألحان وأعقدها فتبدو متسقة فى بناء موسيقى منطقى تسوده الوحدة الرابطة ، وأصبح ما طُبع عليه فورتفانجلر من حرية صفة لازمة لأسلوبه وإن عدّها البعض من الشطحات .

وفى حفله الأخير استمعت لأول مرة إلى « لحن الحب والموت » الشهير فى ختام أوبرا « تريستان وإيزولده » لريتشارد ڤاجنر ، المصحوب بالإنشاد المشبوب لإيزولده الوالهة ، وقد وقفت إلى جوار جثة حبيبها تريستان تنعيه قبل موتها وهى ترنو إليه وتناجيه شاديةً بقصيدة من نظم الموسيقار نفسه ، فإذا الجانب الرومانسى من شخصية فورتفانجلر يُطلق العنان للعواطف الجيّاشة والشعور الفيّاض تسرى فى السطور الموسيقية المتدفّقة وكأنها لا تتناهى ، وقد أجيز لنفسى أن أسوق هذا النشيد بلغة عربية :

على شفتيه الباسمتين
ترفّ أرقّ عذوبة
غرامٌ جيّاش
يسبح فى عينيه
أَتَرَوْن معى .. أم خَفِيَ عليكم يا صحاب ؟
إشراقٌ يتجلّى
يتلألأ
يلمع تحت بريق النجم
يُحلّق أعلا .. أعلا
أَتَرَوْن معى
خفقان قلبه
يعلو فى مهابة
بجلال يتسامى
يطفو فوق الصدر
والغبطة وادعة تنحدر من شفتيه
أنفاسا عذبة
تخفق حانية .
يا صحابى .. القوا نظرة
ألا ترون
ألا تحسّون

أم وحدى أسمع
هذا اللحن ؟
ماأعجب .. ماأحنى مافيه من الغبطة وهى تئن
وتبوح بكل الأسرار
وتوائم فى رقة
تطفو من جسده
لتغوص إلى أعمق أعماقى
ولتسمو عالية
فى أصداء غرام
ريّان حولى
وتعود تدوّى
حولى سابحة .
أتُراها أمواجا ،
أم نسمات من ريح عذبة ؟
أم غيما من عطر آسر
ينتشر و يعلو
و يدمدم حولى
أتُرانى أستنشق
أتُرانى أصغى
أتُرانى أرشف
أم أغرق نفسى
فى الشذى الجذّاب
أتنسّم آخر أنفاسى
وسط الجيشان الصاخب
فى رجع الصوت
فى الرحب الممتد الشامل :
أنفاس الكون .
فلأ غرق
فلأ هوى حتى الأعماق
بلا وعى
فى نشوة الوصال الباهرة .

هذا الشعور الغامر الذى تولّى العاشقة هو هو الشعور الذى تولاّنى حين استمعت إلى موسيقى ر يتشارد ڤاجنر للمرة الأولى فى تلك الأمسية البعيدة منذ أربعين سنة ، فإذا أنا بموسيقاه مولع بعد أن أصبحت الموسيقى مع ڤاجنر غاية الأوبرا وكانت فى الأصل وسيلتها . أسرتنى تلك الخليّة اللحنية بما فيها من تدفّق واسترسال ينقل المستمع من عالم الواقع إلى عالم الخيال ، وقد تناوبتها تفاعلات جمعت بين شتى ضروب الصّنعة الموسيقية من ارتقاء وهبوط ومن انفصال والتحام ومن ارتفاع وخفوت ثم من تصارع وتعانق ، تارة يكون اللحن على العكس من اتجاهه ملحوقا باللحن نفسه فى طبقة أخرى وعلى طابع آخر ، وتارة يُساق اللحن مصغّرا وتارة أخرى يُساق مكبّرا ، بما يجعل الإحساس مرهفا مشدودا بالأسطورة وبالمأساة حين يستخدم ڤاجنر آلة الهارپ للإيحاء بالتاريخ والأسطورة والغموض ، والآلات النحاسية فيما يؤيّد الأسطورة و يُبرز البطولة . ومن هنا كان اللحن متجدّدا بالرغم من تكراره ماينيف عن ثلاثين مرة ، مازجا بين مضمون الفاجعة بأصدائها المختلفة سمعيةً ومرئيةً وبين كل من الشخصيتين الرئيستين والموقف الدرامى ، وجامعا بين اللحن والحدث ، تتخلل ذلك لحظات من الصفاء النفسى تجدّد النشوة والمتعة وتُذكى « التّطْهير» . و يتجاذب اللحن أخذ وردّ ، فقفلاته هى بدايات فى الوقت نفسه ، وخاتمته ضبابية فيها إبهام وشعور بالنهاية ... ولكنها نهاية تحتوى المضمون الدرامى كله مع الشعور بالروعة والسكينة والجمال .

حقا لقد فتح لى فورتڤانجلر الباب على مصراعيه لألج عالما جديداً لازلت غارقا فيه إلى اليوم .

* * *

٥
ليلة تاريخيّة لها ما قبلها

كنت أوثر ألا أقول ما أعلم عن ليلة الثورة وأن يظل الذى أعلم لى ذكرى أفسح لها فى صدرى أعزّ مكان آنس بها بين الحين والحين ، غير أنى تذكرت فيلما يابانيا كنت قد شاهدته يعرض حياة زوج يابانى وزوجته كانا يتجولان فى غابة ، و بينما هما كذلك إذ عدا عليهما عاد . وإذا الزوج يروى ما وقع بروايته الخاصة ، وإذا الزوجة هى الأخرى تروى ما وقع بروايتها الخاصة ، و يفاجئنا المعتدى فيروى ما وقع بأسلوب ثالث ، ويجىء الفنان المصور بعد هؤلاء الثلاثة فينفرد برواية تخالف الروايات الثلاث . هذا الحادث برواياته الأربع لفتنى إلى أنه على الكاتب الذى يسجل رؤاه وذكرياته أن يكتبها بأسلوبه هو ونهجه هو ومن واقعه هو، تاركا للمؤرخ إذا ارتأى أن يجمع ما كتب إلى ما كتب غيره فى الموضوع نفسه ، ويخرج من هذا كله بصورة شاملة شأن الفنان الذى صوّر هذه الأحداث الأربعة بأسلوبه الخاص . فما من شك فى أن وجهات النظر تختلف ، إذ أثر الشىء فى الرائين لايمكن أن يكون واحدا متفقا ، ومن هنا كان لابد من تعدّد وجهات النظر.

وهـا أنـذا أعـرض قصة هذه الليلة رجاء أن يشاركنى فيما أعرض من عاصرنى وعاصر أحداثها من الضباط الذين كانوا ألصق مايكونون بما أروى والذين أصبحوا وباتوا مشغولين بقضية الوطن المنكوب فى ملكه وحكامه ومن ورائهم المستعمر البريطانى ، يحاولون تلمّس السُّبل للخلاص وإزالة أعباء سبعين عاما ظل الوطن يرزح تحت أثقالها لا يجد من يمدّ يده إليه ليعينه على النهوض على أقدامه ثابتا شامخا . وهذا كله كان يفرض أن لابد من هبّة تجرف أمامها كل هذه الرواسب وتطوّح بها بعيداً ، وتبذر فى هذه الأرض الطيبة بذورا صالحة تمنح الحرية والعدل والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات . وإنى إذ أذكر هذا أذكر أن من قام بهذه الحركة واضطلع بأعبائها من الضباط الأحرار لم يتجاوز التسعين عدّا ، وهبوا حياتهم لخلاص بلادهم مما تعانى ، ما هابوا أن يكون مصيرهم إذا كُشف أمرهم الموت أو التشريد ، وقدّروا مع بريق النصر شبح الموت ، والتقوا على عهد من الحب والإيمان والتضحية والعمل ، واستقر رأيهم على أن يكتبوا مصير أمتهم بدمائهم ، وأن يحفروا مستقبل أيامهم بأظافرهم ، فإن كان الإخفاق فسيكون معه الغذاء الذى تحيا عليه الأجيال من بعدهم ، وإن كان النصر فسوف يكون المستقبل المنشود الذى إليه يطمحون . كانت تلك العناصر الكريمة التى التقى عليها الضباط الأحرار والقيم التى اعتنقوها والمبادىء الخلقية التى استمسكوا بها فى حياتهم وفى سلوكهم وفى علاقاتهم ببعضهم البعض لها أكبر الأثر فى نجاح مهمتهم . وكان الفضل كل الفضل أيضا لما عمرت به قلوب كثرة من الجنود وضباط الصف لبوّا النداء جميعا ، فما أن قرّ فى الأسماع نفير الجهاد حتى خفّوا مع الضباط الأحرار صفاً منيعا يحمى قداسة هذا العمل الكبير.

وإذ أحسّ الشعب أن الضباط الأحرار يلتقون معه فى حسّه ويطالبون بنفس مطالبه فقد بادر بمؤازرة الثورة التى عدّها ثورته وأحاطها بشعوره الفياض . وفى الحق إن الضباط الأحرار على نحو ما أسلفت هم نتاج النبض الشعبى الحقيقى خلال فترة الأعوام العشرة السابقة على ثورتهم . فليس منهم واحد إلا وقد تأثر بفكر السياسيين الشرفاء الذين كانوا يعمرون الساحة الإعلامية فى تلك الفترة ، بل لقد كان منهم ـ أعنى السياسيّين ـ من يتردد صوته المدوّى فى اجتماعات البرلمان ، وليس واحد من الضباط الأحرار إلا وقرأ لكبار المثقفين الذين انحازوا إلى قضايا الشعب ، وليس

منهم من لم يخبر الحياة داخل المنظمات السياسية أو الفكرية أو الاجتماعية على اختلافها التى كان يتوسم فيها القدرة على صنع المستقبل الأفضل . لقد كنا نتاج الحماسة الوطنية وتلاميذ كبار رجال السياسة والفكر ، كما أن البرنامج الذى وضعناه لحركتنا هو من هدى الفكر الوطنى والاقتصادى والاجتماعى الذى كان سائدا فى فترة انتفاضتنا . كان همّنا الأساسى أن نُحدث تغيرا جذريا فى مصر ينقلها من عهد التسلّط الفردى والأجنبى إلى عهد تتحرر فيه الجماهير من مشاكلها . ولم نكن نطمح إلى الإمساك بالسلطة لتنفيذ هذا التغيير بل كنا نتمنى لو استطاع حزبٌ أن يجمع الأغلبية الشعبية فى انتخابات حرة وأن يتسلم السلطة لإحداث هذا التغيير الذى قمنا بثورتنا من أجله ، وماغاب عن أذهاننا وقتها ماكان يتمتع به حزب الوفد من أغلبية ساحقة . وإذا كان ثمة واجب قمت به تلك الليلة فهو واجب كل ضابط حرّ جمعه بإخوانه الأحرار عهدٌ تمثّله فى فكره ووجدانه فأدّى هذا الواجب كما أدّوه سواء بسواء ، فلا فضل لثائر من المشتركين فى الثورة على آخر علت رتبته أو دنت ، فلقد كنا جميعا سواسية فى ميدان الفداء .

وكانت ثقة الضباط الأحرار باللواء محمد نجيب تزداد شيئا فشيئا لاسيما بعد انتخابه لرياسة نادى الضباط ، وأراد التنظيم أن يختار من بين كبار الضباط من يكلون إليه أن يكون على رأس حركتهم الثورية ، إذ كان إيمانهم أن يكون قائد الحركة من غير الشبان ، فإن اقتناع الجماهير بمن هو عالى السنّ غير اقتناعهم بمن هو دون ذلك ، فتشاورنا فيما بيننا من سيكون ؟ أمحمد نجيب الذى وضعنا فيه ثقتنا ولم يخذلنا فى شىء ولم يش بنا بعد علمه بأمرنا وكان ذلك فى استطاعته ، أم اللواء أحمد فؤاد صادق وكان هو الآخر من القادة المحنكين المعتزّين بقيمهم المتمسّكين بأهداب الخلق والحائزين على ثقة من حولهم ؟ ولكنا آثرنا محمد نجيب الذى سايرنا فى مسيرتنا شوطا بعيدا فكانت كفته هى الأرجح . ومن أجل هذا فحين اعتزم التنظيم القيام بالانقلاب وحدد له موعدا ناب عنا جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر ليبلّغا محمد نجيب بالموعد المضروب كى يشاركنا فيما سيكون ، وكان ذهابهما إليه فى صبيحة يوم ١٩ يولية ١٩٥٢ على أن يكون الانقلاب فى الخامس من أغسطس ١٩٥٢ . وأبت على هذا الرجل شجاعته رفض ما أراد الضباط الأحرار إسناده إليه دون تردد أو تعثر ، وبلا تدقيق أو تمحيص كان مقتنعا بسمو الهدف غير

عابىء بأخطار هى فى علم الغيب ، ومن ثم كان قبوله فى حد ذاته عملا بطوليا استحق عليه لقب قائد الثورة التى كان جمال عبدالناصر صانعها . وفى يقينى أن ما سجله الأستاذ جمال حماد عن إسناد قيادة الثورة إلى محمد نجيب فى بحثه الموضوعى الجاد بكتابه « ٢٢ يوليه أطول يوم فى تاريخ مصر . دار الهلال ١٩٨٣ » هو أصدق ما كُتب عن هذا الموضوع الدقيق ، كما أنه يمثل الحق والإنصاف كله لما جرى فى تلك الليلة .

وكان اللواء محمد نجيب رحمه الله رحمة واسعة أحد قادة الجيش المرموقين لأسباب ثلاثة : أولها أخلاقياته الرفيعة ، وثانيها ثقافته الواسعة فهو حاصل على ليسانس الحقوق وخريج كلية أركان الحرب ويجيد أكثر من لغة و يلمّ باللغة العبرية ، وثالثها شجاعته فى حرب فلسطين التى ضرب فيها القدوة لغيره ونال عنها أرفع الأوسمة وظفر بإعجاب الضباط كافة فى ميدان القتال . وأذكر أيضا أنه كان على وشك أن يستقيل من الجيش مع حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ المعروف ، غير أنه تحت إلحاح زملائه عدل عن ذلك . وما كان هذا منه تملقا للملك فقد كان الملك وقتها فى موقف لايُحسد عليه ، ولكن كان إعرابا عن سخطه على ما أصاب البلد من امتهان .

كان هذا الماضى هو الذى جعلنا نُجمع على ترشيحه فى انتخابات نادى الضباط ليكون رئيسا للنادى بدلا من مرشح الملك . ولقد كان فى قبوله لترشيحنا له مسئولية خطيرة تعرّضه لغضب الملك ، ولكنه بالرغم من هذا قبل الترشيح عن طواعية ، وكم عانى هذا الرجل بعد ذلك من مضايقات أجهزة الأمن له مع غدوه ورواحه . لم يعننا حين رشّحناه لرياسة النادى أكان من التنظيم أم لا ، فلقد كان حسبنا منه رصيده الرفيع حسب ماقدمت . وماكنا نشك فى أنه كان على علم بأسرار التنظيم وإن كان غير منضم إليه ، فقد كنا نحسّ أن قلبه عامر بالعطف والحدب على رجال التنظيم يعرفهم وإن كان لايجهر به ولايفصح عنه . وما من شك فى أنه كان يعلم أن جمال عبدالناصر كان قائد التنظيم وأن اثنين من كبار معاونيه على التوالى فى رياسة سلاح المشاه هما عبدالحكيم عامر ثم جمال حماد كانا من الضباط الأحرار، فما كان يغيب عليه مثل هذا وهو الرجل الذكى اللمّاح . ثم إنى لأذكر أنه حين قدم إليه الصاغ جمال حماد ــ وكان أركان حربه فى سلاح

المشاة ــ بيانا بتنقلات الضباط قصد فيها أن يضع ضباط التنظيم فى مواقع خاصة تتفق وما سيُوكل إليهم بعد حين عندما تهبّ الثورة ، وافق محمد نجيب على هذا العرض ، وما كان يغيب عنه ما ينطوى عليه .

وحين كان اللواء محمد نجيب مديرا لسلاح الحدود كشف عن أعمال مريبة للواء حسين سرى عامر ــ صاحب الولاء التام للملك ــ يتردّد صداها فى المجتمع ، وعلى الرغم من هذا لم يحُقّق فيها مما جعله يطلب إلى قيادة الجيش التحقيق فيها ، ولكنه لم يُجَبْ إلى طلبه فقدم استقالته . وإذا قيادة الجيش إزاء هذه الاستقالة تعدل عن رأيها وتحيل الأمر إلى التحقيق فرجع عن استقالته وعُيّن مديراً لسلاح المشاة ترضية له ، وأحيل الأمر إلى النيابة العامة فأخذت فى التحقيق مع حسين سرى عامر ، فإذا هو يستغيث بالملك فاروق فأرسل له فى شهر أغسطس ١٩٥٠ برقية إلى فندق الجولف بمدينة دوفيل حيث كان يقيم وقتها باسم « صاحب السعادة فؤاد المصرى باشا » وهو الاسم الذى كان يتسمّى به فاروق حينذاك . غير أن تلك البرقية احتجزها حيدر باشا وحال بينها و بين أن تصل إلى الملك ، فما كان من حسين سرى عامر إلا أن احتال فأرسل البرقية طىّ خطاب شخصى إلى محمد حسن السليمانى خادم الملك ، ومن الغريب أنه جعله من أعزائه فعنونه « عزيزى محمد بك » . ولقد وقع لى هذا الخطاب مع البرقية التى كانت فى طيّه هو وغيره بعد قيام الثورة ، وهذا هو نص البرقية : « بعد خدمة بالشرف أكثر من ٣٠ عاما نُفَتَّش ونُهان من النيابة جزاء ماقنا به من شرف وأمانة وتعريض حياتنا للخطر بحرب فلسطين » ، ثم راح فى خطابه يشكو من أن وزير الحربية وقتذاك وراء هذه التحقيقات والتفتيش . على أن الأحداث كانت أسرع مما كنا نتوقع ، وظهرت بوادر الغدر واضحة فيما بدأ القصر يفكر فيه من إقحام عناصر باغية فى قيادة الجيش ، وأحسسنا أن حركة يُراد بها استفزازنا تُدبَّر للتنكيل بنا وبمن يؤيدنا من ضباط الجيش . وإذ كنا على ثقة من أنفسنا آثرنا مقابلة التحدى بالتحدى والاستفزاز بالاستفزاز ، فكانت تجربة انتخابات نادى الضباط حدثا أثار السلطات وأفقدها صوابها . لقد رأينا أن الأوان قد آن لخوض معركة فاصلة بيننا و بين الملك وصنائعه الذين كان يتصدرهم حسين سرى عامر . فعندما حلّ موعد انتخابات نادى الضباط فى أواخر ديسمبر ١٩٥١ استقر الرأى على اختبار مدى

قوتنا وتأثيرنا بين الضباط فى معركة صريحة مع الملك وأعوانه ، وتقدمنا بمرشحينا وعلى رأسهم اللواء محمد نجيب . ولقد نجح كل من رشحهم الضباط الأحرار وأصبحوا هم مجلس إدارة النادى . وأيا كانت قيمة النادى إلا أنه كان أول عمل خبر به التنظيم قوته بين الضباط ، وسقط مرشحو القصر وقيادة الجيش ، فقررت حكومة حسين سرى غلق النادى بعد هذه الهزيمة المُرّة . على أن غلق النادى لم يكن إلا مقدمة لأعمال أخرى عنيفة توقعها الضباط وأخذوا يترقبونها .

وفى هذه الأثناء كان حسين سرى عامر يحس أن ثمة حركة تجرى بين ضباط الجيش فكان كثير التحدى لمن يشك فى أمره منهم . وبعد انتخابات نادى الضباط أرسل مذكرة أخرى إلى صديقه شماشرجى الملك فى ٢٩ ديسمبر ١٩٥١ وقعت لى هى الأخرى بعد قيام الثورة فى أربع عشرة نقطة يستعدى فيها الملك على الضباط الأحرار، هذا نصّها :

(١) سبق تحديد موعد انتخابات نادى الضباط دعاية قوية بينهم يقوم بها اللواء محمد نجيب ومساعده الأميرالاى محمد كامل الرحمانى ، بأنهم يريدون مجلس إدارة من الضباط الأصاغر المعروفين بالتطرف لكى يغيروا قانون النادى ويجعلوا من مجلس إدارته نقابة للضباط تنظر فى كل طلباتهم وتوقف أى أوامر لا تتمشى مع رغباتهم وكذلك أى تعيينات أوترقيات لا تتفق مع أغراضهم ، كما تدلى برأيها فى الحالة السياسية للبلد وتعيين الوزارات وغيرها من الوظائف الكبيرة ، ولم يحصل تقصير فى تبليغ ذلك للرياسة .

(٢) وقد عين اللواء محمد نجيب مديراً للمشاة فى الوقت الموجود فيه مساعدا الأميرالاى محمد كامل الرحمانى ، وكلاهما من زعماء المنشورات السرية بالجيش ومن الذين يرغبون أن يسير الجيش فى تيارات سياسية معينة و يطمحون فى السيطرة عليه بإرشادات اللواء فؤاد صادق لدفعه إلى مايخالف القانون والواجب . وكل ضباط الجيش تعرف هذا ، علما بأن مدير المشاة ومساعده يسيطران على ألف ومائتين من ضباط الجيش .

(٣) اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة شقيق اللواء محمد نجيب مدير المشاة ويسيطر على ضباط حامية قسم القاهرة كلها وعددهم حوالى ألف وخمسمائة ضابط . وطبعا مطلوب من الشقيق مساعدة شقيقه(٦) .

(٤) ورغم تأجيل موعد انتخابات النادى فقد أوعز السابقون للضباط بمالهم عليهم من نفوذ أن يجتمعوا فى النادى متحدّين أمر التأجيل ، وقد تمكنوا من جمع ثلاثمائة ضابط ، وكل مانشر بأهرام يوم ٥١/١٢/٢٩ صحيح .

(٥) لم يكن هناك داع لإثارة موضوع الانتخابات فى هذه الظروف سيا وقد مضى على النادى ثلاث سنوات للآن لم يحصل فيه انتخابات . وعمل انتخابات فى الوقت الحاضر يدعو للاستغراب والتساؤل .

(٦) الحركة القائمة الآن يغذيها الوفد لشطر الجيش وتسلل الحزبية إلى صفوفه .

(٧) بعد التأجيل السابق واجتماع الضباط رغم ذلك ، أطلق من ذكروا إشاعة بين الضباط أنهم كانوا يريدون الانتخابات وتشكيل مجلس الإدارة الجديد ليحتجوا على تعيين حافظ عفيفى باشا .

(٨) أذيع منشور سرى على الضباط بمعرفة هؤلاء أن الضباط الأحرار (وهم الذين يعملون المنشورات السرية) يرشحون الأسماء التى ذكرت بجريدة المصرى يوم ١٩٥١/١٢/٢٨ لمجلس إدارة النادى ، وكلهم من الضباط الذين يسيطر عليهم هؤلاء ويتخذون منهم تُكأة لإفساد الجيش . وقد ساعدهم فى نشر ذلك بجريدة المصرى بالشكل الكبير الذى نشر به الصاغ ثروت عكاشة شقيق حرم أحمد أبو الفتح رئيس التحرير .

(٩) إن من يثيرون الفتنة بالجيش أفراد يعدّون على أصابع اليد معروفون تماما للرياسة ، ولكن بدلا من أن تقف منهم موقف الحزم تقرّبهم وتعطيهم المناصب التى بها يسيطرون على الضباط الآخرين لكى يسيروا على منوالهم حتى ينالوا ماينال هؤلاء ، وفى هذا كل الخطر .

(١٠) الموقف الآن وفى هذا الأسبوع بالذات يحتاج لحزم وعمل سريع قاطع للقضاء على هذه الفتنة فى مهدها حتى لا تتطور لأكثر من ذلك وقبل فوات الوقت .

(١١) إن كلمات التهدئة والتهوين التى تستمع من الرياسة ليست مع الأسف الحق .

(١٢) إن ترك آلاف من الضباط فى مثل هذه الأيدى العابثة التى لا تراعى الواجب والإخلاص يتنافى تماما مع الولاء ونظم الجيش فى كل العالم ، وهاهى مبادىء خطورته قد ظهرت وتحتاج لإجراء سريع حازم لا لنكرانها والتهوين من شأنها ، ولا يجب أن يتولى رياسة لها قيمتها وخطرها إلا من كان نموذجا للولاء والجندية

لا أن تعطى المناصب لمن يعتنق مبادىء هدامة مداراة له ، لأن فى هذا كل الخطر خصوصا فى هذه الظروف . والواقع إننا فى احتياج شديد لعزم وحزم .

(١٣)من المؤلم بعد كل هذا المعروف لمعالى القائد العام [يقصد حيدرباشا] أن يذهب يوميا محمد نجيب لمعاليه و يفهمه أنه تحت أمره حتى يتم مايريده فى غفلة منه وأن يرسل معاليه الصاغ اسماعيل فريد ليقابل بعض هؤلاء المتمردين ليسألهم عن طلباتهم لينفذها معاليه لهم ، مما أطمعهم وشدّ أزرهم وجعلهم يعتقدون أنه خائف منهم .

(١٤)لقد كانت المنشورات السرية للضباط الأحرار توزع فى فترات ، أما بعد تعيين محمد نجيب مديراً للمشاة فقد صارت توزع دورية وبتواريخ كالنشرة الأولى والثانية التى وزعت ، وهى بنفس الجستتر التى وزع بها منشور الأعضاء والرئيس الذين يريدون انتخابهم لمجلس إدارة نادى الضباط أمس واليوم ، والتى فيها انتخب محمد نجيب رئيسا للنادى .

* * *

ولقد كان ممن أشار إليهم حسين سرى عامر ضباط أربعة مشتبه فى أمرهم منهم من كان عضوا فى التنظيم وكان يعنينى وكذا اسماعيل فريد ، ومنهم من لم يكن عضوا فى التنظيم وهم سائر الأسماء التى ذكرها . وفى الحق إن ماجاء فى هذه المذكرة لم يجانب كثيرا ماكانت عليه الحال ، فلقد سرد حسين سرى عامر فى خطابه إلى الملك حقائق وقع عليها بصدق حدسه وبما نقلته إليه عيونه المدسوسة فى الجيش . ولو أن فاروق أوتى شيئا من الذكاء والفطنة لأخذ بما ذكره حسين سرى عامر فى مذكرته وقضى على الثورة فى مهدها و بطش بمن يعدّون لها ، ولكن الله أراد والشيطان أراد ، فغلبت إرادة الله إرادة الشيطان . ولعل الملك قد أفاق بعد غيبة حين راودته فكرة تعيين حسين سرى عامر فى العشرين من يوليه ١٩٥٢ وزيراً للحربية قبل اندلاع الثورة بليلتين ثم عدل عنها خشية ماتحمله من تحدّ سافر لضباط الجيش وعين بدلا منه صهره اسماعيل شيرين ، غير أن الثورة باغتته ولم تترك له أو لعميله حسين سرى عامر فرصة للتفكير. كذلك لو أن الحظ واتى فاروقا لعيّن محمد نجيب بعد أن انتخب رئيسا لنادى الضباط وزيراً للحربية أوقائداً عاما للقوات المسلحة ، فلقد كان فى أحد هذين المنصبين ما قد يَرْضَى به الضباط ،

ومما لاشك فيه أن محمد نجيب كان سيستجيب وهو وزير للحربية أو قائد عام لما للضباط من مطالب وطنية وسياسية هى كل مايبغيه الضباط الأحرار. ومن يدرى فلعله إذا كان قد تم هذا لكان للتاريخ مسار آخر غير ذلك المسار الذى اتخذه .

ومن الغريب أن ما كان يصدره التنظيم من منشورات تندّد بموقف حسين سرى عامر الشائن الذى كان يكيد فيه للتنظيم كان الأمل منه أن يكبح جماحه ولكنه تمادى فى غيّه واسترسل فى طغيانه ، مما دعا بعض أفراد التنظيم إلى التفكير فى العنف بعد أن فشل فيما ذهب فيه من سلم . وتأجّج الغضب فى نفوس الضباط حتى بلغ الأمر ببعضهم أن دبّروا اغتياله ، وخرج لتنفيذ ذلك فى الثامن من شهر يناير ١٩٥٢ وعلى غير علم من بقية التنظيم ، جمال عبدالناصر وكمال رفعت وحسن التهامى وحسن ابراهيم فى جنح الليل وعادوا أدراجهم وهم يظنون أن الأجل قد وافاه بعد أن أطلقوا عليه الرصاص .

وفى صبيحة تلك الليلة فوجئت بجمال عبدالناصر يطرق علىّ باب بيتى فى ساعة مبكرة لم يكن قد اعتادها وتحت إبطه صحف الصباح ، وقد رأيت فى قسمات وجهه سمات من تحرّر من عبء همّ ثقيل ، وإذا هو يحدثنى لأول مرة بما كان منه فى الليلة الماضية حامدا الله على أن المغامرة لم تتم كما أرادوا . وعلمت منه أنه بقى ليلته كلها ساهرا يدعو الله ألا يكون الاغتيال قد نجح ، متلهّفا على أن يتلقى صحف الصباح لتحمل إليه نبأ فشل المحاولةِ ، فلقد كان جد آسف على ما كان ، ولم يعد يرى فى الاغتيال وسيلة لتحقيق مأرب وطنى . وكنا نظن أن هذه الحادثة كفيلة بأن تُعيد حسين سرى عامر إلى رشده غير أنّا وجدناه قد ازداد عتوّا وازداد تحديا وازداد شرّا ، مما زاد فى ثورتنا عليه .

وفى أواخر مارس من عام ١٩٥١ شاعت بين أفراد التنظيم شائعة هى أن قيادة الجيش كشفت عن الضباط الأحرار ، وأنها بيّتت الأمر للاستغناء عن خدمات سبعة منهم فى مقدمتهم جمال عبدالناصر . ولم يكن ماردّدته الألسن بالشىء الهيّن ، فلقد كان من الخطورة بمكان أن يُعرف التنظيم قبل أن يحقق أغراضه ، إذ كان معنى ذلك القضاء على آخر محاولة جادة فى سبيل الخلاص . وكنا على يقين من أن الجيش لن تهدأ له ثائرة ، ولكن وقتا طويلا

قد يمرّ قبل أن يستجمع صفوفه لتنظيم آخر جديد ، فانتهى بنا الرأى إلى أن يكون لنا عمل إيجابى حاسم وسريع .

ومع مطلع عام ١٩٥٢ أخذت الأمور تمرّ سريعة ، كما أخذت البلاد كلها تغلى بالسخط والغضب من المحتلين والمستغلين ، وأصبح الهتاف بسقوط الملك مألوفا على ألسنة الشباب ، وهكذا تحطمت الهالة الزائفة وغدونا على أبواب حقبة جديدة . أما التنظيم فقد نما مع الزمن ومع الأحداث حتى أصبح شيئا ملموسا تخشاه السلطات وتحسب له ألف حساب . ووسط الغليان الشعبى ولهيب معركة القناة وأنين الجرحى ودماء الشهداء أحرقت القاهرة وأقيلت الوزارة وعُينت وزارة أخرى وكأنما كانت مشكلة الوطن وقتها مشكلة وزارية . وكان وقوع حريق القاهرة بشهدائه وجرحاه يعنى أن يداً آثمة قد ساءها اندفاع جموع الشباب نحو القناة فطعنت طعنتها فى الظلام . ولعل أشد ماآلمنا هو أن يكون السفاكون فى حادث الحريق مصريين بمقتضى مايحملون من جنسية مصرية للأسف الشديد . ولاشك أن الحريق كان مدبرًا صحبته ثورة غوغائية تخريبية لم يستطع معها رجال الشرطة إخمادها مما اقتضى نزول قوات الجيش إلى الساحة لإخماد هذه الفتنة التى لوقُدّر لها أن تمتد لأتت على القاهرة كلها . ومن الطريف أنى كنت وجمال عبدالناصر من بين الضباط الذين دعوا إلى وليمة الغداء التى أقامها الملك بقصر عابدين احتفاء بمولد ولىّ عهده يومذاك ، وحين خرجنا من الوليمة وجدنا القاهرة تشتعل فيها الحرائق هنا وهناك ، فقصدت وجمال إلى منزلى بثكنات العباسية حيث انضم إلينا فى غروب يوم ٢٦ يناير صلاح سالم وعبدالحكيم عامر ومجدى حسنين وأخذنا نتداول فيما يجب علينا فعله ، وكان التفكير فى التعجيل بموعد الانقلاب خلال عام ١٩٥٢ . ومضينا بعد ذلك فى الطريق نزن كل حركة بميزان ونفتح عيوننا على كل صغيرة وكبيرة تحدث فى القصر أوفى الحكومات المتعاقبة . وتوالت الأحداث ، وعمّ الضيق البلاد من أقصاها إلى أدناها ، وبدأت مظاهر الثورة المكبوتة تتجلّى فى كل مكان ، واستقر رأينا على أن نبدأ ثورتنا فى شهر نوفمبر ١٩٥٢ باعتباره الموعد المحدد لاجتماع مجلس النواب .

وكان جمال عبدالناصر قد طلب منى فى غضون عام ١٩٤٩ أن أعرّفه بأحمد أبوالفتح رئيس تحرير صحيفة « المصرى » وزوج شقيقتى ، فصحبته

إلى منزله حيث كان لقاء فتعارُف ، وبهذا وصلنا أحمد أبوالفتح بالتنظيم صلة وثيقة . وأخذ جمال يختلف إلى صحيفة « المصرى » على فترات متباعدة إلى أن شبّ حريق القاهرة وجاء على ماهر على رأس الحكومة ومنع التجوّل وتوزّع الجيش على المرافق . وفى مطلع شهر فبراير ١٩٥٢ طلب إلىّ جمال أن نذهب إلى أحمد أبوالفتح سويا ، وفى هذا اللقاء سأل جمال أحمد أبوالفتح عن رأيه فى تحرك الجيش ليستولى على القاهرة ، وعما يعتزمه بعض ضباط الجيش لاغتيال الخونة ، فكان رد أحمد أنه لا معنى لاستيلاء الجيش على القاهرة الآن فالجو متوتر مشحون والأعصاب متقدة ، ومن الممكن أن يكون فى ذلك فرصة لتدخل الإنجليز فى الأمر ، أما عن الاغتيال فقد أباه أحمد إباء شديدا .

ومن إحقاق الحق أن أصرّح هنا أن أحمد أبوالفتح كان خيرعون للتنظيم ، فلقد أفسح من صفحات المصرى للأخبار التى كنا نزوّده بها فيصوغها هو الصياغة التى تؤيد موقفنا وتزيده قوة . ولا أنسى يوم نشر قائمة بأسماء الضباط الذين كنا نرشحهم لعضوية نادى الضباط قبل موعد الانتخابات متحدّيا بهذا رغبات السراى والقيادة العامة للجيش ، وكان فى هذا ما أوقعه فى كثير من المشاكل . وظل أحمد أبوالفتح على صلة وثيقة بالتنظيم لايرد لنا مطلبا إلى أن قامت الثورة ، فبدا عند ذلك صدق معونته ، وإذا هو ينشر فى الصفحة الأولى من صحيفة المصرى الصادرة فى صباح يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ أخبار الحركة بعناوين تُلفت الأنظار . على حين أن الأهرام أهمل ذلك كل الإهمال ولم تشر إليه صحيفة الأخبار إلا بأسطر دقيقة فى زاوية من زوايا الصفحة الأولى لا تكاد تبين . والغريب أن هذه الصحف التى تنكّرت للثورة فى أولها عادت آخر الأمر حين خرج الملك وأمنت ، لتنشر أخبار الثورة تفصيلا لا إجمالا ، ثم أمعنوا فأخذوا ينشرون مساوىء الملك ماخفّ منها ومادقّ فى تفصيل واسع ، وكان هذا كله لونا من ألوان النفاق لم يخف على أحد .

وبعد حريق القاهرة وفى صبيحة يوم جمعة من شهر مارس ١٩٥٢ لا أذكره على وجه التحديد زارنى جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وأخذنا نستمع إلى تسجيل موسيقى شجىّ لرمسكى كورساكوف علّه يرّوح عنا بعض الشيء ، وإذا بى أرى جمال شاردا فظننت هذا منه استغراقا فى الاستماع إلى النغم وإذا هو

يفاجئني بقوله : « لقد آن الأوان لأن نقوم بحركتنا » . وأخذنا نتداول الأمر، وكان مما أثير توقع وصول وحدات من المشاة كانت ترابط فى سيناء وتضم عددا من رجال التنظيم ، وكان وجودها فى القاهرة لاشك سيساعد على إنجاح الحركة . ولقد رأى جمال أن يكون موعدها فى الخامس من أغسطس ١٩٥٢ بدلا من موعدها الذى ضُرب من قبل وهو نوفبر ، وهو الشهر الذى كان محددا لافتتاح الدورة البرلمانية المعطلة فنكون بهذا قد واكبنا بقيامنا بالحركة فى هذا الموعد عودة الحياة النيابية . وحين انتهينا إلى هذا الرأى ذهبنا سويا إلى حسين الشافعى لإحاطته علما بما استقر عليه الرأى ، ومن ثم أفضينا بالأمر إلى الضباط الأحرار بسلاح الفرسان ليتخذوا أهبتهم .

وفى يوم ٢٠ يوليه كنت قد دعوت الأخ حسين الشافعى إلى تناول الغداء معى فى منزلى ، وإذا بأحمد أبوالفتح يتصل بى تليفونيا من الإسكندرية لينهى إلىّ أن ثمة أزمة وزارية قد تطيح بحكومة حسين سرى ، إذ طلب منه الملك تعيين حسين سرى عامر وزيرا للحربية ، غير أن رئيس الحكومة اعترض على الترشيح تفاديا لما كان مرتقبا على أيدى بعض ضباط الجيش وأشار بتعيين محمد نجيب فى هذا المنصب . كذلك أبلغنى أحمد أبوالفتح أن فى النية تشريد أربعة عشر من الضباط يُزجّ بهم فى السجون ، ونصح إلىّ رمزا بأن لابد من تحرك سريع وإلا حاق بالضباط الأحرار مالا يتوقعون . وما كان يعنينى أن أتعرف منه أسماء الضباط الأربعة عشر ، فسواء كنا منهم أولم نكن فما يمسّ ضابطا منا سواء أكان من التنظيم أم من خارج التنظيم فهو يمسّ الجيش كله ، فلم يكن مايجمعنا هو الدفاع عن شخص ما بل الدفاع عن الوطن وحرمته وحقوقه . وقد عرفنا بعد نجاح الثورة أسماء هؤلاء الضباط مدوّنة فى مفكرة كان يحملها معه الفريق حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش وقت اعتقاله .

على أن سوء التقدير الذى لازم فاروقا فى جميع تصرفاته فى سنواته الأخيرة لازمه هذه المرة أيضا فأصرّ على تعيين حسين سرى عامر فى مبدأ الأمر إلى أن اضطر إلى العدول عن هذه الرغبة لماغشيه من خوف ، فعيّن صهره اسماعيل شيرين بدلا منه فى وزارة نجيب الهلالى .

ونزلت لتوى أنا وحسين الشافعى قاصدين منزل جمال عبدالناصر فوجدنا فيه جملة من إخواننا الضباط كما هى العادة ، فاختلينا به لأنهى إليه ما أفضى به إلىّ أحمد أبوالفتح ، وسألنى جمال رأيي . فقلت له لابد من أن يكون الغد موعدنا للقيام بالحركة ، وسرعان ما اقتنع بوجهة نظرى على الرغم من أن وحدات المشاة التى كنا نرقب وصولها من سيناء لم تكن قد وصلت منها غير طلائعها . ولكى نطمئنه ـ حسين وأنا ـ ذكرنا له أن وحدات الفرسان المهيأة للقيام بالإنقلاب قوامها اثنان وثلاثون ضابطا ، هذا إلى عدد من الدبابات مقداره ثمانية وأربعون وسيارات مدرعة عددها ثمانية وأربعون أيضا ، فضلا عن الكتيبة الميكانيكية ، وأن هذه الوحدات من الفرسان بما تضم كفيلة بإنجاح الحركة دون حاجة إلى انتظار وحدات المشاة . وأخذنا ـ حسين وأنا ـ على نفسينا تدبير هذا على حين أخذ هو على نفسه تدبير وحدات المدفعية والمشاة . لقد وجدنا أنفسنا أمام موقف جديد بعد أن كدنا نؤخذ على غرة ، وبات علينا أن ندبّر بين يوم وليلة وفى ظروف شائكة ما كنا سندبّره على مهل . وكنا على حذر فيما تجرى به أمورنا فما نعتزم القيام به ليس بالأمر اليسير ، وما من شك فى أنه كانت تحوطه صعاب وصعاب ، غير أن ما لقيناه بعدُ من حماس إخواننا الضباط والجند من لهفة شديدة كان كفيلا بأن يبعث فينا الاطمئنان . وأذكر أنى حين أردت أن أستشف نوايا بعضهم إذا كلمة تبدر على لسان ضابط صغير فيها شبه تقريع على تلبّثنا وترقّبنا وكأنه يستحثّنا ويستعجلنا ، وقد غمرتنى هذه الحماسة فعقلت لسانى وقتها عن أن أوفيه حقه من الثناء .

ومما ضاعف هذه الشقة أيضا أنه حين طلبنا من الضباط إعداد الدبابات والسيارات المدرعة فى ٢٠ يوليه استجابوا على الفور استجابة لا تردّد فيها ، وزادوا بأن لزموا ثكناتهم ولم يبارحوها بعد ذلك إلى أن غادر الملك الوطن فى ٢٦ يوليه . وفى اليوم التالى وهو ٢١ يوليه مرّ بى جمال عبدالناصر بمكتبى برياسة هيئة أركان حرب الجيش ، ليُبلغنى أنه يرى أن يؤجل البدء أربعا وعشرين ساعة ريثما تصل وحدات المشاة التى يرقب حضورها من سيناء ، فكاشفته مطمئنا بمابين أيدينا من قوة فى سلاح الفرسان تكفى لتحقيق مانشد ، وهى تلك القوة التى أشرت إلى تعدادها .

وفى نفس اليوم أى ٢١ يوليه اجتمع شمل جماعتنا خالد محيى الدين وعثمان فوزى وأنا فى منزل حسين الشافعى ، فأعددنا قائمة بأسماء ضباط الفرسان الذين ستوكل إليهم مهمة التنفيذ ، واطّرحنا جانبا من تحوم حولهم أهون شبهة أو شكّ ، وحدّدنا أسماء من يجب اعتقالهم من الضباط حتى لا يعوقوا المسيرة . وتشكّلت منا قيادة رباعية لسلاح الفرسان يجمع بينها التآلف والودّ والثقة تولّى رياستها بطبيعة الحال أقدم الأربعة رُتْبة وهو حسين الشافعى ، ووُكلت إلىّ مهمة أركان حرب العملية وإلى خالد قيادة الكتيبة الميكانيكية وإلى عثمان فوزى قيادة الخيّالة .

وإثر اتفاقنا على كل تفاصيل الخطة خلّفنا حسين قاصدا إلى بيت جمال ليعرف منه الموعد الذى استقر عليه لبدء الحركة ، وكان لابد لخالد من أن يذهب بابنته إلى الطبيب فغادرنا ثم عاد بعد ساعة ، وانتحى عثمان ناحية يقرأ إحدى المجلات ، بينما بقيت أنا مشغولا بانتظار موعد بدء التحرك . ثم عاد حسين إلينا يحمل نبأ تأجيل البدء أربعا وعشرين ساعة أخرى ، فغادرت منزل حسين إلى ثكنات الآلاى المدرع الأول لأجد إخوانى من الضباط يرتقبون مجيىء فى لهفة وعلى وجوههم بسمة الارتياح وعيونهم تتطلع إلى اعتلاء متن مدرّعاتهم لتغيير الأوضاع وتنفيذ ماسيُلقى على عواتقهم ، فأنهيت إليهم نبأ التأجيل ، وكان الإنهاك قد بلغ منى مبلغه بعد ليلتين قضيتهما ساهرا لم يذق فيهما جفناى طعما للنوم .

* * *

وحين انبلج صبح الثانى والعشرين من يوليه نهضت من فراشى متطلعا إلى إنجاز تلك المهمة التى كان فيها الحدّ الفاصل بين الظلام والنور. ولم يكن من الطبيعى أن تمضى هذه الأمور كلها دون أن أشرك فيها شريكة حياتى التى جمَعت معى مواقف الشدة ومواقف الرخاء والتى كنت آنس فيها الصدق والولاء كما كنت آنس فيها الحفاظ على السرّ والعهد ، ثم لما كنت آنسه فيها أيضاً من رأى صادق يعين على تحمل المسئولية . لهذا لم أكتم عنها ذلك اليوم ماسأقوم به ، وضربت لها مثلا ما كانت ستتعرض له بيوتات كثيرة من بيوت إخوانى الضباط من ترمّل و يُتْم وألوان من العذاب كانت ستصبّ فوق رءوسهم لولم أنهض بعبئى فى هذه الحركة ، فسمعت منها عبارات لا أنساها من التشجيع والتأييد تدعو لنا فيها بالتوفيق والعون من الله ممازادنى ثقة بما أنا مقدم عليه . وأذكر كم كنت

ذاهلا وأنا أتناول الغداء الأخير فى بيتى قبل ذهابى إلى الثكنات ، فلم ألق بالا لما كان يصدر عن ابنى الوحيد محمود من مشاكسات كانت تلقى منى قبلُ الزجر والنهر، بل بادلته على تلك المشاكسات حنانا ورفقا وعطفا وكأنى أودعه إلى غير رجعة ، ونظرت إلى عينى ابنتى نورا التى كانت ماتزال فى المهد أتزوّد بنظرة قد تكون الأخيرة ، كما أذكر شرودى ونظراتى المعلّقة بالصّحن الذى أمامى لا أكاد أرفع نظرى عنه ، فلقد كان فى نفسى همّ ليس وراءه همّ ومصير لا أدرى ماسوف ينتهى بى . ولقد ذكّرتنى زوجتى بعدها أنى حين فارقت بيتى مودّعا لم أنس أن أوصيها بتأكيد موعد زيارتنا الأسبوعية لوالدىّ وهى تقول : « لقد حدست بقولك هذا إنك واثق بنصر الله » .

وعاد حسين الشافعى إلى جمال عبدالناصر ثانية فى يوم ٢٢ يوليه ، ثم رجع فى الخامسة مساء من عنده يحمل إلينا الخطة العامة التى استخلصنا منها ماسيقوم به الفرسان من واجبات ، وأخذت على عاتقى تحويله إلى خطة تنفيذية . وأقدّم للقارىء تلك الخطة العامّة بخط عبدالحكيم عامر وإضافات زكريا محيى الدين وتعقيبات جمال عبدالناصر . وإن من يرى تلك الخطة بأقلام أصحابها ، وبذلك الخط العجل ومافيها من ترميج وحذف وتعديل وإضافة ثم تلك الرموز العسكرية التى تزخر بها لن يصدق أن تلك الصفحات الست كانت الحد الفاصل بين عهدين . وإنى أُجمل للقارىء بعض مايعنيه من هذه الخطة ومما قد تصعب عليه قراءته . فقد استهلت الخطة بأن تكون الوحدات المشتركة فى العملية فى أماكنها فى الواحدة بعد منتصف الليل ، على أن يُمنع استخدام التليفونات ، وأن يوكل إلى فصيلة من السيارات المدرعة مهمة التحفظ على مصلحة التليفونات بصحبة أنور [السادات] ولقد اختارته الخطة لهذه المهمة لأنه كان ضابطا فى سلاح الإشارة ، ولكنه لم يحضر ليصحب فصيلة السيارات المدرعة لأداء مهمتها مما اقتضانى أن أطلب من زكريا محيى الدين فور وصوله إلى سلاح الفرسان أن يرسل لى غيره ليؤدى الدور الذى كان منوطا به .

وتمضى الخطة بعد هذه الاستهلال لتحديد التعليمات الخاصة بمن سيُعتقل من الضباط تأمينا للحركة ، وقد وُكل هذا الاعتقال إلى فريقين من الضباط تصحبها سيارتان مدرعتان من سلاح الفرسان . وتلى هذا فى الخطة إقامة كوردون

[حصار] من الواحدة والنصف صباحا للمنطقة التى تشمل بوابة العباسية وبوابة مدخل سلاح الصيانة و بوابة رقم ٦ من قشلاقات العباسية والطريق الموصل من حدائق القبة إلى إدارة التجنيد وكوبرى المترو أمام المستشفى العسكرى العام وتقاطع شارع الخليفة المأمون بشارع نادى سبورتنج ، إلى أن خصصت الخطة فصيلتين من دبابات سلاح الفرسان لتأمين مطارى مصر الجديدة وألماظة ، وفصيلة سيارات مدرعة وفصيلة من كتيبة المشاة الثالثة عشر للتحفظ على دار الإذاعة منذ الرابعة صباحا ، وفصيلة دبابات مع سرية من كتيبة المشاة الثالثة عشرة لاحتلال رئاسة الحدود ابتداء من الساعة الخامسة صباحا ، على أن يحتل مجدى حسنين ثكنة الحدود بالجبل الأصفر، وأن يحتل جنود لواء الأساس مبنى قسم القاهرة . وأنيط بمركز تدريب المدفعية سد طريق مصر الجديدة وهاكستب وقفل طريق السويس فى اتجاه الكيلو ٤,٥ ، وتسيير دوريات بين ميدان الجولف ومعهد الصحراء إلى أن يتم لفصيلة من كتيبة مدافع الماكينة الثانية وفصيلة مدرعات من سلاح الفرسان الاستيلاء على رئاسة الجيش . وكانت الخطة العامة قد حددت تشكيلا احتياطيا مكونا من إحدى وحدات مدفعية الميدان وكتيبة المشاة الثالثة عشر وكتيبة دبابات فضلا عن بقية سلاح الفرسان التى رابضت بثكناتها .

وتنتقل الخطة إلى شبكة المواصلات اللاسلكية ، فخصصت عربة بجهاز لاسلكى لرياسة الجيش وأخرى لسلاح الفرسان وثالثة مع يوسف صديق ورابعة مع الكتيبة الثالثة عشرة وخامسة مع رئاسة المدفعية على أن تقدم كل مجموعة من هذه المجموعات تقريرا دوريا كل ربع ساعة إلى مجموعة رياسة الجيش منذ ابتداء العملية حتى العاشرة من صباح ٢٣ يولية .

وأسندت الخطة واجبات خاصة لأربعة ضباط ، فأناطت بجمال عقد مؤتمر برياسة أركان حرب الجيش ، وبعبدالحكيم إعلان السياسة العامة ، وبكمال حسين الاجتماع بالمستشارين الألمان ، كما ناطت بزكريا واجبا حيويا رئيسيا هو أركان حرب العملية كلها الذى أدّاه بهدوئه المعهود على خير وجه وتفان ملحوظ .

ونصّت الخطة على إنشاء شبكة لتلقّى المعلومات العسكرية تتولاها المخابرات الحربية ، والمدنية وتتولاها الصحف والإخوان المسلمون ، لمعرفة جميع التطورات

السياسية فى المملكة عامة والجيش خاصة ، وكذلك تطور الأمور فى الإسكندرية .
وكلفت الخطة سلاح خدمة الجيش بسدّ المنطقة المحاصرة بالبراميل ، كما أوضحت أن إخطار القوات المسلحة المرابطة بفلسطين يبدأ بعد إذاعة بيان الراديو. وكذا نصّت الخطة على أنه بعد نجاح الانقلاب تطوف دوريات من الاحتياط فى السابعة صباحا بالقاهرة مكونة من الدبابات والسيارات المدرعة و بطارية مدفعية وسرية مشاة مخترقة شارع الملكة نازلى (رمسيس الآن) وميدان المحطة وشارع إبراهيم باشا (الجمهورية الآن) وميدان الأوبرا . وكان على قوات الكوردون توجيه الضباط من رتبة بكباشى فما فوق وغير المرغوب فيهم من الرتب الأخرى إلى صالة السينما بالتدريب الحربى فى رياسة الجيش حيث يستمعون إلى كلمة يلقيها عليهم رئيس هيئة أركان الحرب فى الثامنة والنصف صباحا .

وكان ثمة بيانان سيذاعان عقب نجاح الحركة فى الساعة السابعة والنصف فى الإذاعة ، أحدهما موجه للشعب والآخر موجه للجيش ، على أن يحلّق سلاح الطيران فى العاشرة صباحاً فى سماء القاهرة والإسكندرية ، و يتوجه ضابط اتصال مع داورية مسلحة إلى وزارة الداخلية للمحافظة على الأمن .

وما كان يدور بخلد أحد أن هذه الأوراق الست كانت تحمل فى طياتها هذا الانقلاب الذى هزّ عرش فاروق وأطاح به وأزاح عن شعب مصر غمّة طالما كتمت أنفاسه وقهراً عانى منه أقسى المعاناة . وأذكر هنا بعد أن درست مع زملائى ـــ حسين وخالد وعثمان ـــ الخطة إجمالا وتفصيلا بمنزلى ، أنّى بدأت أخطط لما جاء فيها من واجبات ملقاة على عاتق سلاح الفرسان وأخذت فى ترتيب الأمر وإعداد السُّبل الكفيلة بتنفيذه على وجه الدقة حتى لايفوتنى شيء . فدوّنت بخطّى الخطوات التنفيذية على وريقات عشر تحمل كل منها عملية من العمليات . فواحدة فيها تفصيل لاحتلال دار الإذاعة ، وثانية وثالثة ورابعة فيها تفصيل بما سيفرض من حصار المنطقة بكتيبة سلاح الفرسان الميكانيكية ، وخامسة وسادسة لاعتقال من ينبغى اعتقاله ، وسابعة لما كان سيتخذ من احتلال لرياسة سلاح الحدود ، وثامنة وتاسعة لما كان سيتخذ من تأمين للمطارات ، وعاشرة لما كان سيتخذ من تأمين للبوابات والمداخل .

هذا ما كان يخص جانبا من قوات سلاح الفرسان . أما ما كان يخص سائر قوات الفرسان ففصّلته فى وريقات أربع . أولاها خاصة بتجهيز الاحتياطى ليكون على أهبة الاستعداد فى خمس عشرة دقيقة . وثانيها بأن يقوم الآلاى الأول المدرع بإعداد كتيبة دبابات لعمل طابورسير داخل المدينة فى الساعة العاشرة صباحاً مع بيان خط سيرها كما جاء فى الخطه العامة . وثالثها بما يقوم به الآلاى الأول المدرع من إعداد لكتيبة دبابات لتكون على استعداد للتوجّه إلى الإسكندرية فى مدى ساعتين إذا لزم الأمر . ورابعتها أن تظل باقى القوات المدرعة فى حالة استعداد لما ستؤمر به . وخامستها خاصة ببقاء الضباط مع جنودهم حرصا على ألا يتسرّب بينهم من يدعو إلى الهزيمة . وسادستها خاصة بإعداد كتيبة الدبابات « السِنْتُوريون » حذرا من تدخل القوات البريطانية . وسابعتها خاصة بتعيينى للملازم رضا صابر رحمه الله ليصحب ضابط الإشارة الذى كان سيوكل إليه الإشراف على تأمين مصلحة التليفونات كما أشرت قبل .

ذلك هو مجمل ما جاء فى الخطة وتفصيل ما أعددته للتنفيذ . وكانت الساعة حين انتهيت من هذا كله قد بلغت التاسعة ، وأحسّت زوجتى أنه لابد لنا من وجبة خفيفة تعيننا على مواصلة ما نحن فيه فقدّمتها إلينا . وفيما نحن هكذا دخل علينا جمال عبدالناصر فى زىّ مدنىّ وقد ارتدى قميصا أبيض وبنطلونا رماديا ، وكان يبدو عليه الإرهاق الشديد . ولكنه ما كاد يطالعنا حتى بدت على وجهه بسمة الارتياح العريضة . وإذا هو يقول لنا : « ما جئت فى هذه الساعة وعلى غير موعد إلا لأطمئن إلى ما سينهض به سلاح الفرسان » . فقلت له مداعبا تخفيفا لحدّة الموقف وتوتّر الأعصاب : « عجبا .. عشنا ورأينا سلاح المشاة يريد أن يطمئن على قيام سلاح الفرسان بواجبه » ، وأضفت هامسا : « هل تحب أن أصارحك مرة ثانية بأن الله خلق أول ما خلق ضابط الفرسان ثم أردفه بالحصان .. وبعد أمد طويل .. خلق الله ضابط المشاة ! » . وضحكنا ثم أعدنا مناقشة تطبيق الخطة عَجِلين . وحين رافقته مودّعا التفت نحوى قائلا وهو يغادر المنزل : « فلتخلع عنك عواطفك الليلة ، ولا تفلت من يعترض طريقك . نحن فى مفترق الطرق ، إما الحياة أو الموت » . فشددت على يديه مؤكدا أننا على العهد لن نفتر ولن نلين ، وأن الفرسان على قدم الاستعداد . وأحببت أن أبدّد كل مخاوفه فقلت له : « نحن محيطون بك كسرب

من النحل اللاذع فتوكّل على الله ، وسننتزع الفوز معا » ، فغادرنا مشرق الوجه .

وعدت إلى حيث كان رفاقى فى انتظارى . ولقد كان الموعد المضروب للقيام بالحركة هو الواحدة بعد منتصف الليل ، غير أنه كان ثمة هاجس هجس فى نفوسنا فى أن نبكّر عن الموعد المضروب ساعة أو بعض ساعة خشية أن يحدث مالا نقدّر أو نتوقّع ، فأسرعنا إلى الثكنات فى العاشرة والنصف ، ولعل هذا الهاجس كان مبعثه مايحسّه من يقدمون على مثل عملنا من قلق وخشية ، فلقد كنا أمام مصير مجهول لاندرى معه أسنستقبل غدنا أحياء أم نكون فى عداد الضائعين . ثم ما أشق وأمرّ ساعات الترقّب والانتظار على النفوس التى تحمل مثل ذلك العبء . ودّعت زوجتى وقبّلت طفلىّ وهما نائمان ولم أنس المصحف الصغير الذى وضعته فى جيبى وكأنى أتزّود بسلاح لايُفلّ . وصحبت حسين فى سيارته إلى ثكناتنا ومضى خالد فى سيارته متوجّها إلى وحدته للخروج بها فى الموعد الذى حدّدناه . ودخلت برفقة حسين إلى المعسكر من باب خلفى مهجور، وعندما وصلنا فوجئنا بانطفاء الأنوار فظننا أول ما ظننا أن أمرنا قد انكشف ، وهكذا تعتور الظنون من هم على مثل عملنا مُقْدمون ، وحمدنا الله على أننا بكّرنا بالحضور إلى أن تبيّن لنا أن انقطاع الكهرباء كان لعطل فنى . وعلى الرغم من هذا فقد أخذت فى التنفيذ ، وفى ضوء البطاريات والشموع أخرجت من جانطة الجراية التى كنت أعلقها على كتفى الوريقات التى دوّنت عليها كل عملية على حدة ، ومضيت أصدر الأوامر لضباط آلاى السيارات المدرعة الأول ولأركان حرب فنى الآلاى الأول المدرع يوزباشى توفيق عبده اسماعيل [وزير شئون مجلس الشعب وقت كتابة هذه السطور] ليتولى إصدارها بدوره إلى ضباط وحدته . وسلمت كل ضابط نسخة من أوامر العمليات التى كنت قد أعددتها مع احتفاظى بصورة من كل نسخة مدوّنا اسم كل ضابط على نسخته التى بين يديه . وكان مما أثار دهشتى وإعجابى وملأنى ثقة بإخوانى أنى بعد أن فرغت من إناطة كل ضابط بواجبه أن تقدم الىّ ملازم شاب اسمه ممدوح اسماعيل وإذا هو يحتج علىّ لِمَ لمْ يكن له نصيب كغيره من الضباط فى هذا العمل ؟ فأسرعت وأسندت إليه مهمة تعزيز الحصار على مداخل مصر الجدُيدة لتخفيف العبء الشديد على خالد

محيى الدين . وجدير بالذكر أنه حدث عقب حركة الانفصال بسوريا مباشرة فى عام ١٩٦١ أن طلب منى جمال عبدالناصر فى تلك الفترة الحرجة أن أختار ضابطا يوثق به من الفرسان لقيادة مدرعات الحرس الجمهورى ، فلم يرد على خاطرى غير اسم هذا الضابط المتميز لماعهدته فيه من حماسة وشجاعة وذكاء . ولقد ثبت صدق حدسى فيه لما كان منه من إخلاص وكفاءة أشاد بها رئيس الجمهورية فى أكثر من مناسبة .

وبحمد الله مضى كل شىء فى يسر على الرغم من أنّا كنا نعمل فى الظلام . وبينما نحن واقفين إلى جوار المدرعات إذا باليوزباشى توفيق عبده اسماعيل يبلغنى بأنه انتهى من إصدار أوامره إلى ضباط الآلاى المدرع الأول بالمهام المطلوبة من كل منهم وأنه أمر بصرف وقود الدبابات ، وأن اليوزباشى أحمد حموده قد فتح مخازن الذخيرة ليزوّد الدبابات بما تحتاجه منها . ثم أخطرنى أنه تصادف وهو عائد فى الثانية عشرة ونصف أن التقى قرب ميس سلاح الفرسان بسيارة كان يستقلها اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة وسأله عن سبب وجوده فأجابه بأنه إنما جاء ليوقظ الضباط للقيام بخدمة الطوارىء . ولقد شاء القدر أن يُلقَى فى هذه الليلة واجب الطوارىء فى قسم القاهرة على سلاح الفرسان ، وهو ما كان يتعين به على السلاح تجهيز كتيبة دبابات ومائة جندى مشاة . ولأول مرة فى تاريخ خدمة الطوارىء كانت كتيبة الدبابات مزوّدة بالذخيرة هى وسرية المشاة ، وهكذا قدّم العهد القديم هدية إلى الثورة منذ بدايتها . أنهى الىّ توفيق ماكان بينه وبين اللواء على نجيب الذى أمره بإعداد كتيبة الطوارىء للخروج وأنه سيمرّ عليه بعد نصف ساعة لمراقبة التنفيذ ، وبأنه كان فى نيته أن يقبض عليه لولا أنه كان عندها أعزل وكان على نجيب فى ظلّ حارس مسلح ، فبادرته بقولى « إذا وقع عليه بصرك مرة أخرى فاسرع باعتقاله » .

ووقف ضباط الدبابات بين جنودهم يُنبئونهم بأن الليلة ليلة طوارىء ولكنها طوارىء من نوع جديد ، فلقد كانت الطوارىء من قبل لردع الشعب عن أن يثور بالملك ، أما طوارىء الليلة فهى لردع الملك عن أن يعبث بحقوق الشعب ، فإذا نفوس الجند تلتهب حماسا وإذا تطلعهم للحرية يعمّهم جميعا ويهزّ منهم القلوب .

وهكذا ألقينا كل ما نملك وتركنا المصير لله العلىّ القدير ، و يعنينى هنا أن أسرد كل ماقام به ضباط الفرسان الأحرار الذين استهانوا بكل ماقد يعترضهم من عثرات وماقد يتعرّضون له من و يلات إذا ما أخفقوا ، لا لغرض أولنفع ولكنهم هبّوا هبّة بر يئة خالصة من كل مايشوب ، طاهرة للّه والوطن . ولقد كان لضباط المشاة والمدفعية بطبيعة الحال واجبات أخرى هنا وهناك ــ لا تقل شأنا عما قام به ضباط الفرسان ــ أدّوها على خير وجه وأكمله . وإذ كان ماأكتبه هنا هو ماعايشته واضطلعت به ، لذا سجلت ما يخصّنى ويخصّ زملائى معى من سلاح الفرسان ، تاركا لغيرى أن يكتب مايخصّه .

و بعد ساعة الصفر بفترة وجيزة إذا بى أفاجأ بالصاغ عثمان فوزى يسرع نحوى ليبلغنى أن الأمير الاى حسن حشمت قائد اللواء المدرع قد دخل إلى ثكنات السلاح ، وهو ما كان يعنى أن ثمة عائقا سيقف فى سبيلنا إذ كان وجوده بين الضباط والجنود ممايثبّط من الروح المعنو ية ، وكانت لحظة حاسمة فى مصير المعركة . وكان الملازم ابراهيم العرابى [رئيس هيئة أركان الحرب العامة وقت كتابة هذه السطور] الذى أنيطت به حراسة بوابة الفرسان بفصيلة من السيارات المدرعة فى طر يقه لاتخاذ موقعه حين التقى بقائد اللواء المدرع الذى أمره بالعودة بفصيلته إلى ثكنته . اعتليت وحسين الشافعى والملازم ممدوح شوقى سيارة جيب مسرعين إلى حيث قائد اللواء المدرع بالقرب من آلاى الخيالة حيث وجدناه بملابسه المدنية بالقرب من سيارته الخاصة مشتبكا فى جدل عنيف مع الملازم حسن الدمنهورى ، وكان قد شك فى أمره وحاول إرغامه على الركوب معه فى سيارته الخاصة فأبى عليه ذلك محتدا ، فأصدر إليه حسن حشمت أمره بالإيقاف ممازاد الدمنهورى إباء وتشدّداً فى موقفه الذى آزره فيه الملازمان محمد عثمان الكتبى وفاروق توفيق من آلاى الخيالة . وإذا بصر حسن حشمت يقع على حسين الشافعى فتوجه إليه قائلا : « حتى أنت ياحسين ؟ » فردّ عليه فى صلابة مُعلنا إيّاه أن الأمر قد حُسِمْ ، فالتفت إلينا قائد اللواء ليحذرنا من مغبة هذه الخطوة المتهوّرة . وحسما للموقف وعدم ضياع الوقت الثمين فى جدل عقيم لاطائل وراءه تقدّمت إليه مهدداً إياه بما كان بين يدى من سلاح أن يركب معنا وحملناه إلى مقر قيادة كتيبة

السيارات المدرعة حيث وكلت إلى الملازم ممدوح شوقى التحفظ عليه، وسألته عما قد يخفف عنه محنة الاعتقال المؤقت معتذراً عما يكون قد بدر منا من صرامة، إذ كان الموقف يقتضي هذا.

انطلق خالد محيى الدين ومعه الملازم وجيه رشدى بالكتيبة الميكانيكية لضرب الحصار على منطقة العمليات وعزلها عن القاهرة لكى تتمكن القوات المشتركة فى الانقلاب من تنفيذ الخطة دون أن يعوقها عائق.

وكانت حراسة بوابة الفرسان قد نيطت إلى الملازم ابراهيم العرابى على رأس فصيلة من السيارات المدرعة كما قدمت. وكان مما قامت به تعرضها لقوة الشرطة العسكرية التى كُلّفت بالتحرك من عابدين إلى قيادة الجيش للقضاء على الحركة، واعتقل العرابى أفرادها بعد تجريدهم من أسلحتهم، وكان فى هذا بلاشك حقن لإراقة الدماء.

وانطلق الملازم محمود عبداللطيف حجازى على رأس فصيلة من السيارات المدرعة تضم الملازم ثان فكرى بطاح الى كوبرى القبة أمام المستشفى العسكرى لإحكام الحصار حول منطقة العمليات. واتجه الملازم فاروق الأنصارى ومعه فصيلة من السيارات المدرعة إلى مبنى قيادة الجيش بعد منتصف الليل بقليل حيث قام بدور مشهود أغفله الكثيرون ممن تعرضوا لتاريخ تلك اللحظات الحاسمة. فما كاد البكباشي يوسف صديق رحمه الله يصل على رأس فصيلة من مشاة مدافع الماكينة إلى مبني القيادة حتى تصدّى له الحرس المرابط على البوابة والشرطة العسكرية، فاقتحم فاروق البوابة بمدرّعته ليخلى الطريق ليوسف صديق لاحتلال مبنى القيادة ثم نزع أسلحة الحرس وأودعها مخازن سلاح الفرسان، وكان فيما فعل ما أدّى من غير شك إلى البعد عن التضحية بالأرواح دون جدوى.

وفى الثالثة صباحا صحب الملازم أحمد على المصرى ومعه فصيلة من السيارات المدرعة اليوزباشي جمال القاضى على رأس سرية من كتيبة المشاة الثالثة عشر إلى مقر الإذاعة، واستطاع بالذكاء والحيلة أن يجلى قوات الشرطة عن مبنى الإذاعة إلى أن أذيع بيان الحركة فى السابعة والدقيقة الخامسة عشر على لسان البكباشى أنور السادات ـــ على ما أذكر ـــ عقب تلاوة القرآن الكريم.

واشترك المرحوم الملازم آمال المرصفى بفصيلة من السيارات المدرعة فى تعزيز الضباط المنوط بهم اعتقال من كان يُشكّ فى أمره من قيادات الجيش . وتوجه الملازم ممدوح اسماعيل إلى ميدان روكسى عند مدخل مصر الجديدة لضرب الحصار حول منطقة العمليات ومعه فصيلة من السيارات المدرعة . وخرجت فصيلة أخرى بقيادة المرحوم الملازم عادل حسنى لتعزيز فصيلة الدبابات المرابطة بمدخل العباسية . ومضى اليوزباشى عبدالفتاح على أحمد على رأس فصيلة من السيارات المدرعة لمعاونة اليوزباشى مجدى حسنين لاحتلال محطة الإرسال بأبى زعبل . وتولى الملازم محمد صبرى القاضى مهمة ضابط الإشارة والاتصال لاسلكيا بجميع الوحدات المشتركة فى الحركة . ومضت فصيلتان من السيارات المدرعة غاب عن ذاكرتى تماما من تولاهما لتكونا تحت إمرة الصاغ جمال حماد لتأمين لواء المشاة السابع ، كما وُكل إلى اليوزباشى سامى تركى مهمة الاتصال بسلاح الطيران . وفى أول ضوء ذهب الملازم محمد ابراهيم عطية على رأس فصيلة من الدبابات ليحتل رياسة الحدود فى معاونة سرية من كتيبة المشاة الثالثة عشر . ومضى الملازم على محمد على ومعه فصيلة دبابات لتأمين مطار مصر الجديدة فإذا هو يجد سرية من المشاة كانت على نية الذهاب إلى رياسة الجيش لكبت الحركة فحال بينها وبين أن تتحرك من موقعها . وخفّ الملازم بهاء الحينى على رأس فصيلة من الدبابات إلى مطار ألماظه لتأمينه ، وتوجه الملازم فؤاد عمر ومعه فصيلة دبابات إلى العباسية لتأمين مدخلها . وحوالى الثالثة صباحاً وصل اللواء محمد نجيب إلى حيث كان ينتظره الملازم محمود عبداللطيف حجازى ليصحبه إلى مقر القيادة . وحوالى السادسة قصد الملازم عبدالمنعم عانوس مقر الإذاعة على رأس فصيلة من الدبابات ليعزّز فصيلة السيارات المدرعة التى توجهت إلى المكان نفسه فى الثالثة صباحاً . وظل المرحوم الملازم محمد أحمد المغربى فى احتياط الآلاى الأول المدرع لحين تجدّ الحاجة . وأخذ الملازم حسن الدمنهورى على عاتقه مهمة الاتصال بين سائر وحدات سلاح الفرسان ، كما قصد رياسة سلاح الفرسان لتأمينها وقطع الاتصال بينها وبين الخارج . وبعد أن تم للحركة الاستيلاء على قيادة الجيش اصطحب الأميرالاى حسن حشمت واليوزباشى سعد مأمون [وزير الحكم المحلى الأسبق] والمرحوم الأميرالاى عبدالعزيز فتحى مدير مكتب رئيس هيئة أركان

حرب الجيش الذين قُبض عليهم داخل ثكنات سلاح الفرسان بسيارته الخاصة إلى المعتقل الذى أعدّه التنظيم بمبنى الكلية الحربية .

كان الشعور فياضا عمّ الجميع ، فعلى حين كنا قد أعددنا الآلاى المدرع الأول والآلاى الأول سيارات مدرعة وجانبا من الكتيبة الميكانيكية للقيام بالحركة ، إذا بالمرحوم الملازم آمال المرصفى ينهض وحده بإعداد آلاى الاستطلاع الأول الذى لم يكن للتنظيم ضباط بين أفراده ليكون على أهبة لتنفيذ مايُطلب منه ولايُستغل ليكون ضد الحركة ، وإذا بالمرحوم اليوزباشي عبدالله فهمى يعدّ الآلاى المدرع الثاني للهدف نفسه مستخدما سلطته إذ كان ليلتها ضابط عظيم الطوارىء يعاونه فى ذلك اليوزباشي رءوف أسعد ، وتحول هذا الآلاى ليصبح احتياط حامية القاهرة متخذا مواقعه على امتداد شارع الخليفة المأمون طوال الأيام الثلاثة الأولى . وكان فى هذا وذاك إضافتان لهما قيمتهما فيما اضطلع به سلاح الفرسان .

ولقد شارك فى الحركة من بين الضباط الأحرار بسلاح الفرسان إثنان وعشرون ضابطاً من بين ضباط التنظيم الذين كان عددهم اثنين وثلاثين لم يخذلنا واحد منهم أويتخلّف فيما عدا من تعذر إبلاغهم بالموعد المحدد لظروف خارجة عن الإرادة . كما انضم عشرة ضباط من غير الضباط الأحرار يحدوهم إلى ذلك حماسهم ، أوعن تكليف من الضباط القائمين بالحركة بعد أن توسّموا فيهم روح الوطنية الخالصة .

فرغنا من واجبنا واطمأنت النفوس إلى أنها أدت رسالتها ، لم نستشعر الكدّ ولم يفتّ فى عضدنا وهن . وحانت منى التفاتة إلى مدفعى الرشاش الصغير الذى كنت أحمله فى يدى طيلة هذه الساعات الرهيبة ليكون لى عدّة فى الدفاع ضد من يقف حجر عثرة فى طريقى ، ومددت يدى أتحسّسه وأختبره فإذا هو فارغ لاذخيرة به . هنا استغرقت فى ضحك طويل وانخرطت فى تفكير طويل .... ضحكت حين ذكرت أنى نسيت نفسى نسيانا وكدت أعرّضها للخطر حين أعددتُ الذخيرة لكل المدافع والمدرعات ونسيت أن أعدّ الذخيرة لمدفعى ، ولكن الواجب العام كثيراً ماينسى الواجبات الخاصة ، وفكرت كيف حاطنى الله بأمنه فلم ألق شرا . ومازلت أذكر هذه أكثر مما أذكر غيرها لأنها عاشت فى خاطرى أوضح دليل على أن الله كان يؤيدنا بنصره . ثم هى عناية الله التى ملأت قلبى إيمانا فلم أشعر

بالحاجة إلى تلك الذخيرة . ومع دقات الساعة الرابعة صباحاً كان كل شيء قد استقر وأدركنا ما نبغى ، وأصبح كل ما سطرته أيدينا على تلك الوريقات وما جال بنفوسنا وماوراء خواطرنا ، أصبح هذا كله حقيقة واقعة تشيع فى أنحاء البلاد ، وغدا واجبا علينا أن نتجه إلى الله بالشكر وأن نخرّ له راكعين ساجدين فافترشنا الأرض جنودا وضباطا نصلى صلاة الشكر يؤمّنا حسين الشافعى . وسالت مع ابتهالاتنا إلى الله دموع الفرحة . وكم انهمرت من قبل دموعنا بالألم ، والفرق كبير بين دمع ودمع ، دمع العبودية ودمع الخلاص .

٦
إجراءات وأحداث ما بعد ليلة الثورة

لقد كان همّى حين شاركت فى هذه الحركة منذ أن بدأت إلى أن انتهت أن أبذل كل جهد فى إنجاحها ، ولم يدر بخلدى أن ثمة مطمعا وراءها فى اعتلاء كراسى الحكم أو المشاركة فى السياسة ، بل كنت أومن أننا نقوم بهذه الحركة لتخليص البلاد من شر استفحل فعجز الساسة عن تداركه وتلافيه ، حتى إذا ما أنجزنا مهمتنا عدنا إلى ثكناتنا وتركنا للبلاد حقها المشروع فى اختيار من تثق فيه بعد تلك التجربة الطويلة ليتولى أمرها فى جو لا ضغط فيه لملك طائش ولا لمستعمر جبار، وإنما يُردّ الأمر فيه إلى الأمة لتقول كلمتها الفاصلة .

وأعترف أننا كنا فيما انتويناه قبلُ ونحن نعدّ لهذه الحركة أن يكون قصارانا وقف الملك عند حدّه وردّه عن طغيانه وتثبيت أركان الدستور وتمكين الشعب من حقوقه كاملة ، فلا يكون عدوان هنا أو هناك . كما كانت النية معقودة على تنفيذ الأهداف التى نادينا بها فى منشوراتنا والتى حدّدناها فيما بعد فى المبادىء الستة المعروفة . وإذا نحن ــ معشر الضباط الأحرار ــ بعد أن كلّل الله مسعانا فى يسر غير

متوقع وانتهى الأمر بنا إلى هذه الغاية الحميدة نرى أن وجود الملك بات غير مأمون العاقبة ، فما يدرينا لعل حركة مضادة تقع فتعيد الأمور سيرتها الأولى ، ووجد جمال عبدالناصر أن الخطر الكامن وراء هذا كله هو فى بقاء الملك . من أجل هذا رأى والفرصة مواتية إجبار الملك على التخلّى عن العرش ليصفو الجو صفاء لاشائبة فيه ولا رجعة معه إلى الوراء .

وفى منتصف ليلة ٢٥/٢٤ يوليه اتصل بى جمال عبدالناصر متعجلا لقائى بمقر القيادة فتوجهت إليه لساعتى ليبلغنى بما استقر عليه الرأى من خلع الملك ، وإذا هو يعهد إلىّ بإعداد كتيبة دبابات وإرسالها إلى الإسكندرية لتتولى هذه المهمة إلى جوار وحدات من الأسلحة الأخرى ، فقلت له حَسْبنا خلع الملك وإبعاده دون إراقة دم كما تعاهدنا ، فطمأننى إلى أن هذه هى نيّته الشخصية وأنه حريص على أن تظل ثورتنا بيضاء . وقد رأيت ليلتها إرسال نصف كتيبة من الآلاى الأول المدرع الذى كان على أهبة الاستعداد لهذا التحرك كما أسلفت بالقطار، والنصف الآخر فوق الناقلات على الطريق الصحراوى حتى إذا ما تدخلت القوات البريطانية لتحويل القطار عن مساره أمكن للنصف الآخر تأدية المهمة المنوطة به . وفى فجر يوم ٢٥ يولية قام القطار محملا بنصف قوة الدبابات من محطة العباسية العسكرية ، وبعد ساعة كنت أشرف على عبور الناقلات حاملة الدبابات عند كوبرى الجلاء فى طريقها إلى الإسكندرية . وقد وصلت الكتيبة إلى الإسكندرية كامله دون أن يعترضها معترض حيث تولى حسين الشافعى قيادتها مع كتيبة من السيارات المدرعة . وقد تم هذا بعون الله حقا إذ كان من الاستحالة بمكان تنفيذ هذه المهمة الخطيرة خلال تلك المهلة الوجيزة التى لم تتجاوز ساعات ست .

وبعد أن كُتب النجاح لحركة الجيش بأسابيع سألنى عبدالناصر أن أزوره فى مقرّ قيادة الجيش بكوبرى القبة . وعندها عرض علىّ أن أنضم عضوا إلى مجلس قيادة الثورة ، وكان التفكير قد بدأ فى أن يكون كل سلاح من أسلحة الجيش الرئيسة ممثّلا فيه . وإذ كنت من سلاح الفرسان لذا عرض علىّ أن أكون ممثلا لهذا السلاح شأن ما كان من اختيار زكريا محيى الدين و يوسف صديق ممثلين لسلاح المشاة وعبدالمنعم أمين ممثلا لسلاح المدفعية . وأعترف أن العرض كان مفاجأة تامة لى لم تدر قط بخلدى ، فاعتذرت إليه لتوّى لأسباب أبديتُها له ، أولها أننى

رأيت أن هذا قد يكون ثمنا لعمل أدّيته كان واجبا عليّ أداؤه دون نظر إلى جزاء ، وثانيها أن انضمامي لهذا المجلس سيصرفني عن متابعة المهام الملقاة على عاتقي في سلاح الفرسان و« الحركة » لم تومّن بعدُ والجيش البريطاني على مبعدة ساعات من القاهرة . وثالثها أنه مادام هناك من هو أقدم مني رتبة في سلاح الفرسان ممن شاركوا في الحركة مشاركة جادّة حقّة وهو حسين الشافعي فأرى أنه أوْلى مني بهذا . وقد لمست كم طابت نفس عبدالناصر لهذا الموقف مني ووافقني على رأيي ، وطلب اليّ أن أتولى بنفسي إبلاغ حسين الشافعي بهذا الاختيار ، فغادرته إلى حسين انهى إليه ماحدث .

وبعد مايقرب من ربع قرن على تلك الواقعة وكنت أتذاكر مع الصديق خالد محيي الدين أحداث بداية الثورة بمناسبة ظهور كتاب « قصة ثورة ٢٣ يولية » للأستاذ أحمد حمروش (٧) الذي قال فيه : « أنني كنت من بين من يسعون للظفر بالمناصب » أن نفى خالد هذا الزعم مؤكدا الرواية التي ذكرتها . تُرى هل كان هناك منصب يُطمح إليه أعلى من منصب عضو في مجلس قيادة الثورة الذي اعتذرت عن قبوله ؟ بل لقد سجّل خالد لي شهادته عن هذه الواقعة بخط يده مستنداً إلى كتاب سلّمته إليه يداً بيد ، ثم أفصح لي عن أمر كنت أجهله قائلا : « لقد آن أن أصارحك بما كتمته عنك طيلة هذه المدة إذ لم ترد مناسبة لذكره ، وهو أن جمال عبدالناصر قد حمد لك موقفك بإيثارك الأخ حسين الشافعي لعضوية مجلس الثورة . وقد اعترف لي بأنك قد رفعت عنه الحرج الذي كان يستشعره لأنه إذا ما ضمّك إلى المجلس يكون قد تخطّى الأقدمية فضلاً عن دور حسين الهام أيضاً ليلة ٢٣ يولية ١٩٥٢ » .

وإلى القارىء نص رسالة خالد محيي الدين لي :

« أودّ أن أقرر أن جمال عبدالناصر حينما قرر توسيع مجلس قيادة الثورة كان يقدر أن دور ثروت عكاشة كان هاما وتاريخيا ليلة ٢٣ يولية ، وكان تقديره بضرورة ضمّه لمجلس قيادة الثورة ، ولكنه كان أيضا يعتبر دور حسين الشافعي هاما وتاريخيا أيضا ليلة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ . وقد عرض جمال عبدالناصر على ثروت عكاشة الانضمام لمجلس الثورة ولكن ثروت عكاشة اعتذر للأسباب التي أوردها في رسالته . ولكنني في الوقت نفسه أذكر أن جمال عبدالناصر كان مترددا بين ثروت عكاشة وحسين الشافعي بسبب أقدمية حسين الشافعي ودوره الهام أيضاً كقائد لسلاح الفرسان ليلة

لثورة . وكان جمال عبد الناصر يبيّت النيّة لإقناع ثروت عكاشة بالتنازل إذا أصرّ على
ـبول عضوية مجلس الشورة . ولكن ثروت عكاشة وفّر عليه هذه المشقة بالاعتذار
بتفضيله تعيين حسين الشافعي بدلا منه للسبب الذى ذكره فى رسالته . وحينما قابلت
ـبد الناصر بعد المقابلة مع ثروت عكاشة قال لى : ثروت ريّحنى من الحرج
الاعتذار» .

وعلى أية حال فالحق إنى وإن لم أكن أدرى هذه الحقيقة إلا أن الذى أدر يه
ـو أننى كنت صادقاً مع نفسى ومع ظروف الوطن حين اعتذرت عن عدم قبول
ضو ية المجلس للأسباب التى ذكرتها .

٧
رياسة مجلة التحرير

قامت الثورة فى وقت كانت للصحافة فيه مدرستان أساسيتان ، إحداهما تتناول الأوضاع بالتحليل السياسى الجاد وتضمّ نخبة من شباب الصحفيين وقُداماهم فى عديد من الصحف والمجلات[٨] . أما المدرسة الثانية فكانت مجدّدة تسير على نهج الصحافة الأمريكية أوعلى نهج قريب منها ، معتمدة أساسا على الإثارة والإفصاح عن الأسرار الشخصية والتعليقات الخفيفة اللاذعة فى أسلوب شائق ومهارة غير منكورة ، وإن كنت أرى أنها لم تكن المدرسة الصحيحة فى وقتها الصحيح ، نظرا لما كانت عليه الحياة السياسية فى مصر آنذاك من مخاض أعقبه مولد الثورة .

فى هذا الجو نشأت مدرسة صحفية وليدة لتكون تعبيرا عما يتطلّبه الوطن من خلال تفكير الضباط الأحرار وأسلوبهم . وإنه وإن كان ثمة أوجه للقاء بين المدرسة الأولى وهذه المدرسة الوليدة ، إلا أن هذا اللقاء لم يتم فى أغلب الأحيان مع المدرسة الثانية ، ووقعت بينها بطبيعة الحال مصادمات ، وإذا كانت قد بدت ثمة مهادنة بينها فلقد كانت هذه المهادنة مراوغة فحسب .

غير أنه كثيراً ماتضطر الثورات للعدول عما تكون قد رسمته قبلُ ، فالظروف تتغير والسياسة قُلَّب قد تقتضى اليوم مالم تقتضه أمس . من أجل هذا كانت استعانة بعض إخوانى من رجال الثورة ببعض فرسان المدرسة الثانية لتكون أقلامُها دُعاتَها . وكنت أرى غير مارأوا ، وأثبتت الأيام ومرور السنين صدق حدسى .

وكانت قيادة الثورة قد رأت فى شهر سبتمبر ١٩٥٢ أن تصدر صحيفة باسمها ، إذ بدت لها الصحف كلها غير معبرة التعبير الصحيح عن جوهر الحركة ، وانتهى بها الأمر إلى إصدار مجلة التحرير التى أوكلت مهمة إظهارها إلى الأخ يوسف صديق ، وكان رحمه الله واضحا صادقا لايخفى ميوله الماركسية ، غير أن القيادة لم تعر هذا اهتماما فى بداية الأمر. وحرصا من يوسف صديق على أن تكون المجلة يسارية لحما ودما اختار اليوزباشى أحمد حمروش أحد ضباط المدفعية رئيسا للتحرير، وكان هو بدوره ماركسى النزعة ، وإذا المجلة تبدو فى نظر قيادة الثورة حمراء الصبغة وتصدر على غير الصورة التى كانت تنشدها ، الأمر الذى جعل جمال عبدالناصر يطلب إلىّ لقاءه بعد صدور أعداد ثلاثة من المجلة ، فلقيته وكان خالد محيى الدين حاضراً . وإذا هو يعرض علىّ رياسة تحرير المجلة متوسّما فى القدرة على أداء هذه المهمة بحكم تجربتى فى مجال الصحافة منذ عام ١٩٤٥ وحصولى على دبلوم الصحافة من كلية الآداب عام ١٩٥١ وإصدارى كتبا أربعة قبل الثورة . وقد قبلت هذا التكليف بعد إصرار جمال عبدالناصر، هذا إلى أعبائى التى كنت أحملها فى سلاح الفرسان . ولم أر داعيا إلى إعادة النظر فى هيئة تحرير المجلة بعد خروج أحمد حمروش لأنها كانت تضم باقة من الكتاب الوطنيين الشرفاء ـــ وكان بعضهم خالصا فى نزعته اليسارية ـــ تضم الأساتذة عبدالمنعم الصاوى رحمه الله وعبدالرحمن الشرقاوى ومصطفى بهجت بدوى وكمال الحناوى وسعد التائه وصلاح حافظ وسعد لبيب والفنانين عبدالسلام الشريف وحسن فؤاد رحمه الله وعبدالغنى أبوالعينين وجمال كامل وغيرهم . وقد كاشفتهم فى أول لقاء بأن الهدف من هذه المجلة هو التزام النهج الوطنى ، وأنها ليست منبرا لليمين أواليسار، فمن شاء هذا فليمض معنا فى سلام ومن لم يشأ فله الحرية فى أن يتخلى عن موقعه . كما أوضحت لهم أن من مهام المجلة كشف القناع عن العناصر المعادية للرأى العام ، والالتزام بماجاء بالمنشورات التى كان يصدرها الضباط الأحرار من

أهداف نصّا وروحا ، وتغليب الجانب الوطنى والشعبى على كل جانب حتى ولو كان على حساب القوات المسلحة ، وانتصار للديمقراطية الحقيقية التى من أجلها قامت الثورة ، وكشف الستار عن العناصر المستغِلة والمحتكرة ، والدعوة إلى مبادىء العدالة الاجتماعية بمختلف الطرق وإلى الانتهاء من النظام الملكى كلية . وقد انزاح عن كاهلى عبء ثقيل حين استجاب الجميع مرحّبين بهذا المسار ، وتعاهدنا جميعا على المضى فى هذا الخط المرسوم . وأذكر أن الشاعر عبدالرحمن الشرقاوى كان قد نشر قصة بعنوان « الشاو يش عبدالله » وأحسّت السلطات أن فى هذه القصة مساسا بإخواننا السودانيين الذين يقال إن اللواء محمد نجيب ينتمى نسباً إليهم من قبل أمه فصدر أمر الحاكم العسكرى باعتقاله . وعزّ علىّ هذا الموقف الذى رأيت أنه لاغبار فيه على الكاتب فيما كتب ، فذهبت إلى اللواء محمد نجيب فى صباح أحد أيام شهر يونيه ١٩٥٣ أوضح له رأيى ذاكراً أن مثل هذا قد وقع للأديب الفرنسى الشاعر لوى أراجون على قصيدة « الجبهة الحمراء » التى تخيّل الادعاء حينذاك أن فيها حضاً على القتل ، ولكن القضاء مالبث أن برّأ ساحته مستندا فى هذا إلى حجة زعيم السور يالية الأديب أندر يه بر يتون التى تُفصح عن أن كل ماينمتّ إلى اللاشعور فلامؤاخذة عليه . وعندما اقتنع اللواء محمد نجيب بماسُقته له من دليل أسرع فألغى أمر الاعتقال فى نفس اليوم .

وقد استلفت نظرى أن أحمد حمروش قد ذكر فى كتابه « قصة ثورة ٢٣ يولية » [صفحة ٢٨٩] أنه بعد خروجه من المجلة وحرصا على سلامة العلاقات وعدم تدهورها : « **طلب من كافة الزملاء أن يبقوا فى أماكنهم ويتعاونوا مع رئيس التحر ير الجديد الذى كان قد حضر ومعه قائمة بفصل معظم المحرر ين باعتبارهم شيوعين ، الأمر الذى اعترض عليه عبدالمنعم الصاوى لأن ذلك يعنى انهيارا للمجلة الناجحة ، وأن جمال عبدالناصر قد ارتضى بقاءهم بعد مقابلة مع عبدالمنعم الصاوى أوضح له فيها أن المجلة تسير على هدى منشورات الضباط الأحرار** » .

ومن الجائز أن يكون أحمد حمروش قد تصرف من تلقاء ذاته طالبا من أسرة التحر ير البقاء ، وإن كان كأى رئيس تحر ير آخر معيّن لايملك بقاء أحد أوتنحيته ، لأن القرار هنا ليس بيده . أما ماعدا ذلك مما أورده فلم يحدث . وحقيقة الأمر أن جمال عبدالناصر لم يفرض علىّ أشخاصا بعينهم ، كما لم يشر علىّ

بالاستغناء عن أحدٍ من المحرر ين . كذلك لم يكن فى جعبتى حين قبلت تحمّل عبء رئاسة التحرير أسماء اقترحت على عبد الناصر فصلها ، بل كان الأمر متروكا لى أتولاّه على الوجه السوىّ الذى واجهت به المحرّر ين بالأسلوب الذى أشرت إليه ، ولا إخال إلاّ أنهم يشهدون بصدق روايتى . أما ماجاء على لسان أحمد حمروش فى أحد كتبه من أن عبد المنعم الصاوى قد قابل عبد الناصر وأقنعه ببقاء المحرّر ين فهو عن يقين من شطحات الخيال ، فقد كان واحدا من المحرر ين ينتظر القرار وليس من الطبيعى أن يسعى إلى لقاء عبد الناصر دونهم جميعا . و بين يدىّ خطاب من الأخ خالد محيى الدين ردّا على ماسجّله أحمد حمروش يوثّق كل ماقلت . ومن فقرات هذا الخطاب تلك العبارة التى تشهد بحقيقة ما كان والتى تقول : « **إن جمال عبد الناصر لم يقدم لك قائمة بأسماء محرر ين شيوعيين يجب فصلهم ، وإن كل ما أذكره هو أنه طلب إليك الحذر من سيطرة شيوعية كاملة على مجلة التحرير ، وأن تكون عينكَ مفتوحة لهذا الأمر ، وأنك مسئول أمامهُ عن سياسة المجلة ، والدليل على ذلك أنه لم يحدث فصل لأى محرّر يسارى أو شيوعى أو غير ذلك طوال مدة رئاستك لتحرير المجلة » ، ثم انتهى خالد إلى أنه : « لا يعتقد أن جمال عبد الناصر قد قابل عبد المنعم الصاوى بهذا الصدد »** .

و يذكر أحمد حمروش فى كتابه أن القيادة حين افتأتت عليه ونحّته عن موقعه دون علم منه عينتنى بديلا عنه . وأجد من المناسب هنا أن أكشف عن الأسلوب الذى اتخذتُه حيال سلفى حين طُلب الىّ أن أحلّ محله فى ر ياسة تحر ير المجلة بعد إقصائه ، فقد نشرت فى صدر العدد الرابع — وهو أول عدد صدر من المجلة وهى تحت إشرافى — كلمة رقيقة ودّعته فيها خير وداع أوفيته فيها حقه ولا تشير لا عن قُرب ولا عن بُعدٍ إلى أن مغادرته لهذا العمل كانت إقصاء له . وقلت فى تبر يرى — بصيغة الصديق المعتذر — أن ترك أحمد حمروش للمجلة كان لاستحالة الجمع بينها و بين التحاقه للدراسة بكلية أركان الحرب ، ورجوت بلسان المجلة أن يوافينا بما تجود به قريحته فى الفينة بعد الفينة .

***

واستمرت المجلة تصدر تباعا نصف شهرية ومن نجاح إلى نجاح ، فكان ما يوزّع منها يدل على رواجها رواجا غير مألوف وقتذاك ، ولعل مردّ ذلك كان

إلى تلك الحرية التى أُتيحت لى كى أنشر ما أراه ما دمت لا أُجانب القصد . ولعل هذا الذى مُنحته من حرية فى تحرير المجلة قد أثار رؤساء التحرير فى المجلات الأخرى ، وكم تمنيتُ أن يكون لهم أيضا مثل ما لى من حرية ، ولعل خوف القيادة من أن تزلّ الأقلام فتشوّه وجه الثورة فى مستهلّها هو الذى أملى هذا الوضع . وكان من بين من كتبوا لمجلة التحرير من خارج هيئتها الأساتذة عبدالرحمن عزام وطه حسين ويوسف السباعى وراشد البراوى وأحمد حسين وفكرى أباظه وجمال عبدالناصر وخالد محيى الدين وصلاح سالم ومصطفى محمود وأحمد كامل مرسى وغيرهم . وبلغ الأمر فى مقالة كتبها د . طه حسين للمجلة أنه كان يعيب على رجال الحركة تسميتهم ما قاموا به حركة ، وهى فى حقيقة الأمر ثورة لا حركة على نحو ما أسلفت فى صدر الكتاب .

كان طموح المجلة التعبير عن نبض الشعب بصدق وأمانة ، إيمانا منها بأن الصحافة فن وثقافة والتزام بقضايا الوطن والمواطن . وإذ كانت ثورة ٢٣ يوليه على حد تعبير مُفَجِّرها عبد الناصر(٩) : « ثورة شعب بأكمله ، وهى لهذا امتداد لثورتى عرابى ١٨٨٢ والثورة الشعبية ١٩١٩ » ،[وفى هذا اعتراف من قائد الثورة بأن ثورة ٢٣ يوليه لم تبدأ من فراغ وليس كما يدعى عليه البعض وهو فى ذمة الله أنه أنكر ذلك] كان على المجلة أن تبشّر بغدٍ مشرق لا ينفصم عن ماضى مصر المجيد . وتأكدت شعبية المجلة فى التصاقها بالدعوة إلى الديمقراطية وطرحها فى استفتاء شعبى على امتداد شهرين(١٠) لموضوع إقرار الدستور الذى كانت لجنة من أهم رجال القانون والفكر والسياسة قد تشكّلت لوضعه تحت رياسة على ماهر ، وأمضت شهورا فى صياغة مواده وبنوده . وقد حظى هذا الاستفتاء باهتمام كبير وبمشاركة من الشعب بكافة فئاته عن طريق تقديم مقترحات جادة تمسّ مشاكله المباشرة ومصالحه الحقة ، لاسيما وقد شاهدوا على صفحاتها صورة كل من محمد نجيب وجمال عبد الناصر وهما يملآن أوراق الاستفتاء مثل جميع المواطنين ، وانتصرت أغلبية ساحقة لهذا الدستور الذى لم يُكتب له الصدور . وتمخّض هذا الاستفتاء عن نتائج جليّة هى ضرورة حماية البرلمان من الحل ، والإبقاء على مجلس الشيوخ وخفض سن الترشيح إلى ٢٥ سنة ، وخفض سن الناخب إلى ١٨ سنة ، وخفض التأمين المالى للترشيح ، وحق الشعب فى حل البرلمان واقتراح القوانين

وإقالة النواب ، ثم تحديد الإصلاحات التى يجب أن ينص عليها الدستور . وأفسحت المجلة صفحاتها لكتابات خالد محيى الدين عن الديمقراطية الاقتصادية وأحمد بهاء الدين عن الدستور الإدارى . وكان عبد الناصر يعرف ونعرف معه أن كتاباتنا عن الديمقراطية والدستور ستكون من وثائق الثورة يرجع إليها الباحثون والمؤرخون . ومع أن حل الأحزاب وإعلان فترة انتقال لثلاث سنوات كانا ضروريين لإحداث تغييرات اجتماعية حاسمة ، فلم ينقطع مع ذلك إيمانى بأننا سائرون فى النهاية نحو الديمقراطية ، مظلّة الأمان لكل من الحاكم والمحكومين . وهو ما أعلنته فى افتتاحية لى بعنوان « نحن والديمقراطية »(١١) رحت أؤكد فيها أن رجال الثورة هم أكثر الناس إيمانا بالديمقراطية ، ولن يكونوا إلا كذلك إذهم من أبناء هذا الشعب الذى يتطلّع إلى الديمقراطية .

على أن مسيرة المجلة فى اتجاهها المتحرر قد أشعل غضب بعض الزملاء من أعضاء مجلس قيادة الثورة علىّ وعلى المجلة ، فقد ظن هؤلاء فيما تنتهجه المجلة شططا وتحريضا قبل الأوان ، عندما ذهبت المجلة الى أنه لن تكون ثمة حرية طليقة من كل المعوّقات فى ظل الملكية ، وهو ما حفزنى إلى المناداة بإلغاء الملكية فى افتتاحية لى(١٢) بعنوان « أعلنوها جمهورية فوراً » مؤمنا بأن شعور المواطن بأن له صوتا فى اختيار حاكمه وعزله يؤكد له شخصيته كعضو مؤثر فى المجتمع . وقد غضب اللواء محمد نجيب عندها لذلك وعدّ دعوتى خروجاً على المسيرة ، وإن لم تلبث الثورة غير قليل حتى ألغت الملكية وأعلنت قيام الجمهورية التى كان محمد نجيب أول من تولّى رياستها .

كذلك لعبت المجلة دوراً فى كشف أوضاع الريف التى تردّت تحت سيطرة كبار ملاّك الأرض وما حاق بأهله من أمراض اجتماعية تفوق فى جسامتها الأمراض العضوية . كما كشفت طغيان الاستعمار وتصدّى المقاومة الشعبية لمعسكرات الاحتلال على شاطىء قناة السويس ، بل وحملت المجلة على الاستعمار وممارساته اللاإنسانية فى البلاد العربية المحتلة بالشمال الأفريقى ، وتوّجنا هذه الحملة بإنذار عبد الناصر لبريطانيا مُعلنا « إما الجلاء وإما حرب العصابات » . وكانت المجلة سبّاقة فى المطالبة بتصنيع مصر فى مواكبة مع تحديد الملكية الزراعية فى مقالات لأستاذ اقتصادى مرموق هو الدكتور راشد البراوى بدأها بعنوان « نحو

سياسة صناعية رشيدة » ، كل ذلك مع حفز الشعب على المشاركة فى النضال الاجتماعى والسياسى عبر تذكيره ببطولات أبنائه و بنماذج من بطولات إنسانية من مختلف شعوب العالم .

كانت هذه المجلة أول ماصدر من صحف عن الثورة فى مستهل عهدها ، وكنت أحسّ أن عليها أمانة خاصة هى أن تعكس حقيقة أهداف الثورة للرأى العام وأن تعكس لرجال الثورة حقيقة إرادة الشعب المصرى الذى قامت الثورة من أجله . وكان لابد لمجلة تصدر من أجل هذه الغاية أن تلتزم من الضوابط والحدود مالم يجر به العرف الصحفى فى مجتمع ماقبل الثورة . ولعل أهم مايجب الإشارة إليه فى هذا المجال هو أن مجلة التحرير وضعت فى اعتبارها ألاّ تفتح صفحاتها إلا للأقلام الوطنية مؤمنة بأن حسّ القراء المرهف كفيل بأن يحقق لهذه الأسماء الشهرة الكافية لانتشار المجلة . وقد أثبتت التجربة هذا بالفعل ، فكانت مجلة التحرير وهى لا تعتمد على الأسماء المشهورة وإنما على أسماء جديدة وجادة توزع رقما قياسيا وقتها ، ولولا أن المطابع لم تتمكن من تلبية حاجات السوق لزاد توزيعها عما كانت عليه . وكان من سياسة المجلة أن تحارب الاحتكار فى السياسة والاقتصاد على أى صورة يكون ، وعن طريق هذا المنهج حققت المجلة هدفا أساسيا هو كسب الرأى العام الذى وثق بها إلى حد كبير، لكنها فقدت عطف بعض الكتاب التقليديين الذين كانت تعتمد عليهم كل صحيفة ناشئة ، كما فقدت عطف أصحاب المصالح والذين يتأثرون بهم بشكل مباشر أوغير مباشر. لكن مجلة التحرير لم تتأثر بهذه العقبات بل على العكس اعتبرت هذه العقبات دليلا على نجاحها فى أداء رسالتها . مثلٌ واحد جدير بالذكر فى هذا المجال هو أن مجلة التحرير كانت تصدر يوم الأربعاء مرتين فى الشهر، وكان هذا هو يوم صدور مجلة قديمة راسخة فى السوق هى مجلة آخر ساعة . وكانت الأخيرة توزع قبل صدور مجلة التحرير مايقرب من سبعين ألف نسخة فى الأسبوع فضلا عما كانت تتمتع به من مكانة فى الحقلين السياسى والصحفى . و بعد صدور مجلة التحرير بفترة وجيزة هبط رقم توزيع آخر ساعة إلى ستة عشر ألف بل أربعة عشر ألف أحيانا ، وعجزت حتى فى أيام الأربعاء التى لا تصدر فيها مجلة التحرير عن أن تعود إلى توزيعها القديم ، الأمر الذى أثار القلق فى نفوس أصحابها وفى هيئة تحريرها ، وحاولت أن تستعيد ثقة

الجماهير بالدراسة والاحصاءات وتحليل أسباب الهبوط . وعندما فشلت جميع الوسائل لتستعيد هذه المجلة بعض مكانتها السابقة بدأ أصحاب الدار يسلكون سبيلا آخر ، هو استعداء السلطة على مجلة التحرير تارة بتصويرها على أنها « نشرة حمراء » ، وتارة أخرى بتصويرها على أنها خرجت على أهداف الثورة دون أن يؤثر ذلك على نجاحها . وحين أصدرت المجلة بتاريخ ٣ يونيه ١٩٥٣ العدد ١٩ حاملاً تحقيقا مفصّلا ومصوّرا ومدعّما بالمستندات عن الصحافة بلونيها المعادى للاستعمار والمساير له تحت عنوان « لا تزيّفوا تاريخ الأبطال » استعدى البعض وزير الإرشاد القومى ، والراجح أنهم نجحوا فى استمالته ربما لأن بعض المنطق السياسى وقتها كان ينادى باستغلال كافة العناصر فى سبيل تحقيق بعض الأهداف القومية الكبرى ، وإن كنت ضد هذا التبرير لأن المعارك الوطنية لا يمكن أن تكسبها إلا العناصر الواضحة الهدف دون مهادنة أو تنازلات . على كل حال فما حدث بعد ذلك هو أن جمال عبدالناصر طلب إلىّ أن أغير موعد صدور مجلة التحرير لتصدر يوم الثلاثاء بدلا من الأربعاء ، واعتذرت حتى النهاية عن تلبية هذه الرغبة التى أعلم مصدرها ، وأشهد أنه لم يعد مرة ثانية إلى الإلحاح فى طلبه الأول .

كان إيمانى وقتذاك مستمدا من إيمان الثورة نفسها بنفسها ، فإن السنوات العسيرة التى قضيناها فى عمل سرى متواصل ملىء بقلق لا حدود له ، وإحساس بالاضطهاد وبالخطر المستخفى فى ظلمة هذا العهد وبالتطلع إلى المستقبل المجهول والآمال الغامضة ، كل هذه العوامل التى دفعت إلى نجاح الثورة كانت شديدة الأثر فى نفسى فرسّبت فيها إصراراً شديداً وإيمانا بأن البقاء للأصلح وبأن ترك الأمر للمنافسة الشريفة من شأنه أن يكسب ثقة الناس بهيئة تحرير مجلة التحرير.

وظللت رئيسا للتحرير حتى عيد الثورة الأول فى ٢٣ يوليه ١٩٥٣ ، وكان لابد لمجلة الثورة من أن تحدّث الناس عن جانب من قصة الثورة الحقيقية ، خاصة بعد أن كتبت أقلام كثيرة عن هذه القصة روايات أغلبها غير صحيح أو مبالغ فيه . وأحسست أن من واجبى كفرد ممن وُكل إليهم عبء له شأنه فى هذه الثورة أن أحدّث الناس عن ذكرياتى ، فكتبت هذه القصة بكل ما أملك من أمانة وصدق وذاكرة ، ودعّمت ذلك بالصور الزنكوغرافية لبعض وثائق تنفيذ الثورة . كتبت المقال بعنوان « هكذا قمنا بالثورة » تحدثت فيه عما أداه سلاح الفرسان فى

لليلة الثورة ، وهى الجزئية التى كنت أحد المنوطين بها وشاركت بنصيبى فيها ، لذا كنت معذورا إذا لم أتحدث عما لم يكن لى به علم حتى لا أظلم أو أجور . وكانت هذه الجزئية جليّة لى ملمّا بها كل الإلمام ، على حين كانت الجزئيات الأخرى منوطا بها غيرى و بعيدة شيئا ما عن بصرى وسمعى . وقبل مثول المجلة للطبع علمت أن أوامر وزير الإرشاد القومى قد صدرت بسحب المقالة ومنع نشرها ، فقابلت زكريا محيى الدين مدير المخابرات وقتذاك الذى حاول فى رفق أن يثنينى عن نشر المقال دون أن يفصح لى عن السبب . ولما سألته عما إذا كانت هناك واقعة غير صحيحة فى المقال أجاب سلبا واقترح علىّ أن أعرض الأمر على عبدالحكيم عامر الذى مالبث بعد أن اطّلع على المقال أن أقرّ كل ماجاء به ووافقنى على نشره ، ثم فاجأنى بقوله إن صلاح سالم كان غاضبا لأن اسمه لم يرد بالمقال . ولما سألته عما يمكن أن أضمّنه مقالى عن دور صلاح سالم فى تلك الليلة فيما كتبت لم يحر جوابا ، وهكذا نُشر المقال . مرة أخرى لم يكن ذنبى أن الظروف وضعتنى فى مكان قيادى ليلة الثورة ، وأن أوامر تنفيذ الثورة فى سلاح الفرسان صدرت بخطى ، لكن يبدو أن ذلك لم يعجب بعض الذين تولوا مقاليد الأمور ، وإذا بوزير الإرشاد القومى يعقد يوم صدور العدد الذى حمل مقالى فى ٢٣ يولية ١٩٥٣ مؤتمراً صحفيا تحدث فيه عن مجلة التحرير ووصفها بأنها لم تعد تعبر عن رأى القوات المسلحة ولا عن رأى مجلس قيادة الثورة . وكان هذا الموقف منه بمثابة إعلان رسمى من الحكومة بسحب ثقتها من مجلة التحرير . وأيّد هذا الموقف اجتماع مجلس الثورة الذى قرر أن تصدر المجلة عن دار التحرير وأن تخضع للرقابة (١٤) ، واتضح إذن أن المطلوب هو تغيير سياسة معينة أو تغيير أشخاص معينين يدينون بهذه السياسة . وكان علىّ إما الرضوخ وتنفيذ هذين القرارين أو التخلّى عن مكانى لأن معنى تنفيذهما هو أن أغيّر سياسة آمنت بسلامتها مقابل مجرد الاستمرار ، ولم يكن هذا هدفا يمكن أن أدين به لأنه سيحوّلنى من صاحب رأى وثائر إلى مهادن يسعى فى سبيل البقاء أيا كانت التنازلات التى يقبل بها . ولم يكن أمامى سوى التخلى عن رئاسة مجلة التحرير على الفور مؤثرا ألا أتحمل مسئولية تنفيذ هذين القرارين والمهادنة على غير أساس ، فقابلت جمال عبدالناصر فى نفس الليلة محتجا على هذا القرار الشاذ ، غير أنه استمهلنى دون أن يعطينى

إجابة شافية ، مما حدابى إلى أن أقدم إليه استقالتى من رياسة مجلة التحرير كتابة .

ولقد أدهشنى حقا ما اجتمع عليه رأى هيئة تحرير مجلة التحرير التى كانت تعمل معى ، فإذا الكثرة منهم يقدمون استقالاتهم ، وإذا المجلة أصبحت خالية من المحررين مما أوقع مجلس قيادة الثورة فى مأزق ، وقصدتُ إلى دار الهلال التى كانت تطبع فيها المجلة واستوليتُ على الأصول التى كنا قد أعددناها للعدد التالى . ولم يلبث مجلس الثورة أن قرر فى اجتماعه التالى تعيينى ملحقا عسكريا بالخارج . ولما ناقشت هذا الأمر مع خالد محيى الدين عضو مجلس الثورة الذى كان لصلته الوطيدة بى مكلّفا بأن ينقل عنّى وإلىّ قال لى على الفور أن عبد الحكيم عامر أبلغه أنه حجز لى منصب الملحق العسكرى فى برن ، كأنما كان الافتراض قد سبق بأنى لن أقبل تنفيذ القرارين ، أوكأنما كان هناك قرار ثالث لم يُعلن بإقصائى إلى مكان ناء بعد أن أترك مجلة التحرير . على أية حال كان جوابى من غير لف ولادوران أنى رجل عسكرى ملتزم بمايصدر إلى من أوامر لايعنينى هذا المكان أوذاك .

ومن طريف مايُذكر بصدد هذا الموضوع ماكتبه الزميل الفاضل مصطفى بهجت بدوى عام ١٩٧٧ بصحيفة الأهرام بمناسبة مرور ربع قرن على ظهور مجلة التحرير إذ يقول :

« وكانت المشكلة الحقيقية أنك تصدرين رسميا عن إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة ، ولكنك فى واقع الأمر لست مجلة رسمية بل لك كيانك المستقل المتحرر! كانت المشكلة أن الجماهير تتصورك لسان حال الثورة ، ربما كنت على يسار الثورة ! وعلى هذا الدرب سرت وسرنا لانلوى على شيء . وانضم إلينا بعد قليل الزميل ثروت عكاشة فأعطاك طاقة جديدة . وكشف عبد الناصر النقاب لأول مرة عن زعامته للثورة بين سطورك ، ثم كتب إليك مقالاً ، ولما كانت « الدنيا دنيا » فى ذلك الحين فقد أبيت أن يكون بغير مقابل كما أبيت أن تجزلى له العطاء فحصل على خمسة جنيهات مخصوما منها التمغة ! وانطلقت فيك صيحة الدكتور طه حسين يندّد باستخدام تعبير « الانقلاب » أو « الحركة المباركة » أو « النهضة » ويصرّ على أن يحمل ٢٣ يوليه اسم « ثورة » ، وأهم من ذلك أن يمضى بروح الثورة ! . كيف استطعت أن تصدرى وأن تمضى فى الصدور! كيف نجحت واتسع انتشارك إلى درجة إثارة

« الغيرة » لدى مجلات زميلة أرسخ قدما وأطول عمرا ! لم يكن ذلك من أسرار المهنة وإنما كان « سر مصر الباتع » وانعكاسا « لفورة الثورة » .... ثم جاء ٢٣ يولية ٥٣ واحتفلت مصر بالعيد الأول للثورة ، وصدر منك عدد خاص كان له مابعده ! هل تذكرين التحقيق الصحفى العسكرى الطويل الذى كتبه « ثروت عكاشة » فى صدرك بهذه المناسبة ، وأذاع مارآه من وجهة نظره تفاصيل قيام ثورة ٢٣ يوليه . لقد رئى فور ذلك أن المسائل يجب أن تصبح أكثر إحكاما ، وأن يوليك مجلس قيادة الثورة اهتماما مباشراً . وصدر قرار بتعيين « ثروت عكاشة ملحقا عسكريا لمصر فى باريس » . وغضب ولم يكن يدرى وهو ينفث عن غضبه ــ وكان ذلك ممكنا ومتجاوزا عنه بين الزملاء حينذاك ــ ويهرول إلى دار الهلال فيمزّق أصول مواد أُعدّت لعددك التالى و« يسيّح » رصاصها .. لم يكن يدرى أن ذلك القرار كان يمثل ويطبع منحنى التغيير الحاسم فى مجرى حياته ويفتح له آفاق المراكز العليا والدراسات العليا فى منابعها ليصبح سفيراً ويحصل على الدكتوراه من فرنسا ويؤهل نفسه واستعداده الثقافى الذى أهّله ليكون بعد ذلك وزيراً للثقافة » .

ولقد خيّل إلىّ لأول وهلة أن الغرض من هذا كله هو إبعادى عن مجلة التحرير إرضاء لصلاح سالم ، ولكنى تبيّنت بعدُ أن الغرض الحقيقى كان هو إبعادى عن سلاح الفرسان لما كان يعلمه مجلس الثورة من منزلة لى فى قلوب ضباط السلاح ، ولما كان يخشاه البعض منهم إذ تصوّروا أنى قد أستعين يوما بهذا السلاح فى جولة من الجولات . ومما يؤكد ظنّى أن مجلس الثورة قد أبعد خالد محيى الدين كذلك عن السلاح بعد عدة شهور . ولعل من أسباب إبعادى أيضاً ما أُخذ علىّ من توجيه مجلة التحرير تلك الوجهة المستقلة التى لم تطب للبعض كما سبق أن قلت . ولعل ماجاء بمقال الرئيس محمد نجيب فى العدد الصادر من صحيفة « الشرق الأوسط » فى ١٣ فبراير ١٩٨٢ مايلقى ضوءا خاصا بى وبخالد محيى الدين على هذه الأحداث ، إذ يقول :

« أذكر فى مستهل شهور الثورة الأولى أننى وقعت فى خطأ جسيم وسخيف فى نفس الوقت ... كانت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار قد ضمتنى إليها بعد نجاح الثورة وهذا أمر طبيعى ولا يعنى على الإطلاق أننى لم أكن على اتصال بهم قبل ليلة ٢٣ يوليو . فقد كنت حرصت أنا وجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين على ألا يتسرب اسمى كقائد للحركة السرية إلى الخلايا .. حتى يظل التنظيم محتفظا بقدرته على الضرب حتى لو وقعت بعض خلاياه فى شراك مخابرات

الحكومة . وكان من الطبيعي أيضا بعد نجاح الثورة أن أمارس اختصاصاتي كاملة كقائد لها ... ولكني شيئا فشيئا بدأت ألاحظ أنهم كثيراً مايعقدون اجتماعاتهم بدون دعوتي . فإذا ما علمت بوسائلي الخاصة بخبر انعقادهم وذهبت إليهم كفوا فجأة عن حوارهم والتفتوا نحوى في مودة يتساءلون عن اقتراحاتي بجدول أعمال الاجتماع .. فإذا ما سألتهم عن السبب الأصلي في ذلك الاجتماع قالوا : أبدا والله العظيم .. دا احنا متقابلين بالصدفة علشان نشرب شاى !!

إلى هذا الحد وصل الاستهتار بي . ولكني لم أسيء الظن بهم ، وقدرت في نفسي أنها « حركات شباب » ، وقلت لنفسي إنه الفارق في السن بيننا واحتمال قلقهم من أن تسيطر عليهم شخصيتي ... وقدرت أن شبابا هذه حساسيته يجب أن أكون حذرا جدا في التعامل معه حتى لا أستفز مشاعرهم ...

وقادني هذا الحذر كما قلت لك منذ قليل الى خطأ صاعق . خطأ ثقيل الدم ... لا أدري كيف وقعت فيه .. فقد حدث ذات يوم .. أن جاء من يهمس في أذني بأن خالد محيي الدين وثروت عكاشة غير راضيين عن أسلوب عبد الناصر في « التكويش » — أي الهيمنة — على السلطة ، واستئثاره بالتصرف في أمور الحكم ، الى حد انتزاعه تفويضا بالتصرف من زملائه أعضاء مجلس القيادة في حالة عدم انعقاد مجلسهم ... وكان معنى هذا التفويض جعلي شخصيا — أنا محمد نجيب — مجرد صفر على الشمال بأسلوب قانوني ومنطقي ، إذ كان جمال قادراً على إملاء ما يريد ، بحجة تفويضه ، ما دام المجلس في حالة عدم انعقاد ...

واستطرد صاحب الهمسة ، وهو شخصية هامة مازالت على قيد الحياة ، فقال لي إن خالد وثروت يطلبان مني أن أعتمد عليهما في شدّ أزري في الكبح من سلطات جمال عبد الناصر وحريته في الحركة ...

أقول الحق .. لعب الفار في عبّي .

خفت أن يكون صاحب الهمسة ، بالتعاون مع خالد محيي الدين وثروت عكاشة ، يستدرجونني الى ما قد يفسر على أنه انقضاض على مجلس الثورة ، وخيانة لتحالفنا جميعا .. ولم أكن قد نسيت بعد أننا كنا قد فعلنا نفس الشيء مع رشاد مهنا زميلنا الذي عيناه في مجلس الوصاية على العرش ثم عزلناه لما لاحظنا أنه بدأ يتصرف كحاكم وليس كشائر ... ثم دسسنا عليه من سجل عليه تحريضا على الانقلاب .. وأخذناه بجريرة تسجيله وأحلناه الى المحاكمة ..

ولم أنس ايضاً أن المجلس فعل نفس الشيء مع حسنى الدمنهورى إذ دس عليه ضابطاً سجل عليه ما اعتبرناه تآمرا ، وشكّلت محكمة من أعضاء المجلس لمحاكمته برئاسة عبدالناصر قضت عليه بالإعدام . ورفضتُ التصديق على الحكم .

ولم أنس .. ولم أنس .. ولم أنس .. عشرات الحوادث المماثلة . وكلها كانت ذات « سينار يو» واحد : ضابط يتظاهر بالتذمر... ويحرض ضابطاً آخر متذمرا فعلا ، و يترك له فتل الحبل الذى يشنق به نفسه بنفسه ...

خفت أن يكون من همس فى أذنى بمؤازرة خالد محيى الدين وثروت عكاشة ضالعاً معهما فى الإيقاع بى ... وخفت أن أسكت على هذه الهمسة فأكون كمن « علم ولم يبلغ » ، والعلم بالجريمة مع عدم التبليغ عنها جريمة خطيرة فى العرف العسكرى تستوى تماما مع التحر يض ... ولذلك قررت أن أقطع الخط على هذا الدس ... وطلبت عقد مجلس الثورة ... وفجّرت القصة كلها ، على أساس أن المجلس هو الذى دس علىّ الهامس وخالد وثروت ...

واكتشفت من ردود الفعل عند أولادى الضباط أنهم كانوا يجهلون تماما القصة كلها ... وأننى قمت بل تورطت بالتبليغ عن خالد وثروت دون أن أدرى ...

وخسرت خالد وثروت ولو الى حين . وشاعت القصة كلها فأبعدت كثيراً من الضباط عنى .

كان خطأ استراتيجيا لم أسمع بأسخف منه فى حياتى »[١٥] .

وفى يقينى الآن أن بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة قد استقر فى أذهانهم منذ تلك اللحظة أن وجود كل منا ــ خالد محيى الدين وأنا ــ فى سلاح الفرسان يشكّل خطراً ينبغى التخلص منه ، لاختلاف وجهات نظرهم عن وجهات نظرنا حول شكل الحكم الذى يجب أن يُطبّق بعد نجاح الثورة ، ولعلهم أيضا قد توجّسوا خيفة من أن يتطور هذا الخلاف إلى استعمال العنف لفرض آرائنا على مجلس الثورة استنادا إلى قوة سلاح الفرسان . ولهذا ظلّوا يترقّبون الفرصة إلى أن سنحت ، فإذا هم يجدونها فى مقالى الأخير بمجلة التحر ير فاتخذوه ذر يعة ليحملونى على تقديم استقالتى ، وذلك بإخضاع مجلة التحر ير للرقابة وهم يعلمون حق العلم أنى لن أرضى هذا بحال . فلقد تقبّلت ر ياستى لتحر ير مجلة التحر ير على شرط أن تكون حرّة بعيدة عن الرقابة ، فلم أكن دون أحدهم شأنا إن لم أزد ، كما أنه كان

لى وازع من ضميرى يكفى لأن أكون واعيا للحفاظ على الثورة مهما وقع بين القائمين بها من خلافات فى الرأى . و يؤيد هذا اليقين أنهم لم يكتفوا بتقديم استقالتى وإبعادى عن ر ياسة تحر ير المجلة بل رأوا فى وجودى بمصر بين إخوانى فى سلاح الفرسان ماقد يزعجهم و يثير قلقهم . لهذا قرر مجلس قيادة الثورة ــ على غير رضا منى ــ إبعادى عن مصر إلى الخارج .

وشاع وتضخم ماكان بينى و بين صلاح سالم من خلاف حول شئون مجلة التحر ير الذى انتهى الأمر فيه إلى صدور أمر بنقلى إلى خارج مصر ، وهوما أثار زملائى من ضباط سلاح الفرسان . وجاءتنى جماعة منهم يطلبون الىّ ألا أغادر البلد وألا أنفّذ أمر النقل ، فقد عزّ عليهم أن يتدخل صلاح سالم وهو من خارج السلاح فى أمور تمسّ السلاح ، وعزّ عليهم أن يؤخذوا على غرّة و يُنال من قائد من قادته ، فاجتمعوا وناقشوا الأمر فيما بينهم ، وانتهوا إلى أنه إذا كنت قد أخطأتُ فلأُحاسَب على خطئ ولأُحاكم عسكر يا ، وأنهم سوف يرضخون لماتسفر عنه المحاكمة . أما أن أُنزع من مكانى دون إبداء أسباب فليس من كرامة السلاح أن يؤخذ رجاله عسفا .

وأذكر أن نفراً منهم حاولوا أن يقوموا بتصرف إيجابى ثائر تعبيراً عما يشعرون به نحوى ، فرددتهم إلى وعيهم ، حرصا منى على أن تمضى أمور الثورة فى سلام إلى أن تنتهى إلى غايتها التى ننشدها جميعا سواء كنت هنا أم هناك ، وقررت مغادرة القاهرة إلى الإسكندر ية إلى حين . وإذا بأحد هؤلاء الضباط يُفضى بما دار لزميل له من غير الضباط الأحرار أحَبَّ أن يركب الموجة مستغلاً هذه المعلومة فانتقل إلى الإسكندر ية على الفور لمقابلة جمال عبدالناصر يبلغه بماحدث فى السلاح . وإذا عبدالناصر يستدعى أحد ضباط سلاح الفرسان [الملازم أحمد على المصرى] بعد أن دلّه على محل إقامتى فى الإسكندر ية ليتعرّف على نواياى . غير أن هذا الضابط الكريم عاد إلى عبدالناصر يبلغه بعد أن قابلنى بحقيقة موقفى ، وهو توجيه النصح إلى الضباط بعدم التورط فى أية خطوة من شأنها الإساءة إلى الثورة .

و بعد هذا طلب ضباط الفرسان من مجلس قيادة الثورة أن يوفد إليهم أحد أعضائه لمناقشته فى أمرى . وكان حوارٌ بينهم و بينه سألوه فيه عن سبب خروجى من سلاح الفرسان رافضين بشدة أن أُنحَّى دون سبب أو أن يتدخل من ليس من

سلاح الفرسان فى أمور السلاح . ولقد حاول عضو مجلس القيادة أن يبرّر هذه التنحية بأسباب لم يقتنع بها الضباط ، ومن الجائز أنه فيما صدر عنه كان مقيّدا برأى مجلس الثورة . غير أن الضباط قالوا له فيما قالوا : إذا كان هذا هو نصيب الرجل الثانى فى سلاح الفرسان فماذا سيكون نصيبهم هم بعد ذلك ؟

كانت الأمور فى سلاح الفرسان تجرى من سىء إلى أسوأ ، وأخذ الضباط يهدّدون ويتوعّدون ، فوجدت أن بقائى بمصر سيزيد الأمور بلبلة ، فاعتزمت الرحيل حرصا منى كما قلت على أن تمضى الأمور بسلام . وانتهت الأزمة بأن خلّفت موقعى إلى منصبى الجديد ببرن تاركا سلاح الفرسان ومجلة التحرير ، مؤمنا بأن مجال العمل فى الخدمة العامة أوسع من أن يُحدّد بمكان بعينه أو وظيفة بذاتها ، وتمنيت لكل الزملاء الذين ألقيت على أكتافهم مسئولية العمل فى سبيل تحقيق أهداف الثورة كل نجاح وتوفيق . وكم من حدثٍ خطير يمرّ بالمرء كخطفة البصر يمتد أثره حياته كلها .

وإذ كنت قد غادرت الوطن فى شهر سبتمبر ١٩٥٣ أكون قد قضيت بمصر عاماً واحداً بعد قيام الثورة . وقبل أن أمضى فى الحديث عما كان بعد هذا العام أحبّ أن أوجز الحديث عن ذلك العام الذى قضيته . فلقد واكبت خلاله تثبيت أقدام الثورة وذلك الصراع بينها وبين طبقة كبار الملاّك ثم صدور قانون الإصلاح الزراعى وإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية وتطهير مؤسسات الدولة عامة وفرض الرقابة على الصحف ومطالبة الأحزاب بتطهير نفسها ، وإلغاء الرتب والألقاب . ثم ما كان من مواجهة بين الأحزاب السياسية والثورة فى ١٦ يناير ٥٣ انتهت بحلّ الأحزاب حماية للوحدة الوطنية وإلغاء الدستور وتشكيل لجنة من خمسين عضواً من عناصر مختلفة من رجال القانون وغيرهم من طوائف أخرى ، وإعلان فترة الانتقال لمدة سنوات ثلاث . ثم ما كان أخيرا من مفاوضات بين مصر و بريطانيا لتحقيق الاستقلال السياسى فى نفس الوقت الذى كان الفدائيون يواصلون فيه عملياتهم ضد القوات البريطانية بمنطقة القنال .

ولعل من بين تلك الأحداث التى عاصرتها حادثة سلاح المدفعية ومحاكمة بعض ضباطه الأحرار فى يناير ١٩٥٣ . وعندى أن هذه كانت البداية لتصديق الرأى القائل بأن الثورات تأكل أبناءها ، فلقد أنهى مجلس قيادة الثورة إلينا فى سلاح الفرسان وإلى غيرنا من أسلحة الجيش بأن ثمة انقلابا دبّره سلاح المدفعية

بإيعاز من بعض ضباطه الأحرار. وكان طبيعيا ألا يقف سلاح الفرسان أوغيره من الأسلحة إلى جانب سلاح المدفعية مخافة أن يجرّ هذا إلى خلافات واسعة النطاق فى صفوف الثورة . غير أنه بعدما اتضحت الحقيقة و بان لنا جميعا سرّ هذا الحدث ، وأنه كان مجرد اعتراض من ضباط المدفعية على انحراف قلة من أعضاء مجلس قيادة الثورة عن المسار والمطالبة بأن يكون ممثلو أسلحة الجيش فى مجلس قيادة الثورة انتخاباً لا تعييناً ، لاسيما أن مجلس قيادة الثورة لم يتألف أول ماتألف بطريقة ديمقراطية بل كان أمر تشكيله إلى جمال عبدالناصر ، مما حدا بالألسنة هنا وهناك أن تشيع عن هذه القلة مايشين ... وعندما اتضح لنا هذا كله ، كان لمانال هؤلاء الرفاق أسى كبيرا فى نفوسنا وشاركناهم الإحساس ذاته . وجاء فى إثر هذا اتهام مجلس قيادة الثورة للبكباشى حسنى الدمنهورى على اعتراضه على مالحق ضباط المدفعية فإذا هو يُحال إلى المحاكمة ويحكم عليه بالإعدام ثم يخفّف الحكم إلى السجن .

وعندى أن هذه الإجراءات العنيفة كانت من غير شك تُمهِّد لنُذر خطيرة ستأتى بها الأيام من صراع بين القوى المختلفة فى الرأى ، إذ كان ثمة فريق ينادى بالديمقراطية وفريق آخر ينادى بالحكم المطلق . وكان مظهر هذا ما جدّ بعدُ من استقالة اللواء محمد نجيب فى ٢٣ فبراير ١٩٥٤ ، ثم أزمة الصراع على السلطة المعروفة باسم أزمة مارس ١٩٥٤ ، ثم حملة الاعتقالات لجماعة الإخوان المسلمين ، ثم مطالعة الشعب بمحاكم ثورية مختلفة الأسماء والأغراض ، إلى أن انتهى الأمر يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ بعزل الرئيس نجيب ، ثم ذلك القرار الذى صدر باعتقاله وهُوَ مَنْ هُوَ نُبلا وشجاعة . هذا إلى أن هذا المسلك كان أمراً لا يجوز مثله بين رفقاء المسيرة والسلاح ، وكان من اليسير أن يعالج بغير ذلك الأسلوب القاسى . وشتان بين ما عومل به فاروق الملك المخلوع من إكرام وتبجيل يوم مغادرته البلاد فى السادس والعشرين من يوليه ١٩٥٢ وبين ما عومل به شريك جليل كان فى مقدمة الثائرين فى الرابع عشر من نوفمبر ١٩٥٤ . لقد انتقلت الثورة بعد نحوٍ من عامين من طور إلى طور .

وكان هذا كله نتاج « السلطة الموزّعة » التى كان يتناولها أعضاء مجلس قيادة الثورة والتى صاحبت الثورة منذ مطلعها ، كما كان خاتمة للدور السياسى الذى

اضطلعت به « الطبقة الوسطى الكبيرة » بآمالها وتطلعاتها ، وكذا كان تغييرا لبعض أسس المجتمع المصرى على يد « الطبقة الوسطى الصغيرة » التى كان منها أغلب رجال الثورة. كذلك ظهرت من جديد فكرة « المستبد العادل » الذى

لايعوق قراراته معوّق ما ، وهى النظرية التى نادى بها توفيق الحكيم فى كتابه « عودة الروح » حين أشاد « بالزعيم المعبود » وترقّب مصر له ، فسايرت فكرةٌ فكرةً : فكرة الزعيم المعبود وفكرة مركزية السلطة ، لا سيا بعد ما انبهر الناس بما رأوا من تغيرات خاطفة قاطعة وإصلاحات جليلة جريئة ما كانوا يتوقعونها على تلك الصورة الحاسمة السريعة لولا تركّز السلطة فى يد واثقة .

ويهمنى فى هذا المقام أن أشير إشارة عابرة إلى الدور الوطنى البطولى الذى قام به ضباط سلاح الفرسان الأحرار فى ليلة ٢٦/٢٧ فبراير ١٩٥٤ — وفى مقدمتهم الأخوة أحمد المصرى ومحمود حجازى وصبرى القاضى وأحمد حمودة وفاروق الأنصارى ورفاقهم الأعزاء — حين طالبوا بضرورة عودة الحياة الديمقراطية وتخلّى القيادة العسكرية عن السلطة ، وحاجّوا عبد الناصر فأقنعوه بقبول مطالبهم ووضعها موضع التنفيذ دون لجوء إلى القوة وكانت تحت أيديهم ، ومن ثم صدر قرار مجلس الثورة بتحقيق هذه المطالب . وأشهد هنا أن معرفتى الوثيقة بهؤلاء الرفاق الشرفاء سواء قبل الثورة أوليلتها أوبعدها تحتم على أن أذكر لهم وطنيتهم الصادقة وشجاعتهم الأدبية وطُهرهم النادر ونقاءهم الثورى ، وأن ماقاموا به كان عن اقتناع تام بالديمقراطية وليس كما يزعم البعض أنه نتيجة مخطط شيوعى أوتطلعا إلى اعتلاء السلطة كما يزعم البعض الآخر. وهم فيما فعلوا قد كشفوا لنا جميعا عن أن خروجهم فى ليلة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ وهم يحملون رءوسهم على أكفّهم لتحقيق المبادىء الستة المعروفة ومن أهمها إقامة حياة ديمقراطية سليمة ، كانوا ليلة ٢٧ فبراير ١٩٥٤ صادقين مع أنفسهم لأنهم كانوا ينطلقون من نفس المنطلق البرىء . فلقد كان هذا الرأى تيارا جارفا يسرى فى نفوس الضباط الأحرار فى سلاح الفرسان عن بكرة أبيهم منذ قيام الثورة حتى انتهوا إلى تلك النهاية المؤسفة التى لحقت بهم وضُرب بمطالبهم الوطنية عرض الحائط . وأقول إن مطالبهم لو كانت قد تحققت لتغيّر مسار الثورة إلى مافيه خير الوطن وخير الثورة ، ولتنكّبت

مصر ما تعثّرت فيه فيما بعد من كبوات ما كان أغناها عنها لو استمسك أعضاء مجلس قيادة الثورة بالقرارات الحكيمة التى عرضها عليهم الزعيم جمال عبد الناصر تلك الليلة بعد اقتناعه بصحة رأى تلك الصفوة من ضباط الفرسان ، ولم يذعنوا لرأى فريق آخر من الضباط من خارج مجلس الثورة كانوا يؤثرون الحكم

العسكرى على الحكم الديمقراطى . إنى لأجلّ فى إكبار موقف تلك النخبة من ضباط سلاح الفرسان فى تلك الليلة المجيدة التى كم كنت أتمنى لو كنت حاضرها لأشاركهم شرف ما نالوا فقد كنت وقتذاك ملحقا عسكريا بباريس . وكنت أرجو أن أسجل هنا ما نُقل إلىّ سماعا غير أنى أوثر أن أترك ذلك لمن شارك مشاركة فعلية فى هذا الحدث الوطنى حتى تكون الصورة صادقة واضحة . ولا يَضيرُ هؤلاء الضباط ما انتهوا إليه من هزيمة وإهدار لقضيتهم ، فحسبهم أنهم التزموا فيما قاموا به بمبادىء الشرف والفروسية . وعندى أنه بعد أن تخلص مجلس قيادة الثورة من هؤلاء الذين عارضوه من الضباط الأحرار فى شتى أسلحة الجيش ، يكون بذلك قد قضى على من عمرت قلوبهم بالمعانى الطاهرة للثورة ، ولم يعد يسانده غير نذر يسير من المخلصين وكثرة غالبة من الانتهازيين ذوى الأطماع الذاتية التى جرّت على مصر أهوالا ما كان أغناها عنها ، وهكذا ما يكاد رهط من أصحاب المشاعر النبيلة يشعلون ثورة إنسانية حتى يقصيهم تيار الانتهازيين الجارف ... فإذا هُم ضحاياها !

* * *

ولن أنسى ما حييت نبل مشاعر إخوانى ضباط سلاح الفرسان الذى تجلّى ليلة خفّوا إلى وداعى بمطار القاهرة وأنا مسافر إلى سويسرا فى أحد أيام شهر سبتمبر ١٩٥٣ فى مظاهرة ودّية حافلة ، ولسوف يبقى أثر هذه اللفتة عميقا فى نفسى أذكرها لهم بكل تقدير وعرفان ، وما كان آلم لنفسى من هذا الفراق ، فراق الوطن دون مبرّر .

كانت تلك الواقعة نقطة تحول فى حياتى ، وكنت عندها فى الثانية والثلاثين من عمرى ، ولم أك صادفت فى تلك السنين التى خَلَت مثل هذا

الذى وقع . لقد أحسستُ هِزَّة تنفذ إلى أعماق وجدانى ، إذ هالنى أن يتخذ منى جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر هذا الموقف المستغرب منهما على طول ما كان بيننا من ترابط وثقة متبادلة ، وبخاصة وأننى لم أر خطأ فى شىء فعلته أو تجاوزا فى مقال كتبته . ومما ضاعف ألمى أن أحدا منهما لم يحاول أن يتصل بى قبل سفرى ليقول لى كلمة وداع تطيب بها نفسى وتمحو أثر ما كان . وعلى الرغم من أننى لم أكن وقتذاك على معرفة بكل الدوافع وراء قرار إقصائى إلى هذا الموقع البعيد ، فقد كنت أحدس أن هناك سرّا تحرّج الصديقان أن يصارحانى به ، أو أنه كان من الحكمة أن يخفياه عنى فتَسَرْبلا أمامى بالصمت ، ولعل وراء صمتهما أن يكون ثمة قرار على وشك أن يتخذ ويعلم الصديقان أننى لن أرحب به ، ولعله كان ضرورة لإرضاء جناح من الأجنحة أو لإحداث تغيير ما ، والقرارات السياسية لا يُنظر فيها إلى صلات أخرى من صداقات أو ودّ . وبهذا التصوّر لم تملك المرارة التى غشّت روحى أن تمتد إلى مكانة هذين الصديقين فى نفسى ، فلقد ظلت ثقتى بهما وبوطنيتهما لا تتزعزع ، كما أن الأيام قضت لى أن أغتنم هذه الفرصة فأفيد مما حولى إفادة لم أفدها من قبل ولا من بعد فى مجالات شتى .

وقد كانت رحلتى هذه بداية سنوات خمس ظللت فيها بمنأى عن المشاركة فى أحداث كبرى جرت فى الوطن مما لم يُتح لى أن أشهدها عن قرب فأسجل شهادة شخصية عنها . وهكذا لن أتعرض فى هذا الكتاب لشىء مما حدث خلال هذه السنوات التى غبتها عن مصر ، إذ أننى أومن أن شهادة لها قيمتها ينبغى أن تكون صادرة عن علم قائم على المشاهدة أو المشاركة ، وإن كنْت سأعرض لأحداث فى أوربا عايشتها وكان لبعضها تأثير مباشر على مسيرة الوطن .

(١) أنتمى لأسرة ذات أصول ريفية نزحت إلى القاهرة منذ مطلع القرن الحالى . وكان جدّى لأبى عمدة لبلدة الطرفاية بالبدرشين ، وكان أبى ضابطا بالجيش حتى تقاعد برتبة اللواء ، كما كان جدّى لأمى ضابطا بالجيش تقاعد برتبة أميرالاى .

(٢) Major - General J . F . C . Fuller : **Machine Warfare** . *Eyre and Spottiswoode Publishers London 1941* .

(٣) Henry C . Link : **The Return to Religion** . *Macmillan Company . New York 1959* .

(٤) الفلسطينيون القدامى Philistines شعب وفد من كريت واحتل الجزء الجنوبى من فلسطين خلال القرن الثانى عشر قبل الميلاد . وظهر اسم الفلسطينيين لأول مرة فى الحوليات المصرية خلال موجة الغزو الثانية « لشعوب البحر » الذين حاولوا غزو مصر خلال السنة الثامنة من حكم رمسيس الثالث (١١٩٠ ق . م) بعد أن اجتاحوا آسيا الصغرى وقبرص وسوريا ، فردّهم المصريون على أعقابهم وتركوا لهم الشريط الساحلى لفلسطين يحتلونه . وكانت بلادهم تسمى فيلسطيا إلى أن أطلق اليونان على المنطقة اسم فلسطين . غير أن قدوم المهاجرين من بنى اسرائيل الذين وفدوا على المنطقة بعد قرون عدة ما لبث أن أجّج الصراع بين الفلسطينيين والاسرائيليين .

(٥) General Heinz Guderian : **Panzer Leader** . *Michael Joseph Limited , London 1952* .

(٦) من الإنصاف أن أؤكد أن اللواء محمد نجيب لم يفض إلى شفيقه بأية معلومات عن الحركة أو عن الضباط الأحرار .

(٧) وردت بهذا الكتاب وقائع غير دقيقة نشرتُ تصحيحا لها فى نهاية المذكرات .

(٨) صحف المصرى والإخوان المسلمون ومصر الفتاة والجمهور المصرى وغيرها .

(٩) العدد الثامن فى ٣١ ديسمبر ١٩٥٢ .

(١٠) العدد السادس أول ديسمبر ١٩٥٢ والعدد السابع فى ١٧ ديسمبر ١٩٥٢ والعدد الحادى عشر فى ١١ فبراير ١٩٥٣ .

(١١) العدد العاشر فى ٢٨ يناير ١٩٥٣ .

(١٢) العدد الرابع عشر فى ٢٥ مارس ١٩٥٣ .

(١٣) فى لحظة مصارحة بين زميلين ذكر لى المرحوم صلاح سالم أن بعض كبار الصحفيين بمؤسسة أخبار اليوم قد جاءوه شاكين المقال الذى ظهر بمجلة التحرير ، وأنهم عندما عرضوا عليه المقال مرّ عليه مرورا عابرا ثم طوّح بالمجلة جانبا دون أن يعلق بشىء ، لأنه أدرك على الفور أن مقصدهم هو الوقيعة بينى و بينه وافتعال صراع هو فى الحقيقة غير قائم . ولم أغادر مجلسى معه حتى اقتنع بأن ماجاء بالمقال لايعتريه الشك ولايشوبه تزييف ، وأن ثمة أخطاء وقعت فى معركة القنال لم ينكرها المقال ، كما أن ثمة بطولات وأمجادا يحاول بعض الصحفيين طمسها .

(١٤) جاء بصفحة ٢١٦ من كتاب اللواء محمد نجيب « كنت رئيسا لمصر » . المكتب المصرى الحديث . سبتمبر ١٩٨٤ مانصّه : « كان ثروت عكاشة قد كتب مقالا فى مجلة التحرير عن الخطة التى نفذت فى ٢٣ يولية بمناسبة مرور العام الأول على الثورة ذكر فيه مايعرفه عن الخطة ولم يذكر شيئا عن صلاح سالم الذى كان وزيرا للإرشاد فى ذلك الوقت . واعتبر صلاح سالم ذلك تعريضا به وأصرّ على إخراج ثروت عكاشة من المجلة وهو الذى قام بدور بارز مع زملائه ضباط الفرسان فى الحركة . البعض منهم كان فى العريش .. صلاح سالم وجمال سالم ... الخ » .

(١٥) سجل اللواء محمد نجيب هذه الواقعة أيضا فى كتابه « كنت رئيسا لمصر » بصفحتى ٢٠٨ و٢٠٩ المكتب المصرى الحديث . سبتمبر ١٩٨٤ .



الفصل الثانى

تجربتي ملحقاً عسكرياً



١
شهور في سويسرا

بدأت عملى ملحقا عسكريا بسفارتنا فى برن بإنشاء أول مكتب لملحق عسكرى بسويسرا ، فإذا بى على عتبة فترة من أخصب فترات حياتى ، جرى فيها أول لقاء بينى وبين أوربا وأخذت أنعم بالتعرف على معالم ومشاهد سرعان ماصارت تمثل لى رصيداً ثراً من المعارف والذكريات ، وغدت تلك المرحلة بمثابة البلسم للجرح الذى عانيت منه قبيل مغادرتى القاهرة .

وقد هيّأ جو مدينة برن وهدوؤها راحة لأعصابى وهدأة لعقلى فعادت إلىّ سكينتى لاسيما بعد أن أخذت أتأسّى بقول جبران خليل جبران ذلك الشاعر اللبنانى المهاجر الذى فُتنت به منذ صباى : « إن الألم الذى بِكُمْ هو أن يتفتّق السّتر الذى يحيط بإدراككم ؛ فكما أن نواة الثمرة تتفتّق لتكشف قلبها للشمس ، كذلك الألم لامناص لكم من أن تخبروه . ولواستطعت أن تجعل قلبك يتهلّل دائما للعجائب التى تتكشّف لك كل يوم ، لرأيت أن آلامك لا تقلّ روعة عن أفراحك ،

ولرضيت بالأطوار التي تنتاب قلبك كما ترضى دائما بالفصول تتعاقب على حقلك ، ولوقفت رابط الجأش ترقب شتاء أحزانك » .

وما لبثت أن استغرقت إلى جانب عملي الجديد فى عالم الموسيقى وعُدت إلى تأملاتى الطويلة عن جبران ، الذى كانت أفكاره ونظراته فيما وراء الطبيعة تمنحانه سكينة نفسية فى وحدته بالمهجر ، فانكببتُ على مراجعة أعماله والارتشاف من مشاعره الرومانسية التى تشيع بالحسّية والروحية معا عن المحبة ، حيث يختلط المفهوم الإلهى لديه اختلاطا شاعريا بالحب الجسدى فى تعانق مع النغم الذى يصل إلى حدّ الغنائية وجيشان الوجدان . كان اللحن والنغم يملآن علىّ وجدانى ولا ينفكّان عنه ، كما كانا ملاذاً ألوذ به حين أخلو إلى نفسى ، وهكذا يظلّ اللحن والنغم مفزعا للناس جميعا يفرّون إليه من الحياة المادية التي تغشاهم بأثقالها وهمومها . كانت الموسيقى تنسج لى بأنغامها الحانية عُشًا من الغبطة العُلْوية التى يُحرم من الارتقاء إليها من ينساق فى غمار الحياة ويقع فى إسارها . ولعل أنغام ريتشارد ڤاجنر بما انطوت عليه من اتساق مُبْهر ونشوة غامرة هى التى كانت تشارك فكر جبران فى بثّ السكينة فى روعى ، فتصطحبنى همسات ڤاجنر : « يا ليل الحب المدلهم ، اغمر جسدى ، واسكب فى وجدانى النسيان الأعظم » .

وأخذت أيامى فى سويسرا تنساب هادئة صافية ، وأنستُ كثيراً إلى سلوك القوم وأدبهم وأعرافهم ، ووجدت أسرة السفارة المصرية رقيقة الحاشية فأحاطتنى وذوىّ بالرعاية والترحيب . وبقدر ماكنت أخطو فى مدينة برن مثقلا بفكرة مسبقة عن الملل الذى سيطوّقنى شأن معظم الأجانب المقيمين فيها ، كان هذا الطوق ينفك شيئًا فشيئًا لتحتضننى راحة سكون ينفض عنى هموم أحداث ثقال متعاقبة حملتها مع بدايات الثورة . ومضت الشهور الخمسة لى فيها وأنا أنعم بالتطلّع إلى معالمها البارزة لاسيا نافوراتها البديعة وبواكيها الخفيضة السقوف فى طرقاتها الرئيسية ، وبيوتها المسنّمة البديعة العتيقة الطراز ، وساعتها الموسيقية الشهيرة المقامة منذ القرن السادس عشر فوق برج بوابة المدينة القديمة التى تشدّ أنظار المارة بشرفتها التى تنشقّ عن دمى تحملن فى أيديهن مطارق تدقّ مؤذنة بالأوقات .

وقد أتيح لي خلال إقامتي القصيرة بسويسرا أن أشارك شأن غيري من الملحقين العسكريين في مناورتين حربيتين أفدتُ منها الكثير، وبخاصة في مجال عملي الذي كان ينحصر في الإشراف على توريد الأسلحة المتعاقد عليها وتجربيها وتدبير شئون تدريب ضباطنا على استخدام هذه الأسلحة ومتابعة كل ما هو جديد سواء في مجال تطور الأسلحة أو الفن العسكري . ولم يكد يمرّ شهران على وجودي حتى لاحقتني القاهرة بضرورة الحصول على قدر معين من أجهزة وقطع غيار لاغنى عنها لتشغيل أسلحة الدفاع الجويّ الصاروخية ، فإذا بي ألقى صعوبات هائلة أخطرها تحريم الحكومة الفيدرالية تصدير هذا النوع من العتاد الحربي إلى الشرق الأوسط . وذهبت محاولاتي في إيجاد مخرج رسمي سُدى فقصدت زيورخ للقاء مدير الشركة المنتجة، وأحسّ الرجل ما وقع فيه من حرج يحول بينه وبين الاستجابة لطلبي فدعاني إلى العشاء ليلتها بقاعة الطعام في فندق ستورخن حيث كنت أقيم . ومنذ اللحظة الأولى ساد جو من الفتور جعلني أتعجل مغادرة المكان ، وأغلب ظني أن نفس الشعور كان يراود مضيفي ، وإن حاول كل منا التظاهر بغير ذلك . ومع اقتراب منتصف الليل وتقدم الساقي إلينا بأقداح القهوة أخذت الموسيقى الخفيفة التي كانت تتسلّل إلى آذاننا من مكبرّات الصوت المثبّتة بالجدران على هيئة آذان آدمية تنتقل إلى لحن جاد مثير، فإذا أنا أهتف دون أن أشعر: رَكْبة الڤالكيرات ! وإذا الصمت الجاثم على مجلسنا ينقشع والحديث يمتد بيننا بغير حدود عن مؤلفات ريتشارد ڤاجنر وجوستاف مالر وريتشارد شتراوس ، ويتكشّف لنا تآلف في الذوق الموسيقي وإعجاب مشترك بنفس العباقرة ، وانتقل الحديث إلى ما في حوزة كلينا من تسجيلات موسيقية أخذنا نقارن بينها إلى أن أطفأ السقاة معظم الأضواء لإشعارنا بأن موعد الإغلاق قد أزف وآن لنا أن ننصرف . وقبل أن يودعني دعاني إلى تناول العشاء ليلة الأحد بداره في الجبل ، واتفقنا على أن يرسل لي سائقه ليقودني إليه بعد ظهر اليوم التالي .

وكان أثناء حديثه عن مقتنياته الموسيقية قد أشار إلى عمل موسيقي مسجل تسجيلا نادراً(١) تصادف أني كنت أقتنيه ، فاتصلت بزوجتي إثر مغادرتي المطعم لإرسال هذا التسجيل بقطار الصباح مع ساعي المكتب ، وذهبت أحمله إليه

مساء اليوم ، فإذا بزوجته ترحب بى فى مستهل الآمسية بعزف مقطوعة لشوبير على الفيولينه يصاحبها زوجها على البيانو. وحين أخذا يستعرضان أمامى مجموعة تسجيلاتها أهديتهما الأسطوانة الفريدة فأشرقت البهجة على وجهيهما و بادرا بإدارتها قبل تناول العشاء .

وبينما كنا على المائدة إذا بى أشردُ قليلا ، وقد خالجنى شعور بتأنيب الضمير لركونى إلى هذه الرفقة الممتعة فى الوقت الذى عجزت فيه عن تحقيق الهدف الذى جئت من أجله إلى زيورخ ، والذى تنتظر القاهرة تحقيقه بأسرع مايمكن ، حتى إذا لاحظ مضيفى شرودى تساءل عن سببه ، فأخفيتُ مابنفسى وحدثته عن أسفى على ضياع فرصة مشاهدة عرض أوبرا « فيديليو» الذى كان مقرّرا أن يقدمه هربرت فون كارايان مساء الاثنين التالى لنفاذ التذاكر كلها وعجز الفندق عن تدبير مقعد لى . فابتسم مضيفى قائلا وكأنما كشف بحدسه الصادق عما كان يجول بذهنى : لا أعتقد أن هذا سبب شرودك فأنا أدريه ، وموعدنا صباح الغد كى نطرق هذا الموضوع وسنجد له يقينا حلاً يرضيك .

أحسست ساعتها بقلبى يقفز فرحا فى صدرى ، وحين ودّعنى عند الباب كانت زوجته قد غابت لحظة بهمسة منه وعادت بعدها بمظروف أسلمه لى قائلا : هاك تذكرتك فى حفل « فيديليو » مساء الاثنين القادم ، وسيكون مجلسك إلى جوارى . غير أننى اعترضت لحرمانه زوجته من الاستمتاع بهذا الحفل ، لكنه طمأننى إلى أن زوجته ستحضر الحفل بصحبة صديقها Her boy friend فقبلت العرض وشكرته مُخفيا دهشتى من عبارته .

وفى اليوم التالى أدركت سحر مثل هذه العلاقات الإنسانية وهو يهمس لى خلال زيارته لى بالفندق باستعداده لتدبير الأجهزة التى تريدها القاهرة بشرط أن أتكفل بتسلّمها شخصيا من مقر الشركة بعد انتهاء العمل اليومى وأنقلها داخل عدد من الحقائب الدبلوماسية تتسع للكمية المطلوبة من الأجهزة ، على أن تتحمل السفارة مسئولية نقلها والعبور بها خارج الحدود .

وكم كنت سعيدا وأنا أشهد معه فى مساء الاثنين حفل الكونسير ، وقد أشار لى نحو زوجته بين مجموعة من المتفرجين فوق خشبة المسرح وراء الأوركسترا وهى

فى صحبة صديقها . ونظرت فإذا هى مفاجأة لى أن يكون ذلك الصديق شيخا طاعنا فى السن ذالحية كثة بيضاء ، وعرفت أنه الأستاذ الذى تدرس على يديه الكمان . وظهرفون كارايان ، وبعد انتهاء التصفيق المألوف المصاحب لظهوره طلب من المشاهدين عدم مقاطعة الأداء بالتصفيق بين الفصول ، إذ سيؤدى الأوبرا متتابعة دون توقف ، ثم استدار مواجهاً العازفين والمغنّين . وعلمت فيما بعد من زوجة مضيفى أنه أغمض عينيه ولم يفرّج بين جفنيه حتى فرغ من قيادة الأوبرا التى عُزفت بأداء السوليست والكورال لا الأداء الدرامى ، وكانت ليلة مأثورة لا تغيب ذكراها .

عدت على الفور إلى برن وأبرقت للقاهرة للإسراع بإرسال اثنتى عشرة حقيبة دبلوماسية فارغة كبيرة الحجم نسبيا على وجه السرعة ، وما لبثت أن وصلتنى ، فاستفسرت عن مواعيد السفن التجارية المصرية التى تُبْحِر من جنوا أقرب ميناء لسويسرا إلى الإسكندرية . وعلى ضوء هذه المعلومات استأجرت سيارة صالون ضخمة تتسع للحقائب الإثنتى عشرة ، ورتّبت موعد الاستلام من الشركة عند الغروب وتوجّهت إلى المقر فى زيورخ فى الموعد المحدد حيث تسلّمت الأجهزة وقطع الغيار من مندوب الشركة وعبأناها فى الحقائب التى أحكمنا إغلاقها بالأقفال وختمنا عليها بالشمع الأحمر ، ثم انطلقت مسرعا صوب الحدود . وعند لوكارنو أزفت اللحظة الحرجة حين جاءنى رجال الشرطة والجمارك للاستفسار عن هويّتى ومقصدى وما أحمل . غير أن تفحّصهم لجواز سفرى الدبلوماسى كان كافيا كي يلقوا التى بالتحية و يسمحوا لى باجتياز الحدوّد ، فانطلقت إلى ميلانو ومنها إلى ميناء جنوا الذي بلغته مع خيوط الفجر الأولى حيث كانت إحدى سفن نقل البضائع لشركة الإسكندرية ومصر للملاحة [لا أذكر إن كانت نجمة بورسعيد أم نجمة الإسكندرية] على وشك الرحيل إلى الإسكندرية . فقابلت ربّانها الإنجليزى وأطلعته على هويتى وأسلمته أمراً كتابيا بنقل تلك الحقائب الدبلوماسية إلى ميناء الإسكندرية لصالح وزارة الدفاع المصرية فأبى بغطرسة ، متعلّلا بأنه غير مصرّح له بنقل الأسلحة والذخائر والعتاد الحربى رغم جهودى ومحاولاتى بشتى الطرق والوسائل معه لكبح جموحه وصلفه . كان الوقت يقترب سريعا من لحظة إبحار السفينة وسيارتى ملأى بالأجهزة التى لا أستطيع العودة بها

إلى سويسرا ، فكان أمامي أحد حلّين : إما إرغام الرّبان الإنجليزى على قبول الشحنة وإما الاتصال بملحقنا العسكرى فى روما [اللواء أحمد حسن الفقى] ليتولى بمعرفته شحنها إلى مصر بالوسيلة المناسبة المتاحة له . وآثرت محاولة الوسيلة الأولى فى البداية حتى أضمن وصول الأجهزة إلى الوطن بأسرع وقت . فتوجهت إلى قنصلنا العام فى جنوا وكان وقتها الأستاذ مصطفى السعدنى ولم تكن لى معرفة سابقة به ، وشرحت له الموقف وطلبت منه مساعدتى فى إقناع الربان بنقل الشحنة ، فحاول بدوره دون جدوى . ولم يكن أمامى إلا أن أذكره بأن سلطته كقنصل عام لمصر تبيح له فى الظروف الاستثنائية عزل الربّان على أن يتولى قيادة السفينة قائدها الثانى المصرى الجنسية ، وأنى على استعداد لتسليمه كتابا رسميا أؤكد فيه الظروف الاستثنائية التى يستند إليها تبريراً لهذا الإجراء . وقد أجابنى القنصل إلى طلبى وانتقل معى إلى الباخرة ليعلن الربّان بعزله إذا لم يرضخ للأمر. وعندما أدرك الربّان جدّية الموقف نزل عن عناده واستجاب لمطلبى ، وأقلعت السفينة إلى الوطن تحمل الأجهزة المطلوبة . فأبرقت إلى القاهرة حتى تتسلم وزارة الدفاع الأجهزة وقطع الغيار المطلوبة للمدافع الصاروخية وقت وصول السفينة ، وامتلأت نفسى رضا بنجاح مابذلت من جهد ، ورأيت من حقى أن أكافىء نفسى بأجازة أنعم فيها بالخلوة فى مدينة البندقية أياما معدودات .. فغادرت السيارة المستأجرة لتعود أدراجها إلى زيورخ واستقللت القطار المتجه إلى ڤينيسيا .

وعلى كثرة ما شاهدت فى صباى وشبابى من أفلام أمريكية تدور أحداثها حول مدينة البندقية ، فإننى لم أعرف بخيالى جمال تلك المدينة الفريدة إلا من خلال عيون مصوّريها الخالدين أمثال كارپاتشيو وچورچونى وڤيرونيزى وكاناليتو وجواردى ممن سجلوا أهم معالم المدينة وأحداثها ، وقد ظل هذا وذاك لا يفارق مخيلتى إلى أن وطئت قدماى أرض المدينة العائمة التى أسرتنى ، وخلّفتها دون أن أدرى أن سيُكتب لى أن أزورها أكثر من خمس وعشرين مرة ، وأن سيرتبط جهدى بالإسهام فيما بعد لمدة عشر سنوات بمشروع إنقاذها الذى كنت أول من بادر بطرحه فى عام ١٩٧٧ على المجلس التنفيذى لمنظمة اليونسكو ـ الذى تشرّفت بانتخابى عضوا به سنوات ثمان ـ عقب اجتياح فيضان مياه البحر الآدرياتى لها ، فكان أن تشكّلت لجنة دولية

لإنقاذ مدينة البندقية ، وشَرُفْتُ بانتخابى نائبا لرئيسها لمدة عشر سنوات كما سأبيّن فيما بعد .

ومن ڤينيسيا توجهت إلى روما حيث نزلت فى ضيافة الزميل الكريم أحمد حسن الفقى ، وطفت خلال إقامتى القصيرة بها بأهم المعالم التاريخية والفنية للمدينة الخالدة . وخصصت أطول وقتى للعبقرى ميكلانچلو الذى عشت طويلا أتابع إنجازاته المصورة والمنحوتة فى صفحات الكتب والمجلات حتى أتيح لى الآن أن أرى تمثال موسى الشهير بكنيسة القديس بطرس فى ڤينكولى ، ثم تمثال العذراء الآسية « پييتا »(٢) بكنيسة القديس بطرس فى الڤاتيكان ، وأنتهى الى مصلى سيستينا لأشهد أخيرا بعينى رأسى تصاوير سقفها التى هى أقرب إلى الإلهام الأسطورى ، فجّرت طاقات ميكلانچلو للتعبير عن رُؤاه الباطنة للعلاقات الإنسانية والمصير البشرى . واستعذبتُ العناء الذى سبق أن طالعتُ الكثير عن تكبّد المشاهد له وهو يتابع رسوم السقف لاضطراره إلى ثنى عنقه إلى الخلف طويلا ليستكمل جوانب ملحمة الخلق الشامخة . ذلك أننى لم أكد أتأمل الرسوم حتى أحسستُ بعالم سحرى يحتضن وجدانى بينا تنساب فى أذنى من بعيد أصداء الأورغن يعزف لحنا قويا صاخبا لشارل مارى ڤيدور، مايكاد يطرق أذناى حتى اليوم إلاّ ويثور فى أعماقى شريط هادر تتتابع فيه لوحات سقف مصلى سيستينا الآسرة . وغادرت روما بعد أن أحسست أنى قد أجزلت لنفسى العطاء بما ارتشفته من رحيق فنى ، وعدت إلى مقرّ عملى ببرن دون أن أدرى أن سيكون لى فيما بعد مقام طويل بين روائع الرومان وذراريهم فى عصر النهضة .

وكنت بعد أن حصلت على دبلوم قسم الصحافة سنة ١٩٥١ من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول قد سجلت موضوع بحث للدكتوراة بنفس الكلية فى الثانى من أبريل ١٩٥٢ عن « الصحافة العسكرية فى مصر الحديثة : تاريخ وفن » بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده ، ثم مالبثت أن عدلت الموضوع فى الحادى والعشرين من أكتوبر ١٩٥٢ ليكون عن « تطور الصحافة المصرية من بداية الحياة النيابية فى مصر ١٩٢٣ — ١٩٥٢ » . وبعد وصولى إلى سويسرا تقدمت إلى جامعة فريبورج بشهادة من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول تُثبت أنى كنت ومازلت

مقيّدا بها للتحضير للدكتوراه . وكان سبب اختيارى لهذه الجامعة هو أنها أقرب الجامعات الناطقة بالفرنسية إلى العاصمة السويسرية الناطقة بالألمانية التى أجهلها . وسجلت موضوعا جدْيدا اخترته بنفسى هذه المرة عن « جبران خليل جبران » تحمس له أستاذى المشرف وكان قسا مستشرقا ، ومضيت أواظب على التردد على الجامعة مرة كل أسبوع .

ولقد أتاح لى عملى العديد من الفرص لزيارة مناطق خلابة فى ذلك الفردوس السويسرى جعلنى أحسّ أننى أحيا أجمل فترات عمرى سلاما وطمأنينة نفس وهدوء بال ، حيث الثلوج تُغشّى الأرض بغلاف أبيض يفيض نقاء وبراءة وكأن عليه مِسْحة من ضوء القمر . على أن أول مكان قصدته فى أول عطلة نهاية أسبوع كان ضيعة « تريبشين » المطلّة على بحيرة لوسيرن حيث الدار البيضاء الواقعة فوق برزخ صغير والمنعزلة عن العالم تحيط بها أشجار الحور الباسقة لتحيلها إلى جنة ساحرة . اصطحبت أسرتى لزيارة « دار الهناء » حيث عاش موسيقاى الأثير ريتشارد ڤاجنر قرير العين راضى النفس فى كنف زوجته كوزيما التى أحبها وأحبته فأشرقت دارهما بضحكات أطفالهما إيزولده وإيڤا وسيجفريد . وفى هذه الدار بالذات فاجأها صبيحة عيد الميلاد عام ١٨٧٠ الذى كان نفسه عيد ميلادها الثالث والثلاثين حين أيقظها من نومها على أنغام « قصيدة سيجفريد الرعوية » الشهيرة لتقرأ أبياتها الشعرية العذبة التى يناجيها فيها : « فى كنفك يتفجّر إبداعى ، وأحسّ سكونا واستقرارا حولى . أفكارك أفكار الهوى والتضحية رَكَنَ إليها فنّى .. وجدتُ بصدرك بعد معارك أيامى مأواى الأبدى الهادىء ، بيتاً معطاء فى دنيا الأحلام ، تبعث فيه أمجاد بلادى الخالدة أبطال أساطير عاشت بين حنايانا ، ودوّت رنة فرحة معلنةً أن رُزقنا مولودا هو .... سيجفريد » .

طُفت بأنحاء الدار أتحسّس البيانو الذى كان يجلس إليه ليمنح البشرية آثارا خالدة فى عالم النغم المتسامى ، وألج غرفة نومه متأملا فراشه لعلّى أتلمس تلك الهواجس التى كان تخطر فى فؤاده وهو مضطجع ، ثم أطلّ من النافذة على البحيرة لأتملّى من المشهد الذى كان يلهمه و يزرع السكينة فى وجدانه ، وأجوس ببصرى فى غرفة الجلوس حيث كان يصول أطفاله و يلهون ، ثم أهبط إلى الحديقة لأرتكز

على سورها متأملا هذا الملاذ السحرى حيث عاش ردحا من الزمن أحد القلة الموهوبين من أبناء البشر. كانت هذه هى زيارتى الأولى إلى عالم فاجنر الآسر، ومنذ يومها ونحن فى خريف ١٩٥٣ رُحتُ أتطلع إلى أن أحجّ إلى بايرويت بألمانيا الغربية التى باتت كعبة عشاق موسيقاه وإن لم تتح لى هذه الفرصة إلا فى أغسطس ١٩٦٣ (٣).

كانت إقامتى فى سويسرا هى المناسبة الأولى التى ألتقى فيها بحضارة أوربا عن غير طريق الكتاب والأسطوانة والفيلم ودار الأوبرا القاهرية. ويشاء حظى السعيد أن تبدأ دار أوبرا برن العتيقة عرض سلسلة « رباعية خاتم النبيلونجن » لريتشارد فاجنر على مدى شهر فى أعقاب وصولى إلى المدينة. أية صدفة تلك التى ساقها القدر لى والتى تجعلنى أستهل اختلافى إلى دور الأوبرا العالمية بأحد إنجازات الموسيقى العظيم الذى كنت أولع به ؟

وفى مستهل عام ١٩٥٤ اتصل بى المشير عبدالحكيم عامر تليفونيا يعرض علىّ العمل ملحقاً عسكريا فى باريس ومدريد لأن ثمة مهاما خاصة يريد إسنادها إلىّ هناك. وقد قبلت هذا التكليف بعد تفكير لم يتجاوز أربعا وعشرين ساعة. وفى أول فبراير استقللت القطار المتجه إلى باريس مصطحبا أسرتى إلى مقر عملى الجديد، نادما من جهة على ترك الجو الحالم والسلام الشامل الذى طوّقنى وطوّق أسرتى مدة خدمتى القصيرة بسويسرا، ومتوجّسا مما ينتظرنى فى عاصمة النور التى كنت أعرف عنها قبل أن أصل إليها أنها ــ كما يقول الامبراطور جوليان ــ تستوعب كل شىء، وتستبيح كل شىء، حتى عبث الفلاسفة.

٢
سنوات فى باريس

حللت بباريس وخواطرى محتشدة بما قرأته وسمعته عنها ، ولم أستطع أن أكبح جماح رغبتى فى التجوال فى طرقاتها وكلمات ڤيكتور هيجو تتواثب إلى سمعى :

« إن باريس أشبه بإنجيل مكتوب بالأحجار، لن تجد فيها قبة واحدة ولا داراً ولا طواراً إلا ويحمل رسالة حُب ووفاق أو لا يهمس لنا بعبرة أونصيحة . إنها كتاب غريب مفتوح ... كلماته هى معالمها الخالدة وأضرحتها الشامخة وآثارها الوافدة إليها من شتى أنحاء العالم . يستطيع البشر أن يتعلموا من صفحات هذا الكتاب القيم معنى السلام وأن يتحلّلوا وهم مكبّون عليه من رواسب الضغينة ، وأن يجدوا فى سطوره مايُؤجّج إيمانهم وثقتهم . لقد حدث لباريس نفسها نفس التحوّل ، إذ كانت يوما قرية من الطوب اللّبن هى لوتيسيا ، ومع الزمن باتت محرابا عالميا للفكر والفن والجمال . وإذا هى اليوم قمة يزهو بها الجنس البشرى رمزا للتطور الإنسانى الخلاق » .

وأخذت أسائل نفسى : هل هذه هى باريس التى وصفها ڤيكتور هيجو أم تراها باتت شيئا آخر ؟

* * *

اتخذت مسكني في باريس بالحي السادس عشر الذى يحتضنه نهر السين شمالا وغابة بولُونْى يمينا . وما وجدت حيّا آخر في باريس ينعم بما نعم به هذا الحي ، فالهواء فيه عليل يلطّفه ندى النهر وتنقّيه أشجار الغابة . وما يكاد سكان هذا الحى يطلّون يسارا من شرفات بيوتهم حتى تقع عيونهم على نهر السين بمياهه المتدفّقة وجسوره المتعاقبة ، فإذا هذا ذاك يشكّلان أروع منظر يجمع بين الماء والحجر . ثم ما يكادون يخطون يمينا بضع خطوات حتى يجدوا أنفسهم فى غابة بولونْىْ التى ترمز إلى ما للباريسيين من ولع بالطبيعة يلوذون بها هربا من صخب العاصمة لينشدوا العزلة والراحة ؛ ففيها الأشجار التى يتفيَّأون ظلالها والصخور الخلابة والأحواض المائية المبتدعة تطفو على أسطح مياهها زهور الليلك ، والنافورات البديعة الصُّنع يهبط إليها الدَّرج الرخامى المصقول ، والحدائق المختلفة تضمّ شتى أنواع الورود والزنبق والسوسن والتيوليپ .

وإذا كان هذا الحى السادس عشر قد خلا من الآثار المعمارية الشامخة التى تضمها أحياء باريس الأخرى ، فحسبه أنه كان على مرّ العصور منتجع رجالات كان لهم شأنهم فى التاريخ فنا وعلما وأدبا وسياسة ، إذ اختلف إليه موليير وراسين وبوالو الذين اتخذوا فيه بيوتاً ريفية يلوذون بها حين ينشدون الراحة ، كما كان بونابرت ولعاً به وكذلك الأديب الرومانسى تيوفيل جوتييه ، وكان السكن الدائم لكل من پول ڤاليرى وأناتول فرانس .. قضيتُ فى هذا الحى أعواما ثلاثة أقيم بالدور العلوى لبيت فى شارع پول دُومِيرْ يطلّ على بُرج إيفل ونهر السين وميدان تروكاديرو وقصر شايو ، فحظيت بما لم أكن أطمع فيه ، ولا أدرى كم من خطوات خطوتُها متهيّبا فى طرقات ذلك الحىّ ، وذاكرتى نابضة بأسماء كبار الرجال الذين قطعوا هذه الطرقات من قبلى ، حتى لقد كان يخيّل إلىّ أحيانا أن أديم الأرض ما يزال يحتفظ مزهوّا بصدى وقع أقدامهم ، فيقفز إلى ذهنى قول أبى العلاء : « خفّف الوطء » حتى لا أُزحم مكان خطوهم السابق .

وقد جئتُ فرنسا مؤمنا بما رسّبه فى أعماقى السويسريون من أنها ماتزال « مملكة » رغم اسم الجمهورية الذى تحمله . وأنّى لى ألاّ أصدّق جيرانا لفرنسا لهم صيتهم المشهود من الحكمة والفطنة ، فقد كانوا يعدّون كل ما

سوى سويسرا دولة ملكية ، فعلى حين تتشكّل بلادهم من جملة أقاليم لكل منها استقلال ذاتي يحق له به إدارة شئونه بنفسه فلا يبقى للعاصمة إلّا شئون الدولة العامة ، نجد فرنسا على النقيض من ذلك حيث القاعدة المركزية فى باريس يجتمع إليها ويشعّ منها كل شيء . هكذا بقيت وحدة فرنسا على الرغم من زوال الملكية ، وأخذت باريس مكان ڤرساى ، وجمعت هى الأخرى بين مظاهر المدينة ومظاهر الأبهة الملكية ، فغدت ملتقى تيارات الفكر والرأى ومصدر القوى ومبعث الأضواء ومركز المال . فيها تستوى الأفكار ثم تطالع بها الوجود ، وفى بوتقتها تنصهر خيرة رجال فرنسا جميعا ، إليها يفدون وعنها ينتشرون . فباريس فى عهدها الحديث هى باريس فى عهدها القديم تضجّ حيوية مثلما كانت أيام الشاعر ڤيون والأديب رابليه ، وكل ما تضمّه وافد إليها من سائر أرجاء فرنسا : إكسير روحى سرعان ما يحيا به العالم بأسره . ففيها المدارس الفكرية على اختلاف مراتبها ، وهى مهد الجمال الباهر والفن الآسر ، فيها يتّقد ذكاء البشر وتنمو مواهبه وتوقظ مشاعره ، فإذا هى جميعها يؤلف بينها سحر باريس الفاتن . غير أن فرنسا تدفع لذلك ثمنا باهظا ، إذ غدت أشبه شيء بكوب من اللبن ، ولباريس وحدها تلك القشدة التى تعلو سطح الكوب ، فهى أشبه ما تكون بين أقاليم فرنسا بالشمس للبشر . وكم أصاب جوجول حين رأى أنه يكفى أن تنشق باريس سعوطا حتى تُصاب فرنسا كلها بالعطاس .

وكانت نقلتى من سويسرا إلى باريس نقلة من حياة هادئة رصينة الإيقاع لا تحسّ فيها صخبا ولا جلبة إلى بلد محمومة الإيقاع ، وهو ما كلفنى جهداً كبيراً فى أن أطوّع نفسى لمسايرة الوضع الجديد . فكنت فى سويسرا على سبيل المثال أقود سيارتى قيادة هادئة لا أبلغ بها مفترق طرق إلا تلبّثتُ أنظر يمنة و يسرة ، لعل عابرا قد أوشك أن يمرّ عبر ذلك المفترق ، فإذا ما صادفت عابرا أشرت إليه تأدّبا علّه يعبر قبلى فإذا هو يحيّينى رافعا قبعته شاكراً لفتتى ، ثم يأخذ فى طريقه . وحين مضيت أنهج النهج نفسه فى باريس إذا أنا بمن يستحثّنى من يمينى ومن يسارى ومن أمامى ومن خلفى أن أتعجّل ، فلا وقت لأحد هنا للتريّث . بل لقد حدث فى مستهل عهدى بالمدينة أن سمعت ألفاظا نابية كانت تنصبّ علىّ صبّا ، حتى من شرطى المرور الذى كان يلوّح لى بعصاه البيضاء صائحا بى : أسرع ، أسرع ، أتظن نفسك تتجوّل فى نزهة ؟

وحين ضقتُ بألفاظ السباب التى كانت تنهال علىّ ولا أعى من معناها إلا النذر اليسير ، طلبت إلى أستاذى دانييل لالاند الذى كنت أستعين به لتقويم لغتى الفرنسية أن يُفسح لى صدره ليزيدنى علما بمدلول ذاك السباب وعمّا يصحّ أن أتزوّد به من ردّ عليه . وكان رد الفعل الأول لأستاذى فرحة حقيقية لالتفاتى إلى ظاهرة السباب الفرنسى ورغبتى فى التعرف على أبعاده ومراميه . وأذهلنى حين كشف لى عن أن « السباب » فى اللغة الفرنسية هو موضوع دراسات جادة تتطلب الكثير من الوقت للإلمام بها وتبيّن مغزاها ، مؤكداً أنه علمٌ وفن وأسلوب ، فالسباب قد يكون كلمة وقد يكون جُملة ، ومنه ما قد يكون معناه خاصا ومنه ما قد يكون معناه عاما . وكثيرا ما يكون السباب الذى يرمى به المرء غيره تنفيساً عن رغبة دفينة فى أعماق قائلها كما يقول فرويد فى تفسيره للأحلام .

وقد يكون من الطريف أن نتوقف قليلا مع أستاذى وهو يستعرض فى صبر وأناة ألوان السباب الفرنسى ، فقد يكون هذا السباب من النوع العام الذى يتناول نقيصة من نقائص الأسرة ، أو رذيلة من الرذائل يندّد بها ، وقد يكون تلميحا إلى خبيثة من الخبائث ، وقد يكون تصويرا للشخص على نحو يثير هزء الناس به ، أو يكون حَمْلاً للمسبوب على فعل دنىء معيب ، وقد يكون رمزا أو كناية عن أمور فجّة أو مستحيلة أو مثيرة للحنق ، أو مأثورات التوت أعناقها ببراعة ، أو تلاعبا ببيت شعرى مشهور بمسخ أحد ألفاظه ، وقد يكون السباب تطاولا خفيف الظل على مُسَلَّمات دينية فى عبارات تأخذ صياغة الكتاب المقدس . وقد يتعرّض السباب لموضع حسّاس من جسد الإنسان ، وما أوسع مفردات قاموسهم فى هذا الباب الذى يكاد يكون موصولا بعلم تشريح الجسد الإنسانى كله . حقا إن منهم من يغلّف بعض الألفاظ الفاحشة بغلالة يكون ما تفضحه أكثر مما تخفيه ، ومنهم من يلمّح بالألفاظ دون إفصاح ، ولكنهم على هذا بكل ألوان السباب مولعون .

لم يكتف أستاذى الجليل بهذه الإطلالة السريعة بل زوّدنى بقاموس لغة العامة Argot ، وبعدها حدّثنى قائلا متخيّلا نفسه ڤرچيل وهو يودّع دانتى حين خلّفه عند باب الفردوس : « لا تنتظرن منى بعد اليوم مزيدا من الحوار والتوجيه ، فأساليبك اليوم استقامت واستوت . وها أنت ذا تستطيعُ أن تجوب

طرقات باريس وحدك آمناً بعد أن جمعت فى جُعبتك كل هذه السهام التى تردّ بها الصاع صاعين على من يتصدّى لك متطاولا ، فلا تبدو كالغريب المتخبّط » . ويمرّ ربع قرن وإذا أنا أتلقّى فى عام ١٩٧٩ طرداً من باريس ، ما إن فضضتُ أختامه حتى وجدت فيه قاموسا للسباب عند الفرنسيين [٤] يتضمّن ثلاثة آلاف وتسعمائة عبارة عن عبارات السباب الصريحة . ومع هذا القاموس عبارة إهداء رقيقة من أستاذى دانييل لالاند ، فكم كان وفيّا بهذا الإهداء حين ذكرنى بعد هذه الحقبة الطويلة .

على أن أستاذى قد حرص أيضا فى الخمسينات على أن يزوّدنى بمعرفة أكثر عمقا بطباع الفرنسيين وأخلاقياتهم وعاداتهم وما تنطوى عليه لغتهم من أسرار وما فى طبائعهم مما يثير السخرية ، تلك الفلسفة الباسمة أو طريقة التفكير التى تُشيع الفرحة وتُضحك الآخرين دون أن يَضْحك مُطْلقها ، فاختار من بين ما اختار لمطالعتنا معا كتاب « **مذكرات الرائد طومسون . استطلاع فرنسا والفرنسيين** » ، ذلك الكتاب الممتلىء دعابة ومرحا والذى ظل يلحّ على فكرى حتى ترجمته إلى العربية بعد ذلك بعدّة سنوات ، فظهرت طبعته الأولى عام ١٩٦٤ ، وهاهى ذى طبعته الثانية التى تكاد تكون ترجمة جديدة تخالف فى الكثير الترجمة الأولى[٥] ، والتى آثرت لها عنوان « **فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد طومسون** » .

ولست أنكر أن باريس قد صدمتنى فى أيامى الأولى بذلك اللون الرمادى الذى يشيع فى جوها ويخيّم عليها ، يستوى فى هذا ما يغشّى الأرصفة فيكاد يحجب الرؤية ويشيع فى الجو وكأنه الضوء المطموس . هذا اللون الرمادى الطاغى فى باريس هو أيضا لون الجسور والمتنزهات والكنائس والقصور وواجهات المبانى ، فترى الهواء الوَمِد يكاد يستحيل ماء ، غير أنّا سرعان ما نألف هذا الضباب ونستطيب رؤيته . فإذا أمطرت السماء لعبت بقطراته الريح فتحيله رذاذا يبدو نجوما متلألئة ، على أنى بعد فترة قصيرة لم أعد أضيق بهذا اللون الرمادى بعدما تجلّى لى كيف ازدهر فى ظلاله الفكر الوقّاد وانتعش الذوق الرفيع ، فإذا هما يقدّمان القرابين لربّات الفنون ، ويضيفان المزيد الى كنز العلم والجمال .

والحق إن باريس تشغل فى كيانى صورا متعدّدة تَتْرى بعضها فى إثر بعض فى شريط طويل طول أعوام ثلاثين . منها ماقضيته مقيما بها ومنها ما عشته مختلفا إليها ، فأسرت قلبى وأمتعت عينى بما تحويه : طرقاتها الفسيحة البَهِجَة ، ونهر السين تتهادى على صفحته سفن النزهة كما تمخر مياهه الناقلات ، وجسور تمرّ فوقها الشاحنات العملاقة التى يتضاءل الناس إلى جانبها ، وصائدين بصنانيرهم إن لم يسعدهم الحظ بالأسماك لم يبخل عليهم بأحلام ذهبية ، وفنانين قد انتشروا هنا وهناك يصورون ويبدعون ، وأشجار هرمة على جانبيه تحنو على أهل باريس بظلال أغصانها الكثيفة وبالإصغاء إلى همهماتهم وكأنها ربَّات الحكمة ، ومبان متماثلة فى ارتفاعها ولونها ، ومداخن المصانع مشرئبة نحو السماء ، وأشجار الكستناء تومض بزهورها المتوهّجة على امتداد طريق الشانزيليزيه حيث تتعاقب المقاهى بظلّاتها المتباينة الألوان وكأنها السفن الجانحة على ضفتى نهر بشرىّ من الجائلين ، يلتف بعضهم حول فرقة موسيقية كاملة أو حول عازف يشكّل من نفسه فريقا متكاملا : المصفّقات على رأسه والطبلة على ظهره والعصىّ مشدودة فى ذراعيه والأجراس فى قدميه والأكورديون بين يديه والهارمونيكا بين شفتيه . على حين يطوف الشباب من الجنسين على المقاهى يقومون بما يُسرّون به عن الناس من حركات إيمائية وبهلوانية أو يعزفون على آلات موسيقية وكأنهم أهل الكُدْية الذين امتلأت مقامات الحريرى بأخبارهم ينشدون الشعر لقاء ما يأخذون . وكذا حال هؤلاء ، لا استجداء وإنما هو عطاء لقاء تسلية يفرّجون بها عن النظارة .

ثم ميدان الكونكورد بمصابيحه الوهّاجة ومسلّته المصرية تكاد تجمع بين فرحتها بالاحتفاء بها فى مستقرها الجديد وبين الأسى على فراقها زميلتها فى مهدها القديم ، وحشود المارة المسرعين وسيارات الأجرة تنهب الأرض نهبا بالعشاق إلى حيث يبتغون ، ومتحابين جلسوا متعانقين على الأرائك المنتشرة على الأرصفة والحدائق ، ورائحة الحساء المألوفة تنبعث من حجرة البوّاب مع المساء ، والعجوز التى تؤجرك مقعدا بالحديقة ، وجندى الحرس الجمهورى بخوذته النحاسية وقد تدلّى منها ذيل جواد أحمر اللون أو أسوده ، والكُتُبىّ يفترش كتبه على رصيف السين ، ومتشردين

قد اضطجعوا على درجات سُلَّم سور السين وزجاجات الخمر فى أحضانهم ، وموسيقيين كفيفى البصر منتشرين فى دهاليز محطات المترو يتخذون جلسة الموسيقى الجليل ، يعزف أحدهم على الكمان و ينفخ الآخر فى المصفار و يضرب ثالث على الأكورديون ، بينما ينحنى المارة فى تقدير ليضعوا دراهمهم فى قبعة هذا الموسيقى الضرير أو ذاك إعجابا وإشفاقا . ومونمارتر تتبدّى قرية سامقة وادعة عطرة بأريج أشجارها ، يمتزج فيها طابع الريف بطابع الفن ، ويتوسّطها ميدان التِرْتر ، يحتشد فيه الفنانون والعازفون والمصوّرون والرسّامون والحواة والمشعوذون ، وتتجاور مطاعمه العتيقة الطراز متلاصقة كأكواخ متساندة على رقعة تكاد تكون كمساحة الكفّ ضيقا . وزوّار الحيّ يأنسون بالاسترخاء تحت الظلّات والأفق من فوقهم غائم لا يكاد يرقى إلى آذانهم أثرٌ من صخب باريس المحموم . وكنيسة القلب المقدس قمة ناصعة البياض تتوّج التلْ ، يتضاءل شموخها كلما اقتربنا منها ، وينفرط قدرٌ من جلالها بتكالب باعة التحف الدينية التذكارية والمسابح حول مدخلها . وحيّ سان چرمان ده پريه [وپريه تعنى الحقول والمروج] الذى كان منذ القرن السابع عشر ملاذ الوافدين من الفنانين الأجانب ومقرّ إقامتهم ـ حيث يحق لهم بيع لوحاتهم دون الخضوع لتعسّف سلطان نقابة المصوّرين الباريسيين لوقوعه خارج نطاق حدود مدينة باريس آنذاك يفصل بينهما نهر السين ـ والمدين بشهرته الحالية إلى چان پول سارتر وسيمون ده بوڤوار اللذين اجتذبا إليه المريدين من شتى أنحاء العالم ليظفروا برؤية الوجوديين . والحى اللاتينى الذى تشيع فيه الميادين المنمنمة المزدانة بتماثيل عمالقة الفكر والفن التى تمثل لروّاد الجامعة المُثل العليا فى صورها الحقة ، وقد يضيف إليها العابثون كلمات هازلة أو صورا ساخرة ، كما قد يعنّ لأحدهم أن يضع فى إحدى يدى تمثال من تماثيل هؤلاء المفكرين الوقورين زجاجة خمر فارغة إمعانا فى التندّر ، والذى تكثر فيه الحوانيت بواجهاتها التى تحمل من أساليب الذوق أكثر مما تزخر به معاهد الفنون ، والذى تفيض فيه أضابير تجار اللوحات الفنية التى قد تنطوى على عمل فنى نادر مطوىّ عن الناس . وحدائق لوكسمبور الساحرة جنّة الحيّ اللاتينى بمنحوتاتها المعبّرة ونافوراتها الأسطورية ومسرح عرائسها حيث تمرح الطفولة وترتع . وحيّ مونپارناس كعبة الفنانين وأساتذة المدارس

الفنّية المتعدّدة التى انتشرت فى العالم كله منذ مطلع هذا القرن ، حيث يحتشد الناس فى مقاهيه ومطاعمه يختلط دوىّ مناقشاتهم بصفق الصحون والملاعق وقرع الأكواب على الموائد وصيحات الرّواد على السقاة وجلبة الهرج والمرج بينما تتألق لوحات الفنانين الباريسيين بمطعم « لاكوپول » ، كما يكسو ورق الحائط المنمّق بالزهور جدران « الدُوم » ، وتنبسط اللوحات المصوّرة فوق الأرض أو على درجات السلّم فى « الروتوند » . ثم معابد التأمل والمعرفة والاسترواح ، متاحف الفن فى باريس . متحف كلونى المجاور للسوربون يزهو بصور السيدة الفاتنة بين يدى حيوان الليكورن الخرافى الرشيق على تلك النسجيات المرسّمة الثمينة من العصور الوسطى ، ومتحف الفنون الزخرفية بتنويعاته الفريدة من طُرز الأثاث ، ومتحف « چودِه پوم » [لعبة كرة الحائط] الذى يضم لوحات المدرسة الانطباعية ، ومتحف كارناڤاليه الذى يتناول تاريخ باريس ، ومتحف اللچيون دونير [جوقة الشرف] حيث ترقد أوسمة العالم مع مخلّفات نابليون . ومن عجب أن يسخر الفرنسيون من وسام جوقة الشرف ويصفونه بأنه مجرد مجلجلة رنّانة جوفاء فى الوقت الذى ينحنون فيه إجلالا أمام حاملى هذا الوسام ، بل ويسوسون به رجالاتهم . ومتحف الجيش بالأنڤاليد يحوى كل ما ابتكره الإنسان من أجهزة وعتاد يقضى بها على أخيه الإنسان ، كما يضم ذلك الضريح الدائرى المهيب الذى يتوسطه « النسر » [بوناپرت] فى تابوت من الجرانيت الأحمر ، وإلى جواره ابنه « النسر الصغير » فى تابوت من البرونز . ويقف الحرس بالمرصاد لأى طائف حول التابوت ، إذ لو نسى ولم ينزع قبعته أو لباس رأسه توقيراً لانهالوا عليه بشتى أنواع السبابِ والإهانة . ومتحف الإنسان بقصر شايو يعرض لتاريخ البشرية بأسرها بدءاً بقوارب الإسكيمو وانتهاء بطبول السودان فضلا عن جمجمة الفيلسوف ديكارت . ومتحف اللوڤر خزانة الكُنوز الفنية النفيسة ومعرض الفن العالمى الذى لا يبارى ، يضمّ روائع منها ما كان شراء أو هدية أو غنيمة حرب .. ويزعم الخبثاء أن ذراعى تمثال ڤينوس من جزيرة ميلوس ـ فخر منحوتات اللوڤر ـ قد فقدتا خلال العراك الذى نشب بين أهالى الجزيرة وبين البحارة الفرنسيين الذين حطّوا بتلك الجزيرة اليونانية فى عام ١٨٢٠ لانتزاع هذه التحفة الخلابة . ثم المعارض الفنية المتجددة فى باريس

التى تشغل قاعات متحف الفن الحديث أو متحف الأورانچرى أو القصر الصغير أو الكبير ، فالنشاط الفنى فى باريس متصل ولا يفتر . وقدس الأقداس : أوپرا باريس بمنصّة مسرحها التى تغور عمقا ، وبتناسق أعمدتها الرخامية القرمزية والزرقاء مع نقوشها البرونزية المذهّبة وستائرها الأرجوانية المسدلة وثريّاها الضخمة المتألق بلّلورها ، وسلّمها الفسيح المهيب الذى يتسع لرشيقات باريس وزائراتها ليكشفن على امتداد درجه عن أناقتهن . هناك حيث الإخراج الأوپرالى الحافل والنغم الآسر والرقص الحالم والشدو الملائكى كانت دار الأوپرا ـ وماتزال ـ لى مزاراً أهرع إليه ما وطئت قدماى ثرى باريس . وقاعات چاڤو و پلييل وقصر شايو وغيرها التى لا تكاد تمضى أمسيـة دون أن يختلـف إليـها أعظـم قـادة الأوركسـترا وأشـهر العـازفين فى العـالم بـأسره . ومسـرح الشاتليه العريق بأوبريتاته الشهيرة التى لا يكـف جيل منذ القرن التاسع عشر عن التزنّم بأنغامها وترديد ألحانها . ومسارح الجران بولڤار بتمثيلياتها المرحة الساخرة ، والپاليه رويال حيث تعرض الكوميدى فرانسيز مسرحيات ريپيرتوارها الجليل الخالد .

وأخيـرا وليس آخرا جزيرة سان لوى ، حورية السين ومأوى عشاق السكون والتـأمل حين يضيقون بزحمة باريس وصخبها ، فما عرف مترو الأنفاق سبيله إليها ولا المـواصـلات العامة هى الأخرى تجسر على أن تجوس خلالها فتلجأ إلى الطواف حولهـا . ومـانزلـت مـرة بـاريس إلا ونازعنى شوق إلى أن أنثنى إلى تلك الحورية أتبـتّل فى محـرابها وأنـعـم بمـفاتنها وأتلبّث على ضفافها ، أمدّ البصر عبر سور السين الحجـرى مـتـطلعا إلى معالم باريس حديثها وعريقها . وما أكثر ما يخيّل إلىّ أننى أقرأ على جـدران مـبـانيهـا سـطـوراً من ذكرياتى الأثيرة وأستاف الأنسام المرتدة فتؤجّج مشاعرى وتغوص عميقا خلال وجدانى الرافل فى نشوة السكون والطمأنينة وأريج ماض عبق .

تلك كانت انطباعتى عن باريس وإليك أيامى بها .

* * *

أذهلني في بدء عملي بالسفارة في باريس ذلك الاتهام الذى يشوّه عمل الملحق العسكرى بوصفه عين الثورة التى تحصى على أفراد الجالية المصرية بباريس سلوكهم وأقوالهم سواء كانوا من بين أعضاء السفارة أو من الطلبة الدارسين أو من الزوّار السائحين . وكان من الطبيعى أن يلقى من الجميع نظرة التوجس النابعة من تصورهم بانحصار وظيفته فى مراقبتهم والتجسّس عليهم ثم كتابة التقارير عنهم . وأعترف أنى كنت شديد الضيق بنظرة المواطنين المصريين هذه إلى منصب الملحق العسكرى ، فقد كانت التوجيهات التى أصدرها لى القائد العام للقوات المسلحة للاضطلاع بمهمتى بباريس تنحصر فى تزويد القوات المسلحة بحاجاتها من الأسلحة والمعدات ، وإعداد التقارير عما يستجد فى فنون الحرب والقتال ، ومتابعة النشاط الاسرائيلى هناك ، ورعاية حركات التحرّر بالشمال الأفريقى . وكانت البعثات المصرية لشراء السلاح والمعدات العسكرية تجوب عندها أنحاء أوربا بما فى ذلك بريطانيا وفرنسا للتعاقد على شراء احتياجات القوات المسلحة . وكانت العقبات التى تصادفها عقبات سياسية فى المرتبة الأولى ، ومن هنا لم تعد مهمة الملحق العسكرى مهمة عسكرية بحتة بل أخذ يخالطها العمل السياسى يؤثر عليها و يتأثر بها ، وغدت المساومات تدور حول التنازلات ذات الطابع السياسى أكثر مما تدور حول الأثمان والنفقات .

• • •

ولا أظنني فى حاجة إلى أن أذكّر القارىء بأن مهمة الملحق العسكرى فى أية سفارة هى مهمة مستقلة تقوم على جهوده هو ومن معه ، ولا صلة له فيما يمضى فيه بالسفارة ، إذ تبعيته خالصة للقيادة العامة للقوات المسلحة ، هذا إذا لم تكن ثمة أمور تتصل إلى حدٍّ ما بمهمة السفارة ، فيكون واجب الملحق العسكرى ألا يقضى فيها بأمر دون إخطار السفير بها . وإذ كان الأمر كما قلت لا انفصال فيه للسياسة عن تلك المهام العسكرية وجدت نفسى قد أقحمت إقحاما فى الميدان السياسى . ومن هنا رأيت أن أبدأ باستعراض الظروف السياسية التى واكبت مهمتى العسكرية نظرا لارتباطها الكلى والجزئى ببعضها البعض كما سيلمس القارىء .

كانت المعركة وقتذاك على أشدّها بين قوات الاحتلال الفرنسي والوطنيين في مراكش ، فهرع قسم أفريقيا والشرق الأدنى بوزارة الخارجية الفرنسية بتوجيه الدعوة إلى موشي ديان رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي لاستطلاع رأيه والإفادة من خبرته الطويلة فيما أسموه « بالإرهاب العربي » فالتقى بالمسئولين مرات ثلاثا . وأغلب الظن أنه هو الذى أوحى بأسلوب القمع الجديد الذى طبقته السلطات الفرنسية بمراكش صبيحة عيد الأضحى فى ٤ أغسطس ١٩٥٤ ، يؤيد هذا الظن أن ديان استدعى أثناء وجوده بباريس الكولونيل هركابى نائب مدير المخابرات الاسرائيلية ليضع خبرته تحت تصرف المسئولين الفرنسيين . وأعتقد أن هذه العلاقة كانت بداية طور جديد من التعاون الفرنسي الاسرائيلي كان أوضح نتائجه التصريح الرسمي الذى أعلنته فرنسا عقب توقيع الاتفاق المصرى البريطاني بثمانية وأربعين ساعة ، بأن فرنسا تتعهد بحماية الحدود الاسرائيلية ، ثم تدفّق الأعداد الضخمة من ضباط البحرية الاسرائيلية ليتلقّوا تدريبهم بقاعدة طولون البحرية ، إلى أن تُوِّجت هذه العلاقة بمنح ديان وسام « اللچيون دونير» .

● ● ●

وسادت الصحافة الفرنسية عندها نغمة القلق على مستقبل فرنسا فى منطقة الشرق الأوسط بعد توقيع الاتفاقية ، حتى كتبت مجلة إكسپرس الناطقة بلسان منديس فرانس رئيس الوزراء ووزير الخارجية « بأن على فرنسا أن تُسرع الخطى قبل أن يفلت منها زمام الزعامة فى الشرق الأوسط » ، وأغلب الظن أن المجلة تقصد غروب الاستعمار الفرنسي . وكانت وزارة الخارجية الفرنسية منقسمة على نفسها : فثمة تيار يؤمن بأن فرنسا « قوة إسلامية كبرى » - أى أنها تسيطر على أكبر عدد من المسلمين فى العالم - ومن ثم ينبغى أن تبذل قصارى جهدها لتحسين جو العلاقات بين فرنسا والعالم العربى ، وتيار آخر يرى استخدام العنف ضد الوطنيين العرب لتثبيت أقدام الاستعمار الفرنسي ، وكان هو التيار الغالب فى تلك الآونة .

ودأبت السلطات الفرنسية على ممارسة الضغط على السفارة المصرية بباريس لإيقاف هجوم صوت العرب عليها بعد أن افتتحت الثورة المصرية إذاعة صوت العرب فى يوليه ١٩٥٣ بغرض تكتيل الشعوب العربية وتوجيهها ضد الاستعمار ، وهو ما أثار القوى الاستعمارية الفرنسية إلى الحد الذى جعلنى أثير مع جمال عبدالناصر فى الثامن عشر من أغسطس ١٩٥٤ إمكان استغلال إذاعة صوت العرب لمساومة فرنسا فى تحقيق أهدافنا الوطنية والعربية . غير أنى أشرت فى رسالتى هذه إلى ضرورة إسناد هذه الإذاعة إلى إدارة فنية أنضج خبرة وأكثر اتزانا ودراية بمجريات الأمور من الجهاز المشرف عليها الذى له نهج يبعدُ به عن الأثر المنشود الذى نبغيه . وأوضحت له فى نفس الرسالة تطور العلاقة بين فرنسا وإسرائيل تطوّراً مريباً يحمل فى طيّاته نوايا الغدر والعدوان ، وبسطت بين يديه مجالات تحرّك مُتاحة فى الآونة الراهنة ، على رأسها الآمال الفرنسية المعقودة على مدّ أجل عقد قناة السويس الذى شارف على الانتهاء ، وتشجيع السودان فى إذاعتنا وصحافتنا على المطالبة بضم السودان الفرنسى إليه ، وإعلان الأزهر من خلال هيئة كبار علمائه السلطان ابن عرفة ـ الذى عيّنه الفرنسيون ـ مارقا على الإسلام يُهدَر دمه ، وأن الحاكم المسلم الشرعى الوحيد هو سلطان مراكش المعزول مولاى محمد بن يوسف ، وأن الجلّاوى « باشا مراكش » ـ بقبوله تدخّل اليهود ضد المسلمين فى المغرب ـ خارجٌ على الإسلام يُهدر دمه أيضا ، وأن تُعلن مصر استعدادها للاعتراف بشرعية أية حكومة يرأسها زعيم وطنى إسلامى مغربى يحمل راية الجهاد ضد المستعمر ، وأن فرنسا قد بدأت المعركة الدينية ضد الإسلام حين أعلن جورج بيدو وزير خارجيتها الأسبق فى سبتمبر ١٩٥٣ أن « الصليب لن ينحنى أبدا أمام الهلال ، فلنعلنها حربا صليبية » .. وقد ألمحت لعبدالناصر فى نهاية رسالتى بموضوع « النشيد الوطنى » الذى كانت محطات إذاعة المقاومة الفرنسية تذيعه إبان الاحتلال الألمانى لفرنسا ، واقترحت عليه استخدام لحنه بمصاحبة ترجمة عربية مناسبة لنذيعه بدورنا فى مستهل إذاعات صوت العرب ونهاياتها ، فقد كنت موقنا بما يحققه من أثر عميق لا فى نفوس أهالى الشمال الأفريقى وحدهم بل وفى نفوس الفرنسيين أنفسهم الذين يرتبط النشيد فى ذاكرتهم بمحنة الاحتلال التى عانوا ويلاتها ،

وبهذا يرتد إليهم السلاح المعنوى الذى استخدموه ضد محتلّيهم الألمان . وقد أرفقت برسالتى الكراسة الموسيقية للنشيد مع نصّه بالفرنسية بعد أن ترجمته إلى العربية .

أتلْقِى السَّمعَ يا صديقى
إلى صوت الطبول يقرع من بعيد
إلى صوت الوطن المكبوت يئن تحت وطأة القيود
أتلْقِى السَّمع يا صديقى
إلى النعيب البغيض تنعق به الغربان المحلّقة فوق السهول
هلمّوا يا رفاق .. هلمّوا
اصعدوا من جوف المناجم
اهبطوا من فوق التلال
ادلفوا من المخابىء يا رفاق
إلى البنادق .. إلى المدافع .. إلى القنابل
هلمّوا نقضى على القتلة
بالرصاص .. بالخناجر
لنتعجّل قتل المخربّين
ولنحرص على ما نحمل من بارود ثمين .
نحن من نحطّم قضبان السجون
المغلقة على رفاقنا
تحنقنا الضغينة على القتلة
ويدفعنا الجوع للقصاص
هناك أمم تنعم بالأحلام
فى دفء المخادع
بينما نحن يارفيقى نمضى ،
تغوص أقدامنا فى الدماء
نَقتل ونُقتل .. ثم نموت
كل منا يدرك ما يريد

كل منا يدرك ما يصنع
وهو يمضى فى الطريق
أما أنت ياصديقى إذا ما سقطت
فلسوف ينهض صديق آخر من بين الظلال
ليأخذ مكانك
وسوف يشهد الغد القريب
الدماء الداكنة تجفّ فوق الطريق
تحت الشمس الوهّاجة المشرقة
فانشدوا يا رفاق
فى ليلتنا هذا
فالحرية تصيخ السمع
أُتلقى السَّمع يارفيقى
إلى صوت الوطن المكبوت يئن تحت وطأة القيود
أُتلقى السَّمع يا صديقى
إلى النعيب البغيض تنعق به الغربان المحلّقة فوق السهول
هلمّوا يارفاق .. هلمّوا » ..

ولم أدر للأسف شيئا عن مصير هذا الاقتراح .

***

ومع تطور للأحداث السياسية تلقيت من جمال عبدالناصر ما يوحى باستعداده لبذل وساطته بين فرنسا والمغرب على أمل الوصول إلى حل عادل تجنبا لإراقة الدماء . وكان أن لقيت السيد ڤانسان مونتاى مدير مكتب كر يستيان فوشيه وزير الشئون المراكشيه والتونسية [وكان من قبل ملحقا عسكريا بطهران ثم أستاذا بالكوليج ده فرانس ، وبعد أن اعتنق الإسلام تسمّى باسم منصور مونتاى ، وهو الآن يشغل منصب سفير فرنسا فى إندونيسيا] ، فراح يؤكد لى بحكم مركزه واتصاله المباشر الوثيق بالوزير صدق نوايا فرنسا ورغبتها الأكيدة فى حل القضية المراكشية ، وأن حكومة منديس فرانس هى بحكم وضعها وتشكيلها وظروفها تكاد تكون الحكومة المثلى لحل هذه المشكلة بطريقة عادلة . ثم أفضى الىّ ببعض القرارات التى تم اتخاذها بين منديس فرانس وكر يستيان فوشيه ، وتقضى بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين المراكشيين الذين اعتقلوا منذ عام ١٩٥٢ ومن بينهم زعماء حزب الاستقلال ، كما أسرّ الىّ بأنه تقرر إطلاق سراح السلطان مولاى محمد بن يوسف على أن يعود إلى فرنسا لمباحثته فى أمر تنازله عن العرش لابنه الحسن ، وأن السلطان الحالى ابن عرفه سيتخلى بطبيعة الحال عن العرش على أن يتولى السلطة مؤقتا مجلس وصاية يرضى عنه المراكشيون .

أكد مونتاى أن فرنسا ستتخذ هذه الإجراءات لتهدئه الرأى العام العربى والمراكشى ، ولخلق مناخ مناسب للمفاوضات بين فرنسا ومراكش ، ولتطلب من الأمم المتحدة منحها مهلة بضعة شهور تصل خلالها إلى حل للقضية كما وصلت من قبل إلى حلول بالنسبة لتونس والهند الصينية . ولما كنت أعلم أن الأستاذ الدكتور محمود عزمى قد تقدم للوساطة من قبل بين فرنسا ومراكش فقوبل اقتراحه بعدم الاكتراث ، وذلك لشدة حساسية الفرنسيين عند ذكر كلمة الوساطة ، وهو الشيء الذى لمسته بنفسى ، اقترحت على الرئيس عبدالناصر فى خطاب لى مؤرخ فى السابع عشر من سبتمبر ١٩٥٤ أن يبعث برسالة إلى رئيس الحكومة منديس فرانس يكاشفه فيها بأن الشعوب العربية تأمل فى إيجاد حل لقضية المغرب على يديه مثلما فعل من قبل فى مشكلة تونس والهند الصينية ، وأن مصر بحكم علاقتها الوثيقة بفرنسا على استعداد للتقدم بالمقترحات الفرنسية إلى الوطنيين المراكشيين والتعاون على إقناعهم بهذه المقترحات إذا كانت تتضمن اتفاقا لا يقل عن الاتفاق

الفرنسي التونسي ، أى بمنح الاستقلال الداخلى ، إذ كان فى رأيى أن هذا الأسلوب لايمسّ الشعور الفرنسي بمثل مايمسّه لوتقدمت مصر لفرنسا بشروط المراكشيين ، و بخاصة وأن فرنسا قد باتت أمام أمر واقع يفرض عليها إعلان استقلال مراكش استقلالا ذاتيا وعودة السلطان الشرعى .

وكان ثمة عدد من رجال الصحافة الفرنسيين التقدميين لم يكفّوا عن المناداة بحقوق أهل الشمال الأفريقى ، وعدد آخر من المستشرقين والكتاب والأدباء الفرنسيين انبروا يندّدون بأسلوب القمع والقهر والإرهاب ومن بينهم المستشرق الجليل ريجيس بلاشير الأستاذ بجامعة باريس الذى كتب مقالا فى صحيفة لوموند بعنوان « الفرصة الأخيرة » طالب فيه : « **باتباع سياسة واقعية جديدة تحترم العهود وتراعى مقتضيات الزمن ، وهو ما يتطلب جرأة الذهن وحسن الابتكار، فمن الخطر مراوغة التاريخ أوالتغاضى عنه ، كما ينبغى الاعتراف فى شجاعة بأن الشعوب الواقعة تحت الوصاية تطمع فى الظفر بالاستقلال وهو شىء لابد منه . كما لا مناص من إصلاح نظام الاتحاد الفرنسي الذى فرض على البلاد الواقعة وراء البحار الاندماج فيه دون رضا الشعوب . وكذا لا معدل عن احترام رغبة الشعوب فى شمال أفريقيا فى أن تصبح اللغة العربية الفصحى لغة تفكيرهم ورقيّهم وكتاباتهم . ودون إدراك ذلك كله وتغليب الحلول السليمة على المصالح الشخصية ستضيع آخر فرصة لنا فى الإبقاء على القيم الفرنسية** » .

كذلك نشر المستشرق المرموق لوى ماسينيون مقالا بعنوان « فى سبيل إنقاذ المغرب » طالب فيه بإصدار عفو شامل عن سجناء المستعمرات الفرنسية ، وذكر فيه عدة حقائق دامغة جاء فيها :

« **يظن البعض أن العفو يجب أن يسبقه بقاء السجناء مدة فى السجون حتى ينالهم الوهن ، وهذه نظرية خاطئة ، فإن الإسلام رباط أقوى من القيود يجعل المسلمين متضامنين أينما وجدوا . لذلك فإن خطر الانفجار فى تونس و بخاصة فى مراكش فى تزايد مستمر، و ينبغى وقف دورة القمع والإرهاب المحزنة الجارية الآن فى أفريقيا الشمالية ، فقد عرفت فرنسا هذا الأسلوب أيام كان الألمان يغتالون الرهائن الفرنسيين . وليس هناك سوى إصدار عفو شامل شرعى وسيلة لتهدئة الخواطر بمعرفة الباى فى تونس غير أن فرنسا رفضت منحه هذا الحق . أما فى المغرب فلا يملك السلطان الصورى أية سلطة وهو حبيس أولئك العصاة الذين حملونا على ملء السجون**

بالأبرياء. إن فى مساعدة المبعدين والمعتقلين المغاربة خلاص فرنسا بل استردادا لشرفها ».

وفى الخامس عشر من يناير ١٩٥٥ ظهر مقال خطير بمجلة « إكسپرس » بقلم الكاتب الكبير فرانسوا مورياك عضو الأكاديمية الفرنسية بعنوان « التعذيب »، استهلّه بقولة مُونْتِنْي « إنى أكره القسوة كراهية شديدة بفطرتى وبعقلى لكونها على قمة الرذائل »

ولما كان المقال يصوّر مأساة ذات أثر شديد على القراء عن تعذيب الفرنسيين لعرب الشمال الأفريقى، فقد بادرت بإرسال ترجمة للمقال إلى القاهرة مقترحا أن يكون مادة لبرامج إذاعة صوت العرب والصحافة المصرية. غير أن الأيام امتدت ولم أعرف بعد ماذا كان مصير اقتراحى. وهذا هو الحوار الذى دار بين الكاتب الجليل وبين قس فرنسى يعمل فى إرسالية بمنطقة قسطنطينة بالجزائر.

« يقول القس مبتغيثابى: أنت وحدك صاحب القول، ولا قائل بعدك.

فعبستُ وأخذت أردّد فى نفسى: كم من مرة سمعت تلك المقالة « ولاقائل بعدك »، ويخال من هم على غير رأيى أنى أنقاد لهوى فى نفسى يدفعنى لأن أكون فارس هذا الميدان وحدى، فإذا أنا أنفثُ زفرة عميقة وأقول: هل من دليل على ماتقول؟ فللأسف ليس ثمة دليل بعد على أن هناك تعذيبا.

فقال وهو ينظر إلىّ: لقد كان الدليل بين يدى وتحت بصرى.

لقد تبيّنت نظرته، نظرة صديقى القس، ولم تكن غير نظرة من رأوا بأعينهم ولايدور بخلدهم أن يقولوا غير مارأوا. إن زهور العالم جميعاً قد ذَبُلت بعد تلك المأساة. وهنا ألححت عليه مستجديا: تُرى ماحيلتنا إذا لم نجد لهذا التعذيب الآثار الدالة عليه؟

قال القس: ألا تعلم أنهم لم يكفّوا عن استخدام السياط، ثم ما كانوا يفعلونه من غمس الرءوس فى الماء الى حدّ الاختناق، ثم التيار الكهربائى الذى كانوا يسلّطونه تحت الإبط وبين الأفخاذ، ثم الماء القذر الملوّث الذى كانوا يصبّونه فى أفواه الرجال بالخراطيم. هذا كله كان يُفعل بالمعذّبين إلى أن يفقدوا الوعى.

قلت: هذا مالايجوز أن يكون!

فقال صديقى: بل هو الحق بعينه ولامريّة فيه. وهذا أشبه مايكون بما كان يُعامَل

به داميان [شاب حاول اغتيال الملك لويس الخامس عشر] والمركيزه برانفيلييه [مركيزة قتلت أبويها وزوجها بأن دسّت لهم السمّ فى منتصف القرن الثامن عشر] .

ويمضى القس قائلا : إن أنواع العذاب تلك ممالايترك أثرا ، ثم ... لا تنسى أعناق الزجاجات التى تُدسّ فى أدبارهم .

فقاطعته قائلا : إنى أعلم ذلك ، فقد سبق لغيرك أن قصّ علىّ مثل ما تقول ، ولكن لماذا ، لماذا ؟

قال القس : الغرض من هذه الأساليب هو الحصول على اعتراف من جانب المشبوهين [ولست أدعى أنهم جميعاً أبرياء] بأنهم اشتركوا اشتراكا مباشرا أوغير مباشر فى الإرهاب ، والمطلوب منهم بصفة خاصة أن يشهدوا ضد إخوانهم . وإنى لأذكر أحدهم وقد انتهى به التعذيب إلى إفشاء أسماء إخوانه فكاد يجن يأسا وخزيا فيردّد باكيا « ياللعار لقد أسلمتهم » . تخيّل هذا التعذيب الذى يتخلّله تحقيق واستجواب يدوم ساعات طوالا وقد تُركوا بغير طعام . وهم لهذا يكونون أطوع مايكونون للتوقيع على أى شيء .

قلت : وماقولك فى القضاة وأين كانوا ؟ [لأن التحقيق فى القانون الفرنسى لا يتم إلا بمعرفة القاضى] .

قال القس : قبل أن يُساق الضحايا إلى ساحة المحكمة كانوا قد أعِدُّوا ليقولوا مايُراد منهم . ولقد كانت زوجتى ترقب حالة من تلك الحالات فرأت شبانا ملطّخين بالدماء وهم يسُاقون إلى ساحة العدالة .

قلت : ألم يكن ثمة محام إلى جانبهم ؟ غاية ظنى أن القانون يحتّم هذا ؟

قال صديقى : لم يكن هؤلاء المعذّبون يُخطرون لاباليوم ولا بالساعة . ثم كيف يتسنّى أن يوقف المحامى بباب القاضى ساعات طوالا متصلة تبلغ الثمانية وأكثر؟

قلت : وهل تملك الشرطة القدرة على أن تحجز شخصا لأكثر من أربع وعشرين ساعة دون إذن القاضى ؟

قال : إن المادة ١١٤ من قانون العقوبات تبيح الحجز التعسفى .

قلت : وكيف يتم الإثبات فى مثل هذه الحالة ؟

قال : هذا جدّ يسير.

قلت : ولماذا لم تشكوا ؟

قال : هل تظن أن المتهمين يكفّون عن الشكوى ؟ كم من شكاوى تقدمنا بها لم يحقق فى واحدة منها . هل سمعتنى ؟ لم يحقق فى واحدة منها . باللرعايا الفرنسيين [يقصد الجزائريين] فهم لايملكون فى هذا الصدد أكثر مما يملكه المحميّون [يقصد التونسيين والمغاربة] .

فاعترضته قائلا : إنك لمخطىء فإنى أذكر أن « رابطة فرنسا ـ المغرب » [وكان مورياك أحد أعضائها] قد توسطت فى أمر مولاى مرباح السكرتير العام لجناح من حزب « حركة فوز الحريات الديمقراطية » بالجزائر، فاتضح بالبيّنة لوزير الداخلية فرانسوا ميتيران [رئيس الجمهورية الفرنسية وقت كتابة هذه السطور] أن هذا المتهم لم يتعرض للتعذيب البتة .

قال : بلى ، ولكن وزير الداخلية سليم النية إذ قد خُدعٓ فى هذا الأمر. وإنى أعرف القصة بحذافيرها . فقد قُدِّم مولاى مرباح إلى القاضى فى الخامس من نوفمبر. وفى التاسع من نوفمبر فقط تمكن محاميه من الاتصال به ليستمع إلى قصة التعذيب الذى تعرض له . كان ظهره يسيل دما من جراحه البالغة . ولقد ذكر لى أحد الحراس هذا الأمر، وما أظننى أكذّبه ، ولكن تقرير الطبيب الشرعى للأسف كان على غير الحقيقة . وبهذا التقرير أخذ وزير الداخلية .

قلت : أرأيت ؟ إن الدليل القاطع سيظل دائما مفقودا

قال : لا ، فلدينا شهود لحالات كثيرة . إن زوجتى رأت الجراح بصدر عبدالعزيز، وأذن القاضى باستدعاء طبيب شرعى ، لكنه رفض أن يتم الفحص فى حضور أستاذ بكلية الطب بمدينة الجزائر. ويمكننى أن أقص عليك قصة « عداد على » عضو مجلس الجزائر البلدى ، فقد رآه الصحفيون والمحامون والقضاة الواقفون بالردهة وهو فى حالة ذهول وآثار الضرب واضحة فى وجهه وفى ساقيه ، فاستدعى القاضى طبيبا فى الحال . والأعشاوى صديق مدام مونييه ودوميناك والأستاذ مندوز. كيف لنا أن نشك فى كلامه وروايته عن كل ماقاساه ؟

أذعن كلانا للصمت ، وبعد أن أخذ القس يسرح فى تفكير عميق قال : السجن فى حد ذاته ياله من عذاب ! ! ! إنهم يتحدثون عن سجن وِجْده . ولو عرفت سجن تيزى ــ أوزو ! ! ! واحد وسبعون سجينا فى غرفة طولها عشرة أمتار وعرضها كذلك ، حُرّم عليهم الكلام ، حتى الصلاة . وقد دُسّ فى صفوفهم سجناء عاديون لمراقبتهم . إنها لمدرسة هملر ! ! ياله من تراث ! ! !

ثم عاد الصمت بيننا وعادت الكلمة ترن فى سمعى : «أنت وحدك ... آه لو علم الناس ... إنهم يصدقونك أنت» فهززت رأسى ـ وقلت : كلا : إنهم سيغضبون لاضطرارهم لمشاهدة ماعقدوا النية على تجاهله ، إنهم يرتضون أن تقام المدنية على عيوب خفية : الدعارة ، تجارة الرقيق الأبيض ، بوليس الآداب ، السجون ، ملاجىء للمساجين ، كافة المآسي . وهم يعتبرون كل ذلك شرًا لابد منه ، وويل لمن يتحدث عنها صراحة . كان السكان قديما بالمكسيك يضعون أشلاء آدمية فى جدران الهياكل التى كانوا يقيمونها لعبادة للشمس.

قال : لكننا لسنا كهؤلاء .

قلت : كلا . كلا . فنحن الفرنسيون أبناء فرنسا تلك الدولة التى أدرك أبناؤها على مرّ الأجيال مايراد من رسالة المسيح . فنحن فرنسا التى أعلنت حقوق الإنسان فى وجه أوروبا التى لعب برأسها الخمر.

قال : نعم . وهذه هى فرنسا التى يعرفها هؤلاء الذين نعذّبهم .

قلت : إذن إن هؤلاء الجلادين لن يمكنهم أن يتذرعوا بعذر فى وسع الغزاة أن يتذرعوا به ، لأن فرنسا تغزو برسالتها الإنسانية لا بقوتها الغاشمة . وهؤلاء الجلادون الذين يسلبونها شرفها يجردونها فى الوقت ذاته من كل سلاح .

وهناك انتصب قائما ومدّ إلىّ يده واستطرد فى صوت يعروه الخجل :

ـ هل قرأت كتابى عن أهالى مدغشقر؟
فأومأت برأسى . لكنه ألح قائلا :

ـ إننى أحدثك عن أعضاء البرلمان الفرنسى فى مدغشقر. إنهم أبرياء . أتعلم ذلك ؟ إنهم فى عذاب منذ سنوات . وإننى أعلم أن أحدهم على وشك الهلاك من الضعف والمرض . إنهم مسيحيون ، أخوتك !

فأجبته : نعم .... نعم .... ثم أوصلته إلى الباب .. وها أنذا وحيد كما كنت . فتحت مجلدا يضم أسطوانات لموسيقى موزار واخترت إحداها ، ولكنى عُدتُ فعدلت . إن البشاعة التى استمعت إليها مازالت تشيع فى جو الحجرة ، أما هذه الموسيقى السماوية فليست لى ، وشعرت كأنى رجل اشترك ـ رغما عنه ـ فى جريمة ، ويفكر فى تردّد أن يسلم نفسه للعدالة» .

وعلى هذا النحو انتهى مورياك ، الكاتب الفرنسى العظيم من مقاله الذى

يؤجج به مشاعر الفرنسيين ضد الظلم الواقع من جلاديهم على من ينادون بالحرية والاستقلال .

* * *

وفى السابع من نوفبر ١٩٥٤ التقيت بكلود شيسون مدير مكتب رئيس الوزراء لشئون الشرق الأوسط [وزير الخارجية الفرنسية وقت كتابة هذه السطور] . وبطبيعة الحال دار الحوار بيننا حول موضوع الساعة وقتذاك ، أى توتر العلاقات بين بلدينا وحرص حكومة مصر على عدم تعارض علاقتنا الطيبة بفرنسا مع اهتمامنا الواضح بمصالح إخواننا فى العروبة والإسلام ، فهى مشاعر متوارثة لايجوز أن يلومنا أحد عليها . ولكنه لم يخف ضيقه بصوت العرب ولاحماسته للرئيس منديس فرانس المتميز فى نظره عن بقية الساسة الفرنسيين بحرّية الميول والواقعية ، ولذلك فهو السياسي الوحيد الذى يمكنه معالجة مشاكل شمال أفريقيا بروح تبشّر بالنجاح ، كما أن أعداء منديس فرانس ذوو قوة وبأس يحاولون جاهدين إسقاطه أوإفساد خططه بشتى الوسائل المتدنّية ، ولذلك يستغلون حملة الإذاعات العربية المضادة له ولسياسة فرنسا للنيل منه . ومن ثم فإن أكبر مساعدة تسديها مصر له للمضى قدما فى هذا السبيل هى الكف عن الهجوم المبنى على الإثارة فحسب فى إذاعتها والحرص على الالتزام بالحقائق وحدها . فخصوم منديس فرانس يرصدون هذه الإذاعات لاستغلال ماتنطوى عليه فى حملاتهم الصحفية ودعاياتهم البرلمانية لإحراج مركز رئيس الحكومة وإضعاف حججه التى يسوقها لتبرير سياسة التفاوض مع العرب بديلا عن سياسة البطش على الرغم من كونه يهوديا . وكان لامعدل عن أن أذكّره بأن الشعور بالتضامن العربى هوعامل تاريخى وسياسى وعقائدى لايجوز لفرنسا أن تهمل شأنه . فأخذ يبسط لى منهج رئيس الوزراء فى حل مشكلة شمال أفريقيا ، بمنح تونس الاستقلال الداخلى لتمشّى ذلك مع أحكام الدستور دون أن يمسك به العدو المشترك لمنديس فرانس وللعرب من طبقة المستعمرين [الكولون Colons] وهو فى حالة تلبّس بخرق أحكام الدستور ؛ فإن عليه أن يستخدم حقوقه الدستورية على أوسع الصور دون الخروج عنها قيد أنملة مع سد كل منفذ أمام طعنات المستعمرين ، وهو ما أدركه الحبيب بورقيبة فقبل مبدأ المفاوضة على هذا الأساس كخطوة تكتيكية إلى أن تتغير الظروف . كما أن اتحاد كلمة المغاربة واجتماعهم على مناقشة فرنسا ومفاوضتها على تنظيم نقل

السلطة إليهم مع توفير الضمانات الكافية بالنسبة للمصالح الفرنسية ــ كما هو الأمر مع تونس ــ سيحفز دون شك الحكومة الفرنسية على الدخول معهم فى المفاوضات . غير أن الحال ليس كذلك بكل أسف ، ولا حاجة لطبقة المستعمرين إلى التربص بالرئيس منديس فرانس والإطباق عليه حين يتجاوز سلطاته الدستورية ، إذ يكفيهم لعرقلة أى إجراء من جانب رئيس الوزراء أن يكشفوا عن أن مباحثة أى فريق من المغاربة يثير حفيظة فريق آخر، إذلا إجماع على الإطلاق بين الفئات والأحزاب المغربية .

وما كاد ينتقل إلى قضية الجزائر حتى بادر إلى لفت نظرى إلى أن الدستور الفرنسى ينص على أن الجزائر بولاياتها الثلاث جزء من التراب الفرنسى ، وأننا بلا جدال نعترف بالدستور الفرنسى بدليل قيام علاقات دبلوماسية بين الدولتين . ولذلك فإن فرنسا تعتبر تشجيع إذاعتنا للجزائريين على الثورة إنما هو تحريض سافر على انسلاخ أرض فرنسية من الدولة الفرنسية ، فهل ترانا نجيز لفرنسا مثلا تحريض أهالى سيناء على الانسلاخ من الدولة المصرية .

وصارحنى بأن الرئيس منديس فرانس يدرك كل الإدراك أن لمصر وللدول العربية من ورائها أن تعلن اهتمامها بقضايا الشعوب العربية والإسلامية ، وأنه بطبيعة الحال لايستطيع أن يعرب عن رأيه هذا جهاراً إلا أنه لايرى مانعا من إحاطة الزعامات العربية بصفة غير رسمية بماتنوى الحكومة الفرنسية اتخاذه من إجراءات تجاه قضايا الشمال الأفريقى قبل تطبيقها ، وبشرط الاقتصار على الشخصيات الصديقة [ولعلّه يقصد المؤثرة] مثلّ الرئيس عبدالناصر ، كما أنه يعتزم تنشيط التعاون الاقتصادى مع كافة الدول التى تهم رأس المال الفرنسى وفى مقدمتها الدول العربية وإيران .

وقد أدركت خلال الحوار مدى صعوبة ذكر وساطة الرئيس عبدالناصر صراحة دون إشعار محدثى بأنه لا تدخّل من جانبنا ، وحاولت صياغة الفكرة والتعبير عنها فى صورة يمكن تقبّلها بأن أشدت ببُعد الرئيس عبدالناصر عن العنصرية والتعصب وبروحه التقدمية وبمدى مايتمتع به من كلمة مسموعة فى مصر وخارجها وفى البلاد العربية والإسلامية ورغبته الصادقة فى التفاهم مع فرنسا على أساس تحقيق آمال الشعوب العربية فى الشمال الأفريقى ، بل واستعداده

ليس للوقوف موقف الانتظار حتى تتم مرحلة المفاوضات وإنما للمعاونة الفعلية والإسهام فى إيجاد حل للمشكلة يقبله الجميع .

وفى الحق لم أجد فى ردّه مايوحى بالترحيب بما ألححت إليه ، بل لقد تخلّص بلباقة من التعليق عليه ، فلم يكن مبدأ الوساطة مقبولا ولا معقولا إلا بين فئة محدودة وعلى نطاق ضيق ، بينما كان الرأى العام الذى تشكّله وسائل الإعلام الواقعة تحت السيطرة الصهيونية يجعل كل من يفكر فى مثل هذه الوساطة يتردد كثيرا قبل الموافقة عليها حتى لايتهم بالخيانة . وفى نفس الوقت كانت السلطات الفرنسية على اتصال بالوطنيين المغاربة تفاوضهم لتحقيق هدنة تتيح لمنديس فرانس الوصول إلى صيغة لحل القضية المغربية . ولم يمض وقت طويل حتى دعانى چورچ جورس ــ الوزير السابق وأحد أصدقاء منديس فرانس والمعروف عنه تعاطفه مع قضايا العرب أوعلى الأقل علمه بكنهها [حيث عاش فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية واشتغل بالتدريس فى مدارس الليسيه وكان يشرف على البرنامج الفرنسى الموجّه بالإذاعة المصرية] ــ دعانى لزيارته فى منزله ، ومضى يحدثنى عن أهمية تهيئة المناخ الملائم حتى يستطيع رئيس الحكومة أن يكلّل مساعيه لحل مشاكل الشمال الأفريقى بالنجاح ، ولذلك فهويطلب وساطتى لترتيب موعد له لمقابلة عبدالناصر بالقاهرة ، فدبّرت له هذا اللقاء فى حينه .

* * *

وحين حاول وزير المالية الفرنسية إدجار فور فى إحدى جلسات مجلس الوزراء التأثير على زملائه لقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر ، تصدّى منديس فرانس معارضا هذه الخطوة ومطالبا بمهلة حتى يوم ١٢ نوفمبر قبل اتخاذ مثل هذا القرار . وفى يوم ١٢ نوفمبر ١٩٥٤ صرّح منديس فرانس أثناء الاستجوابات الخاصة بالجزائر فى جلسة الجمعية الوطنية ، وبعد أن بسط الفارق بين موقف فرنسا من تونس والمغرب من ناحية وموقفها من الجزائر التى تعدّ جزءا من التراب الفرنسى من ناحية أخرى أنه ليس فى وسع أى حكومة فرنسية أن تقبل تمزيق الوحدة التى تربط بينهما مما يجعل حكومته عاقدة العزم على قمع أى مقاومة فى الجزائر إلى أن قال :

« إن بين أعمال الإرهاب فى الجزائر وفى تونس نقطة مشتركة هى التشجيع الذى

تتلقاه من الخارج والذى يبلغ أحيانا حد الإثارة ، وما من أحد هنا يشك فى القلق الشديد الذى يساورنا بسبب موقف الحكومة المصرية . فرغما عن مساعينا المتكررة استمرت إذاعات صوت العرب من القاهرة تحرّض الأهالى على الثورة والقتل . وقد ترتب على ذلك أن العلاقات بيننا وبين مصرباتت لا تدعوإلى الارتياح بصورة جدية ، وإن كان الخلاف بيننا ينحصر فى هذه المشكلة وحدها . وفى الوقت الذى تحاول فيه حكومتنا إيجاد حل كريم لمشاكل أفريقيا الشمالية تعمل الحكومة المصرية على تشجيع المتطرفين ، وهى بذلك تعرّض نتيجة أعمالنا للفشل أوعلى أقل تقدير تعوّقها . ولقد دأبت فرنسا فى علاقاتها مع مصرعلى اتخاذ موقف سليم منها إن لم يكن ودّيا ، فالصداقة التى تربطنا بها ترجع لمائة وخمسين عاما ، واتخذت مظاهر مشرقة فى الميدان الثقافى ، كما تعمل فرنسا فى المجالين العلمى والصناعى على مساعدة مصر، حتى لقد أوفدنا فى الصيف الماضى بعثة مالية فرنسية إلى مصر لدراسة ظروف توظيف رءوس أموال فرنسية فى مشرع أسوان . وقد حان الوقت الذى يتعين فيه على الحكومة المصرية أن تقدر مسئوليتها لأننا لن نتردد إذا استمرت على موقفها فى اتخاذ الإجراءات التى نعتبرها لازمة وناجعة . لكننا مازلنا نعتقد أنه من الممكن إزالة سوء التفاهم بمفاوضات صادقة نؤمّن بها مصالحنا المشتركة .

* * *

كانت فرنسا كما قدمتُ يتنازعها فريقان : التقدميون بزعامة منديس فرانس رئيس الوزراء والرجعيون بزعامة رينيه مايرنائب قسطنطينة بالجزائر ومدير بنك روتشيلد والناطق بلسان المستعمرين بشمال أفريقيا والمدافع عن أصحاب المصالح الاقتصادية فى فرنسا ومن كبار الرأسماليين الذين تحتويهم المائتا أسرة المسيطرة على رأس المال الفرنسى كله . ويدعّم هذا الفريق نشاط صهيونى واسع المدى تدبّر خططه السفارة الاسرائيلية وتحرك خيوطه شخصيات يهودية عالمية تهدف إلى تأليب الرأى العام الفرنسى ضد مصر .

وكانت سياسة منديس فرانس قائمة على إمكانية التفاهم والتفاوض مع العرب دون اللجوء إلى العنف ، غيرأن المستعمرين أصحاب المصالح الحقيقية كان لهم سند قوى داخل الجمعية الوطنية الفرنسية ، فانتهزوا فرصة الانتفاضات التى هبّت فى الجزائر حينذاك لإثارة الرأى العام الفرنسى ضد مصر وهجمات إذاعة صوت العرب ، والحق إن أثر الصحافة على الرأى العام كان بالغا حتى لقد

تلقى سفيرنا وقتئذ خطابىْ تهديد بالقتل . وانطلقت وسائل الإعلام والصحافة تحذّر من أن سياسة المهادنة والتساهل التى ينتهجها منديس فرانس قد أدت إلى الاستهانة بهيبة فرنسا ، وإلى اندلاع « الحركات الإرهابية لأول مرة بالجزائر، وأن رئيس الوزراء إنما يصفّى الاتحاد الفرنسى ، وأن الأوان قدحان لإحلال رجل قوى آخر محله » . كذلك أدّى كبار موظفى الدولة من رجال الصف الثانى وأغلبهم يشايع رينيه ماير وچورچ بيدو، دوراً كبيراً فى عرقلة جهود منديس فرانس وحجب كل مامن شأنه تيسير مهمته فى شمال أفريقيا .

وقد أبلغت القاهرة فى أكثر من رسالة بهذا الموقف ، مشيرا إلى أنه من الحكمة أن تقف مصر موقف المؤازرة لفريق التقدميين الساعى إلى حل قضايا الشمال الأفريقى عن طريق المفاوضات ما حَسُنت نياته وثبت على وعوده بتحقيق الأمانى القومية بتونس ومراكش ضد فريق الرجعيين الذى تحتضنه اسرائيل لمناهضة العرب . وإذا كنت لم أنصح بإيقاف إذاعة صوت العرب إلا أنى كنت دائم الإلحاح على ضرورة إسناد أمره إلى متخصّصين من الصفوة تدرك أبعاد كل كلمة تصدر عنها ومايترتب عليها من نتائج كانت تمسّ أحيانا مصالح وطنية هامة يأتى فى مقدمتها إمداد قواتنا المسلحة بالسلاح الذى كانت قيادة القوات المسلحة دائمة الإلحاح علىّ للعمل على ضمان وصوله . وهوما كان يضعنى فى مركز حرج حين أطالب بالسلاح فيطالبونى هم بوقف الهجوم الإعلامى على فرنسا .

وفى الثامن عشر من نوفمبر ١٩٥٤ أرسلت إلى جمال عبدالناصر رئيس مجلس الوزراء تصوّرى لما ينبغى أن تكون عليه برامج إذاعات صوت العرب بحيث يكون بثًا موضوعيا ينجح فى استقطاب العناصر المعتدلة من الفرنسيين الذين يأتى على رأسهم رئيس الوزراء الفرنسى نفسه . واقترحت لذلك فى البداية اقتراحين أساسيين : الأول هو إسناد مهمة توجيه الدعاية بالنسبة لقضايا الشمال الأفريقى إلى هيئة تضم عناصر من الخبراء المتخصصين فى الشئون الأفريقية دبلوماسيين وإعلاميين فضلا عن ممثل للقوات المسلحة لوزن الأمور والمصالح على أن تكون صلة رئيس هذه الهيئة برئيس مجلس الوزراء مباشرة . والاقتراح الثانى ألايخلو البثّ من تذكير الفرنسيين ببطولات المقاومة أثناء الاحتلال الألمانى الذى لم يكن العهد به قد بَعُد كثيراً ليستقر فى أذهانهم أن مايقوم به التونسيون والمراكشيون المطالبون

بتحرير بلادهم من الوصاية الفرنسية هو اهتداء بنهج الفرنسيين فى تعقّبهم للغزاة الألمان لتطهير بلادهم من الاحتلال الأجنبى . هذا إلى ضرورة الاهتمام بالمفكرين الفرنسيين المؤيدين للحركة الوطنية فى المغرب العربى وتقديم أحاديثهم وأفكارهم وتحركاتهم المؤيدة للعرب والإشادة الدائمة بهم ، فضلا عن تقديم الأبطال الوطنيين المغاربة المعروفين لدى الشعب الفرنسى من أمثال الأمير عبد الكريم الخطابى ليتحدث إلى الشعب الفرنسى عبر صوت العرب ، مع تذكير الفرنسيين بالدرس الذى تلقّوه فى الهند الصينية وبما يمكن أن تخسره فرنسا بعدائها للعرب لأنها تحارب فى الحقيقة أمة تقدر بأربعمائة مليون مسلم يقدسون الحرية وتضمّهم روابط الأخوة والعقيدة . وقد كان للجزائر وضع خاص دون سواها فى الاتحاد الفرنسى ، فبينما العلاقات بين فرنسا وكل من تونس ومراكش تضطلع بها عادة وزارة الخارجية الفرنسية إلى أن أفردت لها وزارة خاصة منذ تولى منديس فرانس الحكم ، تخضع العلاقات بين فرنسا والجزائر لوزارة الداخلية بوصفها دستوريا وقانونيا ودوليا جزءا من فرنسا لها نواب وشيوخ يمثلونها فى البرلمان الفرنسى لا فى « الاتحاد الفرنسى » كسائر الممتلكات الفرنسية و يتولى السلطة المدنية فيها مدنيون عاديون شأنها فى ذلك شأن مقاطعات فرنسا الأوربية . لهذا فقد اقترحت أن يطرح صوت العرب فكرة إجراء استفتاء للشعب فى الجزائر لتقرير حق مصيره بموجب نصوص حقوق الإنسان الواردة بميثاق الأمم المتحدة ، مع ضرورة اهتمام المشرفين على هذا الركن بالدراسة المستفيضة للدستور الفرنسى والتشريع الجزائرى واكتشاف نقاط الضعف والتناقض فيهما من ناحية الوضع القانونى فى الجزائر بمايتيح شنّ حملة موضوعية من هذا المنطلق لتكشف التعسف الذى تم به ضم هذه الأرض للدولة الفرنسية دون استشارة أهلها مع حرمانهم من الحقوق التى يتمتع بها الفرنسيون فى فرنسا الأم التى تعدّهم فى نفس الوقت من رعاياها المتساوين فى الحقوق والواجبات . كذلك طلبت الالتفات إلى أن فرنسا التى تعد الجزائر جزءا منها لم تتورع عن الإتيان على الثقافة العربية واللغة العربية التى هى لغة أهل الجزائر، وماذلك إلا بغية استئصال الجذور العربية من نفوس القوم واعتزازهم بوطنهم . وكم كنت أود أن يتساءل صوت العرب عن سر احتجاج فرنسا علينا حين ننقد الاستعمار الفرنسى بينما تلتزم الصمت أمام

إذاعات أخرى مثل صوت أمريكا والإذاعة البريطانية وإذاعات الكتلة الشيوعية وخاصة راديو بودابست .

وقد اهتم جمال عبدالناصر بهذه الرسالة اهتماما خاصا دفعه إلى أن يرسل إلىّ السيد عبدالقادر حاتم رئيس مصلحة الاستعلامات وقتذاك الذى شرحت له فى إسهاب وجهات النظر التى ضمّنتها رسالتى إلى رئيس الوزراء ، وأمضينا وقتا طويلا نبحث الوسائل والإجراءات الكفيلة بتحقيق ماكنت أرجو أن تسير عليه إذاعة صوت العرب فى قضايا الشمال الأفريقى .

ثم مالبث الرئيس عبدالناصر أن استدعانى إلى القاهرة ، وبعد أن عرضت عليه الموقف حمّلنى رسالة شفوية إلى الرئيس منديس فرانس الذى تحدد موعد لقائى به بمكتبه فى وزارة الخارجية فى السادس من ديسمبر ١٩٥٤ حيث قدمنى إليه السفير المصرى محمود صالح الفلكى كما تقضى به الأصول المرعية . وبدأت الحديث بالإشارة إلى التوتر الشديد الذى طرأ على العلاقات الفرنسية المصرية خلال الأسابيع القليلة الماضية ، موضحا أن جملة من الأصدقاء الفرنسيين والمصريين المؤمنين بأهمية التعاون التام بين بلدينا ، والذين يعرفون الصلة التى تربطنى بالرئيس عبدالناصر قد توقعوا منى أن أسهم بنصيب فى إزالة هذا التوتر، وهو ماوجدتنى مدفوعا للقيام به لإيمانى بفائدة المحافظة على الصداقة التقليدية بين الدولتين وبضرورة تنميتها ، ولإعجابى بشخصية منديس فرانس وطريقة تناوله للمشكلات الصعبة والمعقدة التى تواجهه منذ تولّيه رياسة الحكومة . ومن ثم اتصلت بالرئيس عبدالناصر لأقفه على وجهه نظرى فدعانى للقائه بمصر وعهد الىّ بنقل رسالة شخصية شفوية منه إلى الرئيس منديس فرانس هى مزيج من التحية والتقدير له واهتمامه بالتصريحات التى أدلى بها بشأن الشمال الأفريقى ، والتى يرى الرئيس عبدالناصر فيها نظرة جديدة لمشاكل شعوب هذه المنطقة وتمهيدا لعصر جديد ، وهو واثق أن إسراع الخُطى فى هذا السبيل لايمكن إلا أن يزيل أسباب سوء الفهم الحالى ، كما أنه قد قرر الاستجابة للرغبة التى نقلها له سفيرنا بإيقاف اللهجة العدائية العنيفة فى الإذاعة المصرية والتزامها بنقل المعلومات الموثوق بها والمناقشات الموضوعية الهادئة التى توفّر مناخا ملائما يمكن من خلاله التوصل إلى حلول مناسبة . ثم أبلغته أملَ الرئيس عبدالناصر فى تمكنه من وقف

إجراءات القمع العنيف فى شمال أفريقيا التى تثير بلاشك حفيظة الشعوب العربية والإسلامية فى أنحاء العالم ، فإن مواصلة هذه الاجراءات تعقّد الوصول إلى حلول ، كما أنها تزيد من الضغوط الواقعة على الرئيس عبدالناصر ليس فى مصر وحدها بل فى الدول العربية والإسلامية بالمثل . وأوضحت له أنه يأمل فى الوصول بالمفاوضات مع تونس إلى حل يكشف للعرب جميعا عن صدق نيته ، كما أنه يعتقد أن الطريق إلى ذلك قد يكون بعدم تغليب وجهات نظر الخبراء على الحس السياسى السديد الذى يتمتع به . وأضفت أن الرئيس يرغب فى أن يقوم بعمل مساعد فى قضية مراكش ، وذلك ببذل محاولة جادة لتوحيد مختلف فصائل وأحزاب المراكشيين وهى كثيرة العدد ، وأنه يأمل أن وجهة النظر التى يدخرها الرئيس منديس فرانس لقضية الجزائر ستمحو أسباب السخط وتوفر السلام والرخاء . وفى النهاية أكدت لرئيس الوزراء أن مسعى عبدالناصر هو مسعى تلقائى تحدوه رغبة صادقة فى التعاون مع فرنسا دون أن يكون هناك أى ضغط خارجى يدفعه إلى ذلك .

وقد استقبل منديس فرانس الرسالة استقبالا طيبا وعبّر عن شكره للرئيس عبدالناصر ، وعن الإعجاب بشجاعته فى معالجة الأمور وفى التغلب على المشاكل التى تصادفه ، ثم بدا سعيداً بتقدير الرئيس لسياسته و بقراره بتخفيف حملة إذاعة صوت العرب ، وأفاض فى شرح نهجه لمعالجة مشاكل تونس ومراكش والجزائر بروح تعترف بطبيعة العصر وحق الشعوب فى التطلع إلى مزيد من الحرية . وبعد أن أشاد بشخصية عبدالناصر التى دفعت بمصر إلى مكان الصدارة بين الدول العربية ودعمت مكانتها فى العالم الخارجى عبّر عن تشابه الدور الذى يقوم به فى فرنسا بالدور الذى يقوم به عبدالناصر فى مصر ، وهو ماجعله يطمع فى مزيد من التعاون والعمل المشترك ، ثم علّق على عبارة سياسة القمع العنيف التى وردت فى رسالة الرئيس بأنه قد أعلن هدنة فى تونس بمادفع المقاتلين إلى تسليم أسلحتهم فى طمأنينة كبيرة ، وأنه لم يطالب أحداً بالإدلاء باسمه ولم يحاسب أحداً على ماضيه ولم يسائله عما ينتوى فى المستقبل . كما أعلن عن عزمه على الإفراج التدريجى عن سجناء المقاتلين الجزائريين ، وكشف عن إفراجه عن الآلاف من المراكشيين الذين اعتقلتهم الشرطة دون محاكمة قانونية .

وقد قامت مصر بتعهدها فى تخفيف لهجة إذاعة صوت العرب ، غير أنها كانت هدنة مؤقتة ، فسرعان ما انكشف التعاون والتنسيق بين جهازى إذاعة باريس وإذاعة تل أبيب وانفضح الاتفاق السرى بينهما ، فعادت إذاعة صوت العرب تندّد بالسياسة الفرنسية فى الشمال الأفريقى وإن تجنّبت مهاجمة الشخصيات الفرنسية الرسمية . وتلقيت من القاهرة مايفيد أخذها بوجهة نظرى فى تعذر قيام مصر بالوساطة بين فرنسا ومراكش نظرا لحساسية هذه الخطوة ، وإن تُرك لى انتقاء اللحظة المناسبة لإعطاء القاهرة الإشارة لمعاودة المحاولة . ومع ذلك فقد كان علىّ وأنا فى موقعى بباريس أن أخفّف بعبارات المجاملة والحوار الهادىء وقع حملات إذاعة القاهرة كلما اشتدت وطأة الهجوم على السياسة الفرنسية ، إذ كان ينبغى ألا تغيب عن بالى مصالحنا العسكرية من حيث تزويدنا بالدبابات وأسلحة المدفعية ، والاقتصادية كمساهمة بنوكهم فى مشروع السد العالى وشرائهم القطن المصرى إلى غير ذلك .

* * *

وفى السابع من ديسمبر ١٩٥٤ اتصل بى دان أُفنى الملحق الصحفى بسفارة اسرائيل ملحّا فى مقابلتى لإبلاغى رسالة هامة فالتقيت به مصطحبا معى المستشار حسن ماهر من أعضاء السفارة بأحد مقاهى الشانزليزيه . وانصبّ حديثه على أن حوادث الاعتداءات المصرية على الحدود فى قطاع غزه قد زادت ، ثم تساءل إذا كان يمكن أن يفهم من ذلك تغييرا فى اتجاه الحكومة المصرية نحو اسرائيل . ومع أننى صارحته بأنى لا أحتل منصبا يخوّلنى الرد على مثل هذا السؤال فهذه سياسة عليا لاشأن لى بها ، فقد سألنى عن رأيى الشخصى فقلت له : إن وقوع الحوادث على الحدود المشتركة أمر عادى ، وقد سبق لكم الاعتداء على حدودنا وحدود المملكة الأردنية ، فإن حدث من جانبنا شىء مافثمة لجنة دولية للهدنة يمكن الاحتكام إليها فى مثل هذه الأحوال .

وقد أدركت على الفور أن هذه المقدمة ليست بيت القصيد وإذا هو يستطرد قائلا « إن الحكومة الاسرائيلية لاتبغى أن تضيف متاعب جديدة إلى المتاعب الحالية التى تواجهها الحكومة المصرية . ولذلك نأمل أن تتخذ الحكومة المصرية من الاجراءات داخليا وخارجيا مايساعد حكومة اسرائيل على المضى فى سياسة التهدئة التى تنتهجها » . ولما سألته عما يقصد بالاجراءات الداخلية ، فسّرها بمعاملة

العناصر اليهودية فى مصر معاملة عادلة ، فتساءلت عما إذا كان قد وصل إلى سمعه تصريح حاخام اليهود فى مصر الذى أعلن فيه ارتياحه هو والجالية اليهودية فى مصر للمعاملة السمحة التى يعاملون بها ، وهو دليل على أن مايتخوّف منه غيرذى موضوع ، ثم أضفت : أما اذا كنت ترمى إلى قضية معينة بالذات وهو ماتحوم حوله ، فهذه القضية مطروحة الآن بين يدى العدالة ولاسلطان لأحد على القضاء ، فلندعها تأخذ مجراها [وكنت أقصد طبعا قضية المخرّبين الاسرائيليين الذين تم القبض عليهم فى مصر متلبّسين] . فقال وقد أسقط فى يده : لاجدال فى أن العدالة ينبغى أن تأخذ مجراها ، غير أن الحكومة الاسرائيلية تأمل أن تسير العدالة وفقا للمبادىء الإنسانية الدولية كما تتمشى مع حالة « السلام » القائم .

ولم تكن هذه المقابلة إلا حلقة من حلقات الضغط التى كان يمارسها الإسرائيليون وقتذاك للحيلولة دون صدور حكم الإعدام المتوقع ضد بعض المتهمين فى قضية الجواسيس الاسرائيليين . وقد كتبت إلى القاهرة فى الثامن من ديسمبر ١٩٥٤ أبلغها بما دار من حديث وأوصى بعدم الرضوخ للتهديد أو الضغوط الخارجية ووضع الرأى العام الداخلى فى الاعتبار الأول والأخير . وعلقت على هذا التهديد بما استنتجته من عزم اسرائيل على القيام فى وقت قريب باعتداءات محسوبة على حدودنا وهو مايتطلب الاستعداد لصدّ العدوان المرتقب بحزم [قامت اسرائيل بغارتها على غزة فى فبراير ١٩٥٥] ، كما أشرت إلى أن اسرائيل ستعبىء كل قواها لتأليب الرأى العام العالمى ضدنا مثلما فعلت عند تنفيذ الحكم الصادر على روزنبرج وزوجته اللذين اتهما بالجاسوسية فى الولايات المتحدة الأمريكية . وتوقعت الاعتداء على قوارب الصيد المصرية وأوصيت بحراستها بقطع من الأسطول البحرى . كما خالجنى إحساس بأن اسرائيل قد تلفّق قضية جاسوسية لبعض العرب المقيمين فى اسرئيل .

* * *

وفى أول ديسمبر ١٩٥٥ تشكّلت حكومة جديدة برئاسة إدجار فور بعد أن فشل منديس فرانس فى الحصول على ثقة الأغلبية فى الجمعية الوطنية . وظلت مشكلة الشمال الأفريقى هى شاغل الحياة السياسية فى فرنسا . ومضت الحكومة فى

التباحث مع جناح المحافظين اليمينيين بالجمعية الوطنية وخاصة مع المارشال « چوان » بقصد تطهير الإدارة الفرنسية فى مراكش من غلاة الاستعمار يين ، غير أن الجناح اليمينى لم يقف مكتوف الأيدى حيال إبعاد الإدار يين الفرنسيين الممالئين له والذين يعمل بنصحهم كل حاكم عام فى المغرب ، فوقف حجر عثرة فى سبيل إقصائهم عن مناصبهم ، ومن ثم أخذت الحكومة الفرنسية تتعثر فيما بدأته من إصلاحات فى المغرب ، كان أولها تعيين « جرانڤال » ـــ وهو ألزاسى يهودى اسمه الأصلى هيرش أونندورف ـــ مقيما عاما ظنا منها أنه رجلها المخلص . و بالرغم من أن هذا الحاكم الجديد كان يحظى بتعضيد ديجول ومنديس فرانس إلا أنه كان فى واقع الأمر من أذناب المارشال چوان .

وعرض جرانڤال خطة جديدة اتفق عليها مع سفير الولايات المتحدة بفرنسا ، تقضى بأن تتخلى فرنسا عن الإدارة المباشرة بمراكش على أن تستعين بقوات الحلف الأطلسى لضرب الحركة الوطنية ، غير أن المارشال چوان مالبث هو وفر يقه أن عارضوا هذه الخطة بشدة . وكان إدجار فور واضحا فى معارضته لعودة السلطان محمد بن يوسف إلى عرشه اعتقادا منه أن ذلك سيضعف من هيبة فرنسا و يقوّى من شأن حزب الاستقلال ، فطرح فكرة خلق مجلس وصاية خاضع لفرنسا وحاول أن يستميل لها بعض الهيآت المغربية غير المتطرفة والتى لا تذهب فى مطالبها إلى حد الاستقلال التام . وكان أن تصدّى المارشال چوان لهذا النمط من الإصلاحات ، إذ هو ـــ كما قدمت ـــ وثيق الصلة بكبار أر باب الأعمال فى أفر يقيا الشمالية و بأوساط الجيش ، فأعرب جهرا عن معارضته بمقاطعة جلسات لجنة تنسيق شئون شمال أفر يقيا ، وأنذر رئيس الوزراء بعدم موافقته على أية تنقلات بين رجال الإدارة بالمغرب ، وبمناهضته لأى إصلاح مثل إنشاء مجلس الوصاية الذى تقترحه الحكومة مطالبا قبل الاشتراك فى المناقشة البرلمانية حول الموقف فى شمال أفر يقيا بما يؤكد أن السلطان محمد بن يوسف لن يستبدل بالسلطان محمد بن عرفه . وكان أن تكتّل من ورائه ـــ حتى فى هذه الخطوة الإصلاحية المتواضعة ـــ جميع الاستعمار يين ، وإذا بالمقيم العام « جرانڤال » يعلن أثناء اجتماع عقده رجال الأعمال ممن يشكّلون الحلقة الاستعمار ية بمراكش أنه مستعد للتصرف فى الشئون المراكشية حسبما يحلولهم سواء رضيت الحكومة عن

تصرفاته أم لم ترض ، وقد كان هذا هو سلوك كل حاكم أسندت إليه أمور المغرب . ولم يكن إدجار فور بطبيعة الحال مستعدا لأن يعرّض نفسه بسبب قضايا الشمال الأفريقي لماتعرّض له سلفه منديس فرانس ، ولذا كان عليه أن يحسب حساب المارشال چوان ولايُقْدم على أية خطوة قبل أن ينال موافقته و يعطيه الضمانات التي يبتغيها . وأخذ المستعمرون يطالبون بتطبيق نفس أسلوب القمع المتبع بالجزائر فى المغرب ، إلا أن رئيس الوزراء ظل مترددا خشية إندلاع الحرب الأهلية فى الشمال الأفريقى بأسره .

* * *

فى صيف عام ١٩٥٥ طلب إلىّ جمال عبدالناصر الحضور إلى مصر لألقاه ، وظننت أن الأمر هام فوصلت القاهرة عجلا حيث لقيته فأخذ يشرح لى الأوضاع فى سلاح الفرسان وحاجته الشديدة إلى قائد جديد يعهد إليه به لأهمية هذا السلاح ، ووجدته يعرض علىّ تسلّم هذا المنصب مع منحى ترقية استثنائية . وكانت هذه مفاجأة لى ، ومع ذلك فلم أتردّد فى الاعتذار لأنى كنت أعرف أن خيرة ضباط سلاح الفرسان الذين أدّوا دوراً حاسما فى تنظيم الضباط الأحرار وفى المشاركة فى أحداث الثورة ليلة ٢٣ يوليه قد أودعوا السجن . ولم أر ما يحملنى على أن أتولى قيادة مجموعة أخرى من ضباط ليست لى بهم تلك الصلات التى كانت تربطنى بمن قبلهم . وقد سألته بعدها : أوَلم تكن أنت الذى اخترتنى لأكون ملحقا عسكريا دون أن أطلب ذلك أو أسعى إليه ؟ قال : بلى . فأحببت أن أعرف رأيه فيما أقوم من عمل فإذا هو لا يتلبّث فى أن يشيد بما حقّقت . قلت : إذن فلأبق مكانى . وأرضته هذه الإجابة فسكت . وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث وكنت قد عزمت على أن أعاتبه فإذا هو يسبقنى ويقول إنه عاتبٌ علىّ . فلم أتركه يُكمل حديثه وتساءلت : من منا يعاتب الآخر ؟ أنسيت أنك وعبدالحكيم أغفلتما توديعى ولو بمكالمة تليفونية لحظة خروجى من مصر إلى سويسرا ، وأحسست أنى مغضوب علىّ دون ذنب أو جريرة ، ففيم عتابك أنت ؟ .

وكنت عندما طالعتنى الصحف فى مارس ١٩٥٤ عربية وأجنبية وأنا فى باريس بخبر تعيين خالد محيى الدين رئيسا للحكومة فى أعقاب أحداث سلاح الفرسان قد اتصلت به توا أهنئه أولا على تقلّده هذا المنصب راجيا له التوفيق فى

مهامه التي اضطلع بها . وكنت لمعرفتي الوطيدة بخالد أومن بأنه سيكون عند حسن ظن الناس به ، فلقد عهدته كما عهده غيرى مؤمنا بقضية الديمقراطية . وكان مما جرى على لساني وأنا أكلمه عبارات تنطوى على تطرف فى الحماس بألايسمح لمن تساوره نفسه بالانتكاص . ولقد أحسّ خالد ما فى عباراتى من غلوّ يكاد يسىء إلى الآخرين ، وما أحبَّ خالد لى أن أتورّط بأكثر مما قلت فأخذ ينصت دون أن ينبس بكلمة وكأنه بهذا يحذّرنى من الاسترسال ، ولازال هذا الذى دار بيننا تليفونيا نتداوله أحيانا ونحن نسترجع الذكريات . وما أظن جمال عبدالناصر كان بعيداً عن هذا الحديث الذى دار بينى وبين خالد تليفونيا ، ودليل هذا أنه أخذ يعاتبنى فى هذا اللقاء . غير أنى ذُهلت حين رأيته يعاتبنى كذلك على استقبالى لأخى خالد محيى الدين عند وصوله إلى مطار باريس وحفاوتى به عند خروجه مُبْعداً بعد أزمة مارس ١٩٥٤ ، ولم أملك الا أن قلت له : تصوّريا أخى لو أن خالد قد تسلّم السلطة فعلا تنفيذا لقرار مجلس الثورة يوم ٢٧ فبراير ١٩٥٤ ، وأنك أنت الذى أتيت إلى باريس مُبْعداً بدلا منه ، هل كنت تتصور إننى أستطيع إلا أن أهرع إليك وأستقبلك وأحتفى بك بنفس الحب والمودّة ؟

فشاعت ابتسامة عريضة على وجهه وقال : لقد غلبت حجّتك حجّتى .

* * *

وما لبثت انتخابات ٢ يناير ١٩٥٦ أن أسفرت عن فوز الحزب الاشتراكى وتشكّلت الحكومة الجديدة برئاسة جى موليه . وكانت آمال الشعب الفرنسى معقودة عليها للخلاص من مشاكل الشمال الأفريقى ، لاسيما أن دعاية الحزب كانت قائمة على التنديد بالحرب فى الجزائر . وكان الحزب الاشتراكى يتمتع بالأغلبية البرلمانية فى الجمعية الوطنية ، ومن ثم أصبحت يده أكثر انطلاقا من غيره من أحزاب الائتلاف . على أن الصحافة وأجهزة الإذاعة والتلفزيون دأبت على شن حملاتها على مصر فى نفس الوقف الذى أخذت الحكومة فيه تستجيب لمطالب اسرائيل بتزويدها بطائرات المستير الحربية . وبعد مرور أكثر من شهرين على تولى الحكومة الاشتراكية السلطة أبلغنى النائب الراديكالى چورچ شاسينْى برغبة المسيو پيير كومان Commin نائب السكرتير العام للحزب الاشتراكى SFIO وعضو مجلس الشيوخ فى لقائى . وكان من الطبيعى أن يتطرق الحديث إلى الموقف

السياسى فى الشرق الأوسط وإلى السياسة الفرنسية فى الشمال الأفريقى . ولم أستطع أن أمنع نفسى من أن أعبر له عن دهشتى البالغة من تنكر الحزب الاشتراكى للمبادىء التى نادى بها قبل الانتخابات لوضع حد للحرب فى الجزائر وتحقيق الحل السلمى لمشكلتها ، فلم ينكر وجود عدد من أعضاء الحكومة الحالية من الموالين لاسرائيل وإن أكد أنهم بعيدون عن التأثير فى مجرى السياسة الخارجية الفرنسية ، كما اعترف بوجود بعض السياسيين الراغبين رغبة أكيدة فى مساعدة اسرائيل والذين يضمرون هدفا بعيداً هو إشعال نار حرب صليبية ضد مصر ، وأنهم لاينفكون يرددون أن السياسة العملية التى ينبغى اتباعها فى مواجهة مصر هى سياسة القوة ، بينما يمضى غلاة المتطرفين إلى أبعد من ذلك مطالبين بتسليح اسرائيل وتشجيعها على محاربة مصر والدول العربية حتى تستنزف جهودهم ، وبهذا تتخلص فرنسا نهائيا من التدخل المصرى فى الشمال الأفريقى . وعلى رأس المنادين بهذا الحل الأخير چاك سوستيل المقيم العام السابق بالجزائر الذى يعضده رأس مال ضخم جمعه المستعمرون ، وقوة إعلامية جبارة وضعها الصهاينة تحت يده . وعلق محدثى على المنحى الأخير بأنه أسوأ الحلول فى نظر الحزب الاشتراكى الحاكم ، وأن الحكومة الحالية راغبة فى تحقيق صداقة فعلية مع مصر على أساس من التكافؤ، ولاسيما وأن فرنسا تشارك مصر رأيها فى معاداتها لحلف بغداد ، ثم إن الحكومة الفرنسية أخطرت اسرائيل بألا تتوقع مساعدتها إذا أشعلت الحرب .

فأثارنى هذا القول ودفعنى إلى أن ألفت نظره إلى طائرات المستير التى تزوّد بها فرنسا اسرائيل ، فكاشفنى باستعدادهم لتزويدنا بما نريد منها ورجانى أن أعدّ هذا وعدا رسميا ، وبأن تسليح اسرائيل يتم تنفيذا لعقود قديمة من الحكومات السابقة لامفر من تنفيذها . ثم عاد محدثى ثانية إلى موضوع الجزائر ليقول :

« إن الظروف تملى علينا سياسة عملية واقعية ، وفى نفس الوقت نحن نؤمن بالتدرج وبالسياسة المدروسة . كما أن علينا ألا نغفل عن الأخطار البالغة التى يهددنا بها سوستيل وسياسته الرجعية المتطرفة . فهناك عدد من الجزائريين الفرنسيين يفكرون فى الاستقلال التام بالجزائر عن فرنسا ، تؤازرهم فى ذلك الولايات المتحدة الأمريكية . وتعتقد هذه الزمرة أن بوسعها بلوغ هدفها عن طريق الحرب الأهلية ، بينما نحن نريد مفاوضات حرة مع ممثلين حقيقيين للثوار، كما نريد خلق ظروف تسمح

بإجراء انتخابات حرة . نحن نطلب إلى الثوار مناقشتنا ولانطلب إليهم التسليم أوإلقاء سلاحهم مع إعطائهم الضمان بحماية أشخاصهم وممتلكاتهم والعفوالعام عنهم . أما عن الأوربيين الجزائريين ، فقد عقدنا العزم على اعتقال زعماء الحركة الفاشية بالجزائر، وأستطيع التأكيد بأن عددهم ليس كبيرا ، وأن الأغلبية العظمى من الأوربيين الجزائريين يشاركوننا رأينا . ثم إن السلطات الاستثنائية التى حصلنا عليها تتيح لنا شلّ حركة المعارضين الفرنسيين وإسكات صحافتهم . ولما كانت الإدارة فى الجزائر فى صف المستعمرين « الكولون » فقد شرعنا فى التخلص من بعضهم منذ الآن . ولقد قرّ قرارنا على أن نعرض على « الجمعية الوطنية » قريبا مشروع القانون الخاص « بالمجلس الموحّد » مع إجراء انتخابات حُرّة والسماح بحرية القول والتعبير لمن سيمثلون الشعب الجزائرى الذين سيكوّنون الأغلبية بلانزاع . ولقد كان قبول مبدأ « المجلس الموحّد » من جانبنا خطوة كبرى ، خاصة إذا ماعلمت مقدار الضغط الرجعى الواقع علينا . وعندها يمكن لممثلى الجزائر أن يتقدموا من خلال المجلس ببرنامج مدروس للاستقلال . وأستطيع أن أؤكد أنكم لن تجدوا فى فرنسا حكومة أخرى مستعدة إلى الذهاب إلى ما اعتزمنا الذهاب إليه ، فإذا سقطت هذه الحكومة الإشتراكية فلن تخلفنا إلا حكومة راديكالية يمينية . والأمر الأخير الذى أود أن ألفت إليه أنظاركم هو مراعاة عامل الوقت ، فكل يوم يمرّ يقوّى من مركز سوستيل والعسكريين والدعاية الصهيونية ويزيد الحقد والضغينة بين الطرفين . وأنا على أتم استعداد للانتقال إلى أى مكان تحددونه لمناقشة من ينتدبهم الثوار، وذلك قصد الوصول إلى حل سلمىّ سريع » .

وقد بادرت بإرسال برقية شفريّة فى نفس اليوم إلى القاهرة أوجزت فيها هذه المبادرة الفرنسية الرسمية طالبا عرضها على الرئيس عبدالناصر شخصيا ، وشفعتها بتقرير إلى الرئيس أوضح فيه العناصر الأساسية التى تدفعنى إلى تأييد هذه المبادرة مما أتيح لى أن ألتقطه من وسائل الإعلام والصحافة ومن لقاءاتى برجال الفكر والسياسة فى فرنسا . وقد تضمن تقريرى هذا توضيحا لماتقوم به أجهزة الإعلام الفرنسية إذاعة وصحافة من حملة ضارية ضد مصر متهمة قادتها بأنهم هم الذين يسعون للسيطرة على شمال أفريقيا منتهكين بذلك حقوق فرنسا التاريخية ومهدرين دماء أبنائها القاطنين على أرض الجزائر، وقيام فرنسا بجهد كبير من أجل اجتذاب بريطانيا وأمريكا إلى مساندتها عسكريا فى حربها بالجزائر، ووضعها ذلك المخطط الماكر لمنح الاستقلال لكل من تونس ومراكش للتفرغ التام

لضرب ثورة الجزائر، بالإضافة إلى ذلك التهديد المبطّن الذى يلوّح به بعض المسئولين الرسميين باحتمال توقف فرنسا عن شراء القطن المصرى طو يل التيلة بما قد يلحق بالاقتصاد المصرى خسارة فادحة .

* * *

وكان لى فى بار يس زميل كريم هو اللواء على أبو نوار الملحق العسكرى الأردنى ، عرفت فيه الرجولة والشهامة وحب الوطن والتفانى فى هذا الحب . وكان من الطبيعى بعد تلك الصلة التى انعقدت بينى و بينه أن نتجاذب أطراف الحديث عن الوطن العربى عامة و وطنينا خاصة ، أعنى مصر والأردن ، وكذا عن ذلك الخطر الجاثم فوق صدورنا ، أعنى اسرائيل . وإذا هو ذات يوم فى مستهل عام ١٩٥٥ يُنهى إلى أن جلالة الملك حسين فى بار يس وأنه ير يد أن يلقانى وصحبنى إليه حيث لقيناه بفندق رافائيل . وحين استقر بنا المقام دار الحديث حول الموقف الاستراتيجى للدول العربية وعن موقف الاستعمار البر يطانى فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، وتطرق الحديث أيضا إلى ماكان يجول فى خواطرنا جميعا من أثر قيادة الجنرال جلوب للقوات الأردنية فى هزيمة العرب فى حربهم الأولى مع الصهاينة وسياسته العسكر ية المعوّقة التى تحول دون المضىّ فى الأمور قُدُما . وقبل أن أمضى راجعا دعانا الملك لتناول الغداء معه بمطعم « لُودوايّان » مع الغد ، وكان لاشك ير يد أن يتم الحديث الذى بدأناه ، وحين التقينا ثانية أحسستُ فيه حماسا متدفقا لاأكاد أجد مايسعفنى فى وصفه .

وتمضى الأيام وإذا على أبونوار يُفضى إلىّ أنه معتزم الخلاص من القيادة البر يطانية فى الأردن وتحر ير وطنه من ربقة السيطرة الاستعمار ية ، كما صارحنى بأنه يقضى فى بار يس فترة إبعاد عن الوطن أراده له الجنرال جلوب ، وكان هذا العزم منه مما أثار حماستى . واذا أنا بعد هذا أشد إعجابا به حين كاشفنى بأنه قد بسط ماقد عقد العزم عليه لجلالة الملك حسين ونال منه موافقته وتأييده . وحين سألته هل أعددت لهذه الخطة الجسورة عُدّتها أجابنى فى ثقة تامة أنه درس الموقف من جميع تفاصيله وأنه مطمئن كل الاطمئنان لنجاح خطته . وودتُ لوأن مصر مدّت يد العون لتلك المبادرة إذ المصلحة مشتركة ، وكان هذا يقتضى أن يكون ثمة

لقاء بين على أبونوار وجمال عبدالناصر ، وأخذت بدورى أدبّر لهذا اللقاء ، وقد رحّب عبدالناصر بهذا اللقاء وحدّد له موعدا . وما إن علمت هذا حتى فاتحت أخى على أبونوار بأن عبدالناصر على استعداد للقائه فإذا هو الآخر يخفق للقاء عبدالناصر سرّا بالقاهرة . ودار بينهما فى هذا اللقاء حديث طويل عرض فيه أبونوار على عبدالناصر رأيه بأن تكون مصر على استعداد للحيلولة بين اسرائيل و بين اعتداء على الأردن أوعلى الأقل أن تكون مستعدة لعون الجيش الأردنى وذلك بتحرك قوات من الجيش المصرى فى سيناء بعد طرد جلوب والقيادة البر يطانية . غير أن عبدالناصر رأى التريّث حتى جلاء القوات البر يطانية عن قاعدة قناة السو يس وإلا سوف تكون العواقب وخيمة على القوات المصر ية إذا هى تصدّت فى هذه المرحلة للجيش البر يطانى ، وقد لايضمن تدخل العراق الذى كان عندها تحت حكم نورى السعيد وميوله البر يطانية معروفة ، وطلب عبد الناصر إليه أن يرجىء هذه الخطة إلى حين .

وقد أرسل الىّ عبدالناصر رسالة برقية عن تفاصيل هذه المقابلة ، وحين التقيت بعلى أبونوار بعد أن عاد إلى بار يس عرف أنى على علم بما كان بينه و بين عبدالناصر، وإذا هو يفاتحنى بأنه خرج من هذا اللقاء أثقل همًّا مما كان قبلُ . وأردت أن أروّح عنه فنصحته أن يعير حديث عبدالناصر إليه شيئا من الاهتمام فما لاشك فيه أن عبدالناصر أدرى بالعواقب كما أن له نظرة عامة شاملة تزن العوامل والظروف المحيطة ، فإذا هو يجيبنى أنه مع عبدالناصر رأيا لاقلبا وأنه ماض فيما اعتزم ، ثم رجانى أن يكون هذا بينى و بينه سرّا لايُذاع ، وقد بررتُ له بوعدى .

ومالبث على أبونوار أن ترك بار يس إلى وطنه الأردن ، وهناك زاره الملحق العسكرى المصرى وسأله عما ينتو يه ، لكنه لم يبح له بشىء . وإذا عبدالناصر بعدها يُفاجأ بطرد الأردن للجنرال جلوب القائد العسكرى البر يطانى فى ٢٩ فبراير ١٩٥٦ ، وهو وإن لم يحط علما بهذا الموعد إلا أنه كان قد سبق له العلم بأنه سيُطرد . ومما لاشك فيه أن طرد هذا القائد كان عملا من الأعمال الوطنية الرائعة التى أزاحت عن كاهل الأردن النفوذ البر يطانى المتسلّط . وكانت مصر وسور يا والسعودية قد وعدت الأردن بدفع المعونة المالية التى كانت تتلقاها من بر يطانيا وقدرها ١٢ مليون دينار حتى يمكنها أن تمضى فى سياسة عر بية مستقلة . غير أن

مصر ؛ تستطيع توفير ماتخصها من العملة الصعبه خلال شهر أبريل ١٩٥٧ الذى ينتهى معه التزام بريطانيا ، وكذا طلبت سوريا التأجيل بضع شهور ، وإذا أمريكا والسعودية يتوحدان بتقديم هذه المعونة نظير قبول الأردن لمبدأ أيزنهاور ، فأصبح موقف على أبونوار قائدا للجيش حرجاً إزاء تخلّف الدول العربية عن دفع المعونة فى الوقت المناسب واضطر إلى الاستقالة ومغادرة وطنه .

* * *

وبينما كانت الأيام تمرّ دون ردّ واضح على المبادرة السلمية المعروضة علينا كانت الأحداث السياسية الداخلية والخارجية فى فرنسا تضيّق الخناق على الحكومة الاشتراكية حتى بات مركزها بالغ الحرج ، وتأزّمت مشكلة الجزائر بعد أن أخذت الأوساط الغربية تحثّ الحكومة الفرنسية على اتباع سياسة الكبت والقهر. فقد أدلى سفير الولايات المتحدة بفرنسا بتصريح يؤكد فيه تأييد حكومته للسياسة الفرنسية بالجزائر، وتلاه المتحدث الرسمى باسم الحكومة البريطانية ليعلن أن بلاده على اتفاق تام مع السياسة الفرنسية القاضية بضرب الحركات « الإرهابية » فى الجزائر ! وكانت بريطانيا قد تلقّت لطمة تنحية الجنرال جون جلوب عن قيادة الجيش العربى فى الأردن ، ثم إذا بها تضيق ذرعا بتلك الحركة التى تتزعمها مصر لمناهضة الأحلاف العسكرية ولإسقاط حلف بغداد ، وبما كانت تنتهجه مصر من نشاط سياسى يدعو إلى الحياد والتحرر، هذا إلى ماارتكبته — فى تصوّرها — من خروج على قيد التبعية فى أمور التسليح بعقدها صفقة الأسلحة الشهيرة مع تشيكوسلوفاكيا . وفى سبيل معرفة ردّ مصر النهائى على المبادرة الفرنسية قام كريستيان پينو وزير الخارجية الفرنسية فى شهر مارس بزيارة قصيرة لمصر لم تستغرق غير يوم واحد ناشد فيها الرئيس عبدالناصر مساعدة فرنسا فى وضع حد لحرب الجزائر بوصفه على حد قوله « الأخ الأكبر» لهؤلاء الثوار دون أن يظفر بنتيجة حاسمة .

ومالبثت الأحزاب اليمينية الفرنسية التى تركت الحكم أن بدأت تتوجس خيفة من سياسة الحكومة الاشتراكية اليسارية فأخذت تضع فى سبيلها العراقيل للحيلولة بينها وبين الوصول إلى الالتقاء ولو من بعيد مع مطالب الثوار الجزائريين ، تؤيدها القوى العسكرية الرجعية . وأخذت تحاصر الحكومة الاشتراكية داخل مشكلة الجزائر حتى لايتسنى لها التفرغ لتناول المشاكل الاقتصادية الداخلية وفق البرنامج الاشتراكى الذى يهدد مصالحهم الرأسمالية ،

فسلّطوا الصحافة التى تسيطر عليها القوى الاستعمارية والصهيونية لاستفزاز الحكومة وشل حركتها ، كما سخّروا الإذاعة والتلفزيون بشكل ملفت لبثّ أفكارهم ووجهة نظرهم للتأثير على الرأى العام الفرنسى . وتسللت معلومات أكيدة تفيد أن الجيش الفرنسى بزعامة المارشال چوان يدبر انقلابا يبعد به الحكومة الاشتراكية و يستبدل بها أخرى رجعية . وأمام هذا كله لجأت الحكومة إلى الجمعية الوطنية مطالبة بسلطات استثنائية تدعم بها مركزها المتأرجح وتحول دون مايمكن أن يدبره الرجعيون ضدّها ، لاسيا بعد أن أعلن جى موليه ووزير خارجيته كريستان پينو عن عزمهما زيارة موسكو، وهو ما ألهب شعور الأحزاب اليمينية ضد الحكومة التى أحاطت نفسها بسياج من السلطات الاستثنائية ، كما لم يتردد الحزب الشيوعى الفرنسى الذى يتمتع بعدد كبير من الأصوات فى الجمعية الوطنية من التصويت لصالح الحكومة ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فأطلق مظاهرات شعبية تؤيد حكومة جى موليه الاشتراكية . ونجح اليمينيون فى تحريك منديس فرانس وهو الراديكالى المبدأ إلى اختلاق الأزمات لإحراج الحكومة ظانا إمكان عودته إلى رئاسة الوزارة إذا ماسقطت حكومة جى موليه غافلا عن أن أحزاب اليمين لن تسمح له بالعودة التى قد تتيح له إنهاء مشكلة الجزائر على نحو ما أنهى مشكلة تونس .

على أية حال نجح الرجعيون الذين لايؤمنون بغير الحرب فى التأثير على الرأى العام إذ صوّروا له مشكلة الجزائر على أنها قضية وطنية تستدعى من كل مواطن فرنسى التضحية بحياته فى سبيلها ، وأصدروا صحيفة « الطان ده پارى » Temps de Paris ابتداء من ١٧ أبريل ١٩٥٦ برأس مال ضخم لتساند حركة القمع ضد ثوار الجزائر.

وأمام هذه الظروف أخذت حكومة جى موليه تتراجع شيئا فشيئا عن الخط التقدمى الذى بشّرت به قبل الانتخابات راضخة للضغوط الرجعية التى جعلتها تجد نفسها ــ برغم كل ماتتمتع به من سلطات ــ لاحول لها ولاقوة أمام سلطان القوى الرجعية الطاغى وقدرتها على التلاعب بأفئدة الرأى العام كما يحلو لها . وعُقد مؤتمر الحزب الاشتراكى بمدينة ليل فى ٢٩ يونيه ، فإذا بجى موليه يكشف عن

دخيلة نفسه ويجهر بفزعه مما تسعي إليه الدول الإسلامية من وحدة ، مدعيا أن :
« خطر التحالف بين دول الكتلة العربية لايقل خطرا عن تحالف دول الكتلة الجرمانية أوالصقلبية ، وأن الشعب المصرى — وهو من الشعوب المحببة إلى النفس على الرغم مما يعانيه من بؤس — يعمل على تزعم كتلة جبارة من مئات الملايين من المسلمين ، وكل هذا حبّا فى العظمة » ، ثم يتهم الرئيس عبدالناصر بأنه يسعى إلى أن يكون بطل هذه الوحدة .

ولم يكن خافيا علىّ أن الثورة المصرية تزوّد الثورة الجزائرية بالكثير من السلاح والعون إلى جانب الدعم السياسى والمعنوى الهام للثورة الجزائرية بقدر ماهو هام لثقل مصر فى العالم العربى . غير أن هذه المبادرة الفرنسية للتفاوض مع الجزائريين كانت تحمل من الإغراء مايجعلنا نأمل فى تمكين الثورة الجزائرية من تحقيق الجانب الأكبر من أمانيها بالمفاوضات السلمية وتدعيم موقف مصر السياسى فى مواجهة اسرائيل ، العدو الرئيس للعرب والذى نؤمن جميعا أنه لامفر لنا من مواجهته فى معركة حاسمة هى معركة الموت أو الحياة ، وأنه كلما أمكننا حرمانه من منابع قوته وإبعاده عن حلفائه الذين يشدّون أزره كلما تسنّى لنا تحجيم قوته . ولاشك أن فرنسا لم تكن لتقدم على تزويد إسرائيل بالأسلحة فى ظل قيامنا بوساطة بينها وبين قادة الثورة الجزائرية فى مفاوضات من شأنها رفع عبء الحرب الجزائرية الثقيل عن كاهل فرنسا حكومة وشعبا .

على أنى أمضيت وقتا طويلا فى انتظار ردّ من القاهرة إلى أن استدعانى الرئيس عبدالناصر خلال شهر مايو للقاء معه ومع معاونيه لتدارس هذا الأمر من كل نواحيه . وفى هذا اللقاء عرفت مالم يكن يتاح لى معرفته فى باريس من النجاحات الكبيرة التى كان يحققها جيش التحرير الجزائرى . غير أن معرفتى بهذا زادتنى اقتناعا بصدق رغبة الحكومة الاشتراكية فى مفاوضة الثوار الجزائريين وفى ضرورة قيامنا بالوساطة لهذه المفاوضات ، بل لقد كاشفنى الرئيس عبدالناصر بانقسام أعضاء مجلس قيادة الثورة حول مبادرة المفاوضات التى كنت قد بعثت بها إليه . وقد كان رأيه هو الوصول إلى تحرير الجزائر الكامل بأقل الخسائر الممكنة ، غير أن جهاز شئون الشمال الأفريقى بالمخابرات العامة وعلى رأسه السيدان فتحى الديب ومعاونه عزت سليمان كان لايثق بجدية عروض الحكومة الاشتراكية ، كما

كان يؤمن بأن مواصلة المعارك أجدى من بدء المفاوضات . وانتصر هذا الرأى واستغل الصهاينة إحجامنا عن التوسّط لدى ثوار الجزائر بالتفاوض مع فرنسا فرصة مواتية للصيد فى الماء العكر ضد مصر .

وفى هذه الأثناء كانت اسرائيل قد أدركت فشلها فى تأمين نفسها باستخدام استراتيجية الغارات الانتقامية التى شنّتها على غزة وخان يونس ثم العوجة والكونتيلة وخاصة بعد ما كان من مصر من تنظيم لحركة الفدائيين لكى ترد بها على تلك الغارات ، فضلا عن هياجها فى أعقاب عقد مصر لصفقة السلاح مع الكتلة السوفييتية . ولعل هذا وذاك هو ما جرّ اسرائيل إلى الانتقال إلى استراتيچية شنّ حرب وقائية ، غير أنها كانت لا تثق فى قيامها بهذه الحرب الوقائية وحدها ، بل كان لابد من أن تشرك معها فى خوضها غيرها من أعداء مصر والعرب . ومضت اسرائيل توثق مابينها و بين فرنسا مدّعية أنها أداتها الفعالة فى قلب الشرق الأوسط ، وإذا بصفقات سرية تعقد نتيجة لهذا تزوّد بها فرنسا اسرائيل بالأسلحة والعتاد الحربى على الرغم من الاتفاق الثلاثى الذى كان معقودا منذ عام ١٩٥٠ بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا بألا تزوّد واحدة منهم دول الشرق الأوسط ومن بينها اسرائيل بالسلاح إلا بعد موافقة الجميع . ولم يلبث أن انتهى إلىّ وقتذاك أن ثمة عزما من الحكومتين الفرنسية والانجليزية على انتهاج سياسة موحّدة تتسم بالشدة لكبح جماح مصر ، وتمت فى هذا السبيل اتصالات بين لندن وباريس امتدت إلى تل أبيب لتدبر خطة تشنّ اسرائيل فيها هجوما على الأردن حتى تخف مصر وسوريا إلى نجدة الأردن فتُتاح لبريطانيا ولفرنسا ذريعة للتدخل عسكريا بوصفهما طرفى الاتفاق الثلاثى ١٩٥٠ ، فيردّون الجيش المصرى على أعقابه ، ويدمرون أسلحته السوڤيتية التى حصل عليها ولمّاتستوبين يديه بعدُ ، ويفرضان على العرب الصلح مع اسرائيل لصالح الأخيرة ، وبهذا تتهيأ الفرصة من جديد أمام الأمبريالية للتوغل فى منطقة الشرق الأوسط . وحين انتهى إلىّ هذا كله أرسلت به إلى القاهرة ، غير أن فرنسا وانجلترا قبل أن تقدما على هذه الخطوة بادلتا الولايات المتحدة الأمريكية الرأى فلم تقرّهما على ما انتويا ووُئدت تلك الخطة فى مهدها .

* * *

وبناء على توجيهات من القاهرة قمت يوم ٢٣ يوليه ١٩٥٦ بزيارة السيد الحبيب بورقيبة بفندق الكونتننتال قبيل عودته إلى تونس . وشهد لقائى به وزيره الباهى الأدغم ، وعرضت عليه رجاء الحكومة المصرية فى أن يسمح للزعيم صالح بن يوسف بالعودة إلى تونس والقيام بنشاطه فى المعارضة الشرعية توحيدا للصفوف فى وقفتها جبهة واحدة أمام الاستعمار الفرنسى مذكّرا إياه بأن جانبا من الحقوق التى نالها من فرنسا كانت نتيجة مباشرة لتشدّد بن يوسف فى مطالبه ، غير أنه أبدى استياء شديدا من هذا الاقتراح وأعرب عن استحالة تنفيذه حيث : « لايمكن الجمع بين الصلاح والفساد » على حد تعبيره . وقد أذهلنى أن أتبين سوء حفيظة بورقيبة تجاه خصمه صالح بن يوسف بقدر ما استرعى انتباهى تغير اللهجة التى اعتدت سماعها منه فى سائر المقابلات التى جرت بيننا خلال وجوده بمنفاه وأثناء المفاوضات التونسية الفرنسية منذ أن كلفنى الرئيس عبدالناصر أن أتولى — إلى جوار عملى — مهمة المستشار العسكرى للوفد التونسى الذى كان يرأسه السيد المنجى سليم .

وسرعان ماتكشّف سر جفائه المفاجىء الذى احتدم ليأخذ بعد قليل شكل ثورة عنيفة ضد مقال ظهر فى مجلة آخر ساعة بقلم الصحفى سعد التائه يعرض صوراً له تسجل يوما فى حياته منذ الصباح الباكر حتى ساعة إخلاده الى النوم ، التُقطت له بإذن منه بطبيعة الحال . وكان يمسك بالمجلة ويقرأ لى بصوت عال العبارات التى اشتم منها سخرية به ، ثم راح يهدّد بأنه يستطيع مقابلة مثل هذا العمل العدائى من مصر بمثله ، فحاولت أن أهدىء خاطره موضحا له أن تعليق كاتب بصحيفة مصرية لايعني على الإطلاق أنه رأى المصريين جميعا الذين يضمرون له كل إعجاب وتقدير ، وأمسكت حياء عن أن أذكره بما فعلته مصر فى سبيل القضية التونسية .

وقد بادرت بإبلاغ القاهرة بما جرى ، واقترحت رغم هذا ورغبة فى الإبقاء على صلابة العلاقة بيننا وبين الشعب التونسى دعوته لزيارة مصر أملا فى أن يزيل لقاؤه بالرئيس عبدالناصر والترحيب الذى سيلقاه المرارة التى استشعرها من الريبورتاچ الصحفى الساخر ، ولربّما يزحزحه وجوده بالقاهرة عن موقفه المتشدّد من صالح بن يوسف الذى مالبث أن اغتيل فيما بعد .

وبحسبي هنا أن أشير إلى ما كان من الأجهزة التي كان منوطا بها تقديم العون إلى الدول الشقيقة الناهضة المطالبة باستقلالها هنا وهناك . فلقد خُيِّل إلى بعض هؤلاء أنهم بما تقدّمه مصر من عون سادة الموقف ، وأن لهم على من كانوا يتلقّوْن منهم العون الكلمة المستجابة . وهو ما كان يعزّ على الأشقّاء قبوله ، فمن واجب الأشقّاء علينا أن نكون لهم عونا وقت الشدّة ، أما أن نكون بما نقدّم من عون الآمرين الناهين فهو ما لاتجيزه الأخوّة ، فلنا أن ننصح ونُشير لا أن نُقحم أنفسنا فيما هو من أمورهم ولهم وحدهم . ولعل هذا وذاك كانا السبب في ذلك النفور الذي وقع بيننا وبين بعض الأشقّاء بدل أن يكون ثمة ودّ وإخاء .

* * *

ومرة أخرى جاءني المسيو چورچ شاسيني موفدا من قبل المسيو پيير كومان نائب السكرتير العام للحزب الاشتراكي للقائه في التاسع عشر من يوليه ١٩٥٦ بمقر الحزب بباريس . وقد حرصت على أن أوضح للمسيو كومان في مستهل المقابلة أنني جئت للقائه بناء على رغبته التي أوضح لي الهدف منها ، وهي محاولة مساعدة الحكومة الفرنسية لعمل اتصال بالممثلين الحقيقيين لجبهة التحرير الجزائرية بغية الوصول بأسرع وقت ممكن لوضع حد للحرب في الجزائر . كما أوضحت له أني لا أؤدي بفرنسا أي دور سياسي ولكن إذا كانت الحكومة الفرنسية تقدّر أن مساهمتي الشخصية قد تعين قضية السلام كما فهمت من رسوله فإني سأبذل قصارى جهدي في سبيل هذا الهدف الإنساني . وكان أن أبلغني مسيو كومان أن حكومته راغبة في مقابلة الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائري وإن كانت لا تعرف مركز الثقل الحقيقي بينهم حتى الآن . أما المقترحات التي يتقدم بها إلى الجزائريين فهي الهدنة المكفولة بضمانات كاملة للطرفين ، والانتخابات الحرة والإدارة الذاتية ، والاعتراف بالشخصية الجزائرية ، على أن تشرف على الانتخابات لجنة مكونة من فرنسيين وجزائريين . فذكّرته بأدنى المطالب التي تقبل بها جبهة التحرير الجزائرية وهي إدارة الانتخابات بواسطة لجان من دول محايدة تضمن سيرها في المسار السليم لأنه لايمكن أن تجرى انتخابات حرة في ظل خمسمائة ألف مجند فرنسي على التراب الجزائري ، والاعتراف من جانب الحكومة الفرنسية باستقلال الوطن الجزائري قبل المفاوضة والإفراج عن الأسرى والمعتقلين .

ومع تقبله مبدأ إشراف دول محايدة على الانتخابات فقد أوضح استحالة إقدام حكومة فرنسية بالاعتراف باستقلال الوطن الجزائرى خشية تعرضها للسقوط الفورى لتحديها الرأى العام الفرنسى و بخاصة بعد إرسال فرنسا خمسمائة ألف جندى إلى الجزائر ، وإن أكد فى نفس الوقت على أن مشكلة الاعتراف بالوطن الجزائرى هى مسألة خاضعة للنمو والتطور وسيجرى عليها ماجرى لتونس ومراكش اللتين حصلتا على الاستقلال الذاتى فى المفاوضات السابقة ، وها هما اليوم تطالبان بالاستقلال التام الذى لم يحدث اتفاق مسبق عليه .

وكان يرى أن على جبهة التحرير أن تدخل المفاوضات بلا شروط مسبقة ، إذ لوفرض كل جانب شروطه قبل المفاوضات لما بقى شيء للتفاوض حوله . وأوضح لى رغبة الحزب الاشتراكى فى وقف إطلاق النار بعد إقناع الرأى العام بالتفاوض مع الجزائريين . فأعربت له عن دهشتى لما يقول إذ أنه يتعارض مع تصريحات روبير لاكوست الوزير المقيم بالجزائر والمنشورة بالصحف والجازمة باستحالة إجراء مثل هذه المفاوضات . فبيّن لى أن تصريح لاكوست قد شوّهته الصحافة إذ أن عبارته الحرفية تقول « لايجب التمسّك بفكرة التفاوض بأى ثمن » ، ولم يكن يقصد بذلك إلا أنه ينبغى وضع شروط محددة للتفاوض بل ووضع ضمانات لكل الطرفين خلال هذه المفاوضات . ثم أكّد لى أنه مكلّف من قبل الرئيس جى موليه بالاتصال بالجزائريين المسئولين بغرض التفاوض ، وأنهم جميعا فى الحزب الاشتراكى بما فى ذلك لاكوست نفسه متفقون على إجراء المفاوضات ، ومن ثم كانت الحملة لحشد الرأى العام تدريجيا لقبول مبدأ المفاوضة بعد أن تم إبعاد المحرّضين . وانبرى يحثّنى على تدبير لقاء بينه شخصيا و بين ممثلى الثورة الجزائرية لوضع أسس المفاوضات التى سوف يشترك فيها حينئذ خبراء الحكومة إلى جانبه . وقد ترك لى حرية تحديد لحظة اللقاء ، فوعدته ببذل قصارى جهدى .

وقد رأيت أن أرفق مع هذه المعلومات إلى الرئيس عبد الناصر النص الحرفى لقرارات المؤتمر الاشتراكى بخصوص الجزائر الذى عقد بمدينة ليل يومى ٢٩ و٣٠ يونيه ١٩٥٦ ، مقتنعا أن دراسة النص الكامل يعين على تمحيص الحقائق ومقارنة الوقائع ، ومن ثم الخروج بقرار سليم . كما لفت النظر إلى بضع عبارات ظهرت سافرة لأول مرة على ألسنة المسئولين الفرنسيين مثل :

- إقامة صلات أساسية وطيدة مع فرنسا على أساس مصلحة القطرين العليا [وهذه أول مرة يأتى فيها ذكر الجزائر على أنها قطر آخر غير فرنسا] .
- أن الحكومة مستعدة للترحيب بالاتصالات الرسمية المباشرة .
- لابد لاكتساب ثقة الجزائريين من إجراء تطهير فى الجهاز الإدارى بالجزائر.
- الحل الشامل للمسألة الجزائرية لايمكن أن يكون إلا حلا سياسيا .
- تقوم بتنظيم الانتخابات لجنة مؤلفة من شخصيات غير مشكوك فى نزاهتها ، يشرف عليها مندوبون عن الأحزاب السياسية الجزائرية والفرنسية .
- البحث عن حل سلمى يستقطب جميع الجزائريين الذين تعنيهم قضية السلام والعدالة والحرية بمافيهم تلك الطائفة من الثوار التى دفعها اليأس إلى الالتجاء بحسن نية إلى العنف بوصفه السبيل الكفيلة بتحقيق أمانيها .

كنت مؤمنا بجدوى هذه المقابلة للجانب الجزائرى لأسباب ثلاثة : أولها قيام اتصال رسمى مباشر بين الفرنسيين والجزائريين . وثانيها أن مثل هذا اللقاء سيكون بمثابة اعتراف رسمى أمام الرأى العام الفرنسى خاصة والرأى العام العالمى عامة بالكيان الفعلى لممثلى شعب الجزائر مما ينفى الفكرة الشائعة بأنهم عصابات ثائرة فى إقليم فرنسى ضد الحكومة المركزية . وثالثها أنه سواء كتب لهذه المقابلة النجاح أم الفشل فإنها على أية حال خطوة إلى الأمام لايمكن لفرنسا الرجوع عنها . على أننى أوصيت فى الوقت نفسه أن تتم هذه المقابلة بشرطين : أولهما أن تتحقق خلال فترة عطلة الجمعية الوطنية فى شهرى أغسطس وسبتمبر، وذلك حتى لا تتكرر مأساة مهاجمة النواب الرجعيين لحكومة منديس فرانس حين أوفدت الوزير چورچ جورس إلى مصر مما اضطرها إلى النكوص على أعقابها . إذ كنت أعتقد أنه إذا حدث أن أحرجت الحكومة أمام الرأى العام فى غيبة البرلمان فإنها ستجد نفسها مضطرة رغما عنها إلى الوصول بأسرع وقت ممكن إلى حل ماقبل دورة انعقاد البرلمان . والأمر الثانى أن يكون المبعوثون ممن تثق بهم مصر ثقة تامة ، أعنى أن يكونوا من العناصر الأساسية فى الكفاح . وكنت قد علمت من مسيو كومان أن ثمة مقابلة تمت أخيرا بينه وبين السيد محمد خيضر مندوب جبهة التحرير الوطنى بسويسرا ، كما ادعى مسيو چورچ شاسينى أن السيد خيضر طلب منه مبلغا من المال نظير إقناع بقية أعضاء الجبهة بقبول ماتعرضه الحكومة الفرنسية ،

ولا ريب أن الخبر يحتمل التكذيب أكثر مما يحتمل التصديق . فسألت محدثي عن قيمة المبلغ الذى طلبه السيد خيضر فذكر أنه يتراوح بين خمسة عشر وعشرين ألفا من الجنيهات ، فتساءلت عن سر تردّد الحكومة الفرنسية فى إعطائه هذا المبلغ التافه فى سبيل وضع حد لحرب الجزائر بينما تنفق يوميا مليارا من الفرنكات على استمرارها . ولم يحظ تساؤلى الساخر بأى تعليق من محدثى ، فلم أشك ساعتها فى أنها لم تكن غير مناورة ماكرة لتشكيكنا فى نزاهة بعض عناصر الثورة الجزائرية ، لاسيما وأن المسيو كومان كان أثناء مناقشته معى لاينفك يضرب على وتيرة واحدة هى انقسام جبهة التحرير على نفسها وخصومتها مع حزب مسالى حاج . وهو ماتتخذه فرنسا تعلّة لاستحالة التفاهم مع مثل هذه الجبهة المفككة وحاجتها إلى ممثلين حقيقيين للشعب الجزائرى لايمكن فى رأيها تحديدهم إلا من خلال هذه الانتخابات التى يزعمون أنها يمكن أن تكون حرة فى ظل الاحتلال الفرنسى .

وقد بادرت بمناشدة الرئيس عبدالناصر العمل بكل مايملك من قوة ونفوذ على جمع شمل جبهة التحرير الوطنى لتمثل الشعب الجزائرى المقاتل وحدة متماسكة . وسرعان ماوردتنى من القاهرة توجيهات بالاتصال بمولاى مرباح الأمين العام لحزب مسالى حاج أدعوه إلى لقاء الرئيس بمصر محاولا إقناعه بضرورة الانضمام إلى الجبهة لتوحيد الصفوف ولافتا نظره إلى أننا لم نحصل على استقلالنا بمصر إلا بعد أن طهرنا أنفسنا من الخلافات والمزايدات الحزبية والشخصية وظهرنا أمام العالم صفا واحدا تمثّل فى مجلس قيادة الثورة الذى فاوض الإنجليز ممثلا لشعب مصر ، فى حين أن مصر بأحزابها المختلفة ظلّت تفاوض المستعمر ربع قرن دون نتيجة لأن حجة المستعمر كانت على الدوام أن من يتصدّون للتفاوض لايمثلون الشعب كله ، ومن ثم فإن التفاوض معهم لايجدى .

على أن القدر لم يمهلنا لإنجاح مسعى كان من المحتمل أن يغير مجرى الأحداث عما سارت فيه ، فقد اضطرت الظروف السياسية الدولية الرئيس جمال عبدالناصر إلى إعلان قراره التاريخى بتأميم شركة قناة السويس رداً على سحب الولايات المتحدة وبريطانيا تمويلها لمشروع السد العالى ، وذلك بعد أسبوع واحد من لقائى بالمسيوكومان ، فتوارت تلك المبادرة وسط ضجيج الغضب الخانق الذى تملّك حكومة فرنسا ووجدت فيه مايبرّر لها توجيه الرأى العام الفرنسى ضد حكومة مصر .

٣
شواغل عسكرية

ومنذ بداية عملى فى باريس كانت جهودى الأساسية منصرفة إلى ترصّد صفقات السلاح والمعدات الحربية لاسيما الطائرات التى يبتزّها عدونا الرئيسى اسرائيل من فرنسا أولا بأول . وكانت مهمة عسيرة لأن هذه الصفقات كانت تتم خفية دون إعلان من أى من الطرفين حتى بات أقرب إلى الإعجاز الحصول على معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها غير مصادر العملاء المأجورين الذين يترددون على السفارات العربية لتزويدها بمعلومات أُعدّت على وجه اليقين فى المخابرات الفرنسية والإسرائيلية . هكذا وجدت نفسى أستهل عملى فى دولة تزداد العلاقات بيننا وبينها توترا يوما بعد يوم إزاء موقف الحكومة المصرية الواضح فى التنديد بالسياسة الاستعمارية الفرنسية فى الشمال الأفريقى ، وتعضيدها الصريح لحركات التحرر فى كل من تونس والمغرب والجزائر. ولقد يسّر الله لى الولوج إلى منافذ كانت شبه مُوصَدة دونى انتهيت منها إلى ما أبغى من معلومات . وليست هذه الصفحات هى مجال بسط تفاصيل هذه المعلومات وإن كان الأمر يقتضينى أن أسوق القليل مما لابس الحصول عليها .

وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا قد أصدروا فى عام ١٩٥٠ « تصريحهم الثلاثى » الشهير لتحقيق التوازن فى التسليح بين الدول العربية واسرائيل ، وشُكّلت لجنة من الدول الثلاث لتنسيق مبيعاتها من الأسلحة لدول الشرق الأوسط بمافيها اسرائيل ، بحيث لا تصدّر أى منها أسلحة لأية دولة من دول الشرق الأوسط قبل موافقة هذه اللجنة . وكان التعاون بين السلطات الفرنسية واسرائيل على إخفاء أنباء ما يتم بينهما من صفقات تاما ، حتى زعمت السلطات الفرنسية أن صفقات طائرات المستير٤ تُصنّع لصالح السويد بينما كان من المعروف أن السويد نفسها تصنع الطائرات الحربية النفاثة .

وكنت حريصا عند نقل المعلومات الخاصة بتسليح اسرائيل(٦) أن أؤكّدها من ثلاثة مصادر أواثنين على الأقل . ولقد وُفّقت بعد عناء وعراقيل كانت تقام فى طريقى إلى أن أقف على ماحاولت السلطات الفرنسية أن تُسدل عليه ستارا كثيفا حتى لاينكشف لأحد ، واستطعت أن أعرف عدد الطائرات من كل صفقة ومسار طيرانها حتى تصل إلى اسرائيل . وكنت أبرق لتوّى للمخابرات الحربية المصرية بهذه الخطوات ، مطالباً بتقصّى هذه المسيرة لتتبيّن صدق المعلومات التى كانت تنتهى إلىّ ، بأن يقوم ملحقنا العسكرى فى إيطاليا واليونان بتتبّع مواعيد وصول هذه الطائرات عند هبوطها فى مطارى بريندیزى وأثينا للتزوّد بالوقود قبل انتهائها إلى اسرائيل ، هذا عدا مرة واحدة حين انتقلت صفقة طائرات المستير٤ الأولى على ظهر السفن . ومما زادنى ثقة بما كان يُنقل إلىّ من معلومات أن تتبّع الزملاء من الملحقين لحركة هذه الطائرات كان يُثبت صحة ما أبعث به إلى مصر ، وتحتفظ المخابرات الحربية المصرية فى أرشيفها إلى اليوم بكافة هذه المعلومات .

وكانت فرنسا تستخدم بيع الأسلحة بهدف الضغط من أجل تأييد سياستها أو تخفيف الهجوم عليها ، فأطمعت سوريا فى تخفيض أثمان المعدّات الحربية المُباعة لها مع تسهيلات فى السداد والتقسيط مقابل تخفيف لهجة إذاعة دمشق فى معاداة سياسة فرنسا فى شمال أفريقيا . كذلك حاولت السلطات الفرنسية أن تقيم العقبات فى سبيل عقد بيع خمسين دبابة AMX زنة ١٣ طن لنا ، وكذا مدافع ميدان عيار ٧٥ ملليمتر وتدريب ضباطنا عليها ، فلم نظفر بها إلا بعد جهود

مغضبية ، وبعد أن هب أصحاب مصانع السلاح مدافعين عن مصالحهم الخاصة التي باتت مهددة نتيجة لسوء العلاقات مع مصر ، ولأول مرة شرعوا ينتقدون قرار وقف تصدير الأسلحة لمصر و يثبتون حججهم بالأرقام والإحصائيات ، ساخرين من الدوائر الحكومية الفرنسية التي زعمت أن البربر الذين هاجموا إحدى المستشفيات فى المغرب إنما كانوا ينفذون توجيهات المحرضين المنساقين لنداء صوت العرب من القاهرة بعد أن انبعث النهائي فى اليوم التالي للاعتداء من القاهرة مشجعة . ثم تساءلوا هل الدفاع عن أفريقيا الشمالية يتطلب من فرنسا التضحية بمراكزها الثقافية والاقتصادية وخاصة فى مصر . ونشروا مقالا بمجلة « أنتر بريز » Entreprise فى أول أكتوبر ١٩٥٥ ذكروا فيه أن الجيش المصرى قد تعاقد مع فرنسا منذ عهد قريب لاستيراد مطالب من المدرعات وهى عقود فى سبيلها إلى التنفيذ غير أن محاولة إيقافها تحمل فى طياتها المجازفة بالميزانية الفرنسية إذ قد بلغ الضمان الحكومى لهذه العملية ٩٠٪ من مجموع العقود البالغ قدرها ٧ مليارات من الفرنكات ، ولسوف تتعرض الحكومة لمطالبة الشركات لتنفيذ هذا الضمان من ناحية ، كما أن إيقاف التنفيذ سوف يُنزل بالإنتاج الفرنسي للأسلحة ضربة قاسية من ناحية أخرى . ثم تساءل كاتب المقال لماذا لم تعترض الحكومة الفرنسية على إذاعات موسكو التى كان رئيس الوزراء ووزير خارجيته ينويان زيارتها عن قريب ، ولماذا لم تتخذ إجراءات من شأنها تهدئة إذاعة بودابست أو حتى الحزب الشيوعى الجزائرى ؟

ويشهد الله كم بذلتُ ما فى وسعي لتذليل العقبات التى كانت تعترض هذه الصفقة ، ولم تكن ظاهرة تقاضى العمولات على كل صفقة من صفقات السلاح قد استفحلت بعدُ بين المسئولين في الدولة على نحو ما استشرت تحت ستار سياسة تنويع مصادر السلاح التى ابتدعت فى السبعينات . وإنى لأذكر يوم كان العدوان الثلاثى ، ونشبت الحرب بين فرنسا ومصر ، وانعزلت سفارتنا بباريس ، وضُرب حولها الحصار ، وابتعد الأصدقاء عنا خشية بطش السلطات ، وإذا أنا حين دخلت بيتى أجد أجمل سلّة زهور تلقّيتها فى حياتى من المسيو مواتيسييه مدير شركة سوفما الحكومية التى باعتنا الدبابات والمدافع ، ومعها بطاقة عليها هذه العبارة بخط يده : « إذا كنت لم أستطع الحضور فى هذا اليوم العصيب لأشدّ على يدك مودّعا فحسبى هذه الزهرات

تنوب عنى مُعْربة عن تقديرى وإعجابى بخصم أعدّه من أشرف الخصوم » .
وأظن أن مثل هذه العبارة إن أفادت شيئا فهى تفيد أنى لم تزلّ بى قدمى ولم تمتد للعمولة يدى ، وإنى لأشكر الله على هذه وتلك . ولو كنت فعلتهما لكنت فى طوع يمين الفرنسيين يُشْهرون على رقبتى سيفا مسلولا كى أفعل ما يشاءون وأمضى حيث يريدون ، ولما كنت موضع ثقة واحترام شخصيات فرنسية مرموقة تعاملت معها حين كنت مضطلعا بوصل ما انقطع من علاقات بيننا وبين فرنسا على نحو سيجىء تفصيله بعدُ .

* * *

مالبثت اسرائيل أن سارعت بشراء ١٧٥ مدفع ٧٥ مم و ١٢٠ دبابة AMX غير أنها طالبت بإضافة حلقة تحت برج الدبابة يبلغ سمكها ١٤ سم لضمان تشغيل المدفع بحرية فى كافة الاتجاهات ، ونفّذت المصانع الفرنسية هذا التعديل رغم أن خبراء المدرعات الفرنسية رأوا أن تركيب هذه الحلقة من شأنه زيادة ارتفاع الدبابة الأمر الذى يتعارض مع أهم خواص هذه الدبابة بالذات وهى ميزة الانخفاض .

وللطائرة المستير ملابسات تحتاج إلى بعض الإيضاح ، فعندما توصل الفرنسيون إلى طراز مستير ٤ بادرت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تمويل إنتاج الدفعة الأولى من هذه الطائرات لحسابها ، ومن ثم توزيعها بمعرفتها على دول الحلف الأطلسى بمافيها فرنسا ، وكان قد تم الاتفاق على أن تصل الدفعة الأولى إلى مائتين وخمسة وعشرين طائرة ، على أن يكون للحكومة الفرنسية حق التصرف فيما يتم إنتاجه بعد ذلك . وبذلك تصبح أقل مهلة يمكن أن ترتبط بها الحكومة الفرنسية لبيع طائرات من هذا الطراز لدول أجنبية هى ثلاثة عشر شهرا قد يتسنى تخفيضها إلى تسعة شهور. وفى نهاية عام ١٩٥٥ كان بيع طائرات مستير٤ إلى الدول العربية واسرائيل مايزال قيد البحث بوزارة الخارجية الفرنسية ، وقد تصرفت من تلقاء ذاتى بأن سارعت بإدراج اسم مصر ضمن الدول المطالبة بشراء هذا النوع من الطائرات ، كما حادثت الأمير طلال سفير المملكة العربية السعودية فى أهمية تقدم حكومته بطلب مماثل لنا بشراء ثلاثين طائرة مستير٤ ، وتبيّنت فى الحال حسن

تفهمه للموقف إذ استجاب على الفور إلى المبادرة بطلب هذه الصفقة لحكومته ، كذلك طالبت اسرائيل هى الأخرى بثلاثين طائرة .

وحين طلبت من السلطات الفرنسية وقتها بيانات وافية عن هذا الطراز من الطائرات اعتذرت بأن هذه البيانات ماتزال سرّية ولايمكن تسليمها إلا للمشترى ، وطالما لم يتقرر بعد مبدأ البيع لدول الشرق الأوسط لذا يتعذّر تزويدى بهذه المعلومات . وكانت الطائرة ميج ١٥ أفضل من المستير٤ من حيث كفاءتها كطائرة اعتراضية ، إذ يمكنها الصعود إلى ارتفاع ١٢٠٠٠ قدم فى فترة تصل من ٥ إلى ٦ ثوان بينما تحتاج المستير٤ إلى عشر ثوان لبلوغ هذا الارتفاع ، غير أن الطائرة مستير٤ تفوق الطائرة ميج ١٥ فى واجبات المعاونة الأرضية لأنها أبطأ سرعة وأجود تسليحا إذ هى مزوّدة بمدفعين عيار ٣٠ مم وقاذفين صاروخيين ، وتحمل قنبلتين .

على أننا فوجئنا فى ٢٨ فبراير ١٩٥٦ بما يفيد أن الولايات المتحدة قد أذنت للسلطات الفرنسية بتسليم اثنتى عشرة طائرة من طراز مستير٤ هبة من الحكومة الأمريكية لاسرائيل من الدفعة الأولى المنتجة للتوزيع على دول حلف الأطلسى دون انتظار لتسلّم نصيبها مما سيُنتج فيما بعد . وقد بادرت بالتحقق من صحة هذا الخبر فى ذات اليوم وتأكد لى صحته ، وأن ضابطا اسرائيليا يدعى كولونل جلادى قد أبرم اتفاقا نهائيا منذ أربع وعشرين ساعة على شحن الطائرات إلى اسرائيل عن طريق البحر ، مما يرجّح أن الطيارين الإسرائيليين لم يسبق لهم أن تلقّوا تدريبا على هذا الطراز من الطائرات ، على حين تم تسليم أربع وعشرين طائرة « أوراجان » إلى طيارين اسرائيليين قادوا الطائرات بأنفسهم إلى اسرائيل بعد أن تلقوا تدريبا على مدى بضعة شهور بمراكز تدريب السلاح الجوى الفرنسى .

وكانت اسرائيل قد تقدمت كما أسلفت بطلب شراء ٣٠ طائرة مستير٤ ، كما ألحّت منذ شهور على أن تستبدل بصفقة المستير٢ السابق التعاقد عليها صفقة من مستير٤ ، ومكث الطلب شهورا متأرجحا بين الرفض والقبول . فبينما كانت وزارة الدفاع الفرنسية — بصفة عامة — ورئيس أركان القوات المسلحة الجنرال جيوم — بصفة خاصة — ينتصرون لفكرة تسليم الطائرات المستير٤ فورا إلى اسرائيل نكاية فى مصر والمساعدات التى تقدمها لثوار شمال أفريقيا — وهو المجال الذى تعانى

منه القوات المسلحة الفرنسية ــ كانت الخارجية الفرنسية تناهض الفكرة بأمل الوصول إلى تفاهم فعلى مع الحكومة المصرية بصدد مسائل شمال أفريقيا، وبحجة حفظ التوازن فى التسليح بين كل من الدول العربية واسرائيل.

وإذا كانت هذه الصفقة قد تمت بهذا الأسلوب التعسفى الأمريكى بالاتفاق مع السلطات الفرنسية فثمة أسلحة ومعدات فرنسية أخرى قد أخذت طريقها سرا إلى إسرائيل، فلقد كانت أمنية الجنرال جيوم التى لايفتأ يصرح بها فى كل مجال هى نشوب القتال بين مصر واسرائيل حتى تستنفد هذه الحرب جهود مصر وتصرفها عن الاشتغال بقضايا الشمال الأفريقى، فتهيأ الفرصة لجيوم وهو المسئول الأول عن سير القتال فى شمال أفريقيا للتخلص من عنصر فعال يساهم مساهمة مادية ومعنوية فى نضال الثوار.

ومنذ أوائل ١٩٥٦ لم أستبعد أن تقدم الحكومة الفرنسية على اتخاذ خطوات غير ودّية ضد مصر خاصة بعد اشتداد أوار الحملة الصحفية الضارية المنظمة ضدنا، والتى اشتدت وطأتها بشكل بارز ومتصاعد يكشف عن أنها حملة مدبّرة وموعز بها تباركها السلطات الفرنسية وتمدّها بكافة البيانات والوثائق مزوّدة بالصور. وهكذا تكلّلت جهود العسكريين الفرنسيين ورجال الكولون [المستعمرون] الأقوياء واليمينيين المتطرفين والصهاينة بالنجاح بأن انضمت لهم آخر الأمر وزارة الخارجية الفرنسية التى ظلت تقاوم هذا الاتجاه طويلا إلى أن فقدت الأمل فى التفاهم مع مصر. وكان الهدف الذى ترمى إليه الحملة الصحفية هو بثّ روح الكراهية والحقد بين صفوف الرأى العام الفرنسى ضد مصر بصفة خاصة، فتارة تظهر المقالات فى أهم الصحف وبأقلام كبار الكتاب بعناوين مثيرة مثل: من يقتل أبناءنا فى شمال افريقيا؟ وتارة أخرى: لامناص من الانحياز لاسرائيل صديقتنا الحقيقية والثأر من مصر عدوتنا اللدود، وذلك بغية إشعال الروح الاستعمارية من جديد فى نفوس الشباب الفرنسى بعد أن كانت قد خمدت، وتهيئة الرأى العام لاستقبال قرار التعبئة العامة وتجنيد الاحتياط لإرساله الى ميدان القتال بشمال أفريقيا، فلم يكن الرأى العام من قبل متحمّسا لإرسال أبنائه للقتال فى سبيل الجزائر، ولكنه مالبث شيئا فشيئا أن بدأ يشعر بالضغينة

والكراهية نحو مصر وهو يقتات يوما بعد يوم المقالات والأنباء المقصود بها إثارة حماسه وتأجيج غضبه للثأر من مصر والمصريين .

وكانت قد مضت شهور عشرة على تقدمي بطلب شراء طائرات مستير ٤ من شركة OFEMA ، وكان ذلك من قبيل سبر الأغوار إذ كنت أوقن أن هذا الطلب مرفوض سلفا . وبطبيعة الحال فإنني لم أتلق رداً ، فعدت الى السفير السعودى ألحّ عليه أن يجدّد طلب حكومته بشراء ثلاثين طائرة مستير ٤ على الفور وتحريك هذا الطلب الذى لم يُبتّ فيه بحجة حفظ التوازن المزعوم بين الدول العربية واسرائيل . كما اتصلت بالسلطات الفرنسية لمعرفة رأيها فى تسليم صفقة الطائرات الى المملكة العربية السعودية ، وأشرت على القاهرة ببذل الجهود الدبلوماسية لدى الحكومة السعودية للضغط على السلطات الأمريكية للموافقة على هذه الصفقة . وقد علمت فيما بعد أن السفير ماسيجلى سكرتير عام وزارة الخارجية الفرنسية المعروف بميوله الإنجليزية قد تصدّى لهذه الصفقة فأوقفها بإيعاز من الحكومة البريطانية . وكان الطيارون الاسرائيليون قد تسلموا إثنتى عشرة طائرة مستير ٤ فى شهر فبراير ١٩٥٦ كما أسلفت وأقلعوا بها عن طريق برنديزى ، واتجه الاخصائيون الفرنسيون فى الوقت نفسه إلى اسرائيل لتدريب طياريها . كما كانت السلطات العسكرية الفرنسية تبذل عونا مباشرا وغير مباشر للإسرائيليين إضافة إلى بنود العقود المبرمة بين الدولتين ، وبات النيل من مصر عسكريا وتحريض اسرائيل على شن هجوم على مصر خاصة والدول العربية عامة تخفيفا للضغط عنهم وتعويضا معنويا عما يلحق قواتهم من فشل وإحباط وخسائر فى الجزائر ، بات هذا كله هدفا تكتيكيا جوهريا فى إطار الاستراتيجية العامة للعسكريين الفرنسيين . وهكذا وجدت اسرائيل التى بادرت بعد تسلّمها الصفقة الأولى من طائرات مستير ٤ بطلب دفعة ثانية من إثنى عشر طائرة ـــ أعقبتها دفعة ثالثة ورابعة وخامسة على مدى الشهور الخمسة التالية ـــ ترحيبا حارا داخل قيادات السلاح الجوى الفرنسى التى سارعت إلى إعداد دفعة طائرات المستير الإثنتى عشرة الثانية توطئة لتسليمها لاسرائيل قبل صدور موافقة السلطات السياسية العليا ، بل انبرى العسكريون الفرنسيون يجرون التعديلات التى طالبت بها اسرائيل فى طائراتها مثل تركيب جهاز تمييز الصديق من العدو وبعض التعديلات فى أجهزة الإضاءة .

وهكذا بينما كانت بعثة الطيران الهندية الموجودة بفرنسا منذ أكثر من سنة لشراء صفقة طائرات مستير ٤ من شركة مارسيل داسو المنتجة للطائرات OFEMA والممثلة للحكومة الفرنسية ، كانت البعثة الإسرائيلية تتعامل مباشرة مع وزارة الطيران الفرنسية وتستولى على طائراتها رأسا من حظائر السلاح الجوى الفرنسى .

وكان واجبى يقتضينى الحصول على مواصفات كافة الطائرات التى اغتنمتها اسرائيل من فرنسا بما فيها طراز مستير ٤ أ والتى كان محظوراً أن يُنشر شىء عنها . ولقد وفقنى الله فحصلت على المواصفات التى أريدها من حيث الأبعاد والأوزان وأنواع المحركات واستهلاك الوقود والتسليح والسرعات والارتفاعات مع صور لها من زوايا مختلفة سارعت بإرسالها للجهات المختصة فى القاهرة .

* * *

وفى شهر يونيه ١٩٥٦ استدعانى الرئيس عبدالناصر إلى القاهرة ليبلغنى أن الفترة الانتقالية التى امتدت من عام ١٩٥٤ لممارسة مجلس قيادة الثورة شئون الحكم قد انتهت ، وأنه بصدد إجراء تغييرات شتى فى مجال الوظائف العامة بالدولة ، وأنه تقرر خروج الضباط الأحرار من خدمة القوات المسلحة إلى وظائف مدنية حتى لايزج بالجيش فى السياسة ، وأنه على وشك أن يصدر قرارا بإنهاء خدمتى بالقوات المسلحة وتعيينى بدرجة وكيل وزارة برياسة الجمهورية على أن أستمر فى مزاولة عملى ملحقا عسكريا بباريس حتى يتم نقلى فى شهر سبتمبر إلى وزارة الخارجية وتعيينى سفيرا بباريس وأضاف قائلا : « إنى لم أتخذ هذه الخطوة تحت تأثير مشاعرى العاطفية نحوك بل تقديرا للجهود الصادقة التى بذلتها أثناء خدمتك ملحقا عسكريا بباريس ، فقد كانت تقاريرك تضعنى أمام صورة واضحة لجريات الأمور بفرنسا بأسرع وأدق من تقارير المصادر الأخرى » . ولما سألته كيف أمارس عملى ملحقا عسكريا بينما سأكون فى عداد المدنيين ؟ ردّ بأنها مرحلة جدّ قصيرة لا تتجاوز ثلاثة شهور لن تسترعى الانتباه . وقبل أن أغادره استوقفنى ليفضى إلىّ بأنه قد اتخذ قرارا بتأميم قناة السويس ، وأنه قد شكّل لجنة من الخبراء لتزوده بكل مامن شأنه تحقيق هدفه ، لكنه لم يستقر بعد على رأى بصدد التوقيت تاركا ذلك للظروف . وطلب منى أن أتبيّن من موقعى كل مايحيط أويرتبط أويفيد فى هذا الأمر البالغ الحساسية والخطورة . ثم أسلمنى ملفّا احتشد

بعدد من الأسئلة الخاصة بقناة السويس طلب منى محاولة الإجابة عليها عقب وصولى ، على أن أرسل ما يقع لى من معلومات إليه شخصيا مستعجلا عودتى إلى مقرّ عملى .

وفى ٢٦ يوليه وجّه جمال عبدالناصر ردّا على قرار فوستر دالاس برفض تمويل مشروع السدّ العالى وعلى تشكيكه فى سلامة الاقتصاد المصرى وحضّه بقية الدول الغربية على الامتناع عن المشاركة فى المشروع ، لطمة داوية على صلف أمريكا وتطاولها بأن أعلن قراره التاريخى بتأميم قناة السويس ، وهو الحدث الذى كانت له أخطر النتائج لا على الشرق الأوسط فحسب بل وعلى كل بلاد العالم الثالث .

وغنىّ عن البيان أن أذكّر القارىء بالثورة العارمة التى نشبت بفرنسا وبريطانيا إزاء هذه الخطوة البالغة الجسارة ، فمن خطب نارية يلقيها الوزراء المسئولون وأصحاب النفوذ من كبار رجال المال وأقطاب الأحزاب اليمينية تعد بالويل والثبور، إلى مقالات ملتهبة تحتشد بها الصحافة عن بكرة أبيها تكيل السباب والشتائم لجمال عبدالناصر، وتثير المشاعر ضدّه ، ومن أحاديث وأنباء بالاذاعة تلهب الأحاسيس وتغرس بذور الكراهية فى الرأى العام الفرنسى وتهيّئه لقبول ماستتخذه الحكومة من اجراءات عنيفة ضد مصر، إلى تحقيقات وأحاديث وأفلام تسجيلية بالتليفزيون ترسّخ مع المساء ماثبت فى أذهان الناس أثناء النهار عن « الجريمة » التى ارتكبها عبدالناصر بتأميمه للقناة ، وشاع نداء سوستيل القديم « ابدأوا بناصر أولا » Au préalable Nasser

وكان طبيعيا أن يطغى الطابع العسكرى البحت على ما عداه من مهام ، وبات لزاما علىّ أن أسارع برصد تحركات القوات المسلحة الفرنسية ومناطق احتشادها واستقراء أهدافها فضلا عن تتبع النشاط الاسرائيلى بفرنسا . كانت فترة عصيبة زاخرة بالعمل الدءوب ليل نهار فى بيئة شديدة العداء ورقابة بوليسية مكثّفة ومضايقات رعناء وجو إعلامى استفزازى مثير، كما تخوّف بعض الأصدقاء والمعارف الفرنسيين من الاتصال بى خشية التنكيل بهم .

وقد شاء القدر أن أصاب بنزيف من الأنف ألزمنى فراش المرض فى المستشفى طوال أسبوعين كنت معرّضا خلالها لإجراء عملية لرفع عظام الجمجمة

خلف الأذن اليمنى لولا مجيء طبيب مصرى هو الدكتور حسن صبرى الذى أرسله المشير عامر ليتولى علاجى . وكان قد تم إبلاغ القاهرة بخطورة حالتى بمبادرة من الأخ الصاغ عيسى سراج الدين [السفير فيما بعد] الذى كان يعمل مساعداً لى ، وظل طوال عامين يؤدى عمله إلى جوارى بتفان وكفاءة جديرين بالتقدير. ولست أنسى مايتمتع به من خلق فاضل ووطنية صادقة وأخوة أعتز بها على الدوام . وقد ظل هذا الطبيب الكريم كبير الأمل فى القضاء على المرض بالمضادات الحيوية مخالفا رأى فريق الأطباء الفرنسيين ، وتحقق بدأبه وعنايته المخلصة ما كان يأمله ، ووجدتنى أتعجل العودة إلى متابعة شحنات الطائرات الحربية والمعدات العسكرية الفرنسية إلى اسرائيل وتطورات الموقف الإعلامى والسياسى الفرنسى وإبلاغها للقاهرة أولاً بأول . ثم أضيف إلى هذا الوقوف على توزيع التشكيلات الفرنسية المحاربة سواء الموجود منها بفرنسا أو ألمانيا أو شمال أفريقيا ، وتحركات قوات المظلات الفرنسية التى وصلت إلى قبرص فى الرابع من سبتمبر ولحاق طائرات المستير ٤ بها بعد أسابيع ثلاثة . ولم يكن الحصول على مثل هذه المعلومات فى أجواء العداء المحيطة بنا بشكل دقيق بالأمر اليسير ، بل كان يتطلب جهدا شاقا أتاح لى برعاية الله وعنايته أن أعقد صلات وثيقة مع ثلاثة مصادر كنت أحصل منها على تلك المعلومات قبل أن أبعث بها إلى القاهرة . وأحمد الله أنى وفقت إلى تسجيل كافة تحركات وحشد التشكيلات المحاربة الفرنسية من قوات برية وبحرية وجوية ، ولايتسع المجال بطبيعة الحال لنشرها هنا إذ لن تفيد القارىء فى كثير أو قليل(٧) . وقد مضى على هذه الأحداث ماينيف عن ربع قرن ، وأنا اليوم فى حلٍّ من أن أشير إلى بعض المصادر التى رجعت إليها لاستقاء هذه المعلومات دون الكشف عن أسماء الأشخاص ، إذ كان مرجعى الذى اعتمدت عليه فى ذلك صفوة من الملحقين العسكريين من ضباط دول الأحلاف الغربية ينتمون إلى جنسيات مختلفة كان لهم تعاطف مع قضيتنا ورأوا أن أقل عون يرضون به ضمائرهم هو إمدادى بما أطلب منهم استيضاحه مما يتيح لنا أن نتدارك موقفنا وألا نؤخذ على غرة .

وفى الثانى عشر من أكتوبر ١٩٥٦ أكد لى بعض هؤلاء أيضا أن ثمة اجتماعات سرية تتم بين مسئولين فرنسيين واسرائيليين منذ أوائل سبتمبر يُشْتَمّ

منها تدابير موجّهة ضد مصر دون تفصيلات محدّدة أبلغت المخابرات الحربية بها فى حينه . وقد جرى ذهنى على الفور إلى ذلك اللقاء المطوّل الذى عقده جى موليه فى مكتبه مع سفير اسرائيل وأعلن عنه قبل ذلك ببضعة أيام وتصوّرت أن له علاقة بتلك الاجتماعات . أما عن اجتماع جى موليه وسلوين لويد و بن جوريون الذى تم فى ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ فى سيڤر تمهيدا لتوقيع اتفاقية العدوان الثلاثى على مصر فلم أعلم به على الإطلاق .

ومنذ ذلك اليوم تزايد قلقى وأخذت أتوقع من الأنباء ما أدعو الله ألا يقع . وكان لى صديق فرنسى يحتل منصبا حساسا ما أزال أحرص على كتمان اسمه مع أن مصر تدين له بالفضل فى الوقوف على أكثر المعلومات خطرا وأهمية . وفى الحق إن هذا الصديق قد نفذ إلى قلبى منذ لقائى الأول به فتوثّقت صلاتنا مع الأيام ، نتجاذب أطراف الحديث فى موضوعات شتى من موضوعات الساعة لاسيا مايمسّ السياسة . وكنت ألمس على الدوام تعاطفه مع حركات التحرر فى الشمال الأفريقى وشجبه للبطش الذى تمارسه القوات المسلحة الفرنسية ضد الوطنيين . ومع أنى كنت أسعد بهذا التعاطف إلا أننى التزمت جانب الحذر فى مبدأ الأمر، وشيئا فشيئا أخذت أعرض لبعض المعلومات التى كنت أحصل عليها وأصارحه بحاجتى إلى التثبت من صدقها ، فكان يزيدنى عنها بيانا بكل ماعنده مما جعلنى بعدُ أثق بما يقول . وكانت شخصيته تشدّنى وسط المناخ المعادى الذى أعيش فيه ، فلم تكن مودّته وحدها هى موضع تقديرى بل لقد كانت سجاياه كلها تشيع نبلا ورقة وإنسانية . و بقدر ما كانت ثقافته متنوعة وغزيرة كانت رؤيته السياسية ثاقبة إلى آماد بعيدة . غير أن أكثر ما كان يتيح للقاءاتنا أن تمتد حتى بعد أن نفرغ من أحاديثنا المستفيضة هو أننا كنا على مشرب واحد فى التذوّق الموسيقى والأدبى ، وكان هذا رباطا إضافيا فوق روابط الاهتمامات السياسية والإنسانية . ولست أعتقد أن السنين مع تتابعها سوف تُنسينى تلك الشخصية النادرة واتسام نظرته الإنسانية بالشمول والنزاهة والتجرّد إلى الحد الذى يجعله يُدين سياسة حكومته الباغية ضد شعب آخر مستضعف ولا يبغى من وراء رفع الظلم عنه أى مطمع . إنه الإيمان المطلق بالحرّية أنّى كانت و بالعدل حيث كان ، وهو بهذا كان فى رأيى يحتل الذّروة التى ينشدها كل إنسان متحضر.

وقد فاجأني يوم السبت ٢٧ أكتوبر حين اتصل بي مبكرا ليتفق معي على لقاء عاجل في صباح نفس اليوم على غير العادة وفي مكان قصي ، وهو ما جعلني أدرك خطورة ما سوف أستمع إليه من أنباء ، وقد كان لديه بالفعل الجديد والخطير. فقد حدثني أولا عن الاتفاق السري بين بريطانيا وفرنسا على غزو مصر والذي كان المفروض أن يقع يوم ١٥ سبتمبر حيث كانت الخطة تستهدف الهجوم على الإسكندرية والتمهيد لذلك بتوجيه جملة ضربات مركزة بالطيران على المطارات المصرية وإنزال قوة من جنود المظلات تسبق عملية الاقتحام للاستيلاء على رأس شاطىء حتى يتم تدفق الجنود والمعدات وباقي قوات الغزو ودعم عملية الإنزال بمدافع وطائرات الأساطيل البريطانية والفرنسية ، على أن تخصص قبرص قاعدة للفرنسيين ومالطة للبريطانيين ، غير أن الجانب الفرنسي عاد فاعترض على الإنزال في الإسكندرية مفضلا بورسعيد ، ملوحا بضرورة إقحام اسرائيل في المعركة لزيادة عدد القوات المهاجمة حتى تصبح ٣ : ١ مما يزيد من فرص النجاح أمامهم ، فضلا عن أن إشراك اسرائيل في الصراع يخلق ذريعة مقبولة للتدخل البريطاني الفرنسي أمام الرأي العام . ثم أردف أن هذه الخطة قد ألغيت بعد أن أحس واضعوها أن شيئا منها قد تسرّب إلى مصر وأن القيادة المصرية قد أعدّت العدّة للتصدّي لها ، واستبدلت بها خطة جديدة حرص على إبلاغي بها فور معرفته بها كانت على الوجه التالي : **تم اتفاق جديد بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل على قيام قواتهم المسلحة بعدوان منسّق على مصر، فتهاجم اسرائيل سيناء لتهيىء الذريعة وتحكم الشرك . وبعد فترة وجيزة تكفي لاستدراج الجيش المصري إلى سيناء ومحاصرته فورا توجه بريطانيا وفرنسا إنذاراً إلى مصر، تعقبانه بتمهيد جوي مركّز يقوم به السلاح الجوي البريطاني والفرنسي لتدمير المطارات الحربية والتحصينات والأهداف الحيوية والحشود والقواعد العسكرية والدفاعات الساحلية ، ويتلوه إنزال قوات الاقتحام ببورسعيد للاستيلاء على الهدف الرئيسي وهو قناة السويس . وأضاف أن الخطة قد تم التصديق عليها نهائيا كي تنفذ خلال الأيام القليلة التالية بموعد أقصاه الرابع من نوفمبر حتى تنتهي العملية قبل الانتخابات الأمريكية في ٦ نوفمبر، وأن كل الاستعدادات قد اكتملت للتنفيذ .**

وهكذا أتاح الله لي أن تُساق إليّ وأنا في عقر داري تلك المعلومات الخطيرة .

ولم يكد ينتهى لقائى معه حتى خلوت إلى نفسى لأتخفّف من ذهولى لإقدام دولتين عظميين بالتواطؤ مع إسرائيل على مثل هذه الجريمة وأخذت أفكر فى أضمن طريق وأسرعه لإبلاغ الرئيس عبدالناصر بخطة العدوان التى غدت بين يدى كاملة حتى يتدارك الأمر قبل وقوعه . وقد تبيّن ـ فيما بعد ـ أن هذه الخطة بحذافيرها هى التى تم توقيعها فى سيفر يوم ٢٢ أكتوبر دون تعديل . فكرت فى أن أسارع بإبلاغ المخابرات الحربية بهذه الخطة ببرقية شفرية ، غير أن تحركاتى كانت تحت رقابة فرنسية مشدّدة فخشيت بعد أن تحلّ السلطات الفرنسية رموز الشفرة وكان هذا أمرا ميسورا وقتذاك أن تستدل على مصدر هذه المعلومات ولن تتورع عندها عن اغتياله أو محاكمته والدخول فى تعقيدات كنا فى غنى عنها ، فعدلت عن هذه الوسيلة . وكذلك استبعدتُ فكرة إرسالها بالحقيبة الدبلوماسية تجنّبا للتفتيش الذى كنت أعلم أن أجهزة الأمن الفرنسية الواقفة لنا بالمرصاد تمارسه بضراوة ، فضلا عن خشيتى من أن يطول بها الوقت قبل أن تصل فى موعد مناسب . ومن ثم عقدت العزم على إرسالها مع رسول خاص يكون بعيدا عن شبهات سلطات الأمن الفرنسية وفى نفس الوقت أطمئن إلى أنه سينفّذ تعليماتى بكل دقة وأمانة . وقد وقع اختيارى على السيد عبدالرحمن صادق الملحق الصحفى بالسفارة المصرية بباريس ، فلقد كانت لى به صلات وطيدة تقوم على الثقة والتعاون الوثيق ، وكذا كانت صلة عبدالناصر به . وكنت أضمن فيه سعة الحيلة وأنه سوف لا يعوقه شىء عن لقاء الرئيس وتسليمه رسالتى . فدعوته إلى مكتبى على عجل ، وأحطته علما بخطورة المهمة التى رأيت إسنادها إليه ووجوب وقوف القيادة المصرية بأسرع ما يمكن على ما يحمله من معلومات شديدة الأهمية مما قد يعرّضه لمخاطر بالغة ، فأصرّ مع ذلك على الاضطلاع بها .

وقد توخّيت أن تكون رسالتى إلى عبدالناصر شفويّة تجنّبا لأى احتمال مهما كان ضئيلا بأن تقع فى أيدى الأعداء . ثم اصطحبت عبدالرحمن صادق إلى منزلى حيث سجّلت المعلومات الواجب إبلاغها كتابة وطلبت منه استذكارها عن ظهر قلب مبيّنا أن مستقبل مصر يتوقف على كفاءة ذاكرته . وكلما أعادها علىّ طلبت منه مزيدا من الاستذكار حتى إذا اطمأننت تماما إلى أنها قد رسخت فى ذهنه أحرقت أوراقى ، وطلبت إليه إبلاغ هذه الرسالة الهامة إلى عبدالناصر نفسه

لالشخص سواه . وقد رأيت أيضا أن أحمّله رسالة مكتوبة بخط يدى إلى جمال عبدالناصر تتضمن تفاصيل لا تمثّل الحقيقة لخطة عدوان نسجت خيوطها مما انتهى إلينا من خطط الهجوم المتعددة الملغاة على مصر والتى كانت معدّة للتنفيذ منذ الأسبوع الثالث من سبتمبر، وذلك بهدف التعمية إذا حدث ووقعت فى أيدى رجال الأمن الفرنسيين الذين كانوا يطوّقون السفارة ورجالها بنطاق المراقبة الدقيقة ، وهو كفيل بإبعاد أذهانهم عن أننا ظفرنا بمعلومات عن الخطة الحقيقية ، هذا فضلا عن وصف المناخ السياسى الذى كانت تعيشه فرنسا وقتذاك ، وماكان من تعبئة النفوس ضد مصر وتهيئتها للحرب . كما تعمدت أن يغادر الرسول فرنسا على أنه فى طريقه إلى بروكسل لا إلى مصر، فكلفت سكرتيرتى الفرنسية بحجز تذكرة سفر له إلى بروكسل ذهابا وإيابا على أن يغادر باريس صباح الأحد ٢٨ أكتوبر و يعود ــ نظريا ــ فى اليوم نفسه قبل الثامنة مساء . ولتغطية هذه الرحلة العاجلة والمفاجئة كلّفت مساعدى الصاغ عيسى سراج الدين بإعداد حقيبة تحتوى على مصابيح رادار لتشغيل أجهزة المدفعية المضادة للطائرات كانت القاهرة فى مسيس الحاجة إليها ليحملها معه ، وكأن رحلته إلى بروكسل هى لتوصيل الحقيبة والعودة إلى باريس . وأترك لعبدالرحمن صادق أن يصف بنفسه رحلته فيقول :

« غادرت الفندق الذى كنت أسكنه فى اليوم التالى (الأحد ٢٨) تاركاً به كل متاعى وذلك تمويها دون أن أحمل حتى حقيبة صغيرة . وقصدت مطار لوبورچيه ، وأنا احمل فى يدى الحقيبة التى تحوى لمبات الرادار، وركبت الطائره المتجهة إلى بروكسل فى الساعة الثامنة صباحا . وبوصولى إلى بروكسل وابتعاد الأخطار نسبيا ، بدأت رحلتى إلى القاهرة .

ولن اتحدث عن تفاصيل هذه الرحلة ، والمشاعر التى مرت بى خلالها وما قمت به من استعادة الرسالة الشفوية فى ذهنى مرارا وتكرارا ، وتعجّلى الزمن للوصول خاصة بعد أن أرغمتنى الحقيبة التى تحوى لمبات الرادار (٢٣ كيلوجراما) والتى ظللت أحملها مربوطه فى ذراعى ، على البقاء جالسا الساعات الطويلة فى المطارات والطائرات دون أن أحرك ساقى ... يكفى أن أقول أن الرحلة استغرقت عشرين ساعة ونصف ، إذ وصلت القاهرة فى الرابعة والنصف من فجريوم الاثنين ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٦ .

ذهبت إلى فندق الكونتنتال ، وأغلقت باب غرفتي جيدا ، ونمت حتى الساعة التاسعة ، ثم قصدت إلى إدارة المخابرات الحربية بكوبري القبة ، حيث سلمت حقيبة لمبات الرادار إلى جمال الشناوى مدير قسم الملحقين العسكريين ، فأعرب عن فرحة غامرة عندما علم بمحتوياتها ، وقال أنهم ينتظرون هذه اللمبات بفارغ الصبر، إذ بدونها لم تكن المدفعية المضادة للطائرات لتعمل .

اتصلت بعد ذلك بسكرتارية الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، فعلمت أنه في القناطر، وأنه سيكون ظهرا في مكتبه في مجلس الوزراء ، وهناك أبلغه رسالتي . وفي الواحدة والنصف أو بعدها بقليل ، يوم ٢٩ اكتوبر، قابلت على صبري (مدير مكتب الرئيس الراحل في ذلك الوقت) في الدور الثاني بمبنى مجلس الوزراء ، وسلمته الرسالة المكتوبة ، وذكرت أمامه الرسالة الشفوية . بدت عليه الدهشة ، ولكنه لم يفصح عن سبب دهشته ، هل لأنه لم يصدق ؟ لا أعلم . تركني على صبري في مكتبه ، وطلب مني الانتظار. بعد وقت قصير استدعيت لمقابلة الرئيس الراحل عبدالناصر.

كان يقف في منتصف حجرة مكتبه ، وفي يده الرسالة المكتوبة التي كنت سلمتها لعلى صبرى ، ولاحظت أنه متجهم ، كما لم أره متجهما أبدا . صافحته ، وقلت « ازيك ياسيادة الرئيس ؟ » قال « الحمد لله .... ازيك أنت ؟ » وأضاف فورا « على قال لى ... إيه الموضوع ؟ » . ذكرت ماعندى ، واستمع بغير أن يتكلم ، حتى انتهيت من الكلام ، فقال : « منين جبتوه الكلام ده ؟ » . قلت « القائمقام ثروت عكاشه حصل على هذه المعلومات من مصدر داخل العملية نفسها ، و يؤكد جدا صحة معلوماته » . قال سيادته : « قول كده المعلومات دى تانى » .

كررت ماعندى ، وكان ينصت وهو يتطلع إلى الأرض أمام قدميه ، فلما توقفت ، علق سيادته بقوله : « مش معقول الكلام ده » . سألته : « لماذا يا سيادة الرئيس ؟ » . قال : « مش معقول ينزلوا (بريطانيا وفرنسا) للدرجة دى » . قلت : إذا سيادتك سمحت ، السياسة ليس فيها ثوابت ، وكل شيء جائز، ورأيي أنه من الأفضل أن نعرف ثم نتبين كذب هذه المعلومات ، من أن نتجاهلها ثم يثبت أنها صحيحة بعد فوات الأوان » .

غيّر الرئيس عبدالناصر الموضوع ، سألني « حترجع باريس امتى ؟ » قلت : أنا كنت ناوى ارجع الليلة دى ، لكن تعبان جدا ، وسأعود غداً أو بعد غداً » . قال : « أشوفك قبل ماتسافر» ثم صافحني وغادر المبنى .

وعند غروب ذلك اليوم ، عبرت القوات الاسرائيلية الحدود المصرية متوغلة فى سيناء ، وبدأ تنفيذ خطه العدوان الثلاثي . إذ ذاك ، حمدت الله على أننى تمكنت من الوصول إلى القاهرة فجر ذلك اليوم ، وأننى لم أسوّف فى سفرى من باريس ، وأنه أمكن توفيق مواعيد الطائرات لإتمام الرحلة ، وأننى لم استسلم للإرهاق فأقطع الرحلة فى إحدى البلاد للراحة بضع ساعات » .

هذه كانت شهادة عبدالرحمن صادق الذى حمّل المعلومات بنفسه إلى الرئيس عبدالناصر ، تلك المعلومات التى كشفت له منذ اللحظات الأولى عن أن العدوان الثلاثى يهدف بالفعل إلى إيقاع القوات المسلحة المصرية بين فكّى الكماشة داخل سيناء لتدمير السلاح المصرى تدميرا كاملا ولتشتيت شمل أفراده .

* * *

وأذكر بعد عودتى إلى مصر فور انتهاء العدوان الثلاثى أن بادرنى جمال عبدالناصر حين لقيته بقوله ضاحكا . « لقد نفذنا من ثقب إبرة بإذن الله » ، ثم أردف قائلا : « الحق إنى لم أصدق فى مبدأ الأمر إمكان حدوث مثل هذا التواطؤ الثلاثى برغم ما أبلغتنى به ، إذ كان حدوث هذا من المستحيل فى تقديرى » .

حينئذ فقط أحسست براحة تشيع فى وجدانى حين رأيت أن جهدى فى منصب الملحق العسكرى كان له جدواه ، وكان هذا ختاما للمرحلة العسكرية من حياتى رضيتُ به نفساً .

وأذكر كذلك أننى حين ذهبت إلى دار أخبار اليوم بعد هذا اللقاء بأيام لزيارة صديق لى هو الأستاذ السيد أبوالنجا التقيتُ على باب المصعد صُدفةً مع الأستاذ محمد حسنين هيكل ، فإذا هو يرحّب بى فى حماس و يشدّ على يدىّ منشيدا بما بلغه على لسان الرئيس عبدالناصر من أمر خطة العدوان الثلاثى التى كنت قد أرسلتها إليه . ومرّت الأعوام ، وإذا أنا أطالع فى صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٩٨٦ حلقة من كتاب « ملفات السويس » البالغ القيمة والأهمية للأستاذ هيكل جاء فيها : « أن التحرك العسكرى الإسرائيلى جاء مفاجئا لعبدالناصر ، ولم يرسببا واضحا يبرّره فى هذا التوقيت بالذات » . ولفت نظرى كذلك ماجاء فى هذه الحلقة من أنه « من الغريب أن جمال عبدالناصر لم يتنبّه إلى احتمال التواطؤ حتى بعد أن قرأ نص البيان الاسرائيلى عن نزول قوات اسرائيلية فى منطقة قرب قناة السويس (عملية ممّر

ميتلا) فقد راح يقرأ سطور هذا البيان وهو جالس فى مكتب القائد العام للقوات المسلحة و يعيد قراءته و يتصل بهيئة العمليات ثم يبدى استغرابه لإقحام اسم قناة السويس فى البيان » ، إلى أن يقول الكاتب « أما أن يتعاون الكل معا (يعنى الدول الثلاث) فى خطة سرية على النحو الذى ظهر فيما بعد فهذا ما استبعده من أول لحظة وظل يستبعده لساعات طويلة » . ثم يعود فيقول « وصباح ٣٠ اكتوبر كان جمال عبد الناصر لا يزال يستبعد احتمال التواطؤ إلى درجة أنه طلب منى أن أتوجه إلى السفير الأمريكى ... والآن بدأ شبح التواطؤ ماثلا للعيان ، ولكن عبد الناصر كان غير قادر على التصديق ، ولعله لم يصدّق تماما إلا عندما انتهت فترة الانذار فى الساعة السادسة بعد الظهر بتوقيت القاهرة ، وبدأت أول غارة للطائرات البريطانية على مطار ألماظة الملاصق لبيته » .

والحقيقة أن الرئيس جمال عبد الناصر لم يُفاجأ ؛ وقد أشرت إلى تفصيل هذا فى صفحات سبقت من هذا الفصل ، يقرأ القارىء فيها أنى كم أرسلت إليه برقيات ورسائل خاصة بهذا الموضوع ، منها ما هو إلى عبد الناصر خاصة ومنها ما هو إلى المخابرات الحربية المصرية ، وكان هذا بدءاً بالأيام الأولى من شهر يناير ١٩٥٦ . وحملت هذه الرسائل والبرقيات ما يشير قطعا إلى أن السياسيين والعسكريين من الفرنسيين باتوا يؤمنون الإيمان كله بأنه لابد من ضرب مصر عسكريا ، كما باتوا يؤمنون بأنه لابد من تحريض اسرائيل على شنّ هجوم على مصر ، وأخذوا بالفعل يمدّونهم بما هم فى حاجة إليه من سلاح لازم لهذا الهجوم إمداداً يفوق الوصف ، وزاد هذا الإمداد بعد تأميم القناة . وكذا يطالع القارىء فى تلك الصفحات أنى كم بعثت إلى القاهرة بتفاصيل تحركات ومواقع حشد التشكيلات الحربية الفرنسية برّية وجوّية وبحرية استعدادا للهجوم يوما بيوم منذ شهر أغسطس ١٩٥٦ . وكذا يقرأ القارىء ما كان من أنباء عن الاجتماعات المريبة بين السلطات الفرنسية والإسرائيلية التى يحيكون فيها مكيدة تهيىء لعدوان ضد مصر على صورة ما . وكان آخر ما أرسلت إلى عبد الناصر خطة العدوان الثلاثى كاملة كما انتهت إلىّ فى ٢٧ اكتوبر ١٩٥٦ . هذا إلى تقارير أخرى من الملحقين العسكريين المصريين فى شتى أنحاء أوربا تضمّها ملفّات المخابرات الحربية التى تزخر بالكثير مما كنا نحبّ أن يرجع إليها المؤلف ليستأنس بما فيها كما استأنس بغيرها من ملفّات أجنبية قبل أن ينتهى إلى ما انتهى إليه

واليوم تتوارد على ذاكرتى سنوات القلق التى عشتُها أسير مهام منصبى العسكرى الأخير، وصور أولئك الأصدقاء المخلصين لمبادىء الحرية والعدالة من العسكريين والمدنيين الذين أمدّونى بما لديهم من معلومات مفيدة لبلادى فى معركتها ضد الاستعمار الشرس والصهيونية النّهازة. وكانت أكثر الصور إشراقا فى ذاكرتى صورة الصديق الفرنسى النبيل الذى أسرّ لى بخطة العدوان. لقد ظلت صورته تلاحقنى شهرا بعد شهر، وخطر لى أن تقدم له مصر هدية تكون رمزا لاعترافنا بصنيعه الجليل، ترك لى جمال عبدالناصر الحرية التامة فى اختيارها، وحادثته فى ذلك فكان ردّه حازما حاسما بل غاضبا أيضا إذ قال: « لوأنى تلقّيت شيئا منك لكان معنى هذا أننى لم أكن أومن بمبدأ أخدمه، وأننى أخون وطنى من أجل مطمح شخصى ».

أما رسالة التعمية المكتوبة بخط يدى إلى عبدالناصر فقد أثبتّها هنا فى الحاشية(٨) كما هى مدوّنة فى النسخة التى احتفظت بها.

٤
باريس بعيداً عن السياسة والحرب

أتيت إلى باريس وأنا أحمل ضمن ما أحمل أملا فى تسجيل بحثى لنيل درجة الدكتوراه من جامعة باريس بعد سحب أوراقى من جامعة فريبورج بسويسرا ، غير أنى لم أتمكن من تسجيل موضوع « جبران خليل جبران » لأن دارسا لبنانيا قد سبق وسجّل هذا الموضوع ، ولوائح الجامعة لاتجيز تناول نفس الموضوع المسجل قبل مضى مدة معينة . وكانت هذه صدمة عنيفة لى ، أن أتخلى عن أديبى العربى الأثير خففها عنى الأستاذ ريچيس بلاشير حين قبل متفضلا أن يكون مشرفا على رسالتى ، وعرض علىّ أن أتناول الأديب المؤرخ « ابن قتيبة الدينورى » ، حياته وما كان له من آثار فكرية ، هذا إلى تحقيق كتابه « المعارف » الذى كان يعدّ موسوعة جمعت كل مايعنى الناس أن يعرفوه عن أسلافهم وماينقل لهم من حديث ، وبمعنى آخر كان لونا من ألوان الثقافات الذى حرص الناس خلال القرن الثالث الهجرى أن يعرفوه .

ولقد كنت مترددا ، إذ كيف لى أن أجمع بين شغفى بألوان الفن الذى تزخر به باريس وبين الأدب العتيق الذى تضمّه خزائن الكتب . لكن الأستاذ بلاشير

لم يتركني وشأني ، بل أخذ يدحض مايجول بذهني ومايخطر ببالي حجة بعد حجة ، مبيّنا لي ماهذا العمل الذى اقترحه علىّ من قيمة ، إذ كان فى رأيه إضافة نفيسة إلى الحقل الأدبى العربى . وكان مما ضمّنني إلى رأيه فى النهاية مصارحته لى بأنه كان معتزما النهوض بهذا العمل قبل عرضه علىّ وقوله لى : « لقد كان فى نيّتى أن أنهض أنا بهذا الموضوع ، إذ هو مما يشغلنى . فإذا لم تكن راغبا فى أن تمضى فيه كما أشرت عليك تكون قد أتحت لى الفرصة فى أن أعود إلى ماكنت أنتويه » . ولم أتردد ساعتها فى القبول مقابل أن يترك لى حرية اختيار موضوع الرسالة الإضافية [المكمّلة] للدكتوراه وكان « صدى مدرسة التصوير الانطباعية بفرنسا فى الموسيقى » ، فكان لى ما أردت ، وأقدمتُ على تسجيل رسالتى بالسوربون فى ٢٢ نوفبر ١٩٥٤ واجتزت امتحان المعادلة فى ١٣ ديسمبر ١٩٥٥ على يدى الأستاذ برونشفيج .

ولقد كان من توفيق الله أن قيّض للإشراف على رسالتى الأستاذ بلاشير المستشرق الذائع الصيت الذى نقل معانى القرآن الكريم إلى الفرنسية وأستاذ السوربون الذى اشتهر عنه ميله القوى إلى العرب والذى حفل سجله بالكفاح المشرف ضد الاستعمار الفرنسى ، كما زخرت الصحف بمقالاته النارية ضد المارشال چوان حين عزل السلطان الشرعى للمغرب وضد وزير الخارجية الفرنسية وقتذاك چورچ بيدو . وقد رأيت فى هذا الرجل الفذ مثلا جديرا بالتقدير ، فكان بحسّه السياسى النبيل يقف إلى جانب مواطنى شمال أفريقيا مدافعا عن حقوقهم المشروعة من خلال رابطة « فرنسا ـــ المغرب » التى أسّسها وضم إليها الكثير من المستشرقين والأدباء الأحرار من الفرنسيين ، من بينهم المستشرق الكبير لوى ماسينيون . ولم يكتف بهذا بل نراه فيما بعد ينشر المقالات المندّدة بالعدوان الثلاثى على مصر ، و يتكبّد مشقة السفر ـــ وهو شبه ضرير فى أواخر أيامه ـــ إلى حيث يلقانى ـــ وكانت العلاقات مقطوعة بين مصر وفرنسا ـــ لتوجيه النصح والتحذير من مكائد تدبر فى فرنسا ضد مصر . ولست أنسى ما حييت عونه العلمى الكبير لى ، فطوال المدة التى قضيتها بباريس كان يستقبلنى فى بيته ٧ شارع إميل دوكلو أمسية كاملة كل أسبوع يخلوفيها الىّ ، أتلقّى عنه المعرفة التى يبذلها فى سخاء وتفان ، وأظفر بالتوجيه السديد لمجرى رسالتى ، والمساعدة فى الحصول على

المراجع ، والنصح بما ينبغي الحصول عليه من مستنسخات مصوّرة للمخطوطات من شتى دور الكتب والمتاحف المنتشرة فى أرجاء العالم ، لايضنّ عليّ بوقت أو جهد متحمّلا فى صبر انقطاعى عن العمل فى الحين بعد الحين لما كان يقوم فى سبيلى من ظروف عمل معوّقة . إن القدوة التى ضربها هذا الأستاذ الجليل بعلمه الغزير وتواضعه الجم وخلقه النبيل وإيمانه برسالة الحق والعدل تجعلنى أزهو لأن القدر شاء لى أن أتتلمذ لفترة ما على يديه ، وأنى كنت حتى لقى ربّه واحدا من أصدقائه المقرّبين رحمه الله رحمة واسعة .

وفى خلال ربيع ١٩٥٦ كانت رسالتى قد أوشكت على الانتهاء ، وأنهى الىّ الأستاذ بلاشير أنه قد تحدّد شهر مايو ١٩٥٧ لمناقشتها . غير أن ظروف العدوان الثلاثى وقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا قد اضطرتنى إلى مغادرتها فى ١٥ نوفمبر ١٩٥٦ وانقطعت صلتى خلال الشهور التى تلت هذا انقطاعا تاما بفرنسا ، وقد سادت العلاقات بيننا و بين فرنسا قطيعة لم تكن لتتيح لى أن أتردد على فرنسا لأناقش رسالتى . على أن صلتى بالأستاذ بلاشير لم تنقطع فتارة كنت ألقاه بأوربا ، وتارة أخرى نتراسل إلى أن وصلتنى منه رسالة فى الثالث من ديسمبر ١٩٥٨ كى أبعث إليه بنسخة مطبوعة بالآلة الكاتبة ليتمكن من تقديم تقريره إلى مدير جامعة باريس ليحصل على الإذن بطبع الرسالة التى يقضى قانون الجامعة بأن أقدم منها مائة نسخة ، ولم يلبث بعد أن وصلته بشهرين أن كتب الىّ فى ٧ فبراير ١٩٥٩ معبّرا عن رضائه بما انتهيت إليه فى رسالتى ، وألحق فى خطابه الذى ضمّنه إذن الطبع ثبتا بملاحظاته وتصويباته الأخيرة بخط يده ، والتى استرشدت بها عند طبع الرسالة ، وحدّد لى يوم ٣٠ مارس ١٩٦٠ موعدا للمناقشة على أن أقضى على الأقل شهرا فى باريس ، وطلب أن أكتب إليه برأيى فى ذلك ليتمكن من حجز قاعة المناقشة . وكنت وقتها وزيراً للثقافة والعلاقات بين فرنسا ومصر مقطوعة ، وكان الرئيس فى دمشق فطرتُ إليه ولقيته على مائدة الإفطار فى شهر رمضان عارضا عليه هذه المشكلة . فلفتنى إلى أنه لم تجر العادة بأن يكون للوزراء أجازة تستغرق شهرا يتغيّبون فيه عن مناصبهم ، هذا إلى ما كان بيننا و بين فرنسا من موقف غاية فى الحساسية . لكنه مع إصرارى وما أحسّه منى من إيثار للحياة العلمية على منصبى الوزارى وافق على أن يمنحنى شهر مارس للسفر

إلى فرنسا لاستكمال الرسالة المكمّلة والإعداد لمناقشة الرسالة الأصلية . والغريب أن موعد النقاش قد حان وأنا مصاب بنزلة شعبية حادة لم يكن أمامى إلا أن أحملها بين جنبيّ وأتحامل على نفسى والحمّى تهتصرنى ، وإذا بهذه المحنة تنقلب نعمة ، فقد أنزلت علىّ سكينة أعانتنى على النقاش الهادىء .

قادتنى قدماى صبيحة ذلك اليوم متحاملا على نفسى ويجيش صدرى بمختلف المشاعر مابين الرهبة والفرحة إلى أن دلفت إلى قاعة الفيلسوف لوى ليار Luis Liard التى تقع إلى يمين مدخل مبنى جامعة باريس والمخصصة لمناقشة رسائل الدكتوراه بالسوربون . راعتنى القاعة بحجمها المتوسط المعتدل وبجمعها بين المهابة والألفة ، وبدت لى تحفة تليق بأبهى القصور من روعة ماتحلّت به من زخارف منحوتة مذهّبة وماغشّى جدرانها وسقفها من لوحات مصورة على يد المصور فرانسوا شوميه . بهرتنى الزخارف المذهبة الكثيفة على الجدران والتى طمسها مرور الأيام فاختفت منها ومضة التألّق . ولفتنى أول مادخلت القاعة تلك الجامات المذهبة التى تحمل صور عظماء القرن السابع عشر، وكان أول ماجابهنى منها فى صدر القاعة صورة الكاردينال ده ريشيليو، ومن حوله معاصروه الأدباء راسين وديكارت وبوسويه وپاسكال ، وعلى جانبى المدخل كورنى وموليير . حتى إذا ما استويتُ قاعدا واشرأبّ بصرى إلى السقف راعنى منظر رمزى لطالب علم يرتدى روب الأساتذة الأسود وعلى كتفه وشاح أصفر مزدان بالفراء وقد بدا منهمكا بين أكداس الكتب من حوله محملقا بعينيه فى كتاب مفتوح ، ومن فوق رأسه ربّات ثلاث محلّقات ، إحداهنّ ربّة التاريخ والثانية ربة الفلسفة والثالثة ربّة العلوم ، وتهيمن على هذا الجمع كله ربّة الحقيقة فى أبهة وجلال ممسكة فى يدها بمرآة وقد سقطت بين يديها فى هاوية ، ربّة الجهل . وفى أعالى السماء يرفرف اثنان بضّان من ولْدان الحُب يحملان رنكا منقوش عليه « جامعة باريس » . وفوق لفافة تلتف حول هذا الرنك نجد بيتا من الشعر يقول : « إن الشباب يعيش أبدا على ذكرى الآباء والسعى فى سبيل الحقيقية » .

لم يكن عندها إلى جانبى ثمة مصرى واحد حاضرا يؤنس وحدتى إذ كانت العلاقات الدبلوماسية عندها مقطوعة بين مصر وفرنسا كما قدمت . ولقد دهشت حقا حين رأيت القاعة زاخرة بجموع من الاسرائيليين ، ولعلهم خفّوا الى القاعة

ليشهدوا ماسيكون من أمر هذا الوزير المصرى ومناقشته . على أنى مع هذا وذاك لم أفقد إلى جانبى نفراً من الأصدقاء الفرنسيين و بعض معارفى من منظمة اليونسكو. و بدأ المناقشة الأستاذ بلاشير لمدة ساعة ثم تلاه الأستاذ لاَوُوشت الذى استغرقت أسئلته ساعة أخرى ، وتلاهما الأستاذ پيلاّ الذى فاجأنى بقوله : « إذا كان زميلاى قد تلطّفا بك قرابة الساعتين فقد آن الأوان كى أهزّك هزّا غير رفيق » . وإذ كانت الحمّى ماتزال تحوطنى بسياج السكينة فإنه لم ينجح فى إثارتى بأسئلته المفاجئة على امتداد ساعة من الزمن كنت خلالها صافى الذهن فوفّقنى الله الى صياغة الإجابات القويمة .

وحين انتهت المناقشة اختلت هيئة المحكّمين وعادت لتعلن رأيها مجمعة على منحى درجة الدكتوراة فى الأدب من جامعة باريس بمرتبة الشرف الأولى Très honorable . وكم كنت سعيدا لحظتها ، فلقد عددت نفسى قد نلت أعظم ماصبوتُ إليه ، ولم أعد بعدها أشعر بهزّة الحمّى ، وأقبل علىّ أصدقائى يهنئوننى ، وفوجئت عند خروجى من باب القاعة بوجود الأساتذة الثلاثة واقفين صفاً رافعين قبعاتهم تحية لى . وللمرة الأولى يخاطبنى الأستاذ بلاشير بوصفى وزيرا بعد أن انتهت فترة تلمذتى على يديه و يوجّه إلى باسم مدير جامعة باريس دعوة لحضور الحفل الذى يقيمه تكريما لى .

* * *

ولم تكن صلاتى بباريس مقصورة فى عالم السياسيين والعسكريين بل تعدّتها إلى رجال الأدب والفن الذين تركوا أثرا عميقا فى نفسى وأثروا معارفى . وكان أقرب المقرّبين التّى ممن صادقتهم مؤرخ الفن وعالم الجماليات الفيلسوف رينيه و يج عضو الأكاديمية الفرنسية والأستاذ بالكوليج ده فرانس . وهو فيلسوفاً إلى جانب كونه إنساناً يؤمن بأن ثمة رابطة بين الإنسان والعالم المرئى وأنه إذا تعمق تلك الرابطة أمكنه أن يعى الفلسفة التى تنطوى عليها فنون التصوير والنحت . وتعدّ مؤلفاته من أعمق ماكُتب عن جماليات الفن وتاريخه ، وإن كانت مطالعتها شاقة عسيرة تتطلّب جهدا ذهنيا كبيرا ، غير أنه وهو يقدم نفسه فى هذا الإطار لايتعالى على الناس ولكنه يستهدف مخاطبة الجماهير عن طريق الروّاد .

وتقوم فلسفة و يج على أن وظيفة الفن الرئيسية هى خلق الوسيط بين الكون والإنسان ، فالفن يهيىء مكان اللقاء بين الواقع المادى الملموس والواقع الروحى المحسوس سواء عن طريق الفن الزخرفى الخالص الذى يحاكى الطبيعة ، أوعن طريق الفن الإبداعى الخلاق الذى يسعى إلى تفسير الطبيعة . وأرى أنه صاحب نظرة تركيبية تكاملية ينظر إلى الموضوع من خلال ارتباطاته المختلفة بغيره من الموضوعات ، وهو فى الوقت نفسه صاحب عقلية تحليلية تعنى بدراسة عناصر الموضوع وجزئياته الدقيقة . وإذ كان خطر التخصص المسرف يهدد عصرنا فإن ر ينيه و يج — دون إنكار منه لأهمية البحوث الفرعية الضرورية — يطمع فى أن تكون لصاحب العقلية التحليلية نظرة شاملة إلى « الكل » .

وإذا كانت لر ينيه و يج حين يقف محاضراً القدرة على أن يحرّك النشوة فى فكر مستمعيه فإنه يعرف أيضاً كيف يثير انتباههم ويحلّق بهم خارج حدود موضوعه الأصلى عبر الأفكار الفلسفية والعلمية وتاريخ الأدب التى تُغْنى معارفهم وتزيدهم قدرة على فهم الفكرة الجمالية التى يناقشها . وإذا كان الفنان يرسم اللوحة وهى أولى الخطوات فى هذا الميدان ، والناقد ينتقدها إن مدحاً أوقدحاً ، فإن مؤرخ الفن يضفى الأهمية التاريخية على العمل الفنى فى نزاهة تامة وحياد مطلق ، كما يحلل تأثير الأساتذة القدامى والمحدثين فى تكوين هذا العمل الفنى وتشكيله . ومهما كانت العقبات التى تصادف مؤرخ الفن فى محاولاته فلا مناص أمامه من الالتقاء « بالروح » . وهنا يجب أن تتوافر فى هذا المؤرخ كى يؤدى مهمته على أتم وجه صفات عالم النفس الذى استوعب الفن عن طريق خبرته بالتجانس بين الفن وعلوم النفس والجنس ووظائف الأعضاء والأحلام والحب والتصوف وجولات واسعة حول الزمان والمكان ، كى يحدد الدوافع النفسية التى أدت بالفنان إلى أن يرسم مارسمه أوينحت مانحته ، وبهذا يساعد المتأمل المفتون على أن يكتشف بينا هويتطلع إلى العمل الفنى الحالة الوجدانية التى كان يعانيها الفنان وهو يُبدع لنا عمله الفني ، وبهذا أيضاً تسرى فى الموسيقى والشعر والرقص تلك الوثبة الخلاقة التى يدعونا إليها برجسون والتي ترقى بنا إلى القمم وتحيطنا بالتأمل الأليف الذى يفتح للفكر والقلب أبواب « المعبد » أعنى « معبد

الجـمـال » . وهذا بالضبط هو ما اضطلع به مؤرخ الفن الفيلسوف « ر ينيه و يج » فنبغ وأجاد .

أما عـن الجـانـب الإنساني فيه فقد كان جوادا سخيا لايضنّ بعلمه ولاماله . عـرفـتـه مـنـذ أن كـان أمـيـنـا ثم مـديـرا بمتحف اللوفر إلى أن تقلّد سيف أكاديمية الخـالـديـن ، فلـم تـزده رفـعـة مـنـزلته إلاّ تواضعا ودماثة وقربا من قلوب عارفيه . وما أشهرها كلمة كانت تجرى دوما على لسانه أن « لافكاك بين الفن والأخلاق ، فـهما المـعـقـل الأخير الـذى تفزع إليه القيم البشر ية » . ولهذا انتهى إلى أن الفن هو أسـمى المقتنيات ، فهو الذى يمضى بإرادتنا فى الحياة إذ يجعلها جديرة بأن نحياها . فـالـفـن الـيـوم لايـبدو وسط ضخامة التار يخ واحة تنعم بالظلال والهدوء ومسلاة لـطـيـفـة وشـر يطا جميلا تتز يّن به الحياة ، بل أصبح نشاطا رئيسيا للفكر ، ولم يعد هـدفـه محـاكـاة الـطبيعة فحسب على نهج المصور الإغر يقى زوكسيس الذى امتلأ نـشـوة وسـعادة وهو يرقب الطير ينقر عناقيد العنب المصوّرة فى لوحته ، تخالها حقيقة لا رسماً .

أمّا سحر حديثه فليس هو وحده مصدر ذيوع صيت هذا الفيلسوف وإنما لأنه فى نـفـس الـوقـت يـقـدم دائماً إجابات لتلك التساؤلات العميقة التى يثيرها عصرنا الحـالـى . فـفـى هـذا الـعـصر ـــ عصر الإنـسـان المـوجّـه والآلـة الموجّهة والصاروخ المـوجّـه ـــ فى هـذا الـعـصر الذى يُواجَه الإنسانُ فيه بالتحدّى بأن تَقَدُّم الآلة يوشك أن يـتـغـلـب على قـدرة الإنـسـان الذهنية ـــ وهذا ما لا أقرّه فكل ما يستطيع الطابع الآلـى أن يـفـوق فيه الطابع الإنسانى لن يتعدّى فى رأيى سرعة التنفيذ ـــ أقول إنه فى هـذا الـعـصر تـصـبـح ضرورة التمييز بين « الكم » وهى سمة الطابع الآلى و بين « الكيف » وهى سمة الطابع الإنسانى حتمية أكثر من أى وقت مضى .

ولـطـالمـا غـبـطت نفسى على ماظفرت به من صداقة هذا الإنسان الجليل الذى جـابـت كـلـمـاتـه على متن الأثير الـعـالم بأسره ورسخت مكانته فى عواصم الدنيا رسوخها فى بار يس . وما أصدق مايقال عنه من أن حديثه من عطاء السماء ، يشيع إلهـامـا يـسـرى فى أعماق الوجدان ، وتسبق الأيدى بالتصفيق له قبل أن تنبس به شـفـتـاه . أمـا خـصومه ـــ إن كان له خصوم ـــ فغاية ما قالوه عما نسمّيه له سحراً : براعة ، فما من شك فى أن سحره يرقى عن أفهام الكثير ين .

وأقول فى غير حرج إنى قد لقنت عنه الكثير فيما قرأت له وفى جلساتى إليه أوخلال جولاتى برفقته فى المتاحف والقصور والكنائس ، فكم كشف لى بنظراته الثاقبة وإحساسه المرهف وعلمه الغزير وبيانه الجزل عما تكنه الإبداعات الفنية من خفايا وعن عمق الروح التى تُملى على الفنان مايقدم ، فهوحين يعطى من ذاته يعطى فى سخاء وبلا حدود . وفى سنة ١٩٦٨ اختارتنى منظمة اليونسكو نائبا لرئيس اللجنة الدولية لإنقاذ مدينة البندقية ، وكان رينيه ويج رئيسا لتلك اللجنة ، فكانت هى الأخرى فرصة مواتية لأحظى بلقائه أكثر من مرة كل عام ولأعمل معه على مدى عشر سنوات لمست خلالها كم كان وفيّا للقضايا التى ينادى بها أويعتنقها أويتبنّاها ، ولألقن عنه ماينطوى عليه صدره من دراية مستفيضة بالفن والجمال لم يسبقه إليها غيره .

* * *

وكان ثانى هؤلاء المقرّبين الىّ الفيلسوف رينيه ماهيه ، وكان عندما عرفته يتولى منصب المدير المساعد لمنظمة اليونسكو بعد أن عاصر نشأتها وهى تنمو بين يديه ونما هو معها الى أن أصبح فى الستينات مديرا لها ، وغدا الفصل بين شخصيته وبين شخصية المنظمة ضربا من المحال حتى بعد وفاته وإلى يومنا هذا . ذلك أنه لم يكن ينظر للمنظمة بوصفه عاملاً بها بل كان ينظر إليها رسالة وهب نفسه لأدائها . وما كان يدور بخلدى يوما أن الأيام ستدور دورتها وإذا أنا وإياه على رأس فريق اجتمع لهدف نبيل هوإنقاذ آثار النوبة ومن بينها معبد أبوسمبل ، وهوماسأبسط شيئا عنه فيما بعد .

وأضيف أن هذا الفيلسوف كان فى بدء حياته مدرسا للفلسفة وكان مما يصبو إليه القضاء على الأمّية . وما فتىء يردّد أمامى وأمام غيرى ماكان عليه جدّه وجدّته لأمه من جهل بالكتابة وتعطّش للمعرفة ، فكان لهذا كله أثره فيه إبان حياته حماسة ونشاطا . فقد كان يؤمن إيمانا غيرمحدود بأن فى قدرة الإنسانية أن تتغلّب على ذاتيتها إذا ما سمت وارتقت فملكت أمرها . كان هذا الفيلسوف الكبير نقطة تحول وضّاءة فى تاريخ منظمة اليونسكو، وذلك لإيمانه بأن استقلال الدول فى العصر الحديث يتجاوز الأوصاف التقليدية للسيادة ، فالاستقلال فى نظره هو

استقلال النمو القومى ، أى نمو الإنسان بالإنسان ومن أجل الإنسان ، وأن مفهوم النمو يتضمن التعاون الدولى ، وأن الإنسانية تسير نحو حضارة عالمية مدفوعة بقوة التقدم المضطرد للتكنولوچيا ، وبقوة الطموح الأخلاقى ، أى حاجة الإنسان إلى الإطلال على الإنسانية . لقد كان رينيه ماهيه رحمه الله فى كل مابذل من جهد وقدّم من فكر شديد الولاء للقيم التى آمن بها وحرص على أن تثبت وترسخ .

* * *

وفى عام ١٩٦٥ لقيت أديب فرنسا الكبير أندريه مالرو فى أمسية تظل ذكراها دائما مصدر سعادة كبيرة لى ، وهو الأديب المثالى الملتزم والمثقف الذى يجمع بين القول والفعل . لقد دعانى وهو يومها وزير الدولة للثقافة إلى عرض بدار أوبرا باريس تعقبه مأدبة عشاء بمطعم « لاسير » . أما مطعم لاسير الأنيق فيتميّز بتقليد فريد ، إذ تقدم لكل مُختلف إليه « آنية » فضية صغيرة مسجّل عليها رقم تجعله يُؤْثَر على غيره ممن يفدون إلى المطعم حين يزدحم بالزائرين . وعلى أنغام البيانو الهادئة يتناول المرء أشهى ألوان المطبخ الفرنسى . وفى الفينة بعد الفينة ينفرج سقف المطعم آليّا لتغيير الهواء . وقد عنّ لى وأنا أشهد انفراج السقف وانكشاف صفحة السماء عن نجومها المتلألئة أن أسأل مضيفى أنّى طرأت له فكرة تغيير زخارف سقف دار أوبرا باريس ، وكان هذا الموضوع وقتذاك الشغل الشاغل للمهتمين بالفنون وأمور الجمال ، فإذا هو يقول :

« كنت ذات ليلة فى دار الأوبرا ، وإذا أنا فى فترة الاستراحة أتطلع إلى أعلى بحثا عمّا أمتع به بصرى من زخارف تتآلف مع ما أشرد فيه ، غير أنى لم أر إلا قتامة رسوم باهتة لا تتضح خطوطها ولا تتمايز ألوانها الرمادية الكابية . ولا أنكر أن شارل جارنييه [مشيّد هذه الأوبرا] كان عبقريا فى إضفاء النسب المتّسقة على ذلك المبنى الشامخ الأنيق ، إذ أسبغ الوحدة المتناغمة على شتى عناصره الثّرية بزخارفها دون أن يهمل الجوانب العملية ، ولم يفته أن يستعين بمثّالين يرقون إلى مستوى عبقريته يأتى على رأسهم المثّال كارپو ، ولكن ما أدركه فى اختيار المثّالين لم يدركه فى اختيار المصوّرين ، فقد كانت فرنسا فى ذلك الوقت [نهاية عهد الامبراطورية الثانية] يعوزها الممتازون من مصورى الجدران بعد وفاة ديلاكروا العظيم ، فاضطر جارنييه إلى أن يستعين على مضض بخير من لم يلقنوا عنه مايريد فلم يوفّقوا ، إذ أطلقوا العنان لهواهم فجاءت تصاويرهم كما لاشك قد أدركت وفق قدراتهم المحدودة . ومن هنا

كان علىّ أن أسدّ هذا النقص ، ومضيت أسائل نفسى تُرى من يستطيع الاضطلاع بهذا العبء ؟ فكّرت مليا فلم أجد خيرا من مارك شاجال ذى الدراية الواسعة والخبرة العميقة بشئون المسرح والأوبرا والباليه . ومما شدّنى إليه أنه كان لايقف فى زخرفة المبانى العامة عند إضفاء مسحة عابرة على ما يصوّر بل كان يميل إلى إضفاء مايُكسبها الخلود . هذا إلى أنه فنان يجمع بين ملكات متعددة من شعر وموسيقى وتصوير، بل إنه لايرسم إلا مستمعا إلى الألحان موسيقية ، كما ينظم بين الحين والحين أناشيد مرسلة تجمع بين الغناء والإلقاء ، غير أنه يجد فى التصوير حياته التى تخفق مع أنفاسه » .

ومضى أندريه مالرو يكشف لى عن الحماسة التى استقبل بها شاجال اقتراحه بتصوير سقف الأوبرا وحرصه على إتمام العمل الذى أثار بعض النقاد الذين لم يرضهم استبدال السقف الجديد بالسقف الباروكى القديم . واسترسل مضيفى يشيد بفن شاجال قائلا « **إنه يتميز فى تصاويره بابتداعه عالما يطغى عليه الخيال ، وتقوم بين عناصره علاقة تبعث الحيرة والإعجاب . فهو يرمى إلى تحريرنا من قيود الأفكار السالفة لأنه ينظر إلى موضوعاته نظرة تصوّفية توغل فيما بعد الحياة ، ويجمع بين عناصر تكوينه كلها من بشر وطير وحيوان ونبات وجماد وتاريخ ليبدع حلقات متصلة دون أن يتأثر بعوامل خارجية ، إذ منهجه ألا يساير القديم ، فهو ذاتى ... فكرة وإلهاما** » .

ولست أنسى هذا اللقاء الممتع مع الوزير الجليل الذى قدم لى خلال عملى وأنا وزير للثقافة منذ عام ١٩٦٦ من العون الصادق ما كانت له آثاره القيمة فى أوجه النشاط بالوزارة على نحو ما سأتحدث به فيما بعد . على أن حديثه عن مارك شاجال الروسى الأصل اليهودى العقيدة المهاجر إلى فرنسا زاد من إعجابى بهذا الفنان الذى كنت شَديد الافتتان بمنجزاته الفنية لا أكاد أنصرف عنها حتى تعاودنى الرغبة إلى رؤيتها ثانية سواء ما كنت أشاهده منها من لوحات مصورة فى متحف الفن الحديث وغيره أو نسجيات مرسّمة فى مصانع جوبلان أو لوحة السقف التى أضافها لأوبرا باريس هدية عرفان فى كرم لا يبارى للدولة التى آوته . وأخيرا بمناظر الستائر الخمس لباليه « دافنس وكلويه » . وكم كنت مشوقا إلى أن أتعرّف إليه ، وأخذت أتلمس لذلك الوسيلة إلى أن مكّننى الصديق رينيه ويج مما أبغى ، فالتقيت به للمرة الأولى على مأدبة عشاء بمنزل هذا

الصديق . وتلت هذه لقاءات أخرى حينما كان ينزل باريس ، كما زرته فى داره ومرسمه بفانس فى جنوب فرنسا فتوثقت بيننا أواصر المعرفة .

ولقد لفتنى فى باريس أن ربّات البيوت عندما يدعون ضيوفا إلى بيوتهن لتناول العشاء يحرصن على أن يستضفن زائرا مرموقا متحدّثا . وعلى قدر ماتكون منزلة هذا المتحدث يكون قدر الوجبة إعدادا وتصنيفا وتلوينا . ومع أن تناول هذه الوجبات فى حقيقتها لايستوعب وقتا طويلا غير أنها تمتد عادة إلى وقت طويل بما يدور فيها من أحاديث متبادلة ، فإذا الحوار يغلب الطعام . وقد يتضاءل فيها عدد أصناف الطعام إلا أنها تحفل بشتى أصناف الحديث الذى يجرى فيها عامرا بالسخرية الباريسية اللاذعة ، ينطلق فيه المتحدثون دون قيد ، غير ملقين بالا لمن يتناولونهم من الشخصيات بغمزاتهم ، فإذا هذا الجو المرح يسود الحضور جملة وتفصيلا ، وهو ما كان يزيدنى ثقة فى صدق قول ألفونس كار: « إن الباريسى الحق هو الذى تنمّ عنه خفة ظلّه التى تسرى فى عروقه كما تسرى الصحة فى عروق الإنسان السليم ، وإنه ليس من يحب الإقامة فيها بل هو من لايستطيع فراقها » .
وفى إحدى تلك المآدب عنَّ لى أن أستزيد شاجال شيئا عن الفلسفة التى كانت وراء تصويره لسقف أوبرا باريس ، فمضى يكشف لى عن « أن نظرته إلى لوحة السقف لم تكن باعتبارها وحدةً زخرفيةً فحسب ، بل كانت نظرة موضوعية مستقلة شأنها شأن أية لوحة مكتملة أنجزها ، كما أراد أن تكون مناظر السقف على نحو مناظر الأوبرا والباليه قيمةً وأهمية ، مع حرص على أن يكون ثمة ترابط بين الصور الرمزية للأوبرات والباليهات وبين مناظر معالم مدينة باريس . فلقد كانت قديما ثمة صعوبات تعرض للفنان فى تصوير الزخارف الباروكية التى على علو شاهق ، إذ كان عليه أن يوهم المشاهد بأن ثمة حركة تصاعدية لايبلغ مداها الطرف ، ولكنه آثر أن يطّرح هذا الأسلوب إلى ربط بصر المشاهد بالتكوينات المصورة على السقف مع إشاعة إضاءة غامرة » .

وفى لقاء آخر بعد أن كنت قد شاهدت باليه « دافنس وكلويه » للموسيقى موريس رافيل واللوحات الخمس التى رسمها مارك شاجال لتنسدل مع بدء كل فصل من فصوله ، والتى وجدتها تضيف جديدا إلى موسيقى رافيل — كنت قد فتنت بهذا العمل الفنى المتكامل فتنة تهيج بين جوانحى شعورا راسخا

لايزول مع الزمن ، بوقع أنغامها التى تُشبع الروح بانطلاقاتها الخفّاقة تتخلّلها هدآت السكون ، ثم تعود صاخبة مائجة . فوسيقى رافيل مع ما تنطوى عليه من رقة الإيحاءات والرجفات عالمٌ فى الموسيقى متكامل يحظى منه كل مُشاهد برؤ يته الموسيقية الخاصة ، وهو ما أحسسته قبلُ وأنا أعدّ العدّة لرسالة الدكتوراة التكميلية عن أثر المصوّرين الانطباعيين الفرنسيين فى موسيقى موريس رافيل وكلود ديبوسى . أقول إن هذه الموسيقى كانت تتحدى محاولة أى فنان يرغب فى أن يفسّرها تفسيرا تشكيليا ، إلى أن جاء شاجال فأدخل فى ستائر مناظره المنبسطة لونا من التصوير الرقيق الرهيف يهيج مع المؤثرات الضوئية ، فيخيّل للمرء أن ثمة ضوءا ينبعث من ثنايا اللوحات يُكْسبها تألقا وإشراقا فى الظلام الدامس ، تتكشّف معه الشخوص المرسومة وكأنها تثب من أمكنتها لتشارك الشخوص المتحركة على المسرح من الراقصين والرقصات

وقد جرّنى إعجابى الشديد بما رأيت من جمال آسر إلى أن أستوضحه عن سر انجذابه إلى فن الباليه الذى أسهم فيه بتشكيل مناظر عملين شامخين من قبل هما « طائر النار» و« طقوس الربيع » لسترافنسكى ، فمضى يقول فى هزّة المصور ونشوة العازف : « إنه كان دوما يرى فى الباليه نبضات خفّاقة وبحرا يعلو ويهبط مداً وجزراً ، يحتضن الراقصين والراقصات ، فإذا هو مدفوع إلى لوحة يستنبط فيها تكوينات خاصة تتّفق والعزف الموسيقى والميلودى » . فالتصوير عنده أشبه ما يكون بالموسيقى ، كل لمسة فرشاة فيه كأنها اختلاجة قوس على كمان ، تستوحى فى عزفها ماتُمليه عليها الذكريات . ثم إنه لم يكتف عن أن يحقق عرضا شاملا ليس فيه فاصل بين الإطار والحركة ، أوبين المناظر الثابتة والأردية الراقصة ، أوبين العناصر الموسيقية والعناصر التشكيلية . فرداء الرقص فى نظره ليس مجرد ثوب ، بل هو يشارك الشخص فى أداء مايؤدّيه ، وهو يُشيع اللون على جسد الراقص كما تحدّد الخطوط هيكله ، بمعنى أن يحمل الراقص أو الراقصة فوق جسده شخصيته وشمائله . وفى الحق إن شاجال كان محتدم الرغبة فى صبغ لوحاته وثياب الرقص بجو من النضارة والشباب المتألق بما ينشره خلالها من لمسات حالمة مرحة وومضات غموض سحرى ، فضلا عن قدرته المذهلة فى اختيار الألوان المنسجمة مع الأصوات ، واكتشاف سر العلاقة بين اللون والنغم . وهو ماجعلنى أهمس فى أذنه

ذات ليلة قائلا : « إن لوحاتك قد ارتبطت بموسيقى رافيل ارتباطا عضويا حتى لم يعد من الممكن فصل إحداهما عن الأخرى ، وإن الاستماع إلى موسيقى دافنس وكلويه دون التأمل فى لوحاتك ليبدو فى نظرى حرمانا لها من أحد عناصرها الرئيسة ، بل أحسبك قد احتويت إلى الأبد رافيل فى إسار لوحاتك » .

واتصل بنا الحديث عن ألوانه التى توشك أن تنطق وحدها ، والتى تكاد الحسّية فيها أن تطالعنا منها ، فاستغرق فى الضحك ووافقتنى زوجته فالنتين على ما ألحتُ به . وهنا رأيتها فرصة كى اقترح عليه ــ طالما أنه قادر على الوفاء بألوانه بمثل هذه الحسّية الجياشة ــ أن يرسم مناظر أوبرا « تريستان وإيزولده » لفاجنر متنبأ له بأنها سترتبط إلى الأبد بين حسّية فاجنر الموسيقية المتجسّدة فى هذه الأوبرا الخالدة وبين حسّية ألوانه الدافئة . وفى تردّد قال وهو يتطلع الىّ بعينيه الزرقاوين الصافيتين ووجهه الصبوح وبشرته الغضّة ، وهو فى بذلته الداكنة الزرقة وقميصه الأزرق الفاتح ورباط عنقه الأزرق الغامق : « لعلى أستطيع أن أنهض بهذا بعد أن أفرغ من رسوم مناظر أوبرا (الناى السحرى) لموزار» .

وقد أحسّ شاجال مابى من افتتان بلوحات ذافنس وكلويه فإذا هو يرسل لى فى صبيحة اليوم التالى كتابه « صورشاجال المطبوعة على الحجر» Chagall Lithographe وإحدى « دراساته المصورة » التى أعدّها لمشاهد هذا الباليه كتب عليها إهداء رقيقا مهره بتوقيعه فكانت من أعزّ ما اقتنيتُ واحتلت موضع الصّدارة فى دارى ، ولا تنفك تثير فىّ كلما سرحت الطرف إليها شوقا إلى تصاوير شاجال البهيجة ، تصاحبها رقصات المصمم فوكين ، على أنغام رافيل الآسرة ، لتشكّل جميعا قمّةً لتكامل الفنون .

وكانت لشاجال مع مصر لفتة كريمة إبان احتفالات وزارة الثقافة بالعيد الألفى لمدينة القاهرة عام ١٩٦٩ . كان فريق باليه أوبرا القاهرة يتدرّب على تقديم باليه « دافنيس وكلويه » تحت إشراف الراقص والمخرج العالمى سيرج ليفار الذى قبل بإيفاده إلينا الوزير الأديب أندريه مالرو استجابه لرجائى ، فطلبت إلى شاجال حينئذ الإذن باستنساخ مناظر الستائر الخمس لهذا الباليه ، حرصا منى على ألا يفوت النظارة فى مصر نشوة المتعة كاملة التى انتشيتُ بها أنا فى

باريس عند مشاهدتى لهذا الباليه . فبادر بتلبية طلبى مشكورا ، وعُرض الباليه فى القاهرة فى ظل لوحات شاجال الشهيرة التى لاشك كانت ذخرا من ذخائر دار الأوبرا إلى أن التهمها حريق الأوبرا عام ١٩٧١ الذى أتى على كل غال ونفيس .

* * *

كذلك كان بينى وبين المستشرق الأستاذ لوى ماسينيون أكثر من لقاء أخذنا فيها فى أحاديث مختلفة كان أكثرها يدور حول الفلسفة الإسلامية التى عُنى بها طويلا وكانت له فيها دراسات مختلفة ونظرات لا تزال موضع اهتمام الدارسين ، وإن كانت له قبل أن يخوض فى هذه الدراسات الشرقية الإسلامية عنايته الخاصة بالدراسات الكلاسيكية القديمة ، الأمر الذى أثار فضولى فسألته فى أحد لقاءتنا لِمَ تركت هذا إلى ذاك ؟ وقد جرى هذا اللقاء على مائدة الغداء فى يوم لايُنسى من أيام شهر نوفمبر وسط حدث أدبى له أهميته الخاصة ومذاقه الفريد بمطعم دروان Drouant المطلّ على ميدان جايون المنمنم والمختال بالنافورة التى تتوسطه ، فى موعد اجتماع عشرة أدباء من أكاديمية جونكور حول مائدة الغداء السنوى الذى يعدّ بالبهو العلوى من المطعم ، حيث يجرى النقاش حول أفضل الأعمال النثرية المتخيّلة للظفر بجائزة « جونكور » ، والذى يعقبه التصويت لتحديد العمل الفائز . وكان المطعم والمقاهى المحيطة تعجّ برجال الصحافة والإذاعة فيما يشبه المهرجان الأدبى . وإذا أنا أسمع منه ما أثار دهشتى وكان جديراً منى بالتنويه والتسجيل حين قال « لقد جذبنى الشرق إليه بماضيه الحافل بالديانات فإذا أنا غارق فيه إلى قمة رأسى ، وإذا فلاسفة الإسلام ومتصوّفوه يحظون جميعا بالقسط الأكبر من تفكيرى ، وإذا أنا بعد دراستى إياهم أنجذب نحو المنبع الأول الذى استقى منه هؤلاء الفلاسفة تصوّفهم وفلسفتهم ، ألا وهو الدين الاسلامى الذى نزل وحناً على رسول المسلمين ، وإذا أنا جولة بعد جولة أكاد أُشهر إسلامى وأتخلّى عن مسيحيتى لما وجدت فى العقيدة الإسلامية من بُعد عن التجسيد والخلوص إلى معبود واحد لا شريك له فى ملكه لم يلد ولم يولد . هذا كله شدّنى إلى الإسلام ، غير أن نوازع قديمة متوارثة أوقفتنى موقف التردّد فلم أقْدِم ولم أحْجِم ، وبقيت بين بين ، وإذا أنا آخر المطاف أعود إلى كاثوليكيّتى المتشدّدة وأغدو مسيحيا متطرفا » .

* * *

وكنت من قديم أهوى الاستماع إلى موسيقى الأورغن الدينية لجلالها ونفاذها إلى القلوب ، فمع « المقدمات الكورالية » الآسرة لباخ كنت أجد نفسي أيضا مأخوذا بألحان أوليفييه ميسيان الدينية ، وهو الأستاذ بكونسيرفاتوار باريس وعازف الأورغن بكنيسة « لا ترينيتيه » بباريس ، وهو لايزال إلى اليوم يعزف بها متطوّعا يرى ذلك واجبا دينيا عليه . وعُشّاق هذا اللون من الموسيقى مدينون له بمقطوعاته المستوحاة من الإلهامات الدينية والتصوّفية مثل « مولد السيد المسيح » و« العشاء الربّاني » و« صعود المسيح » وغيرها ، تلك الألحان التي تحلق بالمرء إلى أسمى الأجواء الروحانية وتطهّر الروح من أدرانها فتسمو بها إلى الشفافية غير ناظرين إلى المعتقد الديني على اختلافه . لذلك ماكاد الحال يستقر بي في باريس حتى سعيت إلى التعرف إلى هذه العبقرية الفذة فجمعني به الصديق برنار أنطونيوز زوج شقيقة الجنرال ديجول . ومنذ ذلك الحين جعلتُ أختلف على كنيسة « لا ترينيتيه » كلما سنحت الفرصة أيام الآحاد بعد الفراغ من القدّاس لأستمع إلى ميسيان مسترسلا في عزف ألحانه الأخاذة وارتجالاته العذبة على الأورغن ، ثم ألقاه أحيانا في غرفته الخاصة التي اتخذها لراحته بالكنيسة نتبادل أطراف الحديث . وكنت أظن أنه يخصّ تآليفه الموسيقية للأورغن وحده ، وإذا هو يدعوني في مارس ١٩٥٥ إلى قاعة مسرح « الشاتليه » حيث تُعزف سيمفونيته الشامخة « تورا نجاليلا » التي وضعها في عشرة أجزاء ، وإذا هو بعد ثلاثة عشر عاما يدعوني أيضا إلى دار أوبرا باريس حيث كان الاحتفال بتقديم هذه السيمفونية موسيقى مصاحبة لباليه يحمل الاسم نفسه ، فتجلّى لي عمله هذا في أروع صورة : موسيقى ميسيان ورقصات رولان پيتي ومناظر المصوّر إرنست باكست ، فتآزرت الفنون جميعا وتآلفت في تشكيل أسرة فنية تربط بينها أنبل الحوافز ، تتوثّب نفوسهم حماسة ، و يتبادلون العون فيما بينهم فريقا متكاتفا متناغما ، يدفعهم إلى هذا السمو إحساس عميق بجلال مايؤدّون .

لقد علقت روحي بموسيقى هذا العملاق الذي تتلمذ على پول دوكا وتأثر بسيزار فرانك وكلود ديبوسي وتخرّج على يديه پيير بوليز وستوكهاوزن ، وكنت في حيرة من أمره ، كيف يجمع بين رومانسية فرانك وانطباعية ديبوسي ثم يكاد ينتهي إلى الدوديكافونية ؟ (٩) . وحين أحسّ مني حيرتي كشف لي في حصافة

الأستاذ القدير عن منهجه بقوله : « إنى مع هذا الذى تراه من تأثّر بغيرى لا أزال ممسكا باستقلالى محتفظا بذاتيّتى ، إذ أسبغ على موسيقاى روحا غنية بالصور الخيالية الرهيفة . وعلى نحو مايكون فى التجارب المعملية أقوم بتجارب موسيقية أستخدم فيها إلى جانب الآلات التقليدية وسيطا إلكترونيا هو موجات مارتينو لإنشاد الألحان الرقيقة العذبة وإبراز التموجات الصوتية وتجسيم أصداء الألحان » .

وحين كاشفته بما أتبيّنه فى موسيقاه من تنوّع يجمع بين إيقاعات تَمُتّ بصلة إلى أصول شرقية لاشك أفادها من تجواله فى الشرق ، و بين مقامات العصور الوسطى كالترتيل الجريجورى المُرْسَل ، و بين زقزقة الطيور المختلفة ، صارحنى بأنه ألّف من عناصر هذا التنوع غنائية أملتها ذاتيته كى تفصح عما يؤمن به من عقيدة راسخة فى محاولة لتقديم مايسميه هو « قوس القزح اللاهوتى » .

« ثم كان طريقى إلى لقاء الشاعر الكبير لوى أراجون عبر الإعجاب بفنه وبفن صديقه وزميله پول إيلوار . كانت بداية تقديرى لهما نابعة من دفاعهما عن قضايا الإنسان ، وقد شدّتنى إحدى قصائد إيلوار فَحفزنى الإعجاب بها إلى ترجمتها ، وقد نشرت إحدى الصحف المصرية هذه الترجمة بعد أن أرسلتها إليها من باريس :

« على كرّاسات طفولتى وعلى القمطر وعلى الشجر وعلى الرمل وعلى الجليد أخطُّ اسمك .

على جميع الصفحات المكتوبة وعلى جميع الصفحات البيضاء وعلى الأحجار والدماء والأوراق أو الرماد أخطُّ اسمك .

على الخيالات الذهبية وعلى أسلحة المحاربين وعلى تاج الملوك أخطُّ اسمك .

على الأجمات والصحراوات وعلى الأعشاش وعلى الزهور البرّية وعلى أصداء صباى أخطُّ اسمك .

على غرائب الليالى وعلى رغيف النهار الأبيض وعلى الفصول المتعانقة أخطُّ اسمك .

على غلالاتى الزرقاء كافة وعلى صفحات الغدير الراكد وقد انعكست عليه أشعة الشمس ، وعلى البحيرة التى يتأرجح على وجهها ضوء القمر الجيّاش أخطُّ اسمك .

على الحقول وعلى الأفق وعلى أجنحة الطيور وعلى الطاحونة ذات الظلال أخطُّ اسمك .

على كل بزغة فجر وعلى البحر وعلى السفن وعلى الجبل العاتى أخطُّ اسمك .
على ركام السّحاب وعلى عرق العاصفة وعلى المطر الغزير وعلى الرذاذ أخطُّ اسمك .

على الأجسام البراقة وعلى نواقيس الألوان وعلى الحقيقة المجسّمة أخطُّ اسمك .
على الدروب العامرة وعلى الطرق الممتدة وعلى ا لميادين الحافلة أخطُّ اسمك .
على المصباح المضىء وعلى المصباح المعتم وعلى مساكنى التى اجتمع شملها أخطُّ اسمك .

على السقف المشدوخ نصفين وعلى مرآتى المشطورة وكذا غرفتى وعلى فراشى الخالى مثل الصَّدَفة أخطُّ اسمك .
على جَرْوِى النهم الحنون وعلى أذنيه المنتصبتين وعلى سيقانه المتخاذلة أخطُّ اسمك .

على عتبة بابى وعلى كل ماهو مألوف ، وعلى لفحة النار المباركة أخطُّ اسمك .
على كل جسد مؤتلف وعلى جباه صحابى وعلى كل يد مبسوطة أخطُّ اسمك .
على لوح المفاجآت وعلى الشفاه التى لا تهدأ فلا تصمت مع الرَّدى أخطُّ اسمك .
على ملاذاتى المنهارة وعلى مناراتى المعتمة وعلى جدران أشجانى أخطُّ اسمك .
على الفراق قَسْراً وعلى العزلة العارية وعلى خُطَى الموت أخطُّ اسمك .
على الصحة التى آبت وعلى المخاطر التى ولّت وعلى الأمل حيث لا ذكرى أخطُّ اسمك .
وبفضل كلمة واحدة أستهل حياتى من جديد .
تفتّحت عيناى على حبك وعشتُ لألهج باسمك .
أيتها الحرية » .

وكان أراجون قد بهرني أول مابهرني في قصائد من شعره استمعت إليها بصوت المطرب الفرنسي المعروف ليوفيريه الذي كان يسوقها في ثوب من التلحين الجليل الساحر يزيده جمالا ورقة ورونقا صوته الآسر. ولم ألبث أن اقتنيتُ بعض دواوينه التي ضمّنها شعره وأدركتُ أن ثمة توافقا بين شعر أراجون وشعر زميله إيلوار. وكنت أعرف أنهما من أقطاب المدرسة السوريالية، حتى بات يطيب لي أن أتتبّع أوجه الشبه بين الشاعرين. وكم توقّفت عند مناجاة أراجون لزوجته إلزا حتى وجدتني مدفوعا إلى ترجمة فقرات عديدة منها:

« اندفقت إليك كما يندفق النهر إلى البحيرة،
متخطّيا وهاداً ونجادا.
مخلّفا ورائي، من أجلك، ما في الوجود:
مُتع الصِّبا ورفاق الحياة.
كل هذا من أجل بهاء جلالك.
أنا ذلك الحجر الصّلد الذي ألانه وطؤك المتصل.
أنا ذلك المقعد الخالي المتلهِّف لوصولك.
وأنا زجاج هذه النافذة الملتصق بجبينك لترقبي ماوراءه.
وأنا تلك المَيْدة التي تعمّ الرَّدهة وأنت تخطرين فيها.
وأنا تلك النفحة التي تشيع مع زفراتك.
ما أتعسني حين تنأيْن عني جانبا.
تعاسة مرآتك حين تتولَّيْن عنها بوجهك.
وما أتوقني إلى أن أفصح لك عما تكنّه نفسي.
ما أنت إلا حياتي، بك أحيا ما حييت.
إلزا
بك أظمأ وبك أرتوي.
فأنا مدين لك بكل نسمة من نسمات الحياة.
بها أنتعش وأحيا.
وهل ما أتغنّى به إلا من وحيك.
وغاية ما أبتغي أن أكون كرمة تُظلُّك
أو مرآة صافية تتجلّى فيها طلعتك.

وحين خلق الله آدم كان اسمك أول كلمة أجراها على لسانه ،
أخذت تردّده الألسنة وكأنه الشتاء يطوى تحته الورود ليطالع بها الربيع
الحياة .
ما أجلّه من اسم لا أقوى على الإفصاح عنه ،
يتعثّر به لسانى إذ هو روحانى ، يعيا لفظٌ عن أن يحتويه
وكأنه زهرة الزيزفون قبل أن تتفتّح عنها أكمامُها ،
فلا يحيط بها بصر ولا يستوعبها شمٌ » .

تشوّفت نفسى إلى التعرف على هذا الشاعر المبدع ، فسعيتُ إلى أن ألقاه إلى أن زرته فى مسكنه حيث كان يقطن قريبا من شارع جرينيل ، فرحّب بى وعلامات البشر على وجهه الوردى وعيناه الزرقاوان تشعّان بالبراءة وكأنى بين يدى طفل فى طُهره ولطفه . وجلسنا فى غرفة مكتبه الصغيرة وكانت تزيّنها لوحات شتى تصور زوجته إلزا ازدحمت بها جدران الغرفة ، تمثّلها بعضها جالسة تتأمل وتمثلها أخرى منتصبة شاردة العينين ، وثالثة مواجهة ورابعة مجانبة . ومن هذه اللوحات ماهو ملون ومنها ماهو أسود بالأقلام ، وتُعزى هذه اللوحات لأكثر من فنان من الأصدقاء والمعجبين والمريدين .

ولم يكن لى معه وأنا مشدود إلى تلك اللوحات التى تمثل إلزا غير أن يكون حديثى إليه عنها ، تلك الزوجة التي ملأت حياته ، فلم تكن معشوقته فحسب بل كانت أمله المنشود فيا تصبو إليه الإنسانية من تحوّل من الشقاء إلى النعيم ، كما كانت المرأة المناضلة التى أرست فى النفوس حب الإنسان لغيره مع حبه لذاته . ولم يكن هذا بالأمر الهين لو أن إلزا كانت امرأة تحظى بجمال الوجه فحسب ، بل كانت إلزا المنادية بالحب المجرد من الذاتية إلى الحب العام المطلق . ولقد أحسست بشىء من الخجل وأنا أحاول أن أثير معه موضوع إلزا التى كان يشيع طيفها بالغرفة التى نجلس فيها والذى مافارق وجدانه وعقله وحسّه وهلة . وعلمى أنه أمدّ الناس من حوله بكل مايخطر عنها ببال ، ولم يعد ثمة مجال لمزيد ، وحسبتنى إن طرقت هذا الباب كنت فيه كالمتطفل . لهذا رأيت أن أستهل الحوار بما أحسّه من توافق فى الخواطر بينه و بين إيلوار ، فإذا هو يفصح لى عن أنه وإياه ينطلقان عن رؤية واحدة يحدّها فهمهما المشترك للعالم على أساس من الحب ، وإن كان إيلوار يتجنب الثرثرة و يلتزم سحر القول مما يجعله أقرب إلى الفكرة المجردة التى تمثل الواقع خير تمثيل ، كما كان حريصا على أن يُلبس الفكرة الصافية ثوبا من الخيال الحالم . ومع ذلك حرص أراجون على أن يكشف لى عن عدم تشابههما ،

وهو الأمر الذى يتجلّى فى تجسيد إيلوار للمعانى المجرّدة حتى ليُنزل غير العاقل منزلة العاقل ، وفى جنوحه هو ــ أى أراجون ــ إلى الاستعارة فى تصوير شعوره نحو إلزا .

وأخذت أستفسر منه عن مبلغ صحة مازعمه أندريه بريتون من أن تحوّله من السوريالية إلى الشيوعية جاء مع ثورة من ثورات الانفعال والغضب حين دخل عليهم فى أحد اجتماعاتهم الفنان المصور السوريالى سلفادور دالى مرتديا الغريب الشاذ من الثياب وقد تلطخت سترته باللبن المهراق ، فما كان منه إلا أن صاح فى وجهه قائلا : إن هذا الذى سكبته على سترتك من لبن يكفى لسدّ جوع أطفال أسرة يوما بأكمله ؟ فهمس إلىّ مبتسما :

« إن هذه قد تكون القشّة التى قصمت ظهر البعير كما تقولون فى المثل العربى »
إذ أنه كان مع عدد من السورياليين قد أخذوا يضيقون بامتطاء صهوتى جوادين فى آن واحد : السوريالية والشيوعية . وعبثا حاولوا التوفيق بين مفهوم هذا ومفهوم تلك . فعلى حين كانت السوريالية تنشد أول ماتنشد حرية الفرد متدرّجة فى ذلك إلى حرية العالم بأسره ، كانوا هم يؤمنون الإيمان كله بأن هذه الحرية العامة لاوجود لها إلا فى الخيال ، ولم يكن فى وسعهم الإيمان بوجود هذه الحرية إلا يوم يلمسونها بأيديهم فى واقع الحياة ، فما يدور فى الأذهان من فردوس أرضى وهمٌ من الأوهام .

وحين أخذت عيناى تطوفان بصفوف الكتب فى مكتبته تناهى إلىّ صوته وهو يحدّثنى عن أن متعته الكبرى تكمن فى مطالعة الكتاب الذى يسمو بخياله فيجعله ينفصل عن عالم الوجود إلى عالم الغيب فإذا هو فى شبه سبات ، فليس ثمة لذة تفوق عنده تلك التى يحسّ فيها بغشية يفقد فيها وعيه إثر عبارة من تلك التى تجعل الذهن يشتّ أو قصة من تلك القصص التى تأخذ بمجامع القلوب . وعندما هممت بالانصراف قدمت له نموذجا لنفرتيتى من الخزف قائلا : « لعل فى وضع وجه نفرتيتى المُشرق إلى جانب صورة إلزا بوجهها الوضّاء الذى يطالعنا على الجدران مايشير إلى عرفان مصر لإلزا ولك بما قدّمتما للإنسانية من أدب رائع وفن مأثور» . فحركت عبارتى من نفسه مشاعر طيبة ، وإذا هو يهرع إلى مكتبه و يستخرج من أحد أدراجه كتابه « مجنون إلزا » و يقدمه إلىّ بعد أن مهره بكلمة إهداء رقيقة .

٥
الفترة بين عملى ملحقًا عسكريًا وسفيرًا
(ديسمبر ١٩٥٦ - أكتوبر ١٩٥٧)

فرض العداون الثلاثى على مصر إغلاق سفارتنا بباريس وقطع جميع علاقاتنا السياسية والاقتصادية والثقافية مع فرنسا ، فعُدتُ إلى مصر على أول باخرة تغادر أوربا بعد العدوان قاصدة إلى الإسكندرية التى وصلتُها فى الأيام الأولى من شهر ديسمبر ١٩٥٦ . وقد كان من الطبيعى أن أتصل فور عودتى بالرئيس عبدالناصر فإذا أنا أحسّ فى صوته رنّة الترحيب بلقائى ، على أن أتناول الغداء وأسرتى معه باستراحة القناطر الخيرية فى يوم الجمعة التالى ، وكان مما قاله لى : « لقد كنت صادق التقدير حين بعثت لى بتقريرك عن خطة العدوان قبل وقوعه ، وإن كنت لم آخذ بتقديرك أول الأمر إذ كان يخالف كل حساباتى وتوقعاتى . ومع وقوع العدوان فقد كتب الله لنا النجاة فنفذنا من ثقب إبرة » .

والحق إن لقاءنا الأُسرى والذى شاركنا فيه كذلك الأخ خالد محيى الدين كان لقاء ممتعا وشائقا ، فقد تبادلنا فيه انطباعاتنا عن العلاقات والمواقف الدولية

خلال العدوان وبعده ، وقد كان بقائى خلال العدوان لعدة أسابيع فى باريس وروما قد زوّدنى بالكثير من المعلومات والأسرار والهمسات والاتصالات ، فبسطتُ كل ذلك أمام الرئيس فى دقة تتيح لنا أن نتبين مسيرة الخطوط الشديدة التشابك والكثيرة العُقَد . ولم يفتنى فى نهاية اليوم الحافل بالنقاش أن أترك للرئيس تقريرا كنت قد أعددته خلال عودتى بالسفينة عن الحياد السويسرى الذى عرفت عنه الكثير خلال الشهور التى أمضيتها ملحقا عسكريا فى سويسرا قبل انتقالى إلى فرنسا . فقد صوّرت لى أحداث هذا العدوان الغادر المفاجىء على بلادنا التى لم تكن تطمح فى أكثر من تحقيق استقلالها أن نمط الحياد السويسرى يمكن أن يكون المأمن لبلادنا من أى تدخل شرقى أو غربى ، على أن نفرغ لبناء بلادنا من الداخل أولا ، وليس هذا بالأمر الهيّن فهو يحتاج منا إلى جهد كبير ، إذ علينا أن نسمو بالمواطن المصرى إلى المستوى اللائق به فى الوجود ، فإذا ما تحقق لنا هذا كان من اليسير علينا أن نبدأ جولتنا الثانية فى الخارج ونحن عندها على مستوى الأقوياء . وقد أحسستُ على الفور من تعبيرات وجهه ومن أنصاف الجمل التى تمتم بها عدم ترحيبه بهذا النوع من الحياد لبلادنا الملتحمة الجذور مع المنطقة العربية والمجموعة الإسلامية والقارة الأفريقية ، وأدركت أنه لن يكون لتقريرى عن الحياد السويسرى أى صدى فى نفسه حيث كان يرى أن صيغة الحياد الإيجابى هى أكثر الصيغ ملاءمة لمصر ، التى لا تستطيع أن تنكمش خلف جدران حياد سلبى خامد منذ أن قُدّر لها أن تقود حركة النضال والتحرير والتقدم الفكرى والسياسى والاجتماعى متصدّرة موكب العالم الثالث كله . وما أدرى من كان منا على حق .

***

عدت من أوربا بعد غيبة تُنيف على أعوام ثلاثة لأشهد تطورات جذرية فى كافة المجالات تقريبا . كان تأميم قناة السويس والتصدّى للعدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ تعبيرا عن بلوغ عبدالناصر طورا جديدا من أطوار نضجه السياسى ونفاذ فكره الاجتماعى نحو آفاق أبعد . ومع ما كان له من صفة الزعامة على النطاق المصرى والعربى وتألّقه كرجل دولة على النطاق العالمى أخذ يسير بخطى حثيثة على نظام مركزية السلطة الذى جمع الخيوط كلها فى يديه ، مطرحا جانبا

الديمقراطية الليبرالية التى تستند إلى ترك الثروة فى أيدى القلة مع إعطاء حرية سياسية واسعة تسمح بتعدد الأحزاب «تبادلها كراسى الحكم ، وآخذا بالديمقراطية الاجتماعية القائمة على جعل الثروة فى خدمة الأغلبية مع الحد من الحريات

السياسية . ومن هنا كان اختياره لشكل الاتحاد القومى إطارا تلتقى فيه كافة طبقات الأمة لايُقْصَى عنه إلا أعداء الثورة والمرتبطة مصالحهم بمصالح الاستعمار. وقد طرح عبدالناصر هذا فى صيغة تحالف قوى الشعب العاملة فى مواجهة دكتاتورية البروليتاريا الماركسية التى رفضها فى وضوح وحسم ، وهوما تجلّى فى تغيّر البناء الاجتماعى ؛ حيث صعدت إلى السطح طبقات بينما هوت إلى القاع طبقات أخرى . ونمت طبقة العمال نموا هائلا مع حركة التصنيع وإزاحة طبقة كبار الرأسماليين ، وتحرّر الفلاحون فأصبحوا سادة الأرض التى كانوا يفلحونها بعد سقوط طبقة كبار ملاك الأرض على أثر تطبيق قانون الإصلاح الزراعى . ثم كان أن عمّمت الثورة مجانية التعليم ، فبعد أن كانت مقصورة على التعليم الابتدائى والثانوى عهد طه حسين فى حكومة الوفد أصبحت تشمل الجامعة أيضا ، وبهذا أتيحت الفرصة للجم الغفير من أبناء مصر الذين كانوا يرون الالتحاق بالجامعة حلما من الأحلام ، فإذا هم فى عهد الثورة يرون ذلك حقيقة وأصبحوا اليوم هم من بيدهم مقاليد الأمور فى شتى المواقع . وغدت جامعة الأزهر شأنها شأن الجامعات الأخرى يُدرس فيها مايدرس هناك ، وكان الهدف من هذا

التطوير ألّا يجمُد رجل الدين عند علوم دينية بعينها لا يعدوها ، إذ تقتضي الحياة الحضارية التى نعيشها أن يضمّ رجل الدين إلى علومه الدينية العلوم الدنيوية ، فما أشدّ الصلة الآن بين الاثنين ، وما أقدر رجل الدين بإلمامه بالعلوم الدنيوية أن يجابه شبهات الحياة التى تشغل على أبناء هذا العصر خواطرهم . فكما فى المسيحية رجال جمعوا بين الدينيات والعلوم الدنيوية مثل پسكال الذى جمع إلى علمه الدينى الدراسات الفلسفية ، وكان على رأس فلاسفة عصره ، ومثل بوسويه الذى كان له باعه الطويل فى الأدب فترك لنا من المؤلفات الأدبية الكثير ، وكذا تِيَارْ ده شاردان الذى غدا فى عصرنا فيلسوفا ورائدا من روّاد علم الحفريّات ، فثمة مثلهم فى الإسلام كثرة جمعوا هم الآخرون بين الدينيات والعلوم الدنيوية . فلقد جمع ابن سينا إلى العلوم الدينية علوم الطب والفلسفة والمنطق والطبيعة ، وكذلك الغزالى الذى جمع

إلى علومه الدينية العلوم الفلسفية والتصوّفية . غير أن الأمور للأسف لم تمض كما رجونا . ولقد كفلت الدولة للمرأة كافة الحقوق حتى تصبح على قدم المساواة مع الرجل ، وكادت البيئة الجغرافية كذلك أن تشهد تغيّرا جذريا بالشروع فى تحويل مجرى النيل وتكوين بحيرة هائلة من مياهه بعد تشييد السد العالى الذى يتيح للأرض الزراعية أن تنعم بالرىّ الدائم فى مختلف أنحاء البلاد ، كما أرست الدولة قواعد العمل من أجل تنمية اقتصادية حقيقية .

غير أن ما أثار فى نفسى شيئا من الأسى ، أننى لمست لتوّى مع امتداد العمران الجديد بداية التدهور فى الذوق العام الذى كان سمة مميزة لمدننا الرئيسية لا فى مجال المعمار وحده بل فى إحساس الأفراد بالجمال . وحين انكفأت على نفسى متأملا أدركت أن مردّ ذلك إلى ما جدّ على العمارة من تجنّ - والعمارة هى بكل المقاييس فن وإنتاج ثقافى حضارى - تجلّى أول ما تجلّى فى المبانى العامة ، فإذا هى تستحيل إلى مبان وظيفية فحسب تخضع لمقتضيات اقتصادية بحتة لا يُلحظ فيها فن المعمار بأصوله الجمالية والتقليدية ، وتسود فيها المبادىء التى تفرض إنجاز أكبر عدد من المبانى بأقل تكلفة فى أقصر وقت ممكن ، أى تغليب مبدأ الكم على الكيف مما يكون معه تنازلات جوهرية من حيث اللمسات الجمالية فى تلك المبانى العامة التى هى بمثابة أنموذج يحتذيه الأهالى فى مبانيهم الخاصة ، فإذا فن العمارة يفقد سماته الجمالية فى الناحية العامة والناحية الخاصة ويغدو على نمط يفتقد الذوق والجمال . وهكذا كان الحال مع فن تخطيط المدن ، هذا إذا ما استثنينا ما تم على يد رجل عسكرى تولى لفترة محدودة وزارة الشئون البلدية والقروية هو عبداللطيف البغدادى ، فلازلنا إلى اليوم ننظر بإجلال إلى مشروعه العظيم الذى أنجزه وهو شق كورنيش النيل متحدّيا كل الصعوبات مهما جلّت ، ومنها اقتطاع جزء من السفارة البريطانية ، وكان لهذه السفارة ما لها قبل ذاك من شأن . وهذا المشروع إن دلّ على شيء فإنما يدل على ما كان يستمتع به هذا الوزير المستنير من سعة خيال وذوق جمالى وإرادة نافذة . وإذا شئنا أن نوازن بين هذا المشروع وبين غيره مما جاء بعده على أيدى وزراء مدنيين مختصين فى الهندسة والعمارة والتخطيط وجدنا البون واسعا ، فلقد كان هَمّ البعض سرعة الإنجاز ومن ثم تغليب الكم على الكيف ، فإذا القاهرة تصير إلى ما صارت عليه الآن من فقدان لملامح الجمال جُملة . وما حدث

للقاهرة حدث مثله أو أكثر فى الإسكندرية وغيرها من المدن . هذا إلى انبثاق طبقات كانت حبيسة فانطلقت إلى الوجود وأصبح لها من الأمر شىء ، ولم تكن من قبل على صلة بالحضارة ، فإذا هى تشارك فى فرض ذوقها . وقد كان هذا طبيعيا بعد أن انحازت الثورة إلى الأغلبية المهضومة الحق فى التزوّد بالثقافة الرفيعة . وهذا هو الثمن الفادح الذى غالبا ما تدفعه الثورات (١٠) .

وثمة ظاهرة أخرى طالعتنى مع عودتى إلى الوطن هى التفاف الناس جميعا حول جمال عبدالناصر وإسلام أمورهم كلها إليه وتركهم الزمام بين يديه حين رأوْه قد وُفِّق فى تأميم قناة السويس وخرج بأمّته سالمة من عدوان مدبَّر ، وقد خطا بهم خطوة واسعة إلى المجد ، مؤمّلين أنه سوف يقودهم نحو ما يصبون إليه ويرجونه ، ويطمعون فيه .

أما الظاهرة التى جزعت لها كل الجزع فهى تحوّل الدولة إلى مايشبه الإقطاعيات التى يقف على رأس كل منها عدد من رجال القوات المسلحة سواء فى أجهزة المخابرات أو الأمن أو رياسة الجمهورية أو التنظيم السياسى إلى غير ذلك . وأغلب هؤلاء وأولئك لم يكونوا من الضباط الذين قاموا بالثورة ، بل كان أكثرهم من الانتهازيين الذين ارتدوا قميصها ليتسللوا فيُفْسدوا على الثورة أهدافها ويقتنصوا ما يمكنهم اقتناصه من مكاسب . عندها قرّ فى وجدانى تشاؤم ثقيل ينبىء بأوخم العواقب ، وتزايدت معه خشيتى من أن تكون هذه هى بداية النهاية . ولسوف يؤرقنى انبثاث هذا العدد الكبير من العسكريين فى معظم أجهزة الدولة لسنوات عدّة ، وسوف أعود للحديث عن هذا بعدُ .

* * *

وانحصر عملي بعد ذلك ــ وكنت منذ عودتي من فرنسا ملحقا برئاسة الجمهورية ــ في القيام بين وقت وآخر بمهام سياسية خارج الوطن كانت كل منها تستغرق نحو أسبوعين وتتكرر بمعدل مرة كل شهرين تقريبا .

وكان العدوان الثلاثي على مصر قد أحدث وضعا جديدا أخذت معه القوى الكبرى تعيد حساباتها . فقد خرج عبدالناصر من العدوان مدعوما بتأييد واسع من الشعوب العربية وشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بوصفه رمزا للتحرر من التبعية الاستعمارية وللاستقلال الوطني . وعلى الرغم من أن أمريكا كانت تعلن مناصرتها للشعوب المطالبة بحق تقرير المصير، غير أن الموقف قد تكشّف عن وجود دافع خفي وراء هذا التأييد العلني لحرية الشعوب ، وهو الرغبة في ضرب الاستعمارين البريطاني والفرنسي لأخذ مكانهما . وحين تبيّن لأمريكا إصرار عبدالناصر على التأميم الشامل لشركة قناة السويس ووضعها تحت إدارة مصرية خالصة دون امتيازات لأيه دولة أجنبية بدأت أمريكا تفكر في التخلص من عبدالناصر نفسه بعد أن رأت فيه خطرا يهدد مصالحها الاقتصادية و يعرقل خططها الاستراتيجية في المنطقة .

ولم تكن بريطانيا وفرنسا بالطبع أقل حنقا من أمريكا على عبدالناصر ، وإذ ثبت للغرب استحالة اغتياله داخل بلاده ــ كما سبق أن ذكرت ــ اتجهت النية إلى محاولة اغتياله إذا ما أقدم على الخروج من مصر . وقد بلغتني بالفعل من أكثر من مصدر أنباء عن محاولات للتخلص من الرئيس أبلغتُ عنها في الحال ، وأوصيت بالحذر الشديد في اختيار الدول التي يقصدها الرئيس فقد كانت المخابرات البريطانية والأمريكية له بالمرصاد ، كما أن أجهزة الأمن الفرنسية كانت تؤمن بأن أفضل وسيلة لإنهاء حرب الجزائر لصالح فرنسا هي التخلص من عبدالناصر باغتياله أو التآمر عليه ورُصدت لذلك مبالغ غير محدودة .



وبعد أن كانت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط تقوم على ماأسمته «احتضان الملوك الصغار» تنبّهت خلال الأزمة الأردنية إلى أن هذه السياسة قصيرة النظر وأن اكتساح الوعى الشعبى لهؤلاء الملوك أمر مفروغ منه. ومن ثم اتفقت الدول الغربية الثلاث على ضرورة أن تؤول الزعامة إلى يد أخرى غير جمال عبد الناصر، غير أن الخلاف بينها ظل قائما حول شخص الزعيم الجديد. كانت أمريكا تدرك مدى شعبية عبد الناصر ومدى رفعة منزلته فى العالم العربى، خاصة بعد العدوان الثلاثى وقوة مركزه بين دول الكتلة الأسيوية والأفريقية. ولذلك فقد بدأت تفقد الأمل فى الاستفادة منه فى تحقيق سياستها نهائيا، وركنت إلى تقوية مكانة الملك سعود ومحاولة إحلاله زعيما روحيا للعالم الإسلامى والعرب. وفى نفس الوقت رأت الحبيب بورقيبه الرجل الذى ترجوه إذ كان أحد قادة الحركات التحررية التقدمية والنظم الجمهورية التى تتطلع إليها أغلب الشعوب العربية التى ذاقت مرارة الاستعمار. وبتعضيد هاتين الشخصيتين خُيّل للولايات المتحدة الأمريكية أنها ستضمن السيطرة على منطقة الشرق الأوسط على أساس أن الملك سعود هو رجل اليوم وأن بورقيبه هو رجل الغد.

وعلى حين كانت بريطانيا تعمل جاهدة على تقوية حلف بغداد بضم الولايات المتحدة إليه، وعلى تحقيق مشروع الهلال الخصيب وعزل مصر والسعودية ثم فض النزاع بين العرب واسرائيل على يد رجلها الأمين نورى السعيد، كانت فرنسا تدرك مدى تدهور نفوذها وسمعتها فى منطقة الشرق الأوسط باستثناء لبنان. وكانت سياستها قبل العدوان تقوم على الاتفاق مع سوريا على معارضة مشروع الهلال الخصيب البريطانى والمضى فى مساندتها التقليدية للبنان والتفاهم مع مصر على معارضة الهلال الخصيب مؤمنة أنها قد ضمنت فى صفّها مصر عن طريق المساعدات الفنية والثقافية والاقتصادية. غير أن هذه السياسة مالبثت أن انهارت بعد العدوان الثلاثى فاتجهت فرنسا نحو محاولة استدراج دول غرب أوربا لإنشاء سوق مشتركة على أن تضع فرنسا ممتلكاتها تحت تصرف الاقتصاد الأوربى لتضمن بذلك ربط اقتصاد الدول الست المشتركة بالسوق إلى عجلة السياسة الفرنسية الاستعمارية أملا فى أن تهبّ إلى جانبها للذود عن مصالحها، غير أن ألمانيا الغربية أجهضت الاقتراح بمعارضتها الشديدة له إذ وجدته يسوقها إلى موقف

عدائي من الدول الأفريقية والعربية التي هي أحد أسواق ألمانيا . ووقع اختيار فرنسا على الحبيب بورقيبه لتؤهله ليكون زعيما للعالم العربي والإسلامي بدلاً من جمال عبدالناصر .

ومن المفارقات الغريبة في تلك الآونة بالذات أن بدأت حدة شعور الرأي العام الفرنسي تخفّ ضد عبدالناصر الذي كانت الصحف الفرنسية تشير إليه بـ « الدكتاتور ناصر » و« الكولونيل الصغير » و« ديكتاتور الورق المقوّى » إلى غير ذلك من الأوصاف التي تُفْصح عن الكراهية التي يضمرونها له تحت تأثير موجّهي الإعلام والإذاعة والتليفزيون الواقعين تحت النفوذ الصهيوني ، وشيئا فشيئا بدأ الرأي العام الفرنسي يظهر إعجابه بالزعيم الذي صمد أمام قوى ثلاث ، منها قوتان عُظميان ، وينتصر عليها في كافة المعارك السياسية التي خاضها ضد الدول التي اعتدت عليه . كانت الصحافة الفرنسية من قبل تعزف على وترين : أحدهما أن عبدالناصر ديكتاتور على غرار هتلر وموسوليني ، وهو الوتر الذي كان يختفي وراءه اليهود لما يجلبه عليهم ذلك من عطف الرأي العام العالمي لزعمهم أنهم عُذّبوا ونُكِّل بهم واستشهدوا على يد هتلر . أما الوتر الثاني فهو أن عبدالناصر شيوعي ، وهو الوتر الذي كانت تمسك به جماعة غلاة المتطرفين بزعامة روبير لا كوست ، وذلك لاجتذاب الولايات المتحدة نحوهم بضرب عبدالناصر « الشيوعي » الذي يتزعم مؤازرة حركة تحرير الجزائر حتى لا تقع الجزائر ومن ورائها الشمال الأفريقي كله في قبضة الشيوعية . غير أن تطور الأحداث جعل بعض وسائل الإعلام الفرنسية تسبغ على جمال عبدالناصر كنيات غير التي اعتادتها ، فباتت تلقّبه للمرة الأولى برئيس الجمهورية المصرية أو الرئيس ناصر بل وبناصر المعتدل ، وبالحاجز المنيع ضد الخطر الشيوعي . ومضت الصحف التي دأبت على توجيه السباب إليه بسبب وبدون سبب تصفه بأنه الرجل الوحيد الذي تقع على كتفيه مسئولية التوازن في الشرق الأوسط ، وتعلن أن من حسن الحظ وجود الرئيس عبدالناصر في هذه المنطقة كي يصدّ خطر الشيوعية فهو الوحيد القادر على التّصدي لها .

وفي أواخر مايو ١٩٥٧ اتصل بي الأستاذ ريجيس بلاشير عميد معهد الدراسات الإسلامية والشرقية بجامعة السوربون طالبا مقابلتي حيثًا أشاء ، فاتفقنا

على اللقاء بمدينة برن وحضر فى الموعد بصحبة السيدة قرينته إذ كان بصره قد ضَعُف إلى حد كبير. واستهل حديثه بقول : إنى أستحى أن أكون فرنسيا إزاء مافعلته فرنسا بكم ، ولكن أناشدكم ألا تعتقدوا أن فرنسا هى جى موليه و بينو ، فقد آن لهذه الحفنة من « الذئاب » أن تتوارى ويحل محلهم من يقدرون مصلحة فرنسا ، وأبلغنى أنه يحمل التى تحيات السفير بيير مايار نائب رئيس قسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الفرنسية ، فأدركت أنه موفد من قبله . وكنت أقدّر هذا الدبلوماسى الفرنسى حق قدره منذ كنت ملحقا عسكريا بباريس ، وما أكثر ما لجأت إليه فى أمور تخصّ مصر فوجدت منه حسن التفهّم ما أمكن .

واستطرد الأستاذ بلاشير فى الحديث عن مشكلة الجزائر وأنه بات من الواجب وضع حد لتلك المجازر فى أقرب وقت ، إلى أن انتقل إلى بيت القصيد وهو استئناف العلاقات مع مصر و بخاصة العلاقات الثقافية التى لا يجوز فى رأيه أن تتعرض لتقلبات الظروف السياسية الى أن تساءل عن مصير البعثة العلمانية الفرنسية بمصر. وكانت إجابتى هى الصراحة التامة المشوبة بالود الذى أكنّه له ، فأوضحت أن مصر على غير استعداد لاتخاذ أية خطوة تقارب من فرنسا مالم تخط فرنسا الخطوة الأولى ، فلم تكن مصر هى المعتدية فضلا عن شعور خيبة الأمل والمرارة الذى يحسه الشعب المصرى تجاه فرنسا ، فقاطعنى على الفور موضحا : « تجاه حكومة فرنسا لا الشعب الفرنسى » ، وصارحنى بأنه يعتقد أن نفض فرنسا يدها عن اسرائيل يمكن أن يمثل الخطوة الودية الأولى التى يجد فيها المسئولون المصريون مدخلا الى التفاهم حول إعادة العلاقات . ثم عرّج على موضوع استئناف البعثة العلمانية الفرنسية بمصر لنشاطها ، فوعدته صادقا أن أبذل قصارى جهدى وأننى سأتكفل بموالاة هذه المسألة بمجرد عودتى إلى مصر ، على أنى رجوته نظير ذلك أن يقدم إسهاما يعضّد به جهودى ، فوعد بأنه على استعداد لتلبية أية رغبة لى فى هذا السبيل حتى من قبل أن أعرض عليه تفاصيلها . فطلبت إليه أن يعقد مؤتمراً يضم النخبة الممتازة من رجال العلم والفكر فى فرنسا للتنديد بسياسة الحكومات الفرنسية حيال الجزائر والعالم العربى ومصر ، وشجب سياسة فرنسا الممالئة لاسرائيل ، فوعد بأنه سيدعو مالا يقل عن المائة من أساتذة جامعة باريس لإصدار هذه القرارات ، و برّ الرجل الفاضل بوعده ، وانعقد هذا المؤتمر فى باريس

فى ٢ يونيـة ١٩٥٧ ، وصدرت القرارات غير بعيد عما اقترحته عليه . كما ناشدته أيضا النزول إلى الميدان بنفسه لنشر المقالات الموقعة بإمضائه فى الصحف الفرنسية الجادة فيما يشبه الحملة الصحفية فوعد بذلك ، بل أضاف أنه سيحثّ غيره من الأساتذة على المساهمة معه . وما أسرع ما أخذت تتتابع هذه المقالات فى صحف لوموند وفرانس أوبزرفاتير وديمانش ماتان ، كان على رأسها مقال شهير بتوقيعه فى صحيفة لوموند يوم ٨ يونية ١٩٥٧ بعنوان : « رسالتنا فى الشرق الأوسط » Notre Vocation Proche Orientale . واتصل بى من جديد خلال شهر ديسمبر تليفونيا لمقابلتى حيث حددت له موعدا فى الثامن عشر من نفس الشهر بمدينة جنيف ، فجاء بصحبة الأستاذ مارسيل فور مدير البعثة العلمانية الفرنسيه ، وأبلغنى أنه موفد من قبل السفير دار يدان رئيس قسم الشرق الأوسط بالخارجية الفرنسية لإجراء حوار بين البلدين لاسيما وأن الاتجاه الى التفاهم مع مصر قد أخذ يقوى من جديد فى وزارة الخارجية الفرنسية ، وهو ما أقنع كريستيان پينو نفسه بضرورة تغيير السياسة الفرنسية تجاه مصر والعالم العربى . وانتقل بعد ذلك إلى عرض مطالب فرنسا الثقافية فى مذكرة تفصيلية مع التأكيد بأن فرنسا على استعداد لقبول مبدأ تعويض مصر عن خسائر العدوان على أن يطلق عليها اسما غير « تعويضات الحرب » ، فليس ثمة حكومة تجرؤ على التقدم إلى البرلمان الذى وافق على حملة السويس بأغلبية الأصوات لتطالب بالموافقة على دفع تعويضات لمصر . ومضى يؤكد لى أن الطبقة المثقفة فى فرنسا باتت تضج من الأخطاء التى ارتكبتها حكومة جى موليه ضد العرب إذ كانت أكبر خسارة لحقت فرنسا فى نظرهم هى فقدان جهود أجيال عديدة من أعمدة الفكر الفرنسى . ولذلك فإن استمالة هذه الطبقة بواسطتنا — فى رأيه — بإظهار استعدادنا لملاقاة فرنسا فى بعض مطالبها الثقافية إنما يقوى شوكتها ويحفزها على المضى فى تأييدها لمصر والعرب .

أما ما أدهشنى حقا فى هذا اللقاء فهو الانطباع لدى الخارجية الفرنسية وقتذاك برغبة مصر المتعجلة فى عودة العلاقات ظنا منهم بسوء وضعنا الاقتصادى إلى الحد الذى دفعهم إلى اختيار المسيو لالويه سفير فرنسا فى مراكش ليكون أول سفير لفرنسا بالقاهرة بمجرد استئناف التمثيل السياسى بين الدولتين . وعندما أدركت أن هذه الصورة هى الانطباع المترسّب فى أذهان المسئولين الفرنسيين —

ولست أدرى من أين جاءهم هذا الانطباع ـ وجدت نفسى مضطرا لأن أفسر لهما موقفنا بكل وضوح مبينا لهما أن المباحثات التى كانت تجرى وقتذاك ذات طابع اقتصادى وثقافى بحت وبعيدة كل البعد عن أية أهداف سياسية . ولكى أكون بالغ الوضوح استطردت أقول : « إن الأوان لم يؤن بعد للتحدث فى أمور عودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، فالهوة التى تفصلنا عن فرنسا عميقة وذات شطرين . ولو افترضنا أن المحادثات الجارية ستتمخض عن نتائج إيجابية فى كلا الحقلين الاقتصادى والثقافى ـ وهذا أمر غير مستبعد ـ وحتى إذا افترضنا أننا توصّلنا إلى حل لموضوع التعويضات عن خسائر الحرب وتعويض مساهمى شركة قناة السويس ، فإن هذا لن يؤدى إلى استئناف العلاقات الدبلوماسية لوجود مشاكل أخرى لا تقل أهمية عن هاتين إن لم تزد ، تأتى فى مقدمتها قضية الجزائر . فلا يخفى عليكم أننا مع الجزائريين قلبا وقالبا ونأمل حل هذه القضية على أساس عادل . وثمة مشكلة أخرى شديدة الارتباط بالأولى وهى احتضان فرنسا « للعدو الرئيسى » للعرب وهو إسرائيل ، فالعون الفرنسى العسكرى والثقافى والاقتصادى بل والسياسى فى المحيط الدولى لإسرائيل هو استفزاز صارخ لشعور العرب والمسلمين . ولست فى حاجة إلى تكرار أنكم قد آثرتم هذا الاتجاه نكاية فى مصر نظرا لموقفها الذى لن تحيد عنه فى التأييد المعنوى للوطنيين الجزائريين . ولذلك فإنه من المحال ـ فى نظرى ـ استئناف العلاقات الدبلوماسية معكم قبل نقض صداقتكم الحميمة لإسرائيل » .

وفى النهاية وعدا بأنهما سينقلان هذه الصورة بأمانة فى الغد عند اجتماعهما المحدد بالسيدين دار يدان ومايار من قسم الشرق الأوسط بالخارجية الفرنسية والسيد ر يبيرول رئيس العلاقات الثقافية بالخارجية الفرنسية .

* * *

وكان الصحفى الفرنسى رو بير بارا من بين الصحفيين الفرنسيين التقدّميين يعمل بمجلة فرانس أو بزرفاتير ومجلة التيموانياج كر يتيان ، وكانت صداقته للعرب ولقضاياهم صريحة واضحة تجلّت فى كل مايكتب وخاصة فى قضية الجزائر التى وقف فيها بوضوح موقفا معاديا لموقف حكومته ، فقد كان مؤيدا لاستقلال الشعوب على طول الخط . ومع ثقتى فى أنه لم يكن عدوا للسامية إلا أنه كان على

وجـه اليقين عدوا للصهيونية . وقد بدأت صلتي به وقت أن كنت ملحقا عسكريا بسفـارة مصر فى باريس ، وكـانـت صلـة قوية قائمة على التفاهم التام وتنسيق جـهـودنـا المشتـركة فى خدمة القضية العربية . ولقد برهن فى كافة الظروف على تمسكه بمبادئه ومناصرته للقضايا العادلة مهما لقى فى سبيل ذلك من عَنَت ، وهو مـا عمّق الثقة بيننا . وكان قد ألّف كتابا مثيرا عن الشرق الأوسط أعرب فيه عن رأيه فى التوسع الصهيونى معتبرا اسرائيل دولة رجعية ومتهما إياها بخرق القانون الدولى ومنتقدا وضع الأقلية العربية فى اسرائيل ومناصرا قضية اللاجئين .

وقد حدث أن التقيت وأنا فى بيته ذات ليلة فى مستهل عام ١٩٥٦ بجوزيف جولدن جولان الذى عرفت أنه مواطن اسرائيلى يعمل مستشارا للشئون العربية لنـاحوم جولدمـان رئيس المؤتمر اليهودى العالمى . وكان من الطبيعى أن يدور الحديث بيننـا عن قضيـة الحرب والسلام فى منطقة الشرق الأوسط ، وإذا هو ينكـاشفنـى بإيمانه بإمكان إقرار السلام بين العرب واليهود ، وأن هذا ماينادى به رئيسه جولدمان ، وذلك باستبعاد الحلول العسكرية فى الصراع الدائر بالمنطقة ، وبطبيعة الحال نقلت فحوى هذا اللقاء إلى القاهرة . وفى ربيع عام ١٩٥٧ بعث روبير بارا مع زوجته الصحفية دنيس بارا التى وصلت مصر بناء على دعوة وجهتها لها برسالة يستعيد فيها ذكرى اللقاء الذى جرى بمنزله مع جوزيف جولدن ، وأعرب عن أمله فى أن أقبل الالتقاء به من جديد فى أى مكان بأوربا للاستماع إلى وجهة نظر ناحوم جولدمان فيما يتصل بإحلال السلام بين العرب واسرائيل ، موجّها نظرى إلى أن جولدن يضع بطبيعة الحال مصلحة اسرائيل فوق كل اعتبار ، وأن لقائى به إنما هو بهدف الوقوف على أية أفكار إيجابية قد تفيد القضية ، فإن ما سمعه شخصيا من جولدمان أقنعه بجدوى إجراء مثل هذا الاتصال بى .

وإذ كنت ومـاأزال لايخالجنى أى شك فى إخلاص بارا وصدق طويّته نقلتُ الصورة إلى الرئيس عبدالناصر الذى أمهلنى أياما ريثما يصل إلى قرار، أبلغنى بعدها بموافقته على إجراء هذا اللقاء لاستطلاع ماعندهم وتعرّف موقفهم جلياً دون أن التزم معه بشىء ، ولاسيا أنى لم أكن عندها أشغل منصب رجل مسئول فى الحكومة يتكلم باسمها . ولم يغب عن بالى لحظة واحدة أن هذا الاتصال ليست

له طبيعة سياسية ، بل كان عملا يدخل فى نطاق الخدمة السرّية المشروعة لتبادل وجهات النظر لنستطيع التعرّف على ما يدور فى المحيط الإسرائيلى مما قد يفيد الدولة فائدة ما ، فلقد قرّ فى الأذهان حينذاك أن الصلح مع إسرائيل أمر مستحيل .

والتقيت بجوجولدن فى جنيف خلال شهر ابريل ١٩٥٧ فإذا هويبادرنى مؤكدا أن إخلاصه لمبدأ السلام الذى ينادى به رئيسه هو الدافع إلى هذا اللقاء ، وأن ناحوم جولدمان غير مستريح إلى تصرفات الحكومة الإسرائيلية بقيادة بن جوريون ، وأنه يرى أن الوقت قد حان لتدخله الشخصى ، ولهذا فهويقترح اللقاء بالرئيس عبدالناصر فى مصر مذكّرا إياى بأن جنسيته أمريكية برغم عقيدته الدينية اليهودية . وخلاصة ما أفضى به الىّ أن خطة التقسيم وفق قرار الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ يمكن الانطلاق منها لوضع خطة عملية قابلة للتنفيذ ، وأن جولدمان على أتم الاستعداد لتكريس نفوذه السياسى وإمكاناته المادية وقدراته السيكولوجية على الإقناع رهن الوصول إلى حل إنسانى لمشكلة اللاجئين ، على أن يتم ذلك تدريجيا حسب خطة تنال موافقة الرئيسين ورضاء الرأى العام العربى . واقترح تزويد جولدمان بتصريح مرور يتيح له مغادرة المطار إلى حيث تتم المقابلة ثم العودة إلى المطار دون أن يثير التفات أحد ، فقد كان بودّ جولدمان أن يثبت لبن جوريون أنه باستطاعته تحقيق هدف يعجز هوعن تحقيقه ، فهويتطلّع إلى أن يقدّم للرئيس عبدالناصر أفكارا بنّاءة بشأن الحل الشامل للصراع الدائر فى المنطقة ، وأن مشكلة الحدود ليست بالصعوبة التى يعتقدها البعض . كما كان جولدمان يحمل اقتراحات وبدائل تتجاوز مشاكل الحدود والخلافات المعروفة ، وتُعدّ خطوة واسعة نحو السلام ونحو تهيئة حياة أكثر أمانا . كما أخذ يبسط لى كيف أنهم سيعدّون الموارد المالية اللازمة لحلّ مشكلة اللاجئين مهما بلغ حجمها لتكون فى متناولهم ساعة يصلون معنا إلى اتفاق ، وأنهم سيعدّون الرأى العام العالمى لتقبّل هذا الحل ومساندته .

وحرص على إبلاغى أن جولدمان سيلتقى مع الرئيس نهرو بلندن فى أواخر شهر يونيه للوقوف على رأيه بشأن المذكرة التى تقدّم له بها منذ شهور حول انضمام اسرائيل إلى دول الحياد الإيجابى . ولذلك فهويقترح أن يكون لقاؤه بالرئيس

عبد الناصر يوم ٢ أو ٣ يوليه ١٩٥٧ إن كان ذلك مناسبا ، مع تأكيده على أن موضوع هذا اللقاء سيبقى سرا خفيا حتى على نهرو نفسه . وأخذ يحاول اجتذابى إلى وجهة نظره بطمأنتى بأن جيل الشباب الإسرائيلى تواق إلى السلام وإلى الإحساس بعدم تهديد حياته ومستقبل أبنائه بعد أن ضاق ذرعا بعقدة الإحساس بالحصار الذى يعيش تحت وطأته ، فهو مايكاد يقطع بسيارته عشرة كيلومترات حتى ترده الحدود شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وأنه قد آن الأوان لتنحية الجيل القديم ، غير أن المأساة هى أن أفراد هذا الجيل القديم ليسوا ملوثين فى نظر الجيل الجديد بالفساد الذى كان يغشى زمرة الملك فاروق ، وإن كانوا يحملون وزر الخطأ فى وجهة نظرهم وإيمانهم فى ذات الوقت بأنها الحق المطلق ، بل لقد زعم بأن الشباب يتهمونهم بالجمود وقصر النظر .

وقد أبلغت الرئيس عبد الناصر بما دار بيننا من حوار بما فى ذلك رغبة ناحوم جولدمان فى لقائه ، ولكنه طلب الىّ أن أرجىء الأمر إلى حين ولا أبتّ فيه بكلمة قاطعة . وفى هذه الأثناء لم يتوقف جوجولدن عن ملاحقتى برسائله و برقياته ملحّا فى لقاء جديد يجمعنى به ، فأذن لى الرئيس ولقيته مرة ثانية بجنيف فى ١٦ سبتمبر ١٩٥٧ حيث أنهى الىّ خبر لقاء ناحوم جولدمان بعدد من زعماء الثورة الجزائرية للوصول إلى تفاهم يحمى مصالح الرعايا اليهود بالجزائر ، وأن هذا اللقاء قد أحنق روبير لاكوست المقيم العام بالجزائر الذى عاب على جولدمان هذه اللقاءات التى تكشف عن عدم ثقته بمستقبل الحكم الفرنسى بالجزائر ، وأنه ردّ عليه بأن فرنسا لن تستطيع أن تنصب ثلاثة رشاشات لحماية كل يهودى فى الجزائر . وفهمت على الفور سر تعمّده إبلاغى بذلك ليكشف لى عن أن موقف جولدمان هو موقف مبدئى يطبّقه فى كل مكان يلتقى فيه العرب باليهود لضمان إشاعة جو من الودّ والتفاهم بين الجانبين بدل العداوة والتقاتل . بل لقد كاشفنى أيضا بأنه قد جرى استجوابه هو شخصيا بواسطة بوليس أمن الدولة الفرنسى لعقده لقاءات مع بعض الشباب الجزائرى المثقف فى باريس ، ثم أسلمنى رسالة من الصحفى بارا ينعى لى فيها مآل الحريات الشخصية فى فرنسا على أيدى السلطات الحاكمة إلى الحد الذى يتنبأ معه بقرب وقوع كارثة فى فرنسا . ثم انتقل إلى توضيح السبب الذى من أجله طلب تحديد هذا اللقاء قائلا أنه تقابل فى اسرائيل مؤخرا مع موشى ديان

الذى تربطه به صلة مدرسية وأسرية منذ الصّبا الباكر، وهو اللقاء الذى اعترف له فيه ديان بأن معركة سيناء كانت مخيّبة لآمال الجيش الاسرائيلى رغم كل مازوّدته به من خبرة، وأن على اسرائيل بعد أن استنفدت قدراتها العسكرية عبثا أن تبحث عن وسيلة أخرى غير عسكرية لتحقيق أغراضها. فلما سأله عن رأيه فى محاولة الاتفاق مع العراق أعاد عليه تلك القصة الشائعة بأنه منذ أكثر من أربعة آلاف سنة والعراق تنافس مصر بحكم وضعها الجغرافى فى المنطقة بينما كانت دولة الحيثيين فى نزاع مع كليهما حتى رأت أن السبيل إلى سلامتها هو تزويج إبنة مليكهم من رمسيس الثانى فرعون مصر، وهو ما يوحى بأن تعاليم التوراة تقضى بالاتفاق مع مصر لا مع العراق. وقد شاء جولدن أن يعرف منه الأسس التى يمكن أن يقوم عليها التفاهم مع مصر، غير أن ديان كان يرى أن هذه تفاصيل وأن مبدأ التفاهم هو الشىء الجوهرى بالنسبة لإسرائيل إذ ليس لهم مخرج سواه. واستطرد جولدن قائلا إنه ارتأى أن يتبيّن موقف ديان من اتهام مصر والدول العربية لإسرائيل بأنها أداة للاستعمار ومخلب لأمريكا فى قلب هذه المنطقة الحساسة وعن مدىَ استعدادها لإعلان انتمائها إلى كتلة الحياد الإيجابى التى يتزعّمها نهرو وتيتو وعبد الناصر والتى تتبع سياسة لاشرقية ولاغربية وتنبثق من نفس المنبع الذى نهل منه شعوب المنطقة. ومضى الحوار بينهما طويلا حتى صرّح ديان باقتناعه بالفكرة ولكنه تساءل إن كان العرب سيسمحون لإسرائيل فى هذه الحالة بالوجود. فأجابه جولدن بأن ذلك يتوقف على حل مشكلتى اللاجئين والحدود اللتين يرى فيهما ديان مجرد تفصيلات، بينما كان ناحوم جولدمان يراهما لبّ المشكلة. فعرض ديان على جولدن تقريراً سرياً مقدما من هيئة الكويكرز للإغاثة [والكويكرز نِحلة بروتستانتية خاصة عُرفت فى مصر باسم جمعية الأصدقاء] عن موقف اللاجئين الفلسطينيين خلاصته أن خمسين فى المائة من اللاجئين يرفضون العودة إلى اسرائيل بله الوجود حتى فى قطاع غزة، وأن الأغلبية تؤثر استيطان لبنان وسوريا والنزوح إلى مصر بعدَ تعويضهم تعويضا مناسبا. فسأله جولدن عما إذا كان فى مقدور اسرائيل تدبير هذه التعويضات فأجابه قائلا: سل رئيسك [يعنى ناحوم جولدمان رئيس المؤتمر اليهودى العالمى].

وأردف جولدن يكرر لى من جديد أهمية مركز جولدمان بالنسبة للشروع فى

أية تسوية من حيث قوة نفوذه ، مذكّرا أن دولارا من كل ثلاثة دولارات تنفقها اسرائيل مصدره جولدمان ، والدولار الثانى مصدره أديناور الواقع تحت التأثير الشديد لجولدمان ، والدولار الثالث من اسرائيل نفسها ، بالإضافة إلى القروض التى تصلها من كافة أنحاء العالم . ثم انتقل جولدن إلى الحديث عن مشكلة الحدود التى رأى ديان إمكان تسويتها بصورة يقبلها الطرفان . وعندها سأله جولدن عما يكون موقفه لورفضت الحكومة والكنيست تنفيذ فكرة إقرار الحدود الجديدة ، فلم يخف ديان عليه استعداده لفرض تسويته عن طريق القوة . فصمت جولدن لأنه على حد تعبيره لم يكن خافيا عليه أن هيئة أركان حرب الجيش الاسرائيلى تعتبر سلطة ثالثة داخل الدولة وفى إمكانها فرض رأيها وقت اللزوم .

ومضى جولدن يروى لى أن مردخاى بنتوف وزير التنمية — وهو من الجناح اليسارى وليس على وفاق مع بن جوريون وحزبه ، وكان ضد حملة سيناء معترضا بأن النتائج السياسية التى ستترتب عليها لن تكون فى صالح اسرائيل — قد وافقه بحماس على فكرة التزام اسرائيل سياسة الحياد الإيجابى فى سبيل الوصول إلى سلام دائم مع الجيران العرب ، وأن ناحوم جولدمان قد اطمأن باله إلى أنه يتبع النهج السليم بعد أن كان يعتبر الفكرة فى أعقاب مؤتمر بريونى فكرة مثالية أكثر منها واقعية .

ومع أنى قد وجدت فيما عرض علىّ جولدن أفكاراً جديرة بنقلها إلى القاهرة فقد أحببت أن أستوثق من رأيه فى قيمة أى صلح تعقده اسرائيل مع حكومة عربية غير وطنية أوتسير فى فلك الاستعمار بالمقارنة بالصلح مع مصر ، إذ كنت أعلم سر لقاءات تدور بين ممثلين اسرائيليين ومبعوثين من بعض الدول العربية فى عواصم الغرب . فقال إن الإسرائيليين يوقنون بأن أى اتفاق مع دولة عربية غير كاملة الاستقلال هو ضياع وقت ، وأن التفاهم مع مصر هو الهدف الأكبر ، علما بأن المباحثات التى دارت بروما وأنقره وواشنطن مع ممثلى بعض الدول العربية لم تسفر عن أية نتيجة ، بل إن السلطات الاسرائيلية لم تحسّ بالارتياح أمام تلك المباحثات التى كانوا يعلمون سلفا مصيرها . واستفسرت منه عن سر الضّجة المثارة حول سوريا ، فأوضحه لى برغبة العراق فى الحصول على ميناء فى البحر المتوسط وأن ٥٠ ٪ من هذه الضّجة قد افتعلته العراق ، وأن القومية فى سوريا حادة

متأججة ولكن ينقصها السياسيون المحنكون الذين كان بوسعهم تحقيق كل مايريدون دون إثارة هذه الضجة . ثم استوضحته سرّ هذه المفارقة عن حشد الجيش الإسرائيلى على حدود سوريا فى نفس الوقت الذى تتشدق فيه إسرائيل بالحديث عن السلام ، وفى ذات الوقت يطلب لقائى . فأخذ يؤكد لى ألاّنصيب لهذا الزعم من الصحة ، لأن الجيش الاسرائيلى يتشكّل من أربعة مجموعات يرابط أولها بمنطقة بيت لحم وثانيها بطبريا وثالثها بالمنطقة الواقعة بين تل أبيب والقدس ورابعها عند بيرسبع ، وأن مايحدث هو تبادل المناطق بين هذه المجموعات كل بضعة شهور فضلا عن أن قائد كل مجموعة يقوم بإعلان تعبئة للمدنيين بمجرد استلامه قيادة المنطقة كنوع من التدريب . ثم أضاف : لا أكتمك أن الحكومة الاسرائيلية قد استهدفت لضغط من الحكومة الأمريكيه لإجراء تحركات معينة على الحدود السورية غير أنها لم تستجب لذلك . فإذا علمت فى الوقت نفسه آن موسى ديان متغيب فى جنوب أفريقيا وأن بن جوريون فى أجازته السنوية وأن جولدا مايير فى نيويورك وأن أشكول وزير المالية فى باريس وأن وزير التجارة فى زيورخ لأدركت أن الموقف غير متوتر البتة ، وإلا لصار جمع شمل أعضاء الوزارة على الفور. وقد أثاره حديثى عن الحلف الفرنسى الاسرائيلى فتساءل باندفاع : كيف ترفض اسرائيل طائرات وأسلحة تأتيها بالمجان بينما كانت تدفع من قبل أضعاف أثمانها عن طريق التهريب والتسليم غير المباشر؟ كيف يتسنى لها أن ترفض فرصة تتيحها فرنسا للحصول على كل ماتبغيه دون ثمن نكاية فى مصر نظراً لموقفها من القضية الجزائرية ؟ لوكنتم فى موقفها لما ترددتم لحظة فى قبولها . أما عن التحالف فأؤكد لك أنه لاتحالف هناك البتة . صدّق أولا تصدّق فهذه هى الحقيقة . لقد عرضت فرنسا بالفعل عقد هذه المحالفة عن طريق چاك سوستيل حاكم الجزائر السابق الذى قام بزيارة لاسرائيل فى شهر أغسطس مع جملة من البرلمانيين الفرنسيين ، والغرض من هذه المحالفة هو المحافظة على هيبة فرنسا فى منطقة الشرق الأوسط ، فمازالت انجلترا تتمتع بنفوذها فى العراق نتيجة حلف بغداد ، وأمريكا لها مالها من نفوذ فى بعض دول المنطقة ، وليس غير فرنسا وحدها هى غير الممثلة فى هذه الناحية . لذلك اقترحت هذه المحالفة بتظير مدّ طريق من ميناء إيلات إلى المرفأ الجديد المزمع إنشاؤه بين تل أبيب وغزه على أن يكون

للحكومة الفرنسية حق استغلاله مدة خمسين عاما ينتقل بعدها إلى ملكية الحكومة الإسرائيلية . وقد اعتذر بن جوريون عن قبول هذا الاقتراح وعرض أن تقوم فرنسا بمد اسرائيل بقرض تنفق منه على المشروع على أن يُعطىَ الفرنسيون حق استخدام الطريق بالمجان سدادا للقرض مدة عشرين عاما ، ولقد توقفت المحادثات عند هذا الحد ، فضلا عن أن جمهرة كبيرة من المسئولين الاسرائيليين لا تبغى ربط اقتصاد اسرائيل الناهض باقتصاد فرنسا المنهار [وقتذاك] .

وقد انتهيت معه إلى مكاشفته بعدم إمكان أخذ مقترحاته مأخذ الجد لا سيما وقد كانت لنا فى باريس مقابلة قبل العدوان الاسرائيلى بشهور لم يكف أثناءها عن الزعم بأن اسرائيل تتوق إلى عودة السلام إلى ربوع المنطقة ثم لم نلبث حتى فوجئنا بالعدوان الثلاثى الذى كانت اسرائيل أحد أطرافه ، فمن أين تنبع الثقة بجدية مقترحاته عن الحياد الإيجابى . فانبرى يؤكد لى أن ناحوم جولدمان لم يكن يدرى شيئا عن هذا العدوان ، وأنه قد عبّر عن سخطه بالامتناع عن زيارة اسرائيل مدة سبعة شهور بعد العدوان وذلك لإيمانه بعدم جدوى الوسائل العسكرية فى حل المشكلات القائمة .

كما كاشفته أيضا بأن تنفيذ مثل هذه السياسة التى يقترحها يقتضى إقناع الرأى العام العربى بالوثوق بإمكان التعامل معهم ، وكذا تساءلت عما إذا كان فى إمكان مثل هذه السلطة الجديدة أن تدين العدوان على مصر وتدين السياسة التى أملته ، وتتعهد بدفع تعويضات لمصر عن الخسائر التى لحقتها أثناء العدوان وأن تشجب سياسة فرنسا فى قضية الجزائر . فأجابنى بأن أمله فى تغيير حكومة بن جوريون هو السبيل لقيام حكومة جديدة تجد نفسها فى وضع يسمح لها بإدانة العدوان على مصر ، فضلا عن أن عناصر اسرائيلية كثيرة تدين هذا العدوان . أما عن التعويضات فقد قرر أنه بحكم منصبه فى المؤتمر وصلته الوثيقة بناحوم جولدمان لايجد أن هناك مبلغاً مهما كانت قيمته يقف عقبة فى سبيل إقرار السلام بين اسرائيل والدول العربية ، فأمر التعويضات يهون أمام الهدف الكبير المنشود ، ثم اقترح إدراج هذا الموضوع على رأس قائمة جدول أعمال أية مباحثات بين الجانبين . أما عن موقف اسرائيل من سياسة فرنسا بالجزائر فيتجلى — حسبما

قال ــ فيما أعلنه داڤيد كوهين رئيس الوفد الإسرائيلي فى المؤتمر البرلمانى المنعقد فى لندن أخيرا مماترتب عليه أن تعرضت الخارجية الاسرائيلية لمساءلة من الحكومة الفرنسية عن موقفها من السياسة الفرنسية فى الجزائر. وتناول جولدن فى معرض حديثه فكرة جعل مدينة القدس مدينة مسيحية مبيّنا أنها فكرة مرفوضة سلفا لأنها ستتبع الڤاتيكان فى هذه الحالة ، وقد لا يستبعد وجود قوات أجنبية بدعوة من الڤاتيكان قد تؤثر على مجرى الأمور فى المنطقة . ثم مضى يشرح تصور جولدمان بأن تعتبر القدس مركزا للهيئة الإدارية التى ستشرف على كتلة الحياد الإيجابى بمنطقة الشرق الأوسط فى حالة التوصل إلى تسوية دائمة بين الطرفين .

وفى نهاية اللقاء ذكّرنى من جديد باستعداد ناحوم جولدمان لمقابلة الرئيس عبدالناصر فى أى مكان يختاره وبأية شروط مع ضمان السرية التامة ، فأوضحت له تعذر ذلك فى الظروف الحالية وأنه قد يمكن إرسال مندوب من قبل الرئيس للقاء جولدمان لو تمخضت دراسة هذه المقترحات عن نتيجة إيجابية .

* * *

وبعد أربعة أشهر من لقائى بالرئيس فى القناطر قصدت دار الأوبرا لمشاهدة عرض أوبريت «ياليل ياعين» . وهناك التقيت به فطلب إلى أن أزوره فى منزله فى اليوم التالى ليبادلنى الرأى فى شئون العمل . وفى لقائى به مضى يشرح لى أسلوب العمل فى مكتبه برياسة الجمهورية ، مبيّنا أنه قد أسند إدارة الشئون السياسية فى مكتبه إلى السيد على صبرى ، وأنه بات فى مسيس الحاجة إلى إنشاء مكتب مقابل لشئون الرأى العام ، وأنه قد وقع اختياره علىّ لإدارة هذا المكتب الذى سيكون ــ على حد قوله ــ موازيا للمكتب الذى يديره على صبرى . وقد وجدتنى أرحب ساعتها عن رضا ، وأعده أن أقدم له خلال أيام قليلة تصوّرى لتشكيل هذا المكتب ومنهجه فى العمل لتوجيه الرأى العام توجيها وطنيا يتحرّر من السطحية والانتهازية والتشويه ولايستند إلى أباطيل ، فقد كان حماسى لفكرة هذا المكتب الذى سينقل انطباعات الرأى العام وردود فعله واتجاهاته إلى الرئيس قد استأثر باهتمامى . وعكفت على إعداد مشروع تشكيل المكتب واختيار الأفراد المتعاونين معى ، والذين حصرتهم فى البداية فى ثلاثة أشخاص تمتلىء نفسى ثقة

بجديتهم وإخلاصهم ، على أن يكونوا قنوات ثلاث تحفر مجراها داخل الرأى العام وتستقى من منبعه الآراء والأفكار، الأفعال وردود الأفعال . ولم تمض أيام قليلة حتى كان تقريرى معدًا بتفاصيل وافية حملته إلى سكرتير الرئيس الخاص وتركته لتوصيله إليه . وبقيت أنتظر دعوة الرئيس للمناقشة ، وأعترف أنه حتى هذه اللحظة لم يخطر فى ذهنى تساؤل عن السرّ فى تحرّك الرئيس نحو تشكيل مكتب للرأى العام يكل إدارته إلىّ . صحيح أنه حادثنى عن رغبته فى أن يعرف أصدق صورة عن مشاعر الجماهير من بسطاء الناس الذين يعمل من أجلهم ، وأنه يتمنى لو استطاع أن يلمس بيديه نبضهم و يعرف آثار مايتخذ من قرارات على حياتهم وكيفية استقبالهم للأحداث الجارية ، غير أن خيالى لم يكن قد ذهب بعد إلى تصور أن الرئيس يدرك أن ثمة أسوارا بدأت تُضْرب حوله ، وأنه بات فى حاجة إلى شخص أو أشخاص يشق فيهم لينقلوا إليه بأمانة مشاعر أفراد الشعب فى مختلف المواقع والأنحاء و بكافة فئاته وطبقاته . ولعل عبد الناصر قد أدرك حقا كل هذا الذى أدركته ، أو لعله شاء أن تتعدد التقارير أمام عينيه فيفيد من مغايرتها لبعضها البعض و يصل إلى ما هو أصدق . ومهما يكن قد جال بفكره فقد طال انتظارى لمعرفة ما استقر عليه رأيه . غير أن الفسحة حين تراخت إلى شهور رأيت أن أشغل نفسى بمحاولة تعلّم العزف على البيانو، فقد كانت أمنية قديمة ، وكثيرا ما خلتُ نفسى فى شطحات أحلام يقظتى أيام الصِّبا أن أغدو عازف بيانو يُشار إليه بالبنان ، ولكن مجريات الأمور سلكت بى مسلكا آخر انتهى بى إلى احتضان مدفع يطلّ من برج دبابة فى سلاح الفرسان .

وإذ وجدتنى فى هذا الوقت قد تخفّفت من أعباء العمل الرسمى فقد رأيتها فرصة مواتية لبدء ترجمة أعمال جبران خليل جبران . غير أننى لم أكد أصل بكتاب « النبى » إلى منتهاه حتى لاحقنى العمل الرسمى بما أخذنى بعيدا عن أعمال جبران الباقية ، بل لقد مضى ما يقرب من عامين حتى سنحت لى فرصة كتابة مقدمة وافية لكتاب « النبى » قبل دفعه إلى المطبعة . وقد كان إقبال القراء على هذا الكتاب الذى أعيد طبعه سبع مرات حتى كتابة هذه السطور حافزا لى على ألا أفلت فرصة يتاح لى فيها فراغ دون ترجمة عمل آخر لجبران . والواقع أن إعجابى بجبران قد بدأ منذ الصبا ، بل إننى لم أكد أقرأ

أول كتاب له حتى وجدتنى أسيرا له مرتبطا بفكره وشاعريته وورمانسيته ، فلا يُوَجَّه إلىّ سؤال عن سر تعلّقى بجبران إلا وقفزت إلى ذهنى مقولة الشاعر الفرنسى بودلير حين سُئل عن سر اختياره إدجار آلان پو لترجمة مؤلفاته فقال : « لأننا متشابهان متقاربان . لقد فتننى منذ صفحاته الأولى التى قرأتها له فلم أعثر بينها على الموضوعات التى كانت تراودنى فحسب ، بل لقد عثرت بالمثل على العبارات التى كانت تجول بخاطرى وكان أسبق منى إلى تسجيلها » .

ولقد عرفت جبران كاتبا عربيا قبل أن أعرفه كاتبا باللغة الإنجليزية ، وله فى كلتيهما أسلوبه المميّز الخاص به الذى تأثر فيه بقراءاته فى الكتب الدينية الهندية والمسيحية وبخاصة التوراة والإنجيل ، وفى كتب المتصوفة المسلمين وبخاصة تائية ابن الفارض الكبرى التى مجّدها ومؤلفات الغزالى وابن عربى والحسين بن منصور الحلاج . فقد وجد فى هذه الكتب جميعا أسلوب النبى الذى يعظ بالموجز من روائع الكلم ، ويجنح إلى الحكمة المنطوية على مغزى نبيل أو سر جميل فى أسلوب أقرب إلى الشعر المنثور ، حتى أضحت النزعة الصوفية دين جبران وعقيدته وأصبح هو نبيّها الداعى إليها ، وإذا كانت نزعته عناقا بين المسلم والمسيحى ، فهى كذلك عناق بين الدين والحياة .

وأعترف أن مؤلفات جبران التى عايشت رومانسيتها المحلّقة ماينيف عن أربعين عاما امتزجت فيها بحسّى ووجدانى قد أخذت تلحّ علىّ أن أنقل إلى العربية ماكتبه جبران بالانجليزية حتى أحسستُ أن واجب الوفاء نحو هذا الشاعر العظيم يقتضينى أن أقْدِمَ على هذا العمل الجليل الذى أعلم مدى صعوبته . فأدب جبران مظهر من مظاهر صراعه مع الألفاظ التى استعملها أدوات للتعبير عما يريد ، معنيّا بأن يكون الأساس فى التعبير سيطرة المعنى على الصور اللفظية . ومن ثم لم تكن ترجمة جبران أمراً سهلا ولاهيّنا ، فترجمته الحرفية تُسقط معانيه فى جُبٍّ مغلق ، وأكاد أجزم بأنه لم ينكفىء على ترجمة جبران إلا من كان به مفتونا افتتانا شديدا جعله يُهرع إلى ترجمته بمحض إرادته دون أن يعهد إليه أحد بإنجازها . ولعل هذا شرط لازم لمترجم جبران حتى يتجاوب معه بحسّه ووجدانه وخياله . ذلك أن النقل من لغة إلى لغة يشبه من بعض جوانبه نقل سائل له قيمته من وعاء إلى آخر ، وهو مايتطلب قدرا كبيرا من الحكمة والتدقيق حتى لاتضيع فى عملية النقل

أدنى قطرة قد تُفْقِد الأصل بعض روعته . والألفاظ منها ماهو محدّد المعنى كالمعارف وأسماء الأعلام التي لاتخرج عما وُضعت له ، وهي عُدّة رجال العلوم الذين يعنون عند اختيار اللفظ بأن يقفوا عند المعنى المراد وحده دون شبهة في الإيحاء بقصد مُعَمّى آخر. ومن الألفاظ ما ينطوي على معان متشابكة ، وتلك هي طِلْبة الشعراء ، فهم لايقصدون عادة إلى معنى مباشر ، بل كثيرا ما يهيمون بالألغاز تاركين لقرائهم أن يستشفّوا ما يرمون إليه من استبطان مايكتبون . وهكذا يجد المترجم نفسه قبل أن يعثر على اللفظ المعبّر أمام مدلولات ينبغي أن يطيل الإنصات إلى صدى الشعر في أعماقه قبل أن يستقر على واحد من مدلولات شتى تتصارع في وجدانه . ولعل أفضل من يقوم بترجمة الشعر هو من يملك الإحساس بمدلولات الألفاظ في اللغتين التي ينقل من إحداهما إلى الأخرى . فإن افتقاد هذا الحسّ كفيل بأن تكون الترجمة باهتة لاتخلّف أثرا في وجدان من يطالعها . وإذا حرص المترجم على إيضاح المعنى بإفاضة كاملة في البيان يتعدى الإيجاز اللفظي في الأصل ، غامر بإلباس الترجمة ثوبا فضفاضا تخبّ فيه بدلا من التأنق به .

وكان أن انتهيت بعد هذه الالتفاتات المتهيّبة إلى أن أقصد طريقا وسطا ، فلا تشغلني العناية بإيضاح المعنى عن العناية باللفظ ، حريصا كل الحرص على أن تنعكس فيما أصوغ روح جبران النابضة في شعره دون إخلال بمعنى أوتزيّد في لفظ . وذلك ما أخذت به نفسي في الترجمة بالحفاظ بقدر الإمكان على روح الشاعر المؤلف وطابعه . وقد يبدو لمن لم يعتد أسلوب جبران الرومانسي أن الترجمة قد خرجت في غير مكان عن دلالته الأصلية ، وليس ذلك إلا نتيجة تصرف أعتقد أن للمترجم أن يتيحه لنفسه ، بالخروج عن الإيحاء المباشر للفظ بغية الحفاظ على دقائق المعنى ، فما أكثر ماتسيء الترجمة الحرفية إلى مبنى الشعر ومعناه . ونبيّ جبران — كما لايغيب على القارىء — ليس أحدا سواه . وقد يكون في هذا اعتدادٌ بالنفس يبلغ مرتبة الغرور، غير أنّا نعرف أنه ما من فنان إلا يتولاّه نوع من الغرور لفترة من الوقت قد تقصر أوتطول . وليس الأمر بالنسبة لجبران إلا انعكاسا طبيعيا لحياته ، فكثيرا ما رأى نفسه أقوى ممن حوله من الذين لايدركون تميّزه ولا يقدّرونه حق قدره ، فأعطى نفسه ماضنّ الناس عليه به . بل لعله بالغ في العطاء تحدّيا لهم أو لفتاً على الأقل لأنظارهم . وإذا كان الكثير منا يحبّون الفنان الأصيل أحيانا

لأنه يتعذّب مثلنا و يقاسي لوعة الحنين كما نقاسيها ، و يلتاع في الغربة كما نلتاع ، و ينزف دمه لضراوة الأيام كما ينزف دمنا ، وإذا كانت بعض أعمال الفن الجريحة تعشّش فى أعماقنا لأنها تمنحنا راحة تغنينا عن البكاء بصوت عال ، فإن كتابات جبران تعطينا لأول وهلة هذا النوع من المواساة قبل أن تأخذنا فى رحلة من التأمل العميق لأسرار الوجود .

* * *

وذات صباح فى شهر أكتوبر ١٩٥٧ أبلغنى السيد سامى شرف سكرتير الرئيس للمعلومات بصدور قرار الرئيس بتعييني مستشارا برياسة الجمهورية . وفى المساء ألمّت بزوجتى حالة استدعت نقلها إلى المستشفى لإجراء جراحة عاجلة بناء على استشارة طبيب صديق . وبعد أن انتهت الجراحة واطمأن صديقى على حالها أسرّ لى أنه علم من أحد كبار المسئولين برياسة الجمهورية [ذكر لى اسمه ومما أدهشنى أن صلتى به كانت طيبة] أنه والمجموعة التابعة له لايرحّبون بوجودى بينهم ، بمقولة أن طبيعتى تختلف عن طبيعتهم ، وأن علاقتى الوثيقة بعبد الناصر تسمح لى بنقل وجهة نظرى إليه مباشرة دون حجاب وهو مايغضبهم . مجمل القول أنه لن يكون هناك انسجام بينى وبينهم على أية صورة . وأضاف الصديق أنه يتوقع لى أن أجد من المعوّقات والمضايقات ما قد يوقعنى فى الحرج وقد يؤثر على علاقتى بعبد الناصر نفسه ، وبيّن لى أن هذا الحديث قد بلغه فى الصباح ، واحتار كيف ينقله الىّ ومتى ، غير أن القدر قدرتّب هذا اللقاء دون سعى من أحد .

والحق إنى حزنت وملأ الأسى قلبى ، إذ ماكنّا ونحن نعدّ للثورة نتخيّل أن تكون ثمة مطامع فى غرض من أغراض الدنيا ولاجاه لسلطان . وكان عجبى أن هؤلاء الذين رأيناهم أخيرا حول جمال عبدالناصر لم يكن أحدٌ منهم من رجال الثورة الذين قاموا بها معه ، ولكنها سُنّة الحياة يغرسها الغارس ويجنيها غيره بعد أن يمهّد لهذا الجنى بكثير من الدسّ والكيد . أدركت فحوى النصيحة ولم يغب عن علمى ماتذخر به حاشية الحكام من مكائد ودسائس ، فآليت على نفسى ألاّ أتورّط فى تولّى منصب من مناصبها . وفى اليوم التالى وكان يوم الجمعة قصدت القناطر الخيرية للقاء عبدالناصر فبادرنى بتهنئتى بالمنصب الجديد ، منصب المستشار

برياسة الجمهورية ، فإذا أنا أردّ عليه بعبارة موجزة مما أدهشه ، فأخذ يسائلنى عن جليّة الأمر، فقلت : « أحسّ كما لوكنت قد قصدت القطار المتجه إلى الإسكندرية فإذا بى أكتشف أنه متجه إلى الإسماعيلية » .

فأجابنى : ومايمنعك من أن تتركه فى أقرب محطة لتلحق بقطارك ؟ فقلت له : إذا كانت تلك نصيحتك فذلك ما أحاول أن أفعله .

فابتسم وقال : كن صريحا معى وقل مافى نفسك .

فقصصت عليه ما سمعته . وقد حاول أن يعرف اسم الصديق الذى نقل إلىّ هذا ليطمئن إلى سلامة المصدر وبالتالى الى صحة الخبر، فاعتذرت عن أن أبوح باسمه ، وقلت إنه وعدٌ قطعته على نفسى وأقسمت عليه ، فقال ما زحا : « قُل وصُمْ ثلاثة أيام » . ثم أخذيهوّن على نفسى الأمر قائلا : ومن منّا من نفس طبيعة الآخرين ؟ إن لكل فرد تكوينه الذاتى ، وهذه رفقة عمل ، ولعل من واجب كل منا أن يبذل جهدا ليتآلف مع الآخرين حتى تواصل السفين مسيرتها .

فقلت : أنت تعرف أكثر من غيرك طبيعتى ، وتعرف رغبتى فى أن أكون إلى جانبك ، والمشكلة تنحصر فى أنه قد ثبت لى أن المسألة لا تعدو صراعات على السلطة ، وهو مالا أحب أن يقع بين العاملين فى مكتبك ، فلمَ لا أوفر عليهم وعلى نفسى هذا الجهد الضائع وندّخر طاقاتنا لصراع أجدى أن نخوضه معا ؟

قال : لا أكتمك أنى فكّرت طويلا فى أن أسند إليك رياسة المخابرات العامة ، ولكنى رأيت بعد إنعام الفكر أن هذا العمل لا يوائم طبيعتك .

ثم سألنى وقد اكتسى وجهه بمسحة من التجهّم : أى مكان إذن تريد أن تعمل فيه ؟ . اختر ماشئت ، وسأفعل كل ما فى استطاعتى لتحقيقه .

فقلت مداعبا : إن ما أريده يخرج كما أعلم عن حدود قدراتك .

والتفت الىّ وفى وجهه دهشة لم تلبث أن خلّفت مكانها لابتسامة عريضة وهو يقول : إنها هواياتك الفنية ... ثانية !

وأجبته : أجل . ما أزال أتمنّى أن أكون عازف بيانو مرموقا . ولو خُيِّرت أن أختط حياتى من جديد لمافعلت غير ذلك ، ولما دخلت الكلية الحربية و... ومضيت أسترسل فى الحديث ، فقاطعنى قائلا : ولكنك دخلت الكلية الحربية وكنت ضابطا كفؤا وشاركت فى حرب قومية واشتركت فى صنع ثورة من حقك أن تكون فى صفوف قادتها ، ومن حقها عليك أن تساهم فى دعمها .

ثم اقترح علىّ أن أستأنس برأى المشير عامر ربّما يفكر هو فى الأمر من جديد .

توجهت لتوى إلى عبدالحكيم عامر فوجدته لفرط دهشتى يؤيد رأيى تماما ، وأضاف قائلا : صديقك هذا رجل مخلص وأمين ، فإن تلك المجموعة لن ترحب بك ، ولن تدعك تعمل فى هدوء أو وئام ، وسوف تحاول الإساءة إليك وإقصاءك مهما كلفها الأمر. فلتترك هذا الموضوع لى .

أحسستُ كأن عبئا ثقيلا قد انزاح عن صدرى ، فعدت إلى المستشفى حيث كانت ترقد زوجتى ، وكان تحسّن صحّتها عاملا جديدا فى تهدئة خاطرى . وبدأت أنسى هذه الواقعة الأليمة شيئا فشيئا ، ولم يمر أسبوع حتى فوجئت بصدور قرار لرئيس الجمهورية بتعيينى سفيرا لمصر فى روما ، ومُنحت مع هذا التعيين وساما ، فقد جرت العادة بأن يُمنح بعض السفراء مع تعيينهم أوسمة . غير أن الرئيس حين عُرض عليه هذا القرار لإمضائه أبى إلا أن يكون منحى هذا الوسام لخدماتى السابقة لابمناسبة تعيينى سفيرا فشجب العبارة التقليدية « بمناسبة تعيينه سفيرا لمصر فى إيطاليا » وكتب بخط يده « بمناسبة الخدمات التى أدّاها قبل نقله إلى وزارة الخارجية » .



مع الشهيد البطل محمد وجيه خليل ، رجل يولع بالشموخ انى وُجد وينعم بالبطولات حيث تكون . المجدل بفلسطين ١٩٤٨



مع وجيه خليل وجمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر . اسدود بفلسطين اثناء الهدنة الاولى ١٩٤٨ .



مع اللواء احمد فؤاد صادق قائد القوات المصرية بفلسطين واللواء محمد ابو رابية قائد المعاونة الجوية والبكباشى سيد جاد بمقر القيادة العامة برفح ١٩٤٨ .

جمال حسين الإرشاد ١١ الوحدات ١٢٠٠ ①

رقم ١ سنة ٣١ ١ التلفون (حربي)

المرحلة الأولى

التحركات

[illegible] سيارات [illegible] [illegible] من الأرض والميدان أنور

جاء [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] الجيش

[illegible] التمركز في [illegible] الفرسان

[illegible] المدرعات [illegible] الجيش

[illegible] سيارات ١٢٠٠

[illegible] :

[illegible] سيارات [illegible] من [illegible]

[illegible] (من الكتيبة [illegible])

[illegible] (من كتيبة [illegible])

[illegible] ٤٠ [illegible]

[illegible] (الحربي)

[illegible] ١٢٠٠ [illegible]

[illegible] [illegible]

[illegible] ٣/٢

SP

٢٠ [illegible] (ضباط) [illegible]

[illegible] سيارات [illegible]

[illegible]

[illegible] البيع [illegible] الضباط

[illegible] ١٢٥ (ضابط)

[illegible] ٦

٢٠ [illegible] [illegible] [illegible]

الخطة العامة للثورة بخط عبدالحكيم عامر وإضافات زكريا محيى الدين وتعقيبات جمال عبدالناصر .

(٢)

(٤) الطريق المؤدي من الحالبة إلى الإدارة المحلية

٣٠ لترا من الكشف الجانبية لسيارة ضابط

(٥) [illegible] القدس [illegible] باب [illegible]

٣٠ لترا من الكشف الجانبية لسيارة ضابط وجيه رشدي

(٦) تقاطع شارع الخليفة الأموي بشارع نادي سميرأميس (صفحة [illegible])

[illegible]

في الكشف الجانبية (٧٠) [illegible]

(٧) [illegible] ٢٧ [illegible] العراقية

٨ لترا لسيارة يوسف [illegible] يحيى [illegible]

[illegible] وبابات

[illegible]

(٨) [illegible] المناطق

[illegible] لترا [illegible]

(أ) من طريق [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] قطاع

(ب) من طريق [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] قطاع

(ج) [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] قطاع

(د) [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible]

(٩) دائرة [illegible]

[illegible]

SP

[illegible] ١٢ [illegible]

[illegible] ١٢ [illegible]

[illegible] بالسيارة [illegible]

ولتحج كما سيأتي

شيء من الكوادر ودبابات تشويب القناطر مدرسته ممكن ناقلة والطيران

منهم من الرتب الأخرى) إلى [illegible]

تلقى منهم كل من راح سنة ٨٤٠٠

مع كل كوادر عند إضافة لشق القناة [illegible]

الراديو

ملك بيانه له إمكانيات تجهيز الراديو

ربابه آخر من الجيش ?

التمويل لهم الإذاعة

مصطفى مشاه

تدريب سيارات ورجل سنة ٥٠٠٠

ودعم إنشاء ضباط بالأكثر قائد ?

[illegible] ١٢٠

مشروع الطيارة

طائرة من الخاص والتدريب سنة ١٠٠٠

التسهيلات [illegible]

فرق إرسال [illegible] تجهيزات [illegible]

[illegible] ومديرها المدرسين [illegible] ?

[illegible]

الكوادر [illegible] ٧٠٠

المبادئ إعداد رئاسة الكوادر

تدريب دبابات

مساعدات من (٢١٢) سنة ٥٠٠٠

حول الميزانية: يكمل الكوادر بالحمل الضرورية [illegible] ٤٠٠٠ ديعني حينما ١٣ الكوادر سنة ٨٤٠ [illegible]

(كل التحميل للكوادر الحلبية)

شكل الاحتياجات

من عدد أركان رئاسة الجيش

عدد رئاسة ٣ ألوية لسيارات

" " " لدفاع جوية

" " " ٢١٢ ك

ج ٤ ٢

تموز سنة ١٩٧٠

الحلبة والناصر

ثم السعدة

شراء سيارات سنة ٥٠٠

تجريد سيارات

سنة ٦٠٠

٧٠٠

٩٦/ح

الدفعة تعمل ترتيب تشكيل قتال

عن طريق لواءات الدفعة مولتة مع رئاسة الجيش

كل رئاسة وحده تعمل ترتيب المراقبة الدائمة بالأسلحة

الشائعة أو الأسلحة الجيش في مناطق الحدث

منفوشة للوشد بالفوات

مطلوب تقرير صدقته كل ١٥ دقيقة إبتداء ٠٠٠

سنته من الا رئاسة الجيش في بعد ١٠٠٠ على ك

[illegible]

سيكون ترتيب إرسال آلاسلكي جهاز لرئاسة الجيش

من كل سلاح تعمل بلا أزاء في مكثف بالطيارة

ست ٥٥٤ .

ضباط الاتصال بالأسم

—

=

تشكيلات العامة		
زكريا	—	
صالح	—	تقرير لتنفيذ خطة أو طوارئ لبطاقة السياسة الجديدة
فكري	—	
كمال	—	إجتماع مع السفت بين الولايات

شبكة مخابرات سرية ومدنية

٥٩ بواسطة إدارة المخابرات

٥٥ " الاشتراكية والمخفي

المطلوب تنفيذ جميع التشكيلات السياسية وقادة في [illegible] المسلكة عمريا وخبرة الجيش

ليرجع خاص

معلومات وأشمل من التشكيلات له كل تدريبه

[illegible]

(مالبا... أخر الجيش)

٤ نس

الشؤون الإدارية

مستلزمات السفارات

العرض من زملاء المهندسين

التأكد من متانة الأضحية والوقود

[illegible] استلام
جمعية حسنية دولية

قضية ملطية *

يبدأ بعد إرجاع الرهائن ~~وحضور~~

إيصال الى لقاء الاستثمار ملطية

طلب تشغيل ماكينة الاكي ليوم ١٤

تعليمات عمليات حربية رقم ٣

(دار الإذاعة)

القائد: ملازم حميد المصري

القوات: تروب سيارات مدرعة، ٢ عربة مدرعة متوسطة
٢ جيب. بلوا براونينج
جميع الأفراد مسلحين
بالانكستر

الواجب: يتقدم قائد القوة نفسه لقائد العملية الصباح
سعت ٤٠٠.

بدار الإذاعة بشارع شريف بجوار البنك
الأهلي

ملحوظة: ستشترك مع هذه القوة قوة
أخرى من المشاة هي المسئولة
عن احتلال المداخل والأعمال
المترجلة

واجب السيارات المدرعة: منع أي
هجوم من جانب البوليس أو غيرهم
من الأفراد

المستوى الإدارية: يصرف لكل فرد تعيينات طوارئ
لمدة يومين

المواصلات الداخلية: تفتح المواصلة ابتداء
من سعت ٤٠٠. على
أن يبلغ تطور الموقف كل
خمسة عشر دقيقة حتى تصدر
أوامر أخرى

أ ب ج

صفحة من التعليمات الحربية لخطة الفرسان بخط كاتب هذه السطور


مع حسين الشافعى وخالد محيى الدين .


لقاء مع اللواء محمد نجيب .


اللـواء محمـد نجيـب يملأ استمارة
استفتاء مجلة التحرير عن الدستور

البكباشى جمال عبدالناصر يملأ استمارة
استفتاء مجلة التحرير عن الدستور









مع الفنيين فى إحدى مراحل تجربة مدفع صاروخى عديم الارتداد

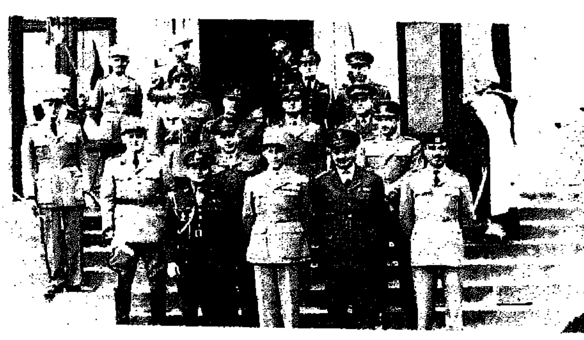


مع اللواء على أبو نوار فى
أعقاب طرد الجنرال جلوب

كاتب هذه السطور يضع باقة زهور
على قبر الجندى المجهول تحت
قوس النصر بميدان الإتوال
بباريس .

مع السفير المصرى حسن زكى
بوزارة الخارجية السويسرية ببرن

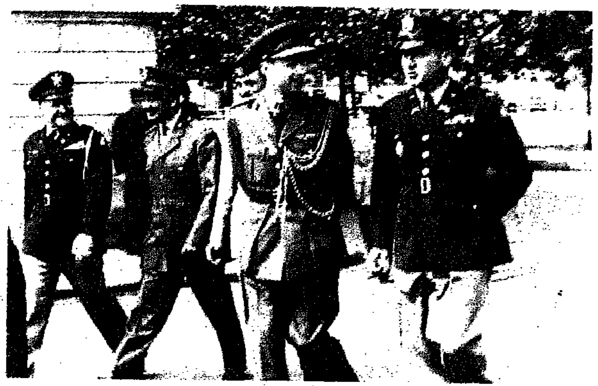




مع مجموعة من الملحقين العسكريين
فى زيارة لمدرسة الفرسان بسومور

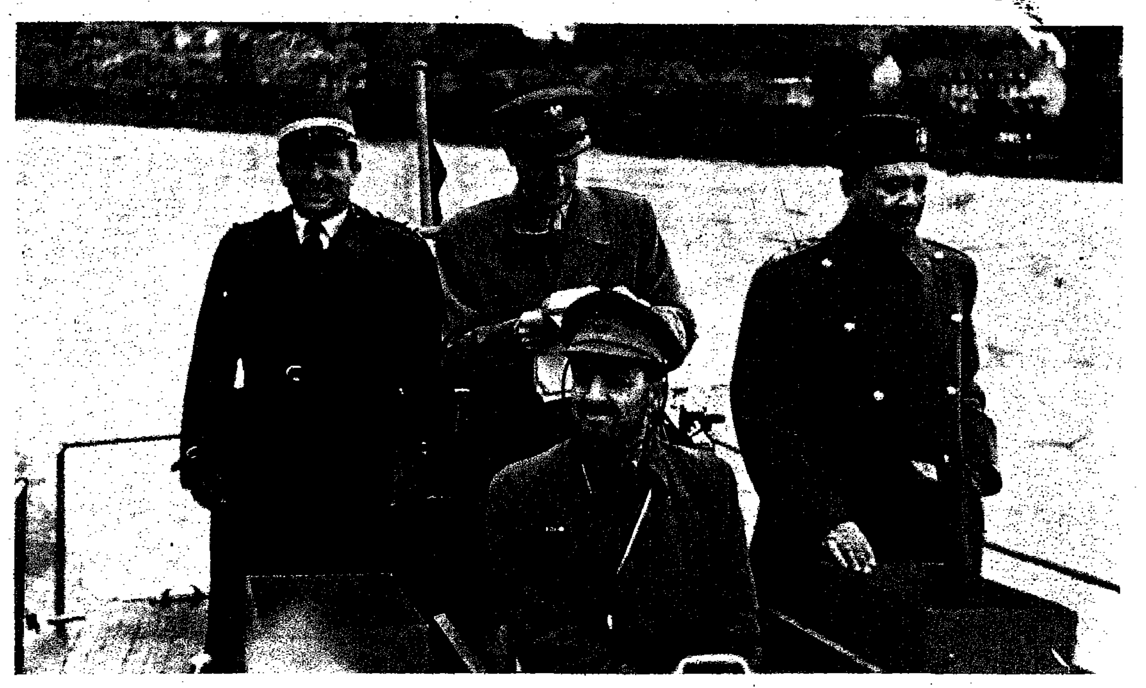


الحبيب بورقيبه يهنىء الملحق العسكرى المصرى
بباريس بعيد الثورة فى ٢٦ يوليه ١٩٥٤



مع الملحق العسكرى الأمريكى والبريطانى
فى زيارة مدرسة المدرعات الفرنسية

مع الملحق العسكرى الباكستانى والسويسرى
والبولندى فى إحدى مناورات الجيش الفرنسى عبر
نهر الراين





مع مدير المخابرات الحربية الفرنسى



مع الأستاذ ريچيس بلاشير



مع الملحق العسكرى السوفييتى



رينيه ويج الأستاذ بالكوليج ده فرانس



رينيه ماهيه مدير عام منظمة اليونسكو



أندريه مالرو وزير الشئون الثقافية الفرنسى

المستشرق لوى ماسينيون





الأديب لوى أراجون







الفنان مارك شاجال

اندريه مالرو والفنان مارك شاجال تحت سقف الأوبرا الجديد .



دراسة مصورة لإحدى لوحات باليه دافنس وكلويه . مهداة من الفنان مارك شاجال لكاتب هذه السطور



المؤلف الموسيقى أوليفييه ميسيان



مع الرئيس جرونكى رئيس الجمهورية الإيطالية بعد تقديم أوراق اعتمادى سفيرا



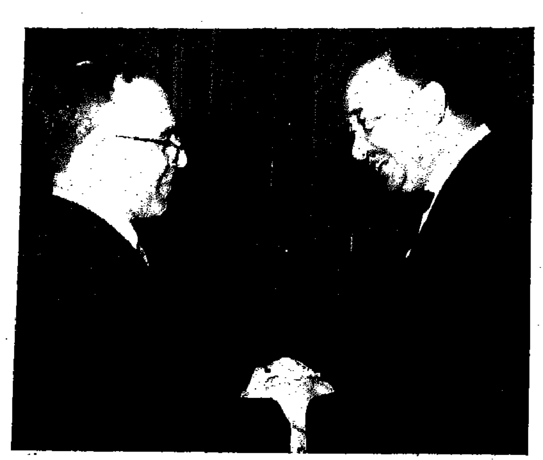
فى الطريق الى تقديم أوراق اعتمادى سفيرا

مع أعضاء السفارة المصرية بروما





مع الرفيق كوزيريف سفير الاتحاد السوفييتى بروما

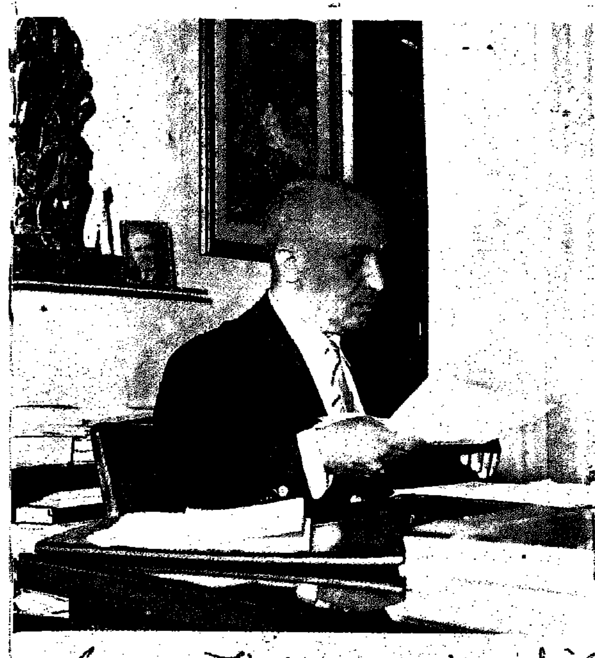


مع السنيور لاپيرا عمدة فلورنسا

فى استقبال الرئيس جرونكى بالجناح المصرى فى معرض البينالى بمدينة البندقية



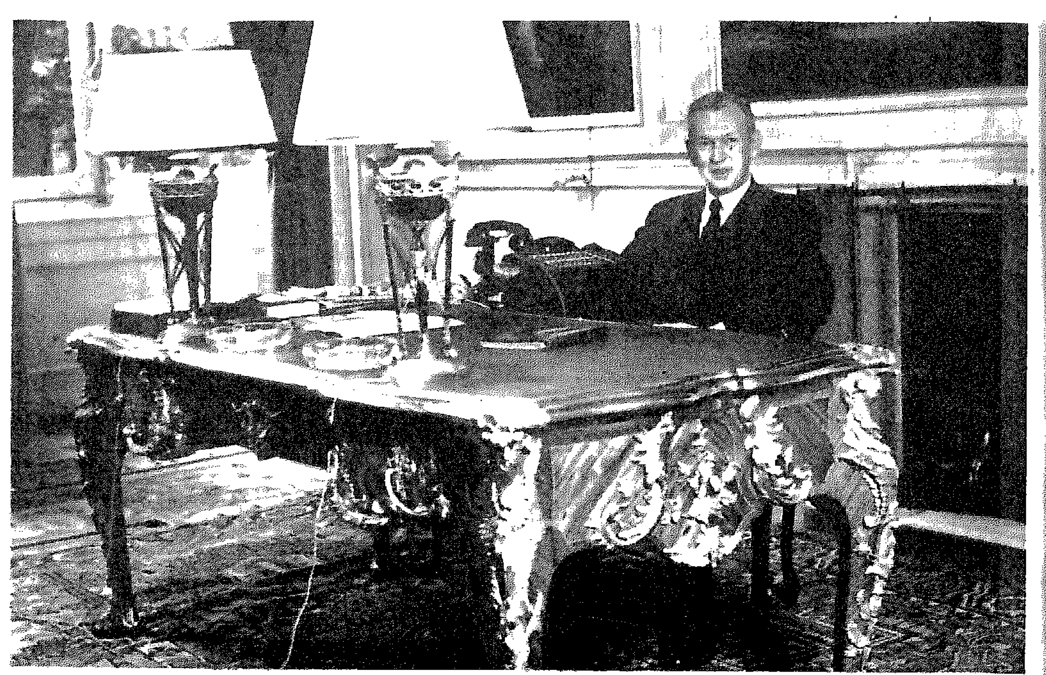
فى حفل تكريم بالقاهرة للرئيس فانفانى



امنتورنى فانفانى رئيس وزراء إيطاليا ووزير الخارجية



فى رفقة الرئيس فانفانى اثناء زيارته للقاهرة



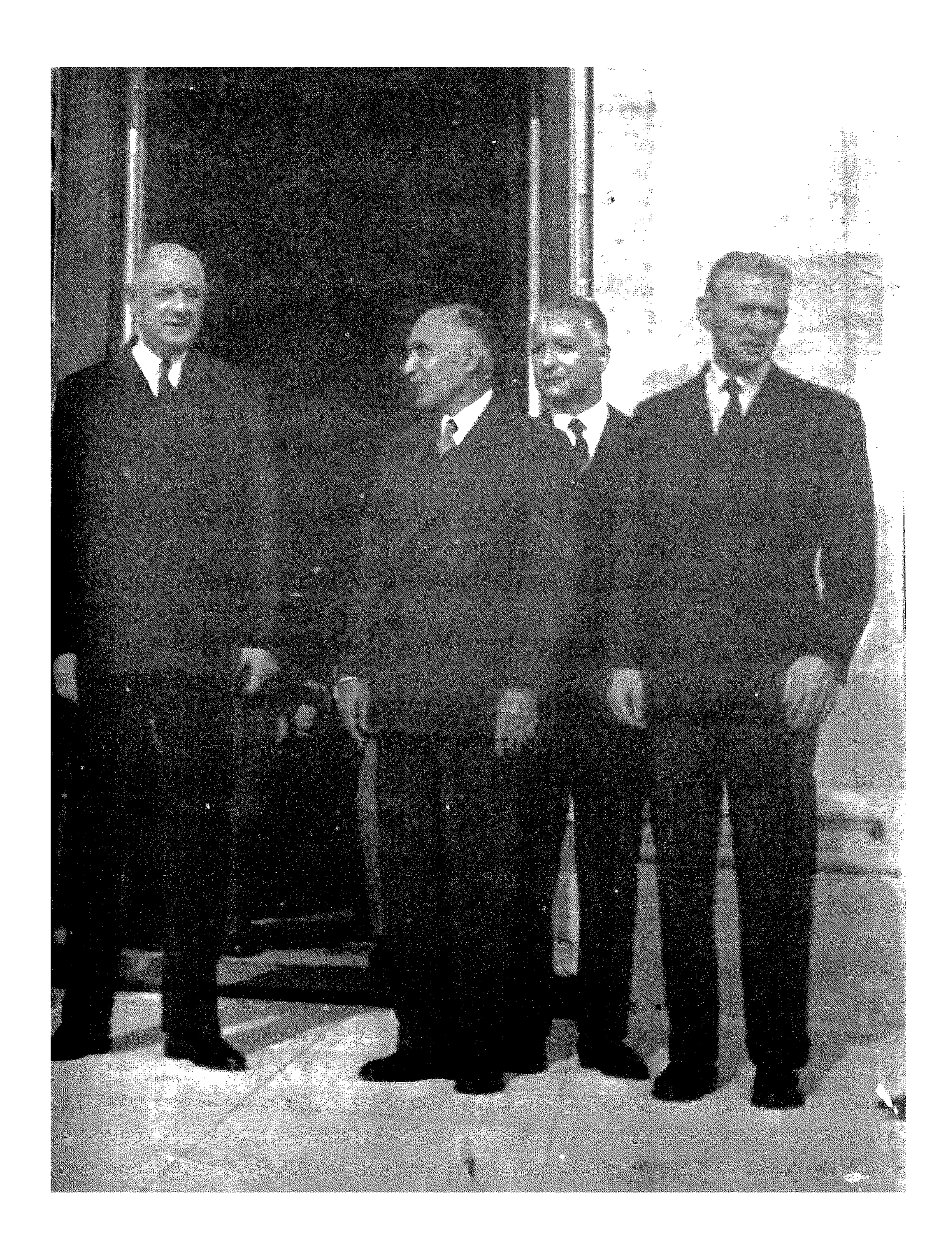
المسيو كوف ده مورفيل وزير الخارجية الفرنسى

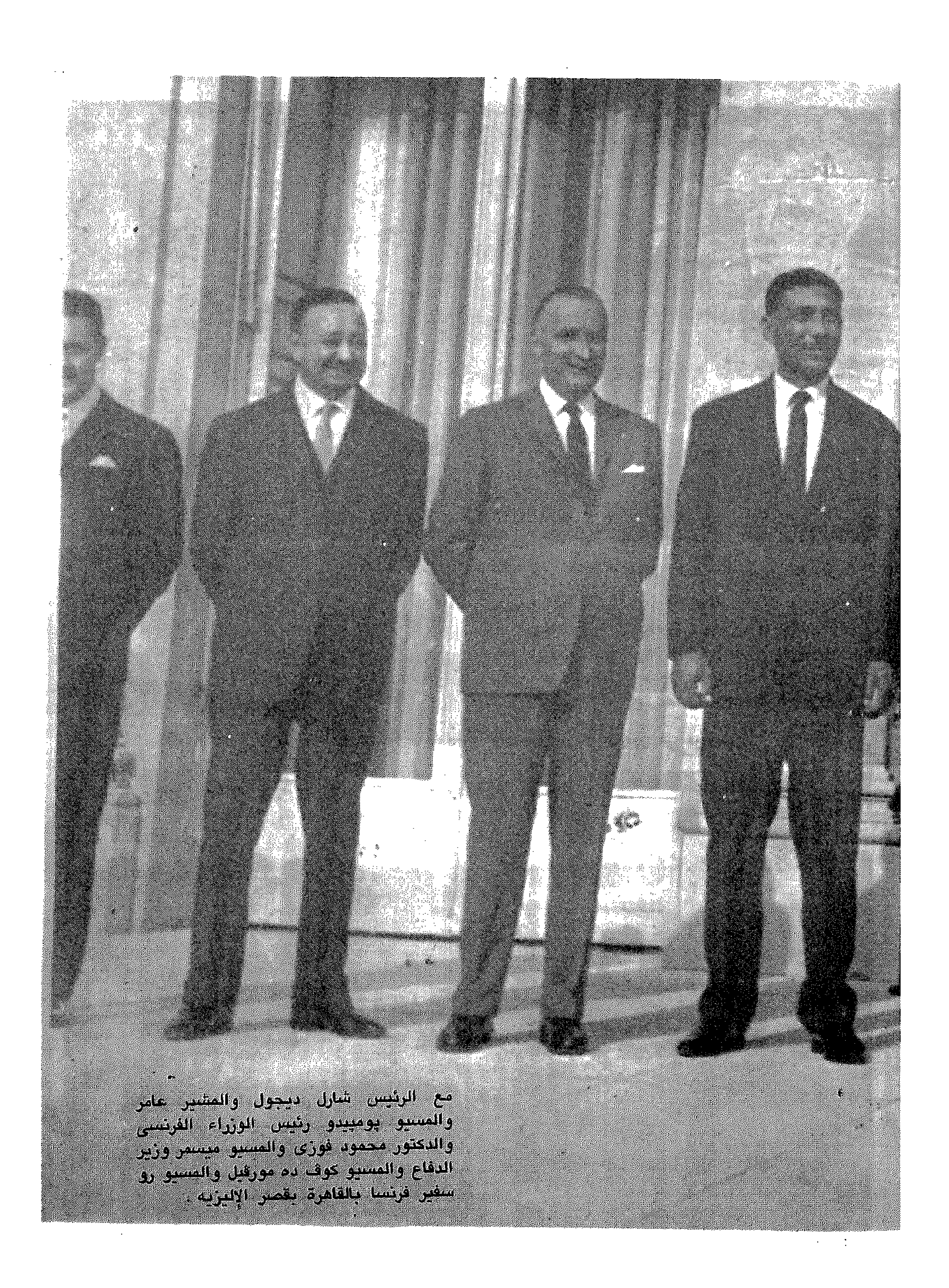


المسيو لوى چوكس وزير شئون الإصلاح الادارى الفرنسى

كاتب هذه السطور يلقى خطابا بمقر جمعية الصداقة الفرنسية المصرية بباريس .. بصحبة المشير عامر (اكتوبر ١٩٦٥)







مع الرئيس شارل ديجول والمشير عامر
والمسيو پومپيدو رئيس الوزراء الفرنسي
والدكتور محمود فوزى والمسيو ميسمر وزير
الدفاع والمسيو كوف ده مورڤيل والمسيو رو
سفير فرنسا بالقاهرة بقصر الإليزيه .



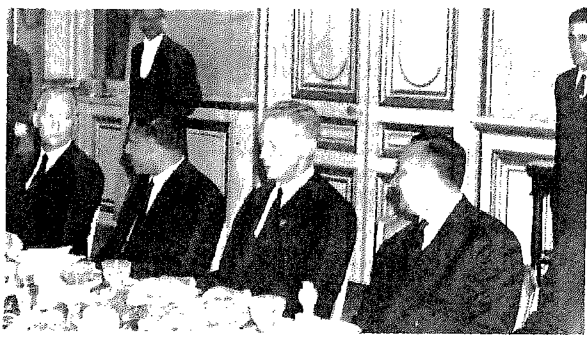
مع المشير عامر عقب حفل الباليه بدار أوبرا باريس ، وفى توديعه مدير الأوبرا إيمانويل بونڤيل .

مع المشير عامر فى لقائه مع الطلبة والمبعوثين المصريين فى فرنسا





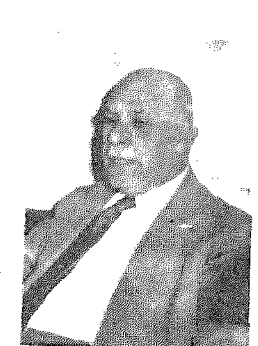
السفير بيير مايار سكرتير عام جهاز الدفاع القومي الفرنسي



مع المشير عامر والمسيو ميسمر وزير الدفاع الفرنسي على مائدة الغداء التى أقامها المسيو كوف ده مورفيل وزير الخارجية الفرنسي تكريما للمشير بالكاى دورساى مقر وزارة الخارجية الفرنسية .

فى حفل العشاء الذى أقامه المشير عامر بفندق كريون قبل مغادرته باريس . ويبدو فى الصورة مع المشير الرئيس جورج پومپيدو والوزير لوى چوكس وكاتب هذه السطور والوزير جاستون بالڤسكى والسفير احمد حسن الفقى و (الوزير) چيسكار ديستان وغيرهم .





الأستاذ الكبير فتحى رضوان

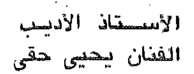


الدكتور لويس عوض
الأستاذ والصديق



الدكتور حسين فوزى صاحب
عطاء ثقافى رفيع





الأستاذ الأديب
الفنان يحيى حقى

(١) هى كرنفال الحيوانات لكاميّ سانْ صَانْص قيادة ليو پولد ستُوكُوسْكى وأشعار أوجِينْ نَاش وتلاوة نُو يل كَوَارْد.

(٢) Pieta مشهد الأسى الذى يتضمن العذراء مريم مع جثمان المسيح بعد إنزاله من على الصليب.

(٣) انظر « الحج إلى بايرو يت » من كتابى « ريتشارد فاجنر. دراسة نقدية » صفحة ٦٨٩ إلى ٧٣٤. دار الوطن العربى بيروت ١٩٧٥.

(٤) Edouard Robert: Dictionnaire des Injures de la langue française. Les 3900 Gros Mots. Tchou, éditeur. Paris 1979.

Pierre Daninos: Les Carnets du Major Thompson. Decouverte de la France et des Français.

(٥) پيير دانينوس: مذكرات الرائد طومسون. استطلاع فرنسا والفرنسيين ترجمة د. ثروت عكاشة. الطبعة الأولى: الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤. الطبعة الثانية ١٩٨٩: دار الهلال بعنوان « فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد طومسون ».

(٦) تعاقدت اسرائيل مع فرنسا فى نوفبر ١٩٥٤ على شراء ١٥ « طائرة مستير٢ » و بدأ تسليم الدفعة الأولى منها المكونة من أربع طائرات فى منتصف عام ١٩٥٥. كما تسلمت اسرائيل فى نفس العام ٢٦ « مدفعا عيار ١٥٥ مم » وتم التعاقد على ثمانية مدافع أخرى من نفس الطراز، ومائة وخمسة وسبعين « مدفعا عيار ٧٥ مم »، فضلا عن عشرين مدفعا من نفس الطراز للاستخدام ضد الدبابات واثنى عشر ألف طلقة عيار ٧٥ مم. وابتداء من فبراير ١٩٥٦ مضت فرنسا تمد اسرائيل بدفعة إثر دفعة من طائرات « مستير٤ » بلغت ستين طائرة على الرغم من أن العقد الموقع فى سبتمبر ١٩٥٥ كان ينص على خمسة عشرة طائرة فقط.
وفى الرابع من أكتوبر من نفس العام تسلمت اسرائيل عشر طائرات من طراز «أوراجان» على دفعتين كل منها ست طائرات فضلا عن اثنتى عشر طائرة أخرى فى نوفبر، وثلاثين « دبابة AMX » فى نهاية العام. وكذا تم التعاقد فى عام ١٩٥٦ على تسعين دبابة أخرى من نفس الطراز تسلّمت اسرائيل بعضها فى غضون شهرى يناير وفبراير ١٩٥٦.

(٧) تحتفظ ادارة المخابرات الحربية بملف كامل لتقاريرى وبرقياتى عن هذا الموضوع وغيره. انظر بصفة خاصة تقرير معلومات ١/أ/٢٣٦٨ توزيع التشكيلات المحاربة الفرنسية بتاريخ ١٩٥٦/٩/٢٨، ومعلومات ١/أ/٢٣٦٥ بتاريخ ١٩٥٦/٩/٢٧ ومعلومات ١/أ/٢٣٦٦ بتاريخ ١٩٥٦/٩/٢٨ فضلا عن البرقيات الشفرية.

(٨) باريس فى ٢٧ أكتوبر ١٩٥٦ .

أخى السيد الرئيس
تحية وسلاما وبعد فأرجو أن تكون فى أحسن صحة رغم الأعباء الجسيمة الملقاة على عاتقك ، تلك الأعباء التى لم يقدر لغيرك تحملها من قبل ، كتب الله لك التوفيق فى كل خطوة تخطوها ، والفوز فى كل ماتضطلع به . قد بلغتنى معلومات أراها على جانب كبير من الأهمية منذ يومين وآثرت التريث قبل إرسالها حتى أحاول التحقق من صحتها . فقد علمت من مصدر هام عودنى أن يزوّدنى بأخبار تثبت صحتها ، ولو أن الهستيريا المسيطرة على فرنسا حاليا قد طوّرت الرأى العام لدرجة أصبح معها يصفّق اليوم لما كان يبصق عليه بالأمس . أقول ولو أنه قد يكون من الجائز أن نفس هذه الهستيريا قد أصابت مصدرى إلاّ أنه نظرا لخطورة الموضوع آثرت أن أبلغك به بأسرع وقت حتى تأخذ أهبتك فى وقت مبكر إزاء دسائس الاستعمار إذا صدقت ، وحتى تثبط هذه النوايا بحسن سياستك وتصريفك للأمور . وبينما أنا أسوق إليك هذا الخبر أتمنى فى قرارة نفسى صادقا أن يكون الخبر مدسوسا لانصيب له من الصحة . وفى مثل هذا الوسط الأوربى الذى أعيش فيه حيث تسبق الأحداث تفكير الإنسان أصبح من المحال أن أتردد لحظة فى أن أرسل من المعلومات مايتراءى منطقيا مع مجريات الأمور ، فنحن لن نخسر شيئا إذا ماعلمنا نبأ كاذبا واحتطناله ولكنا سنكسب الكثير فيما لوثبتت صحته . قال مصدرى إن ثمة اتفاقا حديثا بين انجلترا وفرنسا تنازلت فيه الأخيرة عن كافة نفوذها فى منطقة الشرق الأوسط لإنجلترا على أن تعضد الأخيرة فرنسا فى استعادة نفوذها القديم بالشمال الأفريقى . أما مادعا هاتين الدولتين الاستعمار يتين إلى هذا الاتفاق فهو ضمان انشغال أمريكا فى انتخاباتها وانشغال روسيا فى متاعبها مع الدول الدائرة فى فلكها مما يتيح لفرنسا وانجلترا انتهاز الفرصة للعمل منفردتين دون تدخل من أمريكا أو روسيا . وستبدأ العملية بمشكلات تخلقها انجلترا فى الأردن تستتبع أن تتدخل فيها الجيوش العراقية مستفزّة مصر وسوريا ، فإذا تدخلت الأخيرتان غزت إنجلترا الأردن ومصر . وفى نفس هذه اللحظة تعزز القوات الفرنسية الموجودة بتونس ومراكش مراكزها ووجودها بصورة فعالة . وبعد التخلص من الحكام والعناصر المناهضة للإستعمار فى هذه البلاد تنهض عراق نورى السعيد مطالبة الدولتين الفرنسية والبريطانية بسحب جيوشها من كافة الدول العربية حتى تكسبها بريطانيا صفة الزعامة . ومن هنا كانت العراق هى حجر الزاوية فى المشروع فهى آخر معقل للاستعمار فى الشرق العربى ومنها يريد الاستعمار الوثوب من جديد ، وبعد ذلك تتزعم العراق حركة الصلح مع اسرائيل . وتنبنى الخطة على السرعة الفائقة وضرورة الانتهاء من تحقيق أهدافها قبل أن تفيق أمريكا من انتخاباتها وخلال متاعب الاتحاد السوفييتى فى شرق أوربا . ولاجدال فى أن اسرائيل ستلعب دورا ضمن هذه الخطة ، وتؤكد المخابرات الإنجليزية والفرنسية أن روسيا لن تتدخل فيما إذا حدث إعتداء مسلّح من العرب على الدول العربية ، كما أن أمريكا ستفاجأ بالأمر الواقع وستجد نفسها مرغمة على التسليم به . وبمعنى آخر أن هدف الخطة الانجليزية ـــ الفرنسية هو جعل الحرب محلية فى منطقة الشرق الاوسط وإنهاؤها بأقصى سرعة .
ولست أعتقد أن النبأ جديد عليك فما فتىء الغرب يهدد بالحرب من ٢٦ يولية الماضى ولكنى

أعتقد الآن أنهم يتطلعون فعلا إلى تنفيذ هذه الخطة . ولكن ما الذى يدفعنى إلى مثل هذا الاعتقاد ؟ لابد لكى أعكس هذا الشعور من أن أرسم لك صورة واضحة لمايجرى هنا من تصرفات يمكن على ضوئها الخروج بنتيجة بناءة ، فالأحداث الآن أصبحت سريعة متلاحقة تسبق فكر الإنسان ، وتدفعه إلى أن يلهث وراءها .

وقد علمت من مصدر آخر لايقل أهمية أن الحكومة الفرنسية منهمكة الآن فى إعداد كتاب أبيض عن موضوع الباخرة أتوس تضمّنه وثائق وإثباتات مستقاة من المستندات المضبوطة مع زعماء الجزائر. أما الغرض الأساسى من هذا الكتاب فهو البرهنة على أن ثمة خطرا يهدد السلام العالمى ، وأن مصدر هذا الخطر هو مصر ، أعنى دكتاتورها على حد تعبيرهم ، ولقد جرت عادة المستعمرين على تزوير الحقائق وتشويه الواقع . هذا من جهة بينما يحشد الفرنسيون كل ما فى جعبتهم للحصول من مجلس الأمن عند عرض قضية الآتوس على إدانة مصر واتهامها بالتدخل العسكرى المسلح فى حرب الجزائر غير مكترثين بالفيتو الروسى ، وذلك أيضا لإتخاذ الموضوع ذريعة يعبئون بها الرأى العام الفرنسى و يستجلبون بها عطف الرأى العام العالمى عليهم . أرجو أن يكون وقتك قد اتسع لمطالعة خطاب جى موليه الأخير بالجمعية الوطنية الذى نال على أثره ثقة الأغلبية — ولا تؤاخذنى فأحيانا يضطر المرء إلى الإتيان بأمور تشمئز منها النفس — أقول لعلك لاحظت لهجة التحدى التى تكسوها النغمة الحربية فى كل ماقال . وإذا أضفت إلى ذلك أن جميع الصحف [فيما عدا الشيوعية وصحيفتى اكسپرس وفرانس أبزرفاتير] تنفخ فى نفير الحرب وتلهب الشعور العام ، وتبذر بذور الحقد والضغينة ضد العرب والمسلمين ، وتهيىء الرأى العام لخطوة وشيكة أن تتخذها الحكومة الحالية التى يُهيمن عليها و يسيّرها أصحاب المصالح الاستعمارية وعملاؤهم المرتشون من قادة الجيش ، ولاغرو فقد خلا الجو للحكومة تفعل ماتشاء بعد أن نالت تلك الأغلبية الساحقة فى تاريخ الديمقراطيات !

إن فرنسا مهد الحريات أصبحت بحق مقبرة الحريات ، فهى الآن دولة بوليسية يتحكم فيها الإرهاب و يسيطر عليها دكتاتور بغيض ثقيل الظل يسنده مال ونفوذ الرجعيين . لست أكتب لك هذا الكلام وأنا فى برجى العاجى بل أكتب إليك إنعكاس الوضع الحقيقى فى فرنسا . فرجل الشارع والرجل المثقف كلاهما نافر من سياسة حكومته ناقم عليها ولكنه يرتعد خوف أن يصيبه ضرر من السطوة البوليسية الواسعة النطاق التى يمارسها ڤيبو مدير الخدمة السرّية حتى أن منديس فرانس نفسه بات يخشى على نفسه ، فانطلق مذبذبا فى خطبته الهزيلة التى لم يكن يتوقعها منه أحد فى البرلمان خاصة بعد النقد اللاذع الذى وجهه إلى سياسة الحكومة منذ عشرة أيام فى مؤتمر الحزب الراديكالى . لقد آثر السلامة خشية اتهامه بالخيانة ومحاكمته ... نعم محاكمته ، فهو أمر ميسور الآن فى فرنسا . إن أقوى دليل على أن الرأى العام لايتفق والحكومة أن نسبة من تقدموا بأصواتهم فى الانتخابات الأخيرة لم تتجاوز ٥٨ ٪ من مجموع الناخبين . وإذا أضفنا إلى الخطب النارية الملتهبة التى يلقيها الزعماء السياسيون ضاربين على نغمة الأمجاد التقليدية للتاريخ الفرنسى وضرورة استعادة فرنسا لسطوتها السابقة ، وإلى المقالات الدنيئة المأجورة التى لا تكف صحيفةٌ صباح مساء عن كتابتها ضد شخصك وضد العروبة ، أقول إذا أضفنا إلى ذلك ماسمعته مثلا بالأمس فى أنباء النشرة الإخبارية بالإذاعة الفرنسية لأول مرة ولمدة ثلاث دقائق : نواح و بكاء أرامل وأمهات القتلى الفرنسيين فى مكناس بمراكش أثناء الصلاة على أرواحهم فى الكنيسة . ليس الغرض من إذاعة هذا البكاء هو مجرد سرد خبر بل هو محاولة متعمّدة لإثارة عواطف الفرنسيين وتأليبهم ضد العرب المتوحشين ! هو تهيئة وتعبئة للشعور القومى لشىء ماتوشك الحكومة الحالية أن تتخذه ، فهم يستغلون هنا كل حادث يقع لتوجيهه فى صالح سياستهم لأنهم يعلمون أن الرأى العام الفرنسى لن يستسيغ مقتل صغار الموظفين الفرنسيين فى مراكش بل

سيعطف عليهم . والحق لقد كان الأحرى والأجدى النيل من كبار الفرنسيين وزعمائهم فى الشمال الأفريقى فهم المحرك الحقيقى وراء كافة المصائب الواقعة الآن .

إن هدف فرنسا و بريطانيا من التشبث بضرورة تدويل إدارة القناة ليس هو حرية الملاحة إلى غيرها من الاعتبارات المُرددة بل هو التخلص من شخصك ، فإما أن يرفض عبد الناصر ذلك فيُرغمانه بالقوة ، وإما أن يقبل فتضيع هيبته بين المصريين والعرب على حد سواء . هذه هى النوايا ولا أظنها خافية عليك ، وثمة فارق كبير بين النوايا و بين تنفيذها ، فدون ذلك عوامل عديدة عليهم تذليلها قبل الإقدام على ما يريدون . ومرة أخرى أعود فأقول إن العراق تحت حكم نورى السعيد سيكون هو منبع الشرور ومركز القلق للعالم العربى حتى يستريح هذا العالم من مكائد نورى السعيد ، كما أن اليقظة التامة والحكمة الكاملة مطلوبتان منا الآن تجاه الأردن الشقيق .

وختاما فلكى أكون أمينا فى الصورة التى نقلتها لكم عن الموقف فى فرنسا أود أود أن أبين أنه ولو أن الموقف الحكومى يبدو قاتما وميئوسا منه ولا يمكن تغييره إلاّ بمعجزة ، إلا أن ثمة فريقا من الفرنسيين الأحرار يجاهد الآن لتأليب الرأى داخل الحزب الاشتراكى ضد سياسة موليه . وعلى رأس هذا الفريق دوبريه ودفرييه كما سبق أن ذكرت لكم ، كما يواصل بعض الشرفاء جهودا صادقة فى هذا السبيل سأوافيكم بها . ولعل أحد المعاول التى يراد بها زعزعة الثقة بالحكومة الحالية وإحراجها إصرار النائب دوبريه الاشتراكى على البت فى قانون التعليم الدينى المسمّى La loi Berangé حيث سيختلف حتما اليمين مع الاشتراكيين لأول مرة مما قد يزعزع مكانة الحكومة الحالية المكروهة فى كل مكان إلا من أعضاء البرلمان طبعا الذين يفيدون إيما فائدة من عضويتهم . وإذا قلت لك أن الإثراء الفاحش الذى يناله أعضاء البرلمان مدة عضويتهم يفوق بكثير ما عهدناه فى برلماناتنا فلست مبالغا .

وفى النهاية أرجو أن تصلنى توجيهاتكم فيما قد يساعدنى على القيام بواجبى لتحقيق سياستكم لصالح الوطن والسلام عليكم ورحمة الله .

(٩) الدوديكافونية هى مذهب من مذاهب التأليف الموسيقى يستمد اسمه من رقم ١٢ باليونانية إشارة إلى الإثنى عشر نصف بُعدٍ التى تكوّن السُلّم الموسيقى . ويستخدم هذا المذهب أنصاف الدرجات هذه فى ترتيبات نغمية متناثرة ، كما ينبذ المقامات والتآلف الصوتى . ويصوّره بعض النقّاد بقولهم إنه « مجموعة من المركّبات الهارمونية الصارخة والصّفير الحاد وصرير الآلات النحاسية المسعورة بلا هدنة أو راحة للأذن . [معجم المصطلحات الثقافية ، لكاتب هذه السطور . مؤسسة لونجمان] .

(١٠) وما ثورة كرومويل بإنجلترا عام ١٦٤٠ ببعيدة عن الأذهان ، فلقد أتت على العديد من التحف واللوحات المصورة والتماثيل بالكنائس . وكذا الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، فلقد هدمت العديد من الكنائس ذات البدائع الفنية الخالدة . تشهد على ذلك كاتدرائية سان دنى أولى الكنائس القوطية بباريس ومثوى ملوك فرنسا ، إذ نبشت الثورة قبورهم ودمّرت ما فى الكنيسة من تحف فنية . و يشهد على ذلك أيضا ما تبقّى من كنيسة المادلين الرومانسكية بفيزلاى بعد تخريبها . و ينضم إلى هذا وذاك ما حوّلته الثورة الفرنسية من كنائس إلى أماكن اجتماع بعد أن جرّدتها من طابعها الدينى . كذلك اضطهدت الثورة عددا كبيرا من الكتاب والفنانين على رأسهم المصور فراجونار الذى رأت الثورة أن تصاويره لا تواكب نهجها ، فاستجار بالمصور داڤيد إذ كان ذا حظوة عند رجال الثورة ، غير أنه ـــ أى داڤيد ـــ ما لبث أن شايع الدهماء فى أذواقهم وسايرهم بتصميم أزياء الثورة الفرنسية مستوحاة قليلا من الأزياء الرومانية وكثيرا من ثياب السابلة والغوغاء ولاسيما من ثياب رقصة الكارمانيول الوثيقة الصلة بالثورة . على حين اضطهدت الثورة الروسية فى ١٩١٧ البارزين من الأدباء والفنانين فهاجر منهم من هاجر وفرّ من استطاع الفرار ، كما اتهمت رخمانينوف وشوستاكوڤتش وغيرهما بأن موسيقاهم رجعية على نمط الموسيقى البورجوازية ، إلى غير ذلك من أمثلة عديدة عن سيطرة أذواق دُنْيا على دُنْيا الجماليات ، وإن كانت الدوافع فى كل مثال من هذه الأمثلة مختلفة متباينة ، غير أن النظرة السويّة ما لبثت أن عادت تأخذ مجراها فى طريق التقدم والإبداع بعد فترات الانتقال التى تفاوتت مددها .

الفصل الثالث

تجربتي سفيرًا



١
سفير لدى الكويرينالى (١)

في يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٥٧ أقلعت بي وبأسرتي الطائرة الفايكونت المصرية إلى روما ، وحين اقتربنا أخذت تهبط محلّقة فوق الشاطيء جنوبي روما ، وما كادت تصل فوق أطراف « المدينة الخالدة » حتى استدارت ببطء ، فتراءى أمامي مسرح الكولوز يوم البيضاوى ومن ورائه الفورم الروماني ، وعلى مقربة منه مبنى البانثيون الدائرى ، ثم النُصب التذكارى للملك ڤكتور عمانويل الثاني محرّر إيطاليا وموحّدها برخامه الناصع البياض . وما كادت الطائرة تنتهي من دورتها الكاسحة حتى لاح اللون المُوحل لنهر التيبر وخضرة حدائق بورجيزى ، وأخيرا ميدان القديس بطرس يحدّده بهو أعمدة المثّال برنيني وتتوسطه قبة البازيليكا التي صممها ميكلانچلو . عندها راودتني هواجس مختلفة .. ترى ماذا سيكون مصير سياستنا مع إيطاليا ؟ وكم تمنيت أن يسدّد الله خطانا .

وقد استقبلني أعضاء السفارة في المطار استقبالاً ودّيا كريماً ، ثم انطلقت بي السيارة إلى « ڤيللا ساڤويا » الواقعة على « ڤيا سالاريا » أي « طريق الملح » أقدم الطرق الرومانية الذى اختطته قوافل التجار منذ فجر التاريخ

لتحمل الملح من مدائن البحر التيرانى إلى مدائن شاطىء البحر الأدرياتى ، وكان كذلك الطريق الذى تدفّقت منه جيوش الغال الغازية ثم القوط ليُنزلوا الهزيمة بروما . وهو أيضا الطريق الذى شهد غير بعيد من موقع « ڤيلا ساڤويا » أحداث تلك الأسطورة الممتعة التى تروى لنا قصة اختطاف الرومان لنساء قبيلة السابين على يد رومولوس ، والتى ظلت طويلا مصدر إلهام للأدباء والفنانين .

وحين وجدتنى فى الصباح أدخل مكتبى وتصافح عيناى معالم هذه القاعة التاريخية وجدت ذكريات أحداث كبرى تتقاطر على مخيلتى ، فقد كانت « ڤيلا ساڤويا » التى اتخذت منها مصر سفارة لها مقرّ الملك ڤيكتور عمانويل الثالث آخر ملوك إيطاليا . وفى القاعة نفسها التى باتت مكتبا لى استدعى الملك « الدوتشى » موسولينى يوم ٢٤ يوليه ١٩٤٣ بعد عودته من لقاء مع هتلر والحرب العالمية تدمّر أوربا بأسرها ليحمّله مسئولية المصير الحزين الذى أخذت إيطاليا تشقى بمرارته ، وليرسله إلى المعتقل بعدما صارحه بأنه غدا أبغض إنسان للشعب الإيطالى . كان التاريخ كله بحقائقه وأساطيره ينسج من حولى خيمة جديدة تُظلّنى داخل هذا القصر المتميّز بجمال لا تعرفه إلا قصور نادرة .

ولقد عُيّنت سفيرا لبلادى لدى الجمهورية الإيطالية فى أعقاب العدوان الثلاثى وما خلفه ذلك الاعتداء الغاشم من اضطراب وخلل فى السياسة الدولية ، وكنت مدركا كل الإدراك موقف بلادى وحساسية علاقتها بالكتلة الشرقية والموقف العدائى الذى اتخذته الكتلة الغربية نحونا . كما أن سياسة الحياد الإيجابى التى اعتنقناها ، وكذا ظهور القومية العربية بما تبعها فيما بعد من وحدة بين مصر وسوريا ، وثورة الجزائر وظهور الكتلة الأفريقية والعداء المتأصل بين إسرائيل والعرب عامة ومصر خاصة ، ثم احتلال القوات الأمريكية للبنان والقوات البريطانية للأردن ، كل ذلك جعلنى أشعر بجسامة المسئولية وبأن مهمتى شاقة مضنية . ومع إحساسى هذا إلا أنه قد غمرنى قدر كبير من الارتياح أن يكون عملى الجديد فى هذا البلد القريب منا وشعبه غير الغريب عنا على الجانب الآخر من البحر المتوسط الذى ربط بين مصر وإيطاليا منذ ماقبل الميلاد بروابط سياسية

واجتماعية واقتصادية ، وكانت مصر تحتشد بجالية إيطالية كبيرة شاركت فى الحياة العامة يتكلم الكثيرون منهم اللغة العربية بلهجة مصرية ، وقد أتيح لى فى صباى أن أصادق عددا منهم فى رمل الإسكندرية شدتنى إليهم أغانيهم وخفة ظلهم ودعاباتهم المرحة .

وعاونني فى عملى بالسفارة نخبة ممتازة من الدبلوماسيين كانوا على خلق جم ومران واسع وكفاية مقدورة ، أذكر منهم المستشار النابه والصديق الوفى حسن ماهر ثم الأساتذة محمود رمزى وكمال علما وسميح زايد ومصطفى فهمى ونبيل العربى ، وقد تقلدوا جميعهم بعد مراكز السفراء . كما أخص بالذكر المستشار العسكرى اللواء عمر شكيب والمستشار الصحفى عبدالرحمن صادق ، ثم المستشار الثقافى الفنان صلاح كامل الذى كان إليه الفضل فى إنشاء أكاديمية روما الجديدة إلى أن كتب لها الوجود ، والتى تعد الآن بكل المقاييس من مفاخر مصر فى الخارج .

ومنذ وصولى إلى روما أخذ زملائى فى السلك السياسى يحذروننى من أن إيطاليا على النقيض من روسيا ، فبينما تبدو الحياة فى موسكو وكأنها محجبة لايستشف المرء من ورائها شيئا فإنها مع ذلك مجلوة للجميع . وعلى حين أن الأمور فى روما علانية لاسرية فيها والناس جميعا أحرار يتكلمون بما يشاءون وكأنك تلقن عنهم كل شىء ، ومع ذلك فثمة خفايا تغيب عن الأفهام .

كان علىّ أن أحصر جهدى ونشاطى فى تعزيز العلاقات الطيبة بين مصر وإيطاليا وتوطيدها ، وأن أسعى لحل المشاكل الجانبية التى قد تشوب هذه العلاقات . وعندما قدمت أوراق اعتمادى إلى الرئيس جرونكى رئيس الجمهورية فى ٩ نوفمبر ١٩٥٧ أبدى لى رغبته فى تجديد دعوة الرئيس عبدالناصر لزيارة إيطاليا زيارة رسمية ، كما وجهت له الدعوة الرسمية التى كلفنى الرئيس عبدالناصر بتقديمها له فقبلها على الفور واعدا بتحديد موعدها بعد عودته من زيارة تركيا التى كانت قد تقررت من قبل .

وقد دأب سياسيو الغرب على اتخاذ قراراتهم إزاء مشاكل الشرق الأوسط دون تشاور مع زعمائه ودون التفاهم مع المسئولين به وحتى دون النظر إلى ماتخلفه

تلك القرارات على مشاعر الشعوب وآمالها ، خاصة وهم يجهلون حقائق القضايا وأسبابها الجذرية . ومن ثم ارتكب الكثير من بينهم أخطاء تسبّبت فى اتساع هوة الخلاف وزيادة تعقيد المشاكل وخلق المتاعب . وعلى حين كان الأمريكيون والغرب يُحلّون لأنفسهم التعامل سياسيا واقتصاديا وثقافيا مع الاتحاد السوفييتى كانوا يحرمون مثل هذا التعامل على دول الشرق الأوسط ، فما تكاد دولة من دول هذه المنطقة تتخذ موقفا سياسيا أو اقتصاديا فى مصلحتها و يراه الغرب خارجا عن خططه التى خططها لنفسه حتى تعتبر مثل هذا الموقف معاديا للغرب وانحيازا لغيرهم . على أنى لا أنكر أن بضعة من الساسة الأمريكيين والأوربيين كانوا يدينون بآراء وأفكار تتمشى مع تطور العالم وتحقيق آمال الشعوب المستقلة حديثا ورغباتها ، غير أنه للأسف الشديد لم يكن لهذه القلة المحدودة المتزنة صوت مسموع وسط ضجيج سياسة التعصب والتعالى وحب السيطرة والأهواء الشخصية .

* * *

ولم يكد المقام يستقر بى فى روما حتى أحسست أن لدى عملا هاما لا مع أعضاء الحكومة الإيطالية وحدها بل ومع الرأى العام الإيطالى الذى ضلّلته وسائل الدعاية الصهيونية والغربية . وكنت أعتقد أن أول من سأحاول تحسين علاقتنا بهم هم الإيطاليون ، فإذا بى أجد لقاءاتى الأولى تبدأ بمندوبين من انجلترا وفرنسا وأنهم يبحثون معى تحسين العلاقات أيضا . وكانت مفاجأة لى أن أرى كل ممثلى الدول الغربية من السفراء والصحفيين يردّدون نفس النغمة و يلوكون نفس الاتهام بأن مصر واقعة تحت النفوذ السوفييتى وأنها تتجه صوب الشيوعية ، وكان علىّ أن أتحدث إليهم طويلا كى أوضح لهم حقيقة الأمور. والغريب أنه فى كل لقاء كان ينتهى الموقف باقتناع حقيقى بأن جمال عبدالناصر لم يكن شيوعيا ، وأنه جاد فى سياسته نحو الحياد الايجابى ، وأنه اضطر اضطرارا بعد تخلّى الغرب عنه إلى أن يطلب من الكتلة الشرقية سلاحا يزوّد به جيشه الذى كان يقف فى مواجهة صريحة ضد جيش اسرائيل المدعّم بالترسانة الغربية تدعيما يمثل أضعاف أضعاف قدراتنا العسكرية ، بل لقد كان الجميع يدركون أيضا و يعترفون ـــ بمجرد أن أشير إليهم بذلك ـــ بعزم اسرائيل على العدوان من أجل توسيع رقعتها وحدودها إلى أبعد مما تقف عنده .

وهكذا كان لقائى الأول مع مستر روبرت واطسن مدير الإدارة الأفريقية بالخارجية البريطانية الذى استقبلته بمكتبى بناء على طلبه فى الرابع والعشرين من نوفمبر ١٩٥٧ . كان مطلبه واضحا وصريحا أن تعيد مصر علاقاتها مع بريطانيا بطريقة متدرجة لا تثير ثائرة المتزمّتين والذين لايزالون يذكرون مرارة المعركة التى حدثت إبان العدوان الثلاثى على مصر. كما أنه مسّ قضية الجاسوسين الإنجليزيين سوينبرن وزارب مسّا رفيقا يعبّر عن تقدير الحكومة البريطانية لوأن مصر أطلقت سراحهما مع تأكيده أن ليس فى ذلك شرط ولا ارتباط بين قضيتهما وبين قضية إعادة العلاقات . وكان من المنطقى أن تأخذ الخطوة الأولى شكل العلاقات الاقتصادية ، وهوأمر طبيعى إذ أن تبادل العلاقات الاقتصادية من شأنه أن يقيم جسرا من التفاهم الذى يمكن أن يعمّق الوفاق بين الدولتين . على أنى حرصت على تذكيره بأن أحداث عدوان العام الماضى ماتزال ماثلة فى الأذهان ، وأن المصلحة تقتضى السير فى تؤدة فى سبيل إعادة العلاقات ، وأننى أتصور أن يبدأ الأمر إذا نجحت كافة المباحثات الاقتصادية بين الطرفين بتمثيل تجارى وقنصلى لرعاية المصالح المالية والتجارية والفردية ، يتبعه فى المستقبل تمثيل دبلوماسى مبسّط كإسناد السفارتين إلى قائمين بالأعمال . واقترح محدّثى أن يُمنح المشرف على التمثيل التجارى والقنصلى صلاحية تمكّنه من الاضطلاع بإجراء اتصالات لبحث موضوع إعادة العلاقات الدبلوماسية ، وضرب مثلا لذلك بما اتبعته بريطانيا بالنسبة للصين الشعبية . ورأى أن يشرح لى فى شىء من الإسهاب التطور الذى طرأ على الرأى العام البريطانى وفى كل من حزبى المحافظين والعمال ، ثم عاد إلى التأكيد بأن الأذهان الآن أصبحت مهيّأة لعهد جديد بعد التخلّى نهائيا عن مفهوم الاستعمار، وأن هذا من شأنه إزالة كل شك يكون لدى مصر، كما أن من شأنه أن يمهّد لجو يسمح بتحقيق التعاون السلمى المفيد لامع مصر فقط وإنما مع العالم العربى والشرق الأوسط . ورجانى فى ختام الحديث أن تُتاح له الفرصة أثناء وجوده فى روما لينقل إلى وزارة الخارجية البريطانية صدى هذا اللقاء لدى المسئولين فى مصر.

وقد أبلغت القاهرة بمضمون هذه المقابلة ، وبعد أقل من أسبوعين جاءنى ردّ وزارة الخارجية الذى نقلته إلى المستر واطسن بمكتبى فى السادس من ديسمبر بموافقة

الحكومة المصرية على إقامة تمثيل تجارى وتمثيل قنصلى وتمثيل محدود عقب توقيع الاتفاق المالى بين مصر وبريطانيا ، وبموافقتها كذلك على العفو عن الجاسوسين البريطانيين على أن يتم ذلك بعد أن تكون العلاقات بين البلدين قد غدت عادية مادام ذلك ليس شرطا لتحسّنها . فأعرب مستر واطسن عن شكره معتبراً موافقة السلطات المصرية على المسعى البريطاني فاتحة خير أكيدة للعلاقات بين البلدين . وقد عرجنا فى الحديث إلى القضايا العربية وبخاصة قضية الجزائر، فمضى يؤكد لى اختلاف وجهة نظر بريطانيا عن وجهة النظر الفرنسية مبيّنا أن دول حلف الأطلسى لا تجاهر بالآراء المتعارضة حرصا على إبقاء العلاقات الطيبة فيما بينها . ثم انتقل إلى القول بأن وجود قائم بالأعمال مصرى فى لندن سيتيح الفرصة ليننقل للحكومة البريطانية وجهة نظر مصر، كما أن وزير الخارجية البريطانية يبحث الآن اختيار قائم بالأعمال بالنيابة من بين اثنين أوثلاثة من دبلوماسى الخارجية البريطانية على أساس اختيار عنصر لم يسبق له التورط فى السياسة الاستعمارية البريطانية وليس له ماض فى مصر أوفى منطقة الشرق الأوسط .

* * *

وحين بدأت الحوار مع السياسيين الإيطاليين وجدت أن الكثرة من بينهم يجهلون حقيقة قضية فلسطين ولايرون فيها إلا أنها قضية لاجئين . وحتى سفير الولايات المتحدة الامريكية لدى إيطاليا وقتذاك السفير زلر باخ — وهو يهودى الأصل — لم يكن إلمامه بالقضية يتعدى بضع معلومات استقاها من الصحف شوّهت الكثير من تقديره للأمور والتزامه جانب الحق ، إذ كان يعتقد أن مصر لاتكف عن التحرش باسرائيل ، وأنه بينما تسعى اسرائيل وراء الصلح وإقرار السلام ترفضه مصر، عاكسا بذلك حقيقة الأمور وواقع الأحداث مما دفعنى إلى أن أوضّح له بالحجة الدور العدوانى الذى تقوم به اسرائيل فى المنطقة ، وأردفت ذلك بأن أرسلت إليه فى ٣ يناير ١٩٥٨ مقتطفات من التصريحات العلنية التى أدلى بها الرئيس عبدالناصر فى سبيل السلام ، فإذا به يُفضى إلىّ ذات يوم أنه ضد إنشاء دولة اسرائيل على أسس دينية ، وأن الدين بالنسبة له أمر ثانوى فله ابن متزوج من كاثوليكية وحفيد عُمّد كاثوليكيا منذ شهور.

وقد كشفت لى دعوة الرئيس عبد الناصر لزيارة إيطاليا عن خفايا السياسة الأمريكية البريطانية فى حلف شمال الأطلسى والتى اتسمت كلها بالتخوف والأنانية وحب السيطرة وعدم الثقة بين الأعضاء المتحالفين . وكان السنيور بيلا وزير خارجية إيطاليا قد طلب منى عند مقابلتى له فى السادس عشر من نوفمبر ١٩٥٧ بعد عودته من تركيا التعاون معه كى تتم زيارة الرئيس عبد الناصر لإيطاليا بنجاح تام . وأبلغنى اهتمام الوفد الإيطالى أثناء زيارته لتركيا بمشكلة تحرش الأتراك بحرس الحدود السورية ، وأنه إذا تفاقمت الحال هناك فإن النتائج ستكون من الخطورة بحيث لايمكن التكهن بمداها ، واعترف لى بأن الوفد الإيطالى قد أكد لأصدقائه الأتراك أنه ليس لدى السوريين أية نية للاعتداء عليهم كما أنهم تأكدوا أن ليس لدى الأتراك نية للاعتداء على سوريا . ومن ناحيتى أوضحت له أنى كعربى مسلم أؤكد أن ليس ثمة خصومة بين سوريا ومصر من جهة وتركيا من جانب آخر ، وأن هذه الخصومة مفتعلة اصطنعتها الكتلتان الشرقية والغربية اللتان اتخذتا سوريا مسرحا للحرب الباردة بينهما ، أما عدونا الحقيقى فهو إسرائيل . فعلق بأنهم قد تناولوا فى تركيا مسألة اسرائيل بالبحث ووجدوا أنه لامفر من إيجاد حل يعالج مشاكل ثلاث : مشكلة اللاجئين ومشكلة الحدود وضمانات ضد التوسع الاسرائيلى . فتساءلت ولماذا لم نسمع صدى لهذه الأفكار فى اجتماعات الحلف الأطلسى بينما إيطاليا وتركيا عضوان به ؟ فراغ السنيور بيلا من الإجابة وأخذ يوجه أسئلة غير مباشرة يحاول بها أن يطمئن إذا ما كانت مصر تتجه فى طريق الشيوعية ، وأرحته بقولى أننا دولة مستقلة تبغى صداقة الجميع ، وأن الرئيس عبد الناصر قد أدلى منذ قريب بتصريح للتليفزيون الأمريكى بأنه على استعداد لزيارة واشنطن إذا كان فى رحلته كسب للسلام . وهنا ألمح لى عن مشروعه [الذى لم يقدر له أن يتحقق] عن إنشاء منظمة اقتصادية اجتماعية مثالية تضم دول البحر المتوسط لامكان للشيوعيين فيها . ثم سألنى عن رأيى فقلت إنها فكرة وجيهة إذا لم تكن لها أية صفة عسكرية ، فأردف بأنها فكرة « يوتوبية » حقا ، غير أن ماكنا نعتبره يوتوبيا بالأمس قد يصبح واقعا فى الغد ، ولن يكون لهذه المنظمة أى طابع عسكرى أو ترتبط بأى حلف من الأحلاف ، بل كل مانبغيه هو إزالة أسباب التنافر والتخفيف منه .

وتطرقتُ إلى موضوع الجزائر مستفسرا عن رأيه الشخصي فاعتذر عن الإدلاء برأيه مكتفيا بإظهار أسفه على الأسلوب الذى كانت فرنسا تُحْكَم به وقتذاك . وحين علّقت بأن حرب الجزائر تستنزف موارد الحلف الأطلسى ، قال إن المشكلة قانونية ، ثم مالبثت أن اتخذت طابعا عنصريا واستطرد قائلا : ألا ترى أن الوقت قد حان كى تقوم إيطاليا بدور فعال بين مصر والغرب ؟ قلت ومن تقصد ؟ قال : الولايات المتحدة . فأوضحت له أننا على استعداد لمدّ الصداقة للجميع بما فى ذلك الولايات المتحدة . وتبيّن لى أن الظاهرة الجديدة التى طرأت على السياسة الخارجية الإيطالية ترمى إلى الوساطة : وساطة بين تركيا والعرب ، و بين العرب واسرائيل و بين مصر والغرب ثم بين الكتلة الأنجلوسكونية وفرنسا .

وفى مقابلة لى مع سنيور روسّى لونجى سكرتير عام وزارة الخارجية الإيطالية استفسر منى عن سبب زيارة وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة المصرى لموسكو مبديا تخوفه من توقيع معاهدة عسكرية بين مصر وروسيا ، فأوضحت له أن هدف الزيارة هو عقد صفقة أسلحة متواضعة لا تقاس إلى جانب الهبات الضخمة التى تنهال على اسرائيل من كل حدب وصوب وخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الغربية ، ثم تساءلت بدورى لماذا لا تثير الهبات والمعونات السخية لاسرائيل مثل هذا التخوّف أو الاعتراض بين الدول الغربية ؟ وأكدت له أن الزعم بتوقيع معاهدة عسكرية مع موسكو هو تجنّ من الصحف الغربية الموعز إليها لتعكير الجو وإثارة الشكوك حولنا ، فإن سياستنا المعلنة الواضحة هى الحياد الإيجابى ، وأنه بقدر مانحصل على معونة من الشرق بقدر مانرحّب بها من الغرب ، وأنه لايغيب عن باله مااستهدفت له مصر من الولايات المتحدة و بريطانيا وفرنسا من سحب وعدهم بتمويل مشروع السد العالى وما اضطرنا إليه من تأميم شركة قناة السويس ، فقد كنا — ونحن فى حالة دفاع عن النفس — فى حاجة إلى أن نتقبّل المعونة حتى من الشيطان على حدّ الاصطلاح الذى استعرناه من الغرب ، وكانت معونة السوڤييت كريمة غير مشروطة . وفى نهاية اللقاء برّر تساؤله بأن العلاقة بينهم و بين السوڤييت هى مسألة حياة أو موت ، وأن الصراع آت لا ريب فيه . وغادرته وأنا مؤمن بأن محدّثى دبلوماسى مشبع بالأفكار الغربية العتيقة لا يتزحزح عنها . وعلى أثر عودة وزير الخارجية سنيور پيلا والوفد المرافق له من

الولايات المتحدة التقيت فى التاسع من ديسمبر ١٩٥٧ بالسفير ماچستراتى مدير عام الشئون السياسية بالخارجية الإيطالية الذى أشاد بموقف مصر فى الأمم المتحدة من قضية الجزائر راجيا ـــ كصديق لمصر على حد تعبيره ـــ أن يكون موقفنا فى المؤتمر الأسيوى الأفريقى بنفس الروح . فأكدت له أنه بقدر مانلقى من الغرب من التأييد غير المشروط بقدر مايعاوننا ذلك على تعزيز حيادنا والالتفات بكل طاقاتنا إلى الإنشاء والتعمير. وعرّج سنيور ماچستراتى بعد ذلك على مشروع پيلا ليُجمل مضمونه بأنه يربط بين تدهور علاقات دول الشرق الأوسط المستمر مع الغرب بسبب الأخطاء الفاحشة التى ارتكبتها بعض الدول الغربية وبين الديون المستحقة على الدول الغرّبية التى ستُرَدّ إلى الولايات المتحدة .

وفى أثناء دعوة أقامها لى مركز العلاقات الإيطالية العربية فى الثالث عشر من شهر فبراير ١٩٥٨ فاتحنى الوزير المفوض سترانيو مساعد المدير العام للشئون السياسية متسائلا عن موعد زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا مشيرا إلى أن الرئيس جرونكى يؤثر أن تتم هذه الزيارة فى شهر يونيه أويوليه ١٩٥٨ ، فأجبته بعد أن شرحت له ظروفنا أن التزامات الرئيس عبدالناصر تدعوه إلى تفضيل شهر سبتمبر. وكانت ثمة فكرة أن يزور الرئيس جرونكى لبنان فأوعزت إلى الوزير سترانيو بأن زيارة الدول العربية لا تبدأ إلا بالقاهرة . وقد أعرب لى عن تأييد حكومته للوحدة بين مصر وسوريا ، وأنها تتطلع إلى وحدة مماثلة بين الأردن والعراق ، فقلت أن مصر لاشك تبارك مثل هذه الخطوة إذا تمت .

وقد أدهشنى حين أثار موضوع اسرائيل باعتقاده أن حل مشكلة اللاجئين هو نهاية المشكلة الفلسطينية ، فصوّبت له معلوماته بأن مشكلة فلسطين لها فى نظرنا أوجه متعددة لابد من إيجاد حل لها جميعا ، فإلى جانب مايدعوه مشكلة اللاجئين ونعدّه نحن مشكلة شعب بأكمله هناك مشكلة ضرورة إيقاف الهجرة إلى اسرائيل لوقف التوسع الاسرائيلى ، ومشكلة الحدود بينها وبين البلاد العربية المجاورة . وأوضحت له عندما لمست قلقه بالنسبة للنفوذ الشيوعى فى سوريا أن الوحدة قد أكدت تمسكنا بالحياد الإيجابى ، وأنه قد تم حل الحزب الشيوعى السورى فى أعقاب الوحدة مباشرة بالرغم من علاقتنا الطيبة مع الاتحاد السوفييتى فى ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة .

وفى لقاء لى مع السفير ماچستراتى مدير عام الشئون السياسية بوزارة الخارجية أبلغنى أن إيطاليا ستكون من أولى الدول التى ستعترف بدولة الوحدة الجديدة، وأنهم لايأخذون بالرأى القائل بأن الوحدة بين مصر وسوريا هى مناورة غايتها تحقيق مصالح السوڤييت ولكنهم يأخذون بالرأى القائل بأن هذه الوحدة من شأنها إبعاد خطر التسلّل السوڤييتى فى الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن النتيجة التى توصّلت إليها وقتذاك بالنسبة لموقف إيطاليا هو تخوّفها من أن يؤدى انتشار الاتحاد بين دول عربية أخرى إلى الإخلال بالتوازن الدولى فى حوض البحر المتوسط الذى يشغل العرب ساحله الجنوبى المواجه لأوربا، مما يهدّد استقرار مراكز الغرب وقواعده العسكرية، كما أن من شأنه إضعاف مكانة إيطاليا، وذلك برغم أن إيطاليا كانت تؤمن بأن الخطأ الذى يقع فيه الغرب دائما هو النظر إلى مشاكل الشرق العربى فى ضوء الصراع بين الكتلتين الغربية والشرقية.

والجدير بالذكر أن سفير الهند فى روما كان دائم الملاحقة لى لمعرفة ما سيتّخذه ملكا السعودية والأردن وغيرهما، إذ كان يخشى أن تتطور هذه الوحدة إلى اتحاد يضم الدول الإسلامية، الأمر الذى يشكّل فى رأيه خطرا على بلاده، على حين كان سفير الباكستان لايكف عن التلميح إلى ضرورة انفساح الوحدة العربية لتغدو اتحادا بين الدول الإسلامية فى المستقبل، بينما اعترف لى سفير لبنان الأستاذ چوزيف بوخاطر أن وقع الوحدة على لبنان لم يكن هيّنا، وأن أشد المعادين لها هو رئيس الجمهورية وقتذاك كميل شمعون.

وفى حفل عشاء خلال شهر يناير ١٩٥٨ التقيت بالسنيور پيلا فأثار معى من جديد مشروعه لإنشاء منظمة اقتصادية لبلاد حوض البحر المتوسط الذى كان قد سبق وحدّثنى عنه معترفا أنه يحتل الكثير من تفكيره وجهده، مشيرا إلى أن مشروعه يهدف إلى تنمية البلاد التى ماتزال فى طور التقدم بحوض البحر المتوسط وعلى رأسها بطبيعة الحال جنوب إيطاليا فالبلاد العربية فدول الشرق الأوسط، على أن يكون المخطّط فنّيا مجرّدا من الشُّبهات السياسية كيلا يثير نفوس هذه الشعوب وهواجسها، فلا تكون المساعدات مرتبطة بشروط سياسية أو عسكرية

لصالح الغرب . وفى الوقت الذى ألح فيه إلى ضرورة الحدّ من توسع النفوذ السوفييتى وامتداده إلى شمال أفريقيا ، انبرى يؤكد أن هدفه بعيد عن إشراف منظمة حلف الأطلسى التى لاشأن لها قط بهذه المساعدات لما عساه قد ينجم عن مقاومة الدول التى ستحظى بها أونفورها منها ، لذا كان يرى أن يُعهد بالإشراف على هذا المشروع إلى منظمة الإنعاش الاقتصادية الأوربية أوإلى منظمة جديدة تُنشأ لهذه الغاية . وقد تبيّن لى أن الحكومة الإيطالية تتوخّى من هذا البرنامج مصالح شتى أهمها أن تحظى حركة الإنعاش والتعمير والتصنيع الجارية فى المناطق المتخلّفة من جنوب إيطاليا بنصيب وافر من هذه المساعدات ، وأن تربط السياسة الإيطالية ـ الرامية إلى النهوض بالمستوى الاجتماعى والاقتصادى لإقليم الجنوب ـ بالعالم العربى وبالأخص شمال أفريقيا التى سيجد فيها سوقا طبيعية لتصريف منتجاته . أضف إلى ذلك تعزيز النفوذ السياسى الإيطالى فى حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط لحاقا بالولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتى الذين يتجاهلون شأنها فى هذه المنطقة ، وأخيرا تعزيز برنامج التوسع التجارى والفنى والنفطى الإيطالى وفقا لسياسة المهندس إنريكو مَاتِيْ رئيس منظمة البترول الإيطالية « إينى » ، تلك السياسة التى كانت تحظى بالتأييد المطلق من الرئيس جرونكى .

على أن هذا المشروع الذى ظل يراود صاحبه بإلحاح كان مايزال مجرد « أفكار» قوبلت باهتمام محدود فى العالم الغربى ، كما كان يحتاج إلى بحث عوامل كثيرة كتوفير المال لأداء المعونات المقترحة ، الأمر الذى يتطلب الحصول على موافقة الدول الأوربية التى ترى أن مصالحها لا تبرر من جانبها المساهمة فى المشروع أوالتى تعارض فى تنفيذه رغبة منها فى قصر اهتمامها على ماهو أجدى لها فى الوقت الحاضر . وقد اقترح پيلا لتمويل مشروعه تجميع الموارد المالية الأمريكية والأوربية ، فعلى حين تتمثل الموارد الأمريكية فى المبالغ المجتمعة من سداد قروض مشروع مارشال التى كان سيبدأ تدفّقها على الخزانة الأمريكية فى مستهل عام ١٩٥٨ ، كان على كل دولة أوربية من التى ستقوم بتسديد هذه القروض أن تدفع معونة إضافية لا تتجاوز ٢٠ ٪ من قيمة المبلغ المسدّد لأمريكا . أما الدول الأوربية التى لم تتلق معونة بمقتضى مشروع مارشال فتدفع معونات مباشرة

للصندوق ، هذا فضلا عن مساهمة رءوس الأموال الخاصة لاستثمارها فى المشروعات التى ستقام . وعلى الرغم من أن وزير الخارجية الإيطالى قد خانه التوفيق فى اختيار الوقت المناسب لعرض فكرته المحببّة إلى قلبه أثناء زيارته للولايات المتحدة ثم على الدول الأعضاء فى الحلف الأطلسى خلال شهر ديسمبر ١٩٥٧ ، إلا أنه فى الحق كان مشابرا دءوبا يطمع فى ال. دة إليها إذا ماجاءت نتيجة الانتخابات النيابية التالية فى صالح حزبه وعاد فتولىّ شئون وزارة الخارجية مرة ثانية .

وخلال شهر يناير ١٩٥٨ استشرت حملة الدعاية ضد مصر فى الصحف الإيطالية ، تتحامل تارة على شخصية عبدالناصر متهمة إياه بالطموح والدكتاتورية ومنافسة الملك سعود والرئيس بورقيبة ، كما تعدّه أداة للاتحاد السوفييتى فى العالم العربى وحوض البحر المتوسط ، وتحمل تارة أخرى على نظامه نفسه ، فهوفى نظرها وليد ثورة عرضية مفتعله منحرفة عن مجرى التطورات التاريخية القومية ، وترميه أحيانا بأنه نظام إسلامى متعصب أوفاشستى أوماركسى وأحيانا بأنه نظام مهجّن بلامذهب . وتذهب الحملة إلى حد وصف السياسة المصرية بأنها ذات برنامج توسّعى فى البلاد العربية وخاصة فى المناطق الغنية بالبترول والتى تريد تحويلها إلى مجال حيوى للشعب المصرى الفقير المُعْدم ، وأن أهداف السياسة المصرية هى التستّر بعباءة القومية العربية لإخفاء هذه المطامع وشن حملات مضادة لأمريكا والغرب لتضليل الرأى العام المصرى وصرفه عن التفكير فى سوء الأحوال الداخلية . وفى الوقت نفسه تسخر الصحافة الإيطالية من الشعب المصرى فتصفه بأنه خليط من الفلاحين الأميّين الفقراء تعصف بهم الأمراض ويتكاثرون كالأرانب ويتمرّغون فى الطين كالتماسيح ، وأنه شعب لاقيمة له سهل الانقياد لأى نظام والخضوع لأية قيادة ، مستغرق فى التعصب الدينى وكراهية الأجانب ، ليست له رسالة روحية فى العالم المعاصر . وترى أن الهوة سحيقة بين الحكام والمحكومين ، وتعد هذه ظاهرة تاريخية فى مصر منذ القدم . ثم تتطاول على زعامة مصر للعالم العربى بتجسيم زعامة إيطاليا على حوض البحر المتوسط عامة والعالم العربى المطلّ عليه خاصة ، وكذلك بالتهويل فى شأن زعامة العراق والسلطان محمد الخامس والملك سعود والحبيب بورقيبة بل ولبنان للعالم العربى . والمؤسف أن

الرأى العام الإيطالى بوجه عام قليل الإلمام بالعالم الخارجى لاسيا بالشرق ، سريع التأثر بما تنشره الصحافة والإذاعة ، يميل إلى التعميم فيتخيل الأقطار الأفريقية كلها كالحبشة التى كانت قبل الحرب العالمية الثانية فى قبضتهم ، والأمم العربية كلها كليبيا التى كانت إحدى مستعمراتهم . وهو مع إعجابه بمصر الفرعونية إلا أن صورتها تهتز بمجرد اعتبارها ضمن الأمم العربية الإسلامية ، ذلك أن كتب التاريخ المتداولة فى المدارس والجامعات الإيطالية عن مصر القديمة دقيقة ومشرقة ، على العكس مما تتضمّنه عن العرب والإسلام من تشويه .

ولاعجب أن وقعت أجهزة الصحافة والإذاعة والتلفزيون الإيطالية فى قبضة المؤسسات المرتبطة باسرائيل إلى حد أن باتت يقظة العالم الإسلامى تقلق الڤاتيكان وتشكّل فى نظرة خطراً على العالم المسيحى وعلى حركة التبشير المسيحية فى أفريقيا التى بدأت بدورها تتأثر بالإسلام . وقد اقترحتُ وقتها على القاهرة إنشاء مؤسسة دعاية متشعّبة الأطراف تمتد إلى الصحافة والإذاعة بحيث لا تقتصر على روما وحدها بل يكون لها مراكز فى البلاد الإيطالية الهامة لمقاومة الاتجاهات الشابتة والعرضية المحرّكة للسياسة والدعاية الإيطالية والغربية ، وذلك لإبراز ضخامة وخطورة الكتلة الأفريقية الأسيوية من الناحية الدولية سياسيا واقتصاديا ، والترويج لسياسة الحياد الإيجابى والتعاون مع العناصر الإيطالية المؤيدة لهذه السياسة ، وأشرت إلى قصور المطبوعات والنشرات التى تصدرها مصلحة الاستعلامات عن التأثير على عقلية الشعوب الأجنبية الموجّهة إليها ومقاومة أهداف الدعاية الاستعمارية والإسرائيلية المنظّمة والدائبة ضد مصر ، فضلا عن انحصارها فى فئة قليلة من الإيطاليين فلا تُحدث أثرا ملحوظا فى الرأى العام مادامت لا تصل إلى وسائل الدعاية الفعالة كالصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما والمحاضرات العامة .

ومن جانبى أدليت بحديثين صحفيين مختلفين إلى وكالتى أنباء أنسا وريبوبليكا أذيعا بالراديو فى التاسع من يناير ١٩٥٨ ، ونُشرا بصحف « البوبولو» لسان حال الحزب الديمقراطى المسيحى ، و« لاڤوتشى ريبوبليكانا » لسان حال الحزب الجمهورى « والجورنالى ديتاليا » وهى صحيفة مسائية مستقلة ، حاولت فيهما الإجابة على شتى الأسئلة التى كانت تدور حول سياسة الحياد الإيجابى التى

التزمتها مصر، وشائعة وقوع مصر في قبضة السوفييت، وأسباب توتر العلاقات بين مصر والغرب، وعن العلاقات الاقتصادية بين مصر وإيطاليا وخاصة البترولية منها، وعن جهود الحكومة في رفع مستوى المعيشة بمصر. ولم تكد تمر بضعة أسابيع حتى أدليت بحديث آخر إلى التليفزيون الإيطالي، أوضحت فيه الكثير من الأمور الملتبسة على أذهان الرأي العام، وخاصة تلك التي توجّهها الدعاية المضادة وتنفخ فيها.

وكنت قد انتهزت فرصة تعيين السينور رُوسّي لونجي سكرتير عام وزارة الخارجية سفيراً لدولته في باريس وأقمت بالسفارة حفل عشاء في الثامن والعشرين من يناير ١٩٥٨ تكريما له، وقد حضرها عدد من كبار رجال الخارجية الإيطالية من بينهم السنيور فولكي الوكيل البرلماني لوزارة الخارجية وعدد من الزملاء الدبلوماسيين. وقد أبدى روسي لونجي اهتماما متزايدا بالأنباء الواردة عن الاتحاد الوشيك بين سوريا ومصر، ومضى يستوضح مني عن تعداد الدولتين وعن الصورة التي سيتحقق بها الاتحاد وعن موعد إعلانه وعن تفاصيل أخرى لمست فيها أن شيئا من القلق يساوره، فطمأنته بأن الاتحاد يتم بناء على رغبة الدولتين، وأن الكلمة الفاصلة سيقولها الشعبان في استفتاء سيُجرى بشأن هذه الوحدة، وأن الاتحاد سيبقى مفتوحا لكل بلد عربي آخر يرغب في الانضمام إليه، وأكدت له أن مصر تتريث شيئا قبل الاستجابة إلى رغبة سوريا الملحّة في التعجيل بإتمام الاتحاد، وأننا لانسعى وراء مصلحة خاصة وإنما نلبّي رغبة عارمة للأمة العربية لاسيما أن نصيب مصر من أعباء هذا الاتحاد سيفوق بكثير نصيب سوريا منها. وإذا هو الآخر يبدي خشيته من احتمال تسرّب التيارات الشيوعية التي يعتقد الغرب بتغلغلها في سوريا إلى مصر بعد الاتحاد بين الدولتين، فطمأنته بأن الاتحاد من شأنه إضعاف النفوذ الشيوعي على عكس مايتوقع.

وبعد أسابيع من هذا اللقاء وقّعت مصر وسوريا اتفاق الوحدة بينهما في ٢٢ فبراير ١٩٥٨ رغم انتكاس الحركة العربية التحرّرية في الأردن، ووجود عقبات كثيرة أهمها بُعد الشُّقة بين البلدين ووجود اسرائيل بينهما، واختلاف الوضع الاقتصادي مع انقسام سوريا نفسها إلى ثلاث وحدات اقتصادية متباينة، ثم طبيعة المجتمع السياسي السوري المستندة إلى أحزاب قامت على أكتاف المصالح

الشخصية لبعض الإقطاعيين وكبار التجار. والحق إن معرفتي بهذه الحقائق التي لا أعتقد أنها كانت خافية على جمال عبد الناصر قد شكّلت لي جملة من المخاوف ولم أتردد في أن أسطرها في رسالة شخصية بعثت بها إلى الرئيس، وقد كان هذا ديدني معه، لا أخفي عنه شيئا من أحاسيسي ما استطعت.

وكان ثمة وفد برلماني مصري يزور سوريا لقيته الجماهير هناك بحماس شديد، وإذا الأحداث تتتابع تتابع السيل الجارف. فلقد كان السوريون يدركون الآثار السيئة لتلك الخلافات التي تقوم بين أحزابهم ورجالاتهم. فعلى حين كان رئيس الجمهورية تتنازعه التيارات الداخلية كان حزب الشعب فزعا من توغّل النفوذ السوفييتي، وكان حزب البعث يرى أنه لا مناص من مناهضة الحزب الشيوعي السوري، وكان الجيش تتنازعه هو الآخر تيارات مختلفة إلى اليمين وإلى اليسار، فضلا عما كان بين أجهزة الأمن المتعددة من صراعات عنيفة. هذا إلى خطر داهم تحيّن ما بين طوائف الشعب من خلاف، فإذا تركيا تحشد حشودها على حدودهم، ومن وراء تلك الحشود الأسطول الأمريكي السادس. ومن هنا اجتمعت فكرتهم على أنه لا خلاص لهم إلا في أن يمدّوا أيديهم إلى مصر تجمع بينهم وبينها وحدة قوية متينة، وكانت الوحدة لها أصولها القديمة الممتدة على مدى العصور. ولقد تلقّت مصر هذه الدعوة إلى الوحدة في مبدأ الأمر بأناة وتريّث، إذ كانت ترى أنه لابد من أن يسبق هذه الوحدة إعداد وتنسيق حتى إذا ما قامت نهضت على أسس قوية ثابتة. وعلى الرغم من هذا فقد خشيت مصر إن هي أبت الوحدة اليوم لتلك الأسباب، قد يفسّرها إخواننا السوريون بأنها محاولة للإفلات منها، هذا إلى ما كانت تخشاه مصر من أن هذا الحماس قد ينقلب إلى ضده حين ترفض مصر الوحدة. ومن أجل هذا كان لا معدل لعبد الناصر من أن يقبل الوحدة على الوجه الذي رأوه، غير أنه لم ينس أن يحتاط للأمر فيجعل مقاليد الأمور في يده مع فترة الانتقال حتى يأمن ما قد يكون من خطر مُدَاهِم من الداخل أو من الخارج.

ولقد اعتاد الغرب على مناهضة كل حركة للتحرّر من نفوذ الاستعمار، وجعل وسيلته إلى ذلك اتهامها بالشيوعية، ومن بين هذه الدول مصر التي استطاعت أن تخلع عن عنقها ربقة الاستعمار، وإذا هي بعد هذا التحرر تمضي

قدما فى سبيل النهوض ، فتؤمم قناة السويس ثم تضع يدها فى يد سوريا لتقوم وحدة بين الدولتين تكون لها قوتها وهيمنتها على مرور النفط من الخليج الفارسى إلى حوض البحر المتوسط . هذا إلى أن تلك الوحدة الجزئية كانت الخطوة الأولى إلى وحدة عامة بين الدول العربية التى لوتمّت لكان لها فى المنطقة شأنها المهيب .

وما من شك فى أن قيام هذه الوحدة المصرية السورية قد زلزل عروشا عربية كثيرة فى الشرق العربى . ولقد أحس ملوك العرب هذا الخطر الداهم ، وكان ملك الأردن أسرع ملوك العرب حينذاك مناهضة لتلك الوحدة ، فإذا هويدعو إلى قيام وحدة بين العراق والأردن فى ظل الراية الهاشمية . كما لاننسى أن الغرب جُبل منذ القدم على مناهضة كل دعوة إلى القومية العربية التى كانت قبل حُلما يراود النفوس ، وحين أصبح هذا الحلم أقرب إلى أن يكون واقعا إذا الدول الغربية تقف له بالمرصاد ، على الرغم من علمها علم اليقين بأن قيام تلك الوحدة بين الدول العربية هو السد المنيع ضد تسرّب الشيوعية إلى الشرق العربى .

وكانت الصحيفة الأمريكية « ديلى أمريكان » التى تصدر فى روما قد نشرت فى السابع والعشرين من يناير ١٩٥٨ مقالا افتتاحيا بعنوان « اختيار ناصر » Nasser's Choice هاجم السياسة المصرية ، وهو ما استحثّنى إلى الردّ عليه نظرا لسعة انتشار هذه الصحيفة بين الهيئات الدبلوماسية والجاليات الأجنبية فى إيطاليا كما يطالعها على مدار السنة مايقرب من مليون سائح أمريكى ، فضلا عن أن للصحيفة علاقة وثيقة بمكتب الاستعلامات الأمريكى بروما ، كما كان هذا المقال أول هجوم صريح من قبل الجريدة على السياسة المصرية منذ شهر نوفبر ١٩٥٧ حين اشتراها مالك جديد هو لاندونْ ثورن الذى كان قد زارنى بمقر السفارة ، وهو رجل معتدل لديه استعداد طيب للحوار والاقتناع دون تعصب . ومنذ ذلك الحين غيّرت الصحيفة من أسلوبها العدائى نحونا حتى جاء هذا المقال طعنا فى السياسة المصرية جملة وتفصيلا فى الوقت الذى أصبحت فيه الوحدة بين مصر وسوريا وشيكة ، فرأيت أن أرد على المقال بخطاب مفتوح إلى رئيس التحرير الذى نشره فى مكان بارز فى صدر العدد الصادر فى الثانى من فبراير، كما رجوت القائم بأعمال السفارة السورية فى روما بالرد على ماجاء فى المقال المذكور فيما يمس سوريا .

كانت الوحدة من حيث توقيتها وصورتها مفاجأة للجميع ، أعنى الكتلتين الشرقية والغربية ، وهو مايفسر الحذر الذى التزمه ممثلو الكتلتين ، فلم يتعد ترحيب الدوائر الغربية بالوحدة أملها فى أن يتحقق بسببها وقف تسرب الشيوعية إلى سوريا . ومن الناحية الأخرى لم يتعد ترحيب الدوائر الشرقية بها إلا بالقدر الذى يحقق أملها فى منع الغرب من استعادة نفوذه فى سوريا . على أن هذه الوحدة أثبتت للعالم أن سياستنا الفعلية هى الحياد ، وأننا لانسعى إلا إلى تحقيق مصالحنا لا مصالح الغير. كما اهتمت الدوائر الدبلوماسية بهذه الوحدة اهتماما شديدا باعتبارها تجربة غير مسبوقة فى ميدان القانون الدولى والسياسة الدولية ، فلم يسبق فى أى زمن مضى أن اتحدت إرادة دولتين سلميًا وبمحض إرادة شعبيها .

ولتحديد سياسة إيطاليا تجاهنا فى تلك الآونة كان ينبغى التمييز بين السياسة الخارجية الإيطالية بوصفها مشروعات حزبية برلمانية وبين الدبلوماسية التى تباشرها وزارة الخارجية كوظيفة ، وبين الجهود التى يبذلها رئيس الجمهورية فى الميدان السياسى والاقتصادى بالتعاون مع النائب المهندس إنريكو ماتيى رئيس منظمة البترول الإيطالية « إينى » والسناتور ألدو فاشتى رئيس مؤسسة الإنعاش الصناعى « إيرى » وبين النفوذ الأجنبى الأمريكى والبريطانى والفرنسى والبابوى ، فكافة هذه التيارات القومية المتضاربة المتنافرة المتجاذبة فيا بينها تجعل السياسة الخارجية الإيطالية تجاه الشرق الأوسط غامضة غاية فى التعقيد والتذبذب بلا اتجاهات ثابتة المعالم . فالتيار الحزبى البرلمانى يتصف بتعدد الآراء فى السياسة الحزبية حتى فى داخل الحزب الواحد ، فعلى حين تتردد أغلب تيارات أحزاب اليمين بين التمسك بالحلف الأطلسى وبين ترجيح كفة أوربا الصغرى مع استبعاد الأنجلوساكسون تأثرا بالنظرية الفرنسية ، وبين العمل فى إطار أوربا الغربية بما فى ذلك بريطانيا واستبعاد أمريكا ، والنظر إلى قضايا الشرق الأوسط فى ضوء هذه الاتجاهات فحسب ، تدعو أحزاب اليسار إلى حياد إيطاليا والتعايش السلمى . وبينما يرى رئيس الجمهورية الإيطالية أن منصبه ليس شكليا كما كان الحال فى فرنسا بل إن له اختصاصات واسعة يخوّلها له الدستور، يردّ عليه خصومه فى الحزب المسيحى الديموقراطى وحزب الأحرار بأنه يتعسّف فى فهم الدستور ويتجاوز اختصاصاته ويتدخل فى أمور لم يقدم عليها سلفه « إيناودى » . فكانت

سياسة جرونكى الخارجية تقوم على اتخاذ سياسة خارجية استقلالية لا تتأثر بالنفوذ الأجنبى وبالأخص الأمريكى وأن تكون مستوحاة من إيطاليا وإمكانياتها ومركزها فى البحر المتوسط ، والسعى إلى سياسة شبه حيادية والتعامل مع الكتلتين الشرقية والغربية مع مقاومة الشيوعية فى الداخل ، والتوسع الاقتصادى الإيطالى فى الميدان البترولى والصناعى والتجارى فى الشرق الأوسط ، ومقاومة الاحتكار الأمريكى البريطانى ، والتعاطف مع استقلال شعوب المنطقة والنهوض بمستواها الاقتصادى والاجتماعى وتأييد الوحدة العربية . وكان يباشر هذه السياسة كما قدمت عن طريق المؤسسات الحكومية المستقلة التى تصطدم مصالحها بمقاومة الولايات المتحدة والاحتكارات الأمريكية والبريطانية .

وكان للولايات المتحدة نفوذ قوى فى تيارى اليمين والوسط بالحزب الديموقراطى المسيحى وفى الحزب الاشتراكى الديموقراطى الذى يتلقى مساعدات مالية جمة من الثرى الأمريكى الإيطالى الأصل « أنطونينى » . كما كان لإنجلترا نفوذ قوى فى حزب الأحرار والحزب الملكى الوطنى وبين طبقة النبلاء والماسونية وأقطاب وزارة الخارجية المنحدرين من عائلات نبيلة . وكذلك كان لفرنسا نفوذ قوى فى الدوائر الثقافية والڤاتيكان والحزب الجمهورى ، فى حين كانت إسبانيا تقدم مساعدات قيمة للحركة الاجتماعية الإيطالية « الفاشية » وتمارس وسطها نفوذا قويا . وكانت للكنيسة سيطرة غير مباشرة على الحياة الإيطالية وبخاصة عن طريق الحزب الديموقراطى المسيحى ، وإن كانت تصادف معارضة من الأحزاب العلمانية [الأحرار والجمهورى والاشتراكى الديموقراطى] وكذلك من الحزبين الشيوعى والاشتراكى .

وقد تبيّن لى أنه ماتكاد المشروعات الحزبية البرلمانية للسياسة الخارجية تنتقل إلى وزارة الخارجية حتى تتخذ طابعا غامضا مرنا ، ومردّ ذلك إلى تعذر الثبات على خطط محددة نظرا لتضارب وجهات النظر الحزبية وقلقها . ولذا تتسم سياسة الوزارة بالغموض والمرونة وعدم التورط فى أى نزاع والوقوف بقدر ماتستطيع موقف الوسيط الساعى إلى التوفيق بين المتنازعين ، فهى تارة تعلن استعدادها للتوفيق بين العرب واسرائيل وتارة بين فرنسا وبلاد شمال أفريقيا ، وتارة تعرب عن شعور المودة لمصر وسوريا واليمن ودول حلف بغداد وغيرها ، وتتوخى عدم الالتزام

بتعهدات صريحة كما تميل إلى اتخاذ المواقف والتصريحات التى تحتمل كل تأويل وتبرير وتفسير.

ولم يكن إعلان الوحدة بين مصر وسوريا مفاجأة للحكومة الإيطالية، فقد باتت كما سبق أن بيّنت تتوقع ذلك منذ وقت بعيد، غير أنها كانت تنظر بعين الحذر إلى توسع الجمهورية العربية المتحدة واحتوائها لدول عربية أخرى فى المستقبل، إذ كانت تخشى الإخلال بالتوازن الدولى فى حوض البحر المتوسط الذى يشغل العرب ساحله المواجه لأوربا الممتد من جبل طارق إلى الإسكندورنة بما قد يضعف مكانة إيطاليا. على أن الدوائر الرسمية الإيطالية باتت مقتنعة تماما بأن نظام الحكم المصرى وقتذاك له من القوة ما يحول فى الحاضر والمستقبل دون انتشار الشيوعية فى مصر وسوريا، وأنه من الخطأ النظر إلى مشاكل العالم العربى بالمعايير الغربية التى تقيس المسائل فى ضوء الصراع والتوازن بين الكتلتين الغربية والشيوعية. فإن هذا التعميم إن صدق على أوروبا فإنه لايصدق على العالم العربى الذى تعود خصومته للغرب إلى مساندته المطلقة لاسرائيل وإلى توجّس العرب من عودة المطامع الاستعمارية، ثم إلى نعرات داخلية وطنية ودينية وأحقاد قديمة ومعضلات اقتصادية واجتماعية ليس لها دخل بالصراع المذهبى.

كما غدت هذه الدوائر مقتنعة بأن ولاة الأمور فى مصر وسوريا لم يكونوا أداة للسياسة السوفييتية ولايتلقون التوجيهات من حكومة موسكو، ولكن سياسة الحياد الإيجابى والتعايش السلمى والتعامل مع الكتلة السوفييتية التى تجرى عليها مصر وسوريا واليمن وأغلب البلاد الأفريقية والأسيوية تفسد على الغرب خططه السياسية والاستراتيچية والاقتصادية فى شمالى أفريقيا والشرق الأوسط وتهدّد مسالك البحر المتوسط والبحر الأحمر ومضايقها، فهى من ثم متوائمة ــ بصفة غير مباشرة ــ مع السياسة السوفييتية. كذلك كانت الحكومة الإيطالية متخوّفة من التهديد الدائم لاستقرار المراكز الغربية فى المنطقة، ومن تعرض القواعد الجوية الأمريكية فى مراكش وقاعدة بيزرته فى تونس والقاعدة الأمريكية فى ولاية طرابلس الغرب والقاعدة البريطانية فى برقة وقواعد الشرق الأوسط البريطانية فى عدن وكينيا للانهيار، فضلاً عن تعرّض الخطوط الدفاعية الإيطالية الأمامية للغزو، إذ أن إيطاليا هى البلد الغربى الوحيد الذى يكاد يلامس الساحل

الأفريقى . هذا إلى اعتقاد السلطات الإيطالية كذلك بأن السياسة الروسية ترمى إلى القيام بخطوتين فى حوض البحر المتوسط سعيا منها إلى مناهضة النفوذ الغربى ، أولاهما : استمالة وتأييد البلاد العربية الساخطة على الغرب وتوسيع نطاق التبادل الاقتصادى معها توطئة لتنشيط خطوط الملاحة السوفييتية فى حوض البحر المتوسط ، وثانيتها : إثارة مشكلة حرية الملاحة عبر مضيق الدردنيل من جانب وتعزيز قاعدة الغواصات والصواريخ فى ألبانيا المهددة لإيطاليا فى الأدرياتى من جانب آخر ، يضاف إلى كل ذلك حتمية نزوح الجاليات الإيطالية الكثيفة المزدهرة فى البلاد العربية وتهديد مصالحها وأعمالها ومايستتبع عودة جماعاتها إلى بلادها من زيادة عدد المتعطلين حيث البطالة مشكلة المشاكل فى إيطاليا ، لاعتقاد الحكومة بأن الحركات الاستقلالية والقومية العربية تكون دوما مقرونة بالتأميم والتخلص من الأجانب ، وأن مصر باتت قدوة لسائر البلاد العربية فى هذا المجال . ولم يكن يفوتنا أن محاولات الحكومة الإيطالية وقتذاك للتقرب من الدول العربية فى نفس الوقت الذى تحافظ فيه على الارتباط التام بالدول الغربية وأحلافها إنما هى وسيلة لتنفذ بها إلى أسواق الدول العربية ودول الشرق الأوسط . ومع أنه لم يغب عن أذهاننا ارتباط إيطاليا بالسياسة الغربية وإمكان خضوعها الكامل للضغط الغربى فقد حرصنا على توثيق علاقتنا بها عبر التعاون الاقتصادى .

* * *

وخلال شهر فبراير تلقيت رسالة من جوجولدن يلحّ فيها على لقائى فاستقبلته بمكتبى بالسفارة ، وقد اتخذت المقابلة طابعا غريبا ، إذ استهل حديثه بتهنئتى بقيام الجمهورية العربية المتحدة معلّقا بأنها تعدّ فى الحق الثورة الثانية بعد ثورة عام ١٩٥٢ ، وأنه قد آن الأوان لسوريا أن تحظى بلون من الاستقرار . وبعد استعراض عام للأحداث الدولية عرج خلاله على صعوبة الحياة حاليا فى باريس تحت وطأة النظام البوليسى الصارم مما اضطره إلى أن يطلب من رئيسه جولدمان تغيير مقر عمله من باريس إلى روما ، استأذننى فى طرق الموضوع الذى اعترف أنه جاء من أجله بصراحة فقال : الآن وقد ظهرت الجمهورية العربية المتحدة إلى الوجود ، يبدو جليا أن حدودا مشتركة ينبغى أن تربط بين طرفيها ، وأن الفريسة

الأولى ستكون الأردن بطبيعة الحال ، أما الفريسة الثانية فهى بلاشك اسرائيل ، ولذلك فإن الخطر الذى تخشاه الأخيرة هو اللحظة التى تقوم فيها الجمهورية العربية المتحدة أو العراق أو السعودية بالتهام الأردن وتوزيعها بينهم . ساعتها لن تستطيع حكومة فى اسرائيل أن توقف جنود بن جوريون المتحمسين عن التقدم لاحتلال الضفة الغربية من الأردن ، وذلك حماية لوطنهم وتأمينا لمراكز دفاعهم على الحدود بالاستناد إلى سلسلة الجبال شرقى نهر الأردن كحاجز طبيعى ضد أى هجوم من الدول العربية فى المستقبل . وبطبيعة الحال لن تعوز اسرائيل وسيلة تتذرّع بها ، فحسبها أن « الوضع القائم » قد تغير فى المنطقة كلها ، ومن ثم ستكون فى حِلٍّ من تعديل حدودها بما يوفر لها الأمن والسلامة .

فسألته : أكان هذا رأيك وحدك الذى تعبّر به عن فكر جولدمان أم هو رأى السلطات الإسرائيلية ، فعلمى أنك ورئيسك معنيّان ــ كما تقول لى ــ بإحلال السلام ، أما عن السلطة الإسرائيلية فعلمى أنها دائبة على استخدام التهديد والوعيد . فأجابنى بأنه إنما كان يناقش هذا الاحتمال وخطورته على المحاولات السلمية التى يبذلها مع رئيسه ليجد حلاً يمكن بواسطته تجنّب المحظور ، ومن ثم أشار عليه جولدمان بمقابلتى للتشاور والتفكير سويا بصوت عال ، وليؤكد لى مرة أخرى استعداد جولدمان لمقابلة المسئولين المصريين للحيلولة دون قيام الجمهورية العربية المتحدة بالخطوة التى لا مفر من قيامها بها ، ولتفادى رد الفعل المتوقع من جانب اسرائيل .

وسألته عما إذا كان القائد الإسرائيلى الذى يزمع القيام بهذه المغامرة قد أحسن تقدير حساباته وما قد يترتب عليها من مخاطر بالنسبة لجيشه وعن مدى احتمالات اتساع نطاق القتال . فأجاب بأن الحرب تبدأ عادة دون أن نعرف نتائجها ، ثم أردف باسما وكأنه يحلم : أتعرف ماذا اقترحت على جولدمان كحل لهذه المشكلة التى نندفع صوبها ؟ لقد أشرت بأن نمنح الجمهورية العربية المتحدة ممرا يربط بين إقليميها الشمالى والجنوبى عبر اسرائيل ، وبذلك نوفر عليكم وعلى أنفسنا متاعب لاحصر لها . ترى هل يمكن لرئيس وزراء اسرائيل أن يتقدم بمثل هذا الاقتراح للجمهورية العربية المتحدة دليلا على صدق النية ، وماذا سيكون صدى مثل هذا الاقتراح لديكم ؟

وغادرنى جولدن على أمل أن يجد لدى فى زيارة قادمة إجابة أو اقتراحا لوسيلة ما لتجنب الوقوع فى مثل هذا المأزق الذى افترض احتمال وقوعه .

* * *

وكنت قد تلقيت فى يوم ١٨ فبراير ١٩٥٨ مظروفا بالبريد العادى يحمل الشارة الرسمية لإسرائيل ، وإذا به رسالة من سفير اسرائيل إلياهو ساسون هذه ترجمتها :

سرى وشخصى

سيادة السفير

على الرغم من أنى لم أشرف بمعرفتك ومن عدم قيام علاقات دبلوماسية بكل أسف بين بلدينا ، فإنى أبادر بأن أسمح لنفسى أن أتوجه إليكم بكل صراحة وإخلاص بصفة شخصية وسرية كى أبلغكم أنه فى مساء الاثنين ١٠ فبراير ١٩٥٨ أعلنت إذاعة القاهرة الناطقة بالعبرية بأنه : « عندما تتم وحدة الدول العربية ستجد اسرائيل نفسها بين خيارين ، فإما أن تعيش معزولة تحت وطأة الضغط الذى يتهددها ، وإما أن تندرج ضمن هذه الوحدة . ونحن نعتقد أن مثل هذا الانضمام ممكن مع استطاعة اليهود فى هذه الحالة الاحتفاظ باستقلالهم الداخلى مستمتعين بحريتهم التامة ويتابعون التعاون ضمن الوحدة العربية بكل ماتحمله كلمة التعاون من معنى وفى كل المجالات . وهكذا يكتب الختام للصراع العربى الاسرائيلى . هذا هو الحل المناسب للقضية الفلسطينية من خلال احتواء اسرائيل فى الوحدة العربية احتواء تاما أى التعاون داخل الوحدة من أجل صالح الشعب كله .

ومع اقتناعى اليوم كما كنت مقتنعا بالأمس بأن الطريق لم يُغلق بعد أمام حل مُرْضٍ بين اسرائيل والدول العربية عامة وبين اسرائيل ومصر خاصة ، فإنه من الأهمية الكبرى بالنسبة لى أن أعلم من شخصية مسئولة مخوّلة مثل سيادتكم إذا ما كان النص الذى أذيع باللغة العبرية فى الإذاعة المصرية يمثل بحق تفكيرا جديا من جانب قادة مصر ، وإذا ما كان يعبر عمليا عن إمكانية مناقشة هذا الموضوع جديا مع ممثلين رسميين لإسرائيل . فاذا اتضحت لى هذه النقاط فإنى على استعداد لاتخاذ المبادأة بالرجوع إلى رئيس الوزراء السيد دافيد بن جوريون ووزيرة الخارجية السيدة جولدا مائير اللذين يولياني ثقتهما التامة لأطلب منهما فى سرية تامة دراسة النص المذاع من راديو القاهرة ، وألا يعدّونه مجرد بث بغرض الدعاية البحتة .

وأحب أن أؤكد لسيادتكم أن نواياى الطيبة ورغبتى الشديدة فى رؤية السلام والاستقرار يرفرفان على منطقة الشرق الأوسط هما العاملان الوحيدان اللذان حفزانى إلى الكتابة إليكم متحملا منذ هذه اللحظة فصاعدا كل مايترتب على هذه الخطوة من جانبى من مسئولية شخصية . وانى فى الوقت نفسه أرحب بلقائكم فى سرية مطلقة فى اليوم والساعة والمكان الذى تحددونه كى أتلقى الإيضاحات اللازمة نحو هذا الموضوع ، ولا أخفى عليكم مدى سعادتى إذا ما استجبتم بقبول اقتراحى . وإن رقم تليفونى الخاص فى المنزل هو ٨٥٩١١٧ وأنسب الأوقات للاتصال بى شخصيا مابين الثامنة والتاسعة صباحا ... وتفضلوا بقبول فائق التقدير.

وحين استفسرت من القاهرة عن حقيقة هذا الموضوع اتضح أنها مبادرة شخصية من المذيع نابعة من تلقاء نفسه دون أن تكون انعكاسا لفكر القيادة المصرية ، وهو ما أسفر عن إنشاء مراقبة للبرنامج العبرى لتوجيهه بعناية ودقة ، ومن ناحيتى لم أر مايدعو إلى الردّ علىَ السفير.

و بعد حوالى شهر طلب چوجولدن مقابلتى لأمر هام فحددت له صباح الاثنين ٢٤ مارس موعدا للزيارة بمقرّ السفارة ، فبادرنى بقوله إنه قادم لتوه من اسرائيل لإبلاغى بأنها ستشهد تغييرات واسعة عقب الانتخابات القادمة التى ستتمخض عن نتائج توجّه السياسة الإسرائيلية العامة اتجاها إيجابيا يواكب تطور الأمور فى الشرق الأوسط ، وأن ناحوم جولدمان ـــ الذى مايزال موجودا بإسرائيل ـــ قد خوّله الاتصال بى ليسألنى كيف الخروج من الموقف الراهن . ثم استطرد قائلا إنه بمضى الوقت تبيّن لاسرائيل أن الحاكم الوحيد الجدير بالاحترام فى الدول العربية كلها هو الرئيس جمال عبدالناصر، وإن هذا التقدير ليس لمجرد المجاملة، بل هو حقيقة ملموسة فى كافة الدوائر الاسرائيلية ، فالعراق يحكمه نظام مصطنع والأردن دولة مفتعلة والسعودية تغط فى غياهب العصور الوسطى ، أما الوحدة النامية بين مصر وسوريا فتعبر عن تطور جديد يجدر بإسرائيل إدراكه والتفاهم معه . وهناك أمر من اثنين : إما أن الرئيس عبدالناصر ينوى القضاء على اسرائيل ولسنا نعتقد أنه يُضمر هذه النية ، وإما أنه سيصل فى النهاية إلى تفاهم واقعى مع اسرائيل . فإذا كان الأمر الأول فلا فائدة تُرجى من مثل هذه المناقشة . أما إذا كان الأمر الثانى فإن ناحوم جولدمان مستعد للقائه فى أى مكان ، وأنه

يقترح فتح الممر بين الحدود السورية ومصر عبر إسرائيل نظير السماح للسفن الاسرائيلية بعبور قناة السويس ، على أن تكون هذه المقابلة فاتحة لمناقشات مجدية بصدد المشكلات القائمة ولتصوّر حلول عملية مرضية للطرفين .

وكان تعليقى على هذا العرض بأن فكرة الممر تبدو عبثية ، فمن غير المعقول قبولنا ممرّ يقع تحت رحمة الإسرائيليين من بدايته إلى نهايته . فأسرع قائلا إن فكرة الممر ليست هى الحل النهائى المقترح ولكنها مجرد نقطة بداية نستطيع على ضوئها تخيّر حلول كثيرة . واستطرد يشرح كيف أن شخصية جولدمان تعد الشخصية الأولى فى العالم اليهودى ، وأنه الشخص الوحيد الذى انتخب بالإجماع ليكون رئيسا لكل من المؤتمر اليهودى العالمى والمنظمة الصهيونية العالمية ، نظرا لمكانته الدولية المرموقة ، وكيف أنه سيتقدم فى اللحظة المناسبة [قبيل الانتخابات المزمعة بعد بضعة شهور] لاتخاذ خطوات فعالة نحو استتباب السلام . ومضى يؤكد أن مركز جولدمان فى إسرائيل بات قويا خاصة بعد أن تمكن من زعزعة قداسة زعامة بن جوريون ، وأنه صرّح منذ أيام قليلة فى اجتماع عام بأن إسرائيل لم يخلقها بن جوريون كما أننا لن نسمح له بأن يهدمها . وألمح فى حديثه إلى أن السلطات الإسرائيلية قد أرضاها منح مصر لغزة نوعا من الإدارة الذاتية لا يشكّل كيانا كاملا لدولة تترتب عليه عواقب أخرى ، وأن هذا الإجراء جاء مهدئا للخواطر . وختم حديثه بالعودة إلى موضوع الحياد الذى أثاره معى فى عام ١٩٥٧ والذى أشار إليه جولدمان فى مذكرته إلى نهرو .

وحين سألته كيف يحققون هذا الحياد واقتصادهم كله قائم على الإعانات الأمريكية والتعويضات الألمانية ، جاء ردّه بعيدا عن الإقناع إذ قال : إن عدد يهود العالم يبلغ ١١ مليونا منهم ٤ ملايين فى روسيا و٤ ملايين فى الولايات المتحدة ، ومن ثم فإن الوضع الطبيعى لإسرائيل هو ألا تنحاز لأى معسكر بل أن تبقى فى الوسط .

* * *

وكان لإعلان نبأ زيارة الرئيس عبد الناصر لإيطاليا وقع كبير فى مختلف الأوساط . وكانت الحكومة الإيطالية والرئيس جرونكى يتلهفون على أن تتم هذه الزيارة فى شهر يونيه ١٩٥٨ أو يوليه على الأكثر بينما كانت القاهرة تفضل شهر

سبتمبر. وعلى حين كانت عامة الشعب الإيطالى ترحّب بالزيارة كان المعارضون للزيارة من المتعصبين لحلف الأطلسى والرجعيين وكبار الرأسماليين المرتبطين بمصالح شخصية مع فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة. وفى حديث مع سنيور فولكى وكيل وزارة الخارجية البرلمانى أبلغنى أن سفير فرنسا قد جاءه محتجا على هذه الزيارة المرتقبة وأنه ردّ عليه بقوله: «دعونا نتنفّس بعض الشىء».

كذلك كانت بريطانيا والولايات المتحدة معاديتين لهذه الزيارة، وقد علمت أن هوهلر الوزير المفوض بالسفارة البريطانية قد سعى لدى السفير الأمريكى زلرباخ ليعمل على تعويق هذه الزيارة بتأليب الصحافة الإيطالية والعالمية ضد هذه الزيارة للتأثير على الرأى العام. وسرعان ما ظهرت الحملة الصحفية المدبّرة ضد زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا التى استعر أوارها خلال شهر فبراير ١٩٥٨، فرأيت أن ألتقى بسكرتير عام وزارة الخارجية السفير ألسّاندرينى فى ٢٥ فبراير ١٩٥٨، وحين أعربت له عن ضيقنا بالحملة التى شنّتها بعض الأوساط حول إعلان نبأ الزيارة مضى يهوّن من قلقى مفسّرا الحملة بأنها أحد مظاهر المعركة الانتخابية القادمة، ومن ثم يمكن اعتبارها مسألة داخلية لا تلبث أن تهدأ سريعا.

وكانت صحيفة «الميساچيرو» من أبرز مهاجمى الزيارة، وكان هذا طبيعيا نظرا للعلاقة الوثيقة بين أصحابها وكبار رجال المال والصناعة فى فرنسا. كما كانت صحيفة «الكورييرى ديللا سيرا» لسان حال الصناعات الكبرى فى شمال إيطاليا تخشى السياسة التحرّرية التى تدعو لها مصر لاعتقادها بأنها ستسدّ الطريق أمام طموحاتها الاقتصادية فى منطقة الشرق الأوسط. وعلى حين رأت أحزاب اليسار أن هذه الزيارة تعدّ عهدا جديدا تتحول فيه سياسة إيطاليا عن الارتباط المطلق بحلف الأطلسى، رأت أحزاب اليمين والوسط فيها التواء خطيرا فى سياسة الحكومة الإيطالية تجاه الغرب ينال من تضامن دُوَله.

وفى الثالث والعشرين من فبراير اجتمع وزير الخارجية الإيطالى بزعماء شُعَب الحزب الديمقراطى المسيحى بمدينة «بيبلا» وألقى خطابا أوضح فيه موقف الحكومة الرسمى من الزيارة وعلاقة إيطاليا بالعالم العربى والدول الغربية، فقال إن أوهام الشيوعيين تثير فيه السخرية لأن سياسة إيطاليا الخارجية لن تتحول قيد

شعرة عن حلف الأطلسى والاتحاد الأوروبى ، وإن ما تُبديه إيطاليا فى الوقت نفسه نحو العرب من اهتمام وصداقة لايخفى وراءه أيه خدعة ، لأن سياسة إيطاليا نحو الدول العربية جزء مكمّل لسياسة إيطاليا الثابتة تجاه الحلف الأطلسى ووحدة أوربا ، وتهدف إلى التعاون مع الشعوب الحديثة الاستقلال التى تتطلع إلى المشاركة فى الحياة الدولية وتجاهد لتثبيت دعائم استقلالها وزيادة قدرتها على الدفاع عن نفسها تجاه مايهددها من أخطار الاستعمار السوفييتى ، وإن زيارة الرئيس عبدالناصر تدخل فى هذا الإطار. ثم إن سعى إيطاليا نحو صداقة العالم العربى لن يكون على حساب صداقتها بالعالم الغربى بل إنها تتطلع إلى هذه الصداقة لصالح الغرب ، وكذا لن تكون هذه الصداقة إعراضا عن إسرائيل ، فحلّ مشكلة الشرق الأوسط الدقيقة رهنٌ بالتعاون الصادق بين الحكومات الغربية والعربية . كما أوضح أن زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا لا تعنى اقتصار الحكومة الإيطالية على صداقة دولة عربية واحدة بل إنها تهدف إلى صداقة العرب جميعا . وذكّر الوزير الإيطالى مستمعيه بأن عشرات الألوف من الإيطاليين يعيشون فى مصر وأن علاقات إيطاليا مع مصر تقوم على أساس من الصداقة التقليدية التى توثقت عراها منذ زمن بعيد ، ولدى إيطاليا الرغبة فى رعايتها وتقويتها ، وهى بذلك تكون قدراعت مصالح العالم الغربى أيضا . وهكذا استهدف حديث وزير الخارجية إزالة مخاوف أعضاء الحزب المتمسكين بأهداب السياسة الأطلسية وطمأنتهم إلى أن اتباع سياسة أطلسية لايتنافى مع إنشاء صداقات مع العرب ، كما أكد للغرب فى مجموعه تقديره لاسرائيل وللكتل المختلفة القائمة فى منطقة الشرق الأوسط ، ماينتمى منها لحلف بغداد وماينعم منها برعاية الولايات المتحدة أو بريطانيا ، كما طمأن الكتلة التحررية الحيادية إلى أن إيطاليا لا ترى مصلحة فى اتباعها سياسة استعمارية تقوم على التفرقة بين الشعوب .

وفى حفل استقبال بدار السفارة الروسية فى الثانى والعشرين من فبراير ١٩٥٨ بادرنى السفير كوزيريف بمجرد مصافحتى بالسؤال عن صحة النبأ الخاص بزيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا . وأجبته بأن الزيارة قد تحدد لها شهر يونيه أويوليه ، فإذا به يسألنى عن سر حملات الصحف على فكرة الدعوة ، ثم انتقل إلى الإفصاح عن هدفه من السؤال وهو ما إذا كانت إيطاليا ستقوم بتقريب وجهات

النظر بين مصر من جهة وبين بريطانيا وفرنسا من جهة أخرى ، وعما إذا كان الهدف من الزيارة هو استدراجنا إلى الأحلاف الغربية ، وبطبيعة الحال بددت له مخاوفه حتى لايكون ثمة لبس .

والغريب أن الصحافة المصرية لم تحرك ساكنا بالاحتجاج على ما أثارته الصحافة الإيطالية ضد زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا ، ولا الإذاعة المصرية هى الأخرى ، الأمر الذى جعل السلطات الإيطالية تظن أن هذا الأمر لايعنينا بقليل أو كثير. هذا إلى أن هذا السكوت قد يفسّر بأنه من قبيل الضعف والاستكانة ، لاسيما أننا لم نكن المُطالِبين بتوجيه الدعوة إلى الرئيس ، بل هى الحكومة الإيطالية التى كانت تتطلع إلى اكتساب مركز خاص فى الشرق الأوسط والبحر المتوسط ، ثم محاولة جذب سياستنا نحو الغرب . وعلى الرغم من دفاع السلطات الرسمية على لسان وزير الخارجية الإيطالية عن دعوتها للرئيس عبدالناصر ، فلقد كان هذا الدفاع تبريرا حزبيا فحسب ، على حين لم يحمل دفاع سكرتير عام وزارة الخارجية صفة العلانية ولم يكن فى الإمكان نشر ماورد على لسانه أمامى عَلَنا . وقد تبيّن بعدُ أن ماشُنّ من هجوم حول هذه الدعوة فى إيطاليا كان لنا لاعلينا وإن بدا هذا مما يستغربه القارىء ، ودليلى على هذا أمران أولهما أنها اضطرت وزير الخارجية إلى كشف أوراقه فاعترف رسميا بأن الغرض الأساسى منها هو بدء سياسة مرسومة لاجتذاب الرئيس عبدالناصر إلى المعسكر الغربى ، وثانيهما أنها أتاحت لنا مزيدا من حرية التصرف ، بمعنى أنه إذا كانت مصلحتنا فى المستقبل القريب تستلزم العدول عن الزيارة أمكن لنا التذرع بالحملة التى شُنّت علينا لإلغائها أوتأجيلها . واقترحت على القاهرة إذا كانت النية متجهة إلى إتمام الزيارة بالبدء فى حملة صحفية محدودة من دمشق تردّدها صحافة القاهرة مع تشديدها وتوسيع نطاقها فى المستقبل إذا تغيرت الظروف ودعت إلى العدول عن الزيارة . أما إذا كانت المصلحة تقضى بالعدول عن الزيارة فيحسن تنظيم حملة واسعة شديدة اللهجة تبدأ من القاهرة ثم تردّدها دمشق ، على أن يعالج هذا الأمر بحيث لا تُقطع الجسور بيننا وبين إيطاليا لا تقديرا منى للاعتبارات السياسية فحسب ، بل وللاعتبارات الاقتصادية بين الدولتين وهى أهم الاعتبارات .

وقد رأيت تسجيل احتجاجي رسميا على تلك الحملة الصحفية فانتهزت فرصة ظهور مقال بمجلة « جِنتي » بقلم سكرتير عام حزب الأحرار ضد الزيارة ، ومقال آخر بصحيفة « كور ييرى ديلاّناسيونى » تطاول صاحبه على شخص الرئيس ، فقصدت السنيور فولكى وكيل وزارة الخارجية البرلمانى فى ١٤ مارس وقدمت له احتجاجى على الحملة بأسرها فأبدى أسفه الشديد متذرّعا بأن نفس الكاتب قد هاجم الحكومة الإيطالية ورئيس الجمهورية . ثم تطرق الحديث إلى موعد الزيارة وعلاقته بموعد الانتخابات التشريعية فحدّدها باليوم الثامن من يونيه ذاكرا أنهم بحاجة إلى ثلاثة أسابيع حتى يقف البرلمان الجديد على قدميه و يتم تشكيل حكومة مستقرة ، ولذلك فهو يعتقد أن الزيارة لن تتم قبل منتصف يوليو . وهنا ذكّرته بأن اختيار الفترة ما بين يونيه و يوليه كان اقتراحا إيطاليا قبلناه نزولا على رغبتهم . أما والأمر كما يقول فلماذا لا نرجىء الزيارة إلى الخريف ؟ فوعد بإبلاغ الرئيس جرونكى بذلك على أن أعود لزيارته بعد أسبوع لإخطارى بالنتيجة .

وكانت قد وصلتنى خلال شهر مارس معلومات من مصدر فرنسى موثوق به أن الولايات المتحدة الأمريكية و بريطانيا وفرنسا قد انعقدت نيّتهم على الخلاص من الرئيس عبدالناصر بأية وسيلة وبأى ثمن لإنقاذ موقفهم فى الشرق الأوسط وأن أموالا ضخمة قد رُصدت لهذا الغرض . وقد عقدت اجتماعا لأعضاء السفارة تداولنا خلاله الرأى بصدد تحقيق هذه الزيارة أوالعدول عنها إزاء كافة الظروف المحيطة والأخطار المتربّصة بالرئيس ، وأسفر الاجتماع الذى استغرق وقتا طويلا عن أن الزيارة مخاطرة أكيدة تقابلها فوائد مادية غير أكيدة أومحدودة أومقرونة بشروط فى أغلب الظن ودون أى تكافؤ ، وكانت نتيجة الاجتماع التوصية بالعدول عن الزيارة أوعلى الأقل الإرجاء والتسويف . و بطبيعة الحال أوضحت للقاهرة كل الظروف المحيطة ، وما استقر عليه رأى السفارة .

وحين أبلغنى السنيور فولكى أن الرئيس جرونكى قد حدّد موعد الانتخابات فى ٢٥ مايو ، وأن الموعد المناسب للزيارة يكون بين أول يوليه ومنتصفه بادرت بإبلاغ القاهرة بذلك ، موصيا بإرجاء الزيارة إلى الخريف حتى تتم فى ظروف مواتية بعيدا عن جو الانتخابات المشتعل والمناقشات البرلمانية الصاخبة ، و بعد أن تكون الحكومة الإيطالية الجديدة قد استقرت فى مقاعدها .

وكان إعلان زيارة الرئيس لإيطاليا قد حفز جايار رئيس وزراء فرنسا إلى طرح مشروع ميثاق القطاع الغربى لحوض البحر المتوسط ، فقد خُيّل إليه أن الرئيس عبدالناصر قد وقع اختياره عن قصد على هذه الفترة بالذات للإعراب عن قبوله الدعوة الموجّهة إليه منذ أواخر عام ١٩٥٥ نظرا للأزمة الدقيقة التى كانت تجتازها فرنسا فى تونس خاصة وفى شمال أفريقيا بوجه عام ، وأن الحكومة الإيطالية قد اختارت هذه الفترة بالذات على أثر استبعادها من مساعى التوفيق التى بذلتها فى بداية الأزمة الفرنسية التونسية وتفضيل المساعى الحميدة الإنجليزية الأمريكية عليها ، كما أنها سارعت إلى الاعتراف فورا بالجمهورية العربية المتحدة عقب الاستفتاء ، وكان من بين الأساليب الأمريكية لمقاومة الزيارة أن روّجت عنها تفسيرات لامحل لها سخرت منها الدوائر الإيطالية الموالية لفرنسا ، ومؤداها أن العلاقات مع الاتحاد السوفييتى أخذت تثير قلق الرئيس عبدالناصر فبادر إلى الحد من تهافت بعض الأقطاب السوريين على موسكو بالشروع فى تأسيس الجمهورية العربية المتحدة كى تصبح بمقوّماتها الوطنية العربية درعا واقيا يحول دون توغل النفوذ السوفييتى فى مصر وسوريا ، وأن تعزيز الصداقة المصرية الإيطالية بزيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا يعدّ تمهيدا منه للتقرب إلى الغرب وحفظا للتوازن بين الشرق والغرب الذى يمليه الحياد الإيجابى ، وأن من دلائل هذا التقرّب ميل مصر إلى استئناف مفاوضات التعويضات بين مصر وبريطانيا ، وبين مصر وحملة أسهم شركة قناة السويس السّابقة فى مدينة روما ، وهو مايدل على أن مصر تعدّ إيطاليا بيئة صالحة لاستعادة العلاقات الطيبة مع الغرب . وردّت الدوائر الفرنسية على هذا التعليل بأنه يتناقض تماما مع الاتفاقين الهامين اللذين وُقعا بين الاتحاد السوفييتى وكل من مصر وسوريا قبل اتحادهما ، وأن اختيار روما لإجراء المباحثات تم بموافقة المصريين والبريطانيين لأسباب لاصلة لها إطلاقا بالغرب أو بسعى مصر للتقرب إليه . أما الغرض من زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا فى نظر تلك الدوائر [كما جاء فى مشروع جايار للبحر المتوسط] فينحصر فى أن الجمهورية العربية المتحدة التى أصبحت تسيطر على أنابيب البترول العراقى والسعودى الممتدة إلى البحر المتوسط ، تتجه نيتها إلى تأميم أنابيب البترول السورية بالإضافة إلى قناة السويس المؤممة ، وأن تأميم خطوط نقل البترول والملاحة

البحرية يُعدّ تمهيدا لتأميم مصادر البترول العربية والقيام بضغط اقتصادى على لبنان باعتباره المعبر البحرى المؤدى للصادرات والواردات والأسلحة الغربية إلى العراق والأردن والمملكة السعودية والتحرر من الإقطاع البترولى المتجسم فى شركات « الكارتل » وملوك وأمراء بلاد النفط العربية .

أما الأسباب التى دعت الرئيس عبدالناصر إلى التقرّب من إيطاليا دون سائر البلاد الغربية فى نظر هذه الدوائر فهى أن إيطاليا ساخطة لاستبعادها من جميع مصادر البترول فى الشرق الأوسط ولمّا صادفته من مقاومة مؤسسات الكارتل [الاحتكارية] الدولية الأمريكية والبريطانية والفرنسية والهولندية ، كما أن منظمة الزيوت الإيطالية الحكومية المستقلة « إينى » لم توفّق إلا فى مصر حيث كانت تستثمر من آبار البترول المصرية نحو ١٥٠ ألف طن شهريا ، أى بمتوسط مليونى طن سنويا قابلة للزيادة المطردة فضلا عن عمليات التنقيب فى مناطق سيناء ، وتنقل نحو نصف نتاج البترول المصرى الخام إلى إيطاليا لتكريره فى معاملها ، على حين أن الاتفاق المبرم بين منظمة « إينى » الإيطالية ومؤسسة الزيوت القومية الإيرانية للبحث عن البترول واستثماره فى مناطق حرة لم يكن قد أدى بعد إلى نتائج ملموسة إذ كان البحث مايزال جاريا بين صعاب فنية وسياسية ومنافسات شركات الكارتل القوية . وأما عن ليبيا فقد رفضت الحكومة الليبية تحت ضغط الشركات الأمريكية والبريطانية إبرام الاتفاق مع الفريق الإيطالى « إينى ــ أجيب » . ولما كانت الاقتصاديات الإيطالية قائمة على البترول ، فإن تدفّقه على إيطاليا كان مرهونا بالإرادة السياسية المتحكمة فى منابع الزيوت وطرق نقلها ، فلم يكن ثمة مناص للسياسة الإيطالية من أن تمالئها صونا للمصالح ، وإذ أدركت دوائر منظمة « إينى » أن الرئيس عبدالناصر أصبح المهيمن الحقيقى على مقاليد البترول العربى ومصيره بحكم موقع الجمهورية العربية المتحدة ، التقت سياسة البلدين البترولية لمقاومة شركات الكارتل الدولية الاحتكارية والتحرر من الإقطاع البترولى ، وإن لم تكن إيطاليا تنظر بعين الرضا إلى دخول اليابان فى ميدان البترول وإلى توسّعها الاقتصادى فى الشرق العربى ومصر خاصة .

ومن الناحية الاستراتيجية كانت الدوائر الفرنسية ترى أن الجمهورية العربية المتحدة مقبلة على سياسة بحرية جديدة تُمليها الأوضاع والمصالح الحيوية والدفاعية الجديدة ، فالملاحة عبر البحر المتوسط من الإسكندرية إلى اللاذقية تعد وسيلة المواصلات العملية الوحيدة بين الإقليمين المصرى والسورى ، كما أن الملاحة عبر البحر الأحمر بين مضيق باب المندب وقناة السويس هى الطريق إلى اليمن ، وهذان الأمران يدفعان حكومة الجمهورية العربية المتحدة إلى الاتجاه نحو سياسة جديدة لحوض البحر الأبيض والبحر الأحمر المكمل له ، لأن هذا القطاع البحرى ذاته يعد بمثابة خطها الدفاعى ، فضلا عن أنه سبيل البترول العربى إلى الغرب والمنفذ للصادرات والواردات الغربية . ومن ثم كان تأميم قناة السويس فى نظرهم هو المرحلة الأولى لهذه السياسة البحرية العربية الجديدة التى من شأنها ــ بحكم وضعها ــ التحكم فى اقتصاديات الغرب . وهكذا تغدو اسرائيل التى هى رأس الجسر للدول الغربية المتعهدة بحمايتها ، والممتدة على شواطىء البحر المتوسط والمعترضه الطريقين البحرى والبرى بين مصر وسوريا ثغرة فى الجبهة العربية وعقبة بين شطرى الجمهورية الجديدة . ولذلك فلا معدل عن أن تنقلب المعركة القادمة بين الجمهورية المتحدة واسرائيل من برية إلى بحرية . كما أن مصر تعتمد فى سياستها البحرية الجديدة على مايمدها به الاتحاد السوفييتى والكتلة الشرقية من الغواصات ، وعلى تحركات قطع من الأسطول الروسى فى البحر المتوسط ، واتجاه روسيا إلى تنظيم خطوط ملاحتنا مع الجمهورية المتحدة فى البحر المتوسط لتصريف منتجاتها والحصول على المواد الأولية كالقطن ، فضلا عن أن قوات الأمن الدولية التابعة للأمم المتحدة المرابطة بين مصر واسرائيل إنما هى قوات برية لابحرية وقيامها على الحدود يحمى مصر بَرِّيا . لذلك كان الرد الفرنسى على مساعدة مصر لجبهة التحرير الجزائرية هو التعاون العسكرى والبحرى مع اسرائيل ، فاشتركت قافلة من الطرادات الإسرائيلية مع قطع بحرية وأسراب جوية فرنسية فى مناورات إسرائيلية فرنسية بمياه طولون للتدريب على حماية القوافل البحرية والوقاية من الغواصات [وقد أشارت إلى ذلك صحيفة « چيروسالم پوست » فى ٣ يناير سنة ١٩٥٨ وصحيفة « لوموند » فى ٥ و٦ يناير ١٩٥٨] وأكدت المصادر الفرنسية والإسرائيلية أن سفنا وقطعا حربية وأفواجا من جنود

البحرية الاسرائيلية قد قضت فترة بمركز التدريب على مقاومة الغواصات بالقاعدة البحرية الفرنسية فى طولون ، كما أن بعثة عسكرية اسرائيلية تابعة لسلاح المدرعات مؤلفة من ثلاثين ضابطا وصف ضابط وبعض الجنود قضت فترة تدريب على استعمال الدبابات والأسلحة الفرنسية فى معسكرات القوات الفرنسية المرابطة فى ألمانيا الغربية [وقد أشارت إلى ذلك صحيفة « ذى جويش كرونيكل » فى ١٩٥٨/٢/١٤] .

وفى لقاء لى فى ٢٦ مارس مع سكرتير عام وزارة الخارجية بمناسبة قرب سفرى إلى القاهرة أبلغنى أنه استعرض مع وزير الخارجية المواعيد اللاحقة لفترة الانتخابات ، وتبين أنه يتعذر تأليف حكومة قبل مضى أربعين يوما من إجراء الانتخابات ، وبهذا لن تكون الزيارة ممكنة قبل نهاية يولية ، فكاشفته بأننا كنا أبعد نظرا حين اقترحنا فى البداية أن تتم الزيارة فى مستهل الخريف . وعند وصولى إلى القاهرة أدليت بتصريح لمندوب وكالة أنسا الإيطالية للأنباء بتأجيل موعد الزيارة أدركت معه الحكومة الإيطالية أنها أساءت إلى نفسها نتيجة ترددها ، فلا هى حصلت على امتنان القاهرة ولا هى تداركت لوم المعارضين فى إيطاليا لمبدأ الزيارة . وقد رأت بعض دوائر سياسية أن التذرع بأن التأجيل تم نتيجة إعلان نبأ زيارة جمال عبدالناصر لموسكو لم يكن هذا سوى تلمس لتبرير قرار غير موفق فى حد ذاته ، ومع ذلك لم ينقطع أمل المسئولين فى إيطاليا فى أن تتم الزيارة فى الظروف الملائمة فى نظرهم.

وفى الثامن عشر من أبريل قمت بتقديم أوراق اعتمادى الجديدة بوصفى سفيرا للجمهورية العربية المتحدة إلى السنيور پيلا وزير الخارجية وانتهزت الفرصة لإثارة بعض الموضوعات . فقلت : إننى أبلغت الرئيس برغبة الحكومة الإيطالية فى تأجيل الزيارة بمناسبة الانتخابات المقبلة والتطورات البرلمانية المنتظر أن تترتب عليها ، وحرصت على أن أوضح أنه عندما قبل الرئيس الموعد الذى سبق تحديده بواسطة السلطات الإيطالية إنما كان يعبر عما يشعر به من تقدير وإعجاب نحو الرئيس جرونكى . ثم أردفت قائلا إنه من المستحسن والأمر كذلك أن يُترك تحديد موعد الزيارة للتفاهم عليه مع الحكومة المقبلة التى أتمنى أن يكون هو أحد أركانها ، فأمّن على قولى بأنه من الأفضل أن يتم الاتفاق على تحديد الموعد مع

الحكومة الجديدة المتمتعة بثقة البرلمان . وكذا كاشفته بضيقنا من اشتداد تلك الحملات الصحفية الموجهة ضد سياسة الجمهورية العربية المتحدة والتى ذهب بعضها إلى مهاجمة الرئيس شخصيا ، وقلت إنه ينبغى على الحكومة أن تعمل جاهدة على إيجاد الجو المناسب لاستقبال الرئيس حفاظاً على الأثر المرجو من الزيارة . فانبرى يؤكد لى أن ماشعرنا نحن به من مرارة بسبب تلك الحملات هو نفس الشعور الذى شعرت به الحكومة الإيطالية ، ولكنه يعتقد أن حكومة جديدة يؤيدها البرلمان فى خطواتها نحو الدعوة لن تتعرض إلى المهاجمة بطبيعة الحال .

وانتقلت إلى الكشف عن اختلال الميزان التجارى بين البلدين فى السنة الأخيرة ، فبعد أن كان مجموع التبادل المتكافىء بينهما يبلغ حوالى عشرين مليونا من الجنيهات انخفض إلى نحو النصف ، كما انخفضت بصفة خاصة واردات إيطاليا من مصر الأمر الذى نشأ عنه رصيد كبير لصالح إيطاليا ، وأنه إذا لم تُبذل محاولة جدّية فعالة لإنعاش التبادل التجارى وإعادة التوازن فى المبادلات فلن نستطيع الحصول على الليرة المتعددة الأطراف المطلوبة لتسديد قيمة المنتجات التى نستوردها من إيطاليا ، وهذا من شأنه أن يعرض المبادلات إلى مزيد من الانكماش . وذكّرته بأن دولتنا تمضى نحو التصنيع فى خطوات حثيثة وأن رغبة الجهات المسئولة فى القاهرة تتجه إلى الاستعانة بالخبرة الإيطالية قبل غيرها من دول الغرب . فأجاب أن المشكلة فى نظره تنحصر كلها فى كونها مسألة أسعار بالنسبة للتجار من الأفراد وأنه يخشى عدم جدوى تدخل الحكومة فى أمور تتعلق بمصالحهم الذاتية ، ثم أضاف بأنه سيحاول القيام بالمساعى اللازمة لهذا الغرض لدى الجهات المختصة .

على أنه ينبغى أن أذكر أيضاً أنه كانت هناك أصوات صديقة تجد بين الفينة والفينة طريقها فى الصحافة لتكشف سر عداء إنجلترا وفرنسا لمصر بعد التقدم الكبير فى أعمال البحث عن البترول فى أراضيها وإنشاء معامل التكرير بها ، وهما الدولتان اللتان تسعيان للإبقاء على سيطرتها على بترول الشرق الأوسط ، بالإضافة إلى تعميق العلاقات الاقتصادية بين مصر وإيطاليا والمتمثلة فى إشراك الإيطاليين فى حركة التعمير والإنشاء التى قامت فى مصر .

أما موقف السنيور جرونكى رئيس الجمهورية فكان نابضا دائما بالحماسة ، وحين لقيته يوم ٣١ مايو بقصر الكويرينالى خلال حفل الاستقبال العام لأعضاء السلك السياسى بمناسبة عيد إيطاليا الوطنى فى الثانى من يونيه حدثنى عن ارتياحه إلى ما حققه السنيور بتشاى العضو المنتدب لمجلس إدارة مؤسسة « إيتالو كونسولت » أثناء زيارته الأخيرة للقاهرة من خطوات إيجابية فى سبيل تنمية التبادل التجارى بين البلدين ، وكان الرئيس الإيطالى هو الذى أوفده لهذا الغرض . وإذ أعربت له عن رجائى فى أن تكون هذه بداية للطريق الذى تنمو فيه العلاقات بين الدولتين صارحنى بأنه يأمل فى أن تتعدى العلاقات هذا الحد وأن تتخذ صورة ودّية مشبعة بروح التعاون ، ثم أضاف فى النهاية أن لابد وأن نكون قد أدركنا المناخ الذى كانت تجتازه إيطاليا خلال فترة الانتخابات والظروف النفسية التى أحاطت بها ، وأغلب الظن أنه كان يشير بذلك إشارة عابرة إلى موضوع زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا .

وكان وراء هذه الزيارة سرّ لم أتبّينه على حقيقته ، ولم تكن بحوزتى سوى المعلومات التى تجرى على ألسنة المسئولين وغيرهم ، وهذا أمر لايُعوّل عليه كثيرا عند من يشتغل بالدبلوماسية . غير أن الأقدار شاءت أن أقع بعد أسابيع قليلة على وثائق سرية ثلاثة فيها بيان ماظل غامضا علىّ طيلة تلك الشهور الماضية ، تجلّى منها أن الرئيس جرونكى وبعض رجال الصناعة من الإيطاليين البعيدين عن الارتباطات الاقتصادية بالولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا كانوا راغبين فى أن تتم الزيارة لاعتقادهم بأن ذلك يتفق ومصالح بلادهم فى الشرق الأوسط وإن تعارض ذلك مع السياسة الأمريكية . ودليل ذلك أن الرئيس جرونكى هو الذى اقترح علىّ زيارة الرئيس عبدالناصر يوم تقديم أوراق اعتمادى فى ٩ نوفمبر ١٩٥٧ ، ثم إن الوزير سترانيو هو الذى طلب الىّ فى ١٣ فبراير ٥٨ أن أسعى جهدى لكى تتم الزيارة بين منتصف شهر يونيه ومنتصف شهر يوليه .

وكانت الدوائر الأمريكية على علم تام بأمر الزيارة وبالخطوات التى كانت تتخذها وزارة الخارجية الإيطالية بشأنها منذ البداية ، حتى إذا قمت فى ١٨ فبراير بإبلاغ السلطات الإيطالية بقبول الدعوة من حيث المبدأ أرسل السفير الأمريكى

خطابا شخصيا إلى بيلا أرفق به مذكرة بطلب تأجيل الزيارة أو إلغائها . ولم يرض الرئيس جرونكى عن الأسلوب الذى قُدمت به المذكرة إذ لم تُتبع فيه القواعد الدبلوماسية المرعية ، وطلب إبلاغ السفير الأمريكى أن هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى تقبل فيها الحكومة الإيطالية مذكرات أوطلبات بمثل هذه الصورة . بل لقد طلب جرونكى من الوزير بيلا أن يطالب السفير زلرباخ بالتماس عذر لتدخله فى أمر الزيارة ببيان يصدره من السفارة الأمريكية إن لم يحبّذ الزيارة فعلى الأقل لايبدى اعتراضا أمريكيا عليها . وكان جرونكى يرمى بذلك إلى كسب الوقت وإحراج السفارة الأمريكية ووضعها أمام الأمر الواقع بأن يُظهر للرأى العام وللصحافة الموالية لأمريكا والغرب أن زيارة عبدالناصر أمر متفق عليه وأنها تتم برضاء الغرب ، ثم إعطاء وزارة الخارجية الفرصة لإفهام الدوائر المختلفة أن الزيارة فى حكم الأمر المحقق . وقد قامت وزارة الخارجية الإيطالية فعلا وعلى غير العادة بإصدار عدة تصريحات تدور حول هذا المعنى .

وقد وافق زلرباخ على إصدار بيان من سفارته بشأن الزيارة وأبلغ بيلا السفير ماسيمو ماچستراتى مدير عام الشئون السياسية بالوزارة رسالة يستحثه فيها على المضى فيما سبق أن أحاطه به علما عن زيارة الرئيس عبدالناصر وأرفق برسالته خطاب زلرباخ الذى يقبل فيه إصدار بيان من سفارته ، وأبلغه أن رئاسة الجمهورية إذ لا ترى بأسا من تأجيل الزيارة إلا أنها ترى أن السفير لم يراع فى مذكرته التقاليد الشكلية الواجبة ، وأنه قد اتخذ اللازم لإفهام زلرباخ أن رئاسة الجمهورية لاترحّب ولن تقبل تبليغا أوطلبات تُقّدم على هذا النحو، وأن الأحوال ستتغير من تلقاء نفسها نظرا لأن أمامهم الوقت الكافى لتحقيق أهدافهم . واتضح من هذه الرسالة أن بيلا قد أذن لماچستراتى بتنفيذ خطة الزيارة التى تتعارض مع طلبات زلرباخ ، وأن هذا الأخير قد أرسل إليه خطابا يقبل بموجبه إصدار بيان من سفارته بشأن الزيارة ، وأن رئاسة الجمهورية تعترض على مذكرة زلرباخ من الناحية الشكلية بالرغم من تظاهرها بقبولها موضوعا ، وأن بيلا بدوره أبلغ زلرباخ رغبة الرئيس جرونكى وطلباته ، وأن وزارة الخارجية تعمل على كسب الوقت . وكان أن أصدرت السفارة الأمريكية فى ٢٦ فبراير تصريحا مائعا تقول فيه : « إن حكومة الولايات المتحدة لاحظت باهتمام أن أول زيارة سيقوم بها الرئيس

عبدالناصر إلى الغرب ستتم فى إيطاليا ، وهى من الدول التى تعد من أوفى حلفائها ولها خبرة طويلة فى مكافحة الشيوعية ، وأن الولايات المتحدة لترجو أن تسفر هذه الزيارة عن نتائج مرضية » .

وبالرغم من ذلك كله تلقى السفير الأمريكى تعليمات صريحة وقاطعة من حكومته بإيقاف الزيارة أوتأجيلها بأى شكل من الأشكال . ولم تتردد السفارة البريطانية فى حفز السفارة الأمريكية على تجميع عملائها فى الصحف المحلية والعالمية من أجل تأليب الرأى العام ضد هذه الزيارة . على أن الخارجية الإيطالية — والحق يقال — قد تصدت لهذه الحملات الصحفية منذ بدايتها ، غير أن الحملة اتخذت صورة جادة مع انضمام شخصيات لها قيمتها السياسية مثل مالاجودى و يتشاردى من وزراء حزب الأحرار السابقين بعد اتفاق السفارتين البريطانية والأمريكية معهما على عرقلة الزيارة .

وفى الثامن من مارس أرسل السفير ألساندرينى سكرتيرعام وزارة الخارجية تعليماته — التى وجدت طريقها إلى السفارة المصرية — إلى بروزيو ماتيو السفير الإيطالى فى واشنطن ، يبلغه فيها أنه لايرى أى مانع من مباحثة دالاس حول تاريخ زيارة عبدالناصر لروما موضحا أن إيطاليا تقبل الاقتراح الأمريكى بتأجيل الزيارة . ثم أردف قائلا : « لستَ فى حاجة إلى الإفصاح — فهذا أمر تعلمه بنفسك — بأن هذا القبول لايُلزم إيطاليا بإلغاء الزيارة ، فإن تحديد موعدها سيتم وفقا لمصلحتنا ، فهذا يتمشى مع الوعد الذى قطعته الولايات المتحدة على نفسها فى سنة ١٩٥٦ بأن تُترك لإيطاليا الحرية فى منطقة الشرق الأوسط لا تّباع السياسة التى تتفق ومصالحها ، كما أوصيك بأن يكون حديثك مع دالاس بالنسبة لاتجاهات السياسة الخارجية مصطبغا بالطابع الأطلسى والأوربى الخالص » .

وكان الوكيل البرلمانى لوزارة الخارجية قد أدلى فى ٤ مايوبتصريح أثناء اجتماع انتخابى بناء على تكليف من الرئيس جرونكى قال فيه : « إننا مع إعلان ولائنا للحلف الغربى لانستطيع إغفال النظر بعين الاعتبار لذلك الواقع الذى ينبثق فى منطقة هى أقرب المناطق إلينا تحت ضغط الوعى القومى و بدافع من الوطنية الحادة فى بعض دول البحر المتوسط» . وقد علمت فيما بعد من السنيور

فولكى أن هذه العبارة قد أملاها عليه الرئيس جرونكى قبل يومين من إعلانها ، وأن المقصود بها الإشارة إلى مصر والجزائر بصورة غير مباشرة . فهل كان هذا مجرد إظهار لشعور خفىّ للرئيس جرونكى واقتناعه بضرورة اتباع إيطاليا لسياسة ذاتية بمنطقة الشرق الأوسط ؟ أم أن هذا يدخل فى نطاق حملة غربية واسعة ومنظّمة لتعطيل عقد أى اتفاق مع روسيا أثناء زيارة الرئيس عبدالناصر لموسكو؟ أم أن جرونكى قدّر أن هناك احتمالا كبيرا لحدوث تفاهم عميق بين الجمهورية العربية المتحدة وروسيا فحرص على أن يتخذ بصورة أو بأخرى موقفا ذاتيا لإيطاليا فى مواجهة سياسة غربية تتسم بالخطأ أو بسوء النية ؟ وثمة مظهر آخر ينم عن اتجاه الرئيس جرونكى ومبلغ رغبته فى تحقيق أمنيته ، فقد زارنى فى ٢٩ مايو السنيور فورنارى سفير إيطاليا فى مصر قبل عودته إلى القاهرة وتحدث إلى فى الموعد الذى يمكن أن تتم فيه الزيارة ، فأوضحت له أن الزيارة رهن بظروف كثيرة وخاصة بتلك التى تتعلق ببرنامج النشاط الشخصى لرئيس الجمهورية ، وأنه يحسن انتظار قيام حكومة تستند إلى أغلبية مستقرة لتوفير أسباب النجاح المرجو من مثل هذه الزيارة .

ومن هذا اتضح أن زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا قد لقيت من العالم الغربى تقديرا خاصا باعتبار أنها حدث سياسى له ما بعده بالنسبة له بوجه عام ولمنطقة البحر المتوسط بوجه خاص ، وأن إيطاليا لم تعد تشك فى أن القومية العربية باتت حقيقة آخذة فى النمو والاشتداد ، وأن مبعثها القاهرة وأن عمادها شخصية عبدالناصر ، وأن هذه القومية لم تعد رهنا بمشيئة الغير . كما ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن جرونكى المؤيَّد من جماعته كان يرغب رغبة أكيدة فى تحرير السياسة الإيطالية بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط سعيا وراء مصلحة وطنه ، وأنه حصل من الولايات المتحدة منذ عام ١٩٥٦ على مبدأ الاعتراف بالمصالح الخاصة لإيطاليا فى هذه المنطقة . كذلك تبين أن قيام الجمهورية العربية المتحدة وازدياد قوتها واتساع إمكانياتها والجاذبية التى تشدّ بها العالم العربى نحوها قد جعلت الغرب يعيد النظر إليها متخوفا من عواقب اتجاهاتها ، الأمر الذى أدى إلى تعطيل المبادرة الإيطالية رغم النية الصادقة فى ضرورة تحقيقها . لقد كانت إيطاليا أضعف من أن تتخلص من قيودها الغربية المرهقة ، ومع ذلك فإنها لم تيأس من العودة إلى بدء سياسة

ذاتيـة . تُرى هل كان الفتور الذى قوبل به مشروع پيلا للشرق الأوسط مظهرا من مظاهر الضغط الغربى على إيطاليا للكف عن المضى فى سياسة ذاتية ؟

وهكذا إتضح أن الاعتبارات الداخلية والانتخابية كان لها أثرها فى البداية ، وهو الأمر الذى يثبته الدفاع الذى أبدته وزارة الخارجية مرارا عن الزيارة . غير أن الكف عن الدفاع عنها تارة بالتزام الصمت وتارة باقتراح التأجيل يدل دلالة أكيدة على أن سيطرة الرئيس جرونكى على وزارة الخارجية لم تكن سيطرة تامة .

* * *

وفى يوم ٣١ مايو جاءنى چوجولدن بمقر السفارة بعد أن حددت له موعدا بناء على طلبه وبعد حديث مستفيض استعرض فيه موقف الجمهورية العربية المتحدة تجاه اسرائيل ، ومشيرا إلى أن اسرائيل كانت تلعب لعبة الكتلتين فى المنطقة وإلى رغبة السواد الأعظم من شباب اسرائيل فى استتباب الأمن والسلام تطرق إلى أن الشهور الستة السابقة قد سلخها ناحوم جولدمان فى إسرائيل لمعارضة سياسة بن جوريون القائمة على أنه لا أمل فى سلام مع الدول العربية ، وأنه نجح إلى حد كبير فى الحد من شوكة بن جوريون وسطوته التى يعتمد فى بسطها على نظام بوليسى إرهابى . ثم استطرد يقول إن سبب زيارته لى هو سؤالى عما إذا كان قادة الجمهورية العربية ينوون حقا أويضمرون الوصول إلى حل سلمى مع اسرائيل ؟ وفى هذه الحالة تكون الفرصة مواتية لأصحاب فكرة السلام وعلى رأسهم ناحوم جولدمان أن يتخذوا خطوات إيجابية فى هذا السبيل . ولما سألته عما يقصد بالخطوات الإيجابية قال : إن ناحوم جولدمان يسأل هذا السؤال الذى طرحه حتى إذا تلقى ردا بالإيجاب فإنه على استعداد للتنازل عن جنسيته الأمريكية وخوض معركة الانتخابات القادمة ضد بن جوريون جامعا المعارضة حوله مناديا بسياسة جديدة مع الدول العربية يجرى معها فى الوقت نفسه إعداد الرأى العام العربى ، وأنه فى سبيل ذلك على استعداد لمقابلة الرئيس كما سبق أن طلب عدة مرات . أما إذا لم يكن لدى سلطات الجمهورية العربية أية نية نحو الوصول إلى حل مثمر مع اسرائيل فهو لا يرى محلا كى يخوض المعركة الانتخابية القادمة التى ستجرى فى بحر ثمانية شهور والتى اختارها بن جوريون هذا الوقت بالذات [أعنى مرور عشر

سنوات على ميلاد اسرائيل] لأن الحالة الاقتصادية لن تصل فى العام القادم ــ وهو الموعد الذى كان مقررا للانتخابات ــ إلى ما وصلت إليه اليوم من « رخاء » حيث أن التعويضات الألمانية قد أوشكت على الانتهاء . وحرص محدثى على أن يذكر لى أن جولدمان هو الشخص الذى أرغم بن جور يون على قبول انسحاب القوات الإسرائيلية من غزة ــ رغم برقيات أيزنهاور المتواصلة له ــ مهدّدا بقطع الإعانة التى يتلقاها من يهود امريكا .

وعندما وعدته بعرض الأمر على القاهرة رجانى الإسراع بإخطاره بالنتيجة حيث أن الوقت قد أزف والمهلة التى يستطيع جولدمان استغلالها لوضع كل ثقله فى المعركة الانتخابية جد قصيرة .

وعاد جولدن فى يوم ٢٥ يونيه ليبلغنى أن ناحوم جولدمان سيصل إلى إيطاليا بعد بضعة أيام للعلاج فى مونتكاتينى لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم أبدى قلقه لأن جولدمان حائر بين حلول ثلاثة : أن يتدخل بنفسه فى المعركة السياسية الداخلية فى اسرائيل ضد بن جور يون سياسته ، وكان قد التقى فى لندن بلفيف من أحزاب اليسار الاسرائيلى لحثّه على تكوين تحالف بينه وبينهم لخوض المعركة الانتخابية فى عيد الفصح ضد بن جور يون ، أوأن يعمل على تنسيق سياسته مع سياسة بن جور يون الذى أوفد إليه شيلوخ [الذى وقّع اتفاقية رودس] لاستمالته نحو العمل على تنسيق هذه السياسة إذا مارأى اقتحام المعترك السياسى ، أوأن يتبع نصيحة « الوكالة اليهودية العالمية » التى ترى أن يبتعد عن الزّج بنفسه فى محيط السياسة الإسرائيلية وأن يظل بمنأى عن الخلافات الداخلية المحلية ولايتخلى عن صفته العامة أوعن جنسيته الأمريكية . وانتهى إلى أن اختيار جولدمان لأحد الحلول الثلاثة يتوقف على القرار الذى ستتخذه مصر بصدد السؤال الذى طرحه فى المقابلة السابقة ، وهو هل مصر مستعدة لتشجيعه على خوض المعركة السياسية للقضاء على سياسة بن جور يون ومحاولة الوصول إلى سياسة تفاهم مع جيران اسرائيل العرب ، وإذا كان الرد بالإيجاب فهو على استعداد لمقابلة ممثل مصر لمعرفة ما استقر عليه الرأى خلال مدة علاجه بمونتكاتينى ؟

* * *

وفى الرابع والعشرين من يوليه صدرت مجلة « إكسبريس » الفرنسية تتضمن حديثا لى أجراه معى مراسلها بروما فى مقر السفارة رأيت إثباته فى الحاشية(٢) .

وكان السنيور أمينتورى فانفانى سكرتير عام الحزب الديمقراطى المسيحى قد أقدم على تنفيذ مناورة لحل مجلس الشيوخ فى غير موعده القانونى برغم المعارضة الشديدة التى شنّتها أحزاب المعارضة . وكان فانفانى أقوى شخصية فى الحزب وله بعض ميول يسارية فى إطار حزبه جعلته مقرّبا من الطبقات العاملة المتديّنة . وكان يطمع فى أن يحصل الحزب على أغلبية تمكنه من الانفراد بالحكم على أن يتولى بنفسه رئاسة الوزارة ، غير أن نتيجة الانتخابات لم تحقق له هذا الأمل وغدا الحزب الديمقراطى المسيحى فى حاجة إلى تأييد أحزاب الوسط الصغرى لتكوين أغلبية برلمانية . وكانت شخصية فانفانى شخصية إيجابية تختلف عن شخصية سلفه الرئيس زولى السلبية ، وكان عليه أن ينتهى إلى حل لقيام تآلف بين حزبه وبين بعض أحزاب الوسط بشرط أن ترضى الشخصيات اليمينية فى حزبه عن هذا الائتلاف الذى توزع فيه المناصب الوزارية بالتراضى ، كما كان عليه إيجاد نوع من التوافق بين سياسة الوزارة الجديدة واتجاهات الرئيس جرونكى السياسية .

وخلال شهر يوليه نشبت أزمة لبنان فحرصتُ على أن تُصدر السفارة نشرة صحفية باللغتين الإنجليزية والإيطالية منذ بدء الأزمة توضح حقائق الأزمة ردا على المقالات المعادية فى الصحافة الإيطالية ، وتوزع على كافة الأوساط الصحفية والرسمية والدبلوماسية بروما ، كما أرسلت نسخا منها إلى قنصلياتنا فى ميلانو وتريستا ونابلي وجنوا لتوزيعها فى مناطق اختصاصها . وقد اضطلع بهذه المهمة الشاقة الدقيقة بقدرة فائقة وحماسة بالغة المستشار الصحفى بالسفارة السيد عبد الرحمن صادق . وكنت قد طلبت من الرئيس عبد الناصر موافاتى ببرقيات يومية وافية عن الموقف المصرى إزاء هذا الأزمة ، فأصدر تعليماته إلى السيد حسين ذو الفقار صبرى مستشاره للسياسة الخارجية [نائب وزير الخارجية فيما بعد] بأن يمدّ سائر السفارات المصرية بالخارج ببرقيات يومية عن الموقف أولا بأول ، وكان للدور الذى أداه هذا الرجل القدير ومساعده الدكتور مراد غالب [سفير مصر فى موسكو ووزير الخارجية فيما بعد] أكبر الأثر فى جعل النشرة الصحفية للسفارة

مطلوبة ومقروءة . كذلك أدليتُ بحديث صحفى أوضّح فيه الحقائق ، وكان موقف سفير لبنان منا موقفا متعاطفا فالتزم الصمت إزاء ما جاء فى نشراتنا الإعلامية وتصريحاتنا للصحافة .

والتقيت بالسفير ألساندر ينى فى العاشر من يولية وأوضحت له أن سياستنا منذ نشوب هذه الأزمة كانت ومازالت تقوم على المحافظة على استقلال لبنان واحترام حياده بين التيارات المختلفة فى الشرق الأوسط متفقين فى ذلك مع السياسة الإيطالية القائمة على ضرورة احترام استقلال لبنان وأن حل الأزمة يجب أن يكون فى نطاق الأمم المتحدة ، ثم استطردت شارحا أهمية السلام بالنسبة لدول البحر المتوسط وعلى رأسها إيطاليا . كما عرضت لتقرير همرشولد وكيف أقام الدليل على أن نوايانا الحسنة كانت مطروحة سلفا لإيماننا بأنه لابد للحق من أن يظهر واضحا ، وأعربت له عن دهشتى من إعلان حكومتى لندن وواشنطون عدم ارتياحهما للتقرير ، وعلّقت بأن هذا عبثٌ بالعالم وبالسلام لأهواء استعمارية للحكومة البريطانية ونزوات شخصية لدالاس . ثم سألته عما إذا كانت إيطاليا ستستمر فى اتباع نفس السياسة غير المتحيزة بشأن لبنان والتى نوّهت بها لدى حكومتى ، فانبرى يؤكد أن إيطاليا لن تخرج عن هذه السياسة ، وأضاف أنه يود أن يوضح لى أن حكومته لعبت دورا كبيرا فى تهدئة حليفتيها وحملها على التزام الروية ، وكرر أن المساعى التى بذلتها إيطاليا لدى حلف الأطلسى وواشنطون ولندن كان لها وزن كبير مما يثبت مبلغ صداقة إيطاليا لنا . ثم استطرد يؤكد أنه لن يقع أى تدخل عسكرى إلا إذا حدث تدخل من جهة أخرى . فقاطعته قائلا : وممن ؟ قال : « صحيح وممن ؟ لكنى أؤكد لك من جديد أنه لن يقع تدخل » وأضاف أن الولايات المتحدة أدركت فى النهاية أن المسألة داخلية وأنها مجرد « عناد » من شمعون وأنه إذا تطرّف شمعون فى سياسته دون موافقة الولايات المتحدة فإنها ستتخلى عنه ، وأن شهاب سيلعب دورا فى صالح أمريكا .

وكشفت له العلاقة بين مجلة « تايم » والخارجية الأمريكية ومدى ما لحقنا من افتراء من جراء الحملة الكاذبة للتشهير بنا ولتضليل الرأى العام العالمى وأن كل ما رُمينا به كان باطلا كما أثبته تقرير همرشولد ، وأضفت أن العادة جرت بأن

تُكال الاتهامات لنا ، بل وأن نستهدف للعدوان ثم يثبت للعالم وللتاريخ فيا بعد زيف الآخرين، ثم رجوته أن يقيس أى اتهام لنا فى المستقبل بمقياس الماضى، فأمّن على حديثى قائلا إنه يكفينا أن تقرير همرشولد قد أنصفنا . ثم تناولت سياسة دالاس موضحا كيف أنها تعرّض العالم دائما لخطر الحرب وأنها لا تسير على مبادىء وإنما طبقا لأهواء شخصية أساسها الضغينة والحقد . ورغما من أنه بدا على محدثى أنه ضائق شيئا بما أقول ، فقد استرسلتُ ولم أشأ التوقف إلى أن انتهيت مما كنت أريد إسماعه له . وفى النهاية أكدت له حرصنا على احترام التوازن التقليدى للبنان ، فانبرى يؤكد أن المعلومات التى لديه تثبت له أن الجمهورية العربية المتحدة حريصة فعلا على هذا ، وسألنى عن رأينا فى الجنرال شهاب فقلت له إننى أعلم أن المعارضة وكذلك كافة الأوساط اللبنانية الأخرى تكنّ له كل احترام .

وتقدم فانفانى فى التاسع من يوليو ببرنامج حكومته إلى مجلسى البرلمان ، وكان قد احتفظ لنفسه بوزارة الخارجية بالإضافة إلى الرئاسة ، ولم يدخل الوزارة بيلا الذى عُرضت عليه وزارة الدفاع فرفضها . وبصفة عامة كان برنامج الحكومة الإيطالية الجديدة جريئا وواقعيا إذا قيس ببرامج الحكومات السابقة فى ميدانى السياسة الاقتصادية والاجتماعية ، كما احتوى على قدر من الاتجاه نحو سياسة إيطالية فى منطقة البحر المتوسط ، إن لم تكن مستقلة فهى على الأقل نشطة . وبطبيعة الحال اعترضت فانفانى عقبتان تقليديتان أولاهما قلة الموارد المالية المتاحة لتنفيذ مشروعاته الطموحة ، وثانيهما احتياج التنفيذ إلى آجال طويلة لا تتجاوز متوسط أعمار الحكومات الإيطالية فحسب بل ومدة عضوية البرلمان نفسه .

وفى الخامس والعشرين من يوليه قابلت الرئيس فانفانى قبيل سفره إلى الولايات المتحدة للقاء أيزنهاور ودالاس بيومين بناء على طلبه . وبعد أن أعربت له عن تقدير حكومتنا للجهود التى بذلتها الحكومة الإيطالية أثناء الأزمة اللبنانية لصون السلام، وأضفت من ناحيتى أن الدبلوماسية الإيطالية فى الشرق الأوسط تستحق الثناء على إدراكها حقيقة الحالة وتصويرها لحكومتها تصويرا صحيحا ، ارتاح لذلك وطلب منى إبلاغ المسئولين امتنانه . ثم أفصح عن رغبته فى استيضاح

بعض مايريد استيضاحه عن الشرق الأوسط قبل رحلته إلى أمريكا ، ومضى يسألنى عن حيادنا الإيجابى ، فحدثته حديثا مستفيضا عن دوره فى منطقة الشرق الأوسط وأنه بات عقيدتنا ، فلا هو أداة يستخدمها الغير ولا هو تحدٍّ للغير ، بل إن الشعب العربى يبغى التعايش السلمى مع الكل ملتزما بقيمه محترما لجميع العقائد مصمّما على الدفاع عن نفسه عند الضرورة . وأضفت أن الشرق العربى يرفض أن يغدو مسرحا تتطاحن فيه الأطماع بعد أن بات وحدة لا تقبل التجزئة أو التفرقة أو أن يكون موضعا لاقتسام الدول الكبرى له كمناطق نفوذ لا بين الدول الغربية ولا بين المعسكرين الشرقى والغربى ، وأن العودة إلى مثل هذه السياسة العتيقة ليست فى مصلحتنا ولا فى مصلحة إيطاليا . وأضفت أن إقرار سياسة ما فى الشرق الأوسط أو بالنسبة له ينبغى أن تحوز موافقتنا ورضانا لأننا لن نقبل سياسة الأمر الواقع ، فسلام المنطقة يهمنا نحن أولا قبل أن يهم غيرنا لأنها المنطقة التى نحيا فيها ، وكاشفته بأن سياسة الحياد الإيجابى لا تنحصر داخل مصر والعراق بعد أن أصبحت عقيدة راسخة لدى الأمة العربية . فالعامل المهم فى الشرق الأوسط هو الشعوب لا الأفراد ، فإذا كان الغرب يستطيب شخصية ملك من ملوك المنطقة فلن يغير هذا من مستقبل المنطقة ، فقديما كان ملك نابلى الذى يحظى بتأييد القوى الكبرى شخصية جذابة لطيفة غير أن هذا لم يحل دون قيام الوحدة الإيطالية .

وحين أراد فانفانى أن يعرف إذا كان لبنان معدودا ضمن هذا النطاق قلت بأنى لا أستطيع الرد على هذا السؤال رسميا ولكنى أعتقد بصفة شخصية أن إسباغ نوع من الحياد على غرار النهج السويسرى على لبنان قد يكون حلا وسطا مقبولا . وألح إلى تركيا فصارحته بألاّ شأن لنا بتركيا طالما لا شأن لها بنا ، فالعنصر العرقى مختلف والآمال متباينة ، وفى رأيى أنه إذا رأت الكتلتان المتصارعتان تحييد تركيا بالمثل فقد تزول بذلك وإلى حدّ كبير بعض العوامل المقلقة للسلام فى الشرق الأوسط ، وأعتقد أننا نرحب بمثل هذه الخطوة إذا تمت . وقد تحاشيت عامدا فى إجابتى أن أمسّ بلادا عربية أخرى كالسودان وليبيا والمغرب العربى . وعندما عرج فى النهاية إلى اسرائيل قلت إن الوقت قد حان لكى تدرك إيطاليا حقيقة موقفها كدولة غربية مُقْحَمة على المنطقة ، وأردفت ذلك بتذكيره بتصريحات عبدالناصر التى أعلن فيها منذ سنتين بمؤتمر باندونج استعداده لحل منازعاته مع

الغير حلا سلميّا عادلا على ضوء قرارات الأمم المتحدة . ومن الجائز لوأدرك الإسرائيليون حقيقة موقفهم فى قلب المنطقة العربية لسارعوا إلى نشدان سلام عادل ولا سيا أننا نريد لحيادنا الإيجابى أن تضمنه الكتلتان والأمم المتحدة . و بعد أن انتهى الرئيس فانفانى من جولته بالشرق الأوسط انتقل بالحديث إلى علاقتنا بالاتحاد السوفييتى شارحالى أن الصحافة الشيوعية تعمل دائما على تصويرنا بمظهر الأداة التى تحركها موسكو. وضرب لى مثلا النداء الذي وجّهته نقابات العمال العربية إلى الحزب الشيوعى الإيطالى لمناصرة قضيتنا ، ثم أضاف أن هذا قد أساء إلينا كثيرا .

قلت : ليس لى علم بمثل هذا النداء ، وإذا كان قد صدر فعلا فأرجو تفسيره من الناحية السيكولوجية لا من الناحية السياسية . فالطبيعى والمعقول أن الانسان إذا كان موضعا لتهديد أولاعتداء فإنه يقبل المساعدة من الغير وإن أتت من الشيطان .

قال ضاحكا : ولكنكم تضعون أنصاف الشياطين الذين يريدون مساعدتكم فى مركز حرج .

واستطردت قائلا : إنما هى التصرفات الغاشمة التى تصدرعن بعض دول الغرب فتدفعنا دفعا نحوهذا الطريق ، وأكرر أن هذا التصرف من جانبنا نفسانى وطبيعى . وأنتم تعلمون علم اليقين أننا لسنا شيوعيين وأننا لانريد أن نكون كذلك ، ولكنها الدعاية المضلّلة التى ترسم موقفنا على هذه الصورة مدفوعة بالنفوذ الصهيونى والاستعمارى أومأجورة له .

قال : إنى أعلم هذا شخصيا ، ولكن المهم أن يعرف ذلك الرئيس أيزنهاور، فأرجو أن تبلغ الرئيس عبدالناصر أن بين الدول الأطلسية دولا لم تتخذ موقفا معاديا للجمهورية العربية ومن بين تلك الدول أمريكا نفسها ، ولك أن تصدق ذلك أولا تصدقه ، والأيام القليلة القادمة تحمل فى طياتها مفاتيح المستقبل ، وفى يد الرئيس عبدالناصر مفتاح هام للغاية فى سبيل السلام لو استطاع أن يستخدمه لكانت فى ذلك فائدة كبرى ، وأعنى بذلك أن يؤكد للولايات المتحدة أن ليس هناك بعدُ أى انحياز من جانبه نحوالسوفييت ؛ وليس من الضرورى أن يكون مثل

هذا التأكيد فى رسالة علنية بل يكفى أن يقدم البرهان على ذلك للرئيس أيزنهاور أوعلى أى مستوى يريده دون حاجة إلى إعلان هذا البرهان حتى لايسىء ذلك إلى مركزكم لدى السوفييت ، ثم أردف قائلا : إن السلام ياعزيزى يأتى عن طريق واشنطون .

قلت له : أكرر أننا لسنا شيوعيين والأمريكيون يعلمون ذلك حق العلم ، ولكن هناك نوعين من الضغط علينا ، ولقد طالما مددنا يدنا لمصادقة الغرب وبخاصة لأمريكا غير أن النفوذ الصهيونى وضغط الدول الاستعمارية يحولان دون الوصول إلى علاقات طيبة مع الولايات المتحدة ، يضاف إلى ذلك الضغينة الشخصية التى يضمرها دالاس لرئيسنا . فرد قائلا : أعتقد أن مصلحة السلام ستتجاوز الاعتبارات الشخصية ، ولقد كانت عقيدتى دائما أن أكبر خطأ ارتكبه الغرب هو سحب تمويل مشروع السد العالى ، وأضاف : إن الصهيونيين الذين يؤججون النار لن يجدوا جوا ممهدا لهم كما تظنون . وأود أن أؤكد لك أنه إذا كان الرئيس عبدالناصر يعتقد أن الولايات المتحدة انتهت إلى اتخاذ موقف عدائى من الجمهورية العربية المتحدة فلن يكون اعتقاده هذا صوابا . وأحب أن أؤكد لك أيضا أن الحياة فى ظل الشيوعية ليست جنة ، خُذ مثلا لذلك نهرو قبل حوادث المجر فى سنة ١٩٥٦ وبعدها فكم تغيّر فكره وتطور، ودليل ذلك جوابه على دعوة خروتشوف الأخيرة ، فقد علّق قبوله لها على قبول الدول الأخرى المعنية مما كان له أثر ومغزى كبير لدى الغرب .

وهنا رأيت أن أستعرض أمامه تطور العلاقات بيننا وبين الولايات المتحدة منذ البداية بوضوح شديد ، وما إن فرغت حتى سألنى : يهمنى قبل أن أبارح إيطاليا أن أعرف هل أنتم على استعداد للعودة إلى علاقات طيبة مع الغرب ؟ قلت : بكل تأكيد ، وطالما عملنا فى هذا السبيل دون جدوى ، لكن سياستنا ستكون دائما سياسة الاستقلال والحياد الإيجابى . نحن نريد أن نبسط يدنا للجميع غربا وشرقا على السواء ، فاذا لقيت أمانينا الاحترام فلا مجال للقلق من جانبكم أومن جانب غيركم .

قال : أرجو ألا تذهب هذه الأماني إلى حد استدعاء القوات السوفييتية إلى الشرق الأوسط . قلت : هذا لم يحدث في الماضي ولن يحدث إلا إذا وقع علينا عدوان ، وأظنك توافقني على أن عملا مثل هذا يكون أمرا طبيعيا .

فإذا هو يفاجئني قائلا : إذا دعت الحاجة ، هل لي أن أعلم اذا كانت الجمهورية العربية المتحدة ستكون في صف « قوات الحرية » ؟

قلت : إذا كنت تقصد تحالفا عسكريا مع ماتسميه قوات الحرية فهذا لن يكون ، وليس في نيتنا إطلاقا أن ندخل في مثل هذا التحالف لأنه يتعارض مع سياسة الحياد التي نعتنقها ، أما إذا كنت تقصد حالة وقوع هجوم سوفييتي مثلا علينا فلاشك أننا لن نرفض مساعدتكم لنا . قال : لم أذكر إطلاقا كلمة « ميثاق عسكري » ولا أقصد ذلك أبدا .

وقد اتضح لي عندها أن أخشى مايخشاه الغرب — بما فيه إيطاليا — هو وصول قوات سوفييتية إلى الشرق الأوسط ، كما تبين أن فانفاني يتوق إلى أن تلعب ايطاليا دورا يقوم فيه بدور رائد وهو أن يمثل الغرب لدينا وفي الوقت نفسه يحمل وجهة نظرنا لسائر الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة التي يؤمن بها إيمانا مطلقا .

وقد أوضح لي أن محادثاته في واشنطن ستتناول مسائل الشرق الأوسط وأنه ينوي أن يبرز للمسئولين الأمريكيين أن تلك المسائل لا تُحل بالقوة ، وأن لابد لهم من التزام الواقعية ومواجهة الحقائق التاريخية الطبيعية التي مظهرها القومية العربية بأسلوب عملي يقوم على أسس من الصداقة والتعاون ، لأن هذه هي الفرصة الأخيرة المتاحة للغرب لتغيير سياسته تجاه العرب دون وضع هذه المنطقة تحت النفوذ السياسي لدولة أخرى . كما تعمد أن يشير إلى أنه سيحاول إقناع المسئولين الأمريكيين بضرورة الإسراع بالاعتراف بالجمهورية العراقية الجديدة بعد الثورة التي قضت على الملكية في ١٤ يوليه ١٩٥٨ ، وإن كان أمر الاعتراف في رأيه مفروغا منه إلا أن الإسراع به أمر واجب على الغرب .

وفي حفل عشاء ضيق أقامه للدكتور إنريكو ماتي مدير مؤسسة إيني للبترول والدكتور يتشاي عضو مجلس الإدارة المنتدب لشركة إيتالكونسلت الوثيقي

الارتباط اقتصاديا بنا نقل إلىّ الأول أن فانفانى قد أبلغ محدثيه الأمريكيين أن ٩٠٪ من البترول الذى تستهلكه إيطاليا مستورد من الشرق الأوسط وأنها على غير استعداد للتضحية بمصالحها باتباع سياسة يكون من شأنها أن تضطر إلى شراء الوقود اللازم لها من أمريكا بسعر مرتفع يجعل تكاليف الإنتاج فيها باهظة .

وكنت قد فوجئت بعد ظهر يوم لقائى بالرئيس فانفانى برسول موفد من قبل الرئيس جرونكى يبلغنى فيه رغبته فى الوقوف على الحديث الذى دار بينى وبين الرئيس فانفانى صباح اليوم ، فشعرت بحرج شديد وأجملت فى كلمات مقتضبة أنى قد أفضت فى شرح سياسة الحياد الإيجابى ، كما أجبت على بعض الأسئلة التى استوضحنى إياها رئيس الحكومة ، وأنى قد أعربت عن شكر حكومتى على موقف الحكومة الإيطالية إزاء أزمة لبنان . فبادرنى الرسول متسائلا : ألم يرد ذكر الرئيس جرونكى على لسان الرئيس فانفانى فى معرض الحديث عن الجهود المبذولة فى سبيل السلام ؟ فأثار سؤاله فى نفسى شيئا من الحرج ، وكانت إجابتى له لا تنفى ولا تؤكّد . واتضح لى أن رئيس الوزراء لا يكشف كل أوراقه لرئيس الجمهورية وأن ثمة جفوة بينهما مردّها من غير شك إلى أنه عندما أجريت الانتخابات لرياسة الجمهورية لم يكن فانفانى راضيا عن ترشيح جرونكى رغم كونه عضوا فى الحزب الديمقراطى المسيحى ، ذلك الحزب الذى ينتمى كل منهما إليه والذى يتمتع فانفانى داخل جهازه بسلطة تكاد تكون مطلقة بوصفه سكرتيرا عاما له . وقد قاوم فانفانى ترشيح جرونكى بمناورات واضحة وعلنية داخل المؤتمر لاستبعاد اسمه ولم يكن من الأسماء التى تقدم بها الحزب أول الأمر ، وكان جرونكى وقتذاك رئيسا لمجلس النواب ، كما عمد فانفانى إلى ترشيح السنيور « ميرزاجورا » رئيس مجلس الشيوخ وأصدر التعليمات لحزبه بانتخابه وعدم تأييد جرونكى .

غير أن جرونكى كان فى إدارته لجلسات مجلس النواب موضع تقدير الأحزاب جميعها لسلوكه مسلكا سليما فى غير ماتحيزّ لحزبه ، ولذلك كانت ميول الحزبين الاشتراكى والشيوعى متجهة إلى تعضيده فى منصب رئيس الجمهورية لقدرته على التخلّى عن صبغته الحزبية ، وهو الشرط الضرورى فيمن يشغل هذا المنصب . وقد كان من الطبيعى أن يظل الخلاف بينهما متقدا وإن كان قد استخفى تحت

الرماد السطحى . على أنه وإن كان فانفانى رجلا قويا فقد كان جرونكى كذلك شخصية قوية ولا تنقصه الشجاعة الأدبية ، كما كانت له آراء سياسية يعمل على الدعوة لها بل وفرضها عند اللزوم . وأهم تلك الآراء الشخصية بالنسبة لنا موقفه من العالم العربى والبحر المتوسط ورغبته فى إحلال سياسة إيطالية إلى حدّ ما محل تلك السياسة التى تقتضى من إيطاليا الانسياق راضخة للسياسة التى ترسمها واشنطون أولندن أوباريس وترغم إيطاليا على قبولها وتنفيذها . ولذلك كان يلجأ إلى إسناد الحكومة إلى شخصيات ضعيفة لا تصعب السيطرة عليها مثل زولى رئيس الوزراء قبل فانفانى ليتسنّى له الإعراب عن آرائه السياسية ووضعها موضع التنفيذ .

وفى الخامس عشر من يوليه بلغنى من مصدر مسئول فى الحكومة الإيطالية لايرقى إليه الشك أن بريطانيا مصمّمة على التدخل العسكرى فى الشرق الأوسط للتخلص من الرئيس عبدالناصر بأى ثمن ولوأنهم قد لايوجّهون الضربة إليه مباشرة ، وأن غزواً بريطانيا للأردن سيقع يوم ١٧ يوليه مع عملية إنزال فى كل من طبرق وعدن ، وأن الأسطول البريطانى موزع فى مياه الخليج الفارسى ، وأكد لى المصدر أن الإنجليز يدبرون انقلابا أواعتداء على اليمن يوم ٢٢ يوليه ، كما يحتمل أن يمتد هجومهم إلى سوريا لاستدراج الرئيس عبدالناصر إلى التدخل فى القتال ، وأن لندن رفضت اقتراحات كل من واشنطن وتل أبيب للاشتراك فى عملية الأردن وآثرت الانفراد بحرية التصرف ، وأضاف مصدرى أن المخابرات البريطانية تعتقد أن مساعدة الاتحاد السوفييتى لعبدالناصر سوف تكون مشروطة هذه المرة ، وهى تعوّل كثيرا على رفض عبدالناصر للشروط السوفييتية .

وبعد عودة فانفانى من الولايات المتحدة التقيت به فى مكتبه بوزارة الخارجية فى الخامس من أغسطس ، وقد بادرنى بذكر أن شرح مفهوم القومية العربية باعتبارها حدثا تاريخيا طبيعيا كان من بين أهداف زيارته ، وأن الوقت قد حان لوضع نهاية لمعاداة القومية العربية ، بل ينبغى استمالتها نحو الغرب قبل أن تجد نفسها مسوقة إلى الارتباط بالكتلة السوفييتية ، وأن الرئيس عبدالناصر هو الزعيم العربى الأوحد الذى ينبغى على الغرب حاليا أن يتعامل معه للوصول إلى حل مناسب ، وأنه لم يعد هناك مفر من إقرار نوع من المعونة الاقتصادية تقدم إلى دول

الشرق الأوسط فى نطاق الأمم المتحدة مع إشراك الدول العربية نفسها فى هذه المعونة ، ولو بصفة رمزية إذا لزم الأمر، وأن الغرض من تقديم المعونة على هذا النحو هو الرغبة فى استبعاد فكرة أنها مقدّمة من دولة معينة ، وقد يتم تمويل هذا بإنشاء صندوق خاص بهذه المعونة . فانبريت أعبّر عن التقدير لجهوده فى سبيل السلام ؛ فإذا هويردّ مزهوا بأنه يُقال إنه يعمل لخدمة العرب وأنه لاينكر ذلك لأن فيه خدمة لقضية عادلة . وأضاف قائلا : لقد نصحتهم فى لندن وواشنطن بضرورة الاعتراف بالنظام العراقى الجديد قبل أن يضطرهم خروتشوف إلى ذلك ، فوافقنى أيزنهاور فى الحال . أما البريطانيون فكانوا يقدرون ألا يتم اعترافهم قبل ١٥ أغسطس . كما أنه طرح بعض الأفكار التى توحى للمسئولين فى الولايات المتحدة وبريطانيا بالطريقة المُثلى — فى نظره — للوصول إلى الهدوء والاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط . وأضاف أن الموقف فى كل من لندن وواشنطن قابل للزحزحة والتحرك ، وإن كان ما يزال غير واضح ، فالمهم هوإيجاد نقطة بداية لتحريك محادثات تنتهى إلى إقرار السلام فى المنطقة ، ثم هويرجونى أن أعرض تلك الأفكار على الرئيس عبدالناصر شخصيا وأعود إليه برأيه فى مقترحاته حتى ولولم يكن رأيه سافراً .

واستطرد فانفانى قائلا : كنت قد أشرت عليك بأن تبدر من الرئيس عبدالناصر بادرة تبرهن بصورة ماللأمر يكيين بأن ليست لكم أية نيات عدوانية . فسألته نحو من ؟ قال نحو السودان وليبيا . فأبديت له دهشتى لمثل هذه الادعاءات التى تدعو للسخرية وتكشف عن تخبّط أجهزة المخابرات الأمريكية ، فهى تختلق الروايات اختلاقا ثم ماتلبث أن تصدقها وتبنى عليها سياسة قد تطيح بالسلام العالمى فى أى وقت . وهنا ألمح إلى أن معلومات قد وصلتهم اليوم من الخرطوم بأن ثمة مؤامرة تدبّر فى الأيام الأخيرة لقلب نظام الحكم لصالح الرئيس عبدالناصر ، فوجّهت نظره فى الحال إلى البلاغ الرسمى الذى أصدره الوزير المفوض للسودان فى روما الذى نفى فيه بصورة قاطعة وجود أية مؤامرة من أى نوع فى السودان .

وعاد يكرر لى : عليكم أن تثبتوا أنكم غير شيوعيين مثلما أثبت زعماء العراق مؤخرا أنهم ليسوا شيوعيين . فذكّرته بأنّا كنا منذ عشرة أيام فقط متهمين بتدبير ثورة العراق ، وبأننا نحرّك زعماء تلك الثورة إلى أن ثبت لكم أنها كانت حركة وطنية

منبثقة من الشعب العراقي ذاته . ثم أردفت قائلا : لاحاجة بي أن أنفي الزعم بأننا شيوعيون لسببين : أولهما أننا لوكنا شيوعيين فلا داعي إلى إخفاء ذلك وأقصر الطرق هو أن نعلن هذا وننضم للكتلة الشيوعية ، والثاني أنني أترك هذا الحكم لسفيركم بالقاهرة فهو في مركز يتيح له الدراية بالأمور على حقيقتها ولا أظن إلا أنه قد أبلغها لكم بأمانة .

ثم مضى يؤكدلي « أن لدى الرئيس أيزنهاور استعداداً طيبا نحوكم ، لكن دالاس كما سبق أن ذكرت لي يحقد عليكم لأنه يعتقد أنه ساعدكم في الماضي خلال العدوان الثلاثي دون أن ينال عرفانكم ، إذ قابلتم الخدمة التي أداها لكم بالجحود . ولقد اعترف لي أنه كان وقتذاك على فراش الموت ، وأنه كان يكفيه فخرا أن يسجل على قبره : « هنا يرقد الرجل الذي أنقذ مصر من العدوان » . ولكنني أقول إن ذلك لايعني أنه ميئوس منه ، ولذلك ينبغي أن تجرى عملية الإقناع بصفة شخصية بين عبدالناصر وأيزنهاور . وواصل فانفاني حديثه شارحا كيف يتصور الوصول إلى إقرار السلام في الشرق الأوسط ، فيرى بادىء ذي بدء أن تتفق الدول العربية فيما بينها على ألا تتدخل إحداها في الشئون الداخلية لدولة أخرى وكذا على ضمان الحدود ، ثم يتعهد المعسكران الغربي والشرقي باحترام استقلال دول الشرق الأوسط وعدم التدخل في شئونها . وأخيرا يتقرر تنظيم المعونة للشرق الأوسط مع إشراك الدول العربية في إدارة تلك المعونة .

فسألته : أي حدود نضمنها واسرائيل رابضة بيننا ، وهل تشير إلى ضمان حدود اسرائيل ؟ إن حدود اسرائيل موضع مطالبة من جانبنا وكانت موضعا لحكم أصدرته الأمم المتحدة ولم ينفذ . فإذا به يقول : أقصد عدم التدخل في شئون إسرائيل الداخلية .

وإذ تبين لي أن دراية الرئيس فانفاني بمسألة فلسطين محدودة فقد عرضت بعد ذلك على مدير مكتبه مانزيني أن أقدم مذكرة وافية عن حقيقة الموقف في فلسطين ملمحا له أن هذه المسألة تبدو غامضة بعض الشيء في نظر المسئولين في إيطاليا ، فرحب بالفكرة على ألا تصاغ في قالب رسمي وإنما على أنها معلومات فحسب .

· ثم سألت فانفاني : وهل سيكون لتركيا واسرائيل مثلا نصيب من المعونة الاقتصادية ؟ فقال : إن استبعاد تركيا يزيل الكثير من المتاعب ، أما اسرائيل فأعتقد أنها ستنال جزءاً منها ، فإن اسرائيل حقيقة قائمة . أقول لك هذا كما قلت لهم فى واشنطن ولندن وبون أيضا إن الجمهورية العربية المتحدة حقيقة قائمة ، كما قلت كذلك إن روسيا السوفييتية حقيقة قائمة . وقد قلت لهم إن الموقف فى العالم العربى اليوم أفضل مما كان عليه منذ سنتين وإن لدى العرب استعدادا طيباً لإجراء تسوية إلا أنهم ليسوا على استعداد للتخلى عن كل شىء ، فلابد من ضمانات تبعث الطمأنينية فى نفوسهم .

فسألته : هل الغرض حقا هو مساعدة الدول العربية اقتصاديا أم إنعاش إسرائيل ؟ فأجاب بأن إصراره على ضرورة إشراك الدول العربية فى إدارة المعونة إنما كان لضمان التوزيع العادل . فأوضحت له أن عقد مثل هذا الاتفاق الذى حدثنى عنه أمر يصعب إتمامه ونحن موضع تهديد مسلح ضُرب علينا من كل جانب فى البحر وفى ليبيا ولبنان والأردن واسرائيل وعدن والخليج العربى . ففى كل هذه المواقع يجرى تكوين قوات ضاربة وتُحشد الحشود ولا يمكن أن يكون لها غرض إلاّ الاستعداد للعدوان علينا أو التهديد بالعدوان . ثم سألته : بماذا تفسر استمرار تدفّق القوات الأمريكية إلى لبنان وقد تم حل مشكلته أو كاد ؟ فقال مراوغا إن حلفاءه أكدوا له استعدادهم لسحب قواتهم فى أقرب فرصة بمجرد استتباب الحالة .

وفى نهاية اللقاء ذكر لى أنه أثناء مقابلته لرئيس الجمهورية فى اليوم السابق أظهر له استياءه من بعض الاجراءات التى اتخذت ـــ على حد قوله ـــ ضد بعض الإيطاليين فى مصر ، وأضاف قائلا إن الصداقة تدعونا للنظر فى أمر هؤلاء . فقلت إذا كنت تقصد الصداقة الإيطالية العربية فهى حقيقة قائمة ، إلا أن أخشى ما أخشاه أن يكون هؤلاء من اليهود الذين هاجروا برغبتهم وارادتهم ، أو من الفئة التى أبحرت مع الأسطول الفرنسى أو البريطانى من بورسعيد فى نهاية عام ١٩٥٦ دون علم السلطات المصرية أو الاستئذان منها . فهذه مسألة أعلمها جيدا ، والقانون صريح وواضح كل الوضوح فى مثل هذه الأحوال ، فأجابنى بما يكشف عن أنه لا يدرى الكثير عن تفصيلات القضية .

وعند توديعي وكنت قد أحطته علما بعزمي على السفر إلى مصر للقاء الرئيس قال لي : لقد كلّفت مكتبي بإعداد مذكرة شخصية لك تضم كل مقترحاتنا التي تصلح أساسا للمحادثات المستقبلة . وإذا تراءى للرئيس عبدالناصر رأى أوتعديل أوإضافة تجعلها مقبولة لديه فأرجوأن تحملها إلى لدى عودتك وسوف نقدم مايراه من مقترحات على أنها مقترحات إيطالية ، وذلك لأسباب سيكولوجية بحتة ، إذ أن الأمريكيين والبريطانيين يبدون حذرا شديدا نحوالآراء العربية .

ولما حضر مانزيني لمقابلتي بعد ظهر نفس اليوم بادرني بقوله إن الرئيس فانفاني يرجوالحذر من أن تتسرب تفاصيل مقابلاته لي للصحافة ولا لوزارة الخارجية التي يكتفي بإحاطتها علما بأحاذيثه معي بصورة مقتضبة للغاية ، حتى أن السفير فورناري مع كونه موضع رضاء الرئيس فانفاني لاعلم له بما يدور أثناءها . كما رجاني باسم الرئيس فانفاني أن نحيط الاتصالات الجارية في روما بالسرية التامة حرصا على سمعته وسمعة بلاده في حالة ما إذا أدت الظروف إلى فشلها . ثم أبلغني أن جولدا ماير حضرت إلى روما وأبدت رغبتها في مقابلة فانفاني واستعدادها لانتظاره هنا لحين عودته من باريس وإن كان يعتقد أن شيئا بناءاً لن يتم أثناء لقائه بها .

ومضيت أستوضحه بعض التفاصيل لأستكمل بها عرضي للمسائل على الرئيس . فقلت له : إنكم تطلبون منا تقديم عربون يثبت للغرب صدق نوايانا على أننا نسعى نحوالاستقرار في منطقة الشرق الأوسط ، وعلى هذا ومع أننا نحرص دائما على عدم الإخلال بالسلام أوالاستقرار فالمطلوب منا الارتباط بالتزامات معينة دون أن يكون غيرنا قد ارتبط بالتزامات مماثلة . فأجاب بأن الأنجلو– أمريكيين سيرتبطون بالتزام مماثل .

فتساءلت عما إذا كان المطلوب أن تلتزم الدول العربية فيما بينها باحترام الحدود والكف عن التدخل في شئون بعضها البعض على أن تتعهد الدول العظمى بعد ذلك باحترام الوضع القائم في الشرق الأوسط ، أي أن تتم العملية على مرحلتين وفي دائرتين مختلفتين . وإذا كان الأمر سيمضي على هذا النحوفلن يكون مقبولا منا ، فقد سبق لنا رفض التصريح الثلاثي الذي أعلنته مشتركة فيما بينها

كل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، ولسنا على استعداد لأن يتقرر مصيرنا دون أخذ رأينا . قال : إلى جانب الاتفاق بين الدول العربية فيما بينها فإنها ستشترك أيضا فى اتفاق الدول الكبرى ، وبذلك لن يكون موضعا لاتفاق الغير عليها ولن يُفرض عليها شيء .

وعندها صارحته بأنه يحق لنا أن نشك فى نوايا الغرب نحونا ، فنحن نعيش فى جو من التهديد العسكرى الشامل ونشهد حصارا يُضرب حولنا فى كل مكان ، فالرئيس فانفاني لم يتحدث بالأمس إلا عن ليبيا وعن السودان ، وقد خرجت من لديه وأمام عينى خريطة وضح لى فيها أن المقصود بهذا قطع صلاتنا الخارجية ، فعلى حدودنا الشرقية اسرائيل ، وبذلك انقطعت صلاتنا المباشرة بالدول العربية فى الشرق ، فهل نحن مطالبون بقطع صلاتنا بالمغرب العربى ثم بقلب أفريقيا فى ليبيا والسودان ، وبمعنى آخر هل يسعى الغرب إلى محاصرتنا ؟ إذا كانت هذه هى النية فإنى أؤكد لك ألا نتيجة لها غير الفشل ، فلا أطماع لنا لا غربا ولا جنوبا ولا فى أى اتجاه آخر. إنما للطبيعة أحكام فالنيل يصبّ من قلب أفريقيا فى البحر المتوسط ، ولم تكن الحدود قط حائلا دون إسماع صوتنا للمغرب الأقصى ، فمحاولة العزل فاشلة سلفاً لا محالة ، ونحن لا نطمع فى الغير ولكننا لا نقبل أن تتخذ الأراضى المجاورة لنا قواعد للهجوم علينا أو للتهديد به ، فالاستقرار لا يتم بالتهديد وإنما بالتراضى على المسالمة الفعلية . فلابد من إزالة القواعد العسكرية من حولنا ، ولا أقصد لبنان والأردن فالأمر بالنسبة لنا مفروغ منه ، وإنما أقصد التهديد الدائم من ليبيا ومن السودان ومن عدن ومن الخليج العربى ومن قبرص .

وإذا هو يعترض على إثارة المسألة القبرصية التى تنطوى على متاعب شائكة فبادرته بقولى إن أنصاف الحلول لا تُجدى ، فإذا كان للغرب شكوك نحونا فلدينا شكوك أكثر نحوه . والمهم فى نظرى هو القضاء على أزمة الثقة المتبادلة وإلا وقفنا فى منتصف الطريق دون الوصول إلى الاستقرار المنشود . بل إننى أرى أن إبطال التهديد من كل مكان لابد وأن يشمل إبطال التحالف الدائم بين فرنسا واسرائيل ، لاسيا وقد بلغنا أن هناك حشدا بحريا فرنسيا فى مياه اسرائيل وأن قوات فرنسية أنزلت إلى البرّ معزّزة بوحدات من المدفعية الثقيلة شوهدت فى طريق عكا ـــ طبريه . فاعترف بأنه يعلم أن الصحف الاسرائيلية قد نشرت أنه من

المتوقع تعزيز التحالف بين فرنسا واسرائيل لكنه لاعلم له بماسقته من أنباء ، وأنه سيتوجه فى الغد إلى باريس مع الرئيس فانفانى وسيحاول التأكد من صحة هذه المعلومات التى لاشك تدعو للقلق إن كانت صحيحة وتزيد من تعقيد الموقف بمنطقة الشرق الأوسط .

وفى اليوم نفسه زارنى رسول موفد من قبل الرئيس جرونكى ليسألنى عما دار فى مقابلتى لفانفانى، فذكرت له أنى أعربت عن تقديرنا للجهود الدبلوماسية الايطالية ، وأن فانفانى قد أشار فى حديثه معى إلى بعض النواحى المتعلقة برحلته إلى واشنطن فى اقتضاب . وبادرته بقولى إن اسم الرئيس جرونكى قد جاء على لسان فانفانى ، فبدا علىّ الرسول الارتياح ثم سألنى : وماذا قال عنه ؟ قلت : لقد أبلغنى أن الرئيس جرونكى أبدى استياءه من بعض التصرفات التى تمت فى مصر إزاء بعض الرعايا الإيطاليين ، فإذا ارتياحه ينقلب دهشة واستنكارا وهو يعد ببحث الأمر على الفور. ثم أضاف أنه يعتقد أن هذا الموضوع لم يصدر عن رئاسة الجمهورية وإنما عن وزارة الخارجية . فقلت له : إنه قد سلّمنى مذكرة بذلك ، ولك أن تطلع عليها إذا شئت . ثم أطلعته عليها .

هكذا أصبح واضحا أن مايقوم به فانفانى هو المضى فى نفس الاتجاه الذى كانت تسعى إليه السياسة الإيطالية من قبل ، تلك السياسة التى نادى بها جرونكى وحاول بيلا تنفيذها فى حذر مشوب بالضعف ، زادت منه الأحداث الدولية التى طغت على العالم الأطلسى فى خريف ١٩٥٧ بسبب نجاح الاتحاد السوفييتى فى أكتوبر ١٩٥٧ فى إطلاق صاروخه إلى الفضاء الخارجى، بينما تصدّرت التطورات الجارية فى الشرق الأوسط وقتذاك محور التفكير السياسى والاستراتيجى فى العالم . وعلى حين كان بيلا يسعى بمشروعه إلى تحقيق مصلحة اقتصادية لبلاده ولسائر الدول الأوربية يجنى من ورائها مزايا سياسية ترمى إلى إيجاد ظروف يأمل معها أن يدير الشرق العربى وجهه شطر الغرب ، عَكَسَ فانفانى ترتيب المشروع مع تغير الغرض منها لظروف لاحيلة له فيها . فقد تغيرت الأوضاع فى الشرق الأوسط بتأثير هبّة القومية العربية ، ومن ثم غدت الأولوية معقودة للجانب السياسى من المشروع ، ولم يعد الجانب الاقتصادى منها يظفر

إلاّ بأهمية نسبية بعد أن انتهى أمل الغرب فى استقطاب الشرق العربى إلى معسكره .

وإلى جانب هذه الاعتبارات العامة فثمة اعتبارات شخصية كان لها أيضا تأثيرها فى النهج الجديد الذى مضت تتبعه السياسة الإيطالية . فقد كان پيلا خادما مطيعا لرئيس الجمهورية ، كما أنه يمثل جناح الرأسمالية داخل الحزب الديمقراطى المسيحى . هذا إلى أنه شخصية مسالمة يقيم فى الداخل أكبر وزن للرئيس جرونكى ، ولا يُقدم فى الخارج على ماقد يكدّر علاقاته بالدول الأوربية أو بالولايات المتحدة وبريطانيا . وقد حمله ضعفه هذا على عرض فكرته تلك على أمريكا أولا ، ولما قوبلت بفتور انكمش عليها ، ثم عاد فأساء بإخراجها مرة أخرى فى ظروف كانت الدول الأطلسية عنها فى شُغْلٍ شاغل فأهملتها ، كما أساء بعرضها فى اجتماع الحلف الأطلسى بباريس. وهو مايكفى وحده لإثارة الشك حول المشروع لدى الدول المقصودة به . على حين كان فانفانى قويا طموحا لايخشى معارضة جرونكى ، ولذلك حفزته عوامل المنافسة بينهما إلى محاولة النجاح حيث فشل سلفه ، وإلى الوصول إلى أبعد مما كان يرجوه جرونكى ، وكان إلى جانب هذا من الجناح الأيسر للحزب ، فليس لرأس المال المرتبط بفرنسا أو بريطانيا تأثير كبير عليه ، كما كان ذا همّة وحماسة لا تتوفران لپيلا . ومع ذلك لزم الحرص بعد أن لمس فشل پيلا لدى الأمريكيين فلم يتقدم إليهم بما يمكن أن يسمى مشروعا وإنما اكتفى بالإيحاء بأفكاره . ثم إن ثمة فارقا جوهريا آخر فى أسلوب الرجلين ، فبينما لم ير پيلا استشارتنا قبل أن يتقدم بمشروعه ، لم يكتف فانفانى باستشارتنا فحسب بل تبنّى آراءنا إلى حدما . وهكذا على حين كان پيلا قانعا باستمالة الغرب فحسب إلى مشروعه لجأ فانفانى إلى استمالة الغرب والشرق العربى معا إليه . وبينما كان پيلا يرجو أن يغدو مفوّض الغرب كان فانفانى يرجو أن يصبح وسيطا بين الشرق العربى والغرب فى عقد صفقة بينهما . وكان فى الأسلوب الذى انتهجه فانفانى مصلحة لنا ، ومن ثم بات واجبا تشجيعه على المضى فيه أو على الأقل لانعمل على تثبيط عزيمته حتى تتحرّر السياسة الإيطالية بعض الشىء من السيطرة الثنائية التى تفرضها الولايات المتحدة وبريطانيا على كافة أعضاء الحلف الأطلسى . ولمصلحتنا فى ذلك وجهان : وجه خاص أو محلّى فى النطاق الإيطالى :

ووجه عام يتعلق بمبدأ أساسى وهو العمل على إبطال الأحلاف وهو ما يقتضى بذل الجهد لإضعافها .

على أن مهمة فانفانى فى واشنطن لم تصادف النجاح الذى كان يأمله ، الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه أمامنا للتنديد بسياسة دالاس لديه على الرغم من ولائه لأمريكا . كما أن إحساسه بالإحباط حمله على مضاعفة سعيه لدينا ، وهو مايفسّر إلحاحه فى حثّنا على تبليغ أيزنهاور رسالة مطمئنة ، فلو تكلّل مسعاه معنا بالنجاح لاستعاد مكانته فى واشنطن ودرأ عن نفسه خطر منافسة خصمه « شِلْباً » له بين دوائر الخارجية الأمريكية . وهكذا باتت ضغينة دالاس ضد مصر تخدمها لأول مرة فى الجبهة الإيطالية المحلية إذ وفّر لها ظروفا تكتيكية مواتية ، ولكل موقف سلبى وجه إيجابى على المرء أن يدركه فيستغله لصالحه .

وعلى ضوء المعلومات التى توفرت لى ، وما لمسته من اتجاه نحو الوصول إلى حلول جزئية ومؤقتة للمشاكل تحقيقا للاستقرار فى الشرق الأوسط بثُّ مؤمنا أن مصلحتنا تكمن فى مواجهة تلك المشاكل لا بوصفها جزئيات وإنما باعتبارها عناصر مختلفة لمشكلة واحدة هى تحرّر الشرق الأوسط العربى وتيسير أسباب الاتحاد بين شعوبه . وخرجت من حديثى الذى بسطتُ فيه الموقف للرئيس عبد الناصر عند لقائى به فى برج العرب بأن لنا المصلحة كل المصلحة فى الحفاظ على مواصلة الحوار مع الحكومة الإيطالية ، كما أن المصلحة تقتضى منا التباطؤ مع الحرص على عدم تثبيط عزيمة محدثينا أو إثارة اليأس فى نفوسهم ، وأن يظل الاتصال غير علنى ، فهذا من شأنه أن يزيل لدى الجانب الآخر أى تعنّت أو تصلّب مبعثه الكبرياء ، وأن نتمسك بأن تكون الحلول شاملة ، وألا نضحّى بأى قدر من مصالح أخوتنا الفلسطينيين أو الجزائريين ، وما على الغرب إلا المعاونة فى إعداد حلول عملية عادلة لمشكلتى فلسطين والجزائر كنتيجة لاعترافه بالقومية العربية ، وأن حياد لبنان يجب أن يكون قبل كل شىء لخدمة المصالح العربية لا عقبة فى سبيلها ، وألا يتم اتفاق قهراً أو من خلف ظهورنا ، فلا التزام علينا إلا فيما اشتركنا بأنفسنا فى إقراره . هذا إلى أن إقرار السلام يقتضى كنتيجة له إبطال حلف بغداد بالنسبة لكافة الدول العربية . وأخيرا أنه لتقرير معونة اقتصادية على أسس عادلة ينبغى التمسك بقدر الإمكان بتوزيعها على أساس تعداد السكان . واقترحت فى

النهاية دعوة فانفانى إلى القاهرة فوافق الرئيس على أن أقوم بتوجيه الدعوة إليه لدى عودتى إلى روما كما أيد جهودى فى متابعة هذه السياسة ، وحمّلنى هديتين رمزيتين إلى كل من الرئيس جرونكى والرئيس فانفانى .

وفى الثالث من أغسطس التقيت بأحد كبار المسئولين الإيطاليين على مائدة العشاء ووجدته على غير عادته مكتئبا حزينا إلى أن أفضى الىّ بأنهم تلقوا من سفرائهم فى واشنطن ولندن مايفيد بأن الأمريكيين يخدعون الإيطاليين ، وأنهم يقلدون المشروعات الإيطالية الخاصة بالشرق الأوسط تقليدا أعمى ، وأنه قد آن الأوان لإعادة النظر فى النتائج التى وصلوا إليها فى مباحثاتهم مع دالاس إلى أن اندفع يقول ساخطا « لن نخسر شيئا لوبدأنا سياسة أكثر تحررا فالاتفاق بين الحلفاء أمر مشكوك فيه » . كما أبلغنى أن ثمة اتصالات أمريكية تجرى مع الرؤساء الجدد فى عراق ما بعد الثورة فى محاولة للتقرب منهم ، كما أن إيطاليا تحاول اتباع سياسة حيادية إزاء القومية العربية عربونا للتفاهم الودّى مع عبدالناصر رغما عن نية الأمريكيين المعقودة على عدم سحب قواتهم من لبنان فى الوقت الحاضر .

وفى هذا مايفسر ما أبلغنى به فانفانى من أنه اكتفى بالإيحاء ببعض الآراء المفيدة إلى الأمريكيين ، ولكنه لم يكن يتوقع — على حد قول محدثى — أن يسطوا عليها ويقدموها على أنها مشروع منسوب إليهم ، الأمر الذى يثبت وجود خلاف مستتر بين إيطاليا والولايات المتحدة ، فمنذ شهور قليلة أيضا أحبط دالاس مشروع الوزير بيلا بشأن الشرق الأوسط ، وينم هذا الخلاف عن سياسة أمريكية ثابتة مبعثها الأنانية . والإيطاليون قوم عاطفيون سريعو الإحساس بجرح كرامتهم وإن دعتهم حاجتهم لأمريكا إلى السكوت فليس معنى ذلك أنهم قد نسوا الإهانة . وواقع الأمر أن بريطانيا والولايات المتحدة يشكلان سلطة ثنائية « ديريكتوار» خاصة داخل حلف الاطلسى لا تقبل حقوقا أومصالح غربية فى الشرق الأوسط سوى ما كانت خاصة بها ، فبعد أن نجحت فى استبعاد فرنسا التفتت نحو ايطاليا محاولة قطع الطريق عليها .

وفى التاسع من أغسطس ١٩٥٨ كان ثمة لقاء بين السنيور فانفانى وجولداماير ، وقد قدّر الله للسفارة المصرية أن تقع على ما كان بينهما فإذا

أنا بين يدى وثيقة سرية إيطالية لما دار بينهما من حديث وهذا نصّه الحرفىّ بعد ترجمته :

« بعد أن شكرت جولداماير الحكومة الإيطالية على إتاحة الفرصة لها لتبادل الرأى فى المسائل الهامة الجارية قالت : إن إسرائيل لا تعارض إطلاقا فى قيام القومية العربية السليمة التى لا تشوبها شائبة ، فللعرب إذا أحبوا أن يتحدوا فيما بينهم فهذا شأنهم ، ولا تمانع اسرائيل فى الحركة الاتحادية بين العرب إذا تم هذا الاتحاد طبقا لرغبة الشعوب نفسها وكان تلقائيا غير موجّه من دولة أوليس بإيعاز من شخص معين أو بفعله . لذلك ينبغى على الغرب أن يفرّق بين القومية العربية التى تتمثل فيها الأمانى العربية المشروعة وبين « الناصرية » التى تتمثل فيها أطماع شخصية ورغبة فى التوسع والسيطرة على الغير. وإذا استمر الغرب فى الخلط بين هذين الأمرين ظل احتمال وقوع حرب عامة قائما . وقد كشف الرئيس عبدالناصر عن نواياه فى كتاب له ضمّنه فلسفة الثورة وآراءه السياسية على نحو ما فعل هتلرتماما ، ولكن الغرب لم يصدق عبد الناصر ولم يأخذ كتابه بصورة جدّية ، وكان الغرب فى هذا مخطئا خطأ كبيرا لأن عبد الناصر بنفسه هو الخطر، لا بسبب قوته أو إمكانياته وإنما بسبب أخيه الأكبر خروتشوف وقوة روسيا السوفييتية .

وقالت جولداماير إن إسرائيل تتوق للسلام ولا تبغى سواه لأنها مقتنعة بأنها لن تكسب شيئا من الحرب ، إلا أن لديها أسبابا تحملها على أن الاتحاد السوفييتى يريد أن يتخلّص منها . فإسرائيل وتركيا هما الدولتان الوحيدتان من دول الشرق الأوسط اللتان لا يمكن غزوهما من الداخل لأن اسرائيل دولة ديموقراطية حقا تسقط فيها الحكومات داخل البرلمان لا نتيجة ثورة أو حركة داخلية .

وأضافت جولداماير قائلة إن الشرق الأوسط لم يفقد بعدُ كله ، فإن لبنان قد أنْقِذ فى اللحظة الأخيرة بفضل الولايات المتحدة ، وكذلك الأردن بفضل البريطانيين ، ولكن إلى متى ؟ وما الذى يحدث فى الأردن بعد خروج البريطانيين منه ؟ والإجابة على ذلك سهلة فيكفينا أن ننظر إلى ماحدث فى العراق . وبمناسبة العراق تجدر الإشارة إلى إيران وضعف الحالة فيها الأمر الذى يجعلها بدورها سهلة السقوط .

وقالت : إن الرئيس عبد الناصر وإن كان قد كشف عن سياسته الفعلية فى الشرق الأوسط إلا أنه لم يبدأ بعد فصلا آخر من فصول أطماعه ، ألا وهو سياسته الأفريقية . وكلنا يعلم محاولاته فى السودان التى أوقفتها يقظة رئيس الحكومة السودانية الذى أظهر شجاعة وحزما ، وكلنا يعلم كذلك مخاوف الحبشة منه . وهذه

كلها مظاهر لسياسة عامة خطيرة بالنسبة لنا جميعا ستشتد وطأتها علينا إذا أخطا الغرب فى إدارك مداها، وعماد السياسة «المصرية» والدعاية «المصرية.» البعثات التعليمية والمدرّسون.

ثم انتقلت جولدا مايربالحديث إلى نقطة أخرى فقالت: لا الغرب ولا روسيا يريدان الحرب، وفى ذلك ـ على مايبدوـ أسس صالحة للوصول إلى اتفاق بين الكتلتين. غيرأنه لا يمكن عقد اتفاق بصورة مجدية إلا اذا وضع الغرب شرطا أساسيا له يكون واضحا كل الوضوح: بأن يقول الغرب للاتحاد السوفييتى إذا أقدمتم على المساس بدولة من دول الشرق الأوسط تدخلنا على الفور، والمطلوب بذلك هوأن لايترك لروسيا مجالا للشك فى جدية تحذير الغرب لها، وفى نفس الوقت توفير الضمانات لدول الشرق الأوسط التى مازالت حرة. ثم إن حلا نهائيا وواقعيا إذا ما وقع سيكون تحقيقه أمرا شاقا وطويلا، وإن أفضل الحلول فى نظرى أن تتبع مع إسرائيل سياسة البذل والعطاء لتأمينها وتمكينها من الدفاع عن أراضيها الأمر الذى ستضطر إليه اضطرارا، ولذلك فإنى أرى الحل فى منح إسرائيل الضفة الأخرى من الأردن مع شريط موازلها من الأرض.

وأردفت قائلة: إن الغرب قد ارتكب فيا مضى أخطاء كثيرة فى إدراك نفسية شعوب الشرق الأوسط وبالتالى فى التعاون معها، فكانت تلك الأخطاء من الأسباب التى أدت إلى تفاقم الحالة فى المنطقة. ويبدوأن الغرب لم يكتسب خبرة فى هذا الميدان، فلنأخذ مثلا المعونة الاقتصادية التى هى حديث اليوم، فالمفروض إذا كان الغرب قد اتعظ بأخطائه السابقة أن يبدأ بتقديم المعونة إلى الدول الحرة ثم إلى الدول التى مازالت فيها بقية من الحرية. وأخيرا ـ وأخيرا فقط ـ إلى الدول الواقعة تحت نفوذ الناصرية التى يؤمل فى تحريرها، غيرأن الظاهرأن الاتجاه عكسى، وهو أمريدعوللأسف.

وانتقلت جولدامايربعد ذلك إلى الحديث عن النظام الجديد فى العراق فقالت: إن القائمين بالأمر فيه حاليا لن يفصحوا عن اتجاهاتهم الحقيقية بحال من الأحوال، ولن يكشفوا عن سياستهم ولن يتحدثوا عن استعدادهم للتعاون مع الاتحاد السوفييتى، كما أنهم لن يظهروا مدى تعاونهم الحقيقى مع الناصرية، بل يحتم عليهم المنطق أن يتظاهروا بأنهم لايعادون الغرب وألا يسرعوا إلى إعلان خروجهم من حلف بغداد، وذلك لسبب بسيط هوأنهم لن يشربوا البترول الذى ينتجه العراق، فهم لذلك فى حاجة ماسة الى تصديره للغرب، إلا أن ماتضمره الصدورلايحتاج إلى

إفصاح . وعلى الغرب أن يتخذ حذره لأى احتمال ، و يكفينى دليلا على ذلك الاستقبال الشعبى الحماسي الذى استُقبل به السفير السوفييتى فى بغداد عند وصوله اليها .

وقد أجاب الرئيس فانفانى على جولداماير فقال :

إنه استمع اليها فى اهتمام بالغ فيا سردته عن الأحوال العامة فى منطقة الشرق الأوسط وقال إنه يعلم ، بل والعالم كله يعلم ، أن اسرائيل حقيقة قائمة فى تلك المنطقة التى تكثر فيها الظروف التى يحتمل معها وقوع نزاع بين اسرائيل والعرب . ثم نبّهها إلى أن نزاعا مثل هذا لن ينحصر بين الطرفين فيكون نزاعا محليا ، إنما يغلب على الظن أنه سوف يتفاقم و يتطور إلى حرب عامة تُستدرج إليها الدول العظمى ، وأوضح لها أن إيطاليا دولة تحب السلام وتعلم أنها لن تكسب شيئًا من الحرب ، وقال إنه شخصيا قام فى سنة ١٩٥٦ بزيارة واشنطون لدعوة الولايات المتحدة للعمل على صون السلام ، وأن الواجب فى الحروب ألاّ يشرع المرء فيها إذا لم يكن مستعدا للمضى بها حتى النهاية ، وأضاف أنه نصح بعدم البدء فى حرب وقتئذ لاينتظر لها أن تسير إلى نهاية الشوط ولكن أحدا لم يستمع إليه ، فقد كانت بر يطانيا تأمل فى اندلاع ثورة داخلية فى مصر، وكان الدرس بعد ذلك قاسيا ولكنه لايخلومن فائدة لو اعتبرت به الدول .

وقال فانفانى : إنه كان من الممكن مثلا عدم الذهاب إلى لبنان أوالأردن، فعلى المرء أن يفكر فى الخروج من هناك قبل أن يشرع فى الدخول . وكان الواجب أن توضع للانسحاب خطة لا تقل دقة عن خطة الدخول ، وإلا فإن المنطق يدلّنا على أن الانسحاب من الشرق الأوسط لن يكون إلا بثمن يُدفع له ، وهذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها أن يكون الغرب فى موقف يسمح له بطلب شىء من الروس ، وكل الشواهد تدل على أن الثمن المطلوب أداؤه هو الوصول إلى حل سياسى للموقف العام فى الشرق الأوسط .

ثم استطرد فانفانى فقال : لقد جرى حديث حول اجتماع الأقطاب ، ورأت فرنسا مثلا أن تؤيد ضرورة عقد مثل هذا الاجتماع . وكانت فى ذلك مجازفات عديدة : فبالنسبة لفرنسا قد تُثار مسألة الجزائر، وبالنسبة للأنجلوسكسونيين قد تُثار مسألة ألمانيا وتوحيدها ، وبالنسبة للحلفاء جميعا قد يعمد خروتشوف إلى استدراجهم إلى اجتماع كان المفروض أن تُنظر فيه مشاكل الشرق الأوسط فيباغهم بطرح كافة المشاكل القائمة بين الشرق والغرب و يكون هو بطبيعة الحال مستعدا تمام الاستعداد للاجتماع بينما يكون الحلفاء على غير استعداد له .

وقال فانفانى : إن روسيا قد حاولت اقتحام الغرب عبر برلين ، ولما لم تتمكن من ذلك فطنت إلى إمكان الالتفاف من جنوب أوروبا عبر الشرق الأوسط . والواقع أن لروسيا وجودا فعليا فى الشرق الأوسط ، ولذلك لا يمكن الاعتقاد بأن المقصود من عمليات إنزال الجنود فى لبنان أو الأردن هو منع الروس من دخول المنطقة فهم موجودون فعلا فيها . وعلى ذلك لا يمكن تفسير العمليات العسكرية إلا أنها لمنع اتساع النفوذ أو المصالح الروسية ، ولا وسيلة للحيلولة دون المتاعب فى الشرق الأوسط إلا بالعمل المشترك فى نطاق الأمم المتحدة وفى هذا النطاق وحده ، مع الاكتفاء بمناقشة المسائل المتعلقة بالشرق الأوسط دون غيرها . وإذا أردنا كشف السياسة الروسية على حقيقتها فينبغى أن نطلب من روسيا أن لا تقحم المسألة التركية ضمن المناقشات وأن تقبل على العكس إدخال المسألة الاسرائيلية .

وأضاف فانفانى قائلا : من الواضح أن الحلول الممكنة بالنسبة للبنان والأردن لا يمكن إلا أن تكون حلولا مؤقته ، وإن كان من الممكن فصل المسألة اللبنانية ـــ إلى حد ما ـــ عن سائر المسائل فى الشرق الأوسط ، غير أن تشبيه لبنان بسويسرا يُعتبر خطأ كبيرا فى تقدير الأمور، فينبغى أن لا نخلط بين شجر الأرز وشجر الصنوبر. أما الأردن فلا يُتصور أن يكون الحل بالنسبة له إلا حلاً مؤقتا اللهم إلا إذا أمكن الوصول إلى حل المشكلة العامة للشرق الأوسط أولا وكذلك مشكلة العلاقات بين العرب واسرائيل .

وهذه المشكلة الأخيرة لها أوجه ثلاثة : أولها مشكلة اللاجئين ، ثم مسألة العلاقات بين إسرائيل والأردن وأخيرا المسألة العامة المتعلقة بعلاقات اسرائيل بسائر الدول العربية . ولا يمكن اعتبار اتفاقية الهدنة حلا حقيقيا للمشكلة ، فالحل الحقيقى أكثر تعقيدا ويمكن الوصول إليه بعقد اتفاق بين دول الشرق الأوسط تلتزم بمقتضاه بعدم التدخل فى شئون بعضها البعض . ثم عقد اتفاق بين الدول الخارجة عن منطقة الشرق الأوسط التى لها مصالح مباشرة فيها ينص على نفس الالتزامات وتكون روسيا ضمن أطراف هذا الاتفاق .

هذا من الناحية السياسية ، ويأتى بعد ذلك حل اقتصادى يتم باتفاق الدول المنصوص عليها فى الاتفاقين لتكوين صندوق مشترك يستخدم لإنعاش الحياة الاقتصادية فى المنطقة بشراء المنتجات وتصديرها ، وتوظيف رؤوس أموال واستثمارها لآجال طويلة ، وإيجاد عمل للاجئين الفلسطينيين لتحسين أحوالهم اقتصاديا واجتماعيا . على أن يكون من حق الإدارة المشرفة على الصندوق المشترك أن توقف المعونة عن الدولة أو الدول التى تخل بشرط من شروط الاتفاقات السابق ذكرها .

وأضاف فانفاني أن هذا فى نظره أسلم الحلول لأنه يقوم على اعتبارات إنسانية ومنطقية . ثم استطرد قائلا إن إيطاليا هي الأخرى تعدّ القومية العربية حقيقة تاريخية قائمة ، وأنه من العبث التفكير فى وقفها أو القضاء عليها بل إن هذا يكون متنافيا مع أبسط أصول السياسة ، فالحركات التى من هذا النوع لا تقاوم ومن الأفضل عدم التعرض لها حتى لا تتفجّر فتخرج عن تطورها الطبيعى .

وختم فانفانى حديثه بأنه آخذٌ حذره مما عبّرت عنه جولدا مايربالناصرية ، إلا أنه يرى من الواجب مساعدة القومية العربية لأسباب كثيرة : منها سلب روسيا ماتدعيه من أنها الصديق الأوحد للقومية العربية . وقال إن ديجول وأديناور وافقاه على ذلك ويشاركانه هذا الرأى ، وأن هذا ما قاله لسفير الجمهورية العربية المتحدة بروما الموجود الآن فى القاهرة ، وأنه أوضح له أن إسرائيل حقيقة كسائر الحقائق القائمة فى الشرق الأوسط .

ثم استأنفت جولدا ماير الحديث فسردت فى اقتضاب تاريخ المسألة الفلسطينية ، وكيف أن قرارات الأمم المتحدة كانت لدويلة عربية لم تر الوجود ، وأن الدول العربية هى التى عرقلت كل شىء بإسراعها إلى محاربة اسرائيل وأنها خسرت الحرب فتغيرت الأوضاع بالتالى ، بل إن الخطاب الذى ألقاه إيدن فى « جيلدهول » فى خريف سنة ١٩٥٥ عن إمكان الوصول إلى حل وسط يحمل اسرائيل على تعديل حدودها أصبح غير ذى موضوع ، فقد تحركت الأمور بل تغيرت تغييرا شاملا بما لم يعد معه محل فى الرجوع إلى اقتراح إيدن .

وقالت جولدا ماير إنها توافق على ما ذكره الرئيس فانفانى عن الضمانات ، لكنها تساءلت عما يحدث إذا سقط الأردن صريعا للناصرية ؟ وبادرت إلى القول بأن إسرائيل فى هذه الحالة ستضطر على الرغم منها إلى الإسراع لاحتلال القدس القديمة للوصول إلى ضفاف نهر الأردن لحماية نفسها إزاء الخطر الداهم الذى سيهددها من كافة حدودها ، وعقّبت بأنه يمكن تهيئة نظام دولى بالنسبة للقدس القديمة .

وقالت جولدا ماير أن إسرائيل لا يمكنها استيعاب جزء من اللاجئين العرب فلديها مايكفيها من الأقلية العربية ، وكل ما يمكنها عمله هو قبول عشرة آلاف لاجىء لهم أقارب داخل اسرائيل ، ولم تستبعد فى نهاية الأمر إمكان إعادة النظر فى مسألة الحدود .

وفى نهاية اللقاء طلبت جولدا مايربطريقة غيرمباشرة العمل على تسهيل تنفيذ بعض العقود المبرمة لتوريد بعض الأسلحة الخفيفة لاسرائيل ، فأجابها الرئيس فانفانى أنه يعلم أن هذه العقود تسيرفى مجراها الطبيعى » .

وقد تبيّن لى من هذا اللقاء أن المحادثات كانت لمجرد استطلاع آراء الحكومة الإيطالية وإثبات اسرائيل لوجودها حيث باتت شديدة القلق من جراء انتشار القومية العربية ونجاحها ، كما أن اسرائيل قد أحست بأن الدول العظمى تتأهب للتفاهم مع العرب وترى أنها أصبحت فى عزلة لا تطمئن إليها . وفى تعليقى على هذا اللقاء أوضحت للقاهرة أن إسرائيل قد أسْقِط فى يدها ، وأنها لم تعد تعارض القومية العربية بعد اقتناع العالم بها ، ولكنها تعمد إلى بلبلة الأفكار بإثارة ماتدّعيه من أن الناصرية مبدأ تختفى وراءه أطماع مصرية صرفة .

ويبدو أن اسرائيل قد استعدت لليوم الذى تتحرر فيه الشعوب العربية فى الشرق الأوسط وتتحد ، وأنها تشعر بأن ليس فى مقدورها مواجهة ذلك الموقف . ولذلك عمدت إلى تحويل مخاوف الحكومات الغربية إلى الميدان الأفريقى بمفتريات عن السياسة الناصرية فى تلك القارة ، لاسيا أن الدول الأوربية تنظر إلى أفريقيا بأنها المجال الوحيد الذى يسمح لهذه الدول بالوقوف على قدميها بين العملاق السوفييتى والعملاق الأمريكى . كما أن اسرائيل تحاول أن تظهر أمام الغرب بأنها الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى يمكنهم الاعتماد عليها وأن الاتحاد السوفييتى يعمل جاهدا على إزالتها من الوجود . كما أن الحديث عن ضعف إيران واحتمال اجتياح حركة قومية لها ، يُقصد به أن يبقى الغرب على الحلف المركزى بل ويعمل على تقويته . وتحاول إسرائيل زيادة مخاوف الغرب نحو القومية العربية بطريق غيرمباشر بعدما لمسته من اقتناع الغرب بها ، وذلك بإثارة الشكوك حول موقف المسئولين عن النظام الجديد فى العراق ، كما تحاول منع المعونة الاقتصادية عنا أوتقليلها قدر الإمكان .

وتطلب اسرائيل ضمان الدول الغربية لكيانها وحدودها ، بل إنها تطلب إقرار مبدأ حق الغرب فى التدخل إذا بلغ تقارب روسيا من إحدى الدول العربية حدّا يشكّل تهديدا لها . وتستعد اسرائيل لابتلاع الأجزاء العربية الباقية من أرض فلسطين وتأمل فى سكوت الدول على ذلك بتدويل المدينة القديمة فى القدس .

ولا تخرج اسرائيل على موقفها السابق من مشكلة اللاجئين ، وكان واضحا أن فانفانى يحذّر صادقا إسرائيل من القيام بأية مخاطرة تكون نتيجتها حرب عامة . وكذا كانت إيطاليا تعتقد أن إنزال الجنود فى لبنان والأردن من الأخطاء التى يجب تداركها ، وأنه لايمكن إسباغ نظام حيادى تام على لبنان ، وأن استمرار الأردن على ما هو عليه أمر مستحيل ، كما تعمل إيطاليا للوصول إلى إنهاء النزاع بين العرب وإسرائيل ، وتعتقد أن عدول إسرائيل عن تشدّدها من شأنه أن يسهّل حل المشكلة حلانهائيا .

ولقد أكّدت هذه الوثيقة أن ما أفضى إلىّ به الرئيس فانفانى بشأن الشرق الأوسط فى مقابلتى السابقة له يطابق فى مجموعة ماقاله لجولداماير ، وهو مازادنى ثقة فى أمانة الرجل . وفى أعقاب إرسال هذه الوثيقة المصحوبة بتعليقاتى إلى رئيس الجمهورية وصلتنى رسالة خطّية عاجلة من السيد حسين ذو الفقار صبرى المستشار السياسى لرئيس الجمهورية هذا نصّها :

«إننا هنا جميعا نشكرك على هذا المجهود الرائع ، ولكن نرجوك أن تلاحظ عدم إرسال مثل هذه المعلومات إلى الخارجية لأننا لانضمن محافظتها على سرّيتها التامة فتفقد مصدرا من أهم مصادرك . نرجو أن تُقصر إرسال هذه المعلومات إلينا فى الرئاسة إلىّ والى «على» فقط مع خالص تحياتى وشد حيلك فإن نشاطك مذهل ومريع وربنا يقوّيك يابطل» .

وكنت فور عودتى من القاهرة قد أرسلت هدية الرئيس عبدالناصر الرمزية إلى الرئيس جرونكى ، فأوفد إلىّ فى الحال مستشاره السياسى الوزير شيبيكو شاكرا هذه اللفتة التى أراد رئيسنا أن يعرب بها للرئيس جرونكى عن شعوره الطيب نحو شخصه وعن تقديره للخدمات التى تؤديها الحكومة الإيطالية بإرشاده الحكيم لقضية السلام وتفهّمها الواعى للقومية العربية الناهضة وحرصها على احترامها والتعاون معها .

وقد أثار الوزير شيبيكو موضوع الرعايا الإيطاليين وأبدى شيئا من القلق بالنسبة لمستقبلهم . فقلت له إن الرئيس فانفانى كان قد سلّمنى قبل سفرى إلى القاهرة مذكرة ضمّنها بعض المسائل المعلقة بيننا وبينكم ، وقد عدت إلى روما بحلول أعتقد أنها ستدعو الرئيس فانفانى إلى الارتياح لأنها حلول عملية . أما

المسائل التى من شأنها أن تمسّ أمن الدولة فلها وضع خاص ، وسأشرح للرئيس فانفانى الذى سأقابله بعد أقل من ساعة أننا استجبنا إلى معظم طلباته بتقديم حلول عملية روعيت فيها مصالحنا ومصالحكم . فأبدى ارتياحه لما سمعه ، وكرر الإعراب عن شكر الرئيس جرونكى وتحيته الرئيس عبدالناصر ، وقال أنه لولا أن الرئيس جرونكى مسافر بعد أربعة أيام لزيارة البرازيل زيارة رسمية لكان قد استقبلنى على الفور لإبلاغى بنفسه ما كلفه به اليوم وأنه يود أن يرانى عقب عودته من رحلته .

كذلك استقبلنى السنيور فانفانى بمكتبه يوم ٣٠ أغسطس حيث أعرب عن تقديره لتصريح كنت قد أدليت به عند عودتى إلى روما وقصدت به تهيئة جو عام من التفاهم الودى وقال أنه يستبشر به خيرا ، كما أغرب عن امتنانه للهدية الرمزية التى أرسلها اليه الرئيس عبدالناصر ، فشكرته وقلت :

إن الرئيس تلقى رسالتك ببالغ الاهتمام وقد كلفنى أن أحمل إليك تحيته وأن أعرب لك عن شعوره الودى وكذلك عن تقديره للخدمات التى أدتها الحكومة الإيطالية لقضية السلام . وهو يؤكد لكم على لسانى الأهمية الكبرى التى يعلقها عليكم شخصيا لكى يستقر السلام فى كل مكان و بنوع خاص فى الشرق الأوسط والبحر المتوسط ، وفى رأيه أن فى وسع إيطاليا الصديقة أن تقوم بدورها فى هذه المنطقة من العالم التى تجمعنا وإياكم ، وأنه يرحب بالاجتماع بكم فى مصر لتبادل وجهات النظر معكم ولبحث التعاون الممكن بين البلدين على أسس ودية راسخة ، وقد لاحظ الرئيس بارتياح مساهمة السياسة الإيطالية الناجحة فى تهدئة الحالة الدولية ، وفى تقديره أن إيطاليا القريبة من العالم العربى والتى تربطها بالجمهورية العربية المتحدة صداقة تقليدية والتى اتسمت سياستها بطابع الواقعية يمكنها أن تؤدى دورا إيجابيا ممتازا لإشاعة روح التفاهم . وأن الرئيس يود أن يبين لكمُ أن التيارات الكبرى التى تجتاح العالم العربى اليوم إنما هى صادرة من ضمير الأمة العربية نفسها ، وهى ظاهرة تلقائية وإجماعية وصميمة ، تعبر عن أمانى هذه الأمة وتستجيب لحاجتها ، وليس هناك اعتبار يسمح بإرجاع تلك الظاهرة إلى شخص معين باعتبارها ملكا له .

إلى أن قلت : إن الرئيس يعلق أهمية كبرى على الروح التى يتم بها التعاون مع العالم العربى أيا كان مجال هذا التعاون ، وإن كان يخشى إذا وكلت إيطاليا إلى الغير تقديم أفكارها السياسية الحكيمة أن يسىء هذا الغير صنعا نتيجة لشعور عدائى أونيه سيئة . و يرغب الرئيس فى أن يقوم تعاون مباشر بين الجمهورية العربية المتحدة وإيطاليا فى ميادين كثيرة و بخاصة الفنية والاقتصادية منها . كما أنه يأمل أن ترتاحوا إلى الردود على المسائل الواردة فى مذكرتكم المؤرخة فى الخامس من أغسطس ، و يود فى النهاية أن يؤكد لكم مرة أخرى مبلغ تعلقه بالسلام ، و يرى بهذه المناسبة أن استمرار بقاء القوات الأمريكية فى لبنان من شأنه أن يثير مضاعفات نحن جميعا فى غنى عنها .

ثم سلّمته المذكرة المتضمّنة ردّنا بالنسبة للمسائل التى ترغب إيطاليا فى تصفيتها ، وكان الرئيس عبدالناصر قد استجاب لكافة المطالب التى طرحها فانفانى . وكانت ملامح الغبطة تفيض على وجهه وهويطالع المذكرة التى كان لها أثر بالغ فى نفسه ، وكلما انتهى إلى شىء يرتاح إليه هزّ رأسه منتشيا . و بعد أن فرغ من قراءتها سألنى هل أوافقه على إصدار بيان رسمى يُعرب عن ارتياحه لما جاء فى تلك المذكرة فأجبته موافقا . وإذا هو يسألنى إذا كنت أمانع فى ذكر الدعوة الموجّهة إليه أيضا ، وإذ رأيت مدى تأثره وافقته على اقتراحه إمعانا فى إرضائه ، فاستدعى مانزينى مدير مكتبه وأملاه البيان ثم سألنى رأيى فيما أملاه فأبديت ارتياحى إليه .

وقد شكر لى توجيه الدعوة إليه لزيارة مصر وسألنى عما إذا كان هناك تاريخ محدّد لإتمامها ، فأجبته بأنها دعوة مفتوحة يمكن الاتفاق سويا على تحديد الموعد المناسب لها ، فوعد باستشارة الرئيس جرونكى فى هذا الصدد وإخطارى باقتراحه فى ظرف أسبوع . ثم بادرنى لأول مرة منذ توليه السلطة بالسؤال عن الموعد الذى أراه مناسبا لدعوة الرئيس عبد الناصر لزيارة إيطاليا ، فقلت إنه يحسن الاستفهام عن ذلك منه شخصيا عند لقائه به فهو من يستطيع أن يحدد الوقت المناسب لها وحتى لايحدث أى لبس فى المستقبل مثل ماحدث فى الماضى . وحين سألنى عن أنسب الأوقات فى تقديرى لهذه الزيارة اقترحت شهر مارس أوأبريل فى ربيع عام ١٩٥٩ . فسألنى : ألايمكن تقديم الموعد عن ذلك؟ فقلت إن الأمر يتوقف

على الالتزامات التى يرتبط بها الرئيس ، فإذا هو يبادرنى بقوله : سأخطر مجلس الوزراء فى أول اجتماع بأمر هذه الزيارة . وأردف أنه يرجو أن أتصل به فى ظرف أسبوع لمعاودة الحديث فى أمر زيارته للقاهرة وزيارة الرئيس لإيطاليا .

ثم سألنى عن مصير العرض الذى كانت شركة فيات قد تقدمت به . فقلت له إننى تحدثت بشأنه مع المسئولين فى القاهرة ، وأضفت أن فى وسعه أن يلمس من رؤساء الشركة نفسها مدى التعاون الذى نقدمه لهم . قال إنه يعرف ذلك تماما لكنه يتوق إلى أن تنال الشركة هذه الفرصة فى القاهرة ، فوعدته بالتوصية من جديد .

وفى النهاية أبلغنى الرئيس فانفانى بأن السنيور راندولفو باتشاردى ــ من زعماء الحزب الجمهورى ــ سيقوم برحلة استطلاعية إلى الشرق الأوسط ، وأنه يود المرور بالقاهرة ختاما لرحلته . فاعترضت قائلا : إن الحملات المسمومة التى شنّها باتشاردى علينا فى مناسبات كثيرة مازالت عالقة بأذهان كافة المسئولين لدينا وإننى أعتقد أن ذهابه إلى القاهرة قد لا يفيد . قال إنه هو الذى أوعز شخصيا لباتشاردى بهذه الرحلة عساه يتفهّم الموقف على حقيقته ، والشواهد تدل على استعداده لتغيير آرائه . وأضاف أنه أرسل معه أحد رجاله الموثوق بهم لمصاحبته والتأثير عليه وهو أحد رجال السلك السياسى الإيطالى واسمه « كارلو ماركيورى » ثم ألحّ علىّ راجيا أن أعمل على إنجاح محاولته وكسب الرجل إلى ناحيتنا قائلا إنه واثق من أنه إذا لقى عبدالناصر فهو كفيل بأن يحوّله عن رأيه فضلا عن أنه قد هيّأه لهذه المهمة . وعاد فكرّر أن مهمة ماركيورى تنحصر فى ملازمة باتشاردى والتأثير عليه ، وأنه يرجّح أن تبدأ الرحلة فى ٦ سبتمبر لينتهى إلى القاهرة حوالى ٢٠ سبتمبر .

وإذ كان فانفانى رجلا شديد الحساسية فقد كانت للفتة عبدالناصر أحسن الوقع فى نفسه إذ أحسّ أنه موضع تقدير الرئيس وثقته ، وبهذا يكون قد نجح بفضل قدرته السياسية حيث فشل غيره . والواقع أن الفرحة التى هزّت الرئيس فانفانى أمامى لا يفسّرها من حيث مبلغها ما سلّمته من حلول لبعض المسائل المعلقة بيننا وإنما يفسرها النجاح الذى صادفه بدعوة الرئيس عبدالناصر له إذ كان ذلك مما يرفع من شأنه و يقوّى مركزه بالنسبة لأنصاره ومنافسيه وحلفائه ومعارضيه على

السواء ، فضلا عن أنها أعادت شيئا من التوازن بينه و بين الرئيس جرونكى إذ كان التنافس الخفىّ بينهما شديدا . فإذا كان جرونكى سيزور البرازيل فى القريب العاجل و يستقبل شاه إيران بعد بضعة أسابيع فإن زيارة فانفانى إلى القاهرة تفوقها من الناحية السياسية كما أنها تثبت لحلفائه الغربيين أن الأسلوب الذى تتبعه إيطاليا يلقى منا التأييد .

كذلك كان فانفانى يشعر أن الزمن قد يقف حائلا دون تحقيق أهدافه بعد أن رأى المفاوضات المالية بين مصر وفرنسا لتصفية الموقف الناجم عن العدوان الثلاثى قد انتهت إلى حلّ ، وأن المفاوضات مع بريطانيا كادت هى الأخرى أن تتم بنجاح فبات يتوجّس خيفة من أن هذا وذاك قد يضعف من شأن إيطاليا مع مصر. وكانت حكومة فانفانى مقبلة من الناحية السياسية الداخلية ومن حيث التوازن بين الأحزاب على دورة محتشدة بالعمل ، ولما كانت المعارضة قوية والأغلبية التى حصلت عليها الحكومة عند طرح الثقة بها لم تتجاوز ثمانية أصوات فقد كان الاحتفاظ بالأصوات التى نالتها واكتساب غيرها من الأصوات المعارضة أو الممتنعة أمرا بالغ الأهمية . ولذلك كان تحقيق زيارة ناجحة إلى القاهرة يقوى من مركزه داخل البرلمان ، وهذا ما يفسر إلحاحه فى قبولنا دعوة باتشاردى للقاهرة رغم علمه بمدى إساءته لنا فى تصريحاته ومقالاته السابقة .

* * *

وفى الحادى عشر من سبتمبر جاءنى چوجولدن ليصارحنى بان ناحوم جولدمان بات يرى الأوان قد آن لاتخاذ خطوة إيجابية نحو إدماج اسرائيل ضمن المنطقة العربية حتى تتبدّد كل المخاوف والمشاكل بين الجانبين و يسود المنطقة استقرار وسلام تامان . و بسط لى كيف يتم هذا الإدماج من خلال تنفيذ قرارات الأمم المتحدة عام ٤٧ ، ١٩٤٩ وهو مايمهد فى خياله لذوبان الأردن داخل الضفة الغربية مكونة دولة فلسطين التى تضم كافة اللاجئين مع الاتفاق على حدود مشتركة بين هذه الدولة ومصر على أن يقوم الاتفاق بينهما على رسم الحدود الفاصلة ، وتتحمل اسرائيل دفع التعويضات والآثار المترتبة على إنشاء الدولة على هذا النحو. وقد بدا لى الحديث غريبا منه فى الوقت الذى لم تكف فيه اسرائيل عن استفزازنا بتكديس المزيد من السلاح كما تشير إلى ذلك الصفقات الأخيرة

المعقودة مع كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا . ومضى يبرّر لى هذه الصفقات بقوله إن الخوف أسوأ ناصح ، إذ كثيرا ماترتكب الأخطاء تحت تأثير ضغط ، ثم أسرّ لى بأن هاركابى مدير المخابرات الاسرائيلية قد أفضى إليه هو ورفاقه من الضباط الشبان بأنهم باتوا لايثقون البتة فى سياسيى اسرائيل القدامى المنحدرين من يهود الجيتو، وأنه وأقرانه يضعون ثقتهم فى جيل الشباب أى الجيش ، ومن ثم فهم يشجّعون على إشاعة التوتر تحت تأثير الخوف فتكون لهم بذلك ذريعة لبقاء الجيش فى حالة تأهب متصل ، وهكذا يصبح تكديس الأسلحة فى نظر الرأى العام الإسرائيلى كله ضرورة لاغنى عنها . ثم ألمح إلى برم ناحوم جولدمان ببن جوريون واتهامه له بعدم تفهّمه لعقلية العرب وعدم إيمانه بالسلام معهم وأنه يحلم أن يحقق قبل موته حلم اسرائيل القوية المستقلة التى يلعب اسمه فى تاريخها دورا مقدسا ، مما اتضح معه عمق الصراع القائم بين جولدمان وجماعته وبين بن جوريون وأنصاره ، وأن المنافسة الشديدة بينهما قائمة على اختلاف فى مفهومهما لكيفية بقاء دولة اسرائيل وترسيخ قواعدها . وأخذتُ أستمع إلى تصوّره للخطوة الأولى التى يمكن أن تقرّب بين العرب واسرائيل والتى تتمثل فى قيام دولة عربية هامة كبرى بإعلان تصريح يزيل مخاوف الشعب اليهودى ويجعله يقتنع على الفور بعدم جدوى تبديد أمواله فى شراء السلاح وتكديسه تمهيدا للدخول فى معارك يفقد فيها أرواح الكثير من أبنائه . وإذا هو لفرط دهشتى يعرّض بالشعب الإيطالى الذى لمس تحسّن العلاقات بينه وبيننا . وقد جعلته دهشتى هذه يتراجع قليلا ليؤكد لى أن يهود العالم لن يقفوا حجر عثرة دون قيام تفاهم بين مصر والغرب ، وكأنما يبغى إقناعى بقوة تأثير اليهود على نطاق العالم كله وامتداد نفوذهم فى مختلف المجالات ، وهو ما أكده بصراحة حين راح يحدثنى عن وقوع أديناور مستشار ألمانيا الغربية تحت تأثير جولدمان .

وعاد إلى ذكر أن ناحوم جولدمان هو الذى أرغم بن جوريون على تنفيذ قرار الأمم المتحدة بسحب القوات الاسرائيلية من غزة فى أعقاب العدوان . ومضى يؤكد لى أن بن جوريون يعتمد فى حكم اسرائيل على نظام بوليسى إرهابى حفزه إلى التعجيل بإجراء الانتخابات العامة فى اسرائيل فى موعد مبكر خلال عام ١٩٥٨ بدلا من العام التالى قبل أن تتوقف التعويضات الألمانية وتنتهى معها

حالة الرخاء المصطنع وتسقط إسرائيل فى وهدة الأوضاع الاقتصادية المتدهورة . ولهذا فإن جولدمان يرغب فى أن يلعب دورا فعالا فى السياسة الاسرائيلية ، وأنه قد قضى بالفعل الشهور الستة الأخيرة فى اسرائيل مناهضا سياسة بن جور يون المبنية على استبعاد قيام السلام مع الدول العربية . و بناء على ذلك يرى جولدمان أنه إذا كان لدى مصر وهى الدولة ذات التأثير الحاسم فى الموقف العربى استعداد لتقبل قيام السلام والاستقرار فهو أيضا على استعداد لأن يقوم بخطوة إيجابية فى هذا المجال تتمثل فى تنازله الفورى عن جنسيته الأمر يكية والتقدم لخوض معركة الانتخابات القادمة ضد بن جور يون على أساس المناداة بسياسة جديدة تجاه الدول العربية ، ولكنه يشترط فى مقابل ذلك أن تقوم مصر بإعداد الرأى العام العربى لخطوة إقرار السلام مع اسرائيل .

وأشار جولدن من جديد إلى استعداد جولدمان لمقابلة الرئيس عبد الناصر أينما وحسبما يرى ، وكان جولدمان قد أعرب علنا عن هذا الاتجاه فى حديث أدلى به إلى مجلة إكسبرس الفرنسية (مايو ١٩٥٨) بمناسبة العيد العاشر لقيام اسرائيل تتضح منه آراؤه وأهدافه والدوافع التى تحركه . وقد حرصت على توجيه أنظار القاهرة إلى هذا الحديث للوقوف على آراء جولدمان التفصيلية عند تقديرها للموقف . فقد صرّح بأن اسرائيل تمثل عنصرا غريبا على المنطقة ، وأن وضعها سيظل غير طبيعى إلا إذا أصبحت جزءاً لايتجزأ من كيان الشرق الأوسط ، وهو الأمر الذى لن يتم دون قبول الدول العربية له . كما حذّر بأن الوقت فى صالح العرب ، متنبأ بعدم احتمال نشوب صراع مسلّح بين العرب واسرائيل خلال السنوات الثلاث التالية ، ومشيرا إلى أن الإمكانات العربية تتجاوز إمكانات اسرائيل بكثير . غير أنه ألمح إلى أنه فى حالة هجوم الدول العربية على اسرائيل فإن الولايات المتحدة الأمر يكية لن تقف مكتوفة الأيدى نظرا لوجود الجالية اليهودية بها والتى يبلغ تعدادها خمسة ملايين ونصف مليون ، فضلا عن تعاطف الأوساط النقابية والثقافية والدينية الأمر يكية مع اسرائيل ، فكلتا الدولتين تتكون من مواطنين مهاجر ين من بلادهم الأصلية تحت وطأة الاضطهاد الدينى ، وكلتاهما نشأت وترعرعت على أيدى الروّاد الذين قضوا على السكان الأصليين . على أنى لم أستبعد من خاطرى أن يكون هناك سبب آخر لم يعلنه جولدمان وهو اعتماد

الولايات المتحدة على اسرائيل كركيزة لها فى الحرب الباردة الدائرة بينها وبين الاتحاد السوفييتى فى الشرق الأوسط .

كذلك أشار جولدمان فى حديثه إلى أن تنازع الكتلتين العربيتين التقدمية والرجعية هو فى واقع الأمر أحد مظاهر الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، وأنه كلما طال أمد هذه الحرب الباردة فإن موقف السوفييت سيزداد قوة لأن الولايات المتحدة تعتمد صراحة وعلانية على حفنة من الإقطاعيين العرب فى حين أنها تهمل شأن الشعوب العربية نفسها . ولهذا فإن استمرار النزاع بين الكتلتين العربيتين يحفزهما إلى التعنّت فى موقفيهما تجاه اسرائيل حتى لا تعطى إحداهما للكتلة المضادة فرصة النيل منها والتشهير بها . ومن ثم فهو يشجع كل ما من شأنه قيام هدنة بين الكتلتين العربيتين ، ففى ذلك مايفضى إلى تخفيف غلواء عداوة كل منهما لاسرائيل .

ويخرج جولدمان من تحليله بأنه يمكن بلوغ هذا الهدف إذا وافقت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى على استبعاد الشرق الأوسط من لعبة الحرب الباردة ، بأن تتفق الدولتان على سبيل المثال على إصدار ضمان مشترك لحماية حدود دول المنطقة على غرار التصريح الثلاثى الذى صدر عن دول الغرب عام ١٩٥٠ . ولكنه يعترف فى الوقت نفسه بتعذر قبول الولايات المتحدة لهذا الحل لأنه ينطوى على اعتراف ضمنى بشرعية النفوذ السوفييتى فى الشرق الأوسط مما يعد نصرا دبلوماسيا يحرزه الاتحاد السوفييتى . ولذا اقترح أن تقتصر الخطوة الأولى على اتفاق الدولتين العظميين على وقف تصدير الأسلحة إلى الشرق الأوسط ، الأمر الذى يمهد فى نظره لتحييد المنطقة بما فيها اسرائيل . لكنه فى الوقت ذاته يشير إلى أن اتجاه اسرائيل إلى الحياد هو أقصى مايمكن أن تتخذه ، لأنها لايمكنها الانحياز إلى الكتلة الشيوعية فى ميدان السياسة الخارجية لاعتمادها الكلى على يهود الغرب ولطبيعتها الديموقراطية ، ثم مضى يوضح أن اليهودية الأمريكية لن تغفر لاسرائيل اتخاذها موقفا معاديا للكتلة الغربية لوحدث ذلك ، ولكنها ربما تسامحت إذا رأت أن اتجاه اسرائيل نحو الحياد يمهد لإقرار السلام مع العرب فى المنطقة . وينتهى جولدمان إلى تبرير هذا الاتجاه بقوله أنه حتى بن جوريون نفسه قد يرحّب بأى ضمان روسى من شأنه استقرار الأوضاع فى الشرق الأوسط .

وفى أعقاب الحديث سارع جولدن إلى إبلاغى بأن ناحوم جولدمان يرجو إذا كان الرئيس عبدالناصر يوافق على أن يعتبر الأفكار التى أدلى بها فى حديثه إلى مجلة إكسبرس أساسا يمكن البناء عليه عند أول لقاء فإنه يتعهد من جانبه بالحصول من الإسرائيليين على قبول مبدأ المباحثات ، وذلك فى سرية مطلقة .

وكان طبيعيا أن ترفض القاهرة أى اقتراح يحرم قواتها المسلحة من الحصول على السلاح اللازم لها بعد أن ثبت لها من قبل خلال حملة فلسطين ١٩٤٨ استحالة التزام اسرائيل بتنفيذ أى اتفاق ودأبها على اجتلاب السلاح من أى مكان بواسطة المنظمات الصهيونية فى الدول الغربية سرا ودون أدنى توقف . أما عن بقية العرض المقدم من جولدمان فقد رأت القاهرة فيه أنه بالرغم من جرأته الكبرى إلا أنه يجازف بتحدّى الرأى العام الغربى ، كما أرجعت مبادأته إلى اقتراب موعد انقطاع المعونات الألمانية وبرم بعض أثرياء اليهود الأمريكيين بالإعانات المتواصلة لاسرائيل دون ظهور بادرة لاستقرار اسرائيل الاقتصادى ، فضلا عن تبلور مخاوف بعض الهيئات المسيحية وبعض دوائر الصناعة الأمريكية المتحرّرة من الضغوط اليهودية وتزايد النفوذ الصهيونى فى كافة نواحى النشاط الاقتصادى والحزبى والإعلامى والدعائى مما يهدد بإخضاع السياسة الأمريكية خضوعا تاما للمصالح الصهيونية ، وكان چيمس فورستال وزير حربية الولايات المتحدة السابق أول من دق ناقوس الخطر محذرا من فداحة هذا النفوذ . ولعل هذا هو ما حفز ناحوم جولدمان إلى تصور أنّ الحل الوحيد القادر على انتشال اسرائيل من احتمالات تخلى أمريكا عنها هو المسارعة بسبق الأحداث والاتجاه بسياسة اسرائيل إلى الحياد الذى قد يثير ثائرة الغالبية من يهود أمريكا وإن لم يوقف سيل الموارد تماما . ولعله أيضا قد أدرك أن الفترة القادمة ستكون فترة عصيبة بالنسبة لاسرائيل مما حدا به إلى الإلحاح على التوصل إلى هدنة أوشبه هدنة مع الدول العربية ، وذلك بواسطة عروضه المخدّرة ، فضلا عن إمكانية استغلال المناداة بسياسة الحياد للحصول على تسهيلات سوڤييتية قد تفتح باب الهجرة ليهود شرق أوربا . ومن يدرى لعله قد لوّح للاتحاد السوفييتى بإمكانية التسلل بنفوذه إلى اسرائيل ، وكان هذا هو الخطر الوحيد الذى يهدد مشروع جولدمان بتحويل اسرائيل إلى قاعدة شيوعية فينقلب عليه ألوضع شخصيا بسيطرة الحزب الشيوعى

على الحكم فى اسرائيل . على أن جولدمان لاشك قد أقام موازينه على ضوء إمكان تحوّل اسرائيل إلى ناحية الغرب مدة أخرى بعد تداعى القومية العربية ، فلقد ظلت الدول العربية مستغرقة فى سبات عميق على مدى طويل فإذا باغتصاب فلسطين يحفز إلى يقظة القومية العربية .

وفى هذه الأثناء تأرجحت الآراء فى القاهرة بين مؤيد لمواصلة هذه اللقاءات بحذر شديد لأنها تلقى ضوءا على اتجاهات الصهيونية الخفية ، وبين معارض لها خاصة وأنى سفير معتمد ، وأنه إذا كان لابد من مواصلة هذه اللقاءات فلتكن على يد غيرى أو جهاز آخر ، وبهذا انتهت صلتى بهذا الموضوع نهائيا .

* * *

وفى الفترة ما بين ٣ و٦ اكتوبر انعقد فى مدينة فلورنسا مؤتمر البحر المتوسط[٣] الذى نظمه عمدة فلورنسا السابق البروفسور جورجيو لاپيرا أستاذ القانون الدولى وأحد الأعضاء البارزين بالحزب الديمقراطى المسيحى والصديق الشخصى للرئيس جرونكى والرئيس فانفانى . غير أن المحرك الحقيقى وراء هذا المؤتمر كان المؤتمر الصهيونى العالمى من خلال هيئة تحرير مجلة « دراسات حوض البحر المتوسط » Etudes Méditerranéennes والتى كان يمثلها فى روما چو جولدن جولان وكانت أغلبية المشتركين فى المؤتمر من الحزبين الاشتراكيين الفرنسى والاسرائيلى المترابطين ترابطا وثيقا بالإضافة إلى بعض العناصر الاشتراكية المغربية والتونسية . ومنذ البداية جرت المحاولة لصبغ المؤتمر بصبغة لقاء غير رسمى بين العرب والاسرائيليين ، وقد اختفى دور الحكومة الاسرائيلية إذ جاءت المبادرة من ناحوم جولدمان .

ومن الناحية الإيطالية كان المؤتمر يخدم هدفين فإقليم توسكانيا الذى تمثل فلورنسا عاصمته كان معقلا من معاقل الحزب الديمقراطى المسيحى السياسية القوية و يلعب دورا هاما فى الانتخابات الإيطالية ، وكانت الأنشطة الدولية للسلام جزءا من برنامج الحزب خلال معركته ضد الحزب الشيوعى . ومن ثم ظفر المؤتمر بتأييد قوى من الفاتيكان الذى أراد مع الحزب تحقيق سمعة لفلورنسا على أنها مركز عالمى لحركة السلام على غرار جنيف . وفضلا عن هذا كانت سياسة

الرئيس فانفانى تتجه كما قدمت إلى آن يلعب دورا هاما فى حوض البحر المتوسط باعثا من جديد أحد مطامع موسولينى بتكوين نوع من الاتحاد بين دول البحر المتوسط تحت رعاية إيطاليا . وقد اعترضت هذا المؤتمر عقبتان أولاهما العلاقات المتوترة بين العرب والغرب وتمثلها الحرب الفرنسية الجزائرية ، والثانية الأزمة العربية الاسرائيلية . وقد مثّل الجمهورية العربية المتحدة فى هذا المؤتمر المرحوم السفير عدلى أندراوس والمرحوم الشاعر الفنان چورچ حنين والأستاذ عادل ثابت الذين اجتمعتُ بهم فى مقر السفارة للاتفاق على الخطوط الرئيسية التى يتبعها الوفد قبل أن انتقل معهما إلى فلورنسا كمراقب . وكان الوفد المغربى برئاسة ولى العهد مولاى حسن [الملك الحسن الآن] واضح التعاطف مع اسرائيل لدرجة أنه كان على وشك الاعتراف بالوفد الاسرائيلى لولا إصرارى الشخصى على ضرورة انسحاب الوفد الاسرائيلى الرسمى حتى يأخذ المؤتمر طابعه غير الرسمى ، وإصرارى كذلك على حضور الوفد الجزائرى الذى استبعد فى يوم الافتتاح حتى اضطر بدوره الوفد الفرنسى إلى الانسحاب من المؤتمر . والظاهرة المحيّرة التى استلفتت نظرى وقتذاك هى التعاطف المغالى فيه من جانب الأمير المغربى نحو الاسرائيليين حتى أنه ذهب إلى أبعد من ذلك فوجّه الدعوة إلى جميع الحاضرين بما فيهم الاسرائيليين إلى حضور المؤتمر الذى سيعقد فى مدينة فاس ، بينما كان سلوكه تجاه الوفد المصرى يتّسم بالكثير من الفتور .

ومرّ المؤتمر بثلاث مراحل : مرحلة الافتتاح الرسمى ثم مرحلة انسحاب الوفد الاسرائيلى الرسمى الذى أثار بعض الاضطراب فى المؤتمر ولعله كان سبب وقوع البروفسور لاپيرا فريسة للمرض ، ثم المرحلة الأخيرة حين ظهر الاسرائيليون فجأة بعد أن ألقت كافة الوفود العربية كلماتها ، وذلك للإيحاء بأنهم قد تبادلوا الرأى مع أعضاء الوفود العربية .

وعلى الرغم من محاولات اسرائيل أن تضفى على المؤتمر طابع تبادل الرأى بين العرب واسرائيل فإنهم لم يبلغوا مرادهم ، وكان وفد مصر سواء الأستاذ عدلى أندراوس أو چورچ حنين أم عادل ثابت على أعلى مستوى فى تمثيله لبلاده ، فقد أظهر الجمهورية العربية بمظهر ثقافى رفيع لا يقوم على التعصب والتطرف وبيّن أن القومية العربية تنبثق من المبادىء المسيحية واليهودية الأمر الذى استقطب

تعاطف عدد كبير من الكاثوليك والمسيحيين الحاضرين وأثار حفيظة الاسرائيليين ، خاصة عندما أشار الوفد إلى أن اسرائيل هى ثمرة سياسة القوى الأوربية وأنها مادية النشأة متناقضة مع مبادىء المسيحية واليهودية . على أن علال الفاسي — من المغرب — ألقى خطابا تضمن دون داع حق اسرائيل فى قيام وطن لهم ولكن ليس بفلسطين ، فاستغل الاسرائيليون خطابه دليلا على أن العرب على استعداد للتفاوض بشأن اللاجئين الفلسطينيين ، غير أن وفد مصر انبرى معارضا مبدأ نشوء أوطان تقوم على العقيدة الدينية أو النعرة العنصرية .

ولم يكد المؤتمر ينتهى من أعماله حتى وجدتنى فى حاجة مُلحّة إلى البقاء قليلا بفلورنسا لأستمتع بما تضمّه من جمال فأسرّح الطرف فى مبانيها التى جمعت بينها الوحدة المعمارية المتّسقة والتى بدت شامخة رشيقة تطوى فى ثناياها تاريخا حافلا بعشق الفن والعنف والمجون معا . وتميزت من بينها هنا وهناك قصور جليّة المعالم تُضفى على المدينة هيبة وجلالا ينمّان عن شفافية وحسّية فى آن واحد ، وسماء صافية صفاء تلك الزهور الزرقاء التى تعمّ المدينة وهى تلف بزُرقتها بروجها الرمادية الشاخصة وقبابها الحمراء الجاثمة برداء أزرق وكأنها لوحة من تصميم فنانها الراهب فرا أنجيليكو. رحتُ أتأمل هذا الخليط المتنافر بين الماضى والحاضر الذى لا تضيق به فلورنسا التى لا يقف دون امتدادها حدود ، حيث يتّسع الوادى على ضفتى نهر الأرنو الذى يشقّها للعمران ، وتتطامن التلال على جانبيه ترحّب بكل بناء يقام على أنقاض الماضى ، وتُخلّى أزقّة العصور الوسطى الملتوية مكانها للطرق الحديثة المستقيمة . وعلى الرغم من هذه الأبهة التى جاءت مع هذا العمران فإن العين لا تزال تُؤْثِر تلك الميادين العتيقة مثل ميدان كنسية الدومو بمبنى معموديته وبرج أجراسه ، وميدان السّنْيُوريّا [السيادة] بما يضم من مبان ذات تصميمات خالدة مثل پالاتزو ڤيكيو [القصر العتيق] ، ورواق بيجالو ، ورواق حاملى الرّماح [لانزى] الذى كان ميكلانچلو يتوق إلى أن يمدّه ليلتف حول الميدان كله ، ومتحف أوفتزى الزاخر بأروع مصورات عصر النهضة الفلورنسية ، فإذا تلك المبانى الحديثة التى أقيمت إلى جوارها مما تتخطّاه العين وتزدريه ، وإذا العين مع اعتيادها تلك الأخلاط من المناظر قديمها وحديثها لا تزال عالقة بالتمثال العظيم لداوود الذى نحته ميكلانچلو و يقوم شامخا على باب « القصر العتيق » وإلى

جواره تمثال هرقل الذى نحته دُونا تللو. وكذا لا تضيق العين بازدحام رواق لانزى بالمنحوتات ، إذ حسبها منها تمثال چوديث وفى يدها السكين تذبح بها هولوفرنيس من نحت دُوناتللو العظيم ، أوتمثال البطل پيرسيوس الشديد البأس من نحت بِنْـڤنُوتُّو، كما يسترعيها سور القصر العتيق ــ رمز العنف والبطش وإراقة الدماءــ الذى شُيِّد ملاذا أمام الجيوش العادية . و يلفت الانتباه أيضا تمثال بارتولوميو كوليونى للفنان الخالد ڤيروكيو وهو يمتطى صهوة جواده وسط الميدان ، كما يجتذبه الطوار الذى أقيم عليه نصب نحاسى يحمل وجه « ساڤونارولا » إشارة إلى الموضع الذى أحْرِق فيه هذا الراهب الدومينيكانى لجرأته على رفع صوته فى وجه البابا اعتراضا على الفسق والمجون والعودة إلى الروح الوثنية .

افترشتُ عتبة كنيسة الدومو الشهيرة أسترجع مشاهد المهرجانات التى كانت تجتاز طرقات المدينة بمهرّجيها فى أقنعتهم المختلفة وثيابهم المتنوعة رافعين المشاعل ، وأتمثّل عروض المركبات بمنصّاتها تجوب الشوارع بين تهليل المواطنين وهتافاتهم ، تلك المركبات التى وضع تصميماتها أعظم فنانيهم مُسْبغين عليها كل ما يملكون من مواهب فنية مثلما كانوا يفعلون فى لوحاتهم وتماثيلهم . وأخذت أتخيّل مسيرة تلك المركبات التى كان بعضها يحكى أشهر الأساطير اليونانية ، و ينظم أشعارها لورنزو العظيم نفسه واصفا رونق الشباب بفترته العاجلة العابرة موصيا باقتناصها بقوله المأثور « ما أجمل الشباب ، ثم ما أبعده عن الأسى ، ولكن ما أسرعنا فى وأد متعاته . دع الناعمين به الآن لاهين فى بهجتهم ، فغدا سيولّى الشباب أدباره » .

وما إن يتخطّى الزائر المدينة وتقع عينه على الريف التوسكانى بخُضرته و بتشابك كرومه على سفوح تلال كيانتى و برُباه الرمادية المحتشدة بأشجار الزيتون ومواكب شجر الصنوبر وهو يطلّ عليها من تل فيوز يلى حتى يُلْفته ذلك عن التطلّع إلى ماسواه مما تضمّه المدينة ذاتها التى ما تلبث أن تتبدّى له بوجهها السافر حين يطلّ عليها من تل سان مِنْيَاتُو وهى تجارى الوادى المتحوّى لنهر الأرنو، فتتجلّى له سقوف مبانيها المنحوتة من الجبل وكأنها صخور متراصّة تتخلّلها صفوف القرميد الأحمر، وتبرز من ثناياها أبراج من رخام ، من بينها « القصر العتيق » والسقف المثمّن لمعمودية كتدرائية الدومو الذى ابتدعته عبقرية برونليسكى.

وسرعان ما تقع عين العابر لرواق « حاملى الرماح » على الجسر العتيق « پونت ڤيكيو» بأقواسه وعقوده الخلابة ، حتى إذا انتهى إلى الجسر نفسه أبصر حوانيت صائغى الحلىّ ذات الشهرة الذائعة متراصة متلاصقة بعددها الذى يبلغ اثنين وعشرين حانوتا وقد انسدلت عليها سُدُل خُضْر فتبدو بها وكأنها أعشاش الطير.

هكذا بدت لى فلورنسا أول مرة فى ثوبها القرمزى الذهبى وقد اضطجعت على مهد أخضر، وتلاقت سماؤها بتلالها فى انسجام رهيف. بدت لى مدينة لطيفة صارمة فى آن واحد تجمع بين بِشْر الكبرياء ووجوم الحزن ، نارية اللون وكأنها شفق الشمس مع المغيب ، تنبعث منها خيوط دقيقة من دخان ماتلبث أن تنعقد حول بُرج الأجراس وكأنها ترمز إلى أن محرقة « ساڤونارولا » لا تزال متقدة.

* * *

وفى الثانى [illegible] من سبتمبر التقيت بالسفير ألساندرينى سكرتير عام وزارة الخارجية الإيطالية [illegible] حتى أن الرئيس فانفانى كان يتوقع إتمام زيارته للقاهرة فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر لكنه بعرض الأمر على مجلس الوزراء فى جلسة أمس رأى أنه مضطر إلى إرجاء زيارته بضعة أيام لاستقبال شاه إيران خلال زيارته لإيطاليا فى الفترة مابين ٩ ، ١٣ أكتوبر المقبل ، وهو ما يجعله يقترح على الرئيس عبد الناصر أن تتم زيارته للقاهرة فى أيام ١٦ ، ١٧ ، ١٨ أكتوبر. وكشف لى عن الأثر الذى أحدثته دعوة الرئيس جمال لفانفانى واهتمام الجانب الإيطالى بلقاء الرئيسين ورغبتهم فى توفير الأسباب لنجاحه وانكبابهم على دراسة الموضوعات والمسائل الجزئية المتعددة حتى تصبح جاهزة للموافقة أثناء الاجتماع. وقد حصر ألسندرينى الموضوعات التى يطمع رئيس وزراء إيطاليا فى الاتفاق عليها ، وعاد للحديث عن بعض الموضوعات ومن بينها ماجرى حسمه كموضوع الأموال المسموح للإيطاليين الذين هاجروا من مصر بنقلها . وكانت الحكومة الإيطالية قد أبدت رغبتها فى تعديل الحد الأعلى المعمول به ورفعه من ٢٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ جنيه . وقد وافقت القاهرة كحل عملى على أن يُفتح حساب خاص بالنسبة لتحويلات أرصدة الإيطاليين الذين يغادرون مصر وعلى أن يسوّى رصيد هذا الحساب بصادرات مصرية ، وفى هذه الحالة لايكون هناك مايحول دون رفع

الحد الأعلى للمبلغ المسموح بنقله بحيث يصبح ٧٠٠٠ جنيه لكل أسرة أسوة بما اتبع مع السويسريين . وأبلغني ألساندريني ارتياحهم إلى هذا الحل .

ثم كان موضوع شركات الفوسفات الإيطالية فى القصير التى تلقى بعض المصاعب لعدم منحها مساحات إضافية للاستغلال وعدم السماح للفنيين الإيطاليين بها بتحويل مدخراتهم إلى إيطاليا . وكنت قد عدت من القاهرة بالموافقة على زيادة مناطق الاستغلال بشرط أن يخصص للمصريين ٢٥٪ من الزيادة الجديدة فى رأس المال مع السماح للفنيين الإيطاليين بتحويل مدخراتهم إلى إيطاليا بمعدل ٢٠٠٠ جنيه لكل أسرة . وأذكر أنى عندما أبلغت الرئيس فانفانى بهذا الحل قال لى على الفور أنه فى مقابل هذه الروح الودية لامانع فى أن يكون اشتراك المصريين بواقع ٥٠٪ من رأس المال الجديد . كما عرج ألساندريني ثانية على موضوع شركة « فيات » التى كان الرئيس فانفانى قد حدثنى أثناء مقابلتى له فى ٣٠ أغسطس عن اهتمامه بالعرض المقدم منها لإقامة مصنع للسيارات فى مصر إذ كانوا يخشون منافسة الشركات الأجنبية الأخرى وخاصة شركة مرسيدس الألمانية . فقد كانت إمكانيات ألمانيا المالية أوفر من الإمكانيات الإيطالية ، كما أن نصيب الصناعة الألمانية فى الجمهورية العربية المتحدة كبير إلى الحد الذى جعله يلمح إلى أن المصلحة تدعو فى بعض الأحيان إلى تجنب وضع البيض كله فى سلة واحدة . وأضاف السفير أن الرئيس فانفانى قد كلف وزير المالية بالعمل على مد الضمان المقدم من الحكومة الإيطالية لمؤسسة فيات وجعله سبع سنوات بدلا من ست ، وأن الجهات الفنية المختصة تقوم الآن بدراسة التوجيه الصادر من الرئيس فانفانى . وقد أوضحت له أن السلطات المصرية ليس لديها مانع من قبول المشروع من الناحية السياسية ومن الناحية الفنية ، غير أن المسألة لها جانب لا يمكن إغفاله ، هو أن العروض الألمانية قد تكون أوفق لنا من الناحية المالية ، وأنه ينبغي والأمر كذلك أن تعمل مؤسسة فيات على تعديل عرضها بما يشجعنا على قبوله بارتياح . وأبلغته فى النهاية أننا بدورنا بصدد إعداد المسائل التى نرى تقديمها من جانبنا إلى السلطات الإيطالية لدراستها والعمل على تلاقى وجهات النظر فيها .

وقد اتضح لى أن المسائل التى حدثنى عنها ألساندر ينى وسبق لفانفانى أن أثارها أثناء مقابلتى له فيها دلالة واضحة على أنه ــ إلى جانب خدمة المصالح الإيطالية ــ يريد استغلال الموقف لمواجهة مقتضيات السياسة الداخلية الإيطالية . كما أن حرص الجانب الايطالى على الانتهاء من إعداد الاتفاقات المطلوب توقيعها قد دفعنى إلى الاعتقاد بأن فانفانى يود أن يتفرغ أثناء زيارته القاهرة واجتماعه بالرئيس لتبادل الآراء فى مسائل سياسية ، وهو وإن كان لم يفصح عن شىء منها إلا أنه لم يكن من العسير إدراكها . وخلال هذه الآونة شهدت السفارة المصرية بروما توافد عدد غفير من كبار رجال الصناعة والاقتصاد أبدوا الرغبة فى التعاون معنا والمشاركة فى عدد من مشروعاتنا الكبرى ، وقد ضمّنت اقتراحاتهم رسائلى إلى القاهرة لتوى .

وفى ٢٤ سبتمبر التقيت من جديد بالسفير ألساندر ينى لوضع الخطوط النهائية لزيارة الرئيس فانفانى للقاهرة ، فأكد لى الأهمية التى يعلقونها عليها وأوصى بالعمل على إنجاحها ، كما ألمح لى بسعادة الرئيس فانفانى وهو الرجل العاطفى بحرارة الاستقبال التى يلقى بها المصريون ضيوفهم وتمنى لو تضمن برنامج الزيارة مقابلة الجالية الإيطالية . ثم استطرد فقال إن الرئيس فانفانى يعتزم السفر بطائرة عادية يوم ١٥ أكتوبر مساء ، وفى نهاية إقامته فى القاهرة يسافر يوم ١٨ أكتوبر إلى الإسكندرية حيث يقضى بها ليلته ، وفى ١٩ أكتوبر يسافر بالسيارة إلى العلمين لافتتاح النصب التذكارى الذى يضم رفات الجنود الإيطاليين وكذلك النصب الذى يضم القتلى المسلمين ، واقترح السفير ألساندر ينى أن تكون حكومة الجمهورية العربية ممثلة فى الاحتفال وأن يحضره أحد رجال الدين المسلمين ، أما عن الجانب الإيطالى فسيمثله فريق يضم ممثلى أسر القتلى والمحاربين القدماء وممثل لوزارة الحربية بالإضافة إلى رجال الصحافة والإذاعة ، على أن يصل هؤلاء جميعا إلى القاهرة بطائرة حربية خاصة من روما .

وحين سألته هل أعدّ الجانب الإيطالى جدولا للأعمال التى تبحث فى الاجتماع ؟ قال لا وقد أسلمنا لكم الرئيس فانفانى تحتفلون به كما يروق لكم وتحدثونه فيما تبغون .

قلت دعني أكشف لك بصفة شخصية عن إحساس يقلقني أبحثُ لنفسي مفاتحتك فيه بدافع من الصداقة التي تربط بيننا ، وسألته عن حقيقة مايُشاع عن زيارة الرئيس فانفاني لاسرائيل ، قائلا إني أخشى أن يكون قبولها وخاصة الإعلان عنها في هذه الفترة بالذات مما قد يؤثر بعض الشيء في زيارة القاهرة ويحيط سياستكم الجديدة إزاء العالم العربي بالريبة . فردّ بأن الدعوة لزيارة اسرائيل قد وجهت إلينا قبل دعوتكم ، وقد تحاشى فانفاني الرد عليها وترك السفير الاسرائيلي مدة طويلة في حيرة ، ومع ذلك فلم يكن من المستطاع رفضها وإن كان موعدها لم يُحدّد بعد . ثم أردف قائلا : وإني أقترح أن يسأل الرئيس عبدالناصر ضيفه عن تلك الزيارة . وعاد يؤكد لي أن ذهاب فانفاني إلى القاهرة أمر في غاية الأهمية وأن أملهم كبير في نجاح الزيارة .

وفي نهاية اللقاء أسلمته مذكرة ضمّنتها المسائل المعلّقة بيننا وبينهم ، وكذلك بعض الأمور التي من شأنها توثيق العلاقات الاقتصادية والثقافية بين بلدينا . واتفقنا على أن نعود إلى الاجتماع سويا بحضور مدير الإدارة الاقتصادية بالوزارة لمناقشة ردّهم على المذكرة ولتحديد الأهداف العملية من لقاء الرئيس فانفاني بالرئيس عبدالناصر. ورغم أن ماذكره لي ألساندريني عن زيارة فانفاني لاسرائيل لم يقنعني ، إلا أنني كنت موقنا أنها لن تقلل من أهمية زيارة فانفاني للقاهرة على الإطلاق بل إنها تقتضي من جانبنا مضاعفة جهودنا لاستمالته قدر الإمكان إلى صفّنا .

وقبيل مغادرتي روما بعد انتهاء مهمتي كسفير، دُعيت في الرابع والعشرين من نوفمبر ٥٨ للقاء الرئيس جرونكي الذي أعرب عن أسفه لانتهاء مهمتي الدبلوماسية وأبدى ارتياحه لجهودي في سبيل تعزيز العلاقة بين الدولتين فشكرته على لفتته باستقبالي قبل رحيلي ، وأعربت له عن امتنان مصر لمبادرته الشجاعة التي بدأت تثمر ثمارها نحو إيجاد أحسن الظروف لتوثيق العلاقات الإيطالية المصرية . وقد عبر لي عن إيمانه بأنه مع مرور الأيام سيتخلى الكثيرون عن عدائهم لنا وأكد أنه سيبذل كل الجهود الممكنة ليحمل الدول الصديقة على التعاون مع مصر لمواجهة احتياجاتها المختلفة وخاصة مايتعلق منها برفع مستوى المعيشة رغم وجود عقبة في سبيل ذلك وهي عدم ثقة الغرب في روسيا التي تمارس نشاطا

يجعل مهمته بالغة الصعوبة . ثم إذا به يفاجئنى بأن الرئيس خروتشوف قد أدلى بتصريح منذ بضعة أيام يعارض فيه قيام صلة تعاون اقتصادى بين الغرب ودول الشرق الأوسط ، على أنه استدرك مقدّرا أن مصر ليست فى وضع يمكنها من رفض معونة الكتلة الشيوعية ، وإن كانت هذه المساعدة قد خلقت اليوم حالة من القلق يحسن إزالته ، وأن الاتصالات التى يقوم بها الرئيس فانفانى قريبا فى مصر وكذلك ما سيترتب عليها من زيادة الصلة بين البلدين ستكون بلاشك ذات قيمة كبيرة . ثم أوضح لى إدراكه للصعوبة التى تعترض مصر بتحويل مبلغ مليارين من الليرات الإيطالية نتيجة إعادة شراء الفوسفات بالقصير، ولذلك اقترح استغلال هذا المبلغ فى مشروعات مصرية للزراعة والرى .

وكذا أقام الرئيس فانفانى حفلا بقيلا « ماداما » تكريما لى قبل سفرى قلّدنى خلاله وسام الصليب الأكبر بدرجة فارس .

كانت إيطاليا خلال هذه الفترة قد أنهت سياستها المرحلية الأولى التى قامت على أساس تضميد جراحها واستعادة اعتبارها كدولة مهزومة بين الدول الغربية ، وغدت تتطلع للدخول فى مرحلة جديدة تثبت فيها شخصيتها الإيطالية ، غيرأن الاعتبارات العامة التى تربط بين دول الغرب الأطلسى بالإضافة إلى قوة الرأسمالية اليهودية لم تفقد تأثيرها على السياسة الإيطالية ، ولذلك كان رفض دعوة إسرائيل لفانفانى يعنى إحراجا كبيرا للسلطات الإيطالية . لكنى كنت ألحظ أن الفكر الإيطالى كثيرا ما يتخذ سبلا غيرواضحة المعالم ، ولذا كنت أرى أنه لايجوز أن يثنينا شيىء عن المضى فى سياستنا فلا نثبط العزائم ولا نشجع الأطماع وإنما نلتقى مع غيرنا حيث نريد وفى الوقت الذى نراه مناسبا لمصالحنا . وكان حرص فانفانى على المطالبة ببقاء الجالية الإيطالية واصطحابه معه عددا من الصحفيين والمذيعين فى نظرى مظهرا من مظاهر المنافسة بينه وبين الرئيس جرونكى الذى أبدى أثناء زيارته الرسمية للبرازيل اهتماما مبالغا فيه بالجالية الإيطالية هناك وتحدث مزهوا بذلك عند عودته إلى روما .

وبعد الاتفاق على موعد زيارة الرئيس فانفانى طرأت ظروف اقتضت تأجيلها إلى ٨ يناير ١٩٥٩ حين كنت قد خلفت منصبى سفيرا . وبرغم الجهود

التى بذلتها فى سبيل الإعداد لهذه الزيارة فقد أعلنت رياسة الجمهورية عن تشكيل الوفد المصرى للمفاوضات دون أن يتضمن اسمى، فعجبتُ لهذا التعمّد فى إبعادى. وفى حفل العشاء الساهر الذى أقامه الرئيس عبدالناصر لضيفه فانفانى بقصر عابدين انتظر الوزراء — وأنا من بينهم — وكبار رجال الدولة فى قاعة الاستقبال طويلا وصول الرئيسين ووفدى المباحثات بعد أن طالت جلسة المفاوضات فى القاعة المجاورة. وإذا بالمرحوم الدكتور محمود فوزى يخرج قبل الوفد يسأل عنى ويبلغنى أن الرئيس فانفانى ظل يردّد اسمى طوال الجلسة متسائلا عنى، وأنه ما من موضوع طرقه إلا وعلّق عليه بأن اتفاقا قد تم بينه وبينى على كذا وكذا، بل صرح لى بأنه ألمح من طرف خفى دهشته من عدم وجودى. وأعترف أنه كان لهذا الحديث وقع طيب فى نفسى خفّف من حدة أسفى على تعمّد استبعادى من وفد المفاوضات الذى كنت أعتقد أن من الطبيعى أن أشارك فيه إذ كنت المُعِدّ لهذه المفاوضات، هذا إلى معرفتى العميقة بموضوعاتها وبأعضائه الإيطاليين، لاسيما ولم يكن قد عُيّن لسفارة روما سفير بعد. وبعد هنيهة انفتح الباب على مصراعيه وتقدم جمال عبدالناصر يصحبه أمينتورى فانفانى الذى سرعان ما اتجه نحوى فاتحا ذراعيه ليحتضننى أمام الجميع قائلا: « وأخيراً صديقى عكاشة » وكأنه بهذا الترحيب يبدى دهشته بأن أكون مُبعدا عن وفد المفاوضات. فتطلع الرئيس عبدالناصر نحوى قائلا: « ماذا فعلت بهذا الرجل، حتى أنه لم ين عن ذكر اسمك فى كل صغيرة وكبيرة تناولناها؟ كم أودّ أن تصحبه فى جميع جولاته إلى أن يغادر مصر ». وكأن عبدالناصر أراد بهذا أن يرضينى أولا عما سلف من إبعادى، ثم ليضمن لضيفه صحبة من يأنس إليه.

وإن قلتُ شيئا عن هذا الاستبعاد الذى ما أشك أنه كان من فعل أحد كبار المسئولين برياسة الجمهورية، وكان إليه اختيار وفد المفاوضات، إن ذكرت هذا فلا أذكره لشخصى أَبْعِدْتُ أم لم أُبْعَد، وإنما أذكره لأعطى دليلا على ما كانت الأمور تُدار به لوفق الأهواء، ولا يخالجنى شك فى أن الأمر لو كان لعبدالناصر فى هذا الموقف لما زلّ هذه الزلّة.

٢
روما بعيداً عن السياسة

على أني كنت إلى جانب العمل الشاق المضنى والعثرات التى أرادها لنا المناوئون أنعم أحيانا بمتعة لا نهاية لها أمام ما تمتلىء به جنبات روما من روائع فنية خالدة ، فقد كنت أجد بين الفينة والفينة فى عروضها الموسيقية والأوبرالية ما يزيح عنى آثار الإرهاق ويروى وجدانى الظامىء دائما الى الموسيقى التى اجتذبتنى منذ صباى ، وبقيت طوال عمرى ملاذ نفسى كلما حزبنى أمر أو نزلت بى ضائقة أو وقعت أسير محنة نفسية عصيبة . كانت بين يدى مائدة تضم أشهى ألوان الفنون وأنا وسط تلك البلاد التى تطوى جناحيها على حضارات ثلاث لاتقل إحداها عن الأخرى جمالا ورفعة : ضمّت أول ماضمّت حضارة الإتروسك المنبع الأول الذى ارتشف منه الفن الرومانى قطرات الرِّى الأولى ، فأخذت تدبّ فيه الحياة بفضلها الى أن عثر على غذائه الحقيقى فى فن اليونان الباذخ الثراء . وانطلقتُ أطوف هنا وهناك بين تَاركوِينْيا وتشيرڤيترى فى توسكانيا حيث مقابر الإتروسك التى تعد بحق وكأنها مدن للموتى تألقت جدرانها بلوحات تعكس بتكويناتها وإيقاعاتها صورا واقعية مثيرة لحياة أولئك القوم الذين لم يشغل بال مفكريهم وفنانيهم

شيء ـ شأننا نحن قديما ـ مثل فكرة الموت والعالم الأخروى حتى دارت حياتهم فى هذا النطاق النابض بالسحر والغموض . فقد ازدهرت هذه الحضارة فى وسط إيطاليا بفضل اتصاله الحضارى بالمستعمرات اليونانية فى جنوب إيطاليا وصقلية « ما جنا جريتشيا » ، فلم تنفض يدها منها إلى أن بسط الرومان نفوذهم على المنطقة بأسرها ، غير أن الإتروسك أسبغوا لونا جديدا على الأساطير اليونانية إذ صبغوها بالحدّة والعنف وتَفَشّى فيها التعبير عن الكوارث التى تحيط بالبشر ، وانشغلوا بالحياة التى تستقبل الإنسان بعد موته فأغفلوا تجميل المدن والدور بينما عنوا بمثواهم الأخير الذى صُوِّرت على جدرانه مشاهد المآدب الحافلة بالمرح وأنغام عازفى القيثارة ونافخى المزمار لتشيع السعادة فى طيف المتوفى حين يرى صورة الموائد الزاخرة بألوان الطعام ، كما تعيده مشاهد الصيد والقنص ومباريات ألعاب القوى إلى المباهج التى استمتع بها أثناء حياته . والفن الإتروسكى برغم انطوائه على بعض التناقضات الجلية وتعرّضه لبعض الكبوات فن متميز جذاب وإن لم يتجه اتجاه اليونان فى نحت تماثيل الشخوص . ولعل اختيارهم الحجر الهش مادة لنحتهم كان إليهْ اندثار آثار رائعة كتلك التى خلّدها اليونانيون الذين اختاروا الرخام الصّلد لتشكيل تماثيلهم ، بينما خلّف الإتروسك لوحات رائعة من النحت البارز بمادتى الطين المحروق والبرونز تميزت بقدرة خارقة على التعبير ، احتوى معظمها متحف ڤيلا چوليا الشهير الذى يقع على بعد خمس دقائق من ڤيلا ساڤويا مقر السفارة المصرية بروما .

وزائر روما يقف مذهولا أمام نجاح الرومان فى فرض نظامهم الامبراطورى السياسى وقوانينه بالقوة ، لكنه يقف فى إعجاب بالغ أمام اتساع إشعاعهم الروحى فى الماضى والحاضر ونفاذه إلى مناطق شاسعة بفضل ماكان ينبض به من ألوان الثقافة والفكر . ولوأننا سمحنا لخيالنا بتصورعالم لم تظهر فيه روما ، لاستطعنا أن نقدر تقديرا صحيحا ما قامت به هذه الامبراطورية من جهد عظيم فى تاريخ الفكر الإنسانى حيث تألقت البلاغة الرومانية حين كانت الخطابة من مستلزمات الحياة العامة ، وما أصدق قول تاسيتوس : « ليس الرضا الذى يشيعه فن الخطابة فى نفوسنا بهجة عابرة تملأ كل حياتنا بل كل ساعة من ساعات نهارنا » .

كانت فرصة باهرة أن أعيش في ظل هذه الذكريات وأحياها ، فبدأت أتعرّف على أدباء الرومان ، فما أحببتُ أن أقتحم قصورهم ومعابدهم دون أن أكون على علم بشىء مما كان يدور بين جدرانها وجنباتها . على أن فكرى مرّ مرورا عابرا بالبعض وعلق هواى ببعض آخر ، فقرأت لڤرچيل إنيادته ، وهى وإن لم تبلغ صميم قلبى فإنى لم أنكر على ناظمها شاعريته . وأنعمتُ النظر فيما سطره أوڤيد فى كتابه « التحوّلات » [ميتامورفوزس] فأسرنى وعشقته ، وانكفأت أقرأ كل ماكتب . وما إن فرغت من مهامى الرسمية فى أوائل السبعينات حتى خلوت إلى نفسى ونقلت كتابه الخالد « التحوّلات أو مسخ الكائنات » إلى العربية وأتبعته برائعته الساخرة الخفيفة الظلّ « فن الهوى » [آرس أماتوريا] . وهذه الترجمة وتلك ظهرتا فى طبعات ثلاث .

وقرأت للوُكْر يشيوُس لأكتشف شاعرا فيلسوفا رقيق الوجدان جسوراً فى الكشف عن الخرافات التى تتضمّنها العقيدة الدينية السائدة فى عصره ، والتى لم يلبث أن نبذها متعلّقا بفلسفة أبيقور التى أنقذته من حيرته وأنس إلى مافيها من إرادة متحرّرة ومن شاعرية لا تعترف إلا بآلهة فكهة مسالمة لا تفرض على العالم سلطانا ولا تطلب من البشر عبودية ، فأعاد صياغة أفكار أبيقور الجافة فى قالب شعرى رقراق وميسور الفهم حتى يستميل القارىء إلى الغوص فى أعماقها الفلسفية ، كما يفعل الطبيب حين يخلط الدواء المرّ بقليل من العسل يغرى به المرضى على تناوله ، ولم يلبث أن أخرجها فى قصيدة طويلة بديعة سماها « فى طبيعة الأشياء » De Rerum Natura استمالتنى ، فشرعت فى نقلها إلى العربية ، وأرجو أن أتمكن من الفراغ منها عما قريب .

وشغلنى شغفا الأديب پترونيوس المرهف الحس الذى احتكم إليه الناس فى كل ما هو جميل أنيق ، حتى كنّاه نيرون « بقاضى الذوق » ، وهو صاحب كتاب « ساتيريكون » [الذى أخرجه فللينى تحفه سينمائية فريده فى تاريخ السينما العالمية] . وملك علىّ زمام نفسى موقف پترونيوس حين أمر نيرون بإعدامه ، فآثر أن يموت منتحرا ، واستدعى طبيبا قطع شريان رسغه وجلس إلى جواره ودمه ينزف من جسده المتهاوى . وفى نفس الوقت أخذ يُملى على كاتبه رسالته الشهيرة الساخرة إلى الامبراطور ، والتى ما إن وصلت إليه حتى كانت صفعة هوى بها

بترونيوس على وجهه قبل أن يفارق الكاتب الحياة ، استهلّها بقوله : «أى نيرون. امبراطور الرومان وسيّد العالم وكبير الكهنة . ليكونن نبأموتى حين يبلغك خيبة أمل لك لأنى أعلم كم كنت تتوق إلى الظفر بهذه المتعة ، متعة إزهاق روحى على يديك ، فأن يولد المرء فى عهدك فذلك خطل فى التوقيت ، أما أن يموت فى عهدك فتلك فرحة الخلاص . قد أغفر لك قتلك لزوجتك ولأمّك ، وحرقك لمدينتنا روما المحبوبة ، وإغراقك لبلادنا الجميلة برائحة جرائمك النتنة ؛ ولكن شيئا واحدا لا أستطيع غفرانه : هو الملل الذى يصاحبنى حينما أستمع لأشعارك وأغانيك التافهة وتمثيلياتك السوقية . التزم بمواهبك الفريدة يانيرون فى شغفك بالقتل ودسّ السّم وارتكاب الخيانات وإشاعة الرعب . افتك برعاياك يامولاى ؛ ولكنى وأنا ألفظ آخر أنفاسى أناشدك وأتوسّل إليك ألاّ تدنّس رحاب الفن بمؤلفاتك . وداعا . ولكن حذار أن تقترف جريمة تأليف موسيقى أخرى . افتك بشعبك ماشئت ، ولكن إياك أن تثير سأمه كما أثرت سأم صديقك حتى لاذ بالموت . المرحوم جايس بترونيوس » .

ولقد نشأ الفن الرومانى نتيجة التقاء الروح الرومانية بفنون الإغريق لقاء عنيفا أدى إلى وقوع هذا الفن الوليد فى حبائل التلفيقيه وحمله لطابع مهجّن واضح المعالم حتى لم يعد الفن الرومانى يحمل أى معنى من معانى الأصالة الخالصة التى تميز بها الفن اليونانى الذى مضى يستلهمه و يستهدى خطاه و يقتفى آثاره محاولا أن يضع أجمل عناصره إلى جانب أجمل العناصر التى اكتشفها فى غيره من الفنون وأن يخلق من هذه الأشتات المختلفة الاتجاهات والعصور أعمالاً موحّدة . ومع ذلك فالرومان من أكثر شعوب العالم ولعاً بالبناء ، تشهد على ذلك أطلال آثارهم التى بلغت من الروعة والعظمة ما أتاح لها إلهاب الخيال ، فلقد أسهموا فى فن العمارة إسهاما تاريخيا طوّر البناء لملاءمة أغراض الحياة العامة ، فاستحدثوا نقلة واضحة بالتحول من البناء الدينى إلى مشروعات الهندسة المدنية ، حتى قال مهندسهم العتيد فرونتينوس مزهوا : « من ذا الذى يجرؤ على أن يرفع الأهرام العقيمة ومنجزات الإغريق العديمة النفع إلى مصاف قناطرنا العملاقة التى تزوّد دورنا بالمياه وحماماتنا الفسيحة التى تطهّر أبداننا ؟ » . و بلغ تطورهم التكنولوچى إلى حد الارتفاع بأبنيتهم إلى ستة طوابق ، واستحداث تصميمات رائعة للمبانى من الداخل لتلبية احتياجات تزايد السكان بإفساح فراغات كبيرة داخل الوحدات المعمارية ثم استخدامهم اللامحدود للإمكانات الكامنة فى العقود لتحقيق

الأهداف السابقة . وكان تميز الرومان بالنزعة التنظيمية فى المجالين السياسى والاجتماعى هو الذى حدا بهم إلى تجميع الآلهة معا فى مكان موحد هو البانثيون ، إذ خالوا آلهة الأوليمب وكأنهم مجلس شيوخ أعلى يشرّع للمسائل الكونية والأحداث الخارقة التى تفوق قدرة شيوخ الرومان وأباطرتهم .

وما أكثر ماتجولت فى ساحة الفُورم ، الذى كان فى أول عهده منطقة مقدسة عامرة بالمعابد والنصب التذكارية ، وتحوّل فى عهد الجمهورية مركزا تجاريا ودينيا وسياسيا يشقّه الطريق المقدس «ڤياساكرا» ، مُطْلِقا العنان لخيالى يطوف مع تلك المواكب الحافلة التى كانت تجتازه إلى معبد جوپيتر كبير الآلهة ، ومواكب الجيوش الظافرة والجنازات الكبرى مارّة أمام المنصة المخصصة لخطب الرثاء . ومُتمثّلا المآدب العامة التى كان يقيمها الأباطرة لجماهير العامة احتفالا بانتصار وطنى أوحداداً على فقيد عظيم . وحينا كنت أتلبّث بالساحة المتاخمة لمجلس الشيوخ التى أضفت بمرور الزمن على الفورم طابعه السياسى حيث كان يعتلى السياسيون المنصّة المقامة به يخطبون ، وحيث كان شيشرون يلقى خطبه المأثورة التى حقق بسحر منطقها وبلاغتها الجزلة النجاح الذى ظفر به فى ميدان السياسة متساميا عن المفهوم التقليدى للبلاغة ومفنّدا الاعتراضات الأفلاطونية التى كانت تعدّ الخطابة فنا مظهريا فارتقى بها إلى أن جعلها أخصب تعبير إنسانى ، وكذا كاتو الذى اعتاد أن يختم كل خطبة من خطبة بعبارته المأثورة Delenda est Carthago « ولندمرّن قرطاجه تدميرا » . وما أكثر ما استرخيت مستندا إلى قاعده عمود متداع بينا يطوف خيالى وسط روّاد هذا الفورم العتيق ، فيصوّرلى المتقاضين والمحامين والشهود ، والصيارفة والمرابين والسماسرة ، ويحرّك فى نفسى السخرية من المتسكّعين والطفيليين والمدّعين والمقسمين بالأيمان الكاذبة والثرثارين والمخمورين ومروّجى الشائعات والفضائح والمجرمين وقطاع الطرق وقراء الطالع والراقصين والمهرجين والمشعوذين حيث كانوا يحتشدون وراء معبد كاستور، وإذا أنا أسترجع قصيدة الشاعر كاتوللوس التى تعكس ما كان يعيش فيه من رغد وانغماس فى العربدة والمجون وهو يناجى عشيقته لزبيا بين أزقّة الفورم متغنيا :

« فلنعش ولتكن حياتنا غراما . أى لزبيا حبيبتى ..
ولنهمل أقوال الشيوخ العتاة الذين ينكرون علينا هذا الغرام

لئن كانت الشموس بعد ماتغيب تعود للحياة من جديد
فنحن حين ينقضي نهارنا الممتع القصير
يضمنا نعاس ليل سرمدىّ
فلتعطنى إذن ألف قبلة ... واتبعيها بمائة
ثم لنعدها ألف قبلة جديدة .. وبعدها مائة أخرى
حتى إذا بلغت قبلاتنا التى رشفناها سويا آلافا مؤلفة ،
فلنمزّق قوائم الإحصاء .
كى لاندرى مقدار ما نلناه من قبلات ،
وكى لايثور حسد الحاسدين
إذا ما فطنوا إلى عدد ماتبادلناه من قُبل »

ما أروع هذه المناجاة التى لم تقتصر فى اجتذاب معاصرى روعتها على كاتوللوس ولزبيا وحدهما ، فلقد تلقّفها فى أربعينات هذا القرن المؤلف الموسيقى الألمانى الفريد فى أسلوبه كارل أورف الدءوب على استلهام روائع الأدب القديم ، وضمّنها هى وأغلب قصائد كاتوللوس رائعتيه الموسيقيتين « انتصار أفروديتى » و« أغانى كاتوللوس » فاستنبط لهما ألحانا تكشف عن أسلوبه المبتكر فى التأليف الموسيقى مرتقيا بالإيقاع إلى أعلى المراتب بوصفه الوسيط الأمثل بين الغريزة والفكر جاعلا اللحن مساعدا للإيقاع . ويشاء لى الحظ أن استمع إلى هذين الإنجازين الموسيقيين بالإضافة إلى قصيدته « الأغانى البورانية » فى حفلين متتالين على مدى ليلتين بمدينة روما ، حين وفد المؤلف ليقود بنفسه أوركسترا الإذاعة الإيطالية والكورال « راى » ، ثم أن أظفر بشرف التعرف إليه شخصيا عن طريق المؤلف الموسيقى الإيطالى الشهير رنزو روسيللينى صهر أحد أصدقائى الإيطاليين الذين عاشوا معظم حياتهم بمصر ، الأمر الذى حفزنى بعد أقل من عشر سنوات إلى دعوته إلى القاهرة حين كنت وزيرا للثقافة فى أكتوبر ١٩٦٦ لحضور عزف مقطوعته الشهيرة « كارمينا بورانا » بواسطة أوركسترا القاهرة السيمفونى وكورال أوبرا القاهرة بقيادة المايسترو التشيكى أوتوكار تريليك ، فلبّى الدعوة مشكورا .

ها أنذا أغادر الفورم على الرغم منى بعد أن جُست بين أطلاله أزوّد حواسى بذكرياته ، ثم وقفت هنيهة فى تلك البقعة التى اغتيل فيها يوليوس قيصر وقد وثب

إلى ذاكرتى قول ألفريد ده ڤينى : « استمتع ما استطعت بما لن تراه مرتين »
وعبرت الطريق من حول قوس نصر سپتيموس سڤيروس [ساو يريس] أحد المعالم البارزة عند مدخل الفورم ، وهو ذلك الابتكار الرومانى الذى أضاف إلى أداء البناء لوظيفته لمسة جمالية فريدة لأبلج مسرح الكولوزيوم المهيب ذا الطوابق الثلاثة والذى يتسع فى وقت واحد لخمسين ألف متفرج يستمتعون بمشاهدة مباريات الجلادين الدموية بين الرجال وبعضهم البعض وبينهم وبين الوحوش الضارية . ألا ما أصدق شوپنهور حين قال محذرا : « إن الإنسان هو وحده بين الحيوانات الذى ينشد من وراء إيلامه لغيره مجرد الإيلام » .

قبعتُ فى ركن قصى أتمثل الأرواح التى أهدرت عبثا وشهداء المسيحية الذين قضوا نحبهم بين أنياب الأسود الفتاكة ولطمات أظلافهم ليقدموا لذراريهم أروع المُثُل على التضحية والفداء فى سبيل العقيدة التى آمنوا بها ، وذكرت فى شجن قصيدة بايرون عن الجالد المحتضر فى ديوانه « تشايلد هارولد » :

« تلمح عيناى مجالداً يتهاوى
تسند يده جبهته النابضة بطولة
ارتضى لقاء الموت ، لكنه يغالب الاحتضار .. علّه يهزمه
وتثقل رأسه رويدا رويدا .
من الجرح المحمرّ الغائر في جنبه ينزف فى بطء دما
كرذاذ يسبق دفق المطر العاصف
ها هى ذى الحلبة تنداح حواليه ... تدور ،
ويعاجله الموت
وهتاف الحمقى تمجيدا للمنتصر البائس لم يخمد بعد
يسمعه غير مبال ، فلقد رحل الروح بعيدا
لم يعبأ بحياة ضاعت أو جائزة أفلتت
لا شىء بعالمنا يُشغل فكره
غير الكوخ الهزيل على شط الدانوب
حيث يعيش صغاره البرابرة يلهون
فى داسيا [رومانيا] مع أمهم المنتظرة عودته
بينا أبوهم .. قد ذُبح هناك بعيدا
يضجّ الفرح بحفل رومانى مع دمه
النازف تنسكب شتى ذكرياته » .

بينا أبوهم .... قد ذُبح هناك بعيدا
ليضجّ الفرح بحفل رُومانى
مع دمه النازف تنسكب شتى ذكرياته » .

وكم كان يحلو لى بين الحين والحين الاختلاف إلى المطعم الذى بُنى حديثا فوق الأطلال الباقية من ساحة [فورم] تراچان على غرار الطراز المعمارى الرومانى أتمثّل فيه الماضى مطلاّ على عمود تراچان التذكارى الملتف حول سطحه شريط حلزونى صاعد من النقوش البارزة من قاعدته إلى قمته تصور مراحل حملات الامبراطور الظافرة على أعدائه . وهو العمود الذى على غراره أقام نابليون عموده الشهير بميدان فُندوم فى باريس مع فارق واحد بينهما هو أن شريط نقوشه البارزة قد صُبّ من البرونز المتخلّف عن المدافع التى غنمها بونابرت من الجيوش البروسيّة والنمساوية المهزومة ، على نحو ما صبّ المثّال الإغريقى فيدياس درع تمثال الرّبة أثينا پروماخوس [أثينا المحاربة] من الدروع البرونزية التى كان يحملها أعداء بلاده من الفرس المهزومين .

ولا ريب أن الرومان قد أسرفوا فى الصنعة الزخرفية وغالوا فى النحت البارز المتأنق القائم على الزخارف النباتية ذات التوريقات وتفريعات الزهور حتى غدا تاج العمود الكورنثى بإفراط زخارفه هو النمط الأثير لدى الرومان ، كما يتجلّى هذا التأنق لزائر روما بأوضح مظاهره فى مَذبح السلام « آراپاتشيس أوجسطيا » الذى شيده أوكتافيوس أول الأباطرة المعروف باسم قيصر أوغسطس تعبيرا عن الاستقرار السياسى فى عهده ، فازدان بالنقوش البارزة التى تمثل الأحداث السياسية الكبرى ومواكب التضحية والفداء الدينية . ومع تأملاتنا لتلك اللوحات الرائعة بهذا المذبح نسمو على ذواتنا فتهدأ سورة انفعالاتنا ، ونسعد ـــ كما يقول عالم الجماليات الشهير چورچ سانتيانا ـــ بإدراك خير لا نسعى إلى امتلاكه ، فلا يعود المرء ينظر إلى ينبوع الماء نظرة الظامىء ، ولا يتطلع إلى امرأة جميلة تطلع الشهوانى الشبق . كذلك لا يكاد زائر روما ينتقل من مكان إلى مكان أو من موقع إلى آخر حتى يطالعه أحد التماثيل النصفية الرومانية « البورتريهات » التى احتلت مكانة خاصة فى حياة الرومان ، سياسية وطبقية قبل أن تكون فنية ، تتميز كلها

بالواقعية الدقيقة المولعة بتسجيل تجاعيد البشرة وكأنها معالم جغرافية ، و ينحصر اهتمامها بالملامح التفصيلية أكثر منه بالهيئة العامة .

وإذا كانت الحضارة اليونانية لم تضع بين أيدينا حتى اليوم أية لوحة مصورة من تلك التي أنجزها كبار الفنانين اليونانيين والتي تحدث عن روعتها الأقدمون بتقدير وإعجاب قبل أن تنسدل عليها سُتُر النسيان فإن لوحات التصوير المنجزة فى روما ومدن إقليم كامپانيا خلال القرن الأول قبل الميلاد تزوّدنا بحصيلة لاحصر لها من الموضوعات الوثيقة الصلة بالحياة اليومية لأهل كامپانيا كما تمثلت على جدران الدور والقصور فى الريف والحضر. وإذا كان مابقى منها فى روما بالغ الندرة فإن بركان ڤيزوڤ الذى دفن تحت رماد حَمَمِه مدن پومپى وهرقلانيوم وستابييه أثناء فورانه المدمر عام ٧٩ ميلادية قد أخفى تحت أنقاضها كنزا زاخرا بالتصاوير القديمة يتيح لعشاق التصوير تتبع الدورة التى خطاها هذا الفن مايقرب من قرنين وإذا به ينتهى فجأة فى تلك السنة الفاجعة ، فلم يبق لنا من آثار هذه المدن الثلاث ومن لوحات جدران الدور فى پومپى إلا ما احتفظ لنا به متحف ناپلى القومى بعيدا عن انتفاضات ڤيزوڤ .

وهل يستطيع زائر لروما أن يمرّ بها دون أن يأسره طراز « الباروك » الذى كانت روما أكثر من غيرها من بلدان أوربا تميّزا به ، فبدت كنائسها وقصورها وحدائقها ونافوراتها وميادينها على أيدى الخالدين برنينى وبورومينى وداكورتونا وغيرهم فى مسحة من الجمال اللافت المتألق أملاها شغف الإيطاليين بما يثير ويُبهر ، تشيع فيه الألوان وتزدحم الصور ، ويطوى ذلك كله طابع مسرحى آسر ، ولا عجب فقد كان الإيطاليون يؤمنون بأن المظهر هو خير ما يعبّر عن الواقع . ومن أجل هذا خلقوا تلك الروائع الفنية التى عنوا فيها بالضخامة والفخامة وبما هو مذهل خادع بهيج وبما لا يخطر على بال ، فجاءت مبانيهم على شاكلة ما كانت عليه كنائسهم من أبهة وبراعة وإفراط فى العناية بالتفاصيل والإيماءات الناطقة ، كما حفلت منحوتاتهم بالقديسين وعليهم عباءاتهم الفضفاضة وقسمات وجوههم تفصح عن ضيقهم بما يملأ العالم من شرور . ولقد كانت الكنيسة بحق هى التى تبنّت طراز الباروك لتناهض حركة الإصلاح الدينى اللوثرية وتؤيد انتصارها عليها ، فدفعت

الفنانين إلى استخدام التقنية الفنية فى جراة لم تعهد من قبل ، وإلى العناية بالتفاصيل الزخرفية لكى يجمعوا العالم على الإيمان بتميّز الكنيسة الكاثوليكية وسموّها على كل شيء . وهكذا كانت كنيسة القديس بطرس فى روما ، حيث من العسير على الزائر أن يحصر لفتات عينيه فى اتجاه واحد ، فألوان رخامها المتنوعة الزاهية ، ومعمارها البالغ التعقيد ، واختلاف زخارفها المنمقة ، وسحر أنغامها الموسيقية العلوية التى تتردّد بين جنباتها ، وجاذبية لوحاتها المصوّرة المشدودة إلى جدرانها ، وتماثيلها الآسرة التى تزدحم بها ، وتلك الحشود المتدفقة من الزائرين ، هذا كله مما يصرف المرء عن أن يعنى بشيء دون شيء ، حتى ليكاد يخالها بما جمَعت وحشدت مسرحا للفنون لا مكانا مخصّصا للعبادة . ولعل عذر من شادوها على هذا الحال هو أنهم شاءوا أن يجذبوا إليها أنظار المتعبّدين ليضمّوا إلى خشوع العبادة روعة الفن التى يُعزى جلالها إلى جلال بانيها ، وبهذا تثْبت الكنيسة أنها أسمى مما عداها وإن لم أرها ترقى إلى مستوى الكاتدرائيات القوطية ، ولعل مردّ العظمة التى أسبغت عليها إلى أنها قائمة فى مقر السلطة البابوية ، إلى جانب ما تنطوى عليه من انفساح تؤكده أعمدة الفنان برنينى الملتفّة بالرحبة المنبسطة أمام الكنيسة ، والتى بدت أشبه بذراعين تحتضنان المختلفين إلى الكنيسة ، وكأنها شِباكُ بطرس الرسول تضمّ فى طيّاتها من يتصيّدهم من المؤمنين الجدد .

وماتزال روما تحتفظ بشوامخها من الفن الباروكى تنتشر فى أرجائها حتى لتكاد تشكّل بمجموعها مدينة متميزة داخل روما ، وبات من الشائع أن يطلق الناس عليها اسم « روما الباروكيّة » Roma Barocca إشارة إلى تلك الآثار الجليلة البالغة الروعة والرقة الآسرة التى تمسّ القلوب ببقائها تؤدى دورها الذى أنشئت من أجله أودورا مماثلا حتى يومنا هذا ، فلم تدخل بعد متحف التاريخ لينغلق عليها ، بل إنها تشهد كل يوم المئات من الزائرين والدارسين والمتأملين وعشاق الفن والجمال ، ثم إن منها الكنائس التى ماتزال تعجّ بالمصلّين إلى جانب الزوّار. وقد يصعب على المرء الذى عايشها مثلما عايشتها أن يفلت من أسرها أوأن يخمد فى صدره الحنين إلى شدّ الرّحال إليها والاستمتاع بقضاء لحظات فى ظلال

جمالها المتدفّق ، وإن كانت الأيام العديدة لا تكفى لإشباع نهم عاشق الفن فى زيارة كل ما تنتظم من منشآت وتضمّ من منجزات فنية رائعة .

وكم كنت أراح إلى أن أقضى الوقت فيا بين غدائى وموعد بدء العمل بعد الظهر مطوّفا فى حدائق ڤيلا بورجيزى اللصيقة بمقر السفارة أومتجوّلا فى حارة مارجوتا بين معارض الفنانين ومراسمهم ، أوجالسا فى مقهى من مقاهى ميدان نافونا أتطلّع دون ملل يوما بعد يوم إلى منحوتات برنينى الخالدة لنافورة الأنهار الأربعة : النيل رمز أفريقيا والجانج رمز آسيا والدانوب رمز أوربا وريُوپلاتا رمز العالم الجديد ، وقد توسطت الميدان الضيّق الممتد ، بما ينطوى عليه تصميمها من فيض غزير لا يخضع لأى قاعدة ، ومع ذلك فليس ثمة مايوحى بتحلّله من كل التزام . أرنو إلى تمثال النيل وقد أخفى وجهه بحجاب مشيرا إلى بقائه ـ آنذاك ـ مجهول المنابع ، وقد انتصبت إلى جواره نخلة مصرية انحنى جذعها قليلا بفعل الريح ، وإلى تمثال ريوپلاتا بأنفه الأفطس والنقود المبعثرة من حوله وتحته إشارة إلى بدائية القارة الأمريكية وثرائها ، وإلى تمثال الدانوب وقد رقّت ملامحه عن ملامح سائر الأنهار إشارة إلى أوربا المتحضّرة .

وفى فترة ماتراءى لى أن أقضى اللحظات التى أخلوفيها من عملى فى مزاولة التسجيل السينمائى متتبّعا خطى الموسيقار الإيطالى أوتورينو ريسپيجى فى قصيده السيمفونى عن « أشجار الصنوبر فى روما » وعن « نافورات روما » ، وهو من حاكى بأنغامه مواطن أشجار الصنوبر بالمدينة الخالدة ، بادئا بصنوبريات حدائق بورجيزى حيث يمرح الأطفال فى ظلالها ، ومثنّيا بصنوبريات سراديب الموتى الراقدين فى أمن وسلام فخلّد ذكراهم بلحنه الشعائرى الجليل ، ومنتقلا إلى تل چانيوكولى حيث يغرد العندليب فوق أغصان الصنوبر ، ومنتهيا بصنوبريات طريق آپيا القديم حيث يطالعنا بلحن حربى يعلوشيئا فشيئا يمثل جيوش الامبراطورية الرومانية وهى تدبّ على الأرض فى طريقها إلى مبنى الكاپيتول مصوّبة رماحها إلى السماء .

كذلك يلفت زائر روما ماتزخر به ميادينها وأركانها من مشاهد الفوّارات المائية حيث تنبثق المياه من نافوراتها الباروكية الرائعة ، التى يُعزى تصميم أغلبها إلى

الفنان برنيني مصمم نافورة التريتون بميدان باربريني ونافورة الأنهار الأربع بميدان ناڤونا . ومامن شك فى أن الموسيقار ريسپيجى قد أخذ هو الآخر بمشهد هذه النافورات وتأثر بها فسجّلها فى قصيده السيمفونى عن نافورات روما ، بادئا بنافورة ڤالى چوليا وقد تخيّل قطيعا من الأغنام يَدِبُّ حولها وقد طواه ضباب الفجر ، ثم نافورة التريتون حيث تنهض شخوصها الأسطورية : حوريات الناياد وآلهة التريتون من غفوتها صباحا متوثّبة معربدة تحت رذاذ المياه المتناثرة وراقصة فى صخب مع غمرة دفق المياه ، ثم دلف إلى نافورة تريڤى وقت الظهيرة فإذا العين تقع على مركبة الإله نيپتون تجرها الجياد البحرية ، منتهيا بنافورة ڤيلا مديتشى ساعة الغسق والطيور تشدو مع حفيف تساقط أوراق الشجر وأجراس الكنائس تدق مؤذنة بالغروب . لقد دفعنى شغفى بهذا كله إلى أن أشْغَلَ فترات فراغى بتسجيل ترجمة سينمائية لما تقع عليه العين من هذا الجمال الطبيعى الخلاب ، وتلك الروعة المضفاة على المنحوتات الرخامية وما تتلقفه الأذن من أنغام آسرة شجية ، إلى أن حظيت فى النهاية بشريط يضم هذه الروائع جميعا أرجع إليه الفينة بعد الفينة لأستعيد تلك الذكريات الحلوة التى تنعش فى وجدانى ماضيا محبّبا قضيته بين تلك الربوع .

وعبثا يحاول المرء أن يحصى تلك الآيات الجميلة فى هذه المدينة الخالدة عدّاً ، فلا يكاد يجتاز طريقا أو يعبر ميدانا أو يختلف إلى حديقة أو يمرّ بنافورة أو يتطلع إلى إحدى الواجهات المعمارية أو يتردّد على كنيسة أو ينحدر إلى زقاق حتى يرى نفسه أمام جمال لافت مع كل نظرة يلقيها . وما أظن عمر الزائر كله يمتد لكى يظفر برؤية جميع ما تضمّه روما من كنوز فنية خالدة ، وما أظن زيارة واحدة بل زيارات تكفى للإحاطه بهذا كله ، بل لابد من مثابرة ومتابعة تلهث معها الأنفاس لكى تحتوى هذا كله . وما أصدق ألفرد ده موسيه حين قال : « مع أن إيطاليا هى أكثر بلاد العالم احتشادا بالمنجزات الفنية ، فهى بين بلاد العالم كلها أقلها احتياجا لمثل هذه الكنوز ، فقد وهبها الله طبيعة سخية تنبض بشتى صنوف الجمال وسماء ساحرة يتيح صفاؤها لابتهالات المبتهلين البلوغ إلى رب السماء دون حجاب » .

٣
إطلالة من روما على فرنسا وقضية الجزائر

حين أذكر اللحظة التي أسند فيها إلىّ الرئيس عبد الناصر منصب سفير مصر فى روما فى خريف ١٩٥٧ وكانت أوربا الغربية ما تزال تقف منا موقف العداء ، والعلاقات الدبلوماسية مقطوعة بيننا وبين بريطانيا وفرنسا ، وأجهزة الإعلام والصحافة واقعة تحت تأثير خصومنا الغربيين واسرائيل ، أذكر أن توجيهاته لى قبيل سفرى انحصرت فى أمرين : أولهما إخراج إيطاليا سياسيا من وكر العداء الذى أقامه حولنا الغرب واجتذابها للتعاون الاقتصادى معنا ، وثانيهما العمل كنقطة مراقبة خارجية للشئون الفرنسية وتزويده أولا بأول بكل مايدور بها مما له علاقة بنا ولاسيا مايؤثر منها على قضية الجزائر وما يتصل باسرائيل . وقد أتاح لى عبد الناصر ثقة منه بى أن أكون غير مقيّد فيا أمضيه من أمور .

ولم تكد تنقضى بضعة شهور على وجودى بروما سفيراً حتى تلقّيت من اللواء محمد على عبد الكريم مدير المخابرات الحربية خطابا فى الرابع من يناير ١٩٥٨ يقول :

« أنت تعرف طبعا أن فرنسا وأخبارها تكاد تكون محجوبة عنا فى الوقت الذى أصبحت فيه مورد اسرائيل الأساسى للأسلحة والدبابات والطائرات . لقد كنا

سعداء بالمعلومات التي كنت تمدّنا بها عندما كنت فى باريس والتى انقطعت تماما بعد نقلك . ولو أنى أعرف وأقدر مقدار الأعباء التى يمليها عليك منصبك كسفير، ولكنى أطمع فى أن تجدد اتصالاتك ببعض مصادرك القديمة فى فرنسا للحصول على ما كنا نحصل عليه فى الماضى من معلومات »

كما تلقيت فى التاسع عشر من يناير ١٩٥٨ رسالة من مساعد مدير المخابرات العامة هذا نصها :

« إن المعلومات التى أرسلتها إلى وزارة الخارجية عن فرنسا قد تمت دراستها واتضح أنها مفيدة ، واننا إذ نبلغ سيادتكم الشكر نرجو زيادة الإيضاح عن إمكانيات هذه المصادر ومدى صلات كل منهم . كما نأمل أن يستمر اتصال سيادتكم بهؤلاء وموافتنا أولا بأول بأنبائهم مع تعليق سيادتكم على هذه الأنباء إن أمكن »

وإنى أكشف هنا عن هذه الخطابات لا لسىء يرجع لذاتى ، فلقد كنت حين لبيّت هذا الرجاء وذاك لا تبعية لى بالمخابرات الحربية أو المخابرات العامة ، ولكننا كلنا أمام تلبية الواجب مهما اختلفت وظائفنا لا نستطيع أن نتخلّف عن أداء ما يُطلب منا .

ومن المعلوم أن مصر قد تبنت قضية تحرير الشمال الأفريقى بصفة عامة وقضية الجزائر منذ نشأتها بصفة خاصة . وكان من واجبى التعاون مع الأخوة الجزائريين لأقصى حد ففتحت لهم صدرى وأبواب السفارة .

وقد دأبت الحكومة الفرنسية والمستوطنون الفرنسيون على بذر بذور الفرقة والفتنة بين زعماء المناضلين ، مما دفع قيادة الثورة الجزائرية إلى الحكم بإعدام الكثير من هؤلاء بوصفهم خونة حتى شاعت الدعاية الخاطئة بأن الزعماء الجزائريين يقتلون بعضهم بعضا ، بينما الحقيقة أنهم كانوا يعدمون من يتأكد لهم أنه من الخونة السلبيّين المُنساقين وراء المغريات الفرنسية . ولن أنسى الحزن والأسى العميق الذى أصابنى لحظة علمتُ فى مستهل شهر ديسمبر ١٩٥٧ بالنبأ المحزن الخاص بانحياز محمد بليونس القائد الجزائرى بقواته إلى صفوف الجزائريين الموالين لفرنسا ، فقد كانت تلك الخيانة فى نظرى تعدل هزيمة ضخمة للروح المعنوية لدى الوطنيين الجزائريين ، كما كانت نجاحا لفرنسا باستمالتها عددا من المناضلين وتحريضهم ضد قادتهم .

وكنت قد اقترحت على القاهرة فى مستهل ١٩٥٧ إنشاء رابطة صداقة مصرية فرنسية ، غير أن الفكرة لم تلق القبول وقتها باعتبار أنها مرفوضة من الرأى العام ، وعدت أثير هذا الموضوع من جديد فى فبراير ١٩٥٨ على أن تقتصر عضوية هذه الرابطة فى البداية على الفرنسيين الذين سيقومون بإلقاء المحاضرات ومدّ الرأى العام الفرنسى بكل ما من شأنه عبور الهوة السحيقة التى تفصله عن الحقائق ، على أن تضم رجال الفكر الفرنسيين ممن يهتمون بصفة مباشرة بمصر بحكم ثقافتهم كعلماء الآثار والاجتماع والمستشرقين ، ومن رجال الاقتصاد كأصحاب مصانع النسيج التى تستخدم القطن طويل التيلة ، والمصدّرين الذين تربطهم بمصر علاقات تجارية ، ومن رجال السياسة على اختلاف ميولهم الحزبية من اليمين واليسار. وقد أعددتُ قائمة بالأسماء المزمع الاتصال بها للانضمام إلى الرابطة، وكان بعضهم قد أرسل لى بالفعل معربا عن حماسه للانضمام ، ولم تشمل القائمة شخصيات يسارية ــ وإن كانت هذه الشخصيات بطبيعتها منحازة إلى صفّنا ــ إلا أنى آثرت عدم دعوتها إلى الاشتراك كى لا تصطبغ الرابطة بلون سياسى معين ، فضلا عن أن جملة من أعضاء حزب اليسار الجديد كانوا من اليهود الفرنسيين .

ولم تكن الصحافة الفرنسية فى تلك الآونة تنشر عن مصر إلا كل ما يسىء إليها باستثناء الصحف اليسارية ، بينما كان الصحفيون الراغبون فى الدفاع عن وجهة نظر مصر وعن قضية تدعيم الروابط بينها وبين فرنسا ــ رغم قلتها ــ لا يملكون الوسائل المادية لتحقيق أهدافهم . ومن ثم كان من الضرورى القيام بحملة دعائية لصالحنا بنشر المقالات الموضحة لوجهة نظرنا فى الصحف الفرنسية ، فاقترحت على السلطات المصرية الموافقة على تبادل المراسلين الصحفيين وبدأت هذه الخطوة على استحياء ، غير أنه كانت ثمة صعوبة بالنسبة للمراسلين المصريين ، وذلك بسبب تحاملهم الطبيعى على فرنسا مما أثار هياج القراء الفرنسيين ، لاسيما بعد أن فشلت المحاولة التى قامت بها مجلة « فرانس أو بزرفاتير» عندما عيّنتْ لها مراسلا مصريا فى القاهرة أثار القراء الفرنسيين بمقالاته الاستفزازية . ولذا ألححتُ على ضرورة توعية المراسلين المصريين بطبيعة العقلية الفرنسية وحثّهم على اتباع أسلوب معتدل متزن يجتذب القارىء الفرنسى ويشدّه إليه ، وطلبت إبلاغى بأسماء من يقع

عليهم الاختيار للاتصال بمجلتى فرانس أوبزرفاتير والإكسبرس الفرنسيتين . وتحقيقا لهذا الهدف أخذت على عاتقى إصدار نشرة فرنسية عن السفارة المصرية بروما تولاها المستشار الصحفى إلى جانب النشرة الصادرة بالإيطالية مرتين كل أسبوع لإرسالها إلى الصحفيين الفرنسيين الذين يهمهم الوقوف على مجريات الأمور بمصر من آن لآخر ، عملت على أن أزوّدها بين الفينة والفينة بالإضافة إلى الأنباء بأبحاث مستفيضة فى بعض النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، الأمر الذى جعلنى دائم الإلحاح على القاهرة على ضرورة وضعى دواما وأولا بأول فى الصورة العامة . ونتيجة لهذه الجهود والاتصالات ظهر فى أول مارس ١٩٥٨ عدد خاص عن مصر فى مجلة L' Horizon التى يطالعها المثقفون والصفوة الممتازة وتترجم إلى ثلاث عشرة لغة كتب فيه جملة من المفكرين الفرنسيين المهتمين بشئون مصر والشرق الأوسط ، وكنت قد أرسلت إلى رياسة الجمهورية بالقاهرة عددا من التساؤلات التى لاتفتأ الأوساط السياسية فى فرنسا تردّدها وتلقيتُ الإجابات الوافية عنها وأرسلتها الى الصديق بيير كوت رئيس تحرير تلك المجلة ووزير الطيران الأسبق وعضو مجلس الشيوخ . وكنت قد وجهت الدعوة إليه لزيارة مصر ولبّى الدعوة ثم مرّ علىّ بروما فى طريق عودته ليحدّثنى عن رحلته وأثرها فى نفسه ، وتقدم بعدها بتقرير مُفصّل يتضمن وجهة نظره إلى وزارة الخارجية الفرنسية . وأعقبت هذه الدعوة بأخرى إلى الأستاذ أندريه فيليب الوزير الاشتراكى السابق ومؤلف كتاب « الاشتراكية التى خانوها » Le Socialisme Trahi الذى كنت قد أرسلته إلى القاهرة قبل ذلك وقامت مصلحة الاستعلامات بترجمته دون الحصول على إذن المؤلف ، غير أنه مع استيائه من هذا المسلك قبل الدعوة لتكون فى منتصف فبراير ١٩٥٩ ، وكنت وقتها قد خلّفت روما وعينت وزيرا للثقافة والإرشاد القومى وحرصت على الاحتفاء به بما يليق بمكانته العلمية والسياسية . كذلك سعيت إلى التعرّف برئيس تحرير مجلة Réalites الفرنسية اليمينية العالمية الشهرة والمشهود لها بالرزانة والجدّية ، وتظهر لها طبعة إنجليزية فى نفس الوقت فى العالم الأنجلو ـ ساكسونى ، وسعدت باستقباله فى مكتبى بالسفارة حيث دار بيننا حديث طويل حاولت من خلاله أن أضىء الجوانب المعتمة التى كانت تخيّم على ذهنه حول مصر وسياستها ، فإذا هو

ينشر فى مجلته ـ فى الوقت ذاته الذى ظهر فيه عدد مجلة « الأفق » عن مصر ـ مقالا شديد الأهمية بعنوان « فى سبيل سياسة فرنسية فى الشرق الاوسط » يدعو فيه كاتبه إلى أنه ينبغى إعادة العلاقات مع ناصر بالرغم من حرب السويس ومن الباخرة آتوس ومن إذاعة القاهرة ومن عباس فرحات ومن ناصر نفسه . وأنه ينبغى أن يتوفر لإعادة العلاقات عوامل جديدة وأسباب قوية . وهذه العوامل والأسباب قائمة ولكن بشروط .... وعرض المقال تحليلا ممتازا للدور الذى يلعبه الرئيس عبدالناصر الذى يتصف بالاتزان والموضوعية التامة فى مصر وفى المنطقة العربية ، وانتهى بأن مبررات إقامة علاقات دبلوماسية مع مصر لها وجاهتها ، فإنه فضلا عن أواصر التبادل التجارى بين البلدين فلقد ظهر عامل جوهرى جديد هو الصراع الطويل العنيد الذى بدأه ناصر ضد الاتحاد السوفييتى دون أن ينضم إلى الغرب . والمفارقة المحيطة بناصر هو أنه يحارب فى جبهتين : يحارب ضد التدخل السوفييتى وضد الغرب الذى لم يفهمه و يواصل الحرب ضده ، وهى حرب لايستفيد منها سوى الروس ، ولهذا « فمن الخطأ الجسيم أن يستمر الغرب فى اعتباره عدوا له . إن السبب الجوهرى بالنسبة لفرنسا هو مصالحها المهددة فى هذه المنطقة التى يتزايد اتساعها تحت قيادة القاهرة . إنها المصالح المادية والمعنوية التى سوف يكون من المؤسف التضحية بها فى الوقت الذى يمكن فيه بعثها من جديد ثم تدعيمها » . على أن المقال قد اختُتم للأسف بالعبارة التقليدية المنادية بضرورة استبعاد مناقشة سياسة فرنسا مع كل من الجزائر واسرائيل .

وكنت قد تعرفت إلى هنرى كورييل مع مطلع عام ١٩٥٨ بمدينة جنيف ، وقدم لى عددا من الشيوعيين المصريين المقيمين بأوربا كانت فاتحة تعاون صادق فى خدمة المصلحة الوطنية . وقد اتفقت معهم على الاضطلاع بترجمة كتاب « الهدنة المشتعلة » Violent Truce إلى الفرنسية لقاء أجر رمزى لما اشتمل عليه من معلومات تثير القارىء عما كان لإسرائيل من أعمال عدوانية وقاموا بنشره وتوزيعه وإهدائه إلى بعض الشخصيات الفرنسية ذات التأثير مثل جان بول سارتر و بيير كوت وإمانويل داستييه وغيرهم ، كما نشروا بعض مقتطفات منه فى المجلات الفرنسية . وقد طلب منى هؤلاء الأصدقاء نقل مبلغ مايقابل ٤ مليون جنيه مصرى بالفرنكات السويسرية لحساب جبهة التحرير الجزائرية من سويسرا

إلى روما وتسليمها إلى السفير التونسى بروما لنقلها بمعرفته إلى تونس . وكا ن هذا المبلغ هو حصيلة المساهمات التى يدفعها الجزائر يون بفرنسا شهر يا تدعيما للنضال الوطنى بواقع ١٦٠٠ فرنكا شهر يا عن كل جزائرى ، وقد بادرت بالاستجابة لمطلبهم وعهدت إلى الملحق الجوى بالقيام بهذه العملية بمجرد تحديد موعد التسليم فى مقر وفدنا الدائم لدى الأمم المتحدة بجنيف . وأشهد أنه طوال تلك السنين كان كور ييل مثالا للتعاون الأمين سواء من حيث المعلومات السياسية المفيدة التى زودنى بها أومن حيث الاتصالات الجادة التى كان يحاول بها أن يخدم قضية تطبيع العلاقات بين مصر وفرنسا . وأعترف لوجه الحق أنه قام بمدّ جبهة التحر ير بالجزائر بمساعدات فعالة وكان تأييده للمجاهدين الجزائر يين بغير حدود فى الوقت الذى كانت تطاردهم فيه جميع أجهزة الدولة الفرنسية ، كما كنت ألمس ولاءه الشديد لمصر فى أكثر المواقف حرجا . وتحملنى تجر بتى معه طوال أعوام عشرة على تقدير سلوكه وحنكته السياسية وعلى العرفان بخدماته الصادقة لمصر . ولم أخف عن الرئيس عبد الناصر جهوده ومساعداته حتى أنى رجوته فيما بعد أن يردّ إليه جنسيته المصر ية لقاء خدماته ، وأيدت مطلبى بتسجيل كل ما أداه فى مذ كرة وافية إلى رئيس الجمهور ية فى ٢٢ أبر يل ١٩٦١ ، وهو ماحفزه إلى الموافقة على مسعاى ، غير أن الأيام مرّت دون أن تلقى هذه الموافقة هوى لدى الأجهزة المختصة .

وفى يناير ١٩٥٨ عكفت على إعداد تقر ير ضاف عما يلزم مصر أن تأخذ به فى علاقاتها مع فرنسا ، وكان هذا عن تكليف لى من رئيس الجمهور ية ، انتهيت فيه بعد استعراض كافة العوامل المؤثرة على السياسة الفرنسية فى خطوطها العر يضة لوقت طو يل إلى حقائق ثابتة لابد لنا من مراعاتها فى التعامل معها .

والحقيقة الأولى بطء تطور الفكر السياسى الفرنسى وقتذاك وخضوعه للعواطف والنزوات العصبية لا للرو ية والحكمة فى تصر يف الأمور تصر يفا سليما على ضوء المصالح الحقيقية .

والحقيقة الثانية وقوع التوجيه الفعلى للسياسة الفرنسية لا فى قبضة رجال الحكم المسئولين بل فى متناول مجموعة غير مسئولة لا تمثل مصالح وطنية خالصة

وإنما تسعى إلى خدمة مصالحها الخاصة ، من أمثال المستعمرين الفرنسيين فى الجزائر ورجال الصناعة والبنوك واليهود .

والحقيقة الثالثة أن القضية الكبرى بالنسبة لفرنسا هى الجزائر، وهوما يعنى ضرورة مقاومة القومية العربية بكل وسيلة .

والحقيقة الرابعة اندماج مصالح فرنسا مع مصالح اسرائيل فى الشرق الأوسط .

والحقيقة الخامسة تفتح آفاق جديدة واسعة لرأس المال الفرنسى فى الصحراء الأفريقية قد تستوعب إمكاناته كلها أوالجزء الأكبر منها .

وارتأيت على ضوء هذه الحقائق أنه ينبغى أن يكون لنا وجود فعّال فى فرنسا حتى نكون على أهبة الاستعداد والمواجهة وانتزاع ما يمكن الظفر به من مكاسب ، غير أن علينا أن نخطو متمهّلين وعلى حذر فى إعادة علاقاتنا مع فرنسا بادئين باستئناف العلاقات الثقافية والتجارية مقتنصين أول فرصة ملائمة تتاح لنا ، على أن نبادر بالتحرك من أجل كسب الرأى العام الفرنسى وبخاصة صفوة المفكرين وقادة الرأى ليقوموا بدورهم فى تنوير الرأى العام وكسبه إلى جانب قضيتنا ، وهو عمل جدير بما يُبذل فيه من جهد مهما استغرق من زمن ، لأن استئناف علاقات سياسية مع فرنسا قبل تصفية الأحقاد لن يفيد قضيتنا بقدر ما يفيدها استقطاب جملة من أصحاب الفكر ذوى التأثير فى الناس ، وهو ما كنا قد حققنا فيه بعض الخطوات الإيجابية بالفعل . كما أشرت ـ عن إيمان صادق واقتناع تام ـ إلى حكمة التريّث شيئا فى إعادة العلاقات السياسية مع فرنسا حتى تتسنى تهيئة الظروف المواتية لاستئنافها على أسس جديدة لا تشوبها خلافات جوهرية تكون سببا فى تدهورها . أما تقدير الوقت المناسب لإعادتها فهو رهن بظروفنا وظروف فرنسا ، وبحلّ المشكلات الكبرى بيننا وبينها ، وهو ما يتطلب ؛ أولا : كفّ فرنسا عن تأييد إسرائيل بالصورة السافرة التى تمضى عليها الآن ، وعن عرقلة السلام فى الشرق الأوسط بإثارة المشكلات فيه . ثانيا : احترامها لحقوق الشعب الجزائرى بالاعتراف له فى البداية بشخصية مستقلة بالصورة التى لا تحول دون حصوله على الاستقلال فى المستقبل . ثالثا : احترامها لحيادنا الإيجابى الذى ينبغى أن يشمل منطقة الشرق الأوسط . رابعا : استغلال عامل المنافسة وشعور فرنسا المرهف بمركّب النقص إزاء حليفاتها الغربية ، إذ أنها تعيش على ذكرى أنها كانت

دولة عظمى ذات يوم ، وتعتقد أن الأيام تُنبىء باستعادة مكانتها الأولى ، وهى لذلك لن تقبل البقاء بمنأى عن ميدان حيوى من الميادين الدولية بينما تنشط فيه دول تنافسها فى مجالى السياسة والاقتصاد. خامسا : استغلال عامل المنافسة الاقتصادية بتشجيع كل من إيطاليا وألمانيا على المزيد من المساهمة فى مشروعاتنا الاقتصادية لاسيما أن تلكما الدولتين هما الشريكان الجديدان لفرنسا فى استغلال مصادر الثروة فى أفريقيا

* * *

وخلال عام ١٩٥٨ أقدمت الحكومة الفرنسية على جريمة رهيبة. كانت قرية سيدى يوسف التونسية الواقعة على حدودها مع الجزائر تضم إلى سكانها مخيمات يأوى إليها اللاجئون من الجزائر، فقام سلاح الجو الفرنسى بالجزائر بشن غارة على القرية بما فيها المخيمات ، فإذا هذه الغارة الغاشمة تنجلى عن تدمير تام للقرية وإبادة لسكانها ومعهم اللاجئون الجزائريون ، ولم تبق هذه الغارة ولم تَذَر ولم ينج من و يلاتها شيب ولاولدان. وقد هزّت هذه المأساة الكبرى ضمير العالم أجمع واستنكرها الكل ، وهزّت فيا هزّت الأمم المتحدة فإذا هى تصدر قرارا تدين فيه هذه المجزرة الرهيبة وتقضى فيه على حُجّة الفرنسيين التى ادّعوا فيها أن لهم الحق فى تعقّب الثائرين أنّى كانوا وفى ظل أى دولة وُجدوا ، الأمر الذى أدى إلى احتجاج تونس. وكما أدانت الأمم المتحدة هذه الفعلة أدانها أيضا الكتاب الأحرار من الفرنسيين ، وكان على رأسهم الشاعر لوى أراجون الذى ضمّن أحد دواو ينه عبارات تشير إلى هذه المأساة وتنم عن استنكاره واستهجانه لما حدث لهؤلاء الأبرياء ، وإذا هو يقول قوله المأثور « هل للخجل سبيل إلى نفوسكم وهل ضلّ عنكم معناه ؟ إذا كنتم تعرفون للخجل معنى ، فأحرى بكم أن تضمّنوا بيت شعر فرنسى قرية ساقية سيدى يوسف ، ولسوف تكون كالخنجر فى صدوركم ».

وعندما تدخل الأنجلو أمريكان للوساطة بين فرنسا والجزائر ارتطمت هذه الوساطة بصعاب جمة مما حدا بأيزنهاور إلى توجيه رسالة إلى جايار رئيس وزراء فرنسا يدعوه فيه إلى إظهار مزيد من التفاهم مع تونس ، الأمر الذى فجّر الأزمة التى كانت تتوقّعها أحزاب اليمين من جهة والعسكريون المقيمون فى الجزائر من جهة أخرى ، فشنوا حملة معادية ضد أمريكا معلنين أن أى سياسى فرنسى يقترح

حلا بالتساهل مع الجزائريين يُعدّ خائنا . وحين أعلن جايار أن أى حل إيجابى للمشكلة الجزائرية يقتضى مبدأ المفاوضة مع ممثلى الشعب الجزائرى رفضت الجمعية الوطنية منحه الثقة ، وشدّد الجيش الفرنسى قبضته على الجزائر ولم يُعر التفاتا تعليمات حكومة باريس ، وخرج الجنرال ديجول من معتزله ليعلن فى خطاب عام أنه على استعداد تام لتولّى السلطة متجاهلا الهيئات الرسمية للدولة ورجالها ، وقد فُسّر خطابه بأنه موافقة ضمنية على تمرّد الجيش الفرنسى فى الجزائر. وأعلنت الجمعية الوطنية حالة الطوارىء ، وطالب ديجول بسلطات استثنائية تفوّضها له الجمعية الوطنية مما اعتبره الحزب الاشتراكى تجاهلا من ديجول للدستور. واتهم الحزب الشيوعى ديجول بأنه الرأس المدبّر لتمرّد الجيش فى الجزائر، وأضربت بعض المنظمات العمالية عن العمل لمدة ثلاث ساعات أثناء عقد ديجول لمؤتمره الصحفى الذى طالب فيه بالسلطات الاستثنائية .

وباتت فرنسا تخوض فى الجزائر غمار حرب أهلية لتتفادى قيام حرب أهلية فى أراضيها ، وأصبح هناك خوف من أن يتسع التمرد على السلطة المركزية ليشمل جزيرة كورسيكا ، كما لم يعد مستبعدا أن يسعى عملاء التمرد إلى السيطرة على أجزاء متفرقة من الاتحاد الفرنسى . وكان الأسطول وجنود المظلات فى خدمة المتمرّدين ، وهو ما جعل رئيس الجمهورية الفرنسية ــ وهو عنوان الشرعية الجمهورية ــ يلوّح بعجزه ، وأنه لم يبق أمامه لمعالجة الحالة المتردّية إلا تكليف ديجول بتولى الحكم ، إذا لزم الأمر. وهكذا غيّرت هذه الأحداث من اتجاه المشكلة الجزائرية بعد أن أصبح انفصال الجزائر أمراً محقّقا ولم تعد الإدارة المحلية فى الجزائر تقبل أن تفرض فرنسا عليها القرارات ، وبدأت تشعر أنها وحدها التى ينبغى أن تتحكم فى مصيرها ، وأخذ أوربيّو الجزائر يتظاهرون بالتقرب من أهل الجزائر المسلمين ورغبتهم فى العيش معهم على قدم المساواة ، ولو أنهم لم يجدوا بين أيديهم وسيلة لإغراء الجزائريين المسلمين سوى دعوتهم للدخول فى الجنسية الفرنسية . وبذل المتمردون جهودهم لحمل الرأى العام الدولى على الاقتناع بأن الشعب الجزائرى متضامن معهم مستخدمين لذلك وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وسينما فى محاولة لإقناع العالم بأن العرب والفرنسيين يسيرون يدا واحدة فى حين أنهم لم يعطوا العرب فى لجان « الخلاص العام » Salut Publique إلا ١٣

مقعدا من بين ٧٢ . وتفاقمت الأزمة وأخذ يسود الاعتقاد بأن ديجول هو المخلّص الوحيد من هذا الانقسام الذى يفصل الحكومة عن أداة سيطرتها ، وهى الجيش الذى تمرّد عليها .

وقد خرجتُ من دراسة هذه الأوضاع فى فرنسا بالنتائج التالية :

أولا : أن فرنسا لا تملك تغيير موقفها إزاء الجزائر بصورة عملية ، فلا الحكومة الشرعية فى باريس فى مركز يسمح لها بالاعتراف بحقوق الشعب الجزائرى ، ولا اللجنة الثلاثية الثورية بمتخلّية عن تمسكها بأن الجزائر فرنسية .

ثانيا : كان لوقوع أحداث لبنان ونزول القوات الأمريكية على أرضه فى نفس الوقت الذى نشبت فيه الأزمة الفرنسية أثر ضار بالقضية الوطنية الجزائرية ، إذ شجعت الدوائر الفرنسية فكرة السلطات الأمريكية بالتدخل لمساعدة الحكومة اللبنانية ضد المعارضين لها وطالبت بتطبيق المبدأ ذاته على الجزائر.

ثالثا : كان لذكر موضوع الجزائر ضمن البلاغ الرسمى الصادر فى أعقاب زيارة الرئيس عبد الناصر لموسكو، وبالتالى لدخول الاتحاد السوفييتى طرفا فيه ، كان لذلك أثره على القضية الجزائرية لدى دول حلف الأطلسى التى كانت مترددة فى تأييد فرنسا بدرجات متفاوتة ، فشرعت فى تغيير موقفها لاعتقادها بأن الجزائر قد أصبحت ميدانا هاما يحاول الشيوعيون النفوذ إليه لتطويق حلف الأطلسى من الجنوب ، وأن الموقف لم يعد يسمح بمجاراة العواطف أو الاستمساك بالمبادىء الإنسانية ، بل إن الظروف باتت تحتم على دول الحلف الوقوف صفا واحدا مع فرنسا . وقد استغلت الصحافة والدبلوماسية الفرنسيتان البيان المصرى السوفييتى إلى أبعد مدى لتأليب الرأى العام والحكومات فى الغرب على حركة البعث العربى واتهمتها بأنها تلعب لعبة موسكو، وهو ما كان له أثر كبير فى ارتداد البعض عن التعاطف مع حركة الوطنيين الجزائريين .

رابعا : أخذ الثقل النسبى لفرنسا داخل النطاق الأوربى والأطلسى فى التضاؤل بينما أخذت قيمة كل من ألمانيا الغربية وإيطاليا فى الوقت ذاته فى الازدياد .

خامسا : كان من أغراض توثيق التعاون بين فرنسا وإيطاليا وألمانيا الوصول إلى نوع من التوازن داخل حلف الأطلسى ومواجهة السيطرة الأنجلوسكسونية عليه ، لاسيما أن بريطانيا كانت تسعى إلى جذب إيطاليا إليها لوقف النفوذ الألمانى الآخذ فى الازدياد عند حدّه .

سادسا : كان مايجرى فى فرنسا وقتذاك من شأنه أن يشلّ الجهاز الدفاعى الأطلسى لفترة من الزمن ، الأمر الذى لم يَعُدْ يُستبعد معه أن يزداد تدخل حلف الأطلسى فى المشاكل ذات الصبغة الدولية التى يتعرض لها أعضاؤه لتفادى تكرار نشوء حالات مماثلة ، حتى بات من المتوقّع أن تتوحّد نظرة الدول الأعضاء فى الحلف بالنسبة لبعض مشاكل معينة فى المناطق التى تصطدم فيها السياسة الغربية بالسياسة السوفييتية .

سابعا : إلى أن يتم للولايات المتحدة أن تنشىء فى أراضيها قواعد للصواريخ عابرة القارات فسوف تشتد حاجتها إلى القواعد المحيطة والمطوّقة للكتلة الشرقية .

ثامنا : إن علاقات فرنسا بحلفائها من حلف الأطلسى قد يصيبها شىء من التوتر بسبب شخصية ديجول العنيدة المعتزة بنفسها .

وفى الخامس والعشرين من يونيه ١٩٥٨ نمت إلىّ معلومات عن استعدادات تُدبّر لتدخّل عسكرى غربى فى سوريا والأردن يستهدف القضاء على الوحدة المصرية السورية وتدعيم النفوذ الغربى فى منطقة الشرق الأوسط . وقد أبرقت على الفور بهذه المعلومات ، غير أنى مالبثت أن تلقيت مكالمة هاتفية من صديق جليل هو وزير الدفاع السابق پييركوت عضو مجلس الشيوخ الفرنسى يصرّ على ضرورة مقابلتى بسويسرا لأمر عاجل ، فلقيته فى نفس الليلة حيث أكد لى ما كان قد بلغنى قبلُ من معلومات ، وأضاف أن تصريح كوف ده مورڤيل وزير الخارجية الفرنسية الأخير الخاص باشتراك فرنسا فى أى تدخل عسكرى غربى إنما هو لإرضاء العسكريين الفرنسيين الذين يمارسون الضغط عليه ، على أن الإنجليز والأمريكان غير متحمسين لاشتراك الفرنسيين إذ تقوم خطتهم على أن يقوم العراق والأردن بمهاجمة سوريا فى ستر مظلة جوية عربية إسما وأنجلو أمريكية فعلا ، الأمر الذى يصبغ العملية بصبغة عربية محلية للحيلولة دون تدخل الاتحاد السوفييتى الذى لن يجد مايسوغ تدخله مادام القتال يدور بين العرب بعضهم البعض . وحذّر من أن الخطة مبنيّة أساسا على المفاجأة والسرعة لتصفية سوريا فى ثلاثة أيام ، وتنصيب حكومة موالية قبل أن تتمكن مصر من تعبئة الرأى العام العالمى ضدهم متداركين ماوقعوا فيه من تباطؤ فى عملية السويس . وذكر أن الطائرات على أهبة الاستعداد فوق حاملات الطائرات الراسية بجزيرة قبرص لتحول دون أية إمدادات من مصر عبر البحر المتوسط ، على حين ترابط الطائرات فى الأردن

والعراق وإسرائيل لتحول هى الأخرى دون وصول أية إمدادات برّية . وقد تجشم الوزير كوت مشقة المجىء بهذه السرعة الخاطفة تقديرا منه لخطورة الموقف ، وأوصى بالإسراع بطلب انعقاد مجلس الأمن لفضح الخطة المبيّتة وإحراج الأمم المتحدة بطلب وضع مراقبيها على الحدود العراقية السورية ، وضرورة التباحث مع الاتحاد السوفييتى لاتخاذ موقف يحذّر الأنجلوأمريكان من المغامرة ، فضلا عن إبلاغ الولايات المتحدة رسميا تصميم الشعبين المصرى والسورى على المقاومة والتّصدى ، وانتهى إلى ضرورة استخدام الإذاعة والصحافة العربية لتحذير الرأى العام العراقى والأردنى وتنويره إزاء مغامرة حكومتيه .

وفى شهر يوليه من نفس العام نشرت صحيفة لوموند أن لفيفا من أساتذة الجامعة ورجال الفكر السياسى الفرنسيين قد أنابوا عنهم ثلاثة أساتذة من كل فرع من العلوم لتقديم مذكرة إلى كوف ده مورڤيل وزير الخارجية فى حكومة الرئيس ديجول مطالبين بضرورة العمل على إعادة العلاقات الثقافية بين فرنسا ومصر على أوسع نطاق ، وكان أغلب الأساتذة أعضاء فى رابطة الصداقة الفرنسية المصرية التى جرى التفكير فى إنشائها كما أسلفتُ منذ بضعة شهور .

وكلما مرّت الأيام زدتُ اقتناعا بأن ماسبق لى أن انتهيت إليه فى تقديرى للموقف الذى قدمته فى السابع عشر من يناير ١٩٥٨ بالنسبة لمستقبل علاقاتنا مع فرنسا مازال صحيحا وقائما ، لأن الاعتبارات التى بنيتُ عليها رأيى بضرورة عدم الإسراع فى استئناف تلك العلاقات مازالت فى نظرى ماثلة بل غدت حقيقة واقعة . وكان أن أرسلت إلى الرئيس عبدالناصر فى الحادى عشر من أغسطس ١٩٥٨ مذكرة بيّنتُ له فيها أنى مدرك تماما أن الحالة التى عليها تلك العلاقات غير طبيعية ، فالمفروض قيام تلك العلاقات بين الدول ، وأن انقطاعها هو الاستثناء ، كما أنى مدرك أن استئناف العلاقات مع فرنسا من شأنه أن يسمح بإجراء المبادلات الاقتصادية معها بصورة أوسع مما هو عليه الآن ، الأمر الذى يساعد على إنعاش الحالة الاقتصادية لدينا ، ولكن مع تقديرى لهذه الاعتبارات الهامة فمازلت أرى أن ثمة اعتبارات جوهرية تدعو إلى التريث قبل استئناف العلاقات السياسية مع فرنسا ، بعضها اعتبارات خارجية والأخرى داخلية .
أما عن الاعتبارات الخارجية فقد أوضحتُ أن الأسباب الفعلية التى حملت فرنسا

على ارتكاب أخطاء جنونية متهوّرة فى حقّنا مازالت قائمة ، فالعداء السافر الذى كانت تواجهنا به فرنسا لم تخف حدّته ، والأسلحة الفرنسية ماتزال تتدفّق بلا انقطاع على إسرائيل ، والتعاون الوثيق بين جهاز المخابرات الاسرائيلية وجهاز المخابرات الفرنسية قائم على قدم وساق بل إن الصلة بين القيادتين لا تقف عند حد تبادل المعلومات بينهما ، فنحن على وجه اليقين إزاء تحالف فعلى لا يجعل من فرنسا خصما من خصومنا فحسب بل عدوّا لنا رابضة قواته على أبوابنا . هذا من ناحية اسرائيل وكونها سببا جوهريا من أسباب القطيعة بيننا وبين فرنسا إلا أن هناك سببا جوهريا آخر يهدد لا محالة علاقاتنا مع فرنسا فى المستقبل إذا ما ظل قائما وأعنى به مشكلة الجزائر. فلقد أنسِيَ الرأى العام الأوربى منذ التمرّد الذى قام به الجيش الفرنسى والمتطرفون من الرجعيين الفرنسيين فى ١٣ مايو ١٩٥٨ مشكلة الجزائر العربية بعد أن طوته مناورة ديجول وأنصاره التى ادّعت أن الشعب المسلم العربى فى الجزائر قد اكتسب فعلا حقه فى المساواة توطئة لاكتسابه حقه فى الحرية بينما الحقيقة تخالف ذلك ، كما غدت أنباء التطورات الدستورية والداخلية فى فرنسا هى الطاغية على سواها فى الوقت الذى تزداد فيه القوات الفرنسية بطشا بالمحاربين الوطنيين فى الجزائر تحت ستار من الكتمان المنظم . ولما كانت معركة التحرير فى الجزائر وتأييدنا لها سببا مباشرا لاشتراك فرنسا فى العدوان الثلاثى الذى تعرضنا له فى نهاية ١٩٥٦ ، لذلك لن تحجم فرنسا إذا ما انتصرت فيها قوى الرجعية الفاشية الممالئة لاسرائيل عن ركوب رأسها من جديد ، يحفزها إلى ذلك ثقتها بأن الولايات المتحدة لن تعرقل هذه المرة مغامراتها العدوانية .

وهذه كلها اعتبارات خارجية من شأنها أن تُفسد علاقاتنا مع فرنسا ، ولما كانت الأسباب تؤدى عادة إلى نفس النتائج فلا مصلحة لنا أو على الأقل لامصلحة عاجلة لنا فى استئناف علاقات سرعان ماتكون مهدّدة بالانقطاع من جديد إذا ماتغلب الرجعيون عن طريق انقلاب يؤيده الجيش . وأضفت إلى هذه الاعتبارات الخارجية اعتبارات داخلية فرنسية لا تشجع على التعجيل باستئناف العلاقات العربية الفرنسية ، ذلك أن تولى ديجول رياسة الحكومة لم يُنْه مشاكل فرنسا الداخلية ولم يُكْسبها استقرارا سياسيا أونفسيا بعدُ ، وما زال الناس حائرين فى تكييف المستقبل قلقين على مصير الحريات ، فثمة تياران يتنازعان تأييد

ديجول : تيـار يـرى فيه زعيما قادرا على قيادة فرنسا لاستعادة المجد والطمأنينة بتوفير أسـبـاب الـعـمـل والاستقرار و بإعادة الحر يات العامة ، بل و بسطها إلى الأقاليم الـواقـعـة خـارج فـرنـسـا الأور بية ، وهو مايعنى تصوّرهم أن السياسة التى ينتويها للـجـزائـر مـن شـأنـهـا أن تـعـيـد الـسلام إلى تلك الأرض المرتو ية بدماء الشهداء . أمـا الـتيار الثانى فهو تيار الرجعيين المتزمّتين الذين اتخذوا من ديجول فى مبدأ الأمر رمزالهم ، ولم يكد ينجح فى أن يكتسب شيئا من الاستقلال فى قراراته حتى انقلبوا عـلـيـه وشـرعـوا فى الإعـداد للقيام بحركة انقلابية بمساعدة عقَدَاء الجيش تستهدف إقصاء ديجول وتولية سوستيل اليهودى المتفرنس والمغالى فى رجعيته مكانه ، فإذا فاز ذلك الفر يق الذى يُدارى تمرّده و يستعد لوضع الشعب الفرنسى أمام الأمر الواقع تـلاشـت بالتالى الآمال فى استقرار الحالة فى الجزائر العر بية وازدادت الحالة سوءا واشـتـد الـقـهـر والـبطش ، ومن ثم فلا مصلحة لنا فى التعجّل باستئناف العلاقات العر بية الفرنسية مع حكومة أونظام مهدّد بثورة إذا كُتب لها النجاح أطاحت به .

هـذه الاعـتـبـارات مجتمعة هى التى دعتنى إلى التوصية بالتر يّث قبل الإقدام على خـطـوة اسـتـئـنـاف العلاقات السياسية مع فرنسا إلى أن ينجلى الموقف خلال شهر أكتوبر ، وعندها يمكننا تقدير موقفنا على ضوء عوامل ثابتة تسمح باتخاذ القرار الـذى يحـقـق مـصـالحـنـا . و بطبيعة الحال لا يحول هذا التر يث دون قيامنا بانتهاز الـفـرصـة فيما يجرى من لقاءات لمحاولة إقناع الجانب الفرنسى بأهمية تخلّيه عن تقديم الـدعـم الـعـسـكـرى لاسـرائـيـل و بـضـرورة الاعـتـراف بحق الشعب الجزائرى فى الاستقلال .

وفى مـسـتهل شهر سبتمبر اتصل بى أحد معارفى الفرنسيين من بار يس ليبلغنى رغـبـة وزارة الخـارجـيـة الفرنسية فى إيفاد الوز ير المفوض چيليه مدير مكتب وز ير الخـارجـيـة كوڤ ده مورڤيل للقائى وبحث مستقبل العلاقات بين البلدين . و بعد أن حـصـلـت على مـوافـقـة القاهرة أخذت أعدّ لهذا اللقاء الذى استغرق طيلة نهار ١٧ سبتمبر ١٩٥٨ حيث أجر ينا استعراضا كاملا للموقف لم يقطعه قيامنا لتناول طـعـام الـغـداء بـالـسـفـارة ، وانـصـبّ الحوار الأول على سلسلة المباحثات المصر ية الـفـرنـسـيـة لـتـطـبيع العلاقات بينهما . وقد أوضحت للوز ير چيليه أنه ليس هناك مـايحـول دون قـبـول مبدأ استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر وفرنسا ، غير أن

هناك مسائل لابد من حُسبانها حتى تقوم العلاقات على أساس وطيد أجملتها فى أن القومية العربية تعبير طبيعى عن شعور قومى عميق الجذور لدى كافة الشعوب العربية ، وأن سياسة الجمهورية العربية المتحدة هى الحياد الإيجابى بين الكتلتين الشرقية والغربية ، ومن ثم فالمتوقع من الحكومة الفرنسية احترام تلك السياسة ، كما أنه من المتوقع منها أيضا أن تقدم لنا الضمانات الكافية بإيقاف توريد الأسلحة لاسرائيل التى لن تستخدم إلا ضدنا ، هذا إلى العمل من جانب الحكومة الفرنسية ــ ولاسيا بعد تشريعاتها الصحفية الأخيرة ــ على تنوير الرأى العام الفرنسى بحقيقة الموقف فى الشرق الأوسط دون تحيّز للجانب الإسرائيلى .

وقد تجنّبت الخوض فى موضوع الجزائر فى مستهل اللقاء إلى أن طرقه هو مؤكدا اعتراف كوف ده مورفيل بالقومية العربية وتسليمه بها حقيقة قائمة ، وكذلك الحال بالنسبة لسياسة الحياد الإيجابى ، معلّقا بأن التنافس بين الكتلتين سبب من الأسباب الجوهرية للتوتر الملحوظ فى منطقة الشرق الأوسط . أما عن الضمانات التى نطالب بها لإيقاف توريد الأسلحة الفرنسية إلى اسرائيل فقد أصر على أن الأمر لم يعد كما كان فيما مضى إلى حدّ أن جولدا مائير لم تصادف حين حضرت إلى باريس ما كانت تطمع فيه من ترحيب أو استجابة لطلبات الأسلحة التى قدمتها ، وذلك لأن الأوساط السياسية التى كان تحرك السياسة فى الماضى من وراء الستار بتأثير اليهود أمثال سوستيل قد توارت أو كادت ولم يبق منها إلا القليل . وحين أعدت عليه السؤال عن الضمانات التى تستطيع فرنسا تقديمها بالنسبة لإيقاف إمداد إسرائيل بالأسلحة والمعدّات ، وكذا بالنسبة لتدريب العسكريين الاسرائيليين عليها أخذ يُطمئننى إلى أنه من غير المعقول أن يُقْدم ديجول ــ وهو شخصيا صاحب فكرة هذا اللقاء بيننا ــ على سياسة تفاهم مع الدول العربية دون أن يدخل فى تقديره أن هذا من شأنه تعديل سياسته إزاء اسرائيل . وإذا هو يقترح فى النهاية إيفاد أحد الدبلوماسيين من كل من الجانبين بدرجة مستشار يعاونه خمسة أفراد أو ستة لمباشرة عودة العلاقات بين البلدين توطئة لتبادل السفراء فيما بعد . كما أشار إلى أن الصحافة الفرنسية قد خفّفت كثيرا من لهجة عدائها نحونا فى الفترة الأخيرة ..على أنه أبدى قلقه من موضوعين كان أولهما هو موضوع الاتفاق الثقافى المعقود بين فرنسا ومصر إذ أن مدير البعثة العلمانية

الفرنسية عاد من زيارته للقاهرة وقد انطبع لديه شعور بأن السلطات غير متحمّسة لوضعه موضع التنفيذ . وكان تعليقى على هذا هو تعجّل مدير البعثة العلمانية فى سفره إلى القاهرة خلال شهر أغسطس ، وهو شهر الأجازات الذى لايسهل فيه عادة الوصول إلى قرارات حاسمة ، هذا فضلا عن أن وزير التربية والتعليم كان فى مهمة بسوريا . ثم إنه طالب باستلام المدارس الفرنسية قبل شهر أكتوبر ، وهو أمر عصىّ على التحقيق من الوجهة العملية لقصر المدة المتاحة من جهة ، ولأن السنة الدراسية قد أوشكت على البدء من جهة أخرى . وأضفت أنى حرصت على أن أوضح لمدير البعثة العلمانية بنفسى عند لقائى به فى القاهرة مؤخرا أن الحكومة المصرية ترحّب بقيام مدارس فرنسية وبصفة خاصة مدرسة للإدارة وأخرى للتدريب المهنى العالى الكفاءة ومدرسة للترجمة ، كما أوضحت له أن توقيع الاتفاق لم يكن ليتم لولا تدخل الرئيس عبدالناصر شخصيا وتصدّيه لتخطّى كافة الصعاب القائمة .

وأخيرا كان موضوعه الختامى هو الجزائر ، وكنت شديد الوضوح حين صارحته بأننا لا نستطيع أن نتخلّى عن إخواننا الجزائريين ، وأن استقلال الجزائر هو الصيغة الوحيدة المقبولة منا . أما المزايا التى تستطيع حكومة الجزائر منحها لفرنسا سواء أكانت اقتصادية أم فنية فهذا متروك للجزائريين أنفسهم لتسويته معهم ، فلديهم من النضج السياسى مايؤهلهم للاضطلاع بحل مشاكلهم بأنفسهم . ثم إن مصر على غير استعداد للقيام بأية وساطة ولكنها مستعدة لإقناع الجزائريين بقبول الحد الأدنى دون مغالاة ، إن كان بينهم من يغالى .

ثم مالبث أن ألمح بالأسلوب الدبلوماسى إلى أنه يحدث أحيانا أن تعمل أجهزة المخابرات منفردة فتأتى بتصرفات لا تعلم بها الحكومات ، وضرب لذلك مثلا عملية القبض على بن بللا ورفاقه مؤكدا أنها تمّت دون علم الحكومة الفرنسية القائمة وقتذاك ، وعلى نفس النهج ضبطت السلطات الفرنسية منذ أيام باخرة مصرية تحمل سلاحا إلى الجزائر ترافقها غواصة لحمايتها . وحين أنكرت علمى بهذا الموضوع وكنت صادقا لم يلحّ عليه . كذلك ألمح إلى إزدياد لهجة صوت العرب حدّة وعنفا هذه الأيام ، كما صارحنى بعدم إمكانهم التفاوض مع جبهة التحرير

الوطنية ، وبرغبتهم فى إجراء انتخابات فى مبدأ الأمر تجرى المفاوضة بعدها مع ممثلى الشعب الجزائرى المنتخبين .

فكشفت له عن دهشتى من إغماض عيونهم عن الحقائق ، إذ أن جبهة التحرير الوطنية هى الهيئة التى تمثل الشعب الجزائرى تمثيلا صادقا ، وأنهم إذا كانوا ينشدون حقا وضع حد لهذه الحرب فلا مناص لهم من التزام الواقعية والتفاهم معها تجنبا للمزيد من إراقة الدماء والإنفاق . فأوضح لى عدم رفضهم التفاهم مع جبهة التحرير غير أنهم يرون أن هذه الجبهة ليست الهيئة الوحيدة فى الجزائر، وأن الوقت غير مناسب الآن لإجراء هذا التفاهم ، فهناك الجيش وهناك البورجوازية الصغيرة من الفرنسيين فى الجزائر، وهؤلاء وأولئك يعارضون بشدة إجراء أى حوار مع جبهة التحرير، حيث البورجوازية الصغيرة فى نظره أقوى من كبار الأثرياء . ولذلك يجد ديجول حريصا على ألا يصدر عنه فى أحاديثه أوتصريحاته أى دليل إيجابى عن رؤيته لمستقبل الجزائر، لأنه لوفعل الآن لسقط لتوه ، حيث لا يستطيع أن يرضى لا أحزاب اليمين ولا أحزاب اليسار، وسيمضى على هذا المنوال شديد الحذر إلى أن يتمكن من القبض بيديه على زمام جهاز الحكم تماما .

وحين أعود بذاكرتى إلى تلك الأيام الزاخرة بالنشاط الواسع الذى اقتضته الظروف القائمة وقتذاك أتبيّن مدى اتساع الجبهة التى كان علىّ أن أعمل فيها وقوة التيارات المتضاربة المحيطة ومبلغ شراسة المواقف المعادية التى كانت تواجهنا . وما من شك فى أن التجارب التى مرّت بى خلال تلك المرحلة قد أكسبتنى خبرة ودراية أعانتنى فيا بعد عوناً بالغا . وعندما بلغت مهمتى فى روما نهايتها كان الله قد وفقنى إلى تحقيق قدر لابأس به من المهام التى أوكلها إلى الرئيس عبدالناصر حين أسند إلىّ منصب سفير مصر فى روما باعتبارها نقطة ملاحظة أمامية تُطِلّ على العالم الغربى ، كما أسهمت فى إزالة الكثير من الشكوك المتراكمة بالنسبة لسياستنا ومواقفنا مما جعل فى الإمكان العودة شيئا فشيئا وفى خلال سنوات قليلة إلى تطبيع العلاقات المصرية بالدول الأوربية الغربية وخاصة فرنسا وبريطانيا .

* * *

(١) أحد تلال روما السبعة و يضم قصر الرياسة .

(٢) سؤال : قد تؤدى بنا الأحداث الحالية إلى نزاع عالمى ، والغربيون مصممون على الدفاع عن مصالحهم البترولية مهما كلفهم الأمر، وهم لايعتقدون أن فى الإمكان التفاهم مع شرق أوسط شملته الناصرية . فهل هم على خطأ ؟

جواب : إنه من المؤسف — إن لم يكن من المؤلم — أن يصل بنا الأمر إلى الحديث فى استسلام عن نزاع عالمى فى حين أن ميثاق الأمم المتحدة يوفر أكثر من وسيلة لحل المنازعات حلا سلميا ، ثم إن مصالح الغرب البترولية لاتعدو تأمين مرور البترول فى أمان إلى الدول المستوردة له ، وللعرب مصلحة مشتركة مع تلك الدول فى عدم تعطيل استغلال ونقل هذه المادة الأولية الثمينة بالنسبة للجميع ، أما أن يصل الأمر إلى ضرورة احتلال الدول العربية أو إقامة حكومات هزلية فيها فلاشك أنك تتفق معى فى أن هذا لايُعتبر الحل المثالى لتأمين حماية مصالح الدول المستوردة للبترول ، بل إنى اذهب فى القول إلى أن ذلك من شأنه التسبب فى التهديد الذى يحاولون تجنّبه . إن التدخل أو الإحتلال بات من الأمور غير المعقولة فى الوقت الذى لم تعد هناك حاجة إلى إثبات أن حماية الأهداف العسكرية والصناعية أصبحت أمرا مستحيلا ، والمنطق يفرض علينا أن يضع عصر الصواريخ حدا لفكرة أصبحت غير ذات موضوع . ولا يوجد فى الوقت الحالى أى دليل على وقوع تهديد من جانب العرب على بترول الشرق الأوسط وقد صرحت بهذا حكومة الجمهورية العراقية . ونحن يحق لنا أن نشتبه فى أن كل هذا إنما هو ذريعة تبغى بها بعض الدول الغربية الاستمرار فى أحلامها محاولة بأساليب عتيقة أن تتمسك بأهداب ماض لاعودة له .

وهذا هو مركز الخطأ السياسى الذى يعيب كل سياسة تتبع مع العالم العربى فى المستقبل ، فإن الشرق الأوسط العربى يرغب قبل كل شىء أن يكون عربيا وأن يظل كذلك ، كما أنه يرغب أن يكون متحدا مستقلا يحظى باحترام الغير . وماتسمونه « بالناصرية » ليس سوى يقظة الوعى القومى ونهضته . ولماذا لايقبل منا ما كان مقبولا من غيرنا ؟ إن القومية العربية خالصة من أية شائبة أجنبية وهى منبعثة من أعماق شعوب العالم العربى .

وإذا فرضنا ــ وهو افتراض غير سليم ــ أن القومية العربية من عمل رجل واحد لكان علينا أن نبحث عن القوى التي دفعت هذا الرجل إلى هذا المسلك وعن حركات التحرير السابقة عليه ؟ ثم إن القومية العربية ظاهرة تاريخية لايمكن أن يثنيها تهديد أويحطمها مدفع ، غير أن بعض الدول الغربية لم تعر تلك الحقيقة التاريخية إلا نوعا واحدا من الاهتمام ، ألا وهو محاولة تحطيمها . ألا ترى معى أن الوقت قد حان للالتجاء إلى أساليب أخرى ؟ وأن من الخطورة عدم إدارك الحقيقة ، أما إدراكها ثم مواصلة سلوك بتجاهلها فهذا هو الخطأ بعينه ، إن من التفاهة أن نعارض التاريخ ، ولا حل لكم ولنا إلا بإقامة السياسة على أساس الحقيقة الواقعة .

ومع ذلك فهناك عناصر للتفاهم لها قيمتها إلا أن الغرب يرفضها لأنها تنطوى فى نظره على عيب واحد هو أنها تقتضى الاعتراف بكرامة العربي وعزّته باعتباره إنسانا ، فالغرب لايرضيه إلا أن يكون العربي تابعا مُسْتَعْبَداً عليه التزامات ينبغى أن يخضع لها ، أما إذا استمسك بالمساواة والحرية ــ وهى المبادىء التى تتغنّى بها الحضارة الغربية باعتبارها عقيدة عالمية فإنه يُرمى حينئذ بالتطاول وتلصق به كل العيوب . لقد بسطنا يد الصداقة فقُوبلنا بالتجاهل ، لأن الغرب كثيرا ما يعقد اتفاقاته على أساس السيطرة ، بينما نحن نعنى باتفاقنا أن نحيا حياة كريمة تظفر بالاحترام .

سؤال : تبدو الوحدة العربية ذريعة لتوسّع يراه خصومكم شبيها بالتوسع الهتلرى والستالينى . وإنكم لذلك تلجأون إلى ابتزاز المنافع من الغربيين بتهديد مصالحهم و بإثارة القلاقل الداخلية فى بلاد الشرق الاوسط ؟

جواب : إن تفسير مظاهر تعمّ العالم العربي كله على هذا النحو هو تفسيرٌ بعيدٌ كل البُعد عن الحقيقة ، فتلك المظاهر تشيرُ أولا باتجاه إلى التحرير ثم باتجاه إلى التقارب التلقائى بين الشعوب العربية الأخرى . فلا يمكن اعتبار هذا توسعا على الإطلاق ، فالتوسع هو الانتقال تدريجيا من إقليم إلى إقليم آخر ، أى أنه حركة تخرج من وسط الدائرة متجهة خارج محيطها والأمر ليس كذلك ، فالظاهرة التى نحن بصددها ظاهرة عكسية ، فما يحدث هو أن الجماعات المقيمة داخل محيط الدائرة تتجه إلى الترابط فى عالم هى جزء منه . وتلك الجماعات إذ تحاول ضم الصفوف تسير نحو مركز مشترك هو مركز الجاذبية ، وكون هذا المركز فى القاهرة لايغير من الأمر شيئا ، فلو كان فى مكان آخر غير القاهرة لما حال ذلك دون حدوث ماحدث . وهذا هو الاستكمال التاريخى والطبيعى لتطور الأمة العربية .

إن قوميتنا عربية أساسا ، وهى ليست أداة تحركها أيدى البعض وليست تحديا للبعض الآخر ، ولذلك فهى ليست فى حاجة إلى الالتجاء إلى ابتزاز المنافع أو إثارة القلاقل ، وأعود هنا فأكرر أن القومية العربية حركة مزدوجة للتحرير والاتحاد ، وهى تسير إلى استكمال أسبابها بدافع من العوامل التاريخية والطبيعية ، وهى ظاهرة حقيقية ليست مصطنعة أوزائفة ، ولن يقف فى سبيلها أحد أو تحولها عن أهدافها قوة حتى تستكمل نموها كما سبق أن تم ذلك لإيطاليا على سبيل المثال .

أما عن الحصول على منافع بالصورة التي تذكرها فإننا نفضل أن نستعمل اصطلاحا آخر اتفق عليه العالم هو « التنمية » ، فنحن دولة تحاول أن تجذب إليها رؤوس الأموال ، وكانت سويسرا وهى بلد محايد أولى الدول التى مدّت لنا يد المساعدة ، وعقدت إيطاليا الصديقة معنا صفقات لتوريد الحبوب بثمن آجل ، وفتحت ألمانيا الفيدرالية لنا أخيرا اعتمادا كبيرا . وهناك فى القاهرة ــ كما تعلم ــ بعثة يابانية تقوم بدراسة برنامج لتمويل المشروعات الصناعية والمدنية . وعلاوة على ماتقدم هل لى أن أذكرك بأن اتصالاتنا الأولى لإقامة السد العالى تمت مع فنيين فرنسيين ، وأن تصميمات المشروع قام بها مهندسون من مدينة جرينوبل ؟ وهل تعلم أن وفدا يضم ممثلى البنوك الفرنسية الكبرى زار مصر عام ١٩٥٥ لدراسة الأسس التى يقوم عليها تمويل ذلك المشروع ؟ وقد أوفدنا فى عام ١٩٥٥ خمس بعثات اقتصادية للخارج قامت ثلاث منها بزيارة أوروبا الغربية ، وواحدة بزيارة آسيا ، والأخيرة بزيارة روسيا . فإذا علمت أن دولة أوأخرى قد فتحت لنا اعتمادا ، فلماذا لاتنسب هذا العمل ببساطة إلى جهودنا بدلا من أن تنسبه إلى ماتدعيه ، وماهو الضغط الذى يمكن أن نمارسه على دول كاليابان وسويسرا وإيطاليا وألمانيا الفيدرالية ؟ وهل تعتقد أنه كان من السهل علينا أن نعيد بناء اقتصادنا وخزانتنا خاوية بسبب السياسة الجنونية التى سبقت ثورتنا وأعجزت ميزانتنا التجارى بينما كان الغربيون ينظرون إلينا فى شماتة ونحن نواجه أزمتنا المالية بعد أن أوصدوا فى وجوهنا كافة الأبواب أملاًمنهم فى أن يشترونا بأبخس الأثمان .

ودعني أسألك بدوري كيف تصف طلب فرنسا للمساعدات المالية بعد الحرب . ولماذا قام رؤساؤها بزيارة روسيا ؟ وبماذا تفسر رحلة مسيو مونيه الأخيرة إلى أمريكا ؟ وكيف تسمى القرض الألماني ؟ هذا رغم أن فرنسا لاتنقصها رؤوس الأموال لافى الداخل ولا فى الخارج . ثم كيف حققتم مشروعاتكم الكبرى ؟ وما هو مشروع مارشال ؟

سؤال : ماهى فى نظركم مسئوليتكم فى الأزمتين العراقية واللبنانية ، فقد قيل أن جماعة من السوريين كانت موجودة فى كلا البلدين ؟

جواب : ما أسرعكم فى توجيه الاتهامات إلينا وإدانتنا . لقد سبق أن بيّنت لك طبيعة القومية العربية ومداها ، فما حدث فى العراق وما حدث فى لبنان ليس إلاظاهرة داخلية بحتة من كافة الوجوه ، علاوة على أنه ثورة ضد الاستبداد ، فلم يكن اللبنانيون أو العراقيون فى حاجة إلى توجيه من جانبنا ، وغاية ما فى الأمر أن المثل الذى قدمناه قد هيأ أذهاناً لم يكن قد فاتها إدراك مطالب شعبها وحاجاته . وأود أن أضيف هنا أن الغرب [أوعلى الأصح بعض الدول الغربية] لم يدرك بعد أن القومية العربية هى حركة شعبية ، ومن ثم فإن الأفراد الذين اعتادت سياسة تلك الدول الاعتماد عليهم فى تسيير الأمور داخل بعض البلاد العربية قد فقدوا قيمتهم إلى حد كبير.
وعلى ذلك يمكنني أن أقول إن تلك الدول الغربية اتبعت فى الشرق الأوسط سياسة إقطاعية فى مشربها ومظهرها على السواء ، فكانت تمنح زيدا أوعمروا من الناس سلطة يستحيل على أى منهم مباشرتها خارج مكتبه إلا تحت حماية الحراب . فهؤلاء الأفراد وهؤلاء الحكام المزليون وهؤلاء الخونة لايمثلون بأية حال شعوبهم ، وهم على أقصى تقدير يمثلون مصالح بعيدة عن مصالح شعوبهم . ومثل هؤلاء لا يخدمون مصالح أصدقائهم أوحماتهم الغربيين لأنهم يوقعونهم فى الخطأ . ومن هنا ، ومهما بدا ذلك غريبا ، يمكن اعتبارهم العامل الأساسى فى التآكل السريع الذى تتعرض له أسس السياسة الغربية فى الشرق الأوسط ، فلم يعد هناك محل لمثل هؤلاء فى عالم أصبحوا خارجين عليه .

سؤال : هل من المنتظر أن توطد زيارة الرئيس عبدالناصر الأخيرة لموسكو الروابط بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفييتى ؟ وهل لاتخشى ذلك شخصيا ؟ ومارأيك فى الشيوعية كحل سياسى داخلى ؟

جواب : إن الرئيس عبدالناصر قد حدّد منذ زمن بعيد سياسته وأعلنها بوضوح . فقد سبق له أن أعرب أثناء زيارته الأولى لموسكو عن عرفانه بجميل شعب وقف إلى جانبنا بصورة إيجابية فى ظروف حرجة من حياتنا ، كما أنه عاد فأكد على الملأ جوهر سياسته . ومنذ أيام بعد عودته من زيارة سريعة لموسكو عاد فكرر تأكيده بعدم التخلى عن سياسته وهى السياسة التى أجمعت عليها الأمة العربية والتى تعبر بها عن رغبتها فى أن تكون عربية قبل كل شىء وأن تحيا حياة سلمية فى انسجام مع الجميع ، ألا وهى سياسة الحياد الإيجابى ، وقد وقفت الأمة العربية بأجمعها وراء عبدالناصر ومن حوله لتحقيق تلك الأمانى المشروعة . ونحن نعتقد أننا بهذه الطريقة نحافظ على حقوقنا ونؤمن مستقبلنا دون الإجحاف بحقوق الغير المشروعة . إن رئيسنا قد مدّ يده للجميع مبتدئا بالغرب ، لقد عرض صداقته على من يود صداقتنا ، كما أنه أكد أننا لن نذعن للتهديد فنحن لانخشى الدفاع عن حقوقنا إذا تعرضت للاعتداء عليها . إن الغرب — وأقصد بذلك غربا معينا — لم يعرض علينا فى غالب الأحيان إلا عداءه لنا واحتمال تبعيتنا له تبعية مستترة — وقد قوبل رفضنا لذلك على أنه تمرد من جانبنا ثم عوملنا على هذا الأساس .
وأخيرا أراك قد أثرت نقطا تتعلق بالسياسة الداخلية وأفضل أن أقول لك فورا إننا لانتأثر إلا بمبادئنا التى تنبعث من تاريخنا الطويل والتى تفى بحاجاتنا الذاتية ، وإن النظام الداخلى لدينا رهن بظروفنا الداخلية و بإرادتنا وشأنه فى ذلك شأن كافة الأنظمة الداخلية لدى الجميع ، فلكل شعب أن يتبع بالنسبة لنفسه النظام الذى تقتضيه مصالحه الذاتية و يوافق طباعه .

سؤال : يبدو للبعض أنكم فى شمال أفريقيا حيث تواجه فرنسا مشاكل كبيرة تتخذون سياسة أسوأ الفروض ، وأنكم حسب ما يزعم المراكشيون تعاونون المعارضة ضد حزب الاستقلال ، كما أنكم على حد قول التونسيين تعضدون « صالح بن يوسف » ، وأخيرا فإن جبهة التحرير الوطنية فى الجزائر تتهمكم بأنكم احترمتم التعاون مع « الأمين دباغين » وهو أكثر الزعماء تطرفا . أليس فى ذلك رفض من جانبكم لكافة العلاقات التى يمكن لأفريقيا الشمالية أن تقيمها مع العرب والتى بدأت بإقامتها فعلا مع فرنسا ؟

جواب : إن أحداث أفريقيا الشمالية تثير بالغ اهتمامنا بطبيعة الحال ، كما أن كفاح إخواننا في الجزائر كان لابد من أن يحرك شعورنا . ونحن نرجو لهم أن ينالوا حقوقهم المشروعة فى أقرب فرصة ، ولا نفضل أحدا دون أحد من المواطنين الذين يكافحون جميعا فى سبيل قضية شريفة مثل قضيتهم ، فهم أحرار فى تدبير أمور مستقبل وطنهم وهم يعلمون من تلقاء أنفسهم السبيل المؤدية إلى ذلك . وإننا لاندخر وسعا فى تشجيع فرنسا على أن توفق سريعا إلى أن تجد سبيلها إلى أعدل الحلول وأكثرها شرعية للاعتراف بحق الجزائريين فى تقرير مصيرهم ، وبمجرد اعترافها بهذا الحق فإننا نحترم إرادة الشعب الجزائرى بكافة طوائفه سواء قرر الارتباط بفرنسا أو بالمغرب أو بالدول العربية .

(٣) عقد هذا المؤتمر دورته الأولى سنة ١٩٥٢ تحت اسم مؤتمر فلورنسا الثقافى واشتركت فيه ٣٢ دولة ، وتناول بالبحث موضوعات تتصل بجوهر الحضارة المسيحية والسلام المسيحى . ثم زاد عدد الدول الأعضاء فى دورة سنة ١٩٥٣ ليصل إلى ٤٢ دولة وأطلق عليه اسم مؤتمر الحضارة المسيحية والسلام . وزاد عدد الدول الأعضاء شيئا فشيئا حتى بلغ ٦٠ دولة فى الدورة الخامسة التى عقدت سنة ١٩٥٦ . ولما كان الاشتراك فى هذا المؤتمر منذ بدايته موزعا بين دول أوربا وأمريكا وآسيا ، ولما كانت الموضوعات التى تناولها بالبحث تتسم بطابع دينى مسيحى ، ولما كانت هناك دول إسلامية مشتركة فيه نتيجة لسعى رئيسه ومنظمه السنيور چورچيو لاپيرا ، فقد باتت ثمة رغبة فى توجيه المؤتمر وجهة إنسانية أشمل ، أو على الأقل وجهة دينية عامة لا تقتصر على المسيحية فحسب ، كما اعتبر المؤتمر أحد الجهود الرامية إلى مناهضة الشيوعية . وقد اشتركت مصر فى هذا المؤتمر بصورة غير رسمية فى دورته الثانية عام ١٩٥٢ وكان مندوبها فيه هو الدكتور طه حسين الذى ثابر على المساهمة فى أعمال المؤتمر وكان يرتجل فى كل دورة محاضرة يدافع فيها عن الإسلام بوجه خاص والشرق بوجه عام موضحا أثر الإسلام فى الحضارة الإنسانية والسلام . أما اسرائيل فلم تشترك فى المؤتمر اشتراكا جديا إلا سنة ١٩٥٦ حيث ألقى مندوبها خطابا يحمل دعاية سافرة لاسرائيل . ومن المعروف أن اسرائيل دأبت منذ ولادتها على الاشتراك فى جميع المؤتمرات الدولية التى ترى فيها مزايا دعائية لها ولو لم تكن فيها فائدة مباشرة لمصالحها ، ومن المؤكد أن اشتراكها فى مؤتمر فلورنسا بدأ بنفس الروح ولنفس الغرض ، ثم ضاعفت اهتمامها بهذا المؤتمر عندما رأت اضطراد زيادة عدد الدول المشتركة فيه .



الفصل الرابع

عودة العلاقات مع فرنسا



بعد أن وليت وزارة الثقافة سألنى الرئيس عبدالناصر أن أصل مابينى و بين من كانت لى بهم صلة من الفرنسيين ، ثم سألنى ثانية فى شهر أبريل ١٩٥٩ أن أجمل له موقف العلاقات المصرية الفرنسية ورأيى الشخصى فيه . فكتبت إليه ذلك تفصيلا موضحا حرص فرنسا على تطبيع علاقاتها بعد توقيع الاتفاق بين مصر و بريطانيا ، وقيامها بإجراء مفاوضات سرية شبه رسمية بين مبعوثى ديجول من ناحية و بين بورقيبة ومحمد الخامس والحكومة الجزائرية من ناحية أخرى ، تهدف إلى حل مشكلة الجزائر وخلق « اتحاد شمال أفريقيا » تحت قيادة عربية جديدة خاضعة لمشيئة فرنسا خاصة والغرب عامة فى نطاق المجموعة الفرنسية Communauté francaise ، هذا مع بقاء الخطر المنبعث من باريس الذى يتزايد على مرّ الأيام المتمثل فى دعاية اسرائيل المضادة ونشاطها الذى امتد عن طريقها إلى شمال أفريقيا وغيرها من الدول . وكان فيما ذكرته له أنه بات لا معدل عن أن يكون لنا مشرف اقتصادى يقيم فى فرنسا إذ أن إهمال ذلك له ضرره باقتصاديات مصر ، وأن فرنسا قد شرعت بالفعل فى تمويل بعض المشروعات الجارى تنفيذها ، وهى الأعمال الكهربائية المتصلة بخزان أسوان ومصانع

السماد . كما ذكرت له مانال محصولنا الرئيسي من القطن منذ العدوان الثلاثي حتى منتصف عام ١٩٥٧ من خسائر بعد أن فقد أحد عملائه الرئيسيين خلال هذه الفترة وهو فرنسا . ولما كانت فرنسا هي أولى دول العالم المستوردة للقطن — إذ يبلغ ما كانت تستورده حوالى ٩٠ ألف بالة من الأقطان الطويلة التيلة وحوالى ٩٠٠ ألف بالة من الأقطان المتوسطة والقصيرة التيلة — فقد لجأت إلى بعض الدول الأخرى مثل السودان لسدّ حاجتها منه ، ولكنها كانت فى نفس الوقت تسعى إلى الحصول على القطن المصرى حيثما وجد فى الأسواق العالمية ولكن بخطوات وئيدة .

كما أوضحت أنه منذ قيام الجمهورية التونسية وبورقيبة يحاول جاهدا تكوين اتحاد بين دول شمال أفريقيا تحت قيادته ، فتواطأ مع الاستعمار الغربى بصفة عامة والاستعمار الفرنسى بصفة خاصة لإخراج مشروعه إلى حيز التنفيذ ، إذ كان يخشى أن تنال الجزائر استقلالها بتأييد الجمهورية العربية المتحدة فتغدو دولة لها شأنها تقف إلى جانبه على قدم المساواة فتبتلعه . ومن أجل ذلك أخذ يهاجم الجمهورية العربية المتحدة معرّضا بها ، ويعمل لخلق المشاكل التى من شأنها أن تفرّق الصف العربى ، فخرج على الجامعة العربية ثم لم يكد يعود إلى حظيرتها حتى بدأ يتعاون مع بعض الفرنسيين وعناصر من جبهة التحرير أخذت تُجرى مفاوضات تهدف إلى نقل مقر الجبهة إلى تونس ، وهو ما فجّر صراعا داخل جبهة التحرير ودفع الحكومة التونسية إلى الضيق بوجود أى تنظيم من تنظيمات جبهة التحرير على أراضيها . وفى الوقت الذى كان بورقيبة يسعى فيه إلى إيجاد مخرج سلمى مع فرنسا تزايد تأجج الصراع داخل جبهة التحرير بفعل الهجوم الشديد الذى شنّه عباس فرحات ضد مكتبى الجبهة فى دمشق وبيروت اللذين يعملان على تصعيد كفاح التحرير . وقد اقترح بورقيبة على فرنسا الاتفاق معه على مخطط لضرب الجبهة يتمثل فى أن تتقدم فرنسا رسميا بعرض على الجزائريين للدخول فى المجموعة الفرنسية ، كما صرّح بأن ديجول هو الوحيد الذى يستطيع إنهاء الحرب فى المغرب ممهدا بذلك الطريق للقاء يجمع بينه وبين محمد الخامس وديجول . وفى الوقت الذى كان فيه بورقيبة يهيىء نفسه للتقريب بين وجهتى النظر الفرنسية والتونسية بشأن المشكلة الجزائرية مشيدا بأهمية التعاون الفنى الفرنسى التونسى ، عمل من جهة أخرى على تدعيم مركزه فحصل على كمية من الأسلحة

التشيكوسلوفاكية ، خاصة الدبابات التى وصلت إلى ميناء جابس لعرضها فى الاحتفال بعيد الاستقلال . كما عرض فى شهر فبراير ١٩٥٩ على فرنسا مشروع تدعيم السلام فى أفريقيا الشمالية الذى يقضى بأن تتسلم فرنسا قاعدة.« بيزرته » الاستراتيجية التونسية بشرط أن تبدأ المفاوضات لإيجاد تسوية سلمية للمشكلة الجزائرية على أساس الاعتراف باستقلال الجزائر.

كذلك كان يساور محمد الخامس الأمل فى الاتفاق مع فرنسا على تسوية مشاكل أفريقيا الشمالية ، الأمر الذى حفز الدوائر القريبة من ديجول إلى التصريح بأنه لن يرفض أى عرض يتقدم به ملك مراكش فى هذا الصدد ، إلا أن أوساط الجيش والحزب الوطنى الجمهورى الفرنسى بزعامة سوستيل أصرّت على معارضة سياسة محمد الخامس لاسيما مشروعه الخاص [الاعتراف باستقلال الجزائر على أن ترتبط بفرنسا على غرار النظام المتبع فى مدغشقر] وطالبوه بأن تظل مراكش على الدوام فى منطقة الفرنك لحل مشاكله الاقتصادية الداخلية ، وأن يُبقى اتفاقياته الاقتصادية والسياسية خاضعة لإشراف فرنسا .

وفى الوقت نفسه مضت اسرائيل تستغل الظروف المحيطة لكى تنفرد ببثّ دعايتها فى فرنسا ، فسخّرت العديد من الصحف الفرنسية لتشويه الحقائق واختلاق الروايات المسيئة للجمهورية العربية المتحدة وقادتها . وانتقلت الدعاية الاسرائيلية عن طريق فرنسا إلى بعض الدول عامة وشمال أفريقيا خاصة لكى تزعزع ثقتها فى الجمهورية العربية المتحدة حتى أخذت بعض هذه الدول تتحدث عن « الاستعمار المصرى » و« الاستعمار الناصرى » . وإذ نجحت اسرائيل فى الحصول على مساعدات مالية وأدبية وعسكرية وثقافية فرنسية وغير فرنسية تعينها على مواصلة الحياة وعلى الاستمرار فى التحريض ضدنا ، بات لامناص من اتخاذ الاجراءات العملية الكفيلة للحيلولة دون استمرارها فى استغلال فرنسا إلى هذا الحد ووقف هذا التيار المعادى الجارف . ولذا اقترحت أن نتخذ خطوة إيجابية مماثلة لما اتخذته فرنسا ، أعنى عودة التمثيل التجارى والثقافى وإن لزم الأمر القنصلى ، حتى نستطيع تعويض مافقدناه خلال فترة الغياب الطويل السابقة وأن نواجه الأخطار المنبعثة من باريس وراء لواء اسرائيل ضد القومية العربية .

كذلك أوضحت أنه كان ثمة اتجاهان داخل الحكومة الفرنسية بصدد علاقاتها مع العالم العربى بصفة عامة ومع مصر بصفة خاصة ، أولهما يقوده دبريه رئيس الوزراء وهو يهودى متنصّر ومعه سوستيل ، و يقضى بمعارضة كل تقرّب من مصر و بالحرص على تدعيم العلاقات مع اسرائيل . والمثل الواضح على ذلك هو تلك المساعدة الضخمة التى قدمها دبريه وسوستيل للتحالف الفرنسى الاسرائيلى حيث تم جمع الفاشيين فى حزب حيروت والفاشيين الفرنسيين تحت لواء منظمة واحدة ، وذهبا فى تأييدهما لاسرائيل إلى حد الاتفاق على مساندة حزب حيروت فى معركته الانتخابية . وفضلا عن ذلك كانت ثمة منظمة فرنسية اسرائيلية أخرى تجمع بين الاشتراكيين فى الدولتين . أما الاتجاه الثانى فيقوده ديجول وكوف ده مورڤيل ولوى چوكس سكرتيرعام وزارة الخارجية ، و يقضى بتأييد قيام تفاهم بين فرنسا والدول العربية وتأييد الحل السلمى للمشكلة الجزائرية على أساس حصول الجزائر على استقلالها بالتدريج وخلال فترة قصيرة ، كما يؤيد هذا الاتجاه التفاهم مع مصر . وقد بدالى أنه ينبغى على السياسة المصرية أن تضع فى اعتبارها هذين الاتجاهين عند دراستها للموضوعات المتصلة بفرنسا حتى لا نتعامل مع فرنسا حكومة فحسب ، بل أن نستغل هذا الخلاف القائم بين اتجاه ديجول واتجاه سوستيل . كذلك أشرت بأنه لابد أن تنهج التصريحات الرسمية وأجهزة الإعلام المصرية نهجا آخر غير ذلك النهج الذى اعتدنا انتهاجه وهو إما الخصومة المطلقة وإما الصفاء المطلق ، وطالبت بمهاجمة تصريحات دبريه وسوستيل حينما يقدم ديجول رأيا إيجابيا يعارضهما نرحّب به ونبدى تقديرنا له .

وإذ كنت أومن بالدور الفعال الذى تلعبه الاتصالات الشخصية فقد عاودت الكرّة لإنشاء « رابطة مصر — فرنسا » تضمّ حوالى أربعين من كبار رجال الفكر والعلم بفرنسا ممّن كنت قد عرضت أسماءهم فى غضون العام الماضى على رئيس الجمهورية فنلت موافقته على تشجيع قيام هذه الرابطة لتناهض الدعاية المعادية التى كانت تبذلها الجمعيات الفرنسية الاسرائيلية وقتذاك . ومما زادنى تشبثا بهذه الرابطة ما كانت تثيره الجمعيات الفرنسية الاسرائيلية من عقبات أمام إنشاء « رابطة مصر — فرنسا » . وقد رأيت أن أرسل إلى كبار أعضاء هذه الرابطة رسائل أشجعهم فيها على المضى فى رسالتهم ، واعداً إياهم بأنه حالما يتم تنظيم هذه

الرابطة بفرنسا وتبدأ فى ممارسة نشاطها فإنناسوف نبادر بتنظيم رابطة مماثلة فى القاهرة . كذلك ألحت إلى مواصلة سياسة تبادل الزيارات بين الشخصيات الفرنسية ومصر ، واستأذنت فى توجيه الدعوة إلى كل من الرئيس إدجار فور وقرينته والى جان پول سارتر وموريس دوڤيرچيه رئيس تحرير صحيفة لوموند .

وانتهيت من تقدير الموقف إلى أن تحقيق مصالحنا يقتضى منا أن نبدأ فورا بتبادل التمثيل التجارى والثقافى تمهيدا لقيام التمثيل القنصلى . ولقد كان مما ملأنى رضا أن الرئيس عبدالناصر وافق على توصياتى بعد أن قرأها وبادلنى فيها الرأى .

وكان الجنرال كاترو قد اقترح لقائى فى شهر فبراير ١٩٥٩ فى سويسرا للقيام بمحاولة جدّية لوضع حدّ للجمود فى علاقات فرنسا ومصر ، وأرجأت الأمر بعض الوقت حتى يستقرّ الرأى على السياسة التى ستُتّبع فى هذا الصدد . وكان كاترو أحد المقرّبين إلى ديجول ، وقد عُرف بتعاطفه مع العرب حتى أطلقوا عليه فى فرنسا اسم مُصفّى الاستعمار، إذ كان هو الذى صفّى استعمار فرنسا لسوريا ولبنان . ولذلك لفتنى ماجاء فى الكتاب القيّم « ملفّات السويس » للأستاذ محمد حسنين هيكل إذ يقول :

«وكان وزير الدفاع وقتئذ هو الجنرال كاترو الذى كان من قبل مقيما فرنسيا عامنا فى سوريا ولبنان . وقام الجنرال كاترو باستقبال (شيمون) پيريز والترحيب به بنفسه وكان الترحيب حارا . ذكر أنه لايستطيع أن ينسى دور الفيلق اليهودى فى دخول الحلفاء وبينهم فرنسا الحرّة إلى سوريا ولبنان سنة ١٩٤١ ، ثم قال لپيريز لقد حاربنا جنبا إلى جنب فى الماضى ، والآن فنحن نواجه نفس الأعداء . وفى أغسطس ١٩٥٤ وقّع كاترو و پيريز صفقة سرية تتضمّن إمداد إسرائيل بسربين من المقاتلات من طراز أوراجون وكذلك شبكة رادار وبعض المعدّات الأخرى .. إلى آخره »(١) .

وإحقاقا للحق فإن الجنرال كاترو لم يتقلّد فى حياته منصبا وزاريا ومن ثم لم يكن وزيرا للدفاع عام ١٩٥٤ بل كان يشغل وقتذاك منصب المستشار الأكبر لجوقة الشرف(٢) وظل فى هذا المنصب الرفيع إلى أن جاء جى موليه إلى الحكم عام ١٩٥٦ فعيّنه مقيما عاما بالجزائر لتصفية الوضع فيها ، غير أن الفرنسيين المقيمين

بـالجزائـر شنّوا عليه حملة شعواء وجد رئيس الحكومة نفسه إزاءها مضطرا إلى سحبه وتعيين روبير لاكوست مكانه . وأغلب الظن أن اسم الچنرال كاترو قد التبس على الأستـاذ المؤلف مع اسم الچنرال كونيج ، وكان هو وزير الدفاع الذى تعاقد مـع پيير يـز(٣) ، اذ كان رئيسا لأركان حرب الفرقة الأولى من قوات فرنسا الحرّة الـتى اشتركت بقيادة الچنرال كاترو مع القوات البريطانية فى غزو سوريا ولبنان فى ٨ يونيه ١٩٤١ (٤) .

وقـد عـاد الـچنرال كاترو فحدّد موعدا آخر لمقابلتى فى الرابع من مايو، ولكنه حينما ذهب إلى وزير الخارجية يستأذنه فوجىء بكوڤ ده مورڤيل يُبلغه أنه يؤثر أن يتم بحث هذا الموضوع بينه شخصيا و بينى ، وأنه قد تحدّد الحادى عشر من شهر مايو للـقـائـى فى سـويـسـرا ، كما تم الاتـفـاق على نـقـاط جـدول الأعـمـال

وعلى أن تناقش أية مسألة مادام الغرض من المقابلة هو العمل على استئناف العلاقات بين بلدينا . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الاجتماع ليحول دون لقائى بالچنرال كاترو يوم ٤ مايو حتى لا يحسّ غضاضة . وحين عرضت الأمر على الرئيس عبدالناصر أشار بإتمام هذه المقابلات بعد أن زوّدنى بوجهات نظره .

وفى مسـاء ١١ مـايـو ١٩٥٩ وفى المـوعد المتفق عليه سلفا ، بدأت محادثاتى مع المسيو كوڤ ده مورڤيل وزير خارجية فرنسا ، وكان قد اصطحب معه مدير مكتبه المسيو پيليتييه Pelletier . وقد استهل الوزير الفرنسى الحديث بالسؤال عن تطور مشروع السد العالى ، فبسطت له تفاصيل الوضع وقتذاك كما أكّدت له قرب بدء الـتـنفيذ الفعلى . ثم انتقل إلى الحديث عن العلاقات المصرية الفرنسية فذكر أنهـا كـانـت تـقـوم دوامـا على أسـاس مـن الـصداقة التقليدية ، ورددت عليه بأننا لانضمر أى عداء للشعب الفرنسى ، وأن الرئيس جمال عبدالناصر يرى أن واجبنا اليوم هو أن نسعى سويا إلى التخلص من آثار الماضى .

وحـول المسألة الجزائرية لم أنكر أنه منذ أن قامت الثورة فى الجزائر ونحن نمد لها يد العون ، ولكن نسبة ماتقدمه مصر من عون لايُقاس بإمكانيات فرنسا وما يقدمه لها حـلـفـاؤهـا مـن عـون . إلا أننا فى الوقت الذى كنا نتقدم فيه بهذا العون ، كنا نحاول على الـدوام ــ فى ظـل الأوضاع السياسية الفرنسية السابقة التى شاءت أن

تلقى علينا بكل اللوم ـــ كنا نحاول أن نضع حداً لإراقة الدماء ، والدليل على ذلك هو مطالبة الرئيس عبدالناصر للمسيو بينو وزير الخارجية الفرنسية وقتذاك بالبحث عن وسيلة كريمة لحقن الدماء ، وكنت أنا بين الذين اضطلعوا بهذا العبء الساعى إلى السلام ، هذا إلى محادثاتى مع مسيو بيير كومان السكرتير المساعد للحزب الاشتراكى ، وظلت هذه المحاولات جارية إلى أن تم تأميم قناة السويس وكان العدوان . وهكذا لم نكن نشجع إسالة الدماء بل على العكس بذلنا جهودا صادقة لحقنها والوصول إلى حل للمشكلة بين الحكومة الفرنسية والحكومة الجزائرية المؤقتة بكامل هيئتها أى باشتراك رئيسها ونائبيه أحمد بن بللا وكريم بلقاسم حتى يمكن الوصول إلى اتفاق بين الطرفين يضمن تدعيم السلام فى كل أنحاء الجزائر. وهنا رد الوزير الفرنسى قائلا إنه وإن كان لايعترف بالحكومة الجزائرية إلا أنه يعترف بوجود جبهة التحرير الجزائرية التى لايمكن أن يعتبرها ممثلة لجميع المجاهدين الجزائريين ، حيث يوجد هناك بالفعل من يجاهدون فى الجزائر دون أن يكونوا منضمين تحت لواء جبهة التحرير الجزائرية . ثم حدثنى عن نوايا الحكومة الفرنسية لإعلان إيقاف إطلاق النار وإجراء انتخابات جديدة فى الجزائر يبدأ بعدها التفاوض مع من يمثلون الشعب بجميع هيئاته ، مع تأكيده على حرص فرنسا على إنهاء حرب الجزائر بأسرع مما نتخيل ، إذ فى هذا مصلحة لفرنسا وللشعب الجزائرى ، غير أنه لم يحدد تاريخا يتم فيه وقف إطلاق النار فى الجزائر.

فأوضحت له أن تأييدنا للجزائر هو واجب يفرضه التضامن بين الأخوة انطلاقا من إيماننا بحق الشعوب فى تقرير مصيرها كما جاء فى ميثاق الأمم المتحدة ، فما بالنا بشعب عربى شقيق . وأضفت أننا نفهم أن العراق الذى يرصد مليونين من الجنيهات لتأييد الجزائر ـــ وهو أمر يظفر بتقديرنا ـــ يهاجمنا عبر إذاعة بغداد وصحافته لتوقيعنا الاتفاق المالى الثقافى مع فرنسا ، ولكنا لانفهم أن تقوم إذاعة باريس وصحافة فرنسا بمواصلة التهجّم علينا ، كما لانفهم مساندة فرنسا لبعض المصريين فى إقامة محطة إذاعة سرية على أرض فرنسية ، فهذا أمر لايخدم اتجاه حسن النوايا الذى يتطلع إليه كلانا . وأوضحت له أن مطالبتنا بوقف هذه الإذاعات لايعنى اعتراضنا على انتقادنا علانية من راديو باريس إذا كان ثمة مبرر لذلك ، أعنى من الإذاعة الحكومية وليس من الإذاعة السرية . ثم تساءلت

عن موقف الصحافة الفرنسية العدائى من مصر ، حيث نرى صحافة فرنسا مسخّرة لخدمة أغراض تل أبيب ، وليس غير اسرائيل وحدها التى تستفيد من هذا العداء . وردّ علىّ وزير الخارجية الرّد الدبلوماسى المألوف بأنه لايعلم شيئا عن وجود مثل هذه المحطة السرية فى فرنسا ، ثم وعد ببحث هذا الموضوع فى باريس وإبلاغى فى القاهرة بنتيجة مسعاه . وعقّب قائلا : ومارأيك فى صوت العرب ؟ أعتقد أن ضرره أشد من ضرر المحطة السرية التى تتحدث عنها فهو يمتد إلى العالم كله . أما عن موقف الصحافة الفرنسية فأرى أن حملاتها ضدكم قد خفّت إلى حد بعيد .

وتحدثت بعد ذلك عن اسرائيل بوصفها العامل الذى سيودى بالعلاقات التقليدية بين فرنسا والدول العربية إلى الدمار . ولم أكن أرمى من وراء حديثى مطالبة فرنسا بالوقوف إلى جانب العرب ضد اسرائيل بل مجرد أن تشرع فرنسا فى اتباع السياسة التى تؤدى بها إلى الحياد بين الطرفين ، مثال ذلك الكفّ عن العون العسكرى سواء من ناحية التدريب أو المعدّات ، إذ ينبغى أن نقدم للرأى العام العربى سندا قويا يبرّر عودة العلاقات مع فرنسا ويجعله يؤمن بأن تحسن العلاقات أمر مفيد له ، وإلا فلا أمل وراء هذا الجهد الذى نبذله طالما بقى تأثير تل أبيب على باريس بمثل هذا العنفوان ، وظلت السياسة الخاطئة التى تنتهجها فرنسا لمقاومة القومية العربية تزعم أن لنا أطماعا بذاتها .

ورد وزير الخارجية الفرنسية موضحا موقف فرنسا من اسرائيل فى نقاط ثلاث : أولها أنه قد تم تسليم آخر صفقة من طائرات سوبرميستير إلى اسرائيل بمقتضى عقد أبرم مؤخرا ، وليست هناك نية لتجديد هذه العقود . وثانيها أنه لايعلم شيئا عن الفنيين الاسرائيليين بفرنسا أو المدرّبين الفرنسيين باسرائيل . وثالثها اعتزام فرنسا التعامل مع الجمهورية العربية المتحدة بمثل تعاملها مع اسرائيل فى المستقبل ، وذلك على أساس عدم التفضيل بينهما .

ثم أثار وزير الخارجية النقطة الرابعة من جدول أعمال المباحثات فسأل عما إذا كان الرئيس عبدالناصر مستعدا لإعادة العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ؟ فأجبته بأننا نفضل التدرّج فى عودتها ، وذلك بالبدء بعودة التمثيل الرسمى الثقافى والتجارى فوراً مع التوسع فى الاتفاقات الثقافية والتجارية ، بدعوة شركات

فرنسية للاشتراك فى مشروع السنوات الخمس ، و بتشجيع فتح مدارس التدر يب المهنى وبمواصلة إرسال طلبة البعثات . كما كاشفته بأننا نرى فى وعود الجنرال ديجول بقرب الوصول إلى حل لقضية الجزائر موقفا يشجعنا على التعهد بإرسال بعثة دبلوماسية إلى بار يس يرأسها قائم بالأعمال فور إعلان إيقاف النار تمهيدا للمفاوضات مع جبهة التحر ير الجزائر ية ، أما إذا لم يمكن تحقيق وقف إطلاق النار قبل نهاية عام ١٩٥٩ ففى هذه الحالة يحسن أن نقتصر على تبادل التمثيل القنصلى فحسب .

وقد تعجّل وز ير الخارجية الفرنسية الشروع فى تنفيذ الشق الأول وهو إرسال البعثة التجار ية والثقافية ذات الكيان الدبلوماسى ، بالإضافة إلى بعثة المساعى الحميدة حتى تنتهى من مهمتها مع البدء بالتمثيل القنصلى قبل نهاية ١٩٥٩ على أن تكون كلا الهيئتين مزودتين بإمكانية إرسال الشفرة ، فى حين أن حكومته لا تضع شروطا سياسية على إرسال بعثة دبلوماسية مصر ية إلى بار يس وعلى رأسها قائم بالأعمال ، وتساءل لو أمكن إرسال ملحقين ثقافى وتجارى إلى دمشق ، فأوضحت له تعذر ذلك فى الوقت الحالى ، وأنه يحسن ترك هذا الموضوع حتى قيام التمثيل القنصلى .

وأخيرا سألت الوز ير الفرنسى أن يحدّد لى بوضوح السياسة التى تنوى فرنسا إنتهاجها فى الشرق الأوسط فحصرها فى نقاط ثلاث : أولها أن فرنسا تحترم الوضع القائم ولا تقبل أى تغيير فى حدود المنطقة يأتى عن طر يق القوة ، وثانيها أن فرنسا ترى أن تتبع الدول العظمى سياسة عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول العر بية ، وثالثها أن فرنسا سوف تبذل كل ما فى استطاعتها فى سبيل تنمية التقدم الاقتصادى فى المنطقة . ثم عبّر كوف ده مورفيل عن أن ما نسميه نحن بالحياد الإيجابى يفضل هو تسميته بالاستقلال التام ، وهو موضع تقدير فرنسا وتشجيعها .

وفى نهاية اللقاء أعاد على مسامعى نص الا تفاق على عودة التمثيل الثقافى والتجارى المباشر ، ثم عودة التمثيل القنصلى قبل نهاية السنة الحالية . وعلّقت بدورى أن البدء بالتنفيذ مرهون بإخطارى بإغلاق محطة الإذاعة السر ية نهائيا .

وكانت أنباء هذا اللقاء قد تسربت إلى الصحافة فنشرت مجلة « چورده فرانس » بعددها الصادر فى ٣٠ مايو ٥٩ خبر لقائى بكوف ده مورڤيل ، وأشارت إلى أن المباحثات التى دارت بچنيف كانت من أجل إعادة العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا ومصر ، كما تناولت شحنات الأسلحة التى ترسلها مصر إلى جبهة التحرير الجزائرية والمساعدات الفرنسية التى تقدم إلى اسرائيل ، وأن الطريق قد أصبح ممهدا اليوم بعد أن صفيت فى شهر أغسطس الماضى فى زيورخ الخلافات الاقتصادية بين البلدين . بل لقد ذهبت المجلة إلى تحديد اسم أول سفير للجمهورية الفرنسية الخامسة فى مصر على أنه چان روبير . كذلك نشرت صحيفة « پارى پرس » النبأ فى ٢٢ مايو ٥٩ تحت عنوان « ليس وجود هذا المصرى الغامض فى سويسرا للاشىء » ، على حين نشرت مجلة « لوكانار أنشينيه » [البطة المغلولة] الساخرة النبأ فى عددها الصادر فى ٢٠ مايو بأسلوبها التهكمى .

* * *

وكنت قد توجهت إلى سويسرا قبل هذا اللقاء لمقابلة الچنرال كاترو فى الموعد الذى تم الاتفاق عليه ، غير أنه اعتذر فى اللحظة الأخيرة نظرا لمرضه المفاجىء وأناب عنه الصديق الصحفى روبير بارا ، كما التقيت خلال هذه الزيارة بكل من الوزيرين پيير كوت وأندريه فيليپ . وقد أجمع ثلاثتهم على أن ديجول بات مؤمنا بأن استقلال الجزائر أصبح أمرا لامعدل عنه ، إلا أن المعارضة الحادة التى يلقاها من جانب الجيش الفرنسى المحارب فى الجزائر ومن جانب الرأى العام الأوربى بالجزائر ، ومن جانب العناصر اليمينية فى فرنسا ــ وهى التى تشكل الأغلبية فى حكومته ــ تفرض عليه السير فى طريقه هذا خطوة خطوة . فلقد أوضح بما لايقبل مجالا للشك الحل الذى يؤمن به والذى تفرضه عليه الظروف فى خطابيه اللذين ألقاهما يومى ٢٣ أكتوبر ١٩٥٨ وأول يناير ١٩٥٩ وهو الاعتراف بالشخصية الجزائرية ومشاركة الجزائر مع فرنسا Association وهو ما يعنى الاعتراف باستقلال الجزائر السياسى استقلالا ذاتيا فى وقت عاجل ، ولكن فى نطاق الجامعة الفرنسية الأفريقية [على نهج النظام المتبع فى التوجو أو فى مدغشقر] حتى تتهيأ الظروف لاختيار نظام آخر .

وكان مما يشير إلى نيّة ديجول إلى الاعتراف بسيادة الشعب الجزائرى قوله بصراحة « إن مستقبل الجزائر فى يد الجزائريين أنفسهم ، وعلى ذلك يجب تهيئة هذا الشعب للاختيار بين الاستقلال الكامل أو الاتحاد مع فرنسا أو انضمامه إليها » . وكان ديجول قد أفضى إلى أحد المقربين إليه بأنه يأمل أن يتحدد نظام الجزائر السياسى فى المستقبل بعد إجراء استفتاء بين صفوف هذا الشعب أوبعد مفاوضات تدور بينه و بين ممثليه الحقيقيين المنتخبين انتخابا حرا ، إذ أن الانتخابات السابقة لم تكن سليمة ، كما سوف يقل التلاعب فى الانتخابات المقبلة حتى يأتى اليوم الذى تجرى فيه الانتخابات بشكل سليم تماما .

واستطرد محدثى قائلا : إن السبب الذى دعا ديجول إلى التمسك بتنظيم الانتخابات وإلى إعلان إصراره عليها هو رغبته فى اجتذاب الرأى العام الفرنسى إلى الطريق الذى يود السير فيه ، وذلك بأن يقدّم له حلا للمشكلة يتمشى مع الروح الديموقراطية المتأصلة فى الشعب الفرنسى . ولهذا السبب رفض ديجول المفاوضة مع جبهة التحرير الجزائرية وجيش التحرير الوطنى حول نظام الجزائر فى المستقبل ، وإن كان هذا لايعنى أنه يرفض مفاوضتها حين تسنح الظروف السياسية التى ينبغى أن تتوفر عندما يتم وقف إطلاق النار . وهكذا برز ديجول بوصفه الشخص الوحيد الذى يملك قدرة إقناع الرأى العام الفرنسى بفكرة المفاوضات مع جبهة التحرير الجزائرية ، و بقبول حل يختلف عن ذلك الذى يريده الزعماء العسكريون والذى يرمى الى القضاء التام على الثورة خلال السنوات الخمس المقبلة . وبات من المؤكد أنه إذا لم يستطع ديجول خلال عام ٥٩ ــ ١٩٦٠ تدعيم وجهة نظره فلسوف تنشأ انقلابات أومؤامرات عسكرية كما يجوز أن تفرض الفاشية نفسها على فرنسا الأم ، لاسيا وقد كان اليسار الفرنسى مبعثر القوى ، ولم تعد كثرة الشعب الفرنسى تكترث كثيرا بالحياة السياسية أو بالأحزاب عامة .

واستطعت أن أخرج بعد المناقشات العديدة التى دارت بينى و بين هؤلاء القادة والمفكرين بأن الصراع قد تخطى حدود فرنسا والجزائر ليمتد إلى داخل فرنسا ، بين ديجول وأنصاره فى رئاسة الجمهورية و بين الحكومة وأنصارها فى الجمعية الوطنية ، و بين غلاة المستعمرين والرجعيين من أصحاب المصالح فى

الجزائروفرنسا ، وبين الجيش الفرنسى المحارب فى الجزائر والجيش الفرنسى المتأهب لإعلان الفاشية ، وبين الأحزاب السياسية والنقابات العمالية ، وأنه لامفر من وقوع صدام بين المستعمرين المتعصبين فى فرنسا وفى الجزائر المُصرِّين على قمع الثورة والاحتفاظ بالجزائر واقتصادها فى قبضتهم وبين ديجول الذى يود وضع حد لهذه الحرب التى تستنزف مجهودات فرنسا وأموالها ، ولكنه يجد فى هؤلاء المستعمرين عقبة كأداء تحول دونه ودون تحقيق أغراضه .

* * *

وكانت العناصر الموالية لاسرائيل غاضبة عقب المقالات التى أشارت فيها جريدتا لوموند وفرانس سوار إلى أن سبب وجودى فى جنيف كان للتفاوض على إعادة العلاقات الدبلوماسية بين الجمهورية العربية المتحدة وفرنسا ، ومن ناحية أخرى اتصل الاسرائيليون بجى موليه وطلبوا إليه تحذير ديجول من مغبة هذا الاتجاه ، إلا أن جي موليه عجز عن لقاء ديجول نظرا للمتاعب التى نشأت وقتذاك عقب اتهام إحدى الصحف الألمانية له بأنه كان أحد عملاء النازية . وكان ديجول قد أفضى الى أحد المقربين منه بأنه لم يقتنع بدفاع جى موليه عن نفسه فى دفع التهمة ، فضلا عما نال مركزه من ضعف فى صفوف الحزب الاشتراكى نفسه لهذا السبب . وأراد جى موليه أن ينفى عن نفسه التهمة فقصد اسرائيل لمشاركتها احتفالاتها بمناسبة عيدها الحادى عشر ، وليحمل إلى شعبها تحية الشعب الفرنسى ، وأشاع عن نفسه أنه يحمل رسالة من ديجول غير أن رئاسة الجمهورية أصدرت على الفور بلاغا ينفى حمل موليه لأية رسالة من ديجول إلى بن جوريون .

ولم يكتف الاسرائيليون عن تحذير فرنسا من سياسات الرئيس عبدالناصر ، لاسيا بعد أن أقلقهم استيلاء مصر على شحنة سفينة كانت متجهة إلى اسرائيل عبر قناة السويس . وكان عبد الناصر قد عزم على الدفاع عن موقفه بعدم السماح للبواخر الاسرائيلية بالمرور عبر قناة السويس ، وتأهب للدفاع عن هذا الموقف أمام المحافل الدولية ، كما حمل الاتحاد السوفييتى على استخدام حق الڤيتو ليؤكد تضامنه مع العالم العربى ضد اسرائيل . كذلك رأت سفارة اسرائيل فى باريس فى مشروع عبد الناصر القاضى بإنشاء « لجنة وطنية فلسطينية » بقطاع غزة فى المستقبل القريب تتعهد بالإشراف على ٤٥٠٠٠٠ لاجىء فلسطينى فى مصر و٥٠٠٠٠٠

لاجىء فى الأردن و ١٢٠٠٠٠ لاجىء فى لبنان مايهدد اسرائيل عسكريا ، إذ أنه لوتمت الموافقة رسميا على هذا المشروع فى مؤتمر القمة العربية الذى كان مزمعا عقده فى الدار البيضاء فى أول سبتمبر ١٩٥٩ ليلتقى فيه لأول مرة أقطاب مسئولون من مصر ومن العراق ، فسوف يخطو بذلك الرئيس عبد الناصر الخطوة الأولى نحو تشكيل جيش من عدة آلاف من اللاجئين المؤهلين يتلقون أوامرهم من اللجنة الوطنية الفلسطينية ، وإن يكن الهدف من وراء إنشاء هذا الجيش سياسيا ونفسيا أكثر منه عسكريا . وفى نفس الوقت الذى أعلنت فيه الدوائر الاسرائيلية تأييدها لفرنسا فى مواجهة الهجوم السياسى العربى الذى سوف يبدأ ببدء مؤتمر الدار البيضاء حول المشكلة الجزائرية وطالبتها بتأييد اسرائيل بنفس القدر من الحماس ضد مشروعات الرئيس عبد الناصر ، لم تساير رئاسة الجمهورية الفرنسية ذلك الاستعداء الاسرائيلى متذرعة بأن المشروع المتصل باللاجئين العرب والذى نسبته اسرائيل إلى الرئيس عبد الناصر هو فى واقع الأمر مشروع غير عملى ولا يمكن تحقيقه ، شأنه شأن مشروع سكرتير عام الأمم المتحدة الذى كان يقضى بإدخال اللاجئين الفلسطينيين تدريجيا ضمن اقتصاد الدول التى يعيشون فيها .

وكان الرئيس ديجول يرى أن الحل الوحيد فى الوقت الراهن الذى يمكن أن يقبله الزعماء العرب والزعماء اللبنانيون المسيحيون ومفتى القدس هو الإبقاء على الوضع الراهن الذى يعتبر ضمانا لمبدأ حق اللاجئين فى العودة الى وطنهم واستمرار إشراف الأمم المتحدة عليهم أطول مدة ممكنة . وفى الوقت الذى أولت فيه رئاسة الجمهورية الفرنسية اهتمامها بمشروعات الرئيس عبد الناصر ، فإنها لم تبد فى نفس الوقت اهتماما بما يبديه الزعماء الاسرائيليون من دلائل على انفعالهم وانفلات أعصابهم والتى كانت تتمثل فى حوادث الحدود والمناورات العسكرية . وكانت أهم المناورات العسكرية الاسرائيلية حينذاك هى التى قاموا بها ضد هجوم برى آت من الشمال استخدمت فيه الدبابات والمدفعية وجنود المظلات والطائرات المطاردة . وكانت الأوساط الفرنسية تعتقد أن جميع هذه المشاغبات التى تمارسها اسرائيل إنما هى بدافع من رغبة بن جوريون فى خلق جو يسوده التوتر و يلهب الشعور الوطنى قبل الانتخابات بأسابيع قليلة ليحقق مآرب حزب الماپاى . ولقد

وصل إلى علمي وقتذاك أن تقريرا قد وصل من سفارة فرنسا فى تل أبيب إلى الحكومة الفرنسية يغلب عليه طابع النقد الموجه إلى بن جور يون ويحمل معنى التشاؤم بالنسبة لسياسته فى المستقبل. وكان خبراء رياسة الجمهورية الفرنسية المتخصصون فى الشئون الاسرائيلية يستبعدون حدوث صدام اسرائيلي عربي فى المستقبل القريب و يبدون اهتمامهم بتحرك كل من الرئيس عبدالناصر و بن جور يون فى أفريقيا السوداء بعد أن أنشأت اسرائيل إدارة لأفريقيا بوزارة الخارجية و بدأت فى التوسع التجارى مع دول تلك المنطقة مثل غانا وغينيا وليبريا وإثيوبيا.

وعندما زارني المبعوث الفرنسي المستشار كرستيان دومال فى ٥ أكتوبر ١٩٥٩ بادرني بقوله: إن فرنسا قد لبّت مطالب الجمهورية العربية المتحدة وأوقفت بالفعل محطاتها السرية منذ نهاية يولية ١٩٥٩، فألمحت إلى أن محطة إذاعة باريس قد حلت محل المحطات السرية، بل فاقتها فى إذاعاتها المغرضة، وكذلك فعل مكتب الأنباء الفرنسي للشرق الأوسط، الأمر الذى يعكر المناخ اللازم لتصفية الجو. وبعد أن قدمت له نماذج من الإذاعات الفرنسية التى أشرت اليها داعبته بقولي: إن واحداً فقط من أبناء جمهوريتنا يستمع إلى هذه الإذاعة، وإن هذا الواحد هو جمال عبدالناصر! فإذا كنتم لا تكترثون بضياع الجهد والوقت والمال هباء فإنكم فى الوقت نفسه تقذفون فى حق المستمع الوحيد لإذاعاتكم. وأكدت له أننا نتقبل النقد النزيه البناء فهذا حقهم، على أن يصاغ بما هو لائق بين الدول ودون أن يتناول أشخاص الرؤساء، كما أوضحت له أنه من العبث إرسال ممثل لنا إلى فرنسا وإذاعتها تصبّ علينا اللعنات، وأنه قد يحسن إرجاء هذه الخطوة إلى حين. وأبلغني المستشار دومال أسفه لهذا الموقف رغم أن النشاط التجارى والثقافى بين البلدين يحتاج إلى بعض الاهتمام، خاصة المسائل الاقتصادية المعلقة. ثم عقب على حديثي بأن إذاعتنا بدورها بدأت منذ أوائل شهر أغسطس ١٩٥٩ بتناول شخصية الجنرال ديجول بالتجريح وسلّمني بدوره نصوص إذاعة صوت العرب من راديو القاهرة خلال شهر أغسطس، فضلا عن فقرات من كلمتي السيدين كمال الدين حسين وأنور السادات فى احتفالات يوم الجزائر فى ٧ سبتمبر ١٩٥٩ التى تصف الجنرال ديجول بأنه «مجنون». وفى ختام المقابلة

أشرت إلى ما بيننا من خلافات نأمل أن نجد لها حلولا ، تأتى فى مقدمتها مشكلة الجزائر والمحافظة على حقوقها فى الحرية والاستقلال ، وكذا اعتراضنا على مشروع فرنسا الخاص بتفجير القنبلة الذرية فى صحراء الجزائر .

وقد أبلغنى المستشار دومال أنه سيغادر القاهرة إلى باريس يوم الأربعاء ٧ أكتوبر ١٩٥٩ ، ليبذل جهده لوقف هذه الحملات الإذاعية وحث المسئولين على الاعتدال ، على أن نقابل هذا بالمثل بطبيعة الحال . وبعد زيارة قصيرة لباريس بذل فيها المستشار دومال جهوده لتخفيف حدّة الحملات الإذاعية عاد ليشرح لى أن تصاعد لهجة راديو باريس خلال شهر سبتمبر كان ردا على راديو صوت العرب الذى لجأ إلى أسلوب شديد العنف خلال شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٥٩ ، وأن المسئولين أبدوا استعدادهم لتخفيف لهجة إذاعة باريس بالدرجة التى يخفف بها راديو صوت العرب من حدّته . كما أبلغنى شكر الحكومة الفرنسية لحكومتنا على قبولها بعثة فرنسية اقتصادية ثقافية وأن حكومته ترحب ببعثة مصرية مماثلة ، وأنه من ناحية الاجراءات الشكلية ، فيلزم تبادل الخطابات بهذا المعنى عن طريق وزارة الخارجية المصرية وأنه قد خُوّل سلطة التوقيع نيابة عن حكومته . ثم طالب المستشار دومال بحق استخدام الشفرة والحقيبة الدبلوماسية لكلا الطرفين ، وفتح «حساب غير مقيم» على أساس المعاملة بالمثل ، وحق الإعفاء الجمركى ، وحق الحصانة الدبلوماسية له ولأعضاء بعثته المكونة من : المسيو ماتِى والمسيو سيكار المستشار الاقتصادى ومساعده والمسيو كلير جورى المستشار الثقافى ومساعده المسيو أندريه ميكيل والمسيو بليفيه كمساعد لرئيس البعثة ، ثم بمزايا دبلوماسية أقل مستوى لأمين المحفوظات وكاتب الشفرة على أساس المعاملة بالمثل . وكذا طالب المستشار دومال بصفته رئيسا لهذه البعثة السماح له باستخدام منزل السفير لسكناه ، واستخدام مكتب السفارة لرئاسة البعثة على أساس المعاملة بالمثل أيضا . وتساءل إذا كان فى الإمكان تعيين مساعدين للمستشارين الاقتصادى والثقافى فى دمشق ، نظرا لشكوى المسئولين فى بيروت من عدم تمكنهم من متابعة النشاط التجارى والثقافى بين الدولتين فى الإقليم السورى . كما سألنى عما اذا كان فى النية افتتاح قنصلية عامة فى كل من القاهرة وباريس فى أواخر هذا العام ، وذلك طبقا للاتفاق الذى تم بينى وبين

المسيو كوف ده منورفيل وزير الخارجية الفرنسية خلال لقائى به يوم ١١ مايو ١٩٥٩ بجنيف ، فطمأنته إلى أنه من المنتظر أن يتم ذلك فى غضون شهرى يناير أوفبراير ١٩٦٠ .

أمضى المستشار كرستيان دومال رئيس البعثة الفرنسية فى القاهرة فترة فى باريس تداول خلالها مع المسئولين الفرنسيين أمر إعادة العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة على ضوء ما حمّلته إياه من رأى الجمهورية العربية المتحدة فى استعدادها لإعادة العلاقات القنصلية مع فرنسا يوم ١٢ مارس تلبية لرغبة فرنسا وطلبها ، ولكن بشرط موافقة الجمهورية الفرنسية على أن تفتح الجمهورية العربية المتحدة قنصليات لها فى معظم الدول الأفريقية الأعضاء فى دول الجامعة الفرنسية فضلا عن باريس ومارسيليا . حتى إذا عاد من رحلته أبلغنى موافقة الحكومة الفرنسية على تلبية شرطنا وترحيبها بعودة العلاقات القنصلية بيننا . وحين كاشفته بقلقنا من أن سياسة فرنسا مازالت تقوم على تبنّى اسرائيل واحتضانها ، تشهد على ذلك زيارة موشى ديان وشيمون بيريز نائب وزير الدفاع الاسرائيلى الذى كان مديرا عاما لوزارة الدفاع الاسرائيلية أثناء الاعتداء الثلاثى على مصر ، واجتماعاته أثناء زيارته التى استغرقت أسبوعا برجال السياسة والدفاع الفرنسيين أمثال مسمير وزير الدفاع وكوف ده مورفيل وزير الخارجية والجنرال إيلى رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى وغيرهم ، وهو ما تعتبره الجمهورية العربية المتحدة أمرا يثير الريبة ، ردّ دومال على ذلك بأن سياسة فرنسا تقوم على أساس احترام الوضع الراهن فى الشرق الأوسط ، وأنها لن تسمح لمن يخرق هذا الوضع بالمضى فى اعتدائه . وأضاف أن كوف ده مورفيل قد أعلن ذلك بالأمس على نحو ما أكده لى فى جنيف خلال شهر مايو الماضى ، وأن هذه سياسة فرنسية ثابتة لن تتغير ، وعلى ذلك فلا داعى للقلق من هذه الناحية .

وقد تعمّدت تذكيره بإعلان الرئيس عبد الناصر بأن التصريح الثلاثى [الفرنسى الإنجليزى الأمريكى] لعام ١٩٥٠ قد دُفن فى بورسعيد حين وقع العدوان على مصر عام ١٩٥٦ ، وأشرت إلى شحنات الأسلحة الفرنسية التى تصل إلى اسرائيل برغم الاتفاق الذى تم بينى وبين وزير الخارجية الذى أكد لى وقتها أن آخر شحنة متفق عليها قد تم إرسالها وأنه ليس ثمة عقود جديدة . ثم اتفقنا أيضا

على أنه إذا حدث وتم الاتفاق على عقود جديدة فسوف تكون فرنسا على استعداد تبريرا لحيادها أن تبيع الجمهورية العربية المتحدة نصيبا مماثلا من الأسلحة ، وأنه لايسعنى والأمر كذلك إلا أن أعرب عن قلقنا إزاء موقف الحكومة الفرنسية فى أمر نعتبره جوهريا بالنسبة لنا مما يجعلنا فى حاجة إلى تبين موقف فرنسا الحقيقى حتى نطمئن إلى أن علاقاتنا لن تعود على أساس واه محفوف بالشكوك وعدم الثقة ، وأن كل مانطالب به هو اتخاذ موقف حيادى لاغموض فيه بين مصر واسرائيل .

فرد المستشار دومال وقد فقد أعصابه : ولكننا لم نطالبكم بالحياد فى مسألة الجزائر؟ فقلت له إن موضوع الجزائر أمر مختلف ، وقد جرت مناقشته مع الوزير كوف ده مورفيل فى جنيف فى شهر مايو الماضى حيث أكد لى أن حكومة ديجول ماضية فى سياسة إيجاد حل سلمى لإنهاء حرب الجزائر. ثم كرّرت على مسامعه ألا مندوحة لنا عن التضامن مع إخواننا العرب المسلمين فى الجزائر وأنه ليس فى مقدورنا التخلّى عنهم أوعن قضيتهم . وأتبعت ذلك بقولى أنه حتى إذا فرضنا أن مصر كانت ترسل إلى الجزائريين أسلحة قبل أكتوبر ١٩٥٦ فقد سلّحت فرنسا بدورها اسرائيل بل خاضت إلى جوارها حربا عدوانية ضدنا ، وأن اتصالات فرنسا التى بدأت معى لإعادة العلاقات تارة فى روما وتارة فى جنيف دليل على أنكم راغبون فى تغيير تلك السياسة الخاطئة معنا .

فانبرى دومال يذكّرنى بأن فرنسا ليست الدولة الوحيدة التى تسلّح اسرائيل وأن ثمة دولا أخرى تسلحها ومع ذلك نقيم معها علاقات دبلوماسية ، بل إن المساعدات الاقتصادية التى تصل إلى اسرائيل من الدول الأخرى تفوق فى حجمها أية مساعدات فرنسية من أى نوع . ثم أشار فى النهاية إلى عبارة وردت على لسان كوف ده مورفيل أثناء آخر مقابلة بينها تقول « ترى أى لعبة ستلعبها اسرائيل حتى تحول دون إعادة العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة » ؟ وأردفها بقوله إن الصحافة فى فرنسا تنهل كلها من نبع واحد دون أن يكون هناك من يمثلكم كى يرد عليها و يوضح الحقائق . واختتم حديثه بأنه إذا كان الموقف مشحونا بمثل ما شرحت له فلا يسعه إلا السفر إلى بيروت للاتصال مباشرة بالخارجية الفرنسية ،

وأنه إذا لم يصله رد حكومته قبل سفرى إلى باريس فهو يفضّل أن يُعالَج الموضوع بينى وبين وزير الخارجية الفرنسية مباشرة .

* * *

وكنت وقتها أتردد على منظمة اليونسكو الدولية بشأن إنقاذ آثار النوبة ، وقد أفضى الىّ رينيه ماهيه مدير المنظمة بأن السيد لوى چوكس وزير الدولة بالحكومة الفرنسية يرغب فى لقائى ، ولمارحبت بهذا اللقاء دعانا سويا إلى مائدة العشاء . وقد تطرّق الحديث بطبيعة الحال إلى العلاقات بين مصر وفرنسا ، فمضى يثنى على الترحيب الذى قوبلت به البعثة الفرنسية بالقاهرة مما ترك أكبر الأثر فى نفوس أعضائها ، وقد بدا له أن القائمين بالأمر فى مصر فى طريقهم إلى حل كثير من المسائل المعلّقة . ثم عرج على موضوع اسرائيل مبيّنا أن فرنسا لم تعد متطرفة فى علاقتها بها وأنها ملتزمة فى الحدود التى يمكن أن تتقارب فيها معنا ولكنها لا تستطيع التخلى عن اسرائيل .

فأوضحت له أنه طالما كانت فرنسا تساعد اسرائيل وتمدّها بالأسلحة فلن تستعيد أبدا مكانتها المفقودة فى المنطقة ، فأخذ يهوّن الأمر موجّها نظرى إلى أن أقارن بين ماتعطيه أمريكا وبريطانيا لاسرائيل وماتعطيه فرنسا لها . كما لم يجد فى وجود الفنيين الفرنسيين الذين يدرّبون الجيش الاسرائيلى ضيرا لأنه من الممكن استعادتهم بين عشيّة وضحاها . كذلك لم يتصوّر إقدام اسرائيل على أية مغامرة إذا لم يبدر من جانبنا شيء ، مؤكدا أن اسرائيل لن تلقى تأييدا فى هذه الحالة من جانب فرنسا أوبريطانيا أوأمريكا . بل ذهب إلى القول بأن أيّة مبادرة عدوانية سواء من جانب اسرائيل أومن جانبنا لن تحظى بموافقة الدول الأخرى ولا الأمم المتحدة ، وبأن اسرائيل لن تقدم على حرب إلا اذا كانت تبغى الانتحار. كما أنه لايتوقع أن تؤيد فرنسا اسرائيل فى أى عمل تقوم به ضد الدول العربية ، فمثل هذا التأييد يتعارض تماما مع سياسة الجنرال ديجول الذى أوضحته أحداث لبنان . وذكّرنى بأن مسيو كوف ده مورڤيل كان الوحيد بين ممثلى الدول الغربية فى الأمم المتحدة الذى نادى بوجوب الاعتراف بالقومية العربية . وحين ألحت إلى إمكانية أن يصدر الجنرال ديجول تصريحا يعلن فيه موقف فرنسا المحايد بين العرب واسرائيل شكّك فى إمكان ذلك وإن عاد فأكد أن كوف ده مورڤيل قد ألقى تصريحه عن

القومية العربية فى الأمم المتحدة بالاتفاق مع الجنرال . ثم تطرق إلى موضوع إعادة العلاقات بين فرنسا ومصر مؤكدا على أن تغيّب فرنسا وانجلترا من الشرق الأوسط يترك المجال للاتحاد السوفييتى لتثبيت وجوده فيه وحده وهو ما لن يفيد أحدا ، وأنه ليس من الطبيعى أن تظل مصر غير ممثلة فى باريس ولابد أن تأخذ العلاقات الفرنسية المصرية طريقها الطبيعى رويدا رويدا . فذكّرته بموافقتنا السابقة على البدء بتبادل التمثيل القنصلى ريثما تتهيأ الظروف لتبادل السفراء . ومالبث أن أبدى بعض الضيق لإعلان قيام الحكومة الجزائرية المؤقتة فى القاهرة بوصفه عنصرا معوّقا ، غير أنه سرعان ما عرج على موضوع مياه النيل وإمكان الاستفادة منها حين يتم الاتفاق بين مصر والحبشة والسودان ، إذ كان هناك شبه اتحاد بين كبريات الشركات الفرنسية بعد أن وضعت مشروعا للإفادة من مياه النيل ، ومن هنا فقد كانت فرنسا ترغب فى توسيط شخصية عالمية لحمل مصر والحبشة السودان على تحقيق اتفاق حول توزيع مياه النيل بينهم .

* * *

واذ كنت أختلف إلى باريس مرتين على الأقل كل عام بوصفى عضوا بالمجلس التنفيذى لليونسكو طوال الفترة من عام ١٩٦٢ إلى ١٩٧٠ ، فقد كانت فرصة للقاء معارفى من الفرنسيين وتجديد العلاقة بيننا . وقد اعتاد الرئيس عبدالناصر أن يعهد إلىّ بمهام فرعية خلال إقامتى بباريس . ومن ذلك أنه فى أكتوبر ١٩٦٣ زودنى بأحد عشر سؤالا تفصيليا طلب منى البحث عن إجابة لها تتصل بمتابعة أوجه نشاط اسرائيل فى تطوير قواتها العسكرية والجديد فى ميدان الأبحاث الذرية ونوايا اسرائيل لاستعمالها فى الأغراض العسكرية والمساعدات التى قدمتها فرنسا فى هذا الشأن ، وإنتاج وتطوير الصواريخ المصنوعة فى اسرائيل والمستوردة ومدى ماوصلت إليه اسرائيل فى مجال استعمال الأسلحة البيولوجية ، والأمد الذى بلغه مشروع نهر الأردن وسياسة اسرائيل فى أفريقيا ، وتطور أساليب التدريب فى الجيش الاسرائيلى ومابلغه من كفاية فى تعبئة قواته الاحتياطية واستدعائها والطرق الجديدة المزمع إنشاؤها فى اسرائيل والموقف السياسى الداخلى فى اسرائيل ثم الموقف الاقتصادى الاسرائيلى ونسبة ميزانية القوات المسلحة إلى الميزانية العامة للدولة .

هكذا كنت أقضى النهار أزاول واجبى بالمجلس التنفيذى وأستغل الأمسيات فى الحصول على المعلومات المطلوبة منى . فأوالى ما يُطلب منى تباعا ، وما أكثر ما كان يُطلب منى . وكان مما يبث الطمأنينة فى نفسى أن كل ما كنت أنقله إلى الرئيس عبدالناصر كان موضع الثقة والتقدير ، وكان من بين ما استقيته وقتذاك من معلومات بالغة الأهمية أن إسرائيل توالى أبحاثها الذرية باضطراد بهدف استخدامها فى الأغراض العسكرية ، وأنها لا تدخر وسعا فى سبيل الوصول إلى غايتها مهما كان البذل ، مؤمنة أن قنبلتها الذرية هى السلاح الذى يضمن بقاء الدولة اليهودية على قيد الحياة .وأنها سوف تستخدمها فى حالة واحدة وهى حين تحسّ أنها عاجزة عن مقاومة الجيوش العربية المغيرة . ومن هنا كان رأى مجلس الدفاع الوطنى الإسرائيلى أن تُلقى على القاهرة ثم على الإسكندرية ثم قناة السويس والسد العالى ، متبعة استراتيجية القضاء على المدن بدلا من استراتيجية القضاء على الأهداف العسكرية . وثبت على وجه اليقين أن إسرائيل تتلقى معونة فرنسية كبيرة فى الميدان الذرى ، كما يعمل فى مفاعل ديمونا الواقع على بعد عشرين كيلومترا من الحدود الأردنية اثنا عشر عالما فرنسيا منهم من أسهم فى صنع القنبلة الذرية الفرنسية ، ويقدم الإسرائيليون لفرنسا فى مقابل هذه المساعدة الفرنسية أسرار صناعة القنبلة الهيدروچينية الأمريكية .

على أن القيادة العامة للجيش الاسرائيلى لم تكن تتوقع أن تشن مصر حربا بيولوچية نظرا لضيق مساحة الأراضى الاسرائيلية إلى حد يجعل استعمال هذا السلاح يصيب الدول العربية المتاخمة أكثر مما يصيب اسرائيل نفسها . أما عن الصواريخ فقد كانت واحدة مما لم أتمكن من الظفر بشىء عنه .

وفى غضون شهر سبتمبر ١٩٦٥ وبعد عودة العلاقات الدبلوماسية دعانى المشير عبدالحكيم عامر ـ وكنت وقتها أعمل بالبنك الأهلى المصرى ـ ليبلغنى أنه تقرر سفره إلى باريس فى زيارة رسمية ، وأن الإجراءات لذلك تمضى فى مسارها الطبيعى وأنه اختارنى عضوا فى الوفد المصرى إلى جوار د . محمود فوزى ووكيل وزارة الخارجية السفير أحمد حسن الفقى ، ثم طلب منى سرعة الانتقال إلى باريس للتمهيد لهذه الزيارة على الصعيد الشخصى مع معارفى ثم العودة قبل السفر الذى تقرر له يوم ١٥ أكتوبر للقائه . وقد أبلغته أنى سأغادر القاهرة فى ظرف بضعة أيام

لحضور دورة المجلس التنفيذى لليونسكو. وبالفعل غادرت القاهرة فى يوم ٥ أكتوبر ووجدتها فرصة لألقى نفرا من الرسميين وغيرهم من العالمين ببواطن الأمور تمهيدا للزيارة وتذليلاً لما قد يعترضها من عقبات، فالتقيت بكل من المسيو لوى چوكس وزير الدولة للإصلاح الإدارى والمسيو كوف ده مورڤيل وزير الخارجية والمسيو پيير مايار الأمين العام للأمانة العامة للدفاع القومى — وهى أمانة تتبع رئيس الوزراء مباشرة ويرأس جلساتها الچنرال ديجول الذى اختار مايار مستشارا سياسيا له فيها خلال السنوات الخمس السابقة وعيناً له فيها — والمسيو دى بييس مدير مركز الدراسات الذرية ومدير المعهد القومى للعلوم والتكنولوچيا الذرية والمسيو أندريه فيليپ الوزير السابق والأستاذ بالسوربون والمسيو پيير كوت وزير الطيران السابق والأستاذ بجامعة باريس فضلا عن غيرهم من معارفى من أعضاء الجمعية الوطنية ورجال الصحافة. وعدت إلى القاهرة يوم ١٤ أكتوبر معتذرا عن مواصلة مهمتى بالمجلس التنفيذى لبضعة أيام لأتوجه رأسا من المطار للقاء المشير، وطمأنته على أن الإجماع يكاد يكون تاما على النجاح الذى ستكلل به هذه الزيارة التى تجىء فى الوقت المناسب، كما طمأنته إلى أن كل العوامل والنيات مهيأة ومتضافرة على أن تظفر الزيارة بالتوفيق لتكون فاتحة للمزيد من اللقاءات والتعاون وإعادة الأمور إلى مجاريها الطبيعية والتقليدية، وأكدت له أن كلا من كوف ده مورڤيل ولوى چوكس قد أكدا لى هذه الحقيقة بما لا يقبل الشك بصدق قولهما فليس ثمة عقبات تحول دون تحقيق هذه الغاية، وذكرت له آخر عبارة ودّعنى بها كوف ده مورڤيل بالأمس فى مكتبه بالكاى دورساى بقوله : « أعدك أنى ضامن للمشير زيارة حارة سيلقى فيها كل ترحيب بأوسع المعانى حتى لقد قررنا معاملته معاملة رئيس دولة وهو ما لم يحدث من قبل » .

وقد رأيت واجباً علىّ أن أشير على المشير بأن يتخلى فى تصرفاته عن الأساليب النمطية ويشيع الحرارة فى أحاديثه، فهذا وذاك مما سيهيآن استجابة سريعة، كما بيّنت له أن اسرائيل غير مستريحة إلى هذه الزيارة لا من حيث ماستسفر عنه من نتائج سريعة ومباشرة، ولكن من حيث ماستسفر عنه مستقبلا. لذلك ذهبت أقلام الصحافة التى تجنّدها اسرائيل تزعزع الثقة فى جدوى هذه الزيارة، فإذا تعذر عليهم الحيلولة دون الزيارة ودون عودة العلاقات الطبيعية بين مصر وفرنسا

فلا أقل من محاولتهم التهوين من شأنها . ومن ثم كانت صياغة البيان الرسمى الذى سيصدر فى أعقاب الزيارة أمرا بالغ الأهمية ينبغى أن يراعى فيه التأكيد على التعاون بين البلدين وعلى ماتقدمه لنا فرنسا مما هو ميسور لها بما يكون له أثره فى تثبيط همم الاسرائيليين واليمين الفرنسى .

كذلك بسطت له رؤيتى الخاصة بأن نحدد هدف الزيارة فى العمل على توطيد الصداقة بين رأسى الدولتين ومحاولة اكتساب صداقات شخصية مع أكبر عدد ممكن من المسئولين الفرنسيين ، وهو ما ينبغى معه تجنّب التقدم بأية مطالب من أى نوع كان ، لأن مثل هذا المسلك سيحملهم على المزيد من الاحترام والتقدير، لاسيما أن هذه أول زيارة له لفرنسا ، ثم إن المقالات الموعز بها من أعوان اسرائيل لا تفتأ تتحدث عن الأزمة الاقتصادية فى مصر وعن أن هدف زيارة المشير هو التسوّل . وذكرت له أن المسيو كوف ده مورڤيل قد علّق على ما أثرته له بصدد هذه الظاهرة بأننا سنلمس على الفور تغييرا شاملا ، وأنه سيلفت نظر رياسة الجمهورية إلى ذلك . ثم اقترحت على المشير أن يحصر أحاديثه مع المسئولين حول السياسة الدولية العامة والتركيز على نقط اللقاء بين السياسة المصرية والسياسة الفرنسية الخارجية التى وإن كانت ماتزال محدودة إلا أنها مع ذلك قائمة على مبدأ الاستقلال المطلق ، والتصدّى لنفوذ الدول الكبرى حين تدعو الحاجة إلى ذلك ، تاركا التفاصيل التقنية للجان الفرعية المتخصصة . كما حذرته من مهاجمة سياسة الولايات المتحدة قبل أن يكشف الجنرال عن أوراقه حتى لا يعرّض نفسه لتعليق لايرضاه . فعلى الرغم من سياسة ديجول المتصلّبة إزاء أمريكا إلا أن تحالف فرنسا معها حقيقة واقعة ، وإذا كان ديجول يُصدر فى تصرفاته عن رد فعل شخصى إلا أن جانبا كبيرا من الرأى العام الفرنسى لايستسيغ هذه السياسة المرهونة بوجود ديجول على رأس الدولة . كذلك طرحت على المشير إمكانية التعاون الاقتصادى فى أفريقيا ، التعاون المنزّه عن أى أهداف سياسية أو تدخل فى شئون أى دولة من الدول وذلك لمناهضة التغلغل الأنجلو سكسونى والاسرائيلى وتنشيط صادراتنا وفتح باب التبادل الاقتصادى مع فرنسا بشكل أوسع . كما أشرت إلى ضرورة الإلماح إلى أن مؤامرات الغرب المتكررة والتى لا تقف عند حد قد حملتنا حملا إلى الكفر بالغرب كلية واقتصار تعاوننا مع ألشرق وحده ، لاسيما أن الأمر الوحيد

الذى يتفق عليه كل من الاتحاد السوفييتى والصين الشعبية هو تأييد الرئيس عبدالناصر ، وأن مدّ يدنا إلى فرنسا وعلى رأسها ديجول هى المحاولة الأخيرة للحيلولة دون القطيعة التامة مع الغرب ، ولا يجوز أن ننسى أبدا أن الشغل الشاغل لديجول الذى يقلقه دائما هو إحساسه بوجود تفاهم سوفييتى أمريكى .

وأوضحت للمشير أنه حين يثير موضوع تسليح فرنسا لإسرائيل سيؤكدون له ضآلة ماتتسلمه اسرائيل من سلاح ومعدات عسكرية نسبيا عن السنوات السابقة وأنهم على استعداد لتزويدنا بما نشاء من سلاح ، ذلك أن السلعة الوحيدة فى فرنسا التى تتجاوز الاعتبارات السياسية وتتخطاها هى تجارة السلاح ، فهم يبيعون السلاح لجنوب أفريقيا رغم وقوف السياسة الفرنسية علنا فى وجه التفرقة العنصرية فيها ، وأنه حتى إذا وُفّقنا إلى إقناعهم بوقف شحنات الأسلحة لأسرائيل ، فلن تعدم الأخيرة الوسيلة للإفادة مما نصل إليه فى دعايتهم للظهور بمظهر المضطهدين أمام الرأى العالمى وحث الولايات المتحدة لتقديم السلاح لهم مجانا .

كذلك أبديت الرأى بمعالجة مشكلة اسرائيل تحت عنوان قضية فلسطين حتى تأخذ الطابع الإنسانى أكثر مما يبدو طابعا سياسياً أوعدائيا من جانبنا ، وهو ما تناهضه اسرائيل ومن يشايعها .

ولما كانت الطبقة المشتغلة بالسياسة فى فرنسا هى من أكثر الطبقات ثقافة فقد أشرت إلى أن تكون سن الرمح فى سياستنا هو غزو فرنسا فى الميدان الثقافى والفنى . كما لايجوز أيضا أن ننسى أن الصحافة كلها تكاد تكون معادية لديجول باستثناء القليل منها ، لذلك فإن كسب الرأى العام الفرنسى من خلال شغفه بالقيم الجمالية سلاح مؤكد الأثر . واقترحت تكوين لجنة مصرية فرنسية مشتركة من كبار المتخصصين لتحديد مطالبنا فى مسائل الطاقة الذرية للأغراض السلمية ، فلدى فرنسا وسيلتان للتعاون إحداهما عرضية ولا تتعدى بعض المنح الدراسية ، والثانية جدّية تجاوز هذا إلى كثير غيره ، علما بأن الجانب العسكرى محوط بالسرية التامة .

وانتقلت بعد ذلك إلى بسط صورة عامة للتيارات السياسية التى تجتازها حكومة ديجول بما فى ذلك قوة مركز پومپيدو ، وأنه المرشح لكى يخلف ديجول بعد

اعتزاله الحكم ، وسردت عليه آخر حديث دار بيني و بين الوز ير لوى چوكس عن الوضع الداخلى فى فرنسا حيث تجلّت تطلعات چيسكار ديستان نحو السلطة ، الأمر الذى حفز پومپيدو وأعوانه على إزاحته عن طر يقهم ، وأنه على الرغم من التفاهم الظاهرى بين پومپيدو وچيسكار ، فقد حذر الأول الچنرال ديجول من أطماع چيسكار التى كان يهيؤها له منصبه الخطير وز يرا للمالية . أما فيا يتصل بالسياسة الخارجية لفرنسا فقد صرّح لى لوى چوكس بأن أهم ما يشغل بال الچنرال هو القضاء على استعمار الولايات المتحدة لأور با بصفة عامة ولفرنسا بصفة خاصة بعد أن تبين له من دراسة الملفات التى طلبها عن رأس المال الأمر يكى المستخدم بفرنسا وفى دول أورپا الصغرى ضخامة النفوذ الاقتصادى الأمر يكى الذى يمنح الأمر يكيين قوة سياسية ضخمة فى الدول التى تتعاون معها . وقد أدرك ديجول أن الخطأ الذى ارتكبه هو اعتقاده أن ألمانيا يمكنها التعاون معه لبناء أور با الأور بية فى مواجهة العملاق الأمر يكى ، وإيمانه بقدرة أديناورعلى التأثير الحقيقى فى سياسة ألمانيا ، ثم إذا بألمانيا لا تملك الإفلات من الشرك الأمر يكى ، بل إنها ستظل أفضل عميل للتغلغل الأمر يكى بأور با . وهذا هو السبب الذى كُلّف من أجله چوكس خلال الصيف الماضى بإعداد عناصر سياسة خارجية بديلة ، عكف عليها فى سر ية تامة واستلزمت قيامه ببضع ز يارات لبعض دول الكتلة الشرقية ، خرج منها جميعا بضرورة الوئام السياسى مع الاتحاد السوڤييتى والمعسكر الاشتراكى بعدأن تبين له أن الاتحاد السوڤييتى لم تعد لديه أية أطماع توسعية أومحاولات تطو يقية طالما بقيت الدول التى تكتنفه واقعة تحت نفوذه أوتتبع سياسة ودية محايدة . وقد أنهى چوكس حديثه معى بقوله : إن فرنسا لكى تقضى على التوسع السوڤييتى قد أوقعت نفسها تحت السيطرة الأمر يكية و بات عليها الآن أن تتبع سياسة مستقلة وجديدة فى أور با .

وانتقلت بعد ذلك إلى استعراض سياسة فرنسا الخارجية عشية انتخابات الر ياسة التى يرتّب لها ديجول بادئا بتدهور العلاقات الألمانية السوڤييتية ، ثم مستقبل حلف شمال الأطلسى و بقية أور با الصغرى التى يسودها النفوذ الأمر يكى الألمانى ، وانتهيت إلى استعراض أسماء المرشحين ضد ديجول وعلى رأسهم فرنسوا ميتران الذى احتل مكان جى موليه ، ثم سياسة فرنسا الأفر يقية .

وكنت قد أعددت تقريرى لسيلة سفرى بمقر المندوب الدائم لمصر فى منظمة اليونسكو ليضم كافة هذه المعلومات كى يرجع إليها المشير حين يختلى بنفسه ، وأضفت إلى هذا التقرير مذكرة تضم نبذة عن كل شخصية من الشخصيات التى سيلقاها المشير خلال زيارته ، على رأسها شخصية الجنرال ديجول وجورج پومپيدو وكوف ده مورڤيل وچيسكار ديستان وأوليڤييه جيشار الذى كان يعمل مستشارا دبلوماسيا لديجول إلى أن أصبح وزيرا يتابع لحسابه جميع المشكلات الاستراتيجية ، ولوى چوكس الذى لعب باسم ديجول الدورا لرئيسى خلال المباحثات لحل مشكلة حرب الجزائر ثم مثّل الجانب الفرنسى السياسى والدبلوماسى فى جميع مراحل المباحثات ، وإن حمل على سياسة بن بيلا لانغماسها فى سياسة الحياد ، و پيير مايار المستشار السياسى لشئون الدفاع ، وحبيب دى لونكل سكرتير الدولة المساعد للشئون السياسية والذى كان محل ثقة الرئيس ديجول ، وفوكار المشرف على كافة أجهزة المخابرات الفرنسية ، وشابان دالماس رئيس الجمعية الوطنية ، وموريس شومان رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالجمعية الوطنية ، الذى ولد فى أسرة يهودية ثم اعتنق المسيحية وكانت مواقفه على الدوام متعاطفة مع العرب ، وإدجار فور رئيس الوزراء السابق خلال الجمهورية الرابعة والذى يتمتع بثقة ديجول التامة وعهد إليه بمهمات دبلوماسية فى موسكو و بكين والقاهرة .

وكان طبيعيا بعد ذلك أن أعرج على سياسة ديجول فى الشرق الأوسط ، فأوجزت له الحديث المشهور بين ديجول ودين راسك حين أعرب له عن حتمية فشل خطة الولايات المتحدة المرتكزة على نفوذ حزب البعث . ففى رأيه أن حزب البعث العراقى يصادف مشاكل مع الأكراد من شأنها تجميد إمكانيات توسعه كما اعترف له أنه يؤيد البرزانى سراً على حين كان يرى أن هزيمة البعث السورى محققة على أيدى الناصريين . وأوضح له أيضا أنه ليس فى سوريا سوى قوتين حقيقيتين : قوة الإقطاعيين الزراعيين والبرجوازيين التقليديين ، وقوة الناصريين المكونة من العسكريين وأبناء الشعب ، ثم البعث السورى الذى يمثل فى تقدير ديجول قوة وسطا بين القوتين الأولى والثانية — وهى قوة ضعيفة نسبيا — وأن البعث قد ارتكب خطأ إقصاء القوة الأولى و بذلك سوف تكون نهايته على يد القوة

الثانية . ومن هذا كله اتضح له أن الرئيس عبدالناصر هو الشخصية الوحيدة الجادة فى الشرق الأوسط التي سوف تنتظر اللحظة المواتية للعمل على إسقاط مشروعات البعث القائمة على أساس إنشاء اتحاد عربى يدين له بالقيادة . ومن هنا ــ كما تقدر الدوائر الفرنسية ــ تبدأ سياسة فرنسا : سياسة التقارب من مصر .

وحرصت كذلك على أن أسوق للمشير تعليق كوف ده مورفيل عن الوضع فى الشرق الأوسط خلال زيارتى الأخيرة له قبل مغادرتى باريس حين قال لى إنه لابد لفرنسا من أن تثبت وجودها بشكل ظاهر وملموس فى هذه المنطقة ، وبطريقة لا تثير ثائرة واشنطن ولندن وبون . وبمعنى أكثر دقة فإن ديجول لايسعى إلى القضاء على الحلف المركزى الذى حل عام ١٩٥٨ محل حلف بغداد ، كما تتهمه بذلك بعض الأوساط السياسية الأمريكية ، ولكنه يريد تحويل هذا الحلف من طبيعته الاستراتيجية البحتة إلى طبيعة اقتصادية فلايعود يعتمد على واشنطن ولندن فحسب كما كان الحال فى الماضى ، وإنما يزداد اعتماده أكثر فأكثر على باريس . ومما يثبت هذه النية مارواه كوف ده مورفيل لأحد معارفى من الصحفيين الفرنسيين من أن ديجول قد فاتح شاه إيران فى هذا الأمر صراحة خلال زيارته له فى نهاية عام ١٩٦٣ ، باعتبار الشاه هدف سياسة ديجول الأول فى الشرق الأوسط . أما هدفه الثانى فهو التقارب بين مصر وبين دول الحلف المركزى الذى سوف يغدو ــ على حد تعبيره ــ حلفا اقتصاديا ترعاه فرنسا .

والمعروف فى الأوساط السياسية الفرنسية أن ديجول قد أرجأ اتخاذ الخطوة السياسية الهامة بين باريس والقاهرة بالرغم من إيمانه بها كبداية لسياسة التعاون مع العالم العربى إلى أن تتضح له بعض المفاهيم المحددة ، مثل توافر حسن النوايا لدى القاهرة وتخلص الجمهورية العربية المتحدة مما أطلق عليه « مشاكلها السياسية » مثل حرب اليمن التى كانت تجرّ القاهرة جرّا إلى الدخول فى صراع وخلافات مع لندن وواشنطن هو فى غنى عن الدخول فيها طرفا ، وانتهاء عوامل الخلاف القائمة بين القاهرة ودمشق وبيروت خاصة وأنه يعتبر دمشق وبيروت من أكثر العواصم قربا من باريس ، واعتقاد ديجول أن الرئيس عبدالناصر شخصيا لابد وأن ينجح فى تحقيق سياسة يقترب مفهومها العام من مفهوم ديجول حيث تقوم

بينها اوجه شبه كثيرة مثل النظام الرئاسى ونظام الحزب الواحد المهيمن [الاتحاد الاشتراكى العربى بمصر واتحاد الجمهورية الجديدة فى فرنسا] والنظام المعمول به فى الميدان الاقتصادى [القطاعين العام والخاص] مع وجود فارق هام حيث تتمتع رءوس الأموال الفرنسية بحرية الحركة دون إشراف الدولة إذا استثنينا بعض القطاعات المؤممة ، والأهداف السياسية المشتركة القائمة على قاعدة اقتصادية فى الشرق الأوسط وأفريقيا حيث تهتم كل من القاهرة وباريس بالمشاركة فى عمليات التطوير المختلفة فى هذه المناطق ، والأهداف السياسية العامة فى مناهضة النفوذ الأمريكى وتسلّطه ومقاومة النفوذ البريطانى .

وثمة عوامل هامة أخرى كانت تربط بين اتجاهات العاصمتين ، منها التقارب العام ــ خاصة الاقتصادى والتجارى والفنى ــ مع دول الكتلة الشرقية والصين ، ومنها الإيمان بأن التبادل الثقافى بينهما خير من أى تبادل آخر، خاصة وأن جميع الفرنسيين قد تلقوا فى سنى دراساتهم على امتدادها معلومات مستفيضة عن « مصر » مهد الحضارات والعلم والمعرفة ، كما أنهم أسهموا بنصيب وافر فى الكشف عن مدلول الكتابة الهيروغليفية .

وعلى حين كانت اسرائيل تقوم بدعاية واسعة فى فرنسا لتحقيق أغراضها عن طريق ترويج فرية الاستعمار المصرى أو الاستعمار الناصرى ، يؤيدها فى ذلك سوستيل محترف السياسة الذى كان يقود حملة تقوية الروابط بين فرنسا واسرائيل ، كان ديجول وكوف ده مورفيل ولوى چوكس يرون تقوية العلاقات مع العرب ومصر بصفة خاصة . وعلى ضوء نظرية ديجول الخاصة بتغليب « الاحتكار الفرنسى » كان يُؤثر تدعيم علاقاته الاقتصادية بالعالم العربى ، نظرا للمدى الواسع الذى سوف تستفيد منه هذه الاحتكارات من خلال الاتفاقيات وعمليات التبادل التجارى مع هذه المنطقة الشاسعة التى تتضاءل أمامها اسرائيل . ومن ناحية أخرى بدأ ديجول يشعر بمنافسة اسرائيل الاقتصادية لفرنسا فى أفريقيا حيث كانت تقوم مقام الاحتكارات الأمريكية المنافسة لفرنسا . وإذا كانت اسرائيل تتمتع بتأييد فريق من الفرنسيين فهو تأييد العناصر الرجعية والمناوئة فى نفس الوقت لسياسة ديجول نظرا لارتباطاتها بالسياسة الأمريكية ، كما حظيت طوال السنين الماضية بتأييد بقايا أنصار حرب الجزائر، وبعض

العسكر بين الاستعمار بين الذين عزّعليهم زوال دولتهم أمام الحركة الرائدة لتحرير المنطقة العربية من نفوذهم وقبضتهم . و يشك عدد كبير من أعوان ديجول فى إيمانه المطلق باسرائيل كدولة ، وإيمانه بها كسياسة ، وإن كان يؤمن بأنها شر واقع لا مناص من التسليم بوجوده .

وكنت قد انتهزت فرصة لقائى بكوف ده مورفيل قبل زيارة المشير وأثرت معه موضوع رابطة « فرنسا ـ مصر» الذى طال الجدل حوله منذ عام ١٩٥٧ ، واقترحت أن تكون زيارة المشير فرصة لإنشاء هذه الرابطة وبدء نشاطها . والحق إنه تحمس للمشروع واقترح على الفور اسم السفير الكونت ده شايلا سفير فرنسا السابق فى القاهرة ووعد أن يناقشه فى الموضوع ، وسألنى عن أسماء فرنسية اقترحها للعضوية فذكرت له فيما ذكرت الصديق رينيه ويج الأستاذ بالكوليج ده فرانس والأستاذ المستشرق ريجيس بلاشير أستاذى بالسوربون والسيدة كريستيان ديروش نوبلكور عالمة الآثار المصرية والأستاذة بمدرسة اللوفر وغيرهم ، فسألنى إذا كان بوسعى الاتصال بهم قبيل عودتى إلى القاهرة والاستفسار منهم عن قبول عضوية هذه الرابطة التى يفضل تسميتها باسمها الحقيقى وهو « جمعية الصداقة الفرنسية ـ المصرية » ، فأكدت له أن ذلك ليس فى مقدورى فحسب بل إنى أضمن قبولهم للانضمام لهذه الجمعية بحماس شديد . وهنا استغرق فى التفكير بضع لحظات وإذا هو يبادرنى قائلا : « لاتحمل همّ انضمام أعضاء لهذه الجمعية ، ففى جعبتى أسماء أخرى مشرفة لاحصر لها يسعدها الانتماء للجمعية ، ولكن ما رأيك فى تدبير حفل استقبال يضاف إلى برنامج الزيارة تقيمه جمعية الصداقة الجديدة ترحيبا بالمشير عامر والوفد المرافق له ؟ قلت إنها فكرة ممتازة تحمل معنى عميقا إذ ترسّب فكرة عودة العلاقات بين البلدين على الصعيد غير الرسمى أيضا ، فوعد بتنفيذ الفكرة . وفى نفس الليلة اجتمعت مع بعض الأصدقاء الفرنسيين ممن كنت أتوسم فيهم الحماس لهذه الفكرة وأخذت أجرى الاتصالات مع من أمكن الاتصال بهم من الأسماء المرشحة للانضمام وحصلت على موافقتهم وترحيبهم جميعا دون مجهود ، وكلفت أحد الأصدقاء بابلاغ نتيجة مسعاى إلى كوف ده مورفيل مع قائمة بأسمائهم وعناوينهم . وبعد عودتى إلى باريس مع المشير فى اليوم التالى وجدت من بين تفاصيل الزيارة حفل استقبال تقيمه جمعية الصداقة الفرنسية

المصرية على شرف المشير عامر يتبادل أثناءها المشير والكونت دى شايلا الخطب ، فطلب منى المشير أن أنوب عنه فى إعداد الخطاب وإلقائه أثناء حضوره الحفل ففعلت . وإذا بالمشير يعلن خلال الحفل أنه إزاء السرعة التى تم بها تكوين جمعية الصداقة الفرنسية المصرية لايسعه إلا أن يتعهد بدوره بتكوين جمعية الصداقة المصرية الفرنسية بمجرد عودته إلى الوطن وأنه سيعهد برياستها إلى شخصى .

وبعد عودتنا إلى القاهرة وكل الىّ أن أنشىء جمعية للصداقة وخصّص لها مبلغا للتأسيس . وشرعت فى تنفيذ المهمة المنوطة بى وإذا بى أطالع فى الصحف قرارا بإسناد رياسة جمعية الصداقة المصرية الفرنسية إلى الزميل المرحوم المهندس محمود يونس . وكم عجبت لهذا غير أنى لم أعره بالا ، وإذا أنا بعد حين أتلقى خطابا من رياسة الجمهورية بأن ألىّ رياسة الجمعية ، ولكننى لم أملك عندها غير أن أرسل خطابا للشخص الذى عددته مسئولا فى رياسة الجمهورية عن هذا كله أعتذر عن قبول هذا العرض الجديد ، وإذا المشير عامر يتصل بى بعد علمه بهذا الخطاب الذى أرسلته يسألنى رأيى عن اعتذارى ، فكشفت له عن جليّة الأمر وأننى لا أحب أن أدخل فى هذا العبث لاسيما وأن رياسة الجمعية لا تعنينى فى قليل أو كثير، فألحّ على راجيا بأن الجمعية أوْلَى برجل عاش بين البلدين وعرف ماهنا وماهناك . ولم يسعنى إزاء هذا الإصرار إلا أن أقبل وتطوعت لهذا العمل ، ولازلت أشغل رياسة هذه الجمعية حتى كتابة هذه السطور بعد أن أصبح أمر الرياسة فيها مرجعه إلى الانتخاب لا إلى التعيين كما كان الأمر يوم إنشائها .

وفى صبيحة يوم ١٥ أكتوبر صحبت المشير عامر فى طائرته المتجهة إلى باريس ضمن الوفد المرافق له ، واستقبله فى المطار الرئيس بومبيدو الذى أعلن فى خطبة الترحيب : « من الآن لم تعد ثمة خلافات جوهرية بين فرنسا ومصر» .

ومضى برنامج الزيارة كما كان معدا له فى يسر وودّ لم يطرأ عليه أى تغيير إلا حين رجوت المشير عامر أن يزور قبر الجندى المجهول ليضع باقة زهور حسب الأصول المرعية لأن ذلك سيكون له أثر طيب بين الأوساط الفرنسية فاستجاب لهذا الرجاء . وكان يوم ١٨ أكتوبر يوما مشهودا حين ألقى الجنرال ديجول خلال الحفل الذى أقامه تكريما للمشير عامر والوفد المرافق له بقصر الإليزيه كلمة أثارت

دهشة وفد مصر بل ودهشة المسئولين الفرنسيين أنفسهم . فقد كان الجميع يتوقعون كلمة استقبال تقليدية كتلك التى تقال عادة للضيوف الرسميين ، بل لقد كان البعض يتوقع بعض الفتور تجاه دولة كانت منذ وقت غير بعيد معادية لفرنسا ، غير أن الرئيس ديجول أبدى شعورا حارا استثنائيا تجاهنا ، وهو المعروف بأنه يزن كل كلمة ينطق بها إذ راح يكيل المديح « لمصر الحديثة » ولرئيسها « عبدالناصر » فقال : « لقد أثبتت مصر ولا زالت تثبت أنها تريد أن تعيش وتعمل فى إطار متحرّر وفقا لعبقريتها الخاصة . وهاهى ذى على الرغم من العقبات التى تضعها الطبيعة فى طريقها والتخلف الطويل الذى خضعت له والتزايد السريع فى عدد سكانها ، تبذل الجهود البناءة وتحقق تقدما رائعا فى ميادين عديدة » . ثم مضى بعد تقريظه للسياسة الناصرية التى تهدف إلى تحقيق الرخاء للشعب المصرى يشيد — وهو يعلم أنه قد يجرح شعور بعض الدول العربية — : « بالمهمة الكبرى التى حددتها الجمهورية العربية المتحدة لنفسها فى الشرق الأوسط والعالم العربى والتى تحققها تبعا لفن الحقائق » . ثم توج كلمته بتحية سياسة الرئيس عبدالناصر الرشيدة الحازمة قائلا : « إن فرنسا الجديدة التى تشيدها الجمهورية الخامسة تجد نفسها على استعداد كبير للقيام بعمل مشترك مع مصر الحديثة التى تحققها الجمهورية العربية المتحدة » .

وقد أفضى لى المشير عامر بعد لقائه المنفرد بالجنرال ديجول لمدة ساعة وربع أن الحديث بدأ جامدا بعض الشىء لعدة دقائق ، غير أن المشير حين صارح الرئيس برغبته فى الدخول مباشرة إلى الموضوع وباستعداده للإجابة الصريحة عن كل التساؤلات أحسّ الحرارة تدبّ فى الحوار فجرت المحادثات باللغة المباشرة التى يتقنها العسكريون . واتضح من هذا الحوار الواضح أن موقف القاهرة وباريس من المشاكل الدولية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يكاد يكون متطابقا ، كما أن كليهما يعضد انضمام الصين الشعبية إلى منظمة الأمم المتحدة واحترام اتفاقية جنيف بصدد ڤيتنام . وكذا تقبلت مصر بارتياح وجهة النظر الفرنسية الخاصة بحياد كمبوديا ، والوقوف فى وجه التدخل الأمريكى فى الكونغو وسان دومينيك وقبرص . وبصدد القومية العربية أعرب ديجول عن رأيه بأنه لايجد مايسىء فى تجمع الدول العربية بمحض اختيارها فى إطار وحدة لا تضرّ بمصالحها وتخدم

شخصية كل دولة منها ، وهو مارد عليه المشير بأنه يتفق وسياسة القاهرة الرسمية ، كما أبدى ديجول ارتياحه لعقد الاتفاق المصرى السعودى الخاص باليمن ، وكذلك لموقف الرئيس عبدالناصر الواقعى المعتدل فى مؤتمرات القمة الثلاثة التى عقدت فى القاهرة والإسكندرية والدار البيضاء .

وقد أثارت الزيارة خلال أيامها الخمسة الكثير من التعليقات الصحفية المشجعة التى أبرزت عودة الصداقة بين مصر وفرنسا ، وأشارت إلى أن حرب السويس تعتبر حدثا طارئا لا تتحمل الجمهورية الخامسة مسئوليتها ، وأن هذه الزيارة تسدل الستار نهائيا على حرب السويس لتعود بعدها العلاقات بين الدولتين على أسس جديدة غير مشروطة وقائمة على المصالح المشتركة ، وبذلك يكون كوف ده مورڤيل قد برّ بوعده لى ، فحقّقت الزيارة فى إطارما حُدّد لها نجاحا فاق تقدير كافة المعلّقين السياسيين واضطرت الاتجاهات المعادية إلى أن تجارى الموقف رغما عنها . كما أدّت الإجراءات العديدة التى اتخذت قبل الزيارة لتصفية الكثير من المشاكل المعلّقة إلى إخراس الأصوات التى حاولت استغلال هذه الخلافات ، فكان أن حسم البيان المشترك كل هذه التعلاّت . كذلك كان لموقف مصر من عدم طلب قروض خلال الزيارة أثره أيضا فى الرد على المقالات التى أشارت إلى إفلاس الخزانة المصرية .

وكانت الإذاعة الفرنسية هى الأخرى إيجابية وموضوعية فتناولت أنباء الزيارة فى نشرات الأخبار كل ساعة ، كما عرض التلفزيون أفلاما عن مصر القديمة فضلا عن تغطية الزيارة نفسها . ويكفى لمعرفة وقع أثر الزيارة على اسرائيل مطالعة ما كتبه محرر صحيفة « لوموند ديپلوماتيك » فى ٨ نوفمبر ١٩٦٥ : « مما لاشك فيه أن تدعيم العلاقات الفرنسية العربية وتنديد الجنرال ديجول بحملة السويس قد غيّر كثيرا من طبيعة العلاقات بين باريس والقدس . لقد كرر المسئولون الفرنسيون بمناسبة زيارة المشير عامر لباريس رغبتهم فى التزام موقف الحياد التام من النزاع الاسرائيلى العربى . وهكذا ولّى العصر المنطوى على تحالف غير مدوّن بين فرنسا والدولة العبرية بصدد حرب الجزائر وسيناء » .

وكان من أهم معالم الزيارة حفل العشاء الذى أقامة المشير عامر بفندق كريون لكافة من رحّبوا به واستقبلوه ودعوه خلال زيارته لباريس . والحق إن السلطات الفرنسية قد حشدت فى هذا الحفل أكبر عدد من أهم الشخصيات الفرنسية على رأسهم مجلس الوزراء بكامل أعضائه ورئيسهم چورچ پومپيدو إلى غيرهم من كبار المسئولين فى الدولة وجملة من رجالات الدبلوماسية والسياسة والإدارة والثقافة والفنون على صورة لم أر لها مثيلا من قبل .

* * *

وحين اتصلت فى شهر فبراير ١٩٦٦ بالرئيس عبدالناصر تليفونيا لاستئذانه فى السفر إلى باريس لحضور انعقاد دورة المجلس التنفيذى لليونسكو طلب الىّ الحضور لنتجاذب الحديث فى أمرهام . ولما التقيت به شرع يبدى لى قلقه من تجارب الصاروخ المصرى الذى بُذلت فى سبيله جهود ضخمة مُضنية طوال الأعوام الماضية دون أن نصل إلى نتيجة مرضية بالنسبة لدقة توجيهه ، حتى أنه علّق ساخرا بأن صاروخنا إذا صوّبناه على تل أبيب أخطأ هدفه وأصاب بيروت . وعهد الىّ الرئيس عبدالناصر بالبحث لحل هذه المشكلة فى باريس ، وذلك عن طريق أحد سبيلين : إما الحصول على الخبرة الفنية الفرنسية فى هذا المجال وإما الحصول على موافقة السلطات الفرنسية على شرائنا لعدد من آلات الچيروسكوپ اللازمة لتوجيه صاروخنا توجيها دقيقا . ثم طلب منى المرور على المشير للتعرّف على التفاصيل ، فتوجهت إلى المشير الذى كرّر لى الأهمية التى يعلّقها على الحصول على الچيروسكوپ . وإذ كنت أجهل مايصاحب هذا الموضوع من تفاصيل ينبغى أن أتزوّد بها قبل الشروع فى المحاولة طلبت إليه تكليف أحد الخبراء لتوضيح الموضوع لى . فزارنى فى بيتى خبيران مكثا معى ليلة بأكملها يشرحان لى الناحية التقنية من الموضوع . وحين طلبت منهما تزويدى بالمواصفات المحدّدة أصرّا على عدم تسليمى إياها الإعلى سلّم الطائرة فى مظروف مغلق . وعجبت لهذا وأنا رجل مسئول كما هم مسئولون ، ثم إن الأمر كان لى أكثر مما هو لهم ، ولم أرمايبرّر هذه السرّية المفتعلة أو يسوّغها إلا أن تكون مجافاة للذوق والإدراك .

وفى الثانى والعشرين من فبراير التقيت بالسيد پييرمايار أمين عام جهاز الدفاع القومى الفرنسى الذى شرحت له مشكلة الصواريخ المصرية « أرض ــ

أرض » وأهمية تنزو يدنا إما بالخبراء الفنيين الذين يمكن أن يساعدونا فى التغلب على صعوبات دقة التصويب وإما بالچيروسكوپ نفسه . فردّ بأن السفارة المصرية سبق أن تقدمت فى العام الماضى بمثل هذا الطلب ولكن الحكومة الفرنسية اعتذرت عن الاستجابة له . ثم أردف بعبارة أتحرج من ذكرها لولا أن أمانة نقل الواقعة والحديث بنصّه تدفعنى إلى إثباتها إذ قال : « إن اختيار الرئيس عبدالناصر لك يدفعنا إلى البحث عن حل لهذا الموضوع يكون مرضيا لكم ففرنسا لا تنكر لك جهودك الموصولة فى إعادة العلاقات سليمة كما كانت بين الدولتين ، وصلا تك الوطيدة بالشخصيات الفرنسية البارزة » .

غير أنه مالبث أن سألنى عن سر طلبنا المعاونة منهم لا من غيرهم . فأجبته بأن الخبراء الألمان قدموا ماوسعهم من عون ومازالوا ، ولكنهم لم يوفقوا فى ناحية التوجيه الدقيق . أما الروس فهم لايستطيبون أن يطلعوا الاخصائيين الألمان بالذات على ماتوصلوا إليه فى أى ميدان من هذه الميادين . وأما الولايات المتحدة والمملكة المتحدة فعلاقاتها باسرائيل لا تبيح لها معاونتنا فى هذا المجال ولهذا لجأنا إلى فرنسا . وهنا طمأننى إلى أن أمله كبير فى نجاح مسعاه إن لم تنشأ عقبات خارجة عن إرادته ، ثم استدرك قائلا أنه يقصد العقبات الفنية ولاشىء سواها . ثم إذا به يسألنى عن عدد أجهزة الچيروسكوپ المطلوبة ، فأجبته بأنى لا أدرى على وجه التحديد ولكننى قد أتيت سعيا وراء الموافقة على المبدأ ، أما العدد فأمره يسير إذ يمكننا إحاطته علما به فى أقرب فرصة بمجرد أن نتلقى رسميا الموافقة على المبدأ .

وليس المجال مناسبا للدخول فى تفاصيل هذا الموضوع وما صحبه من جهود للحصول على موافقة وزارة الحربية الفرنسية من الناحية الفنيّة ثم الأمانة العامة للدفاع القومى من الناحية السياسية . على أن مفاجأة مذهلة صادفتنى حين مرّ بى المسيو پيير ما يارفى اليوم التالى بالفندق ليبلغنى أن الفنيين أنهوا إليه أن المواصفات الفنية التى أعطيته إياها تنطوى على مايخالف ماطلبته منه شفويا . وكان حرجى أمامه شديدا ووعدته أنى سأنهى إليه البيانات السليمة على مدى أربع وعشرين ساعة . واستدعيت المقدّم فوزى شهدى الملحق العسكرى بباريس وأمليت عليه برقية إلى المشير عامر أوضح له الموقف وأشكو المسئول عن هذا الإهمال الجسيم ، غير أن الملحق العسكرى ناشدنى ألا أرسل هذه البرقية خشية

إلحاق الضرر بهذا المسئول متعهدا أن يأتينى فى أقل من أربع وعشرين ساعة بالإجابات الصحيحة . وتحت إلحاحه قبلت رجاءه وكان عند وعده فقد وصلتنى المعلومات المطلوبة التى سارعت بتسليمها . فإذا هناك مفاجأة أخرى أشد إثارة للفزع بقدر ما فيها من حمق لايصدق ، حيث تبين أن التصميمات التى سُلّمت لى فى البداية كانت خاصة بأجهزة صواريخ « جو ــ جو » فى حين أن المطلوب كان تصميمات أجهزة صواريخ « أرض ــ أرض » .

وفى السابع من مايو تلقيت بعد عودتى إلى القاهرة رسالة سرية من السفير پيير مايار عن طريق السفارة الفرنسية يحيطنى فيها علما بموافقة الحكومة الفرنسية على تزويدنا بالچيروسكوپ المناسب لصاروخنا « أرض - أرض » طالبا معرفة العدد المطلوب من آلة التوجيه هذه ، فاتصلت على الفور بالمشير عبدالحكيم عامر الذى أمر الضابط المنوط بهذه الصواريخ والمسئول عن تزويدى بالمعلومات الخاطئة عن الچيروسكوب بالاتصال بى ، وعندما سألته عن العدد المطلوب منها أجاب هازلا فى استهتار : « حَسْبُنا واحد ونعمل مثله ! » .

وهنا أحسستُ بهمٍّ يعتصر كيانى كله ، وأخذت أتذكر فى أسى تلك الجهود التى بُذلت فى إقناع وزارة الدفاع الفرنسية والظفر بموافقتها الفنية ، ثم بالموافقة السياسية من الأمانة العامة للدفاع القومى . وتذكّرت بخجل مرير كيف صارحنى السفير پيير مايار باحتواء مواصفاتنا الفنية على أخطاء يستحيل معها تصميم الأجهزة المطلوبة . وأحسست بالخطر حين رأيت أن هذا هو أسلوب العمل فى مصانعنا الحربية وفى صلاتنا مع الدول الأخرى من إهمال واستهانة وسوء تقدير ، فطويت النفس على شجن . و بعد تردّد وجيز خشية إلحاق الضرر بهذا الضابط الذى كان يشغل مركزا بالغ الخطوره أفضيتُ إلى المشير عامر بالقصة كاملة لأن المسألة لم تكن تحتمل الكتمان ، وانتهت علاقتى بهذا الموضوع .

كان مثل هذا التصرّف المشين والإهمال المعيب لاشك من بين ما جرّ مصر إلى تلك الهزيمة النكراء التى مُنيت بها فى حربها مع اسرائيل بعدُ . فلقد كان هذا الإنسان وأمثاله المحيطين بالمشير يستملى منهم و ينتصح برأيهم و يعمل بمشورتهم و يعطيهم ثقته كلها ، ثقة فى غير موضعها ، فكانت مشورته على المشير هى التى

فوّتت على مصر أن تتزوّد بالچيروسكوپ الموجّه الذى لوكنا حصلنا عليه لربما تغيّر مجرى الحرب .

* * *

وفى شهر مايو من نفس العام كنت أزور الرئيس لأعرض عليه بعض الأمور قبل سفرى إلى فرنسا لحضور جلسة طارئة للمجلس التنفيذى باليونسكو. و بعد أن فرغت من مهمتى هممت بالوقوف استعدادا للانصراف ، فإذا هو يطلب إلىّ الجلوس و يفاجئنى بقوله : « صبرا فهناك ماهو أهم مما عرضته علىّ مما ينبغى بحثه أثناء وجودك بفرنسا ، وهو معاونة فرنسا لنا فى إنتاج القنبلة الذر ية » .

ولم تقو قدماى على حملى فجلست ، وسألته : أتُراك تمزح يار يّس ؟ قال : بل أنا جاد كل الجدّ ، فاسرائيل تمتلك الآن القنبلة الذر ية ومسئوليتى تحتّم علىّ تملّك مصر وسائل ردع هذا السلاح ، ولذلك فنحن نحاول فى كل مكان ، حتى فى الصين . فوعدته بطبيعة الحال بذل كل مابوسعى ولم أخف عليه أنى أشك كثيرا فى إمكانية تحقيق هذه الأمنية . وخرجت من لديه مذهولا أحاول حصر ذهنى فى كيفية تبليغ هذه الرسالة ولمن ؟

وكان أول ماقمت به هو محاولة معرفة شيء عن هذه القنبلة الذر ية ، فانكببت على ماأحتفظ به من مجلدات مجلة- Réalités الفرنسية التى كنت مشتركا بها لأستعيد قراءة مقال أذكر أنى طالعته بها مطالعة عابرة يحمل عنوان « الدول التى تستطيع أن تمتلك القنبلة الذر ية » بقلم محررها العلمى فرانسوا شلوسيه . ذهب المقال إلى أن جميع دول العالم تستطيع امتلاك القنبلة الذر ية ، غير أن بينها من تستطيع تملكها خلال خمس سنوات ومن تستطيع ذلك خلال عشر سنوات ومن تستطيع خلال خمسة عشر عاما . وعرج فى تحليله إلى شروط ثلاث ، ينبغى توافرها حتى تستطيع الدولة صناعة القنبلة الذر ية : هى تملك الوقود الذرى وهو الأورانيوم ، والتحكم فى النواحى الفنية المعقدة للمولّدات الذر ية التى ينتج عنها البلوتونيوم ، ثم تملك مصنع لتوظيف المواد المشعة لعزل البلوتونيوم الذى يتكون فى أعمدة الأورانيوم التى تغذى المولّد . وبعد ذلك تأتى الخطوة الثانية وهى عمل القنبلة نفسها : تجميعها وتجربتها وتجهيزها عسكريا . وانتقل بعدها إلى شرح كيف أصبحت المعدات الذر ية سلعة تجار ية فتستطيع أى دولة أن تحصل بالشراء

على مفاعل ذرى إذا لم يكن فى قدرتها من الناحية الفنية والعلمية إنشاؤه . وتستطيع الدولة البائعة ممارسة إشرافها على استخدام الوقود الذرّى الذى تقدمه لتغذية المركز، ولكن ليس ثمة ما يمنع الدولة المشترية من مضاعفة الجهد وتحقيق التقدم لإنشاء مفاعلها الخاص ، فما أيسر الحصول على الجرافيت والماء الثقيل ومعدات التوقيت وأجهزة الحساب الكهربائى . أما بالنسبة لمعدن الأورانيوم ــ والشائع أنه نادر ــ فقد غدا موفورا إذ أصبحت الدول المنتجة له مثل كندا وجنوب أفريقيا لديها وفرة منه خاصة بعد اكتشفت الولايات المتحدة المعدن فى تربتها وكفّت عن الشراء من الخارج .

وكان الرئيس عبد الناصر فى أثناء لقائى به قد أشار علىّ بأن أطلب من المرحوم الدكتور عبد المعبود الجبيلى رئيس هيئة الطاقة الذرية الإحتياجات بالتفصيل . وكنت على معرفة وثيقة به منذ كنت ملحقا عسكريا بفرنسا وكان أيامها يواصل دراسته العلمية بباريس ، فأوضحت له المهمة التى عهد بها الىّ رئيس الجمهورية ، طالبا تزويدى بالقدر اللازم من المعلومات التى تساعدنى فى تحقيق المهمة ، فأعارنى كتاب « انتشار الأسلحة الذرية » الصادر عن معهد العلوم الاستراتيجية البريطانى والذى يكشف عن أن فرنسا لا تملك أى حق للرقابة على مفاعل ديمونة الإسرائيلى الذى أنشأته لها ، ثم انتقل إلى المعلومات التى حصلت عليها اسرائيل من الدول الغربية . وهنا طلبت منه تحديد مطلب رئيس الجمهورية من فرنسا علميا فتطرق إلى أربعة احتمالات ، أولها بطبيعة الحال الحد الأقصى وهو معونة فرنسية كاملة على أن تعوضنا فرنسا عن الوقت الزمنى الضائع بين معونتها لاسرائيل ومعونتها لنا ، وثانيها برنامجا متوسطا ، وثالثها الحد الأدنى ، ورابعها أسوأ الفروض وهو تزويدنا بمفاعل لإنتاج البلوتونيوم ومدّنا بالمواد النووية المختلفة ورخصة إنتاج الوقود . وأيا كانت المشروعات التى سنتعاون فيها فلا معدل عن أن تزودنا فرنسا بالتصميمات والرسومات النهائية وبالمعدات والمواد والأجهزة اللازمة لإقامة هذه المشروعات ، وأن تتعاون معنا على التنفيذ فى كافة مراحل الإنشاء والتركيب والاختبار والتشغيل والصيانة ، وأن تمدّنا بالمواد النووية وقطع الغيار، وتدريب الخبراء والفنيين المصريين فى المنشآت الفرنسية المشابهة واشتراكهم مع الخبراء الفرنسيين فى المراحل المختلفة للمشروع .

وفى يوم ٢٣ فبراير التقيت بالمسيو لوى چوكس وزير الدولة الفرنسية لشئون الإصلاح الإدارى بمقر وزارته ، و بعد تبادل عبارات المجاملة التقليدية عرضت الموضوع فقلت : « إنى مكلف برسالة شبه رسمية من رئيسنا أرجو إبلاغها للچنرال ديجول شخصيا ، ولعلمى بمكانتك المقدورة عنده وحسن استماعه إليك ولثقتى بصداقتك لنا التى أثبتتها الظروف فى أحلك الأوقات قصدتك لإبلاغ هذه الرسالة . فبعد تبادل الأمانى الحارة التى تبادلناها فى شهر أكتوبر الماضى أثناء زيارة المشير عامر آتى إليك اليوم بعرض واقعى أرجو أن يصل على لسانك رأسا إلى الرئيس ديجول . وأنتهز هذه الفرصة كى أتقدم بالتهنئة على النجاح الباهر الذى حققته فرنسا بالأمس فى ميدان الفضاء بنجاح صاروخها ديامان ١ ، ونحن نعلم أن فرنسا تعتنق مبدأ عدم انتشار الأسلحة الذرية ، كما نعلم أن سياستها الخارجية سياسة مستقلة تماما ، وعلى ضوء هذين الاتجاهين أعرض المسألة ... لا المشكلة .

لقد تورطت حكومة جى موليه فى عهد الجمهورية الرابعة فى تقديم كافة أنواع المساعدات العسكرية لاسرائيل وخاصة فى الميدان النووى فكان لمساعداتها غير المحدودة أثر فى التقدم الكبير الذى أحرزته الآن فى تكوين مفاعلها الذرى وفى إمكانية حصولها على القنبلة الذرية فى عام ١٩٧٠ ، كما تشهد على ذلك هذه المقالة الرئيسية بعدد شهر فبراير لمجلة Réalités أشد المجلات الفرنسية جدية وموضوعية [وهنا عرضت عليه نسخة هذا العدد التى يتضح من المقال المنشور بها أن الجمهورية العربية ستتمكن من الحصول على القنبلة الذرية فى عام ١٩٧٥ بينما ستصل اليها اسرائيل فى عام ١٩٧٠] . والشعور السائد لدى العرب عامة ومصر خاصة أن فرنسا ـــ سواء كانت الجمهورية الرابعة التى ارتكبت هذه الخطيئة أم الجمهورية الخامسة التى ورثت هذه التبعة ـــ مسئولة أمام التاريخ بلا جدال عن دخول الصراع بين العرب واسرائيل فى هذا السباق الذى لن يقف عند حد ، فبعد القنبلة الذرية سيتجه التفكير إلى القنبلة الهيدروچينية ، وهكذا سيمضى السباق إلى غير نهاية .

وأردفت قائلا إن الرئيس عبد الناصر يدرك عدم جدوى هذا السباق كما يؤمن بمبدأ عدم انتشار الأسلحة الذرية ، ولكنه غير مستعد لأن يقف مكتوف اليدين أمام الخطر الذى يتهددنا . فوفق إحصائياتكم تسبقنا اسرائيل بخمس سنوات على

الأقل فى هذا الميدان الخطير وهى فترة ــ كما لايخفى عليكم ــ ملأى بكل أنواع التهديد والدمار والخطر. وهو مايجعل الرئيس يعزّ عليه أن يقف جامدا حتى يتحول شعبنا إلى شراذم من اللاجئين على الرغم من حرصه على أن ينفق الدخل القومى على حل مشاكل بلاده والارتفاع بمستوى سكانه، إلا أنه لايرى مفرا من وضع نشاط اسرائيل الذرى فى حساباته.

واستطردت أقول: وكما تعرفون فقد بدأنا منذ وقت غير قصير بتطبيق برنامج نووى للأغراض السلمية ولإنتاج المواد الانشطارية، فعلى أى دولة تريد صناعة القنبلة الذرية أن تمر بمرحلتين تختلط المرحلة الأولى منهما فى جميع تفاصيلها بتطبيق برنامج الذرة المدنى وتنتهى بإنتاج المادة الانشطارية، والمرحلة الثانية هى مرحلة عسكرية بحتة تنتهى بتجربة القنبلة. وسوف تستطيع اسرائيل خلال خمس سنوات إحراز تقدم أكبر نسبيا فى الميدان الذرى. وفى خلال السنوات العشر القادمة سوف تستطيع ثمانى دول أخرى اللحاق بها منها الجمهورية العربية المتحدة، والمتوقع أنه فى حوالى عام ١٩٨٠ سوف تستطيع أغلب الدول الأخرى التى تمارس الآن برامج أبحاث ذرية النظر فى صناعة القنبلة الذرية.

ولايخفى عليكم أنه بانتشار المعرفة والتقدم الفنى فى علوم الكيمياء والإلكترونات والمعادن أصبح من السهل الوصول إلى مرحلة الصناعة الذرية. فقد أسفرت برامج استخدام المعدات الذرية فى النشاط المدنى عن أن عددا من الدول وجدت حلولا للعديد من مشكلاتها الفنية الخاصة التى كانت تواجهها، بل إن أية دولة تملك اليوم المعرفة اللازمة وأقل المعدات الصناعية يمكنها أن تصنع لنفسها قنبلة ذرية بنصف مليار فرنك فحسب. كما أن سرية السياسة الذرية ثبت فشلها وعدم جدواها لأنه لايمكن منع انتشار المعرفة ولا التقدم الفنى ولا وصول عدد متزايد من الدول إلى المستوى الصناعى المتوسط، وهو المستوى اللازم للوصول إلى إمكان صناعة السلاح النووى، كذلك فإن سياسة الإشراف التى حلت محل سياسة السرية لم تعد فعالة أو كافية. والحل الوحيد الفعال كما تعلمون حق العلم هو النزع العام للسلاح النووى، وأن تنتقل ملكية القوة النووية إلى سلطة دولية لها الحق المطلق فى الإشراف والتفتيش على جميع المنشآت الذرية

الحالية والمستقبلة ، غير أن الدول الكبرى لا تبغى السير فى هذا الطريق . ولما كان الدور الذى تلعبه فرنسا فى الشرق الأوسط كما صرح الجنرال ديجول للمشير عبدالحكيم عامر هو المحافظة على توازن القوى فى المنطقة ، فقد آن الأوان لفرنسا لتحقيق هذا الدور، واسمح لى أن أدعوه تكفيرا عن الذنب الذى ارتكبته الجمهورية الرابعة ...

فقاطعنى المسيو لوى چوكس بقوله : هل تريدون ضمانا ؟

قلــت : كلا البتة ؟

قــال : لماذا ؟

قلت : لنفس السبب الذى آمنت به الجمهورية الفرنسية الخامسة فرفضت الحصول على ضمان الولايات المتحدة الأمريكية وقررت أن تكون المبادأة بيدها فصنعت قنبلتها . ما كان أيسر أن نطلب ضمان الاتحاد السوفييتى ولكننا ننهج دائما سياسة مستقلة ، ومن شأن من يتبع هذه السياسة ألا يضع نفسه تحت رحمة قوى أخرى كى تختار الطريق الذى تقضى به عليها مصلحتها العامة .

وردّ المسيوچوكس على قولى بابتسامة .

وأردفت قائلا : هناك حلان : الأول أن تتدخل فرنسا تدخلا إيجابيا لإيقاف اسرائيل عن مواصلة إنتاج قنبلتها الذرية بطريقة تضمن بها زوال هذا التهديد عنا حتى تقتنع أجهزتنا المسئولة عن الدفاع بالانصراف عن المضى فى هذا السباق اللامحدود ، وهذا هو الحل الأمثل لأننا نتوق إلى أن نحصر جهودنا فى التغلب على مشكلاتنا الاجتماعية واللحاق بركب الحضارة واعطاء الفرصة للمواطن المصرى كى يحيا حياة كريمة . أما اذا تعذر هذا فلا معدل عن أن تمنحونا مساعدتكم الفنية السريعة والفعالة للحاق بالمستوى الذى بلغته اسرائيل ــ بفضل عونكم ــ وأصبحت بذلك خطرا يهدد حياة أفراد شعبنا ومنجزاتنا . ولسنا نطلب تسليمنا القنبلة بطبيعة الحال ولكننا نطالب ــ مؤمنين أننا نطالب بحق ــ بالقدر الكافى من المعلومات الذى يساعدنا على إنجاز قنبلتنا فى وقت واحد مع اسرائيل . إن نشاطنا النووى يتجه نحو الأهداف السلمية وكذلك تدّعى اسرائيل ، ولكنك خير من يعلم ألاحدود هناك بين الأهداف السلمية والعسكرية .

إن هـذا الموضـوع بالنسبة لنا على جانب كبير من الأهمية العاجلة . ونحن على استـعداد لتـقـديم المقابل بطبيعة الحال فى الميدان أو الميادين التى تقدر فرنسا أنها مـنـاسـبـة لهـا ، فـعلى سبيل المثال [وهذا ميدان أقترحه بصفة شخصية] طالعت بـصـحـيـفـة لومـونـد عدد ١٥ فبراير الأزمة التى تمر بها صناعة الطائرات الفرنسية الـكـاراڤيل بعد أن قررت شركات الطيران الإسكندناڤية والسويسرية والإيطالية والـبـلـچـيـكـيـة والألمانية التخلّص من طائراتها الكاراڤيل الفرنسية التى تعمل على خـطـوط مـتـوسـطـة والتعاقد على شراء طائرات أمريكية من طراز D C 9 وطراز بوينج ٧٢٧ الجديد التى بدأ تسليمها إليهم بالفعل . وهو ماقد يسفر عن أن تصاب هـذه الـصـنـاعـة الفرنسية الهامة بكساد شديد فى ميدان أوروبى تقتحمه الصناعة الأمـريـكـيـة فـتـخـدش الـكـبـرياء الفرنسى الذى ظل شامخا فى أوربا تحت راية طـائـرات الـكـاراڤيل طوال السنوات العشر السابقة . وأعتقد أنه من اليسير فى مثل هـذه الحـالـة أن تـتـخـلـص الجـمـهـورية العربية المتحدة وأصدقاؤها من طائراتها الإنجـلـيـزيـة واستبدالها بطائرات الكاراڤيل . هذا ميدان واحد من الميادين أسوقه على سـبـيـل المـثـال لإظـهـار حسن النوايا . كذلك هناك الكساد الذى تعانى منه تـرسـانات بناء السفن الفرنسية ، وتستطيع الجمهورية العربية المتحدة أن تعهد إلى الـتـرسـانـات الـفـرنـسـيـة بـبـنـاء أسطولها التجارى . وإذ تتصف سياستكم دائما بـالاسـتـقـلال ، وهـو مـا تـنـتـهـجـه سياستنا بالمثل ، فلماذا لانقدم على تجربة توحيد سـيـاسـتـنـا فى كـل مـن الـشـرق الأوسط وأفريقيا على سبيل المثال بتبادل الرأى بطريقة أكثر عمقا من الطريقة التى نتبادل بها الرأى الآن .

وهـنا أعدت على مسامعه الحلّين اللذين سبق أن أبديتهما ، فأكد لى أنه سينقل للـرئـيس ديجول فحوى هذه الرسالة من ألفها إلى يائها ، ثم كرّر لى ما عرضته عليه كاملا غير منقوص وأردف يقول : لا أظنك تتوقع منى إجابة فى التو واللحظة ؟

قلت : لابطبيعة الحال ، فهو أمر له شأنه ومسئوليته .

ولما أخـبرته أني سآتى إلى باريس لحضور دورة المجلس التنفيذى لليونسكو فى شـهـر مـايـو قـال إن هـذه الـفـترة تسمح له بدراسة الموضوع والتحدث إلى الچنرال حيث نستطيع استئناف الحديث بعد استيفائه لدى عودتى .

وعدت فى شهر مايو إلى فرنسا ، وجمعتنا مائدة العشاء فى الحادى عشر من مايو ١٩٦٦ بمطعم « تور دارچان » الذى يطلّ على نهر السين بشرفته الزجاجية الفسيحة التى تتيح لنا رؤية أضواء باريس تومض فى الأفق البعيد بعد أن ينزوى قُرص الشمس الغارب بأكمله وسط الشفق وراء كنيسة نوتردام ، وما تلبث العيون أن تنصرف عن التطلع إلى السفن التى تغدو وتروح على صفحة السين إلى طبق البط الشهير الذى يقدّم لك مُجزّءا على دفعات تبدأ بالصدر ثم بالفخذ ومعهما بطاقة بالرقم المسلسل للبطة التى تتناولها منذ قدّم « التور دارچان » أول طبق من هذا النوع الذى يتميز به هذا المطعم الفريد ، وبهذا يعرف المختلف إليه دوره بين آكلى البط فيه .

كنت متلهفا إلى سماع الإجابة على الموضوع الذى سبق أن أثرته معه خلال شهر فبراير ١٩٦٦ والخاص بالمعاونة على إقامة المراحل اللازمة لاستخدام الذرة ، والذى كنت حريصا على تسميته أمامه « بالتعاون الفرنسى المصرى فى إطار سياسة إيجابية » ، غير أنه اعتذر لى بأن الفرصة لم تسنح له حتى الآن للحديث مع الجنرال ديجول ، فقلت له إن فرنسا إذا بادرت باتخاذ هذه الخطوة فستجنى فائدة كبيرة ، بأن تحتل مركزا خاصا ممتازا بين الشعوب العربية بصفة عامة ، وبين الشعب المصرى ـــ وهو بطبعه شديد الوفاء ـــ بصفة خاصة . وهنا ذكّرته بأن المركز الخاص الممتاز الذى يتمتع به الاتحاد السوڤييتى فى مصر مرجعه الأساسى المساهمة فى بناء السد العالى ، ونحن نتطلع إلى أواصر أشد قوة مع فرنسا ولن تكون هذه الأواصر مفتعلة فهى قديمة وعريقة راسخة . وأضفت إلى هذا أننى أذكر فى طفولتى وصباى أن عيد ١٤ يوليه كان يحتفل به فى مصر كأحد الأعياد القومية رمزا للحرية التى نادت بها ثورتكم ، وأن الثقافة الفرنسية قد احتلت مكانها فى قلوب المصريين من قديم الزمان رغم الاحتلال البريطانى الذى جثم على نفوسنا سبعين عاما ، وأنه منذ مطلع الحرب الأخيرة حاولت بريطانيا القضاء على الثقافة الفرنسية بمصر بشتى الطرق إلى حد مصادرة الكتب الفرنسية من المكتبات مستندة إلى المليون جندى المرابطين بالشرق الأوسط ، وأن حملة نابليون ـــ بالرغم من المقاومة التى تعرضت لها ـــ فإن ما خفّف وقعها أمام التاريخ أنها استهلت عهدا جديدا فى تاريخنا العلمى والثقافى ببعثة العلماء التى صاحبت الحملة ، وأنه فى عهد

محمد على وسلالته كانت الثقافة الفرنسية متغلغلة وكانت بعثاتنا كلها تتوجه إلى فرنسا ، وأن الكولونيل سيف لم يكن بالنسبة لنا رمزا لسيطرة فرنسية بل بالأحرى كان رمزا للأواصر القريبة بين شعبينا وللمركز الممتاز الذى تحتله الثقافة الفرنسية فى بلادنا ، إلى أن كان العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ فقضى على كل ما تبقى من أثر للثقافة الفرنسية والتعاطف نحوكم . وقد خيبت هذه الخطوة آمالنا لولا تغير الأحوال وانهيار الجمهورية الرابعة التى شنّت هذا العدوان الغاشم وظهور الجمهورية الخامسة متبعة سياسة جديدة لانراها بعيدة كل البعد عن سياستنا وآمالنا مستهلّة إنجازاتها بإنهاء حرب الجزائر. إن طريقنا هو طريقكم ، ولقد اعتذرت الكتلة الشيوعية عن معاونتنا فى المجال الذى أتحدث فيه إليك واكتفت بعرض ضمانها ضد أى عدوان ذرّى ينشب ضدنا ، وقد رفضنا بدورنا هذا العرض كما قلت لك إذ هو يجمد بنا عند حدّ لا نعدوه و ينال من استقلال سياستنا الخارجية ، وما أسهل علينا أن نحصل على ما نريد إذا ما أعلنّا بلادنا ديمقراطية شعبية . فماذا تنتظرون للقيام بخطوة إيجابية ؟ لقد أفلتت الفرصة من قبل من الغرب عند تمويل السد العالى ، ونحن نعرض عليكم فرصة لا تعوّض لاكتساب ما فقدتموه بأقصى سرعة والتكفير عما اقترفته الجمهورية الرابعة فى حقنا ، وفى نفس الوقت فى صالح خصمنا الرئيسى اسرائيل .

ولا أكتمك أنه فى اليوم الذى تفجّر فيه اسرائيل قنبلتها الذرية فهذا معناه القطيعة التامة بيننا ــ نحن الشعوب العربية ــ و بين فرنسا ، فلا نزاع فى أن المسئولية تقع على أكتافكم . لماذا كان هذا التقارب إذن إن لم يُتوج بهدف كبير ذى دلالة واضحة ؟ وهنا ذكرت له ماورد بكتاب « انتشار الأسلحة الذرية » بقلم ليونارد بيتون الذى ينشره معهد العلوم الاستراتيجية البريطانية وسلّمته مقتطفات من هذا البحث كما سلّمته تعليقا عليه . تقول مقتطفات البحث :

١ ــ المعروف أن فرنسا تمد اسرائيل بكميات من اليورانيوم تعاد بالتالى إلى فرنسا بعد استخلاص الوقود المحترق أوالمشع .

٢ ــ يبدو أن اسرائيل قد حصلت من جنوب أفريقيا على ١٠ طن من اليورانيوم .

٣ ــ يصل إنتاج اسرائيل حاليا من اليورانيوم المستخلص من فوسفات البحر الميت عشرة أطنان فى العام ، أى يبلغ مجموع مالديها من يورانيوم عشرون طنا (مع العلم بأن إنتاج اسرائيل وجنوب أفريقيا غير خاضع لأى إشراف) .

٤ ــ تحاول اسرائيل المستحيل لزيادة إنتاجها السنوى من اليوارنيوم من عشرة إلى خمسة عشر طنا ، فإذا تحقق لها نصف هذه الزيادة فيمكن لمفاعل ديمونه الاستغناء عن استيراد المواد النووية من أى مصدر خارجى .

٥ ــ يتعذر على أى إنسان أن يحدد ما إذا كانت اسرائيل قد وقّعت مع فرنسا عقدا يحدد استخدام إنتاج المفاعل الفرنسى فى أغراض سلمية فقط مثل العقد المبرم بين الهند وكندا ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو أن فرنسا لاتملك أى حق فى الإشراف على المفاعل نفسه .

أما التعليق الذى قدمته مع هذه المقتطفات فيذهب إلى أن :

« هذا معناه أن المواد النووية التى تستوردها اسرائيل من جنوب أفريقيا بالإضافة إلى إنتاجها المحلى ــ مع استبعاد فرنسا ــ وهى التى تعتبر عنصرا من عناصر المفاعل الذرى لإنتاج البلوتونيوم لاتخضع لأى إشراف فرنسى وبمعنى آخر أن اسرائيل تستطيع التصرف على هواها » .

وافترقنا على أن نلتقى يوم الحادى والعشرين من مايو حيث استهل حديثه بأنه يودّ بادىء ذى بدء أن يبلغنى أنه ليست لفرنسا الآن أية علاقة عسكرية باسرائيل . ثم بدأت مناقشة موضوع التعاون فى المجال الذرّى فقال : « أحب أن أؤكد لك بصفة قاطعة وبعد تبادل الرأى مع الإليزيه ووزارة الخارجية أنه لا توجد ثمة علاقة عسكرية البتة بين فرنسا واسرائيل فى الوقت الحالى سواء كانت هذه العلاقة رسمية أوغير رسمية . وهذا التأكيد أكرره لك كى تنقله بحذافيره للرئيس جمال عبدالناصر . ثم عرج على موضوع المعاونة فى الميدان الذرى قائلا أنه لابد له من أن يستطلع رأى المسيو كوف ده مورفيل .

قلت : إن وزير الخارجية لايملك البت فى هذا الموضوع وإنما مفتاح الموقف فى يد الجنرال ديجول فهو إذا أضاء النور الأخضر فُتحت الأبواب على مصاريعها ، وأن دور وزير الخارجية فى هذه الحالة هو التنفيذ واستقبال طلباتنا ومبعوثينا الفنيين بالطريقة المعتادة لتحقيق السياسة المرسومة .

قال : هذا صحيح وإنما أردت أن أضعه فى الصورة قبل الحديث مع رئيس الجمهورية لأنه حتما سيسألنى عن رأى وزير الخارجية ، ولست أعتقد أن مشاعر مسيو كوف ده مورفيل نحوكم سيئة بالمرة . ولكن كيف ترى أن تسير الأمور ؟

قلت : المطلوب أولا هو الموافقة السياسية العليا على المبدأ ، أما التفاصيل فأمرها هيّن و يتولاّها الخبراء .

قال : طبعا أنا لست متخصّصا حتى أتناول هذا الموضوع بالبحث العميق .

قلت : ولا أنا . وأنما أنا ناقل رغبة للرئيس جمال عبدالناصر .

قال : هل أستطيع أن أعرف بالضبط ماتطلبون ؟

وهنا أوضحت له أن ثمة حدا أقصى للمساعدة وحدا أدنى ، وأن الفارق بينهما بالنسبة لنا كبير جدا ، خاصة من ناحية الزمن المفقود وتفوّق اسرائيل علينا فى هذا المضمار بفضل المساعدة التى قدّمتها فرنسا لها . ثم أردفت قائلا : إن الفارق بالنسبة لكم هيّن بسيط ولكنكم ستجنون كسبا كبيرا فى هذه المنطقة من العالم إذا ما وافقتم على الحد الأقصى . نحن فى الواقع نطلب من خلال المساعدة الذرية توثيق الأواصر بيننا و بينكم كما أوضحتُ قبلُ .

قال : وهل تستخدمون ماقد نعاونكم فيه فى أغراض عسكرية ؟

قلت : إن الفرق بين الاستخدام فى أغراض عسكرية و بين الاستخدام فى أغراض سلمية دقيق أشد الدقة ، وأكون مخادعا إذا قلت لك أننا لن نمضى فى نفس الطريق الذى تسلكه اسرائيل ، ولكن سبق لى أن أوضحت لكم أنه بود الرئيس جمال عبدالناصر الذى يؤمن بمنع انتشار الأسلحة الذرية وقف هذا السباق ، فهويدخر جهده فى سبيل رفع شأن مواطنيه بدلا من الانسياق فى سباق لايُعرف مداه ، إلا أن عليه مسئولية حماية وطنه وشعبه فى نفس الوقت ، فهويشيّد بيد و يدافع باليد الأخرى ، غير أنى أعتقد أن مجرد معرفة اسرائيل أننا خطونا خطوات إيجابية فى هذا الميدان سيجعلها تفكر أكثر من مرة قبل المضى فى سياستها القائمة على الإسراع بتفجير القنبلة الذرية لتضمن التفوق العسكرى فى المنطقة . فإذا بدأنا نشاطنا بمعاونتكم لنعوّض مافات فأعتقد أن السباق العسكرى الذرى سيتوقف ، وهنا — وكم نتمنى هذا — يتفرغ علماؤنا لاستخدام هذه الإمكانيات الضخمة فى أهداف سلمية نحن فى مسيس الحاجة اليها .

وعندما سألني عن ماهية الحدّين الأقصى والأدنى أخذت أشرح له مطالبنا على ضوء المعلومات التي تزوّدت بها قائلا : إن الحل المثالي الذي نتوخّاه هو المعاونة في المراحل الثمانية الأساسية :

١ ــ إقامة منجم تجريبي لكشف الخامات الذرية وخاصة اليورانيوم .

٢ ــ إقامة منجم إنتاجي لكشف الخامات الذرية وخاصة اليورانيوم .

٣ ــ إقامة مصنع تركيز اليورانيوم .

٤ ــ إقامة مصنع تكرير اليورانيوم .

٥ ــ إقامة مصنع إنتاج وحدات الوقود النووي .

٦ ــ إقامة مفاعل ذرّي ذي قدرة مناسبة لإنتاج البلوتونيوم .

٧ ــ إقامة مصنع استخلاص البلوتونيوم من الوقود الذرّي المحترق أو المشع .

٨ ــ الحصول على المواد النووية وقطع الغيار اللازمة ، وذلك مع تعويض الوقت الزمني الضائع بأن تكون قوة المفاعل ٥٠ أو ١٠٠ ميجاوات حراري .

وهنا سألني عن الحد الأدنى فقلت له : مهلا ، فهناك شوط بين الحد الأقصى والأدنى أضرب له الأمثلة التبادلية الآتية :

أولا : **تزويدنا بالنقاط ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ مع مفاعل قوته ٥٠ أو ١٠٠ ميجاوات حراري .**

ثانيا : **أو تزويدنا بالنقاط ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨ على أن تكون قوة المفاعل ٥٠ أو ١٠٠ ميجا وات حراري .**

ثالثا : **أو تزويدنا بالنقاط ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨ بمفاعل مماثل لما سلمته فرنسا لاسرائيل وقوته ٢٤ ميجاوات حراري .**

أما الحد الأدنى ــ وهو أسوأ الفروض ــ فهو تزويدنا بمفاعل لإنتاج البلوتونيوم قوته ٢٤ ميجاوات حراري مع مدّنا بالمواد النووية المختلفة وقطع الغيار اللازمة لتشغيله واعطائنا رخصة إنتاج الوقود ووحداته .

وقد حرصت قبل إنهاء المقابلة على أن أوضّح أنه فى أى حالة من الحالات لا غنى لنا عن التزوّد بالتصميمات والرسوم النهائية والمعدات والمواد والأدوات والأجهزة لإقامة المشروعات ، وكذلك أهمية الإشراف على التنفيذ فى كافة المراحل من الإنشاء والتركيب إلى الاختبار والتشغيل والصيانة ، وأعدت عليه القول بضرورة تزويدنا بالمواد النووية وقطع الغيار للتشغيل المستمر ، وتدريب الخبراء المصريين فى المنشآت الفرنسية واشتراكهم مع الخبراء الفرنسيين ابتداء من التصميم حتى التشغيل النهائى والصيانة .

وكنت قد أعددت مذكرة تتضمن هذه الحلول كلها قدمتها له فتناولها ووضعها فى جيبه قائلا : إنى أودعها فى خزانة سرية ، وسأتصل بك قبل مبارحتك باريس لإخطارك بالنتيجة بعد عرض الأمر على الرئيس ديجول واستطلاع رأى كوف ده مورفيل .

وقد اتصل بى قبل مغادرتى باريس وذلك فى يوم ٢٧ مايو ليخبرنى أنه بتبادل الرأى مع كوف ده مورفيل وجد منه أذنا صاغية ولكنه لم يحصل بعد على رأيه النهائى نظرا لكثرة أسفاره ، فهو الآن بإيران وفى الأسبوع الماضى كان بپولندا وقبل ذلك كان يمر بعواصم دول الكتلة الشيوعية . ولكنه اقترح أن يكتب لى رأسا بالرأى النهائى بعد أن ينتهى من مداولاته مع ده مورفيل ثم عرض الأمر على رئيس الجمهورية .

ولقد أثبتت الأيام بعدُ أن هذه الإجابة كانت لونا من ألوان اللباقة الدبلوماسية ، ولربما كانت ظروف فرنسا عندها فيما يبدو لى تقضى عليها ألا تمدّ لنا مثل اليد التى مدّتها لإسرائيل فى ظروف سابقة . وما كان ضنُّها على مصر بالأمر الهيّن ، فلربما جرّ على مصر بعدُ شرّا مستطيرا .

(١) ملفّات السويس. مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٨٦ . صفحة ٣٠٠ـ٣٠١

(٢) Grand Chancelier de La Legion d'honneur .

(٣) وزراء الدفاع لفرنسا منذ قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢ حتى العدوان الثلاثي هم على التوالى چورج بيدو (١٩٥٢) ورينيه پليڤنْ (١٩٥٣) وپيير كونيج (١٩٥٤) وپيير بيوت (١٩٥٥) ثم موريس بورچيس مونورى (١٩٥٦) .

(٤) Robinet , Louis - Gabriel : **Koenig , Un Chevalier** , *Editions France - Empire 1973* .

الفصل الخامس

تجربتي الأولى

وزيرًا للثقافة

١
تجربتى الأولى وزيرًا للثقافة
مفاجأة مؤرقة

كانت روما تتوقع فى خريف عام ١٩٥٨ حدثا فنيا فريدا هو تقديم أوبرا « بوريس جودونوف » لموسورسكى بمشاركة المغنى العالمى بوريس كريستوف الذى كان ذِكْر اسمه يثير بين عُشّاق الموسيقى وفنون المسرح ثورة من الشوق والفرح الغامرين . وقد كان الأمر لى مثيرا لأعمق مشاعرى ، فما أكثر ما سمعته عن هذا المغنى القدير وما أشد التوق الذى كان يستحوذ علىّ لأستمع إلى صوته بينا تُتابع عيناى أداءه الفنى الذى حقّق له أيامها شهرة فائقة وهو يقوم بهذا الدور لم يكن يتمتع بها فى هذا المجال غير القلة من أفذاذ الفنانين .

ولم يكد يحل مساء الثامن من أكتوبر ١٩٥٨ حتى كنت فى رفقة زوجتى نشغل مقعدين فى الصفوف الأولى من دار الأوبرا بروما كى لا تفوتنا لفتة أو همسة تبدو من هذا المغنى الموهوب . ومع بداية العرض الأوبرالى أحسسنا وكأنما نحيا فى عالم أسطورى لم نعرفه من قبل ينبض بالجلال والرهبة. ويفيض بالألحان الآسرة والأنغام التى تنفذ إلى أعماق القلب . وانتهى الحفل فى دار الأوبرا دون أن تغيب عن أعيننا صورة من صوره ولا عن آذاننا لحن

من ألحانه وظللنا أسرى متعة فياضة حتى ونحن نتناول العشاء . وظلت الألحان تتردّد فى وجداننا حتى امتدت يدى إلى مفتاح جهاز الراديو لأستمع كالعادة إلى نشرة أخبار الحادية عشرة من إذاعة القاهرة ، فإذا بالخبر الأول يحمل إلينا مفاجأة مذهلة ، فقد كانت القاهرة تذيع قرار تشكيل حكومة جديدة تضم بين أعضائها اسمى وزيرا للثقافة والإرشاد القومى .

انمحت صور الحفل من فكرى وخمدت ومضاته فجأة ، وشملنى قلق غامر ، وشرد ذهنى إلى ما ينتظرنى من عمل فى القاهرة . وبرغم إيمانى بالعمل الثقافى إلا أن منصب الوزير ذاته لا مفر من أن يُدخلنى فى غمرة المشتغلين بالسياسة ، وهم فى كل بلاد العالم وليس فى مصر وحدها رجال ذوو استعداد طبيعى وطباع خاصة تمليها عليهم حرفة السياسة ، وأنا على طبع مغاير . فحين انضممت إلى الضباط الأحرار كنت أحمل بين جوانحى شعوراً عاما لتحرير الوطن والشعب دون تفكير فى أن أزج بنفسى فى غمرة السياسة . ولهذا وبعد نجاح الثورة تنازلت طواعية عن مكانى الذى عرضه علىّ جمال عبدالناصر فى مجلس قيادة الثورة لزميل كريم فاضل لأسباب ذكرتها قبلُ ، مبتعدا بنفسى عن تيارات السياسة واضعا نصب عينى أن أقدم لوطنى ما تسمح به إمكاناتى . وكان تعطّشى إلى المعرفة يجعل الكتاب أقرب رفيق لى كما كان ولعى بالموسيقى يشدّنى إلى مواطن النغم . وهكذا كانت هواياتى الفنية تستحوذ على أوقات فراغى كله فتنأى بى عن أن أشارك فى جلسات الدردشة مما خال البعض معه أن بى تباعدا أو تعاليا ، وما كان هذا حقا ، بل هى رغبة ملحّة فى مطالعة كتاب جديد أو سماع لحن شجّى .

مرّ فى ذهنى العديد من الخواطر والذكريات وأنا أتجوّل فى غرفتى غادياً رائحاً بعد أن أرّقنى نبأ تعيينى وزيرا فاستعصى علىّ النوم بقدر ما غاب الهدوء عن وجدانى ، وأخذت أقارن بين رضائى يوم فوجئت بتعيينى سفيرا لمصر فى روما منذ ما يُنيف عن سنة وبين البلبلة التى اعترتنى لتعيينى وزيرا . ولم يكن الأمر عندى هو مقارنة بين السفارة والوزارة ، فالسفير رغم مباهج عمله فى عراقة عاصمة أوربية كروما لا يعدو أن يكون موظفا محدود الاختصاصات ضيق الدائرة التى يتحرك فيها أو التى يمتد إليها نفوذه ، فى حين يملك الوزير صلاحيات كبرى ويستطيع التأثير فى مجال ينفسح ليشمل الوطن كله .

غير أن الأمر كما أتصور كان مناخ العمل هنا وهناك ، فلقد كنت أحسّ وأنا سفير أنى بين مجموعة يسودها التواؤم والتوافق ، كلنا نعمل لهدف معين محدّد ، وكما أنا فارغ له هم الآخرون فارغون معى له ، بينما الأمر سيكون فى الوزارة كما كنت أتخيّل على العكس من هذا . إذ كان لابد للوزير من الاضطلاع بمهام أخرى تتصل بالحقل السياسى ، وما كنت أحب أن أرتاد هذا الخضمّ ، لا مجانبة منى للمشاركة فى النشاط السياسى ، بل لما كنت أراه من احتوائه على شلل وتجمعات همّها ألّا يزاحمها فى سلطانها أحد ، وكثيرا ما تنشأ معها المكائد والوشايات . وكان هذا مبعثا آخر لقلقى ، إذ لابد لى من حذر واسع كى أدفع عن نفسى ما قد يُحاك لى . وقد كان ما توقّعته وقدّرته .

وكان أن انتهيت إلى أنه لابد لى من أن أعود إلى مصر قبل مرور أربع وعشرين ساعة ومقابلة الرّئيس راجيا إعفائى من شغل منصب الوزير . والحق إن جمال عبدالناصر أدرك منذ مصافحتى له كل ما أضمره وكأنما كان يقرأ أعماقى ، وأخذ يفيض فى السؤال عن أسرتى وصحتهم وأحوالهم ليؤجّل بضع لحظات بدء مناقشة يعرف أنها ستكون طويلة وشاقة . حتى إذا انتقلنا إلى جوهر الحديث وصارحته باضطرارى إلى الاعتذار عن قبول منصب الوزير الذى لم أستشَر فى أمر إسناده إلىّ ، لا تقاعسا عن عمل جاد بل تحاشيا لوقوع صدام محتمل بينى وبين الشلل والتجمعات المتسلّطة ، استمع عبدالناصر إلى حديثى مصغيا كل الإصغاء مقدّرا مشاعرى وأحاسيسى ، ثم أخذ فى إقناعى وهو يقول : إن منصبك الآن وزيرا يختلف كل الاختلاف عن منصبك الذى اعتذرت عنه مستشاراً برياسة الجمهورية . فأنت الآن فى وضع يعلو وضع بعض من لا تطمئن نفسك إليهم ، كما أنك ستشغل مكانا بعيدا عن المكان الذى يعملون فيه ، فوزارتك تقع فى مبنى مستقل بقصر عابدين ، فى نفس الوقت الذى ستكثر فيه لقاءاتنا معا بل وبشكل منتظم . كما أن هذا المنصب لن يغير شيئا من أنك تستطيع فى أى لحظة أن تجد بابى مفتوحا لك أو أن تتصل بى برقم تليفونى المباشر .

وحين ذكرت له ثانية عزوفى عن المناصب التى تشوبها صراعات على السلطة والنفوذ وما يتبعها من مضيعة للوقت والجهد وأنّى أنفر من الخوض فى

غمارها لأنها تستنفد طاقات مُهدرة ، أجابنى قائلا : أصارحك بأنى لم أدعك لشغل وظيفة شرفية ، بل إننى أعرف أنك ستحمل عبئا لا يجرؤ على التصدّى لحمله إلا قلّة من الذين حملوا فى قلوبهم وهج الثورة حتى أشعلوها . وأنت تعرف أن مصر الآن كالحقل البكر ، وعلينا أن نعزق تربتها ونقلّبها ونسوّيها ونغرس فيها بذورا جديدة لتُنبت لنا أجيالا تؤمن بحقها فى الحياة والحرية والمساواة ، « فهذا هو العناء ، وهذا هو العمل الجاد » على نحو ما ذكر فرچيل فى إنيادته ، وإننى اليوم أدعوك أن تُقْبِلَ على هذا العناء وذاك العمل الجاد ، وأن تُشَمِّر عن ساعد الجدّ وتشاركنى فى عزق الأرض القاحلة وإخصابها ، إن مهمتك هى تمهيد المناخ اللازم لإعادة صياغة الوجدان المصرى ، وأعترفُ أن هذه أشقّ المهام وأصعبها ، وأن بناء آلاف المصانع أمر يهون الى جانب الإسهام فى بناء الإنسان نفسه . ولو أن سفيرا يستطيع أن يؤدى ثلاثين فى المائة فقط مما قمت به أنت فى روما فحسبى هذا . إن لك دورا تخدم به الوطن فى الداخل أهم من دورك فى الخارج . وأحب أن أبوح لك بأن على بابى هذا نحواً من عشرين شخصا متطلّعين إلى منصبك هذا .

فعجّلت بقولى : إذن فلتمنحه أحدهم فإنى غير راغب فيه ، فضلا عن أنى لا آمن من تلك السهام الطائشة التى سوف توجّه إلىّ من ذوى الأغراض ، فساءلنى بهدوئه العميق : ومَنْ مِنّا الذى يعمل آمنا من السهام المعادية ؟ أوَلاَ تذكر أننا خرجنا ليلة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ نحمل أرواحنا على أكفنا ، وكل منا يضع فى احتمالاته ألا يعود إلى أسرته سالما . إن عظم المسئولية جدير بأن يثير فى نفسك ما عهدته فيك من إقدام ، ثم ما الذى ستفعله فى وزارة الثقافة غير تحقيق أحلامك التى طالما كنت ترويها على مسامعى قبل الثورة وبعدها .

وأخذ الرئيس يذكّرنى بأننى لم أكن أغادر القاهرة فى مهمة سياسية خاصة إلا وأعود بحديث مقتضب عن المهمة تاركا التفاصيل للتقرير المكتوب ، بينما كنت أطنب فى الحديث عن النهضة الفنية فى الخارج وعما شاهدت من عروض مسرحية وموسيقية وأوبرالية ومن معارض فنية تشكيلية وعن أحدث الإنشاءات الثقافية ، وعن أمنيتى فى أن تتحقق مثل هذه النهضة فى مصر . وهنا صارحنى الرئيس بقوله : لا أخفى عليك أن كل حديث كان يدور حول تنمية الثقافة والفنون كان يجعل صورتك تتراءى فى خيالى ، وأذكر حديثنا قبل الثورة عن

انحصار المتعة الثقافية وبخاصة الفنون الراقية فى رقعة ضيقة لا تنفسح إلا للأثرياء، وكيف ينبغى أن تصبح الثقافة فى متناول الجماهير العريضة وأن تخرج من أسوار القاهرة والإسكندرية لتبلغ القرى والنجوع، فمن بين أبناء هذه القرى الغائرة فى أعماق الريف بالدلتا والصعيد يمكن أن يبزغ عدد من الفنانين الذين يعكسون فى إبداعهم أصالتهم الحضارية. ويبدو لى أن الأوان قد آن لتحقيق هذا المطمح، وقد كنت أنتظر هذه اللحظة لأسند إليك مهمة وزير الثقافة. ولا تتصور أننى كنت أوفدك فى مهام مؤقتة إلى عواصم أوربا أوفى مهام طويلة كعملك الدبلوماسى فى باريس وروما دون أن أضع فى اعتبارى ما تتيحه لك هذه الفرص من دراسة الأنشطة الثقافية والفنية فى أهم عواصم الفنون والثقافة فى العالم، وإننى أرى أنه مازالت أمامك رحلات أخرى فى عواصم أخرى تضيف إلى حصيلتك فى هذا المجال زادا جديدا. لكنك ستقوم بهذه الرحلات بوصفك وزيراً للثقافة، وهو ما سيتيح لك فوائد أعظم وأنت تشيّد أبنية الثقافة والفن فى مصر.

وأحسست أن عبدالناصر كاد أن يُضيّق علىّ الحصار وأن يمسّ أوتار قلبى، وأن يوقظ فى نفسى الأحلام والذكريات التى أخذت تلهب خواطرى وتشعل فى وجدانى قلقا عصيّا على الخمود.

فقلت له: أرجو أن تمنحنى فرصة أعيد فيها النظر.

فقال لى مبتسما: حسبتك تريد فرصة تجرب فيها حظّك فى موقع وزير الثقافة. وعلى كل فليكن لك ماتريد. اخلد إلى عزلتك ليلة أو ليلتين، على أن تتذكر أن قرار رئيس الجمهورية لايقبل التغيير السريع الذى تودّه أو الذى كنت تودّه.

وصافحنى مودّعا بعد ساعات أربع من النقاش الذى كان فيه بالغ الصبر، والذى أعترف أننى كنت فيه شديد العناد والتصلّب. اتجهت إلى بيت المشير عامر الذى هنأنى بتعيينى وزيرا للثقافة وهو يقول لى: ها أنت الآن فى الموقع المناسب لتكوينك وتحقيق أمنياتك القديمة لصالح الفن والثقافة.

وحين سردت عليه موجز ماحدث بيني وبين الرئيس قال رحمه الله : إن عبد الناصر يعتمد عليك فلا تخيّب أمله فيك ، ثم إنه أوحى لك بأن تأخذ فرصة فى ممارسة مسئوليات هذا المنصب الجديد ، فإذا مضت مدة ووجدت أن هناك عقبات فعلية فى طريق إنجازك لمشروعاتك كان من حقك ساعتها أن تطلب من الرئيس إعفاءك من المنصب الوزارى . وساعتها سيوافق الرئيس دون أن يجد فى ذلك مايغضبه عليك أويخيّب أمله فيك ، أما الآن فلايجوز.

وقد اعتكفت فى بيتى ليلتين كما أشار علىّ الرئيس . وفى صباح اليوم الثالث تلقّيت مكالمة منه يسألنى فيها عن رأيى الذى انتهيْت إليه ، فأجبته قائلا : أصارحك أننى حتى الآن لم أحسّ بالراحة لقبول هذا المنصب ، فقال ضاحكا : هيّا إلى مكتبك على بركة الله ولاتهتم براحة النفس هذه فأنا كفيل بتحقيقها لك . ونظرت بعدها إلى رفيق السلاح يوسف السباعى الذى كان يزورنى عندها ، ولم أكد أكرر عليه قولة جمال عبدالناصرَ حتى انفجر ضاحكا وقال لى بمرحه المعهود الذى كان يتسرّب إلى قلوب محدّثيه : «أسرع ياثروت ، فأنت لا تدرك مفهوم كلمة « الراحة » فى لغة أهل الصعيد ، لأنها تعنى أحيانا « الراحة الأبدية » ، وما أظنك ترحّب بها الآن » .

وأضحكتنى هذه المزحة الساخرة التى أطلقها يوسف ، وبعد دقائق وجدتنى فى سيارته وهو يقودها إلى قصر عابدين ، والتفتَ نحوى متفرّسا فى وجهى الذى لابد أنه كان لايزال متجهّما ، فإذا هو ينطلق فى قهقهة حلوة أذهلتنى ، فسألته عما يُضحكه فقال لى : أقول لك ولا تغضب ؟

قلت له : إن الله حباك موهبة إسعاد الناس فلن تستطيع أن تغضب أحداً يوما حتى لو وجدت الرغبة الصادقة فى ذلك . فقال لى : معذرة ، لكنْ تجهّم وجهك بما يعبّر عنه من هموم ثقيلة على صدرك جعلنى أتذكر يوم كنت أذهب بابنى اسماعيل لأول مرة إلى المدرسة ، فقد كان مهموما وحزينا وكأنه رأى فى المنام أننى سأذبحه مثل سيّدنا اسماعيل عليه السلام . وشاركته الضحك من كل قلبى معجبا بقدرته الفريدة على إمتاع عارفيه ، فإذا هو يهمس فى أذنى : سوف أسجّل هذا الحدث فى إحدى قصصى إن شاء الله . ولكن القدر لم يترفّق بنا واختطفته يد المنون غيلة وهو

ما يزال موفور الصحة وقد ترك فى قلوبنا فراغا لانملك معه إلا أن ندعو الله صادقين أن يتغمّده برحمته ورضوانه .

ولقد عزّ علىّ أن يُفارقنى هذا الصديق دون أن أرثيه بكلمة فإذا لسانى يجرى بهذه العبارات :

« يا أوفى الأصدقاء ... الليلة تبكى مصر كما لم تبك منذ سنين
تبكى قلبا لم ينبض بغير الحب والحنان .
تبكى ابتسامة تتوارى فى مواجهتها الأحزان
تبكى تواضعا تستحى أمامه الكبرياء .
تبكى رسول سلام كانت تفتح له عواصم المشرق والمغرب ذراعيها فى ترحاب .
تبكى أديبا منحته السماء سحر الكلمة ينفذ بها إلى أعماق القلوب ، يبثّ فيها الحقيقة ويؤجّج فيها أنبل العواطف والأحاسيس ، تكاد تصفّق له الأيدى قبل أن تنفرج شفتاه .

تبكى مَلَكاً أسطوريا يسهر آلاف الناشئين فى رفقة كلماته وهو يصوغ لهم أحلامهم ويقوّم أسلوبهم وينضج مواهبهم ، ويؤنس وحيدهم ويغسل بالآمال بائسهم ، ويغرس البسمة على شفاه محزونيهم .

يجد فيه الفتية نموذج البطل المثالى ، وتجد فيه الصبايا فارس أحلامهن النبيل .

بوداع يوسف يتشح الأفق فى عينى بالشجن .
كان الصديق الذى يصافح نظراتى بالتفاؤل وكلماتى بالمرح ، والذى تزاملت خطانا طوال العمر منذ شبابنا الباكر فى سلاح الفرسان حتى جمعنا العمل المشترك فى حقل الثقافة .

ما اختلفت معه يوما ، وما خبا فى نفسى الشوق إلى لقاه . لكنه مضى إلى عالم الخلود تاركا على وجه الأرض بقعة دم تدين شرور البشر ، بطش الظلم وظلم الإرهاب .

وتظل بقعة الدم التى تركها الشهيد على ثرى نيقوسيا جمرة نار تذكّر الأجيال بجرح مصر فى فقيدها الغالى . وأظل بعد وداعك معذّبا بالشوق إليك ، أستعيض عن اللقاء بجميل الذكريات يا أوفى الأصدقاء » .

* * *

دخلت إلى مكتبى راضيا بما قُدّر لى وقد انحسم الصراع الذى مزّق نفسى أياما ثلاثة ، وأخذت أوطّد العزم على العمل رغم معرفتى بما قد يجابهنى من عقبات ، ورفعت سماعة التلفون لأبلغ الرئيس جمال أننى أحدّثه من مكتبى بقصر عابدين ، وأحسست بدفقة الحماسة فى صوته وهو يطمئننى قائلا : تأكد أننى سأوليك كل الدعم والرعاية ، فإنى واثق أنك سوف تستطيع أن تشكّل رباطا وثيقا بين حركة المثقفين وحركة الثورة لتخلق منهما وحدة فعالة ، فنحن فى حاجة إلى تعاون كافة المفكرين المستنيرين فى إحداث التنمية الاجتماعية المنشودة .

واستمهلت الرئيس شهرين أوثلاثة أقوم خلالها بدراسة مبدئية لأوضاع الوزارة وتفرّعاتها حتى أضع تصوّرى الخاص للانطلاق الثقافى وأحدّد الخطة التى يمكن أن تحقق هذا الهدف لأعرضها عليه بعد اكتمالها . فقال لى مشجّعا : تلك هى البداية السليمة ، فخذ الوقت الكافى للدراسة والتأمل قبل أن تصبح تصوّراتك قرارات توضع موضع التنفيذ . وبدأت أُغرق نفسى فى العمل ليل نهار ، وكأنما مرّت يدٌ سحرية على ذاكرتى فمحت منها تخوّفاتى السابقة وتردّدى الذى صرت أندم على أنه حدث لى فى فترة كانت تمثل نقطة تحوّل بين عملين كلاهما له مسئولياته الكبرى .

٢
نظرة استشرافية للعمل الثقافى

ما من شك فى أن حكومة الثورة قد اهتمت بالثقافة منذ بداياتها الأولى فأصدرت فى ٢٥ يناير ١٩٥٦ قانونا بإنشاء المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى شكل هيئة مستقلة ألحقت بمجلس الوزراء، وأوكلت إليه تنسيق جهود الهيئات الحكومية وغير الحكومية العاملة فى ميادين الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وربط هذه الجهود بعضها بالبعض وابتكار وسائل تشجيع العاملين فى هذه الميادين والبحث عن الوسائل التى تؤدى إلى تنشئة أجيال من أهل الآداب والفنون يستشعرون الحاجة إلى إبراز الطابع القومى فى الإنتاج الفكرى المصرى بشتى ألوانه و يعملون على التقارب فى الثقافة والذوق الفنى بين المواطنين مما يتيح للأمة أن تسير موحدة فى طريق التقدم محتفظة بشخصيتها وطابعها الحضارى المميز. وقد عهد القانون برياسة المجلس إلى وزير التربية والتعليم، وتطورت تبعية المجلس على مدى الأيام إلى أن صار جزءا من وزارة الثقافة. و بعد ذلك أقامت حكومة الثورة وزارة الإرشاد القومى التى حملت بين مهامها بعض الشئون الثقافية المحدودة لاسيما فى مجال الفنون. وفى عام ١٩٥٨ نشأت أول وزارة للثقافة بمصر،

وكان هذا الإنشاء إيذانا بإقدام الحكومة المنبثقة عن الثورة على بذل جهد واع ومخطط من أجل تنظيم العلاقة بين الدولة وجهود المثقفين واستثمارها فى إثراء منجزاتها المادية والسياسية والاجتماعية بمنجزات ثقافية وفنية .

والحق إن وزارة الإرشاد القومى — رغم انحصار وظيفتها الأولى فى الدعوة لمبادىء الثورة والتعريف ببرامجها واتجاهاتها الاجتماعية والسياسية — قد مهدت الطريق حين أضافت إلى مهامها الإعلامية والتوجيهية مهمة ثقافية فنية حملت من أجلها فيما بعد اسم « وزارة الثقافة والإرشاد القومى » فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨ ، فأنشأت مصلحة الفنون ، وإدارة للثقافة والنشر ومركزا للفنون الشعبية وبرنامجا إذاعيا على موجة خاصة سُمّى « بالبرنامج الثانى » يهدف إلى الارتفاع بذوق الجماهير فى مجالات الأدب والفن والموسيقى الرفيعة ، وكانت مدة إرساله ساعتين كل ليلة ثم امتدت إلى ثلاث ساعات . وقد كان للعالم الفنان الدكتور حسين فوزى فضل المشاركة بالجهد الأساسى الواعى فى هذا العمل الطليعى الجليل .

وأودّ بادىء ذى بدء أن أسجّل إيمانى بأن أية إنجازات علمية أو عملية ، فكرية أو فنية لا يمكن أن تولد من فراغ وإنما هى حصيلة أفكار وآمال وجهود أجيال من المثقفين على مرّ السنين . وحين اضطلعت بعبء وزارة الثقافة للمرة الأولى [من نوفمبر ١٩٥٨ إلى سبتمبر ١٩٦٢] وجدت الفرصة أمامى مواتية لكى أضيف إلى تلك الجهود الأولى جهودا أخرى واجبة تُتمّم ما فات . وكان هذا بفضل المثقفين الذين استعنت بهم والذين هيّأتهم النهضة الفكرية التى بدأت مع مطالع العشرينات ، وبالاستئناس بجهود أستاذنا النابه فتحى رضوان الذى حققت وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى عهده إنجازات فنية عظيمة فيها الجدّة والابتكار ، وأرست أسسا للفنون على قاعدة صحيحة بالرغم من قصر المدة التى تولّى خلالها مسئوليتها الجديدة .

وما إن أخذت أمضى فى مهمتى حتى تبيّن لى من الدراسات الأولى أنه لم يكن ثمة جهاز ثقافى قائم له تقاليده العريقة بحكم امتداد عمره الطويل عبر التاريخ إلا فى مجالين اثنين هما الكتاب والآثار ، أعنى دار الكتب ومصلحة الآثار . أما ماعدا ذلك فلم يكن سوى نواتين إحداهما أدبية وأخرى فنية . أما النواة الأدبية فقد غرستها وزارة التربية والتعليم بإنشائها إدارة عامة للثقافة انضمت بعدُ

بهيئاتها المختلفة إلى وزارة الثقافة ، وأما النواة الفنية فهى مصلحة الفنون التى أنشأهها سلفى وقد حاطها بعنايته أديبنا المرموق يحيى حقى لترعى فنون المسرح والسينما والفنون التشكيلية ، واستحدث من هذه المصلحة الوليدة جهازا له من المرونة والقدرة على الانطلاق والتحرّر من القيود النمطية المعتادة ما يتيح له الانفساح وسط الحقول الثقافية العريضة على النحو الذى يفى بتطلعات شعبنا وحاجاته ، ولا يمكن إغفال الدور الرائد للأستاذ أحمد حمروش مدير المسرح القومى الذى أرسى له قواعد جديدة نهضت به نهضة وثابة ملحوظة . وكان هذا كله مما مهّد لى أن أمضى فى أداء رسالتى عندما اضطلعت بأعباء الوزارة فوجدت بين يدى هاتين النواتين ، وكان علىّ أن أرعاهما الرعاية الحقة وأن أطوّرهما حتى تصبح ثمارهما يانعة مُظلّة تعمّ الوطن المصرى والعربى . هذا العبء الكبير كان يقتضى الوزارة حينذاك لكى تحققه وتبلغ به المدى جهداً أى جهد ، لذلك ارتبطت بالمثقفين لتفيد منهم أولا فى إدارة أعمالها الثقافية ، ثم لتربط ما بينها وبينهم حتى تهيىء لهم المجال الخاص لإنتاجهم فترعاه الوزارة وتكفله .

وإذا نظرنا إلى التاريخ الذى أنشئت فيه وزارة الثقافة وهو عام ١٩٥٨ لعرفنا أنها لم تكن إلا فى طور النشوء ، بل لقد عاب هذا الطور فى رأيى ارتباطها بما كان يسمى وزارة الإرشاد القومى التى تحوّلت فيما بعد إلى وزارة الإعلام سالخة معها دار الإذاعة وهيئة الاستعلامات ، أى أن وزارة الثقافة لم تُنشأ حاملة مهامها الذاتية إلا قبل تسلّمى شئونها بثمانية شهور ، وهى فترة ضئيلة لم يكن من الممكن أن تحقق أكثر مما حققّته ، والذى يعتبر بكل المقاييس إنجازا قيما ملحوظا . لهذا قرّ فى وعيى أن على هذه الوزارة الوليدة أن تخلق وتُنشيء فى شتى المجالات قدر استطاعتها ، واضطرت لهذا أن تتحمل عبء الإنشاء والإنتاج معا ، وهو أمر تنوء به أية قدرة مهما عظُمت إن لم تستعن بالمثقفين أنفسهم لأنهم أصحاب القضية ، فإن وزارة الثقافة المنشأة حديثا قامت على أكتاف رجال نُقلوا إليها من وزارة التعليم ولم يكونوا كلهم على قدر كاف من الوعى الثقافى ، وكان لزاما عليها أن تجنّد أكبر عدد من المثقفين وتُسلم إليهم قيادات أجهزتها الثقافية ، غير أن تلك القيادات كانت تقتضى هؤلاء المثقفين أعمالا إدارية إلى جانب أعمالهم الثقافية ، وهذان العملان معا كانا يستنفدان جهود هؤلاء المثقفين ، الأمر الذى لم يترك لهم

أحيانا فراغا كافيا يؤدون فيه أعمالهم الثقافية الخاصة ، وكانت هذه منهم تضحية لها شأنها ولا معدل للوزارة عنها ، فمَنْ أوْلَى بخدمة الثقافة من المثقفين ؟ ولحُسن الحظ كان جمال عبدالناصر معنيا بمسائل الثقافة ، حريصا على دعم المشروعات الثقافية ، مؤمنا بأن ازدهار الثقافة يؤدى فى مجال الفكر ما يؤديه التصنيع الثقيل فى قطاع الصناعة ، شغوفا بأن يرى للقلم رسالة فى شحذ وجدان الأمة لاتقلّ عن رسالة المدفع فى حماية حدود الوطن ، وفى تعانقهما معاً ما يتيح للأمة التطور والارتقاء ، ولا ننسى أنه للمرة الأولى فى التاريخ المصرى قد أنشأ وزارة للثقافة وأخرى للبحث العلمى أثناء اضطلاع الثورة بأعبائها .

وأكاد أقول إنه لم يتحقق للإنسان حقوق ثقافية إلا مع منتصف هذا القرن الذى نعيشه ، فعلى حين كان خطوُ الإنسان أسرع إلى الظفر بحقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية تخلّف خطوُه لاستكمال حقوقه الثقافية ، فقد عاشت هذه الحقوق الثقافية قبلُ فى ظل حقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، إلى أن أصبحت هذه الحقوق الثقافية رُكنا رابعا من أركان الحياة ، حين نصّ الإعلان العالمى لحقوق الإنسان عام ١٩٤٦ على « أن للإنسان الحق فى أن يشترك دون قيد أو شرط فى الحياة الثقافية للمجتمع وأن يستمتع بالفنون ، وأن يكون له نصيب فى التقدم العلمى وما يؤتيه من ثمار » ، وهنا اكتملت للإنسان مقوّماته كلّها مجتمعة ، وأصبح له نصيبه فى أن يُثرىَ الحياة بثقافته وفنه على وجه أوسع .

وإذ غدت الثقافة حقاً لكل فرد ، من هنا كان على الدولة أن تُمكّن لكل فردٍ أن ينال حقّه من الثقافة والفنون بالوسائل التى تراها محقّقة لبلوغه هذه الغاية ، بعد أن تُهيىء له أسباب الحياة الآدمية الكريمة وتأخذ بيده من الأمّية المتفشّية الى مراتب التعلّم . فمحالٌ على الفرد أن يعىَ أى لون من ألوان الثقافة بمستوياتها الرفيعة والمتوسطة والبسيطة إلا إذا كان على حظٍ من التعلّم يُمكّنَه من أن يستجيب لأية دعوة ثقافيةٍ أو فنية . ولا تزال مشكلةُ الأمّية فى مصر مشكلة تتطلبُ حلاً طويل الأمد ، ولكن هذا لا يُثبِّطنا عن أن نأخذ فى إرساء قواعد للفن والثقافة ، ونَشيدَ عليها شيئا فشيئا ، فما لا نستطيعُ إدراكه اليوم كاملا ، فسوف ندركه تباعا مع الأيام .

وإنعاش الحياة الثقافية والفنية فى الأمم الناهضة ، أصبح جزءاً لا يتجزأ من واجبات الدولة الحديثة ، بعد أن باتت جهود الموسرين وحدهم لرعاية الثقافة جهوداً محصورة لاتتسع إلا لفئة بعينها ولبيئة بذاتها ، ومن هنا كان واجب الدولة بقدراتها وإمكانياتها أن تجعل الثقافة والفن منهلاً ينهل منه الجميع ، وأن تُفسح لهما السبيل لكى يزدهرا وتُهيىء لهما المناخ لكى ينتعشا ، وهو ما يقتضى أن تكون للدولة سياسة ثقافية تتفق وأحوالها ومطالبها وحاجات المجتمع ، على نحو ما لها من سياساتٍ اقتصادية وتعليمية وتربوية ، على ألاّ تكون رسالة الدولة تحديد مضمون الثقافة أو توجيه الإبداع فى اتجاه معيّن ، لأن الحياة الثقافية تتطلبُ أولا وقبل كلّ شيء حرية البحث والنقد والابتكار والتعبير وإيصال النتاج الثقافى إلى الناس .

وإذا ذهبنا بعيداً فى تصوّرنا لرسالةِ الدولة حتى تشمل التنمية الثقافية ، فليس معنى ذلك أن تَقْضِيَ الدولة على تلقائية الأفراد ، بل على العكس ، فعلى الدولة أن تضعَ مواردها وقُدراتها فى خدمة انطلاقات الإبداع ، وأن تُشرك الجمَّ الغفير من الشعب فى المُضى قُدُما بالعمل الثقافى ، وحسبنا أن نرى منظمة اليونسكو تكرّس العِقْدَ الذى بدأ منذ سنة ١٩٨٨ للتنمية الثقافية وما يتصل بها لتحقيق أهداف أربعة هى الاعتراف بالبُعد الثقافى للتنمية ، واحترام الهويّات الثقافية ، وتوسيع رقعة المشاركة فى الحياة الثقافية ، وإنعاش التعاون الثقافى الدولى ، وتدعو جميع الدول والمنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية والأفراد المهتمين إلى أن تشارك بنشاط فى تحقيق أهداف العقد .

والسياسة الثقافية ليست محاولة من الدولة لصُنع ثقافة حكومية ، وإنما هى لتشجيع ازدهار القيم والتطلعات الثقافية بكل أنواعها النافعة حتى تفْرُغَ الدولة لنشاطها فى الميادين الأخرى .

وهذا ماكان نُصبَ عينيّ حين أُلقيت على عاتقى مسئولية وزارة الثقافة مرّةً ثم مرّة .. فحاولتُ أن أحقق مادار بخلدى قبلُ ، وماكنت أطمح أن أحققّه بعدُ . وكان مما يُؤَرِّقُنى ويؤرّق غيرى فى بدايات الثورة ، أنّا وجدنا الدولة قد خططت لسياسة قومية فى شتى المجالات من إنتاج وخدمات وغيرهما ، ولكن لم تكن ثمة خطة من بين هذه الخطط لإنعاش الثقافة . غير أن الأمر لم يمكث

طويلا ، فإذا الدولة بعد أعوام قليلة لاتجاوز الستة ترى أن عليها واجبا لا يصحّ أن تغفلَه نحو الثقافة ، فإذا هى تُنشىء للثقافة وزارة ، وكانت هذه هى المرّة الأولى التى تحظى فيها مصر بوزارة للثقافة ، وكانت هذه اللّفتة نتاجا للحرية التى حقّقتها الثورة لها بعد التخلص من الاستعمار ، فلا يخفى علينا أن الثمرة الأولى للثقافة ، تتجلّى فى توعية الفرد بما له من حق فى الوجود والإحساس بإنسانيته إحساسا كاملا .. وهو ما يخشاه الاستعمار أنّى حلّ .

ولقد كان أمامنا طريقان لا مناص من أن نسلكهما معاً ، أولهما قصير والآخرُ طويل .. ويرمى الطريق القصير إلى إمتاع المواطنين بالثمار العاجلة للثقافة التى تتنوّع بين مسرحية جيدة وفيلم ممتاز ولوحة أخّاذة وكتابٍ ممتع وبحثٍ شيّق ، إلى غير ذلك من ثمار الثقافة . أما الطريق الطويل فيقصد إلى تنشئة جيل تنضج على يديه هذه الثمار بإنشاء المعاهد الفنية لتخريج الفنانين المبدعين ، متمثّلين قول فرچيل : « هكذا أيها النحل تصنع الشّهد ولكن لا لنفسك ، وهكذا أيها الطّير تصنع الأعشاش ولكن لا لنفسك ، وهكذا أيتها الأغنام تحملين الجزّات ولكن لا لنفسك » .... فمهمة الدولة هى استكشاف المواهب فى كل حقل ورعايتها ، وتيسير السُّبل أمامَها للخلق والإبداع ، هذا إلى إقامة المشروعات الثقافية الكبرى التى لايقوَى لها الأفراد ، والهدفُ دائما هو رعاية الوُجدان القومى وتغذيته وتنميته توطئة لتكوين الإنسان المُنتمى المعاصِر ، والمواطنِ المستنير البصير بمصالح نفسه ووطنه ومصلحة الإنسانية جمعاء .

وإذا كانت الإنجازات الثقافية لا تنشأ ـ كما سبق أن ذكرت ـ من فراغٍ ، فكذلك لا يمكن انبثاق أيّة سياسة ثقافية من أفكار عشوائية أو نزواتٍ فردية عابرة ، بل لابد من أن تكون منبثقةً عن مبادىء راسخة تحدّد مسارها وترعاه ، كما تحدّدُ أهدافها مرحلياً واستراتيجيا .

* * *

والحديث عن الثقافة اليوم تجاوز ذلك السؤالَ التقليدى عن ماهية الثقافة إلى أمر آخر هو « السياسة الثقافية » أو الإطار العام للعمل الثقافى ، وذلك بعد أن وجد الباحثون والمثقفون أن الوصول إلى تعريف محدّد للثقافة ليس أمراً سهلا أو يسيرا أو متّفقا عليه تماما ، فطرقوا المشكلة بأسلوب أكثر كياسة وذكاء من خلال « السياسة الثقافية » . بل إن منظمة اليونسكو حين دعت إلى

مناقشة من هذا القبيل لم تستطع أن تفترض أن هناك شيئا واحدا يمكن أن يُسمّى « السياسة الثقافية » ، لأن هذه السياسة الثقافية تختلف من مكان إلى آخر . وعلى أساس هذا الاختلاف تصبح هناك مناهج أو سياسات ثقافية لا سياسة ثقافية عالمية واحدة يمكن أن تُوحَّد أو تُعمّم أو توضع فى قالب قابل للنقل من مكان إلى مكان والتطبيق فى مواقع متفرّقة من الدنيا . فالسياسة الثقافية ليست قالبا تُصبّ فيه الأشياء ، ولا هى كيان مادى يمكن أن يُقاس بالطول أو العرض أو العمق ، وما هى بالمادة تحكمها الأرقام والإحصاءات أو تدلّ عليها الرسوم البيانية . ومع ذلك كان علينا ونحن نضع تفاصيل الخطة التى تجسّد سياستنا الثقافية المتوائمة مع السياسة الاقتصادية والاجتماعية للدولة أن نلجأ إلى الأرقام والوسائل الرياضية ، فلم يكن من الممكن تحديد تكاليف المشروعات الثقافية دون استخدام الأرقام مع إيماننا بأن العائد منها لا يمكن تحديده رقميا بل له معايير أخرى لتقييم جدواه . فليس من المنطقى قياس نتائج عرض مسرحية ذات مستوى فنى رفيع بما تحققه من دخل ، ذلك أن المفروض ألا يُقْبل على مشاهدة مثل هذه المسرحية إلّا عدد قليل من المثقفين ، غير أنه من المؤكد أن هذا العدد القليل سينبض بشحنة فكرية وعاطفية عميقة التأثير إلى حد أنه يمكن أن تُسفر مشاهدتها عن تغيير جذرى فى مفهوم من المفهومات الشائعة أو فى عادة من العادات القائمة ، وقد توحى إلى من شاهدها من كُتّاب ونقّاد وفنانين بإبداع أعمال أخرى أبعد أثرا منها لدى الجماهير وأوسع انتشارا بين صفوفهم . كذلك ثمة صعوبة أساسية فى تحديد المستوى الثقافى سواء على الصعيد القومى أو على الصعيد العالمى ، لأن قياس الرُّقىّ يقتضى دائما عقد المقارنة بين ما نصل إليه وما يصل إليه سوانا فى مجال الثقافة ، وهذه المقارنة تحتاج إلى معيار ثابت نقيس به . فنحن إذا أخذنا الميزانيات المرصودة للثقافة معيارا لهذا القياس لاكتشفنا على الفور أنها لا تفى بالغرض كاملا ، فعندما نقول على سبيل المقارنة أن السويد وبولندا تخصّصان ١٪ من الميزانية القومية للأعمال الثقافية بينما تخصّص فرنسا ٠,٤٣٪ من ميزانيتها القومية للنشاط الثقافى نكون قد أخطأنا خطأ مركّبا ، لأن الأرقام على هذا الوجه لا تصلح للمقارنة . فمقارنة أرقام البسط وحدها لاتدل على شيء ، فضلا عن أن مفردات رقم البسط لا تضمّ نفس الأنشطة فى هذه الدول كلها ، فبينما تشتمل فى فرنسا على جهاز الوثائق

القومية مثلا ولا تشتمل عليها فى پولندا تضم الحرف الفنية فى پولندا ولا تضمّها فى فرنسا . كذلك فإن رقم المقام متغيّر لأن مُجمل الميزانية العامة فى هذه الدول ليس واحدا . وعلى هذا النحو نكتشف أننا قد اخترنا معيارا واحدا فى مظهره ، ولكنه متغيّر فى تفصيله بما يؤدى إلى نتائج غير دقيقة .

على أن الشيء المحقق هو أن الاتجاه العالمي قد استقر على أن السياسة الثقافية يجب أن ترتبط بالخطة الشاملة للتنمية ، أو بمعنى آخر ينبغى أن ترتبط السياسة الثقافية بالسياسة الاقتصادية للمجتمع وبالتطور العلمى والتكنولوچى فيه ، حتى رأينا المؤتمر العالمى للسياسات الثقافية يفطن بأَخِرَةٍ فى أغسطس ١٩٨٢ إلى هذه العلاقة الوثيقة فيؤكّد على « أن الثقافة جزء أساسى من حياة كل فرد وكل جماعة ، وأن التنمية ـ التى ينبغى أن تتخذ من الإنسان غاية لها ـ تنطوى على بُعد ثقافى أساسى » .

ولقد بدأت وزارة الثقافة خطتها فى عام ١٩٥٩ انطلاقا من إيمان عميق بأن دورها لا ينبغى أن يكون قاصرا على تقديم المستوى الرفيع من المتع العقلية للطبقة القادرة على التمتع بها فحسب ، بل يجب أن يكون لها دورٌ فعال فى تحقيق أكبر قدر من التكافؤ العقلانى والوجدانى فى آن معا . ولن يتحقق التكافؤ العقلانى إلا بأن يشيع بين فئات المجتمع بقدر الإمكان قسطٌ متقارب من المعارف ، كما لن يتحقق التكافؤ الوجدانى الا بأن يشيع بينهم قدرٌ مشترك من تذوّق الفنون واستشفاف أسرارها . وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن نهبط بالثقافة إلى مستوى العامة والبسطاء ، وأن نقضى على مظاهر التفوّق والإبداع حتى يكون كل شيء فى قدرة الجماهير العريضة ، فالسياسة الثقافية ينبغى أن تكون من الحذق بحيث تدرك أنها لو فعلت ذلك لما حققت التكافؤ الثقافى بل وقفت فى وجه التطور فيصبح إنسان العصر متخلّفا ، فإن طبيعة الثقافة من ناحية وديمقراطيتها من ناحية أخرى تقتضيان التطور إلى الأمام ، على أن تيسّر للجمهور الحصول عليها دون عناء ، وتلك مسئولية الدولة ، فهى التى تتحمل عبء تطوير الإنتاج الثقافى من ناحية وتيسيره للناس من ناحية أخرى ، فتتحقّق بذلك الركيزتان اللتان تستند إليهما الثقافة ، التقدم المستمر فى غير تراخ ، وتحقيق التكافؤ العقلانى والوجدانى فى المجتمع . وهو ما يقتضى من الدولة متابعة التفكير فى صيغ جديدة مبسّطة تقدّم من خلالها هذه المتع القيمة ، ويصبح من واجب الفنانين والمثقفين أن يشاركوا الدولة فى

الوصول إلى صيغ ملائمة يقدّمون بها ثمرات الفكر وزهور الفن على أوسع نطاق وفى أرحب دائرة . على هذا النحو تصبح الثقافة عاملا فعالا ورئيسا فى تكوين السياسة الشاملة للتنمية التى ترتبط إلى حد بعيد بقدرات الناس وبتفوّقهم العقلانى والعاطفى . وكلما اتسعت هذه القدرات اتسعت قدرة المجتمع على النمو الاقتصادى ، وكلما زادت درجة نمو المجتمع زادت حاجة أفراده الى الثقافة .. حلقة مُفْرغة تدور حول نفسها فى انتظام مرتّب لايختل . وإذن فالسياسة الثقافية ينبغى أن تكون جزء لا يتجزأ من سياسة التنمية الشاملة تتأثر بها وتؤثر فيها ، كما أنها تتأثر بالتطور التكنولوچى للمجتمع وتؤثر فيه . وانطلاقا من هذا المفهوم واستلهاما لروح الثورة حاولنا حصر احتياجات مجتمعنا الثقافية وتبيُّن مالدينا من إمكانات مادية وبشرية قادرة على العطاء . وهكذا وبعد دراسة مستأنية تجلّت لنا احتياجاتنا لاستكمال أجهزتنا الثقافية .

وكما قدمتُ فإن طبيعة الثقافة أنها كيان معنوى واسع وفسيح ، وهى كذلك كيان حساس ودقيق ، وطبيعة هذا شأنها قد ترفض الأرقام وتأبى التقيد بالاحصاءات . كذلك أقول إن حصر احتياجات الفكر العام والوجدان القومى وإرادة الجماعة ، بل حصر ذلك جميعه بالنسبة للفرد ليس من الأمور السهلة الهيّنة ، كما أن حصر الإمكانات لا يقلّ عن ذلك صعوبة . ولهذا فطالما أن هذه هى العناصر الأساسية اللازمة لوضع سياسة ثقافية فسيظل وضع هذه السياسة مشكلة عسيرة الحل إذا أردنا لها إطارا صحيحا سليما . وأقول أيضا إن أية محاولة فى هذا السبيل لابُدّ أن تُحاط بكل الدراسات الممكنة . ففى هذه الساحة النفسية الشاسعة لعل أغنية أو نشيدا يكون له من السحر فى توجيه المجتمع أضعاف ما لأفلام السينما والمسرحيات والكتب والمقالات ، ولعل لوحةً مصوّرة واحدة تدخل سجل الخلود لتضيف الى الذوق العام عنصرا رائدا فى الإحساس بالجمال . من يحكم هذا وكيف يحكمه ؟ تلك هى مشكلة الثقافة وصعوبة وضع السياسة الثقافية .

على أنى لم أدع إيمانى بضرورة التكافؤ الثقافى أن يظل حبيسا فى نفسى فحسب ، بل لقد حرصت الحرص كله على أن أشرك غيرى معى فى الرأى . فمنذ اليوم الأول لتسلّمى مهام وزارة الثقافة فى خريف عام ١٩٥٨ وجدتنى

ممتلئا رغبة في الاتصال بكبار المثقفين في مصر حتى لاتكون سياسة الوزارة سياسة فوقية لامشاركة فيها للأفراد . ورأيت في النهاية وبعد عدد من اللقاءات أن أنسب شكل أستطيع من خلاله التعرف على مشكلات المثقفين وأمانيهم ، والصعوبات التي يلاقونها والحلول التي يتصوّرونها والوضع الأفضل الذي يمكن أن تتشكّل عليه وزارة الثقافة وأهم إداراتها وأجهزتها ، وكل ما كان يشغل بال المثقفين وكل ما كان يشغل بالي أنا نفسي .. رأيت أن التعرّف على هذا كله سبيله هو حشد أكبر عدد من الفنانين والكتاب والمثقفين وعشاق الثقافة والفنون والعاملين في مجالات بثّ الثقافة وتوزيعها ومتابعة أنشطتها في « مؤتمر عام » لم ألبث أن دعوت إليه في شهر مارس ١٩٥٩ بدار الأوبرا ، حيث تواصلت جلسات الحوار الجاد في اجتماعات عامة وأخرى متخصصة في لجان نوعية محدودة العدد . وكان من نتاج هذا المؤتمر الثقافي العام أن تكشّفت لنا الرؤية الثقافية على لسان جميع الفئات ، فلن يأخذ أمرٌ طريقه إلى النّهج السّوى إلا إذا كانت الشورى رائده .

وفي الحق إن هذه اللقاءات قد طمأنتني إلى صدق حدسي الذي جاء عن تجربة شخصية ممتدة في تذوّق ودراسة الأعمال الثقافية والفنية قضيت منها أعواماً طالت في مصر وأخرى في أوربا جائلا أحيانا ومستقرا أحيانا أخرى ، إذ كانت هذه التجربة قد رسّخت في نفسي ألوانا من الاتجاهات أو الركائز التي أنارت أمامي السبيل التي يتعيّن عليّ أن أسلكها من خلال مسئوليتي بالوزارة . وما من شك في أن كل مسئول في مكانه علت به المنزلة أو دنت لابد من أن يكون له طابعه الخاص في مكانه وإلا ما استطاع أن يجيء بجديد .

وتأتي في مقدمة هذه الركائز النظرة الى المثقف نظرة إنسانية مردّها إلى إيمان بأن الثقافة حافز للبشر على التضامن من أجل الارتقاء بمستوى رفاهيتهم ، وبهذا تكون الثقافة أعلى قيمة للمتعلمين وغير المتعلمين على السواء . فعلى حين يسعى المتعلم إلى إثراء ذهنه بالمعلومات يسعى المثقف إلى الارتقاء بذوقه ومداركه وفكره ووجدانه بل وإلى تحسين مستوى أدائه حتى في عمله المتخصّص ، مما يكون له أثر في إحداث تغيير جوهري في المحيط الذي يعيش فيه . ومن هنا كانت قيمة الثقافة تتحدّد بمدى مساهمتها

في تغيير مجرى الحياة والردّ على تحدّيات العصر ودفع الأحداث في اتجاه تحقيق أحلام البشرية . فليس هناك شك في أن البشرية مدينةٌ للأجيال التي سلفت قبلُ من عباقرة الكتّاب والفنانين على مرّ السنين الذين تركوا لنا المؤلفات الموسيقية العملاقة والتماثيل والرسوم واللوحات والعمائر والأدب الرفيع من مسرحيات وروايات وأشعار لولاها لسقطنا في وهاد الأغاني التافهة والصور الفجّة التي تشين الذوق وقصص العنف والجنس والجريمة الهابطة .

***

والثقافة ملتقى علوم الحياة ، فهي كالبحر تصبّ فيه أنهار المعارف جميعا ، علماً وفلسفة وفنا وأدباً ، ثم هي صورة لما يخالج وجدان الناس ومشاعرهم وحواسهم عامة . ومن اجتمعت بين يديه مقاليد الثقافة كان عليه أن يُعطى كما أخذ ، فالثقافة الحقة علمٌ وعملٌ معا ، ثم إن المثقف بين العلم والعمل صاحب موقف ، وله رأى يضيف إلى الوجود جديدا ، فما بحسب المرء أن يُشبع نفسه تثقيفا بل عليه أن يجعل مما حصّل وسيلته إلى تطوير نفسه أولا ، ثم إلى تطوير غيره ثانيا بما أفاد من رأى خرج به . فالمثقفُ عالمٌ وقائدٌ معا : أخناتون . سقراط . الكندى . الفارابى . ابن سينا . ڤولتير . أندريه مالرو . طه حسين . كلّهم أخذ حظه أولا من الثقافة ، ثم كان بعد هذا صاحب رأى واتجاه ، ثم غدا يحمل لواء التوجيه ، يسعى لحمل الناس على اعتناق ما يرى جاهدا في هذا السبيل الجهد كله ، لا يعنيه ما يعترض طريقه من عقبات ومشاق . والثقافة في هذا الضوء ليست رداء يرتديه المرء حين يشاء وينفضه عن نفسه حين يشاء ، وإنما هي منه دمه ولحمه معا . وإذا كان هذا قَدَرَ الثقافة من الإنسان ، لذا كان هذا الصدام بينه وبين غيره دفاعا عما يدين به من رأى . وبعيدٌ على مثقف هذا العصر أن يعيش بمعزل عما يدور حوله من نضال بين فكر متخلّف وفكر خلّاق فيقف موقف المحايد غير المبالى . فهو لا يستطيع اليوم أن يفرّ بنفسه إلى جبل يعصمه كما فعل ابن نوح ، إنما موقف المثقف الحق من أحداث عصره أن يشارك فيها بكل ما أوتى من جهد وقوة ورأى ليدحض باطلا ويقيم حقا . عليه أن يعيش أوعى ما يكون بما يضطرب به عصره ، فيكون مع من يشرّعون للعالم ويحققون أحلامه ويأخذون بأيدى أبنائه إلى النهج القويم .

لقد أصبح العالم الذى نعيش فيه وُحدة واحدة لا تكاد تفصل بينها فواصل بعد أن قرّبت العلوم الحديثة ما بين أقصى الأرض وأدناها ، وبات الناس كأنهم فى بيت واحد يظلّهم سقف واحد ، وأىُّ حدثٍ يحدث فى أى مكان وإن نأى كأنه حدث تحت أبصارنا يعنينا منه ما يعنى أهله ، ويتدخل فى مصائرنا فرادى وجماعات . فالتفجير النّووى لا يهددنا نحن أبناء هذا الجيل وحدنا ، بل يهدّد أجيالا عدّة بعدنا ، بل لقد يمحو بنى الإنسان ويحلُّ محلّهم خَلْقا آخر . والقنبلة التى قد تنجو ـ صُدفة ـ من شرّها اليوم ، قد يلقيها فى غدٍ طيار لا عقل له ولا ضمير ، لأنه دُرِّب على إلغاء العقل والضمير معا .

والعالم اليوم ليست آحاده على قدرة واحدة من الاستيعاب ، فثمة علم وجهل ، وواجب المثقف أن ينهض بمن نزلوا إلى حضيض الجهل ليرتفع بهم إلى مرتبة أعلى لها حظها الثقافى الواسع ، لا يعنيه أن يكون هذا الجهل فى بيئته القريبة أو فى بيئة بعيدة ، فالعالم كما قلت قبلُ أصبح وحدة لا تتجزأ يشارك فيها مثقّفو العالم كلهم على اختلاف جنسياتهم ، فواجب المثقف الآن أن يفعل فعل فرسان القرون الوسطى الذين كانوا على حظ كبير من الجود والنبل والتضحية حين كانوا يجوبون البلاد على متون جيادهم علّهم يجدون مأزوما يُفرّجون عنه أو من وقع فى ضائقة فينقذونه . ومن هنا كان على المثقف أن يعيش قضايا عصره لا فكاك له منها ، فهذا واجبه الأول الذى من أجله كان مثقفا .

وإذا كانت قيمة الثقافة تتحدّد ـ كما قدمت ـ بمدى إسهامها فى إحداث تغيير جوهرى فى البيئة المحيطة ، لذا كان الفنان أو المثقّف من أول المتمرّدين الخارجين على ماهو قائم ، فهو بطبيعته رائدٌ فى مجتمعه ، سبّاقٌ إلى التجديد فكراً وتعبيراً . وكما أن الحياة فى تغيّرٍ مستمر ، كذا الثقافة هى الأخرى تقوم على الكفاح الذى يقتضى التغيير والتجديد ، أو بمعنى آخر فإن الثقافة تشتمل على عنصر حركىّ تحويلىّ ، لأنها لا تصحُّ إلا إذا كان هدفها التطوير .

وكم سُئلت هل ثمة ارتباط بين السياسة والفن أم أن كُلًّا منهما يعيش بمعزلٍ عن الآخر ؟ وأقول إن الانعزالية قائمة إذا ما أخذنا بمذهب الفن للفن الذى يجعل القيم الجمالية للعمل الفنى منفصلة عن أيّة ارتباطاتٍ اجتماعية أو

سياسية أو خلقية أو غيرها ... وكانت نشأة هذا المذهب فى القرن الماضى ردّا على فئة « غير المستنيرين » التى أسماها ماثيو أرنولد « بالفلسطينيين الوثنيين القدامى Philistines » [انظر هامش ٤ من الفصل الأول] ، الذين لا يبالون بالفن أو الثقافة ولا بالقيم الجمالية أو الروحية ، لاستغراقهم فى جمع المال والتعلّق بالماديات . على أن مذهب الفن للفن لم يَعُدْ له شأنه فى عصرنا الحالى ، بعد أن زاد ارتباطُ الفن بالمسائل الاجتماعية والسياسية والسيكولوجية . وأما عن ارتباط الفن بالسياسة فالقول السائد ـ وأنا معه ـ أن الفنان كان على مرّ التاريخ فيلسوفا سياسيا ، فالفن ـ كما أسلفت ـ من مقتضياته التمرّد والعصيان والاحتجاج على ماهو قائم .. وثمة مثال من القرن الخامس ق . م عن مثّالَيْن إغريقيين هما كريسيوس ونيسياتيز حين نحتا مجموعة النحت الشهيرة المعروفة باسم « مصرع الطاغية Tyranicedes » يخلّدان بها الصديقين هارموديوس وأريستوجيتون بعد أن اغتالا هيپاركوس طاغية أثينا ، فظلّت هذه المجموعة النحتيّة عظةً وعبرةً أمام الملوك والحكام حتى لا يتمادوْا فى الصلَّف والاستبداد .

وإذا مضينا مع الزمن إلى خاتمة العصور الوسطى الأوربية وبشائرِ عصر النهضة الإيطالية خلال القرن الثالث عشر تقع أبصارنا على لوحتين جداريتين من الفريسكو صوّرهما الفنان أمبروزيو لورنزتى على جدران مبنى بلدية سيينا عن « الحكومة الصالحة والحكومة الفاسدة » فكانتا ولا تزالان خيرَ مُعَبِّرٍ أمام الأجيال عن صلاح الحُكم وفساده ، تعمّقها المثقفون وقتذاك ممن كانوا يطالعون كتابات أرسطو وشيشرون وسنيكا ، واتّعظ بها من لم يعرفوا هذه الكتابات ويجهلون القراءة والكتابة ، فإذا هؤلاء وأولئك يَعُون جميعا ما تنطوى عليه من عبرة سياسية .

وفى قرننا الحالى ، بين أيدينا فى مُتحف پرادو بمدريد لوحة « جيرنيكا » التى رسمها الفنان پابلو پيكاسو فى عام ١٩٣٧ تعبيرا رمزيا صارخاً ، احتجاجا على القذف الوحشى لبلدة جيرنيكا خلال الحرب الأهلية الإسبانية بقنابل طائرات ألمانيا النازية . ولماذا نذهب بعيدا ، فخلال العُدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ طلع علينا الفنان محمود الشريف بنشيد « الله أكبر » الذى أثار الهمم بحق وألهب حماس المواطنين . ومن قبل محمود الشريف وضع الضابط الموهوب روچيه ده ليل نشيد المارسيِّيز الذى أثار الحميّة فى جيش الراين

الفرنسي عام ١٧٩٥ ، فإذا هذا النشيد يُتخذ نشيداً للثورة الفرنسية ، ثم غدا بعدُ النشيد الوطني الفرنسي . وكذا كانت السيمفونية السابعة التى وضعها شوستاكوفتش خلال حصار الألمان لمدينة لننجراد فى الحرب العالمية الثانية ، والتى عبّر فيها بالنغم عن زحف الألمان على المدينة وحصارهم لها ، ثم ما كان من مواطنيه من مقاومةٍ وصمودٍ أمام ذلك الغزو .

وصفحات التاريخ حافلة ، تنطق بأن زمام الحياة فى أيدى المثقفين والمفكرين والفنانين ، إذا نهضوا نهضت بهم الحياة ، وإذا خَمَلُوا خملت بهم الحياة وعلى أىّ لونٍ يكون المثقف أو الفنان تكون الحياة .

* * *

على أن الحياة دوما نزّاعة إلى الحرية ، وذلك ما يؤكده التطور البيولوجى ، فظهور الإنسان ليس إلا حلقة وثّابة فى سلسلة التطور ، على حين أن طبائع الكائنات الحيّة التى سبق وجودها وجود الإنسان هى استجابات لأسباب جسدية لاتخضع لقيم أو معنويات ، نرى الإنسان ـ وهو أعلى مرتبة فى مراتب التطور ـ يملك القدرة على الاختيار . فهو لا يخضع فى أعماله لغرائزه وحاجاته الجسدية فحسب بل يخضع كذلك لمجموعة من القيم التى ليست فى طبائع الحيوانات العجماوات . وهكذا نرى هذا التطور الذى انتهى إلى الوجود الإنسانى يرقى بالكائن الحى من حرية الى حرية أرقى حتى يبلغ أسمى الحريات فى الاختيار قيما وسلوكا . ولعل أجلى ما نراه لهذه الحرية هو مايكون للإنسان من إبداع فيما تناوله من أعمال فنية لا قصد له فيه من ورائه إلى مغنم ، بل لتمضى الحرية دوما فى طريقها لا تتعثر . ولو أنا تتبعنا تطور الفن عبر التاريخ كما تتبّعنا تطور الكائنات الحية للاحظنا أنه يمضى هو الآخر الى تحقيق مزيد من الحرية ، ولرأينا عمالقة الفنانين هم الذين كانوا أكثر من غيرهم حرية . ولقد أكّدت الحياة عظمة هؤلاء الفنانين حين أبقت لهم أعمالهم فى ذاكرة الوجود ، فإذا أعمالهم تتميّز وتحمل اسم الروائع .

وإذا كان الفنان هو تجسيد للحرية والإبداع فإن مهمته الأولى فى الوقت نفسه هى تأكيد حق الإنسان فى الحرية . ومن هنا القول بأن الحرية ليست حق الكتاب والفنانين والمفكرين فحسب بل هى واجبهم أيضا لأنها وظيفتهم فى المجتمع . وما أظن وزارة الثقافة قد حادت عن هذا المعنى الذى رسمته لنفسها اللهم إلا فى القليل النادر الذى لايُعدّ ، وذلك تحت ضغوط قاهرة .

وإنه ليحضرنى هنا مقولة أستاذى الجليل مؤرخ الفن رينيه ويج فى هذا الصدد إذ يقول : « إن تحليل الفن الحديث يكشف لنا عن وجود بعض القوانين التاريخية الكبرى التى تلقى الضوء على عصرنا وراء أعمال الفن التجريدى والسوريالى ، وعن الصراع الذى يقوم به الفنان أحيانا ضد هذه القوانين دون أن يعى سر صراعه ولا لونه ، والحقيقة إن عالم الشعر والفن يختلف عن عالم السياسة والعلم ، والشىء الذى يميّز بين هذين العالمين هو أن الفنانين والشعراء والكتاب يملكون قدرة الإبداع وتأكيد التقدم الإنسانى عن طريق خلق أشياء جديدة ، وما يستطيع الإنسان خلق أشياء جميلة وجديدة إلا إذا كان له عقل وذوق . وإذا كان رجل العلم يشرح الأشياء الموجودة ويعمل على تطوير قدراتنا المادية فإن رجل السياسة يخطو خطوة أكثر رقيّا لأنه يقوم ـ بجانب دراسته للأشياء الموجودة ـ بدراسة الأشياء التى يُقدِّر أن ستوجَد وبمحاولة تعديل البناء الاجتماعى لضمان تطور المجتمع وتقدم الإنسانية ، فى حين أن الشاعر لا يفكر بطريقة السياسى بل ينصت إلى صوت الغرائز الدفينة فى أعماق الإنسان والتى تنزع إلى الحرية ، غير متقيِّد بحاضره بل متطلّعا إلى المستقبل . والفنان كالشاعر له حدسُه الصادق بالغد وإن لم يدر ما سيكون . ولهذا فإن من واجبنا أن نترك رجل العلم يدرس العالم المادى والبيولوچى ، وأن نكل الى رجل السياسة تنظيم المجتمع بكل ما يملك من صفاء ومرونة ، وإزاحة ما يعترض تقدم الانسان من عقبات الأنانية والاستغلال ، وأن نترك الفنان يتنبأ كالعرّاف ويبعث برسائل يصعب أحيانا فهمها وإن حققها المستقبل الذى يولد مع انفعالات الفنان وأفكاره ، فلو أنا خنقنا انفعالات الفنان العظيمة داخل إطار الأفكار الشائعة فى عصره لضحّينا بالمستقبل من أجل الحاضر ، فالمستقبل لا يزدهر إلا عبر الأبواب المفتوحة . ثم إن رؤية الفنان تختلف ورؤية غيره ، فهو لا يُملى ـ كما يُملى العالم والسياسى عن نظريات ـ بل يُملى عن غريزة ، ومن هنا كان إبداعه أكثر غموضا وأقل ارتباطا بالواقع ، فشعوره وحسّه هما رائداه فى إبداعه . وفى كل الأحوال يؤكد تطور الفن التصاق الفنان الدائم بالحياة المعاصرة وتعبيره عن عصره حتى حينما يأخذ موقفا معارضا له . وعلى حين يحبو الفنان العادى مسايرا عصره يكون الفنان العظيم قد سبق خطوُه خطوَ عصرِه ، فإن رهافة حسّ

الفنان تجعله يفهم عصره الذى يعيش فيه بمجرد إيماءة صغيرة إليه . وبينما يعمل السياسى والعالم فى حقل الحاضر ويعدّانه للمستقبل ، إذا الشاعر يغمض عينيه عما حوله لينصت إلى صوت الحياة المتدفّقة فى أعماق الإنسان . فلندع له إذن الحرية كاملة فى الإنصات والإبداع ، ولنحاول أن نصغِىَ لهمساته ونفهم ما يجيش بصدره » .

هكذا أجمع المفكّرون على أن الفنان الحق هو الفنان الحُرّ ، وأن الدولة إذا ألزمت الفنان بأهداف عاجلة فإنها تكون قد ضحّت بمستقبلها فى سبيل حاضرها . وهذا ما أخذنا به أنفسنا ، فترُكتْ للفنانين والشعراء والأدباء الحرية لينطلقوا كيف شاءوا إلاّ فى القليل النادر الذى يُخشى منه أن يزعزع أركان الحرية ، وبهذا استطاعوا التطلع إلى آفاق أبعد . فالفنان الحق أو المثقف الحق كلاهما فى غير حاجة إلى توجيه فكرى أو تلقين عقائدى ، فهو ابن نفسه وابن عصره يعيش فى زمانه بحسّه المرهف وبصيرته النافذة ، وكلما غاص فى أعماق مجتمعه أحسّ بالجماعية الإنسانية وانتقلت الى قلبه نبضات الآخرين . وما أشبه الفنان إذا ما ضُيِّقَ عليه الخناق بمذاهب تُفرض عليه بالأسد الحبيس فى قفص لا تُطلق له حريته ليمرح كيف شاء فإذا هو يوقظ فينا الأهبة لتفادى خطره . فإذا نال الفنان ما نال الأسد كان إبداعه أشبه ما يكون بالكلمة الواعظة قد يُؤْتَسَى بها حينا وقد لا يؤبه لها حينا آخر . ثم هو لا يملك أن يثير فينا نشوة ولا يحرك منا أهبة لتفادى الأخطاء

ولقد تناول هذا الجانب ـ وهو حرية الفنان ـ كاتب حرّ هو الدكتور لويس عوض وأحد أساتذة جيلنا الكبار فى مقال [٢] له إذ يقول :

« إن مايسمى تحرير الثقافة من وصاية الدولة المقترنة بمسئولية وزارة الثقافة عن الثقافة هو محض وهم كبير، لأن وزارة الثقافة فى قمة المركزية الناصرية لم تفرض وصاية على فنان أوأديب بل تركت أكثر الزهور تتفتح . فمن يستعرض قائمة الأسماء والأعمال المسرحية التى ظهرت [فى الستينيات] يجد أنها تمثل كل مدارس الأدب والفن . فالكلاسيكية قد وجدت لنفسها مكانا وكذلك الرومانسية والواقعية والرمزية والوجودية والمعقول واللامعقول . كذلك وجد أكثر كتاب المسرح الموهوبين من جميع المدارس والاتجاهات بعد المصالحة بين الثورة والمثقفين ، وجدوا لأنفسهم مكانا ،

لا فرق في ذلك بين يمين ووسط ويسار. وألوان الطيف الأدبي والفني كلها ممثلة من رشاد رشدي وعلي باكثير إلى سعد الدين وهبه وعلي سالم إلى ميخائيل رومان ولطفي الخولي، ومن عزيز أباظة إلى صلاح عبد الصبور إلى عبد الرحمن الشرقاوي.

ولقد كانت أكثر هذه المسرحيات حتى قبل هزيمة ١٩٦٧ وفي قمة المركزية الناصرية تتضمن نقدا صريحا أومغلفا للتجربة الناصرية سياسيا أواقتصاديا أواجتماعيا أوحضاريا. ومع ذلك فقد كانت وزارة الثقافة بالذات والدولة بصفة عامة تقف منها موقف الحياد ما أمكن. ولوكانت تمارس أية وصاية متزمّتة لما سمحت «بطوفان» نعمان عاشور المتهكم بصديق الفقراء، ولا «لفرافير» يوسف إدريس المتهكمين باشتراكية عبد الناصر، ولا «بشبراوى» سعد الدين وهبه وهورجل مصر المريض المشلول، ولا «بتبريزى» ألفريد فرج وهوبائع الأحلام، ولا «بأوديب» على سالم المعزول عن شعبه منذ هزيمة مصر آنئذ. بل لوكانت الدولة في ظل المركزية المطلقة وملكية الصحافة تمارس الوصاية على الفن والأدب لما استطاع نجيب محفوظ أن ينشر عبر السنوات «أولاد حارتنا» أو«السمّان والخريف» أو«ميرامار» أو«ثرثرة فوق النيل» أو«الطريق» أو«الشحاذ» الخ. وكلها تتضمن وصفا حيّا للعاهات النفسية والتشوهات الخلقية التي ملأت مصر منذ ثورة ١٩٥٢، بل لما استطاع توفيق الحكيم أن ينشر «بنك القلق».... الوصاية على الفن والأدب لا، إنما كانت الوصاية على الفكر وحده». ★

ثم لاننسى أننا فى عصرنا الذى نعيشه الآن لا ازدهار لثقافة قومية إلا إذا عبّرت عن فئات المجتمع المختلفة فى المدينة والقرية، فإذا أُهملت فئة من تلك الفئات كانت ثقافة ينقصها الشمول، ولا قيام لهذه الثقافة الجامعة إلا إذا مكّنا الكل من الارتشاف من المناهل الثقافية لا فرق بين طبقة وطبقة ولا بين فرد وفرد. فلا يمكن تصوّر إمكان قيام نهضة ثقافية قبل محاولة إزالة الحواجز القاسية والفواصل المنيعة بين طبقات المجتمع، وما أكثر الأصوات التى انطلقت تزعم أن حواجز التذوق لن تزول بسهولة لأن العوام من الناس لن يفهموا الباليه على سبيل المثال ولن يستجيبوا لروائع المسرح، وأنه ما أغنى هؤلاء بأن نقدم إليهم صورا من البهرجة الزائفة ليس لها من الثقافة العميقة

* كما تناول هذا الموضوع أيضا أستاذ كبير له مكانته المرموقة بين قرائه من العامة والخاصة هو الدكتور فؤاد زكريا فى حديث له مع مجلة الوطن الكويتية ، فقال : « إن الثقافة فى عهد الثورة كانت فى الواقع تشكّل جزيرة منعزلة إلى حد ما عن بقية جوانب النظام . وكان ذلك [illegible] أساسا إلى وجود شخصية قوية هى شخصية ثروت عكاشة . فهذا الرجل كان من ناحية و [illegible] من أبرز الضباط الذين قاموا بدور أساسى فى ثورة يوليه ، وكان من ناحية أخرى عاشقا حقيقيا للثقافة فتمكّن بفضل قوته ونفوذه من أن يلقى ظلا من الحماية والرعاية على المثقفين ويضمن لهم قدرا لا بأس به من الحرية ويحميهم من الكثير من الشائعات والوشايات التى كان من الممكن أن تلحق بهم ضررا كبيرا لولا وجوده ..... وأتصوّر أن هذه الشخصية لعبت دورا كبيرا فى ضمان جو آمن إلى حد معقول للمثقفين ، وكذلك ضمان قدر كبير من رعاية الدولة بسلطتها وأموالها للمشروعات الثقافية ..... » .

ولايفوتنى أن أسوق ماجاء على لسان الأستاذ الكبير نجيب محفوظ فى هذا الصدد فى حديث له إلى مجلة « الشباب » إذ يقول : لن نجد إنسانا مخلصا إلا وقد انقسم أمام عبدالناصر ، لأن عبدالناصر زعيم وطنى عظيم له إيجابيات لاتنسى ، وله أيضا سلبيات لا تنسي . إذن فأى إنسان يقف أمامه حائرا ، إذا ذكر إيجابياته يبكى عليه ، وإذا ذكر سلبياته يتحسّر ، وقد يطول لسانه بكلمتين . وأنا هنا لا أتكلم عن أعدائه لأن أعداءه عندهم من الأسباب ما يجعلهم أعداء فقد نكلّ بإناس كثيرين . أما نحن فلم ينكّل بنا بل على العكس فقد أغدق علينا كل مايمكن إغداقه إنسان من تكريم وأوسمة وخلافه ، وفى جزء من عهده خيل إلىّ أننى أعيش فى دولة عظمى لدرجة استغربت معها كيف تولد دولة عظمى بهذه السرعة ... ومن أصعب المواقف التى صادفتنى فى حياتى أزمة رواية « ثرثرة فوق النيل » ، فلقد بلغنى أنها اعتبرت لدى السلطات وقتها تجاوزا يجب تأديبى عليه ، ولولا الدكتور ثروت عكاشة الذى كان وزيرا للثقافة أيامها ودافع عني عند عبدالناصر لكانوا قد عاقبونى فعلا » .

حظ . وهذا رأى لم نأخذ به ، ولجأنا إلى التجربة على أرض الواقع . فأقمنا عروضا خاصة للعمال قدمنا فيها على مسرح دار الأوبرا عام ١٩٦٠ فاصل الباليه من أوبرا « الأمير إيجور » لبورودين وأوبريت « الأرملة الطروب »* المعرّبة لفرانز ليهار ، فإذا آثارهما فى نفوسهم لا تقل كثيرا عن آثارهما فى مرتادى الباليه والأوبرا من نخبة المثقفين ، كما أن باليه « نافورة بختشى سراى » لأصافييف لم يتلّقه جمهور القاهرة بمثل الحماس والإكبار الذى تلقّاه به أهالى أسوان والعاملون فى السد العالى بقصر الثقافة بأسوان فى نهاية عام ١٩٦٦ . وبنفس الحماس استقبلت فرق الرقص المتطورة فى محافظات نائية كمحافظة البحر الأحمر وندوات الأفلام التى أقيمت فى الريف للفلاحين . وعروض الصوت والضوء مثلا وإن بدت أنها للخاصة دون العامة ، فهى قد جذبت إليها العامة قبل الخاصة ، لقد أكّدت هذه التجارب وتجارب أخرى أن الفجوة بين المثقف والمواطن البسيط فى مستوى التذوق الفنى ليست بهذه الأبعاد التى يخالها البعض إذا ما تعهّدناه صادقين ـ فى إصرار ـ بالرعاية ومحاولة الارتفاع بذوقه . فالمشكلة الحقيقية التى تعترض إزالة الحواجز الثقافية فى المجتمع ليست عجز الشعب عن تذوّق الفن الرفيع بقدر ما هى عجز الفن الرفيع عن مسّ القيم الشعبية وتمثّلها والتعبير عنها . وهذا يقتضينا أن نتيح الفرصة لفئات العامة لأن تشارك مشاركة جادة فى الإلمام بصور الفن الرفيع سماعاً ومشاهدة ليكون ثمة تمازج نسبى بين فئات الشعب كلها ، فكما ستفيد هذه الطبقة العامة من هذا التمازج ، كذلك سيفيد الفنانون والمثقفون المبدعون بما سيجدونه من وراء هذا التمازج من مادة خصبة تفوق كل ما خطر بخيالهم . وقديما كتب الأسقف والأديب النابه بوسويه Bossuet (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤) يقول : « يُنتزع المختار من بين كتل الجماهير كى يقودها كما تنبثق الأشجار رأسية من الأرض الأفقية . ويموت الفنان الذى لا تندسّ جذوره وسط الجماهير كما تموت الشجرة التى لا تنغرس جذورها فى أعماق الأرض . فالفنان الحق لا يحيا إلا بالجماهير ، والفنان الذى لا يعبّر عن الجماهير فنان زائف .... ثم إن دور الفنان أولا وأخيرا هو الارتقاء بالجماهير » .

من هنا كان لا معدى عن مزج بين ثقافة العاصمة وبين ثقافة الأقاليم ، تأخذ هذه من تلك ، وتأخذ تلك من هذه . غير أن ديمقراطية الثقافة لا تعنى

* هذه الأوبريت وغيرها وإن لم تُعدّ عند الغربيين من الفن الرفيع ، لكنها إلى هذا لها خاصيتها فى تهيئة الأذن لتقبّل ما هو أسمى وأرقى .

الهبوط بها إلى مستوى العامة فتفقد الثقافة جوهرها وإنما تعنى الأخذ بيد العامة ليرقوْا إلى مستواها . والسبيل إلى ذلك الأجهزة التى تحمل على عواتقها عبء التثقيف الجماهيرى بما تقدّمه من عروض فنية على أيدى فرق فنية مدرّبة لقنت فنّها فى معاهد فنية متخصّصة ، يلقن عنها الجمهور ماتتسع له ثقافته وتهيّىء له السبيل لينهج نهجها وليسير على دربها . وفى هذه المعاهد الفنية تنشأ القيادات ، فإذا قيادةٌ تأخذ عن قيادة ، وتقوم إلى جانب هذه المعاهد فرق متخصّصة . وبهذا نستطيع أن نخلق قيادات عمل لا ينقطع مَددُها .

وإذا كانت الثقافة الإنسانية ليست مِلْكا لشعب دون آخر ، فعلى المثقفين أن يؤمنوا بأن ثقافتهم ليست مِلْكا لهم وحدهم ، بل هى ملك للجميع ، ولايمكن أن تكون وقفاً عليهم دون غيرهم من فئات الشعب الأخرى ، وهم ليسوا إلّا أمناء عليها وحَمَلَةً لها ، كما هم مكلّفون بإيصالها إلى مواطنيهم لأن الثقافة لا تعيش ـ كما قدمت ـ إذا قُطعت عن جذورها وبقيت سجينة بضع صفحات وبضعة سطور ، وعودة الثقافة إلى الجماهير هى فى الوقت نفسه وسيلة إلى تنميتها وازدهارها . فالريف ـ أنّى كان ـ يحمل بصمات ثقافة قديمة تتمثّل فى احتفاظه بكثير من آثار الرقص والتمثيل والموالد وأفراح العرس والبكائيات وأغانى الحصاد التى كانت سائدة منذ القدم . وهكذا تتم فى الريف عملية تزاوج بين ثقافة عصرين ، ويصبح الريف نقطة التقاء تتفاعل فيها الثقافة القديمة والحديثة ، والعالمية والقومية .

وكان خير ما يمهّد لهذا ويؤكده ويوثّقه هو إقامة القصور الثقافية بدءا من عام ١٩٥٩ وبثّ قوافلها فى مناحى الريف البعيد . وكانت هذه هى المرة الأولى التى شهدت فيها مصر القصور الثقافية والتى أصبحت بعد شيوعها فى أنحاء الوطن كله مظهرا من المظاهر الحضارية الواضحة المعالم . بل إنى لأذهب إلى أبعد من ذلك حين أؤكد أنه لا سبيل إلى ارتقاء وجدان السواد الأعظم من الشعب إلا من خلال اجتذابه لمشاهدة الأعمال الفنية الرفيعة المستوى ، وإلا فستظل الجماهير على نفس مستواها الحالى من الأُمّية الثقافية والتشكيلية والموسيقية طالما حَجَبنا الفن الراقى عنها ، وظللنا نلاحقهم بالأعمال المسفّة الغثّة التى تُشبع نهم الغرائز الدنيا وتُرضى أذواق السُّوقة فحسب .

* * *

وإذا كان ارتباط الثقافة بعصرها لا ينفى احتواءها على قيم خالدة على مدى العصور ، فإن ارتباطها بمجتمعها لا ينفى أيضا احتواءها على قيم عالمية وإنسانية شاملة تخاطب الإنسان أنّى كان ، بل الواقع أنه بقدر ما تتعمّق جذور الثقافة فى تربة مجتمعنا وبقدر ما تحمل طابع هذا المجتمع ، تتأتّى قدرتها على صدق تمثيل الإنسان بصفة عامة ، فالتعبير المخلص عن الإنسان فى وطن معيّن هو تعبير عن الإنسانية جمعاء . ويكفى دليلا على ذلك أن أعمال شكسپير التى تعبِّر عن وجدان الإنجليز ومشاعرهم تعدّ اليوم من أثمن مايملك العالم من تراث الشعر والمسرح . وفى تاريخ القصة لم يتمتع بالعالمية حتى الآن أدب كأدب تولستوى ودستويفسكى وتشيكوف ، وقد كانت أعمالهم جميعا روسية ضاربة فى أعماق التربة الروسية ، فإن قومية الثقافة النقية الراقية هى فى الواقع طريقها الوحيد الممهِّد إلى عالميتها . وأقصد بقومية الثقافة النقية أن تكون معبِّرة عن الخصائص الفريدة للشعب الذى تمخّضت عنه ، وناقلة أمينة عن تجاربه عبر التاريخ وامتدادا لتراثه القديم ، وأن تكون ملامح الشعب منعكسة لاعلى مضمونها فقط وإنما على أشكالها أيضا وأدواتها ووسائلها فى التعبير . ولا أعنى بذلك أن نحتفظ فى عصرنا بكل مافى التراث من صور وأدوات للتعبير الفنى وأشكال فى الصياغة الفنية فهذا يتنافى وطبيعة التطور الفنى ، لأن كل مافى الحياة من علاقات ونبض ووسائل قد تغيّر عبر القرون ، ولهذا تتغيّر أدوات التعبير الفنى والشكل الفنى ، ويصبح التمسّك بتقليد التراث تقليدا أعمى أمرا متخلّفا فى الأدب والفن بقدر ما يكون إهدار التراث ارتجالا وافتقارا إلى الأصالة . ومن ثم كان علينا إلى جوار استلهام روح الشعب وتراثه وملامح الوطن التى هى المنابع الثرّة الزاخرة للفن ، الحرص فى الوقت نفسه على الاستفادة من تجارب الآخرين ومن التطور الذى حقّقوه ، مخلّفين رماد موقد الأسلاف جانبا حتى لانُثقل أنفسنا به ، وحسبُنا منه شعلته المتوهّجة . فإن عظمة تولستوى ودستويفسكى وتشيكوف تتأتى من أنهم استلهموا أصالة الروح الروسية دون أن يتورطوا فى النقل عمّن سبقهم ، واستفادوا مع ذلك من تطور الأدب الفرنسى فى زمانهم ومن تراثه النفيس . وزمرة الخمس الكبار فى الموسيقى الروسية «كوتشكا» [بالاكريف وسيزار كويه وبوروّدين ورمسكى كورساكوف وموسورسكى] لم يقفوا عند حد الألحان الشعبية وإنما استقوا من الروح الأصيلة لوطنهم واستفادوا من التقدم الفنى والعلمى والموسيقى الذى حققه آخرون من شتى

دول العالم ، والمثّال مختار في مصر لم ينسخ تماثيل المصريين القدماء وإنما استلهمها وطوّرها . وجاء من بعده فنانون آخرون استمروا فى التطوير والإبداع . وفى هذا المجال أمامنا نماذج من روادنا فى الثقافة والفنون من الذين حملوا لواءها منذ مطلع القرن التاسع عشر أمثال رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده ومصطفى المنفلوطى ولطفى السيد وطه حسين وتوفيق الحكيم ومحمود سعيد ويوسف كامل وراغب عياد بل وطلعت حرب[1] وغيرهم كُثر ، جعلوا التراث منطلقاً لهم وأفادوا من التقدم الثقافى فى العالم بأسره . وعلى هذا تكون الثقافة القومية هى جُماع حياة شعبنا فى تاريخه الطويل وعلاقاته المتشابكة مع غيره من الشعوب فى الماضى والحاضر معا .

ولن يُكتب لثقافة رفيعة النجاح إلا إذا حرصت على أن تجنى أنضج الثمار الثقافية والفنية والتكنولوچية من هنا ومن هناك . فنحن لم نر من قبل قط ظاهرة « عالمية الفن » تتجلّى بمثل ما نراه حين نشاهد عبقرية شاعر مسرحى فذ مثل شكسبير الإنجليزى تجتمع معها مواهب موسيقى عملاق مثل ڤردى الإيطالى ليخلق منها أوبرا مثل « عُطيل » . يتضافر على العزف لها أوركسترا فرنسى يقوده مايسترو من اليابان ، ويصمّم مناظرها وثيابها فنان من إسبانيا ، ويعكف على الأدوار الغنائية الرئيسية فيها مغنون من أمريكا وألمانيا وإيطاليا ، ويقوم بالأدوار الراقصة « باليرينات » من السويد والدانمرك ، وراقصون من روسيا ، بل ومن مصر ... أجل من مصر ومن خريجى معهد الباليه بأكاديمية الفنون المصرية بالجيزة ، فيستهوى نفوس المشاهدين غربا وشرقا بنفس الشجن والانبهار . إن الإنسانية لم تشهد من قبل أبدا مثل هذه الإمكانات لتحقيق أحلام لم تكن لتتحقق إلا فى الخيال الذى لا يعشّش إلا فى وجدان الطفولة النقية ، فالجمال طليق لايحدّه مكان ولا يحيط به زمان .

إن الأمم لا تغزو المستقبل إلّا إذا تجاوزت الإنجازات المادية ، وكل غزو عملى فى الحاضر مقضىّ عليه لأن الحاضر لا مناص من أن يتوقف ذات يوم ، والدول الراسخة هى التى تدفع الحاضر إلى المستقبل ، والمستقبل لا وجود له إلا فى الثقافة ، لأنه إذا أمكن لأمّة ما أن تكون عظيمة بذاتها فلن يتسنّى لها أن تشمخ بين الدول العظمى ـ شأنها شأن الناس ـ إلا إذا تجاوزت قيمتها الذاتية لتجعل منها إسهاما نزيها فى القيم الإنسانية وفى القيم الكلية . والقيم الثقافية هى وحدها القيم الكلية ، لأن تحديدها معناه تحديد النقطة التى عندها

تتّخذ المعتقدات والأبحاث والاكتشافات التى يقوم بها الإنسان قيمة عند الجميع كما هى عند الذين أنشأوها . وليس ثم ميدان آخر غير الثقافة توجد فيه مثل هذه القيمة الكلية الشاملة ، أعنى المستوى الكلى العالمى ، وما أصدق الفنان روبنز حين قال : « إنى أعدّ العالم كله وطنى » .

إن علينا أن نحدِّد موقفنا من التراث العالمى ، وأن نردَّ على الدعوات التى تتصاعد بين الحين والحين والتى تحذّر من الغزو الثقافى القادم من الخارج . فعلى حين ينادى البعض بضرورة الاحتراس من الوقوع ضحية عقدة الخواجا أو الإعجاب الأعمى بكل ما هو وافد ، يخرُّ فريقٌ آخر راكعين أمام أفكار غيرهم فيستوردونها استيرادا ويَسْعَوْن ـ هم الآخرون ـ إلى فرضها على أنفسهم وعلى غيرهم . غير أن وجود هاتين الظاهرتين لا ينبغى أن يُتّخذَ ذريعةً لمحاربة الثقافة الإنسانية بكل مافيها من قيم باقية ، ولايجدر بنا أن نُشجِّع ما يَصْدُرُ عن حَسَنى النية وسيّئيها على السواء من دعوة إلى الاكتفاء الذاتى فى حقل الثقافة .

وأنا من المؤمنين جدًّ الإيمان بالرؤية التوفيقية للثقافة العربية فى اتصالها الدائم المثمر بالثقافات الأخرى غربا وشرقا وبتفاعلها معها . فما أشبه الثقافة المحلية بين الثقافات الأخرى بالنهر ، إذا فقدَ روافده التى تنحدر إليه من الغرب والشرق فَقَدَ مَعينَه الذى ينضب دونه ، فلا مناص من فتح الأبواب بيننا وبين الشعوب الأخرى لنُتيح لأنفسنا الحوار الحر الطليق ، ونأخذ بالأصلح والأنفع دون أن نستسلم ونذوب فى غيرنا فنفقد كِياننا .

وعلينا قبل أن نُتيح لأى لون من ألوان الثقافة الوافدة أن يقتحم علينا أدبنا وثقافتنا أن نُنعم النظر فيه لنرى مدى ما يصلح لنا منه ذوقاً وإحساساً ووُجدانا وشعوراً واجتماعيا .. وما أعيا الفرد عن أن ينهض بهذا العبء الثقيل وحده ، فالدولة بإمكاناتها المادية والمعنوية أقدر على هذا منه . فهناك من الأدب الغربى ما تأباه البيئة العربية لخلاف فى الذوق والشعور .. فعلى حين تَقْبَلُ البيئة العربية مأساوات شكسبير مثلا ـ لأنها تتصل بنظرة عامة يشترك فيها الناس جميعا وهى مصير الإنسان ـ إذا هى لا تميل إلى ملهاواته ، لأنها ليس فيها ما يشوق البيئة من غرضٍ مشترك ، بل هى تعتمد الاعتماد كلَّه على العَرْضِ اللُّغوى بما فيه من توريات تتفقُ والذوق الإنجليزى لا الذوق العربى . وعلى حين تتلقَّى البيئة العربية راضيةً أعمال برناردشو وتشارلز ديكنز

وتولستوى وجوته وغيرهم ـ لما تنطوى عليه من معانٍ إنسانيةٍ مشتركة ـ إذا هى لا تميلُ مثلا لأعمال ملتون لأن قراءتها تقتضينا دراسةً لاهوتيةً متعمّقة. وكذا لا تميل بيئتنا العربية لأشعار وردزورث لأنها مقصورةٌ على وصف طبيعة موطنه الخاص فى شمال إنجلترا بإمكانياتها.

فالدولة أقدر على تعرّف ما يتفق وما لايتفق من تلك الآداب مع ذوقنا العام، بشرط ألّا تُلزِمَ البيئة به، فحرّيةُ إرادة المتلقّى هى الضمان لانتفاع البيئة بالوافد المختار انتفاعا باقيا لايزول. كذلك فإن الدولة بإمكانياتها المادية والمعنوية أقدر على تعرّف ماهو رائع، وماهو ناجح فحسب، وماهو مبتذل، وعلى تعرّف إلى أين ينتهى الترويح ومن أين تبدأ الثقافة. وهذا يقتضى أن نعرف على سبيل المثال الفرق من ناحية القيمة بين مأساوات سوفوكليس ويوريبيديس وبين ما اصطلح على تسميته بأوبرا الصابون*. وما من شك فى أن أعمال سوفوكليس ويوريبيديس وشكسبير تفوقُ جودةً مسلسلات أوبرا الصابون، ولكنّا مع هذا نجدُ أنفسنا أشدَّ انجذابا إلى هذه المسلسلات، ومرجع هذا الانجذاب إلى فراغٍ لا تملؤه روائع، وإنما يزدحم بنتاج يحتشدُ بمُغرياتٍ تصرف الناس عن الأدب الرفيع إلى غيره مما يزخرُ بالغوايات، كالاعتماد على الموسيقى التصويرية وعلى المناظر الخلّابة وعلى الإيقاع الساحر وعلى المشاهد السافرة لجذب المُشاهِد بإبهارها، على حين يخلو الأدب الرفيع من مثل هذه المؤثرات. من هنا كان جمعُ القراء أو المشاهدين على ماهو رائعٌ من الصعوبة بمكان، فقصص دوستويفسكى أو تولستوى مثلا التى بلغت من الروعة مبلغها، لا نجدُ فيها مثل هذه المغريات الجاذبة، بل نجدُ فيها ما يُكدُّ العقل ويُنهك الخاطر، بما تنطوى عليه من تأملاتٍ عميقة وفلسفةٍ ذهنية.

وثمة حَبَكات لا تخرج عنها القصة أو الرواية أو المسرحية، يَعُدُّها النقّاد ما بين ست حَبَكات إلى ستٍ وثلاثين حبْكة، والرائع والهابط منها يشترك فى هذه الحبكات.. ومن هنا كان التمييز بين ماهو رائع وماهو هابط لا يعتمد على

* Soap - opera هى مسلسلات تُبثّ إذاعيا أو تليفزيونيا بدأت بها الولايات المتحدة الأمريكية، والعلّة فى نسبتها إلى الصابون أن الشركات التى كانت تنفق عليها فى البداية كانت شركات إنتاج صابون. وكانت هذه المسلسلات تعرض خلال الفقرات الإعلانية، وكان أكثر ما تشتمل عليه أحداثا أسرية ذات مضمون عاطفى أو مشجاوى ـ أعني ميلودرامى ـ وقد أخذ مضمونها يتطور على مدى الأيام، فإذا هى تتناول موضوعات لم تكن مباحة من قبل مثل الخيانة الزوجية والطلاق والاغتصاب والإجهاض وأبناء السفاح. وأشهر مايُعرف من هذه الحلقات التمثيلية حديثا مسلسلات دالاس وديناستى وفالكون كريست ونوتس لاندنج.

الحبَكات وإنما يعتمد على شيئين آخرين هما : أن تكون اللغة شاعريةً ذات أصالة وعمق فى التعبير ، ثم أن يتمثّل فيما هو رائع تصوير ما ينطوى عليه مصير البشر من حياة وفناء وحُب وكُرْه ، وغير هذا من المشاعر الإنسانية ، مأساويةً كانت أم ملهاويةً ، فى أسلوب تخيّلى فلسفى يصوِّرُ الفاجعة أو السخرية . فالأعمال الرفيعة تعتمد أكثر ما تعتمد على الكلمة ، وهى التى تميِّزُها عن غيرها من الأدب الدّارج . ومن هنا اختلافُ المشاهدين فى الحُكْم على تلك الروائع حين تُقرأ أو تُشاهَد ، فإن لم تَصْحَبْ الكلمةُ المشهدَ فى هذه الروائع ، بات القارىء أو المُشاهِدُ فى حَيْرةٍ من أمره . فحين يقرأُ القارىُء أو يُشاهدُ المُشاهدُ أوديپ يفقأ عينيه فى مسرحية « أوديپ ملكا » لسوفوكليس ، أو هاملت يقتلُ عمَّه زوجَ أمِّه فى مسرحية « هاملت » لشكسپير ، فإن لم تُسعفْ الكلمةُ القارىء أو المُشاهدَ فى هذين الموقفين كان من المنكرين لما يقرأ أو يُشاهد ، وحين يُحسُّ القارىء أو يشهد المُشاهِد تنكُّرَ بنات الملك لير فى مسرحية شكسپير « الملك لير » لأبيهن باستثناء كورديليا يُنكر ذلك ، ولكن سرعان ما تُسعفُه الكلمة ، فإذا هو يعود مبرّراً لما كان ، ولما قد يتوقّعُهُ كلٌّ منا من جحود البنات والأبناء . وحين يَقْرأُ القارىُء رواية « الحرب والسلام » لتولستوى يحار : هل الرّجالُ ذوو الشُّهرة لهم أثرهم فى التاريخ أم الصُّدفةُ هى التى أسبغتْ عليهم هذا الأثر ؟ وإلى هذا الرأى الثانى يذهب تولستوى فى روايته ، فيجعل البطل ليس غير أداةٍ أمام مصيرٍ أعمى لا يدريه .. أما الذى يُهوِّنُ هذا التخريج كلَّه فهو « الكلمة » التى لا شكَّ هى مفتاح الأدب الرفيع .

ولقد كانت الكلمة هى المحور الذى يدور عليه حديث الثقافة قبل أن تدخل الأمة العربية إلى ميادين الحضارة المختلفة . وحين كان للأمة العربية نصيبها من تلك الحضارات المختلفة أصبحت الثقافة والفن شريكين ، وغدت البيئة العربية لا تُعْنَى بالكلمة فحسب بل تُعنَى أيضا بما انضمّ إليها من فنون . غير أنه لاتزال للكلمة حظُّها الأوفر فى البيئة العربية ، إذ بلاغة القول هى التى لاتزال تشوق النفوس وتجذبُها إليها ... وما عُقِدت الأسواق قديما إلا للمباراة فى الكلمة .. أيّتُها أجود وأيّتُها أبلغ ... وهل تلك المعلّقات التى اختيرت وخُصَّتْ بها الكعبةُ لتُعلَّقُ عليها تشريفاً لها ، هل كان هذا إلّا لمقام

الكلمة فى الأسماع ؟ وما تحدّى القرآن الكريم العربَ إلا بالكلمة السماوية ، فقد تحدّاهُم بأن يأتوا بمثله ، أو بسورةٍ منه ... أو بكلمةٍ .

***

وثمة مصاعب فى الموازنة بين الثقافتين العالمية والمحلية وأثرُ كلٍّ منهما فى الأخرى إنماءً لامحاكاةً .. ولن يتحقق هذا إلا بإنماء الملكات المحلية مع تطعيمها بما هو سويٌّ مستنير من النتاج الحضارى الوافد . وهنا نتساءل مثلا : هل نأخذ فن الأوبرا كما هو ، أم نأخذ الهيكل الأوبرالى على أن نُضمِّنَه موضوعا شرقيا وموسيقى شرقية ، كما كانت الحال فى فن الرواية ؟ فلم ننقلها كما هى بل حاكيْنا صيغتها ، وكان مظهر هذا فيما فعله محمد المويلحى فى مطلع هذا القرن فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » وهو استيحاءٌ من أدب الرواية الأوربى على صورة عربية .. ومن قبل المويلحى ، بل ومن قبل التاريخ المدوَّن كانت البيئة العربية تملأ فراغها الواسع بما تجود به القرائح من تخيُّلات كثيرة ، تصوغها على ألوانٍ مختلفةٍ أشبه ما تكون بالأحدوثة ـ أعنى الحدُّوتة ـ ثم تطوّرت شيئا فشيئاً وأخذت مظاهر أخرى ، كما كانت الحال فى « السِّير » التى تناولت تاريخ الملوك والعظماء ، وأقدم ما وصل إلينا فى هذا النوع سيرة تُبَّع الحِمْيرى ملك اليمن التى صاغها نظماً الشاعر المعروف يزيد بن مفرِّغ فى عهد معاوية ، ثم تتالى أسلوب السِّير النثرية على مرّ السنين ، وكان من أقدم ما وصل إلينا منها سيرة أحمد بن طولُون للمؤلف المعروف ابن الداية . كذلك أخذ فن الأحدوثة شكلا آخر فى مقامات بديع الزمان الهمذانى والحريرى ، ثم جاء على نهج آخر على لسان الجاحظ حين اختار أحاديث البخلاء مادته فى القصص وصنّف فى هذا الموضوع كتابه المعروف « البخلاء » ، إلى أن استوحى كُتَّاب قصص « ألف ليلة وليلة » الشعبية المنوّعة ـ الذين مازال أسماؤهم مجهولة إلى اليوم ـ مادتهم من « أحدوثات » قديمة ألبسوها ثوبا فضفاضا من الخيال الواسع فيه المغامرات التى تشوق القارىء ، وما نستطيعُ أن نقول إن هذا كلّه كانت له صورة الرواية فى عصرنا الحاضر مساقاً وأسلوباً وأخذاً وردّا . فحين انفتح الباب بيننا وبين الأدب الغربى كانت لنا خطوةٌ واسعةٌ جريئة خرجنا بها من القصة فى ثوبها القديم الى ثوب جديد يتفق شكلا مع الرواية الغربية ، ولكنه يختلف عنها مضمونا وتصويرا . وإذا نحن بهذا التطور نبلغ فى فن الرواية مبلغ الغرب

فيها ، وحسبُنا جائزة نوبل العالمية للأدب التى مُنحت مؤخرا للروائى العربى الكبير نجيب محفوظ .

وكما لم تكن للرواية بِنْيَتُها الحديثة فى الأدب العربى القديم ، كذلك لم تكن المأساة والملهاة لهما هما الأخريان بِنْيَتَاهُما .. وكذا فن النقد الأدبى ، وإن كان العرب قد شاركوا فيه مُشْتَملين من نظرةٍ لهم خاصة ، فلقد بدأ النقد عند العرب مقصورا على بنية اللفظ ومعناه لا يعدو هذا الى الأسلوب العام ، لأن الحياة عندها لم يكن لها شُغْلٌ شاغلٌ غيرُ اللغة . وكلُّنا لا ينفك يذكر ذلك المثل الطريف فى النقد الأدبى الذى جرى بين الخنساء وحسّان بن ثابت حين نقدت له بيتا من الشعر فى سوق عكاظ ، وهو قوله :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعنَ فى الضُّحى ∴ وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دما

فلننظرْ ماذا كان من نقد الخنساء لحسّان :

قالت : قُلتَ الجَفناتُ وهو جمعُ قلّة ، ولو قلتَ : الجِفَانَ كنتَ أبلغ ، لأنه جمعُ كثرة .
وقلت : الغُرُّ ، والغُرَّةُ بياض صغير فى الجبهة ، ولو قُلتَ : البيضَ كان أعمّ ..
وقلتَ يلمعْنَ ، واللمعانَ ظُهورُ الضَّوْء ثم خفوته سريعا ، ولو قلت : يَبْرُقْنَ كان أجود ، إذ البُروق يمتد طويلا .
وقلتَ فى الضُّحى ، والضُّحى ليس موعدَ نزولِ الضَّيف .
وقُلتَ أسيافُنا وهو جمعُ قلّة ، ولو قُلتَ : سيوفُنا كان أبلغ .
وقلتَ : يَقْطُرْن ، والقَطْرُ قطرةٌ بعد قطرة ، ولو قلت : يَسِلْنَ كان أبلغ .... » .

وتلك صورة تجلو لنا فى وضوح كيف كان النقد عند العرب قديما ، فهو كما قلت لا يعدو الميدان اللّغوى بتتبُّع اللفظ بِنيةً ومعنى .. ثم مالبثت هذه النظرة النقدية أن اتسعت فشَمِلَت ملامح نحويةً وأخرى صرفيّة وكذا عَرُوضيّة ثم بلاغية ، تمخّضت هذه كلُّها عن علمى النحو والصرف وعلم العَرُوض ثم علوم البلاغة . وما إن أهلّ هذا القرن الذى يُظلُّنا حتى اتسعت من جديدٍ هذه النظرة النقدية لملامح غربيّة ، فأخذت بالمذهب الكلاسيكى والمذهب الرومانسى والرمزى والواقعى ، وكذا تأثرت بالعَرُوض الغربى شيئا ، وكان من نتاج هذا الشعر الحديث .

وعلى الرغم من أن العرب قد اتصلوا بالفكر الفلسفى اليونانى عن طريق بيثاجوراس وأفلاطون وسقراط وأرسطو على أيدى الفارابى والكندى والرازى وابن سينا وابن رشد وغيرهم .. إلا أن الغريب أن الأدب اليونانىّ لم يُطَعِّم

الأدب العربى من قُرب أو من بُعد ، لأنه كان ثمة أدبٌ عربى محلّى له شأنه فى البيئة العربية يَشْغَلُ على العرب أذهانهم ونفوسهم حرباً وسِلْما .. فالذى نجده فى الشّعر اليونانى من بطولات كالذى تُحدّثنا عنه ملحمتا الإلياذة والأوديسيا نجد مثله عند العرب ، فما كان أكثر الشّعر البطولى والحماسى فى الجاهلية ، ثم ما كان أكثر الشعراء الفرسان وعلى رأسهم عنترة بن شدّاد ، الذى يُعدُّ أول من دافع عن حقوق العبيد فى الجزيرة العربية ، وسيرتُه تكادُ تناظرُ سيرة أخيل وأجاكس وأوديسيوس وهكتور ، أبطال هوميروس شجاعةً وفتوّةً ودهاءً ونجدة .

وقد يُعزى هذا إلى أن الترجمة عن اليونان حينذاك لم تُعْن بالكتب الأدبية وإنما عُنيتْ بالمناحى العامة التى يُعنى بها البشر جميعا ، والتى كانت تحملُ جديدا كالفلسفة والفلك والطب والجغرافيا وغيرها ... فهذه سَرْعان ما يتلقّفُها الناس فى أيّةِ بيئةٍ كانت . وإذا كانت البيئة العربية قديما ، حين كانت تأخذ من الحضارة اليونانية ، كانت تأخذ ما كانت تُسيغه وما تتسع له حضارتها وما تُفيدُ منه ، فإن حضارتنا اليوم غير حضارة البيئة العربية بالأمس ، فنحن اليوم أكثر استساغة للأدب اليونانى والأوربى ، ثم أكثرُ أخذاً وإعطاء . وما تتّسعُ له العقولُ اليوم غير ما كانت تتّسع له العقول بالأمس .

***

ولنا أن نتساءل كيف نجمع بين الأصالة والتجديد ، أو بين ماهو محلىّ وماهو وافد ؟ فالثقافات قد تختلف غير أن نهج الحياة يفرض عليها جميعا وُحدةً جامعة ، فكيف السبيل إلى أن نَحْذَرَ التضحية بهذا الاختلاف الثقافى أمام تلك الوُحدة الجامعة فى نهج الحياة ، واعينَ بأن الثقافة وإن كانت إرثاً يُحاكى ويُستملَى فهى أيضا ابتكارٌ وإبداع ونظرةٌ إلى المستقبل .

لقد استطعنا هذا فى يُسر ، فـ « الملهاة » التى هى من أدب الغرب خاصةً ، تمثّلها الفنان نجيب الريحانى ورفيقه بديع خيرى فألبساها ثوبا مصريا بعد أن ألمّا بأدب مارسيل پانيول وغيره ، فإذا هما يقدِّمان ملهاةً وملهاة .. تنفذ الى القلوب العربية وتستهويها وتَطْبَعُ البسمات على الشّفاة ولم يكن فى عملهما ما يثير شبهة غزْوٍ ولا استغزاء ، وإنما كان إضافة جديدة تنطوى على إبداع محلّى .

والفن عامة لغة إنسانية منذ دبّ الإنسان علي وجه الأرض ، وقد اختصت الطبيعة كلَّ بيئة بخصائص مميِّزة تعبيراً ومظهراً ومذاقاً ، والتعبير هو الصفة الأولى للبيئة ، ومن هنا كان لابُدّ أن تجمع بين اللون البيئى الخاص والطابع الشامل العام ، فإذا ما تنوّع التعبير أثرى الفن .. وهذا التنوّع التعبيرى هو ثمرة من ثمرات الحضارة التى جمعت بين البيئات المختلفة بما جاءت به من وسائل اتصال لاحصر لها ، فإذا الناس جميعا على وجه الأرض شبه وُحْدةٍ ، وبات الإنسان يسمع لأخيه الإنسان ويرى ما يفعل مهما نأى به المكان وإن كان على سطح جِرْمٍ سماوى ، يتخيّر من هذا كلّه ما يروقُ له ويستمتع ، ويرفُضُ ما سواه .

ولنضربْ لهذا مثلا من فن التصوير ، فعلى الرغم من ضيق مجال الإيهام بالعُمق أمام المصوّر المسلم قديما ـ عربياً كان أم فارسيا أم تركيا ـ فيما أبدع من تصاوير المنمنمات التى تُرقّن المخطوطات ، لاقتصاره على استخدام البُعدين الأفقى والرأسى فحسب ، ولافتقاره إلى إمكانيات التأثير بالظلال والمنظور والتجسيم ، فقد وُفِّق فى التعبير عمّا يريده بوسائل بديلة .. فمثلا كان يوحى فى صُوَره بالتراجع فى الفراغ عن طريق وضع الأشياء البعيدة أعلى الصورة والأشياء القريبة أدناها .. ووراءَ هذا النوع من التشكيل الفنى يكمن الخيال الشرقى العريق الذى ينظر الى مشكلة التصوير نظرةً تختلف عن النظرة الأوربية ، إذ تضع العقلية الشرقية فى اعتبارها دائما ما يستهوى المُشاهِدَ ، فيحاول المصوّرُ إرضاءه بأن يسوق العجائب والغرائب والمعجزات التى تبدو خارقةً فى نظر العقلية الأوربية المدقِّقة فى احترامها لقوانين الطبيعة ، فيُظهرُ المصوِّرُ المسلم مَشاهِدَ الليل فى حين لا يسودُ الصورةَ ظلامٌ دامس ، ويدفعُ النجوم الى التألُّق فى مشهد حافل بضوء النهار .

وإذا كان العلم الحديث يُطالعنا بجديد يُصحِّح أوضاعاً أُولى ، تُرى هل نقف جامدين أمام مايقول به العلم الحديث ونُبقى على ماكنّا عليه تشبُّثاً به ، أم نُجارى العلم الحديث فيما أخذ فيه من تطوّر ، يمضى بنا إلى آفاق واسعة فى مجال الفن التشكيلى ، على شريطة ألَّا يَمسَّ ما نأخذ جوهر ماعندنا ويُصيبه فى الصميم ، فإذا نحن قد فقدنا ماضينا بجُملته وانغمسنا فى حاضر بجملته ، ونكون بهذا قد انتُزعنا من بيئتنا العربية بوُجدانها وأحاسيسها ، وأصبحنا أمةً أخرى لاتعرف لها ماضياً كما لاتعرف لها حاضرا .

فثمة نظريات أوربية في الفن التشكيلي لها شأنها ولها قيمتها منذ عصر النهضة الأوربية ، وما نظننا ونحن آخذون في الانتفاع بما حولنا مما لا يَضِيرُنا في شيء لانلتفت لمثل هذه النظريات .. فثمة نظريةٌ لأوتشيللو تُعرِّف بقواعد المنظور والتضاؤل النسبي ، وثمة نظريةٌ ثانية لجوتو ومازاتشيو تكشف لنا عن إثارة الحسِّ اللَّمسي للمشاهد ، فاذا هو يُحسُّ وكأنه يلمَسُ بيديه الشكلَ المصوَّر ، وثمة نظريةٌ ثالثةٌ لبولايولو تتناول تمثيل الحركة ، وثمة نظريةٌ رابعةٌ لليوناردو تبيِّن لنا تقنيّة السفوماتو [أعني الضبابية المُوحية بالغوْر] ، وثمة نظريةٌ خامسةٌ لبوتتشيللي تُبرز القيم التي تبثُّ الحياة في الصورة مع إغفال محاكاة الواقع ، وثمة نظريةٌ سادسةٌ لكاراڤاچيو ورمبرانت تفتح لنا السبيل أمام استخدام تقنيّة الكياروسكورو [أعني تقنية الضوء والظل أو الإشراق والعَتَمة] . ثم جاء العلم المعاصر ليُضيفَ أبعاداً جديدةً تكشف للفنان آفاقا أخرى للتعبير وتُثرىَ رؤيته ، فثمة نظريةٌ للعالم النفساني زيجموند فرويد ، تكشف لنا عمّا وراء الواقع من أحلامٍ وكوابيس وعُقدٍ نفسية ، مهّدت الطريق أمام المذهبين التعبيرى والسوريالى كي يُضيفا للصورة بُعداً خياليا لم يكن معهودا من قبل . حتى إذا طلع علينا براك بأَخِرَةٍ بنظريته التحليلية والتركيبية كشف لنا عن أن بلوغ الكمال في الفن لا يقوم على انفساح اللّوْحة بغير حدود ، وإنما على اختصار عناصر اللوحة داخلَ حدودٍ بيِّنةٍ نستطيعُ سَبْرَ أغوارها وتبيُّن خباياها ، كما فجّر فيما يوجز من رسومٍ سلسلةً من العلاقات والتوافقات المستحدثة بتحليل الأجسام إلى خلايا وذرّات ثم بإعادة تركيبها من جديد .

هذه النظريات قد أضافت إلى علمنا جديدا لا يَضير تراثنا في شيء بل يضيف إليه ما ينفع ، وما نظنّنا نُغفل هذا كله ونلتزم بالقواعد التي استنّها السلف من فنانينا خلال العصور التي عايشت حضارتَنا الإسلامية ..

وما أَحَسَبُنى أُباعد عن الموضوع ، إذا تطرّقتُ إلى الموسيقى ، فالموسيقى فن من الفنون ، وما دمنا نتناول الفنون جُملةً فلا يصحُّ أن نُغفلَ فرعا منها . فالموسيقى شرقا وغربا كما نعلم ليست غير صوتٍ أو تردُّد سمعى ينبنى على أسسٍ رياضية بحتة . والعلاقة التي بين الأصوات المتتالية هى علاقة رقمية ، وما نراه من تغايُر فيها مرجعه إلى الإلهام والدراسة والتدريب وميراثِ الفولكلور لوَفْق البيئة ، ثم إن العلاقات بين النسب الرياضية هى مصدر

الإبداع الموسيقى بما نُحسُّ فيه من ميلودية وإيقاع وصنعةٍ فى البناء الموسيقى . وأهمّ ما يميّز الملامح القومية للموسيقى هو الفولكلور النغمى ، وهو ما يتوارثهُ جيل بعد جيل فى كلِّ بيئة ، ولهذا أثره فى الإيقاعات التى هى الأخرى من مُتَوارث الأجيال ، فإذا هذا كلُّه تاريخ سمعىّ يختلف من شعب إلى آخر . كذلك الآلات الموسيقية تكاد تكون واحدة على مرِّ العصور وفى كل البيئات ، فالآلات الفرعونية واليونانية قديما لاتختلف كثيرا عن الآلات الموسيقية فى عصرنا الحاضر ، سواءٌ أكانت آلات وترية أو إيقاعية أو نفخية ، وما طرأ عليها الآن ليس غير تطوير علمى أدخل عليها مزيدا من الإمكانات أدت إلى حُسنِ الأداء وجودة الصوت ، كما أفسحت للفنان الانطلاق إلى آفاق لم تكن متاحةً له قبلُ .

ولقد أخذ العرب عن الفُرس فنّ الموسيقى واستخدموا لذلك آلات دخلت عليهم أيضا من الفرس ، وتطوّرت هذه الآلات شيئا على يدى ابراهيم الموْصِلى ، ثم على يدى ابنه اسحق خلال القرن الثالث الهجرى . وعلى أيديهما أيضا بدأ تدوين الموسيقى قبل أن يعرفه الغربُ بمائة عام على يدى القديس أودُو وجويدو دارتزو . وانتقل هذا كلُّه إلى الأندلس فأثرى الموسيقى الأوربية وأسهم فى تطوير الأداء بالعود العربى الذى مالبث أن أصبح أوربيا ، كما غدا أساسا لآلات أوربية أخرى هامة ، وكذا نقلت الحروب الصليبية الى أوربا خلال القرن الثانى عشر عدداً كبيراً من الآلات الموسيقية العربية ، منها الآلات النحاسية التى استخدمت بعدُ فى الحروب لإثارة حماسة الجند ، والتى نشهد بعضها فى منمنمات مخطوطة مقامات الحريرى للفنان الواسطى . كما أن القوالب الموسيقية الغربية اندمجت مع نظيراتها فى الأندلس ، ونتج عن هذا أسلوب جديد للأداء ليس بين الشرق والغرب فيه ثمة خلاف إلا فى الطابع والملامح القومية . وإذا الآلات الموسيقية العربية تأخذ أشكالا أخرى حين انتقلت إلى أوربا ، فإذا الرّبابة تتحوّل إلى الڤيولينه ، وإذا العود يفرض نفسه كما هو إلى أن لحقه التطوير ، وإذا آلة القانون العربية تصبح آلة الزمبالُوم .

وكما أخذت أوربا عن العرب أيام كان الفن الموسيقى العربى أعلى مرتبةً من الفن الموسيقى الغربى ، إذا الكَرَّةُ تعود ، فيبدأ الشرق يأخذ عن الغرب حين بلغ الغرب فى الفن الموسيقى شأواً ملحوظا فى آلاته الموسيقية وفى

علوم التأليف الموسيقى .. ولكن هذا الأخذ مُحالٌ أن يُباعد بيننا وبين أن نُضَمِّنَ هذا المأخوذ مضمونا شرقيا بحيث لاتطغى الموسيقى الأوربية بكلّياتها على الموسيقى العربية الكلاسيكية التى كُتب لها البقاء، والتى تتجلّى فى الموشّحات والسماعيات والبشارف وما إليها من قوالب رصينة . وعلى هذا النحو مزج موسيقيون عرب بين الفولكلور العربى وعلم الموسيقى الغربى، وخرجوا علينا بتجربة جديدة يستسيغها الذوقان معا، الشرقى والغربى . فإذا نحن جَمُدْنا عن مواكبة رَكْب الحضارة، نقفُ بموسيقانا عند درجة لا نعدوها والشعوب عامة لم تَجْمُدْ بتراثها وإلا وقفت عجلة الحياة . وهذا الغرب الذى نأخذ عنه اليوم قد أخذ عنا قبلُ، ثم ما يزال يأخذ عن غيره بما يُجدِّدُ موسيقاه، فإذا هو يقتطف عن أمم مختلفة من هنا ومن هناك ما يراه مُثْرِياً لموسيقاه حين لم يجد بين يديه وسائل مُسْعِفةً للنهوض بموسيقاه، وإذا هو يجنح أيضا إلى « الإكزوتية » [أعنى الأخذ عمّا هو ناءٍ غريبٍ مجلوب]، فنرى الموسيقى پوتشينى الإيطالى يؤلّف أوپرا « مدام بترفلاى » مستوحيا ملامح موسيقية يابانية، ونرى بورودين الروسى يستوحى ألحان أواسط آسيا فى أوبراه « الأمير إيجور »، ونرى رمسكى كورساكوف الروسى يستوحى ألحانا عربية فى « متتابعة شهرزاد »، كما نرى كامىْ سان صانص الفرنسى يستوحى فى الحركة الثانية المتهادية من كونشيرتو البيانو الخامس ألحانا تمتد جذورها إلى صعيد مصر .. ويؤكد هذا الرأى ما نزال نسمعه الى اليوم من ألحان مماثلة تجرى على ألسنة أهل الصعيد والنوبة، فلقد كانت لسان صانص رحلة الى صعيد مصر، يقضى وقته خلالها فى ذهبية على النيل، وكان لاشك يستمع الى مايدور حوله من ألحان ملأ صداها أذنيه، وكانت منها هذه الجمل الموسيقية، وهو ما يؤيد أن ألحاننا العربية لها نصيبها هى الأخرى فى الموسيقى العالمية .

وفى مطلع عِقْدنا الحالى طالعنا الموسيقى الإنجليزى لويس كلارك بسلسلة أعماله المعروفة باسم « إدمان الألحان الخالدة Hooked on Classics » ضمّت كل حلقة منها أشهر الألحان الكلاسيكية السالفة بعد أن أضاف إليها إيقاع الپوپ Pop الحديث لتقريبها إلى وجدان الشباب، فإذا الناس جميعا يُقبلون عليها إقبالاً يهولُ ولاسيما النشء، وإذا هم جميعا يأخذون فى تذوّق الموسيقى الكلاسيكية بعد أن كانوا فى غَيْبةٍ عنها ولا يتذوّقون غير موسيقى

الرقص والطّرب ، فجرّ هذا بعضهم إلى رجعةٍ نحو تراثهم الموسيقي السالف ، وبهذا أحيا هذا الفنان بعمله ذاك فى نفوسِ فئات جديدةٍ حُبَّ الموسيقى الكلاسيكية ، وكما فعل كلارك هذه ، فعل أخرى فأثرى موسيقى البوپ نفسها بما ضمّه إليها من إمكانيات العلوم الموسيقية الحديثة وإمكانيات الأداء الأوركسترالى السيمفونى ، وجاء من بعدِه الكثيرون ممن قلّدوه وإذا التراث الموسيقى الغربى على أيدى هؤلاء جميعا يُكْتب له الانتشار والازدهار .

ثم لا ننسى أن الموسيقى ـ غربيةً كانت أم شرقية ـ تجمع بينها قوالب مشتركة ، وليست ثمة تفرقة إلّا فى استخدام كلٍّ منها لمقاماتٍ لها أبعادها الموسيقية الخاصة بها ، هذا إلى أن لكلٍّ بيئة إيقاعاتها الخاصة . ومن هنا اختلط على الناس أن يُفرّقوا مثلا بين لحن الحركة الثالثة المِينْيُوِتُو السريع من سيمفونية موتسارت الأربعين وبين لحن الموشّح الأندلسى « لما بدا يتثنى » ، فمنهم من يعزو هذا الى توارد الخواطر هنا وهناك ، على الرغم مما يفصل بينهما من اختلافات الزمان والمكان ، ومنهم من يرى أن موتسارت قد أخذ عن الموشح الأندلسى لتأخّره زمنا ، على نحو ماذهب بعض المستشرقين الى أن دانتى فى كتابه « الكوميديا الإلهية » قد تأثر بقصة المعراج وبرسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، كما أفاد من إشارات محيى الدين بن عربى فى وصفه للآخرة فاستوحاها جميعا فنيا فى قصيدته ، على حين يذهب البعض الآخر الى أن هذا وذاك كان من توارد الخواطر . وما أجْدرَنا ونحن نستمع إلى موشّح لما بدا يتثنّى وإلى لحن موتسارت ، وكذا ونحن نطالع قصة المعراج وفردوس دانتى وجحيمه ، أن نكون كعاشق الزهرة نتنسّم عبَقَها دون أن نَشُقَّ على أنفسنا فى معرفة المصدر الذى استقت منه كلّ هذا الأريج .

إن عجلة الحياة تدور وليست هناك قوة تستطيع أن تقف حجر عثرة فى سبيل دورانها ، وكل ما تملك الدولة فى اختياراتها أن تصحّح مسار تلك العجلة حتى لانُفاجأ بما يُفسد علينا بيئتنا ويبدّل من ثقافتنا .. وأما ما يثار من جدل حول رفض ما يفد إلينا من ثقافات نافعة فهو لاشك جدل لا طائل وراءه .

* * *

كذلك لا يعنى تطوير العمل الثقافى فصم الروابط بالماضى ، فالإنسان تاريخ متصل ، وقيم المستقبل هى الثمار الجديدة على نفس الشجرة التى طرحت الثمار القديمة .. ولن يكون ثمة عمل أدبى أو فنى له قيمته إلا إذا كان

موصولا بماضيه ، فإذا انبتّ عن ماضيه فَقَدَ روعته وتحوّل إلى شكل أجوف برّاق المظهر خاوى الباطن . لذلك فإن بناء العمل الثقافى على أساس من التراث هو فى الواقع إقامة له على أسس إنسانية عريقة وقيم ثقافية حيّة ورصينة ، ولا يمكن أن نتصور عملا فنيا أو أدبيا يتضمن مثل هذه القيم إذا كان منبتّ الصلة بتراث الماضى وقيمه التى خلّفها لنا ، ولا يجوز أن نضحّى بالتراث القومى بحجة التطور أو نجمد بدعوى الحفاظ على التراث ، وإنما نقتحم مجالا يجمع بين التراث والتطور . فلقد أثبتت التجارب الإنسانية المعاصرة أن ثمة منهجا وسطا يجمع بين الاهتمام بالقديم والجديد بصورة لاتناقض فيها ولا اضطراب . ولعل أبرز هذه التجارب ما أقدم عليه اليابانيون خلال المائة عام الأخيرة من تطوير فنونهم كلها مستعينين بالأساليب العلمية الجديدة فى صياغة فنونهم التقليدية دون أن تفقد هذه الفنون مافيها من طابع قديم ، فأبدعوا روائع جديدة ذات طابع متفرّد ينطوى على روح اليابان الأصيلة ولا يفتقد الأساليب الحديثة . كما تألقت من بين تجارب دول كثيرة فى أمريكا اللاتينية محاولة المكسيك التى استوحت القديم فى فنونها استيحاء ذكيا رائعا ، فطوّرت الأزياء القديمة والألوان والألحان ، وجدّدت الأساطير والأعياد ، فباتت تحيا حياتها المعاصرة بروح تاريخها الحضارى القديم . فكما نقسّم الزمن أطواراً علينا أن ندع الحاضر يعانق الماضى بالذكرى ويطوّق الغد بالحنين . وقد كان ذلك هو المسار الذى اتخذته حركة النهضة الأوربية خلال القرن الخامس عشر التى عكفت على دراسة الحضارة اليونانية واستلهامها ، فأعادت الحياة إلى آلهة الإغريق الوثنيين ، ولكنها نزعت عنهم صفة الألوهية . ولقد قرأنا كيف كان المثّال الإغريقى الشهير پراكستيلس الذى عاش فى القرن الثالث ق . م يصوغ تماثيل عدّة لأفروديتى بوصفها ربّة الجمال التى كان عميق الإيمان بها شأن جميع الإغريق فى عصره ، فى حين اتجه المصوّر بوتتشيللى الذى عاش فى أواخر القرن الخامس عشر والذى لا ينبض قلبه بربوبية أفروديتى الى تصويرها بوصفها نموذجا للفتنة والغواية ، وهكذا أعادها إلى الحياة بالفعل ، لا إلهة مقدسة بل نمطا فنيا بالغ الروعة . وفى كل ناحية من نواحى الحضارة نلمس مثل هذا التناسخ الذى تتخذ فيه القيم الحضارية القديمة بمرور الزمن صورا أخرى مغايرة لتلك التى انبثقت عنها ، حتى بات كل عصر يعيد صياغة « مختاراته » الفنية والأدبية من العصور السالفة من زاوية رؤياه العصرية . وعلى هذا النهج أيضا ما اضطلعت به وزارة

الثقافة عند تنفيذها لمشروع « الصوت والضوء » بأهرام الجيزة والقلعة ومعابد الكرنك وفيلة وأبي سمبل، فقدّمت عروضاً لآثارنا المجيدة في صورة فنّية مشرقة تضمّ في تركيبها الصورة والرواية التاريخية والأداء الفني والموسيقى بأسلوب عصري يضاعف المتعة والمعرفة ويرقّق الذوق والمشاعر بعد أن كانت تلك الآثار القديمة حجارة صمّاء بكماء.

وهكذا يمكن أن تكون الالتفاتة إلى التراث القديم استقاء لعناصر جمالية واستلهاماً لمعان وقيم دون أن يكون في ذلك تجميدا لحركة الفكر أو خضوعا لعناصر الجمال البالية ولا سقوطا في قبضة قيم تجاوزها الزمن، وإنما هي البراعة في اختيار مفردات من ثقافات العصور السابقة وفنونها لوضعها في إطار البناء الحضاري المعاصر وعبر مسلك تتلاقى فيه الحضارات جميعا لإثراء ثقافتنا الجديدة. هذا إلى أن العودة إلى منابع التراث القديم تكشف لنا عن مفاهيم ومأثورات استطاعت قهر الزمن وسوف تبقى كذلك إلى الأبد ومنها مسرحيات سوفوكليس وموليير وشكسبير وغيرهم، فبقيت خالدة لأنها تهيب بالإنسان أن يتسامى فوق غرائزه الدنيوية ويخلص مما قد يجوس بخاطره من نزعات الشرّ. وما أظن إنسانا لا تستولي على مشاعره تلك العبارة النبيلة الخالدة التي جاءت على لسان الأميرة الفتيّة أنتيجونا أميرة طيبة في مأساة « أوديپ ملكا » حين قالت وهي تطلّ من فوق سفح الأكروپول « لم أخرج إلى هذا الوجود لأشاركه حقدا وضغينة بل لأشاركه ودّا ومحبّة ».

* * *

كانت تلك الرؤية التي تمخّضت عن تجربتي الخاصة وعن اللقاءات والمشاورات والندوات والمؤتمرات والتي كان لها صداها في نفسي هي نبراسي الذي أهتدي به في الحقل الثقافي، لم أحِدْ عنها طوال تحمّلي مسئوليتي الوزارية سواء في مجال الكتاب أو المسرح أو السينما أو الموسيقى أو تشييد قصور الثقافة والانطلاق بقوافلها إلى أقاصي الريف، أو الحفاظ على التراث وإنقاذ معابد النوبة بعد أن أوشك النيل أن يغمرها بمائه ويبتلعها، وكان لابد لهذا كله من أن نسبق فنهيّيء الرأي العام العالمي للإسهام في هذا المشروع إذ لم تكن مصر وحدها تطيق أن تتحمل أعباءه كلها.

وإني لأترك لمن عاصروا تلك الحقبة الزمنية أن يقولوا كلمة صدق عمّا وعوه ورأوه ويكون لهم حكمهم فيما إذا كنت قد التزمت بما عاهدت نفسي

وغيرى عليه أوجدتُ عنه ، وهل كنت عند ما وعدت به من الربط فى مشروعات الوزارة بين النظرة الإنسانية وبين النظرة القومية إلى الثقافة ، والجمع بين التراث القديم والتطور الحديث ، ورفع الحواجز بين طبقات المجتمع بتطوير الثقافة الإقليمية ، وإتاحة الفرصة للتفاعل بين أفراد الشعب وبين الفن الرفيع المستوى ، ثم تضمين الثقافة قيما عالمية وإنسانية خالدة ، الأمر الذى كانت له انعكاساته على كافة أنشطة الوزارة ، وأخيرا إتاحة حرية الإبداع للفنان حرية لا معوّق لها . هل كنت عند هذا أم اطّرحته جانبا ، وهل كان ثمة مجافاة بين النظرية والتطبيق ؟ . وما من شك فى أن التطبيق فى الستينات يختلف عنه الآن فى الثمانينات والتسعينات لاختلاف الظروف أولا وآخرا ، غير أن جوهر النظرية يظل كما هو فى كافة الظروف .

كان أول ماقمنا به أن أعدّت الوزارة خطة خمسية للعمل الثقافى فى حدود سبعة ملايين جنيه تشمل : إقامة المتحف المصرى (٢ مليون جنيه) ، ودار الأوبرا الحديثة (مليون جنيه) ، ودار الكتب الجديدة ومطبعة حديثة (مليون جنيه) ، واستكمال وبناء مسارح (١٥٠٠٠٠ جنيه) ، ومتحف بورسعيد (٧٥٠٠٠ جنيه) ، ومتحف النيل (٥٠٠٠٠ جنيه) ، ومدينة الفسطاط السياحية (٣٠٠٠٠٠ جنيه) ، وإعداد متحف دار البلدية بالقاهرة (١٠٠٠ جنيه) ، ومدينة الملاهى بالقاهرة (٥٠٠٠٠٠ جنيه) ، ومطبعة ودار نشر (٢٥٠٠٠٠ جنيه) ، ومسرح صيفى بالإسكندرية (٥٠٠٠ جنيه) ، ومتحف المثّال مختار (١٥٠٠٠ جنيه) ، ومتاحف إقليمية (١٧٠٠٠ جنيه) ، ومراكز للحرف الشعبية (٥٦٠٠٠ جنيه) ، وإنشاء قصور الثقافة (٥٢٥٠٠٠ جنيه) ، ووحدات ثقافية متنقلة للعمل بالريف (٧٥٠٠٠ جنيه) ، ومتحف الإسكندرية (٥٠٠٠٠٠ جنيه) ، وعرض الآثار الكبرى بالصوت والضوء (٢٠٦٠٠٠ جنيه) ، والسيرك القومى (٢٠٠٠٠٠ جنيه) ، ودار لعرض الفنون التشكيلية وبيع إنتاج الفنانين التشكيليين (٣٠٠٠٠ جنيه) .

على أن هذه المشروعات لم تكن كلها قصيرة الأمد بحيث يمكن إنجازها فى سنوات محدودة ، فقد أمضيت السنوات الثلاث الباقية لى فى الوزارة الأولى وأنا أكدح وأعوانى من أجل إنجاز هذه المشروعات التى سأعرض لها تفصيلا ، والتى أمكن بالفعل تنفيذ بعضها ، أما ماكان يستغرق وقتا أطول فقد

قطعنا شوطا فيه ، غير أنى تركت الوزارة فى سبتمبر ١٩٦٢ قبل استكمال هذه المشروعات الطويلة الأمد ، وأدمجت وزارة الثقافة فى وزارة الإعلام والسياحة فطغى الطابع الإعلامى والسياحى على الطابع الثقافى ، وتراجعت للأسف المشروعات الثقافية الكبرى وبخاصة مشروع دار الأوبرا والمتاحف ، وانتقلت الميزانيات المرصودة لتلك المنشآت الثقافية إلى خدمة أهداف أخرى . وبقى الحال على هذا المنوال إلى أن امتدت إلينا يد اليابان فأقامت على نفقتها هذا الحلم الذى كان يراودنا وهوّ مبنى دار الأوبرا عام ١٩٨٨ .

وقبل ان أنتقل إلى الخوض فى مسيرة تجربتى وزيرا للثقافة أرى واجبا علىّ أن أذكر للمستشار الفنان أحمد لطفى الذى اخترته مديرا لمكتبى للشئون الفنية على مدى سنوات ثمان ماعهدته فيه من كفاية نادرة ، و بذل دون مأرب أوترقّب لجزاء ، وإخلاص فى المشورة مجرّد عن الهوى . كما أذكر أنه جاء إلى العمل إلى جوارى ثم عاد إلى موقعه بسلك القضاء فى نفس الدرجة التى كان يشغلها . ولا أغفل أيضا المرحوم الأستاذ عبدالمنعم الصاوى الذى ضممته إلى وزارة الثقافة مستشاراً ثم وكيلا لها ثم وكيلا أول خلال السنين الأربع الأولى التى توليت فيها شئونها فكانّ على مستوى المسئولية أمانة وإشرافا وحركة دائبة لايضنّ بوقت أوجهد فى متابعة تنفيذ التخطيط الذى استقرت عليه السياسة الثقافية فى كافة المجالات بهمّة مشكورة . أما الأستاذ حسن عبدالمنعم الذى شغل منصب الوكيل الأول فى الفترة الثانية فقد كان إلى هذا كله يتميّز بالدماثة والفكر النيّر والتفانى والقدرة على تناول المشكلات التى قد تعترضه بأسلوبه المتأنّى فيحتويها ويجد لها الحلول المبتكرة التى تتفق مع كل موقف طبقا لتقديره السليم وفى هدوء ودون ضجّة أوانفعال . وكذا لا أنسى الفترة القصيرة التى عمل فيها اللواء عمر شكيب إلى جوارى فأعطى من إخلاصه المطلق وتجرّده المثالى الكثير. كما أسجل هنا لكل المشاركين ممن سأذكرهم وأنا أتحدث عن الأعمال التى شاركوا فيها من ذوى الثقافة المرموقة والكفاية الفنية والإدارية العالية العرفان بصفحاتهم المشرقة وأياديهم الناصعة .

٣
نهجي في وزارة الثقافة

لم أكد أبدأ في بسط تجربتي وزيرا للثقافة حتى وجدت القلم يتردّد في يدى إحجاما وإقداما ، لكن سرعان ما وجدتني لابد لي من أن أمضي في تسجيل هذه التجربة . فلقد أسندت إليّ مهام وزارة الثقافة خلال فترتين طالت كل منهما أربعة أعوام ، وفصلت بين تلك الفترتين فترة ثالثة امتدت هي الأخرى أربعة أعوام ، اتخذت فيها الوزارة فلسفة مغايرة . وإذ كانت تلك الفترات قد تداخلت وحملت كل منها بعض آثار التي سبقتها ، لذا رأيت لزاما عليّ أن أتحدث عن الوزارة في تلك الفترات الثلاث . وقد بدأت الأولى من نوفمبر ١٩٥٨ حتى سبتمبر ١٩٦٢ ، والثانية من سبتمبر ١٩٦٢ إلى سبتمبر ١٩٦٦ ، والثالثة من سبتمبر ١٩٦٦ إلى نوفمبر ١٩٧٠ . وقد يراني القارىء مفصّلا هنا وهناك ، غير أن ما جرّني إلى هذا التفصيل المسهب هو ما وجدته لبعض الأقلام من رؤية غير واضحة ، وقد يكون بعضها مغرضا .

— ١ —

كان مشروع «الألف كتاب» الذى صدر أول ما صدر بالإدارة العامة للثقافة حين كانت تابعة لوزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٧ من بين المشروعات

الثقافية الأولى فى عهد الثورة ، ثم رأت وزارة الثقافة أن تعيد فيه نظرة تشمل الأسس التى يقوم عليها وأنواع المعارف التى يضمّها . وبهذا كُتب لهذا المشروع أن يخرج من جديد على طريقة سويّة مدروسة دراسة واعية فشمل كتبا تمثّل المراحل المختلفة قديمها ومتوسطها وحديثها ، هذا إلى كتب أخرى مترجمة . وكانت الخطوة الثانية التى أظلّتها الثورة فى مجال التخطيط لصدور الكتاب هى « **المكتبة العربية** » فأصدرت جملة من الكتب فى فروع مختلفة لاسيما فى مجال التراث وإن جاءت قليلة ، ومرجع هذا إلى أن الذين عُهد إليهم بالتأليف أو الترجمة أو التحقيق لم يفوا بما وُكل إليهم . وحين حوّلت وزارة الثقافة إدارة النشر فى عام ١٩٦٠ إلى مؤسسة مستقلة رسمت لها سياسة تضع الكتاب فى خدمة كافة مستويات القراء متعلّمين ومثقفين ، وتأتى خطّتها للنشر ثالث مشروع للثورة فى مجال صدور الكتاب ، فأنشأت أربع سلاسل دورية أولاها سلسلة « **تراث الإنسانية** » ، وهى دراسات لأمهات الكتب العربية والأفرنجية التى أثرت الفكر العالمى والفكر العربى صدر منها نحو مائة عدد . وثانيتها سلسلة « **المكتبة الثقافية** » التى استهدفت إثراء القارىء العادى بمعرفة ذاته وتراثه والكون الذى يعيش فيه ومساعدته على بناء حياته بالمعرفة والفهم ، وقد ظلت تصدر مرتين فى الشهر وكانت تُباع بثمن زهيد فى مقدور كل قارىء [هو ثلاثة قروش] وقد صدر منها نحوٌ من أربعمائة كتاب إلى أن توقفت فى عام ١٩٧١ . وثالثتها سلسلة « **أعلام العرب** » التى حرصت على تعريف القارىء بأبرز الأعلام فى التراث العربى وصدر منها نحو من مائة كتاب . ورابعتها سلسلة « **مسرحيات عالمية** » وصدرت منها جملة وفيرة . وقد اضطلعت هذه السلاسل عامة بما كان يعوز الثقافة والمثقفين ، إذ أتاحت فرص القراءة أمام الآلاف العديدة من القراء فحقّقت مايمكن تسميته بشعبية الثقافة ، فلقاء قروش قليلة كان القارىء المصرى يزوّد بزاد ثقافى قيّم لا تبخل الدولة بدفع العجز فى ميزانية نشره إيمانا منها بأن زاد الشعب الثقافى لايقلّ قيمة عن زاده المادى ، وبألا يكون التوسّع فى تقديم الخدمة الثقافية على أساس من هبوط المستوى . فقد كان الشعار الذى ينادى بأن الثقافة للشعب مقترنا على الدوام بأن حق الشعب هو أن يحصل على الثقافة الرفيعة فى صورة مبسّطة وبأسعار زهيدة فى متناول قدرته . ولقد كانت هذه السلاسل وسيلة فعالة

للمساهمة فى إرساء قاعدة عريضة للقراءة فى البلاد ، وفى إغراء القراء بالمطالعة واقتناء الكتب ، فكان أن أصدرت الوزارة تلك السلاسل وغيرها لتباع ــ ولأول مرة ــ بأقل من تكلفتها . وإلى جانب هذه السلاسل أصدرت الوزارة كتبا مختلفة تنتظم المعارف العامة والفلسفة والدين والاجتماع والفنون والعلوم البحتة . وكان للأستاذ ابراهيم زكى خورشيد الموسوعى الثقافة مجهودات كثيرة مثمرة فى سبيل تحقيق هذه الأهداف خلال عمله مديراً عاما لإدارة الثقافة بالوزارة ثم مديرا لمؤسسة التأليف والنشر.

وأذكر أنى حين عُيِّنت وزيرا للثقافة طلبتُ إلى الدكتور لويس عوض ، وكان وقتها يعمل أستاذا بجامعة دمشق الانضمام إلى وزارة الثقافة ليعمل إلى جوارى مديرا لإدارة الثقافة ، فاعتذر مُؤْثِراً أن يواصل رسالته الجامعية ، غير أنه إزاء إصرارى قبل وتولّى هذه المهمة وأبدى كفاية نادرة كما نتوقع منه دائما . وبعد أربعة شهور ــ من العاشر من ديسمبر ١٩٥٨ إلى الثامن والعشرين من مارس ١٩٥٩ ــ فوجئت بأنه قد اعتُقل بتهمة الشيوعية وأنا أعلم علم اليقين أنه لا يدين بالمبادىء الماركسية وأنه شيخ الليبرالية فى مصر. وقد حاولت المستحيل لإطلاق سراحه غير أن كبار المسئولين كانوا لايؤمنون إلا بما يسجّله رجال مباحث أمن الدولة عن الأفراد ، وعجزت تماما عن أن أستنقذه من كارثة الاعتقال وتألّمت أشد الألم لإحساسى بمسئوليتى عن تركه عمله فى سوريا ومجيئه إلى القاهرة حيث تيسّر لهم القبض عليه ووضعه خلف الأسوار. ومن العجيب أنه منذ اليوم الذى عُيِّن فيه الدكتور لويس بالوزارة انهالت علىّ احتجاجات مسعورة من بعض المثقّفين للأسف وعلى رأسهم من لم أكن أتصوّر أن يحدث منهم ذلك ، غير أنى لم أرضخ لطلب إبعاده وأصررتُ على بقائه للإفادة من مواهب هذا العالم القدير. والراجح أنهم وقد خاب أملهم فى إثنائى عن التمسّك به اتجهوا وجهة أخرى شريرة أنجع أودت به إلى المعتقل . وبعد إطلاق سراحه رجوته أن يعود للعمل بالوزارة فاعتذر واعداً أن يكون فى خدمتها أنّى كان . وقد برّ هذا الرجل الكريم بوعده فكان لصيقا بجهود الوزارة وعضوا بنّاء نشطا بمجلس إدارة مؤسسة المسرح والموسيقى حتى عام ١٩٧٠ وغيرها من النشاطات المتعدّدة لاسيا مايخصّ الثقافة والنشر.

ولقد كانت ثمة كتب تراثية ظهرت فى أيام أولى ، وكانت محط اهتمام القراء ، غير أن طبعاتها كانت قد نفذت ولم يعد بين أيدى القراء منها شىء ، ففكرنا فى إعادة طبعها لتُيسّر على القراء تداولها . ولعل أهم ماأصدرناه فى هذا الميدان معجم « **لسان العرب** » الذى كانت تُباع النسخة منه كاملة بما يربو على المائة والخمسين جنيها ، هذا إلى ندرة وجوده ، فأعدنا طبعه وإذا النسخة منه بأجزائها العشرين تباع بعشرة جنيهات . وكذلك كانت الحال فيما كان مطبوعا من أجزاء كتاب « **الأغانى** » و« **النجوم الزاهرة** » و« **نهاية الأرب** » و« **صُبح الأعشى** » ، فأصبحت كل مجموعة من هذه المجموعات تُباع كاملة بجنيهات معدودة .

وكان علينا أن نصل أبناءنا بتراثنا لينظروا فيه نظرة فاحصة سليمة كى يتعمَّقوه ويُلمُّوا بأطرافه جميعا ويستمتعوا به استمتاعهم بالأدب الغربى . ولعل خير وسيلة رأيناها لتحقيق ذلك أن نمهِّد لهذا التراث الضخم بميسَّرات تذلِّل لهم تلك الصعوبات فى التراث الذى يَستعْصِى معها فهمهم له . فلا يزال تراثنا لغزا مغلقا أمام جمهرة كبيرة من القراء العرب . وحين يلمّ به القارىء يجد أنه أشبه ما يكون فى زيارة لمُتحف لغوىّ لا يعى عن مفرداته شيئا . ولا تزال الشروح التى أضيفت إلى كتب التراث أخيرا هى الأخرى بحاجة إلى شروح أيسر وأخفّ . فقدّمنا هذا التراث فى صور ميسَّرة تخفّف عن القارىء الناشىء ، ليقوّى بعدها على الرجوع إلى أصولها الأولى ، وصدر من هذه السلسلة نحوٌ من عشرين كتابا ، وكان للمحقق القدير الأستاذ إبراهيم الأبيارى الفضل كل الفضل فى النهوض بالأعباء التراثية فمكّن لها من الظهور فى مظهرها اللائق ، هذا إلى دوره الأول فى إخراج المعاجم العربية ، فقد تبنّت وزارة الثقافة فى ميدان النشر مشروعات طموحة لإصدار المعاجم ودوائر المعارف كان الهدف منها أن تكون مصر مركزا لإصدار المعاجم بعد أن تبنّى هذا الأمر أقطار عربية أخرى .

وكان مما فكرت فيه وزارة الثقافة إعداد معاجم موسوعية فى عبارات ميسّرة لا تقليدية حتى نحفز الناشىء على الإقبال على تراثه إقباله على غيره ، فلا يلفته إليه تراث وافد بمتعه المُغرية . ثم إن تاريخنا وأدبنا وما إليهما من علوم أخرى لا يزال موزّعا فى كتب كثيرة يستعصى على الباحث الرجوع

إليها ، ومن هنا كانت لنا لفتة إلى التراث نلمّ شتاته ، فمهمة إحياء التراث يجب ألا تقف عند حدودها المرسومة المعروفة من نشر المخطوطات محققة فحسب ، فنحن حين نلمّ بالتراث عن موضوع بعينه لا يكفينا فى هذا مرجع ومرجع ، بل نرى أنفسنا موزّعين بين مراجع لاتحصى ولا تُعدّ . وفى هذا إهدار للوقت والجهد قد نخرج بعده ونحن لم نلمّ بأطراف الموضوع كله . ولذلك كان التفكير فى أن نجمع حول الموضوع الواحد ما كُتب عنه لا نُبقى ولا نذر ، ثم نختار من هذا كله مختارا جامعا يلمّ بأشتات الموضوع كلها ، فيصبح بين أيدينا كتاب يُغنى عن كتب ، غير أن الوقت لم يسعفنا لإنجاز ما رَجَوْنا .

ولقد آمنت وزارة الثقافة بأنه من أهم واجبات الدولة فى ميدان النشر احتضان المشروعات الضخمة مثل دوائر المعارف والمعاجم ، فبدأت عام ١٩٥٩ بمشروعين أساسيين هما « دائرة المعارف الإسلامية » على أن تُكتب بأقلام عربية متخصّصة و« القاموس الإنجليزى العربى » للمترجمين المتخصّصين على أساس قاموس أكسفورد المعروف والذى عهدتُ به إلى الدكتور لويس عوض . وإذ كنت أومن بتنوّع المعاجم العربية على نمط ماكان للسلف أوعلى نمط ما للغرب فى هذا الميدان ، فقد تمنّيتُ أن يكون فى أيدى قراء العربية معجما يجمع « المترادفات » يتفوّق على كل ماسبقه ، وأن يكون لنا معجم يجمع المعانى بتداعيها ، مما يوفر على القارىء العنت الكثير فى البحث وراء مايبغى من معنى ومعنى يتبعه ، وهو ما اصْطُلح على تسميته بمعجم « تداعى المعانى » . ورغبة منى فى أن يمضى هذا المشروع دفعتُ بكتب أملكها فى هذين الموضوعين لأيسّر على اللجان المختصة الدرس والاحتذاء .

ومن بين المعاجم التى اهتممنا بإصدارها « الرائد الصغير » ، وهو معجم لغوى على أسلوب حديث يُسعف قراء العربية عامة ولا يعوزهم إلى الرجوع إلى أصل الكلمة . ولقد خطت اللجان المختصة التى أُلّفت لذلك خطوات واسعة حتى كاد بعض هذه المعاجم يقارب الانتهاء ، ولأمر ماتوقفت هذه الجهود فى ديسمبر ١٩٦٢ . كذلك انتهت اللجنة المكلّفة بإعداد معجم « الرائد المصوّر » منه ــ وهو لايزال إلى اليوم حبيس الصناديق ــ وهو معجم على نمط المعاجم العربية الأولى مثل « المخصص لابن سيده » و« فقه اللغة » للثعالبى ، غير أن مافعله الغربيون



تغليف قناع توت عنخ أمون قبل نقله من المتحف المصرى إلى أمريكا



توت موبيل . وفرقة الجاز تعزف
لحن الوداع الجنائزى فى توديع
توت عنخ أمون الراحل عنا فى
إحدى مدن الولايات المتحدة .



جماهير المواطنين الإنجليز فى انتظار دورهم لزيارة معرض توت عنخ آمون بالمتحف البريطانى بلندن

جماهير المواطنين اليابانيين فى انتظار دورهم لزيارة معرض توت عنخ آمون بطوكيو





مع الرئيس نهرو فى السفارة الهندية بمصر

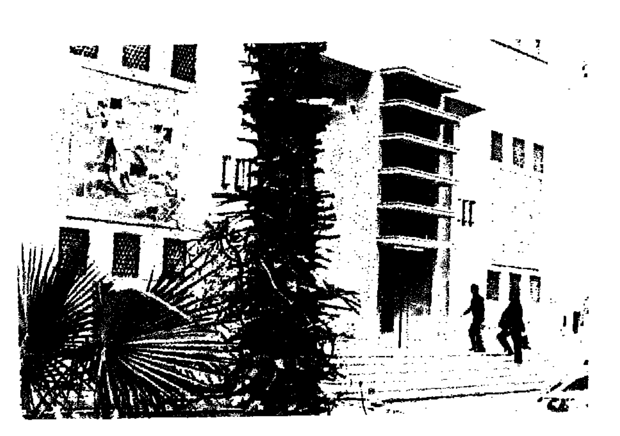


صورة تذكارية مهداة من الرئيس نهرو

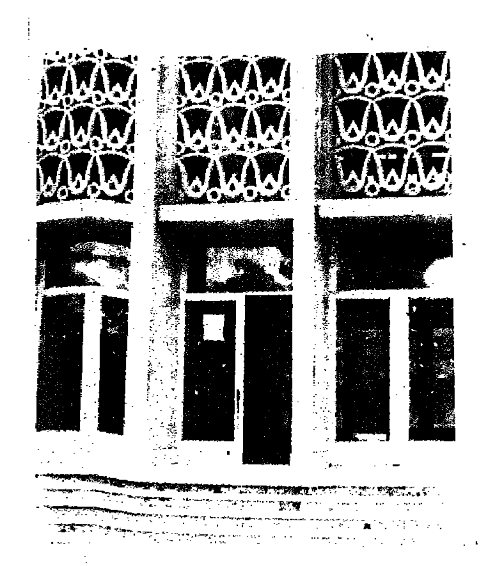




فى رفقة الرئيس نهرو بالأقصر



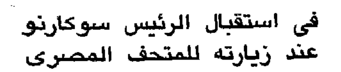
المعهد العالى للموسيقى (الكونسيرفاتوار)



المعهد العالى للباليه

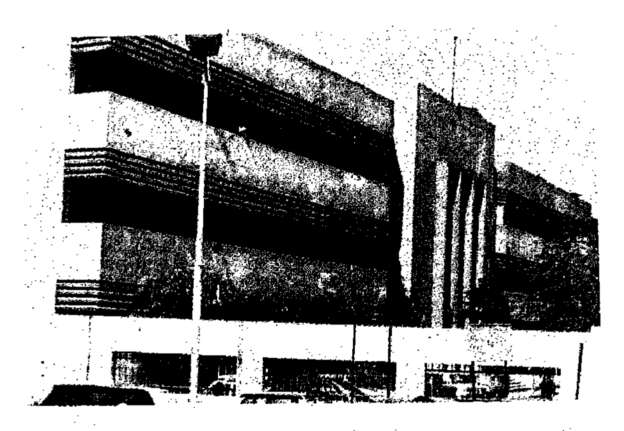


المعهد العالى للفنون المسرحية



فى استقبال الرئيس سوكارنو
عند زيارته للمتحف المصرى



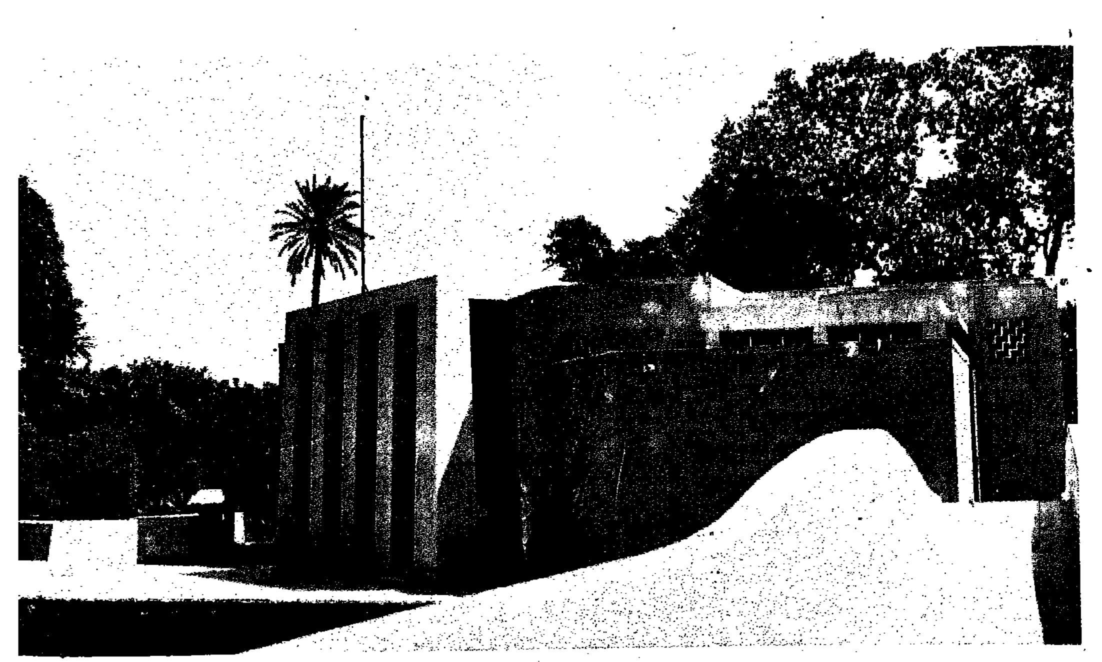


المعهد العالى للسينما

طلبة وطالبات معهد الباليه أثناء التدريب

مع د . محمد مندور فى افتتاح المعهد العالى للفنون المسرحية





متحف الفنان محمود مختار بالقاهرة

متحف محمد محمود خليل وحرمه







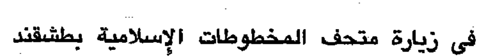
في استقبال الرئيس عبد الناصر عند افتتاح متحف دار ابن لقمان التاريخى بالمنصورة (مايو ١٩٦٠)



وضع حجر الأساس لمتحف بورسعيد (يوليه ١٩٦٢)

مع وزير الثقافة السوفييتى بموسكو



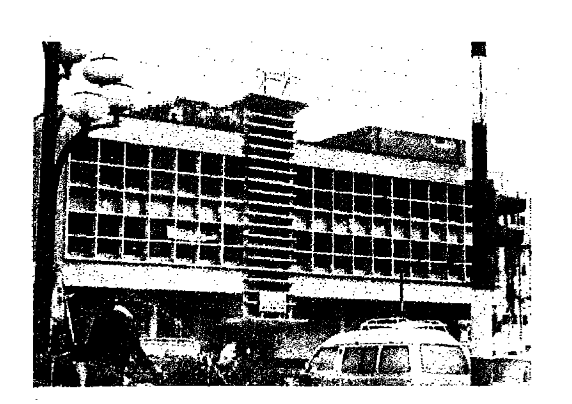


فى زيارة متحف المخطوطات الإسلامية بطشقند

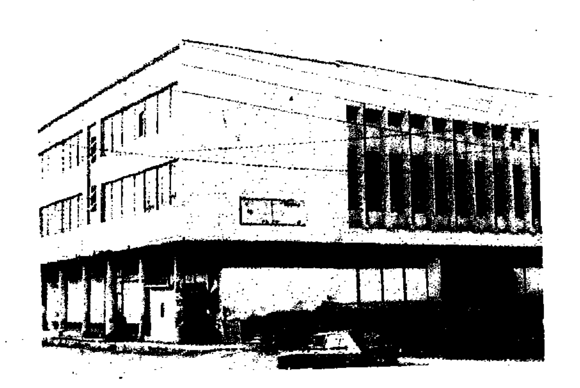




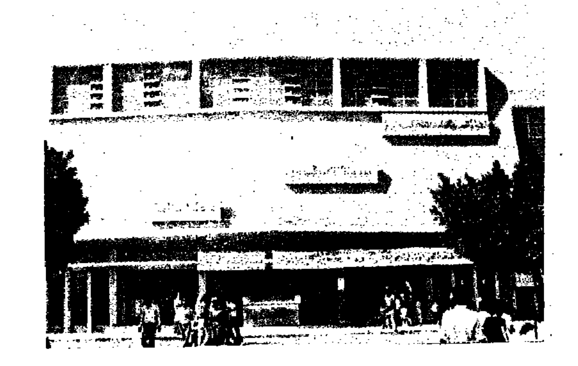
بيت ثقافة الماى



قصر الثقافة ببنها



قصر الثقافة بشبين الكوم



قصر الثقافة بالسويس



فى زيارة المعزة بسوريا مع السيد يوسف شقرة أمين عام وزارة الثقافة السورية



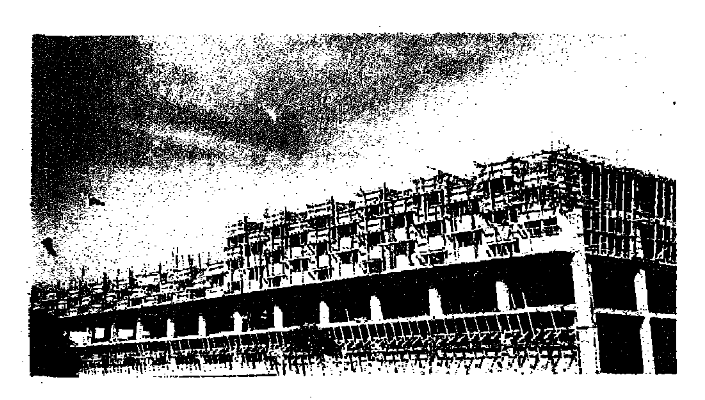
حوار مع السيدة أم كلثوم



الأستاذ فكرى أباظة يلقى كلمته

جمهور المشاركين فى المؤتمر الثقافى بدار الأوبرا ١٩٥٩





مبنى دار الكتب الجديد يرتفع ....



إحدى رقصات الفرقة القومية للفنون الشعبية



إحدى رقصات الفرقة القومية للفنون الشعبية

تصميم زى من أزياء الفرقة القومية للفنون الشعبية للفنان عبدالغنى أبو العينين .





الأستاذ طه حسين يلقى كلمته



الفنان يوسف وهبى يلقى كلمته

حوار يجمع بين د . السعيد مصطفى السعيد ود . أحمد بدوى ، والمهندس الموسيقار أبو بكر خيرت والفنان يوسف وهبى ود . أحمد حسين . وكاتب هذه السطور اثناء المؤتمر العام بدار الأوبرا

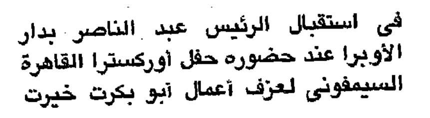


د . طه حسين ود . السعيد مصطفى السعيد والسيدة أم كلثوم والاستاذ فكرى اباظة في مؤتمر الثقافة العام المنعقد بدار الأوبرا في مارس ١٩٥٩



مع الفنان الموسيقى آرام خاتشاتوريان بمكتبى ، لتنظيم الحفل الذى قاد فيه أوركسترا القاهرة السيمفونى بالقاهرة .





فى استقبال الرئيس عبد الناصر بدار الأوبرا عند حضوره حفل أوركسترا القاهرة السيمفونى لعزف أعمال أبو بكرت خيرت



Глубокоуважаемому г. министру
Сарвату Окаша с чувством
большой симпатии и благодарност
Арам Хачатурян
8 мая 1961 г. Ка

صورة تذكارية مهداة من الموسيقار آرام خاتشاتوريان لكاتب هذه السطور .



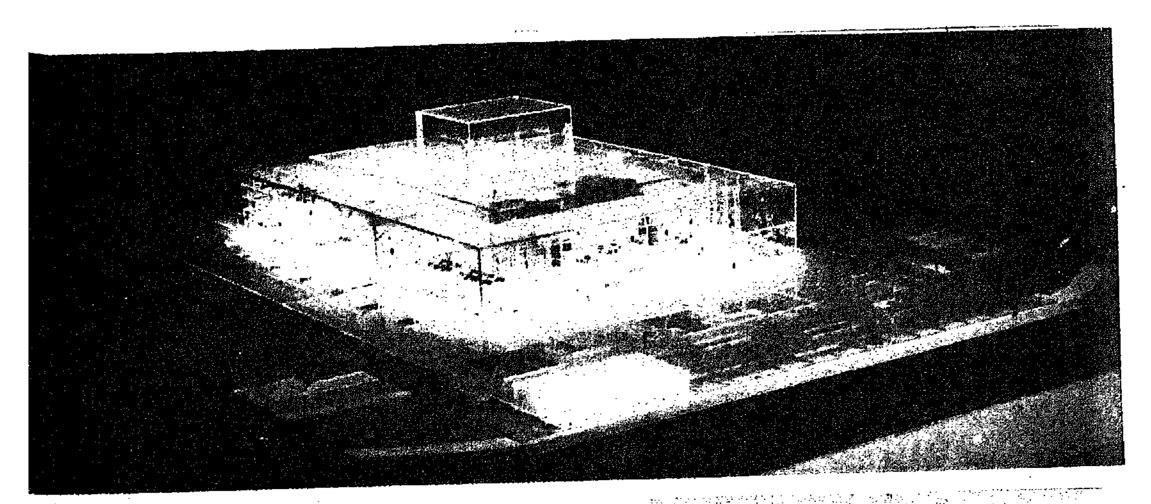
مشهد من أوبريت الأرملة الطروب



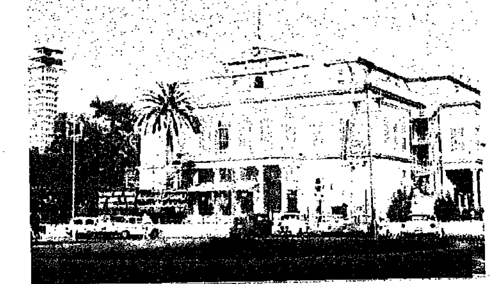
مع أعضاء فريق أوبريت الأرملة الطروب لتهنئتهم على نجـاح عرضهـم



حوار مع السيدة أم كلثوم برفقة الأستاذ يوسف السباعى أثناء الاستراحة ليلة افتتاح أوبريت الأرملة الطروب بدار الأوبرا .



ماكيت دار الأوبرا الجديدة

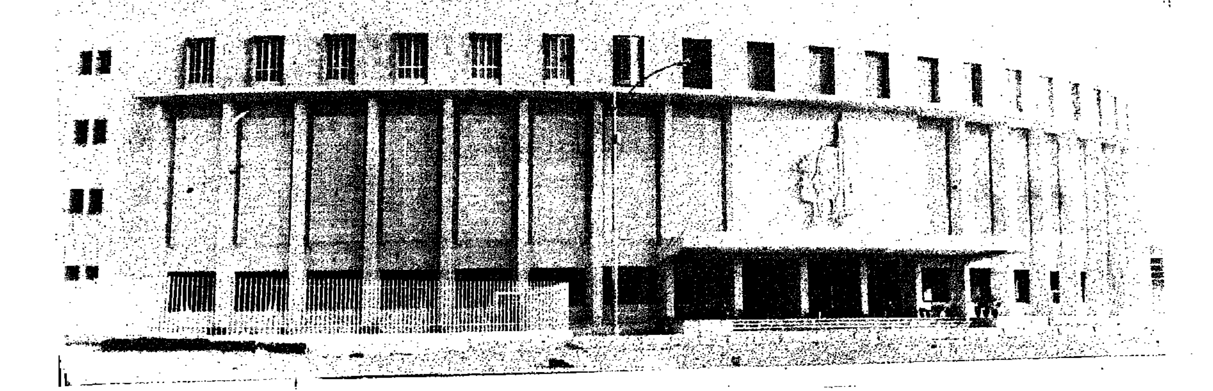


دار الأوبرا القديمة بالقاهرة



مع المهندس أبو بكر خيرت لتفقد
اعمال بناء مبنى الكونسيرفاتوار

قاعة سيد درويش للاستماع الموسيقى





فى صحبة الرئيس عبد الناصر وضيفه الرئيس تيتو وقرينته فى عرض الصوت والضوء بالهرم

فى استقبال الرئيس عبد الناصر والأمير قسطنطين ليلة افتتاح حفل الصوت والضوء بالهرم يوم ١٣ إبريل عام ١٩٦٠

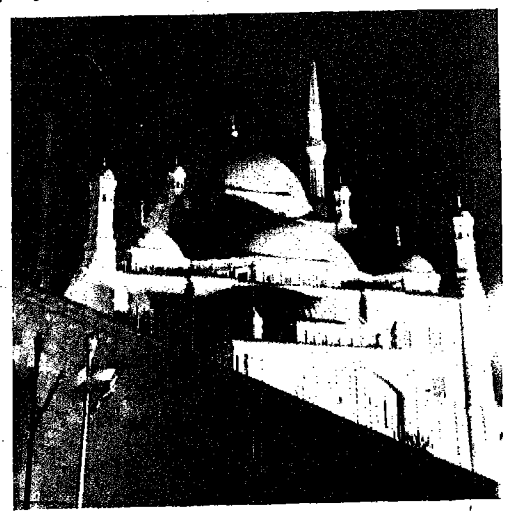




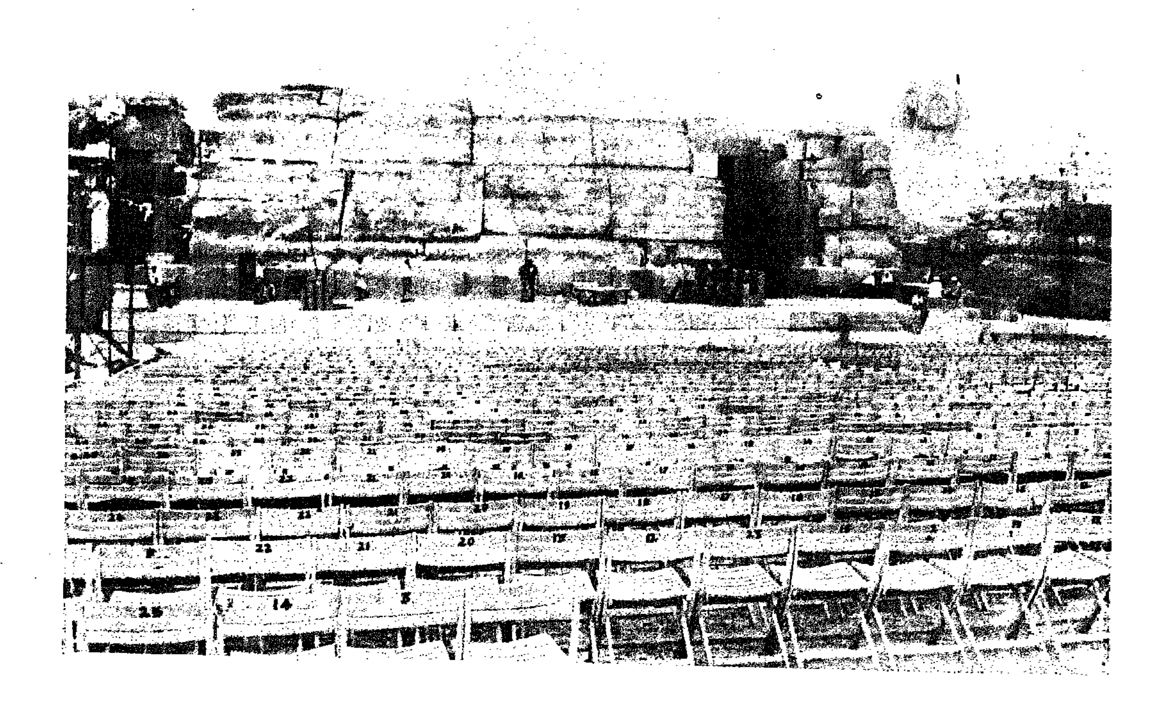
« وذهبت أسمائى جميعا ، وبقى لى اسم واحد .. اسم بدّلته السنون والأيام .. وبهذا الاسم أربض هنا . على حافة هذه الصحراء الحافلة بالأمجاد أحرس هؤلاء .. الخالدين . [الصوت والضوء بالهرم]



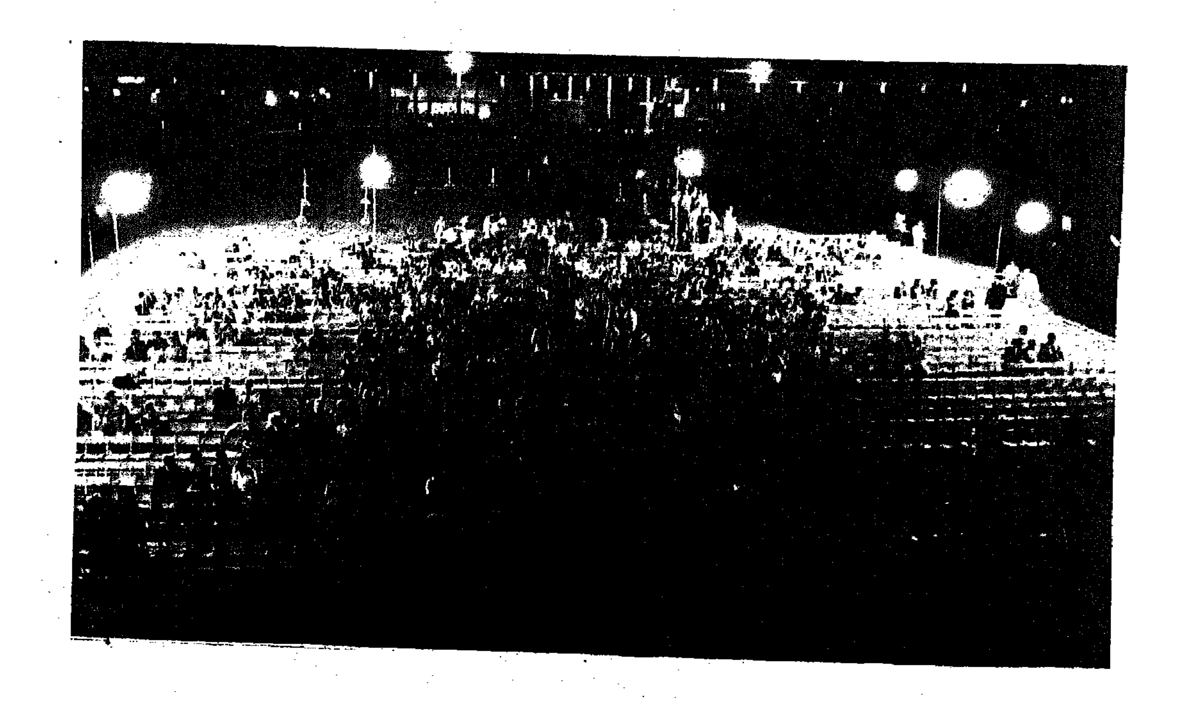
« لم يبق إلّا ديار الآلهة ، أما ديار سائر البشر فقد تبدّدت كالأوهام » [الصوت والضوء بالكرنك]

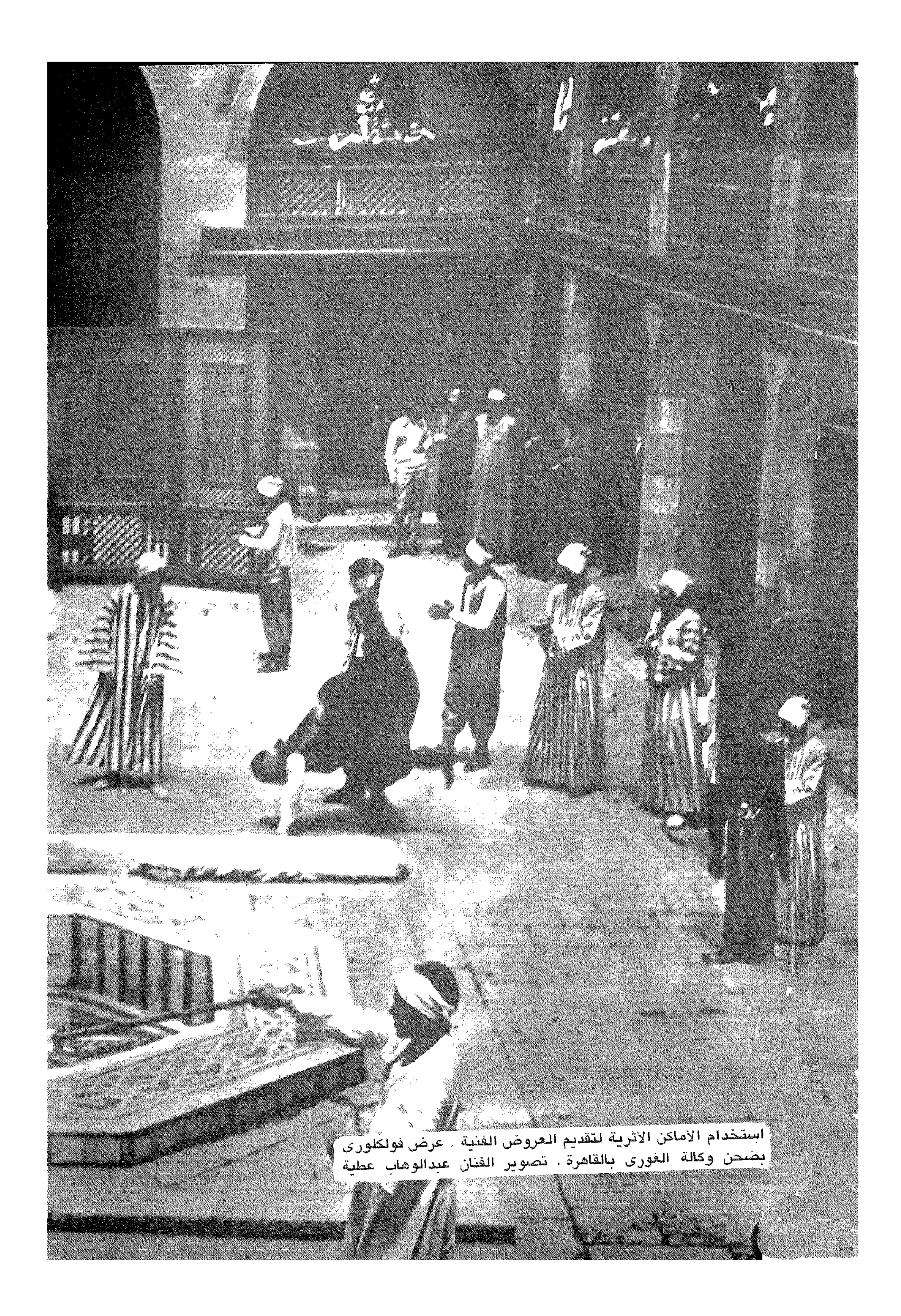


« من عليائك أيتها القلعة أطلّى على القاهرة الخالدة » تتألق فى الأفق . تضىء طريق الحقيقة توج قبابها نور الإيمان .. [الصوت والضوء بقلعة صلاح الدين] .

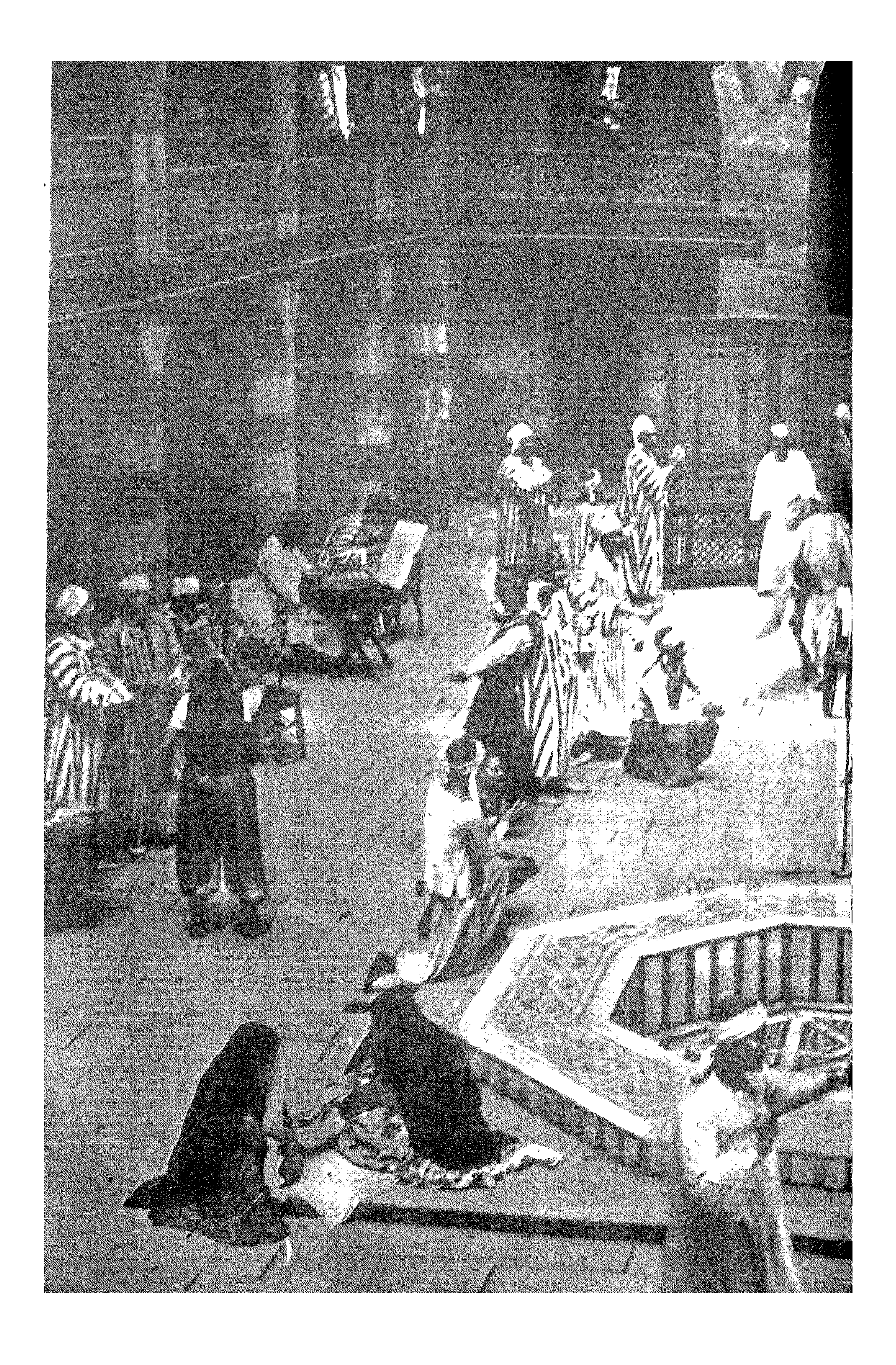


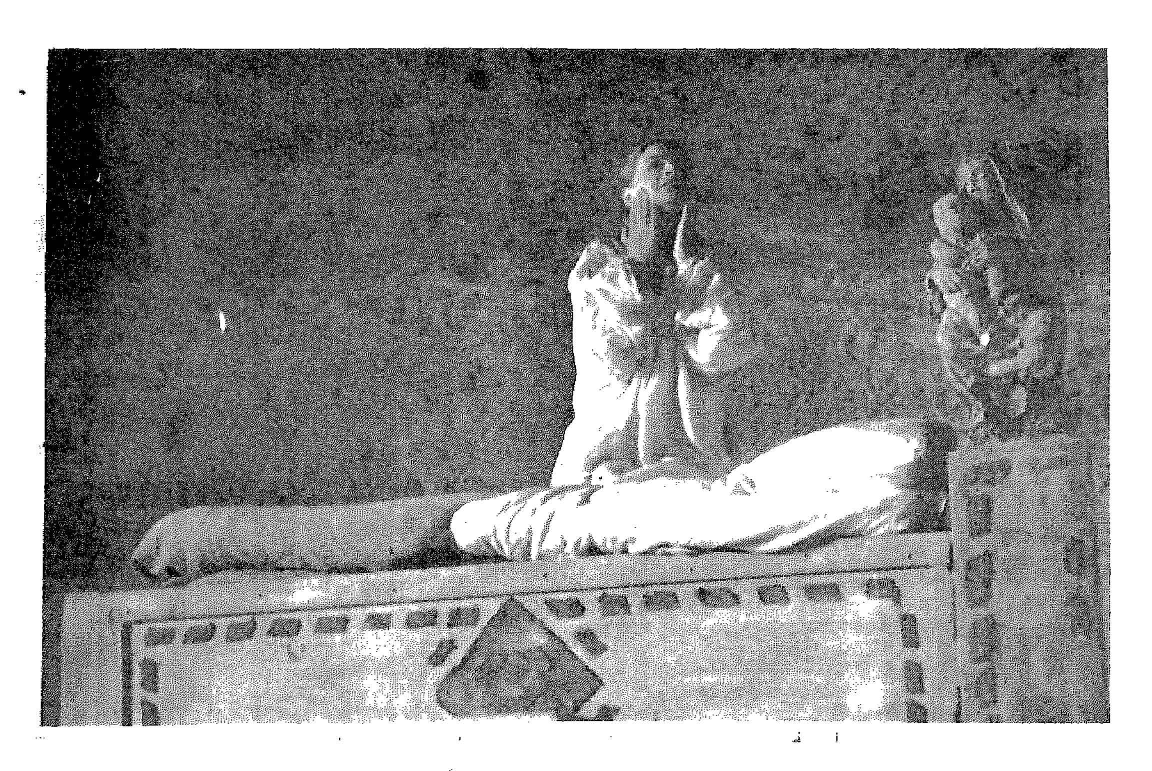
استخدام الأماكن الأثرية لتقديم العروض الفنية والمسرحية والغنائية : مسرح خوفو المجاور لأبى الهول .



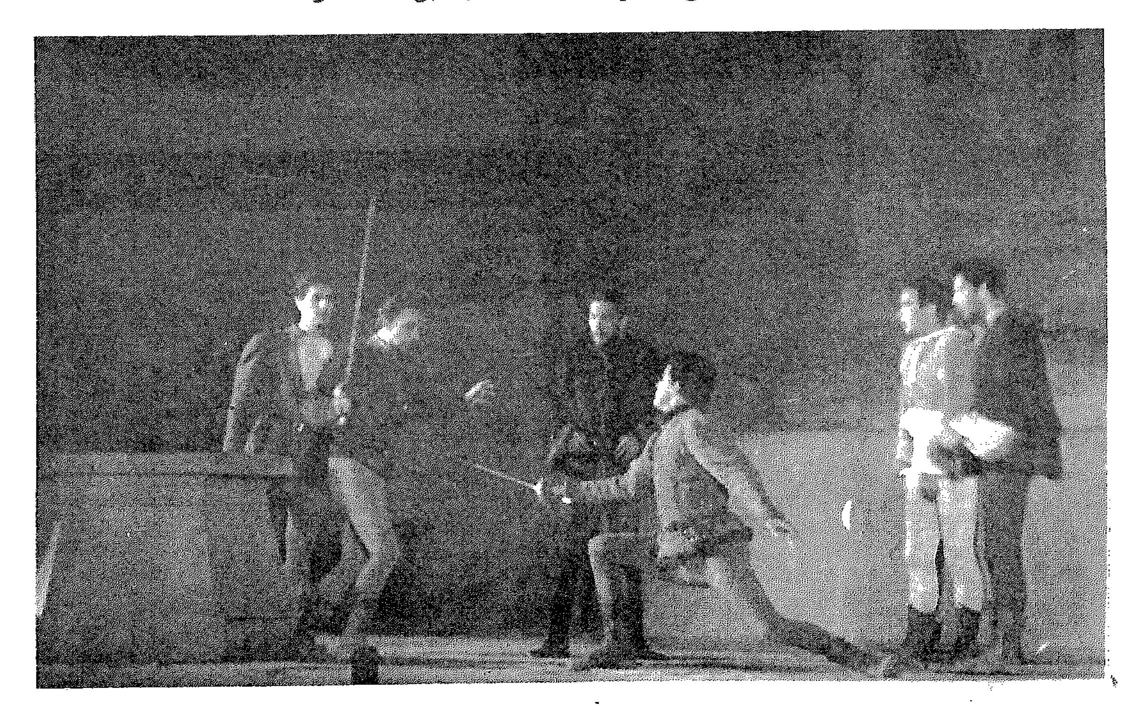


استخدام الأماكن الأثرية لتقديم العروض الفنية . عرض فولكلورى بصحن وكالة الغورى بالقاهرة . تصوير الفنان عبدالوهاب عطية



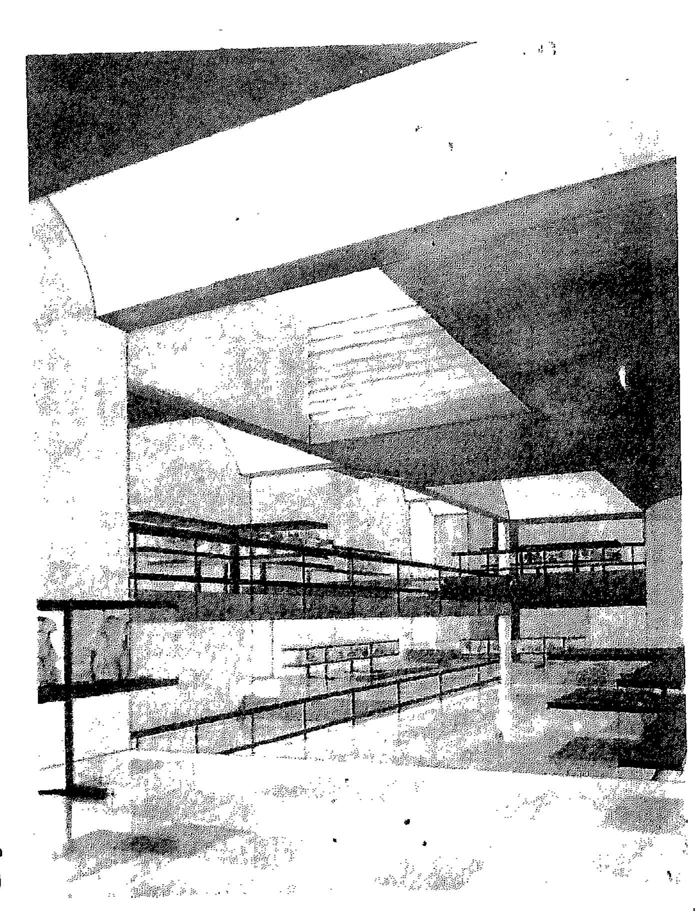


استخدام الأماكن الأثرية لتقديم العروض المسرحية . فرقة أولدڤيك الإنجليزية تقدم مسرحية روميو وچوليت لشكسبير على مسرح خوفو المجاور لأبي الهول في أغسطس ١٩٦١

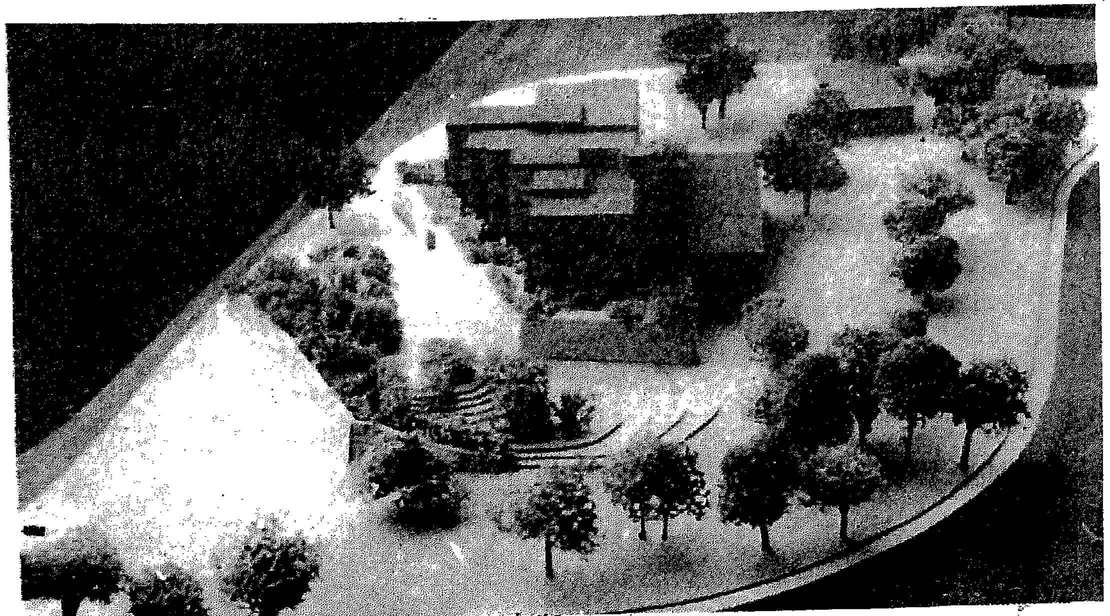


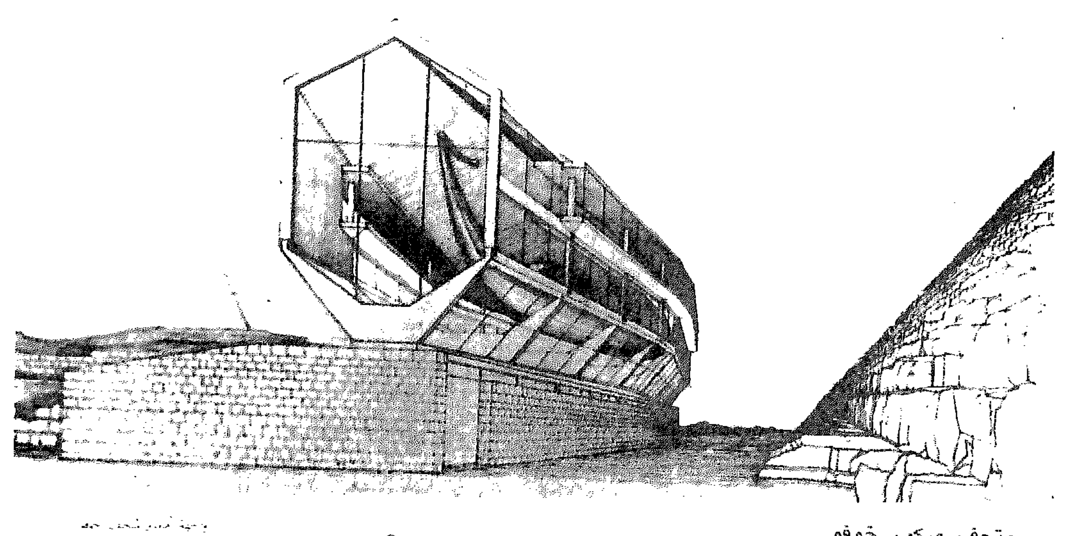


ماكيت تصميم المتحف اليونانى الرومانى
الجديد بالإسكندرية من الداخل



ماكيت تصميم المتحف اليونانى الرومانى
الجديد بالإسكندرية من الخارج

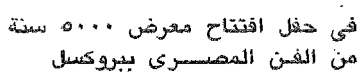




متحف مركب خوفو

Front façade of the boat museum.

تصميم متحف مركب خوفو



في حفل افتتاح معرض ٥٠٠٠ سنة
من الفن المصـــرى ببروكسل





مع الملكة الوالدة إليزابيث ف
حفل العشاء الذى أقامه السف
صالح خليل بمقر السفا
المصرية ببروكسل بمناسب
معرض ٥٠٠٠ سنة من ال
المصرى .



مع الرئيس جمال عبد الناصر والسفير
الامريكى والمستشار الثقافى الأمريكى



فى استقبال الرئيس عبد الناصر
وضيفه الملك محمد الخامس
سلطان المغرب بدار الأوبرا



صورة تذكارية مهداة من الرئيس
جوزيف بروز تيتو

جاء على نمط مصوّر إذ يقدم الصورة و يتناول أجزاءها جزءا جزءا معرّفا باسم كل جزء . وقد نقل هذا المعجم عن الألمانية مُستأنساً فى هذا النقل بالترجمات التى جاءت عنه إلى لغات أور باكلها ، وأضيف مايمسّ بيئتنا ، وعُمل له فهرس فى خاتمته بما ورد فيه من مسمّيات بالعر بية وأمامها نظائرها باللغات المختلفة . وهذا الفهرس لاشك كان سيعين المترجمين كل الإعانة ويهديهم إلى المسمّيات العر بية .

ولقد كنا حر يصين كل الحرص على أن تخرج هذه المعاجم فى صورة مشرّفة وعلى رأسها « **دائرة المعارف الإسلامية** » التى كانت ستكون ذخرا للأمة العر بية والتى كانت ستُسجّل فيها تاريخها بأقلامها الصادقة غير مشوبة بنقص أوغلوّ . ومع مطلع عام ١٩٦٢ كان قد تم جمع الجزازات التى تُهيىء لإخراج هذه الموسوعة جمعا شبه كامل ، ولم يكن يبقى بعد هذا غير اختيار الكاتبين ليكتبوا المواد ، ولقد تركت هذه الأمانة للزمن ولمن يجىء بعدى يتولّونها .

كذلك اتفقت الوزارة مع بعض دور النشر الأجنبية على إصدار مطبوعات عر بية أور بية تجسّد الشخصية الثقافية لمصر ظهر منها كتاب « **الفن المصرى المعاصر** » باللغات الثلاث العر بية والإنجليز ية والفرنسية مع مجموعة من أهم لوحات الفنانين المصر يين الملونة بالاشتراك مع إحدى دور النشر اليوغوسلافية .

وأصدرت كتيّبا نفذ بمجرد ظهوره يحوى لوحات الفنان « **بهزاد** » الواردة فى مخطوطة « **بستان سعدى** » المحفوظة بدار الكتب المصر ية مع شرح باللغات العر بية والفرنسية والإنجليز ية والألمانية ، وذلك بالاشتراك مع إحدى دور النشر بألمانيا الغر بية . و بدأت الوزارة عام ١٩٦١ إعداد كتاب « **القاهرة فى ألف عام** » بالاشتراك مع دار نشر بألمانيا الشرقية باللغات العر بية والفرنسية والإنجليز ية والألمانية والروسية .

وكانت وزارة الثقافة قد أصدرت فى عهد الأستاذ فتحى رضوان مجلتين شهر يتين : الأولى مجلة « **المجلة** » فى يناير ١٩٥٧ وتولى ر ياسة تحر يرها بالتعاقب الأساتذة د . محمد عوض محمد ثم د . حسين فوزى ، وكان أمرا طبيعيا أن تستمر المجلة فى الظهور خلال وزارتى ، وتولى ر ياسة تحر يرها د . على الراعى ثم الأستاذ

يحيى حقى . وقد جاءت هذه المجلة لتسدّ فراغا فى الحقل الثقافى ، وكانت مخصصة للأبحاث والإنتاج الفنى والأدبى الرفيع فاضطرت إلى أن تلبىّ كل الحاجات لخلو الميدان من مجلة أدبية أوفنية . وكان لهذا التنوع أثره فى عدم تخصصها إلى أن جاءت المجلات الأخرى ذات الميدان المتخصص . وكان مستوى المجلة رفيعا ، ولا شك أنها أدّت دورا هاما خلال تلك الحقبة فظلّت أكثر من عشرة أعوام تلبّى حاجة ثقافية لاغنى عنها وتربط بين الأقلام العربية فى مصر وشقيقاتها العربيات ليتحدث الكتّاب من فوق منبر مشترك . وأما المجلة الثانية فهى « **نهضة أفريقيا** » التى استمرت رغم قصر عمرها تسدّ حاجة متخصصة واضحة وهى ربط الشعوب الأفريقية المتحدثة بالعربية حول موضوعات تهمّهم . ثم كان التفكير فى إصدار مجلة « **الفكر المعاصر** » لتستوعب تيارات الفكر العالمى المعاصر شرقا وغربا .

* * *

وكانت النظرة الأولى لدار الكتب القائمة بميدان باب الخلق بالقاهرة كافية لتصوّر عجزها عن الوفاء برسالتها الضخمة بل وبما تملكه من إمكانيات هائلة معطلة بالإضافة إلى قدم المبنى الذى لم يعد يحتمل مقتنياته . والواقع أن هذا المبنى كان قد أقيم عام ١٩٠٤ ليضمّ خمسة وأربعين ألف مجلد كانت شبه مخزونة فى سراى مصطفى فاضل بشارع درب الجماميز الذى كان فى الأصل مقرا « لنظارة المعارف » ، وخصّص على باشا مبارك ناظر المعارف الطابق الأسفل من المبنى لإنشاء « الكتبخانة الخديوية » عام ١٨٧٠ ، وجمع فيه آنذاك كل ما أمكن جمعه من الكتب العربية المطبوعة والمخطوطة والتى كانت متناثرة فى مكتبات المساجد والمدارس والأضرحة ، ثم لم تلبث أن ازدحمت شيئا فشيئا وتركت لها نظارة المعارف الطابق الأعلى ، غير أنها ضاقت بتزايد الكتب وأصبح من الضرورى إقامة مبنى باب الخلق الذى يتيح حسن الاستفادة من القدر الكبير من المطبوعات التى باتت تحويه .

ودار الزمن دورته ، ولم يأت عام ١٩٣٠ حتى امتلأت مخازن مبنى دار الكتب بباب الخلق ولم يعدبها مكان للمطبوعات الجديدة المتوافدة يوما بعد يوم ، كما لم تعد قاعاتها تنفسح للأعداد المتزايدة من المتردّدين عليها . ولم يكن هناك حل ميسور غير البحث عن مخازن خارج الدار تنتقل إليها المطبوعات القديمة لتُفسح مجالا

للمطبوعات الجديدة ، وهكذا نُقل مائة وخمسون ألف مجلد إلى أحد مخازن القلعة بعد جلاء القوات البريطانية عنه عام ١٩٤٨ لتتبعها آلاف أخرى كل عام . ومع حلول عام ١٩٥٩ ارتفعت مقتنيات دار الكتب بمبنى باب الخلق إلى خمسمائة ألف مجلّد مكدّسة بطريقة لايسهل معها تنظيفها ولا صيانتها ولا الانتفاع منها ، وأصبح التلف يتربّص بأكثر الكتب قيمة وندرة . كما ارتفع عدد المتردّدين إلى مائتين وخمسين ألف مستعير وباحث فى العام تضيق بهم القاعات والردهات وغرف الموظفين الذين أقيمت لهم فى الممرّات قواطع خشبية وزجاجية ينحشرون فيها مع مكاتب أعمالهم . وكان أول الحلول التى قدمتها وزارة التربية والتعليم ووزارة الإرشاد القومى فى مستهل سنى الثورة إنشاء عشرة فروع لدار الكتب فى أحياء القاهرة تتيح خدمة مكتبية يسيرة ومريحة وتُخفّف عن الدار بعضا من عبء المطبوعات وعشّاق المطالعة ، إلى جانب إقامة مكتبة خاصة للفن بالقرب من ميدان التحرير تجمع إلى كتب الفنون المتخصّصة مكتبة أسطوانات موسيقية من التراث القومى والعالمى .

كان هذا هو الموقف حين اضطلعتُ بمسئولية الوزارة ، ولم أجد مفرا من النظر إلى المستقبل القريب فنشأت فكرة إقامة مبنى جديد لدار الكتب على أحدث طراز يوفّر الخدمة المكتبية السليمة ويحقّق أفضل الظروف للمحافظة على التراث الفكرى الذى تضمّه آلاف المطبوعات والمخطوطات النادرة . وقد استعنت بمنظمة اليونسكو فى اختيار البيوت الهندسية ذات المكانة العالمية والخبرة الطويلة فى مجال تصميم مبانى دور الكتب ، فوقع الاختيار من بين من رشّحتهم المنظمة على مجموعة من المهندسين الإسبان هم پدرو لويز وچيليرمو چيرالدز وزاڤييه سوبياس الذين شيّدوا مكتبة كلية حقوق برشلونه ، وأشركنا معهم المهندسين المصريين أنطون نحاس الأستاذ بكلية هندسة جامعة القاهرة وأحمد شرمى كبير مهندسى شركة التعمير والمساكن الشعبية . وقد اختاروا لإقامة الدار الجديدة رقعة من الأرض الفضاء على كورنيش النيل برملة بولاق المواجهة للزمالك تبلغ مساحتها خمسة عشر ألف متر مربع .

وجاء تصميم المبنى محققا للمطالب والمواصفات التى وضعتها اللجان المتخصّصة ، غير أنى حين حملت الرسوم التفصيلية للتصميم لأعرضها على الرئيس

جمال عبدالناصر اجتذب انتباهه وقوع غرف الإدارة على النيل وتمنّى لوكان ممكنا أن تكون قاعات المطالعة هى المطلّة على النيل . وقد عُدّل التصميم على ضوء لفتة عبدالناصر الذى وافق لتوّه بتخصيص مليون جنيه لإقامة هذا المبنى فى الخطة الخمسية الأولى ، فأرسيتُ حجر الأساس للمبنى فى ٢٣ يوليه ١٩٦١.غير أن العقبات مالبثت أن تكاثفت منذ مستهل عام ١٩٦٣ حتى خريف ١٩٦٦ لتبطىء إجراءات نزع الملكية وتُرخى العنان لعمليات الهدم والحفر. بل حتى بعد أن كان عطاء إقامة المبنى قد رسا منذ أغسطس ١٩٦٢ على شركة رولان للمقاولات فإن الجهاز الإدارى بالوزارة لم يتحرك للتعاقد مع الشركة إلا فى شهر فبراير من العام التالى ، و يبدو أن الشركة قد فطنت إلى فتور الحماسة لهذا المشروع فلم تتردّد فى إنفاق المبالغ التى كانت قد تسلّمتها لحساب مبنى دار الكتب على مشروع آخر لمؤسسة السياحة ! التى كانت ملحقة وقتذاك بوزارة الثقافة والإعلام ، على أن تسدّده أعمالا اتسمت بالبطء والتراخى على سنوات .

وظل هذا الحال حتى عدت إلى الوزارة فى خريف ١٩٦٦ فجهدتُ جهدى فى أن أذلّل العقبات حتى دبّت الحركة فى البناء وارتفعت طوابق القسم الرئيسى فى نوفمبر ١٩٧٠ إلى الطابق الرابع ، وقسم المخازن إلى السادس ، وقسم المبانى إلى طابقين . وكانت الاعتمادات المدرجة لهذا المبنى حتى ذلك التاريخ ١,٣٧٧٥٠٠ جنيه أنفق منها ١,٠٣٣٤٩٣ جنيه . وكان نقل الكتب والمخطوطات من مبنى باب الخلق إلى الدار الجديدة قد بدأ بالفعل منذ عام ١٩٦٩ ، وأذكر أنى عقدت فى قاعة الاجتماعات بالمبنى دورة المجلس الأعلى للفنون والآداب الذى كنت أتشرف برياسته فى ربيع عام ١٩٧٠ فى الجلسة التى فاز فيها المرحوم الدكتور عبدالرازق السنهورى بجائزة الدولة التقديرية عن العلوم الاجتماعية .



والمعروف أن دور الكتب فى العالم كله لها استقلالها الذاتى ولها مجالسها العليا التى تتولى شئونها ، أما إذا انطوت تحت جهات إدارية وانتظمت فى سلك غير سلكها المستقل أصبحت تابعة ، وهذه التبعية تنال كثيرا من شئونها الثقافية المستقلة . وهذا ماحدث فعلا لدار الكتب المصرية بعد أن فقدت استقلالها الذاتى عام ١٩٧١ وأصبحت تتبع إداريا « الهيئة المصرية العامة للكتاب » وكأنها قسم من أقسام هذه الهيئة . وإذا ما رجعنا إلى الوراء قليلا منذ أن أنشئت دار الكتب وتتبّعنا تاريخها على مرّ الأيام والأعوام وجدنا مايصدق قولى ، فلقد كان لها مديرون مختارون من كبار رجال العالم الغربى ثقافة وعلما وفنا ، وكان إلى جانبهم مجلس أعلى يُختار هو الآخر من كبار رجال العلم والفن والأدب والقانون فى مصر حفظاً للدار من أن تطغى عليها الروح الأجنبية . وما إن أحسّت مصر أن فيها كفايات علمية تضارع تلك الكفايات العلمية الأجنبية حتى رشحت لإدارة هذا الدار مديرين مختارين من المصريين ، فكان منهم القانونى الشهير المرحوم عبد الحميد أبوهيف ومن بعده المرحوم أحمد باشا لطفى السيد ، ثم تتالى غيرهم من رجال مرموقين .

والآن وبعد أن فقدت دار الكتب استقلالها الذاتى ، وبعد أن أصبحت تابعة لجهاز إدارى أصبحت الحال غير الحال ، ولم تعد دار الكتب اليوم هى دار الكتب بالأمس بعد هذا الضمّ الخاطىء الذى حوّلها من جهاز ثقافى له عراقته فى مصر إلى جهاز شبه إدارى تُملى عليه الناحية الإدارية أكثر مما تُملى عليه الناحية الثقافية . ففى الناحية الثقافية كانت دار الكتب مثلا تتابع كل مايُنْشر فى مصر وخارج مصر ولايفوتها اقتناء مايخرج من هذا النوع ومن ذلك إلى مكتبتها . أما اليوم فما أظن أن شيئا من هذا يحدث اللهم إلا مايُضمّ إلى دار الكتب جبرا فى ظل قانون المطبوعات ، أما عما يُطبع فى الخارج فما أظن دار الكتب تملك فرض ذلك ، وكذا فليس ثمة من قانون ملزم لدور النشر فى الخارج من أن تهدى دار الكتب ماتخرجه ، ولهذا فات دار الكتب كل ما يُطبع فى الخارج ، هذا إلى شىء مما يُطبع فى الداخل . وغدت دار الكتب لا تعنى الباحث المدقّق فى قليل أو كثير

إذ لم تعد دار المراجع العامة والخاصة التى كان يهرع إليها كل قارىء دارس ففقدت قيمتها التى أنشئت من أجلها . هذا إلى المخطوطات العربية الموزّعة فى الخارج فلم يعد نشاط تصوير تلك المخطوطات كما كان بالأمس - على الرغم من الوثبات الواسعة فى تقنية تصوير المخطوطات - وأصبح ما يصوّر منها قلة قليلة لا تعدّ . هذا إلى ما كنا نطمع فيه بعد إعداد دار للكتب جديدة خاصة على طراز حديث ، فنجدها أكثر استعدادا وأكثر نظافة وأكثر راحة ، فإذا نحن لانجد شيئا من هذا كله ، لأن الهيئة المصرية العامة للكتاب مشغولة بما رأت نفسها متخصّصة له وهو الطباعة والنشر ، وأهملت جانبا التأثيث والتدعيم لهذه المدرسة الثقافية العتيدة وهى دار الكتب ، فهل من رجعة نرى فيها دارا للكتب لها استقلالها الذاتى أسوة بما هو متبع فى بلدان العالم المتحضر أجمع شرقا وغربا بلا استثناء ؟ وهل من عودة إلى حشد نفر ممن لهم صلة بالكتاب وعلم المكتبات يكونون هم المسئولون فى دار الكتب ؟ وهل من عودة الى تهيئة نفر فى مخازن دار الكتب يكونون معدّين لهذه المهمة الإعداد التام الكامل ؟ اللهم إنا نرجو هذا كله .

ـ ٢ ـ

هذا عن الكتاب ، أما عن المسرح والموسيقى فقد اجتاز مجتمعنا فترة ركود طويل امتد قرونا قبل النهضة الحديثة فى مطالع هذا القرن غشّى معه كثيرا من ألوان التعبير الفنى بالجمود والتكرار والتقليد فسادتها الغلظة والضحالة ، وجنح بها إلى تملّق الغرائز وتنمية الشعور بالأنانية الفردية مما دفع بالمجتمع إلى النظر إلى الفنون على أنها أدوات للترفيه والتسلية ، وإلى أهل الفن بكثير من الريبة أو الازدراء . والشواهد على ذلك باقية ولا تزال رواسبها قائمة فى الحكم على ممثلى الفن القديم بأنهم ــ كما كانوا يُلقّبون ــ « مشخّصاتية » ، وعلى المغنين والراقصات بأنهم غوازى وعوالم ، وكذلك الشعراء والأدباء لم يسلموا من هذه النظرة التى فيها انتقاص لقدرهم . ومع النهضة الحديثة أخذت هذه النظرة تتغيّر

شيئا فشيئا ، فإذا نحن نشاهد حشدا من الفنانين فيهم من بلغ الغاية فى فنه وأصبح موضع التقدير من الجميع ، وإذا نحن نرى مكان « الغزية » التى كانت تستثير الغرائز برقصات البطن ، راقصة الباليه التى تقدم الرقص الشاعرى والتعبير الحالم ، ومكان الغناء الفردى الممل الرتيب الغناء الأوبرالى وإنشاء الكورال الجماعى ، ومكان « المشخصاتى » الذى كان مثار الهزؤ والسخرية الممثل الدرامى المؤمن برسالته الفنية الرفيعة ، ومكان المدّاح الشاعر المبدع والأديب الناصع العبارة . فإذا نحن أنعمنا النظر فى هذا التدرج الفنى من أدنى إلى أعلى وجدنا أن الواجب الأول لوزارة الثقافة هو أن تحتضن من الفنون أعلاها وأسماها لا أحطّها وأدناها .
وقد كانت هذه النظرة التاريخية إلى جانب الشعور بالمسئولية نحو المستقبل ونحو قيام المجتمع العصرى والدولة العصرية هما الإطار الذى رُسمت داخله سياسة وزارة الثقافة فى مجالى المسرح والموسيقى . وفى ضوء هذا الإطار أدركنا أن بعض الفنون الرفيعة قد نشأت فى تربة أجنبية كالباليه والأوبرا والموسيقى السيمفونية والفن الدرامى ، وأن غُربة النشأة تقيم نوعا من العقبات أمام تذوّق هذه الفنون بالرغم من أنها فنون إنسانية عالمية . وهو ما دفعنا إلى إعادة النظر فيما نشأ فى التربة الوطنية نفسها وتنقيته من الشوائب ورواسب عصور التخلّف للارتفاع بمستواه ارتفاعا يجعل الانتقال من تذوّقه إلى تذوّق الفنون العالمية ميسورا سهلا وتهيئة المناخ لإيجاد فن قومى أو فن عالمى له طابع قومى .

كانت نقطة البدء هى إنشاء **مؤسسة عامة لفنون المسرح والموسيقى** لها رئيس ومجلس إدارة يدير شئونها ، راعيت أن يضم من الكفاءات أعلاها لا أفرق بين يمينى و يسارى . وكان الهدف المحدّد لها هو إتاحة الظروف لأكبر انطلاق ممكن لطاقات الإبداع المسرحى والموسيقى والغنائى القومى ، ولإدخال صور التعبير التى تفوّق علينا فيها غيرنا كالرقص الجماعى والباليه والغناء الأوبرالى والموسيقى السيمفونية وفن العرائس . وكانت النظرة فى ذلك أن كل شكل جديد من أشكال التعبير يُتاح للثقافة القومية يحفزها على مزيد من الإبداع والإفصاح عن نفسها .

والتفتت المؤسسة أول ما التفتت إلى المسرح القومى ــ وكان قد نال فى عهد الأستاذ فتحى رضوان عناية مستفيضة ــ فدعمته بعناصر جديدة ووضعت له نظما

تطمئن أعضاءه على أرزاقهم، ورفعت مرتبات العاملين ، كما زوّدته بنصوص قيمة ومدروسة من الأدب المصرى والعالمى التى تكوّن له رصيدا « ريبرتوارا » مناسبا ، وأتاحت الفرصة للكتّاب بعرض مؤلفاتهم المسرحية ومكافآتهم عنها مكافأة مجزية ، فلمع عدد كبير من المؤلفين المسرحيين وأقبلت الطلائع الشابة لاقتحام هذا الميدان وامتاع الجماهير بنصوص قوية محكمة تعالج العديد من مشكلاتنا الاجتماعية والقومية . ومن بين المسرحيات التى قدمت فى الفترة من سنة ١٩٥٩ إلى نهاية ١٩٦٢ : « زقاق المدق » لنجيب محفوظ ، و« الناس اللى فوق » لنعمان عاشور ، و« الفراشة » لرشاد رشدى ، و« جميلة » لعبدالرحمن الشرقاوى ، و« القضية » للطفى الخولى ، و« السلطان الحائر » لتوفيق الحكيم ، و« وملك القطن » ليوسف إدريس ، و« فى بيتنا رجل » لإحسان عبدالقدوس ، و« أفراح الأنجال » لأحمد لطفى ، و« المحروسة لسعد الدين وهبة ، و« أنتجونا » لسوفوكليس و« كانديدا » لبرنارد شو ، و« بيوت الأرامل » لبرناردشو .

وعرف فن العرائس دعما لإحياء فن « القرة قوز » الشعبى بعد انكماشه كى يحظى بإقبال الصغار والكبار على السواء ، فاستقدمت وزارة الثقافة قبل أن أتولى مسئوليتها خبيرتين رومانيتين وصلتا فى شهر سبتمبر ١٩٥٨ ، وبدأتا تدريب الأفراد المختارين لإنشاء فرقة « **مسرح العرائس** » التى ما لبثت أن تزوّدت بعدد من الفنانين التشكيليين المصريين وبنصوص عربية كُلِّف بها فريق من الأدباء إلى أن ظهر أول عرض لمسرح القاهرة للعرائس فى التاسع من شهر مارس ١٩٥٩ ، كما شهده الرئيس عبدالناصر بصحبة ضيفه الملك محمد الخامس فى الثالث من شهر مارس ١٩٦٠ بمسرحه المؤقت فى أرض المعارض . وعلى هدى هذا المنطق واصل مسرح العرائس الاستفادة من الخبرة العالمية للاتحاد السوفييتى وتشيكوسلوفاكيا والصين ، كما استفاد من الزيارات المتبادلة مع أشهر المسارح المتخصصة فى أنحاء العالم حتى فاز فى عام ١٩٦٠ بالجائزة الثانية فى مهرجان بوخارست العالمى لفن العرائس . وبدأت الوزارة فى عام ١٩٦١ فى تشييد مبنى خاص لمسرح العرائس بعد إجراء مسابقة لتصميمه بين المهندسين المصريين .

وفى هذه المرحلة أيضا شرعت الوزارة عام ١٩٦٠ فى إنشاء « **الفرقة القومية للفنون الشعبية** » على غرار الفرق القومية فى الدول المتحضرة

لتطوير الأصول الشعبية فى الرقص والموسيقى والأزياء ، واستعانت لانشائها بخبراء من الاتحاد السوفييتى الذى كان فى ذلك الحين أسبق من غيره فى هذا الميدان وعلى رأسهم الفنان إيجور رامازين ، وكان اختيار أعضاء الفرقة من خريجى المعاهد العليا المتخصصة فى التربية البدنية والموسيقى. واستغرق إعداد هذا الفريق وتدريبه تحت إشراف الفنان أحمد سعدالدين مدة طويلة ضمانا لنضجه وحماية له من مواجهة الفشل ، وانتقت الفرقة لوحاتها وموسيقاها بعناية من محيط فنوننا الشعبية الأصيلة خطى ورقصات وعادات وأعرافا وأنغاما وإيقاعا ، وكذا الأزياء التى أبدع الفنان عبدالغنى أبوالعينين تصميمها ، وعرضتها على الجماهير بعد أن استوى لها عودها على مدى سبع سنوات من التدريب الشاق المتصل ، فلاقت منها الإقبال والإعجاب ، وطافت بعروضها فى أنحاء العالم شرقا وغربا ليسجل لها نجاحها رصيدا مرموقا فى خدمة الفن والوطن. وما لبثت محافظات الجمهورية أن أسرعت إلى تكوين فرقها للفنون الشعبية هى الأخرى ، واضطلع البارزون من الفرقة القومية ، وأذكر من بينهم الفنانين الموهوبين حسن خليل وكمال نعيم ومحمد خليل ، بتدريباتها وإعدادها حتى عمت هذه الفرق أنحاء البلاد.

وكم أثير من جدل وقتذاك حول اختيار خبراء أجانب لهذا الفن الشعبى وفى مصر ما يغنى عنهم ، وفات أصحاب هذا الرأى أننا مهما كنا على علم بالفنون الشعبية فخطوُنا فى هذا الميدان كان متأخرا عن خَطْو الدول المتقدمة فيه ، ثم إن الاستعانة بهم كانت استعانة موقوتة إلى حين قصير ، حتى إذا ما لقنّا عنهم ما نحن فى حاجة إليه رُدَّ الأمر إلى أهله من أبناء مصر ، إذ سيكون إليهم بعد أن يلقنوا أصول هذا الفن على أسسه السليمة أن يطوِّروه بأسلوبهم الخاص وبالطابع الذى يتفق ومقتضيات البيئة والمجتمع والتقاليد ، وكان هذا ما وقع ، فمضت الفرقة مصرية لحما ودما إلى اليوم ، وقد كان لنا فى هذا أسوة بما فعله بطرس الأكبر حين عهد إلى مصمّمى رقصات الباليه الفرنسيين بتكوين فرقة الباليه الروسية بمدينة بطرسبرج التى استطاعت بعد انتهاء مهمة الخبراء الأجانب أن تقف على أقدامها مستقلة بفضل حماسة أعضائها فضارعت أعظم فرق رقص الباليه فى العالم.

وكان الدكتور حسين فوزى وكيل وزارة الثقافة الأسبق فى عهد الأستاذ فتحى رضوان قد كتب يقول : « انتهت كل البدايات المبشرة [يقصد إنشاء

مركز الفنون الشعبية] إلى الروتين المعهود عندما فترت الهمم وشحذت فى ناحية أخرى أكثر « دعاية » و« إعلانا » كإنشاء الفرق للرقص الشعبى والطبل والزمر لها ، وكأن المركز العلمى للفولكلور قد انتهى إلى غايته فى تلك العروض الصبيانية الساذجة ، وبدل أن تعنى وزارة الثقافة والإرشاد القومى باستخدام علماء فى الفولكلور ذهبت تلتمس من بلاد الكتلة الشرقية خبراء كوريوجرافيين « لتوليف » رقصات شعبية مصرية ، وتداركت الوزارة الأمر بآخرة عندما استقدمت عالما فى الموسيقى الفولكلورية ، حاولت فرق الرقص الشعبى الاستعانة بخبرته فلم يضنّ عليها بالإرشاد ، ولكنه أفهم القائمين على أمورها بأن هذا الأمر ليس من شأنه ، وعاونه وزير الثقافة بكل نفوذه على جمع نماذج الأغانى الشعبية من كل أقاليم الجمهورية المصرية » .

ولست أدرى لماذا حكم الأستاذ الجليل على هذا الفريق وهو فى فترة تجاربه الأولى هذا الحكم الجائر ، ولماذا استهان بخبراء الكوريوجراف الروس مع رسوخ أقدامهم عالميا ، ولا أعتقد أنه يجهل قيمة فريق مويسيف للرقص الشعبى الروسى الذى لا يكف عن الطواف بالعالم حيث يستقبل بالحماس المنقطع النظير دون أن يتهم أحد الرقص الشعبى بالصبيانية الساذجة ، حتى إذا استعنا بخبير عالمى فى الفولكلور زعم أنه لا علاقة له بفرق الرقص الشعبى ، ثم إنى أتساءل اليوم هل لاتزال هذه هى نظرته إلى الفرقة القومية للفنون الشعبية وهى تمثل مصر فى المهرجانات الدولية بنجاح يشرف مصر والمصريين ؟ .

على أنى فى هذا المجال ، مجال الرقص الشعبى ، لا أملك إلا أن أشيد أيضا « بفرقة رضا » التى نشأت معتمدة على جهودها الذاتية شاقة طريقها بنجاح ملحوظ على يدى رائد فن الرقص الشعبى فى مصر ومصمم الرقصات الفنان الموهوب محمود رضا ، فقدمت أول عروضها على المسرح فى أغسطس ١٩٥٩ ، غير أنه كان لكل من فرقة رضا وفرقة الفنون الشعبية طابعها الخاص ولا تداخل بينهما ، فعلى حين كانت « النجومية » فى فرقة رضا لفردين فحسب هما الراقص محمود رضا والفنانة الراقصة فريدة فهمى ، كانت « النجومية » فى الفرقة القومية للفنون الشعبية للفرقة جمعاء ، وهذا وذاك لهما مسوغاتهما فى الميدان الفنى ، ثم مالبثت فرقة رضا أن انضمت إلى فرق الدولة فى عام ١٩٦١ .

وفى نفس الوقت وبناء على رغبة شخصية من الرئيس جمال عبدالناصر وضعت الوزارة نواة « السيرك القومى » مع نهاية عام ١٩٦٠ إحياء لفنون السيرك الشعبية التى كادت تنقرض والتى هبط مستواها وتعثرت نتيجة للظروف الاقتصادية التى مرت بها مشروعات السيرك الخاصة والفردية مع أهمية هذا الفن للترويح عن الأطفال بل والكبار. وقد استقدمت الوزارة فى مبدأ الأمر الخبير السوفييتى مايسترنكو الذى مضى يطوف بصحبة الفنانين المصريين بفرق السيرك الأهلية وببعض مدن الأقاليم لاختيار العناصر الصالحة، ثم أجرى اختبارا لكل المرشحين للإلتحاق بالسيرك القومى قبل إنشاء مركز التدريب الذى أقيم بالفناء الخلفى لقصر عابدين مع مطلع عام ١٩٦١، وذلك تحت إشراف الفنان أحمد سعد الدين، ثم ما لبثت الوزارة أن استعانت إلى جوار الفنان مايسترنكو بخبراء سوفييت آخرين فى فروع عروض السيرك المختلفة إلى أن أخذ التدريب حقه، فقدم السيرك القومى أول عروضه فى شهر يناير عام ١٩٦٦.

كذلك لم يفت الوزارة العناية بمشكلة نقص عدد المسارح التى تكفل توفير أكبر عدد من مقاعد المتفرجين وفى نفس الوقت إتاحة الفرصة لكافة المواهب أن تعتلى خشبة المسرح وتقدم الصيغ الفنية التى تبدعها، وفى هذا المجال عالجت الوزارة هذه الأزمة منذ عام ١٩٥٩ بإنشاء مسارح جديدة وتحويل بعض دور السينما إلى مسارح، واستطاعت فى وقت وجيز وبأقل التكاليف أن تصل بعدد مسارح القاهرة من مسرحين إلى تسعة مسارح. وبعد أن كان عدد المقاعد فى القاهرة مجتمعة ألفا وخمسمائة مقعد أصبح قرابة تسعة آلاف مقعد، كما قدمت الوزارة لفرق القطاع الخاص الجادة مثل « المسرح الحر » وغيره معونات تشجيعية مختلفة، بمنحها قدرا من المال تستعين به أو تأجير مسارحها لهم نظير مبالغ رمزية.

***

وفى التفاتة إلى الموسيقى استلفت نظرنا أوركسترا الإذاعة الذى كانت إذاعة القاهرة قد بادرت عام ١٩٥٦ فأنشأته تابعا للدولة. والحق إنها كانت بداية طيبة وإن لم تتوفر لها الظروف والإمكانيات المالية والإدارية التى تضمن استقرار الأوركسترا جهازا له دور ثقافى رئيس فى حياة المجتمع، إذ كانت

الميزانية التى خصصت للأوركسترا تقوم على اتفاق ثلاثى بين دار الإذاعة ومصلحة الفنون ومصلحة السياحة وقتذاك، يتحمل كل منها حصة مالية سنوية، وسرعان ما تخلّت بعض هذه الأطراف عن الوفاء بحصتها مما ربط بين استمرار وجود الأوكسترا ومدى استجابة جهات لا ترى دائما علاقة مباشرة بين رسالتها وعزف الموسيقى. وكان أن تضاءل الارتباط الموسمى بين العازف والأوركسترا، هذا إلى أن الإذاعة نفسها لم تحقق لنشاط الأوركسترا الجو الملائم لانتظامه ونموه، مما دعا المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية إلى التدخل فأوصى فى عام ١٩٥٧ قبل اضطلاعى بمسئولية وزارة الثقافة بأكثر من عام بنقل تبعية الأوكسترا إلى دار الأوبرا وهى الموقع التقليدى للموسيقى الكلاسيكية، ومن هذه البداية بما أحاط بها من ظروف عصيبة رغم جهاد نفر من المثقفين يأتى على رأسهم الدكتور حسين فوزى فى الارتقاء به مضى أوركسترا الإذاعة ليحتل مكانه بين أجهزة وزارة الثقافة والإرشاد القومى مع بداية عام ١٩٥٩ تحت اسم أوركسترا القاهرة السيمفونى، حيث صدر قرار مجلس الوزراء بنقل تبعيته إلى وزارة الثقافة وتحديد أهدافه، ثم رصدت له للمرة الأولى بدءا من ميزانية الدولة عام ١٩٥٩ الاعتمادات المخصصة له، وبذلك تهيأ لهذا الأوركسترا أن يمتد نشاطه إلى كل المجتمع المصرى المعاصر بدلا من أن يقتصر عمله على تنفيذ القليل من الأعمال الموسيقية المرتبطة بالإذاعة. وقد تحمس لهذا الاتجاه كل من يُحسب فى مجال الموسيقى العالمية من مثقفى مصر، غير أنه من المؤسف أن يشيح بعضهم فى هذه الأيام وجهه عن الحقيقة الناصعة التى عاصرها وتحمس لها قبلُ، فإذا به يدعى أن وزارة الثقافة سلبت الإذاعة أوركستراها. ولا يزال الأوركسترا السيمفونى فى وزارة الثقافة يخدم الثقافة المصرية، وإلى زمن طويل بإذن الله. ولأمر ما كانت ثمة قطيعة بين الإذاعة والأوركسترا، فلم يُسمع للأوركسترا صوت فى الإذاعة رغم محاولات كثيرة كنت أحاولها للحيلولة دون استشراء هذه الآفة.

وما لبثت الوزارة أن أوفدت نفرا من أعضاء الأوركسترا المصريين فى منح خارجية لتجويد العزف وقيادة الأوركسترا، ورفعت عدد العازفين إلى ثمانين عازفا حتى يتمكن الأوركسترا من التجديد فى نواحى نشاطه بإضافة مؤلفات عالمية تتطلب إمكانيات فنية خاصة لم يسبق للأوركسترا تقديمها، كما اشترك

معه للمرة الأولى عنصر الغناء الجماعى [الكورال] . وانتظم تقديم الحفلات الأسبوعية صباحا للطلبة بأسعار رمزية ومساء للجمهور ، وتقديم بعض حفلات أوركسترا الحجرة أثناء انشغال الأوركسترا فى تقديم موسمى الأوبرا والباليه . وارتفع عدد.رواد الحفلات السيمفونية من ستة آلاف شخص فى عام ١٩٥٩ إلى الضعف تقريبا فى عام ١٩٦١ . كما اتبع نظام القادة الزائرين لإتاحة الفرصة للإفادة من أكبر عدد ممكن من الخبرات مع الارتباط فى نفس الوقت مع قائد ثابت . واتجه الأوركسترا إلى تشجيع التأليف الموسيقى المصرى فقدم أعمال أكثر من خمسة مؤلفين مصريين معاصرين ، ولم يكن قد سبق للأوركسترا أن قدم سوى أعمال مؤلف واحد من القدامى . وأذكر أنى بينما كنت سفيرا لمصر فى روما عام ١٩٥٨ حرصت على لقاء المعمارى أبوبكر خيرت بعد أن سمعت تسجيلا لأحد مؤلفاته على البيانو، فزرته فى مكتبه الهندسى بالقاهرة لأوثق ما بينى و بينه ولأحيط علما بمجهوداته الموسيقية ، وكانت له تسجيلات سألته أن يعيرنى إياها لأتيح لمن يفد إلينا فى السفارة من ضيوف إيطاليين ودبلوماسيين أن يستمتعوا بسماع جهود مؤلف مصرى . ولأزداد ثقة بقدرته الموسيقية الإبداعية رجعت إلى إحدى دور الخبرة الموسيقية الإيطالية لتقييم موسيقاه علميا ، فكان رأيها « أن فى أعماله إجادة خلاّقة » ، مما زادنى تقديرا لهذا الفنان . وعندما توليت أمر وزارة الثقافة فى نفس العام رأيت تشجيعا له أن أعهد إلى أوركسترا القاهرة السيمفونى بعزف أعماله كاملة للجمهور، وكان هذا فى حفل دعوت إليه رئيس الجمهورية ، وكانت المرة الأولى التى حضر فيها رئيس الدولة حفلا سيمفونيا ، ومع انتهاء الحفل قلّده جمال عبدالناصر وسام الاستحقاق .

كذلك أشرت بعقد اتفاق مع إحدى الشركات اليوغوسلافية لتسجيل أعمال أبوبكر خيرت على أسطوانات كى تكون فى متناول مواطنيه بأسعار زهيدة، وكى تكون شاهدا على قدراتنا الخلاقة فى الخارج ، وسُجّلت جميع هذه المؤلفات بعزف أوركسترا بلجراد الفيلهارمونى و بقيادة المايسترو چيكا زدرافكوفتش(٣) . وقد عهدتُ إلى أبى بكر خيرت بوصفه مهندسا معماريا بتصميم مبنى **الكونسيرڤاتوار وقاعة سيد درويش** للاستماع الموسيقى ، ثم وكلت إليه عمادة الكونسيرڤاتوار الذى بدأ فى ڤيلا بجزيرة الزمالك تطلّ على النيل كمكان مؤقت إلى أن تم تشييد

المبنى الأساسى . وأحسست بعد فترة أن موسيقى أبوبكر خيرت وحدها هى التى تُقدَّم وتُعزف ، فشكَّلْتُ لجنة محايدة لاختيار أعمال موسيقيين مصريين آخرين رأسها المستشار أحمد لطفى وضمّت موسيقيين محترفين منهم عبدالحليم نويره وچيكا زدرا ڤكوڤتش وأحمد المصرى وغيرهم من المتخصّصين ، واستبعدت أبوبكر خيرت عامدا من أجل إتاحة الفرصة لغيره ، فاختارت اللجنة أعمالا من تأليف يوسف جريس وعزيز الشوان وحسين رشيد وجمال عبدالرحيم و يوسف شوقى ورفعت جرانه وغيرهم ، وقد تم تسجيل بعض هذه الأعمال على أسطوانات على غرار ما اتبع مع مؤلفات أبوبكر خيرت .

واتجهنا كذلك إلى إفساح المجال أمام عشّاق فنون المسرح بمشاهدة أعمال مدارس أوبرالية جديدة فى المواسم الشتوية لدار الأوبرا ، فاستضفنا فرقا ألمانية و يوغوسلاڤية إلى جوار الفريق الإيطالى التقليدى . كذلك جهدت الوزارة فى توفير آلات عزف جديدة للأوركسترا بدلا من الآلات التى كان يستأجرها والتى جعلتها كثرة استخدامها لأكثر من ربع قرن عاجزة عن الوفاء بالمستوى المنشود .

ومن أبرز ما يُذكر عن نشاط الأوركسترا خلال تلك الفترة خروجه إلى الجماهير . وبدلا من قصر تقديم الحفلات على دار الأوبرا وحدها التى كان من النادر أن تمتلىء بالرواد على قلّة عدد مقاعدها ، انتقل الأوركسترا إلى دار سينما قصر النيل التى كانت تضطر فى بعض الحفلات إلى قفل شباك التذاكر أمام الروّاد قبل موعد الحفل بعد أن غصّت بالمشاهدين ، كما خرج الأوركسترا للمرة الأولى لتقديم حفلاته خارج الوطن إلى بيروت . ومن المعالم التى لا تُنسى لنشاط الأوركسترا خلال تلك المرحلة تقديم بعض حفلاته بقيادة آرام خاتشاتوريان من أعلام الموسيقى المعاصرين بعد دعوتى له خلال لقائى به فى موسكو عام ١٩٦١ لقيادة أوركسترا القاهرة السيمفونى بأعمال من تأليفه ، وكان ذلك بحضور السيدة إكاترينا فورتسيڤا وزيرة الثقافة بالاتحاد السوڤييتى التى رحّبت بالفكرة وحثته على قبول الدعوة . وقد أقبل الجمهور على مشاهدته وهو يقود عزف مؤلفاته الشهيرة حتى ضاقت بالمستمعين مقاعد دار سينما قصر النيل فافترشوا الأرض ، وهو ما لم يُشهد له مثيل من قبل فى حفلاتنا الموسيقية . كما أنى أعدّ تقديم أوركسترا

القاهرة السيمفونى للسيمفونية التاسعة لبتهوفن فى ربيع عام ١٩٦٢ بعد مران شاق وتدريب دءوب دام قرابة عامين بالاشتراك مع كورال أوبرا القاهرة الوليد واثنين من السوليست المصريين واثنين من الأجانب من أجلّ ماقدمه الأوركسترا نجاحا وروعة أداء . ثم كان أن وُضعت خطة فى عام ١٩٦٢ لتنمية نشاط الأوركسترا بغية الوصول بعدد أعضائه إلى مائة وعشرين عازفا بحيث يمكن توزيعهم إلى شعبتين لكى لا تتوقف حفلات الكونسير أثناء اشتراك الأوركسترا فى موسمى الأوبرا والباليه . ومامن شك فى أن الرعاية التى أولاها الأستاذ الفنان صالح عبدون للأوركستر السيمفونى كان لها أكبر الأثر فى تطويره ونهضته إلى أن تقلّد منصب مدير دار الأوپرا .

وكانت وزارة الإرشاد القومى فى عهد الأستاذ فتحى رضوان وبرعاية الأديب الفنان يحيى حقى قد نفخت فى روع المسرح الغنائى فإذا هو ينتعش بعد كبوة بتقديمه مسرحية « يا ليل ياعين » الغنائية . ولما كان الأمر إلىّ حاولت أن أزيد فأطوّره بهدف تأهيله لأن يتجاوز حدود الأعمال القومية الهامة لسيد درويش وزكريا أحمد فيقدم الى جانبها بعض العروض العالمية الذائعة الصيت . وقد وقع الاختيار لبدء عمل الفرقة فى المجال العالمى على أوبريت « الأرملة الطروب » لفرانز ليهار وقام الشاعر عبدالرحمن الخميسى بتعريبها ونهض بإخراجها المخرج النمساوى نيزنر . وكنت حريصا أن ألمس بنفسى مدى ما بلغته الفرقة من نجاح . ودعوت فى ليلة الافتتاح كبار أساتذة الفن والغناء والموسيقى والمسرح والأدب والفكر والصحافة ، واحتجزت مقصورة الشرف لسيدة الغناء العربى » أم كلثوم » بعد أن أشرت بتوشيتها بأجمل الورود والأزهار ، وظللت طوال العرض موزّع القلب والعين بين أضواء المسرح والتماعات عيون المشاهدين . ولم تكد تنتهى الأوبريت حتى كنت بين يدى أم كلثوم أستمع إلى رأيها فإذا هو حماسة متدفقة وإعجاب عميق بأن تنبثق فى مصر تلك الطاقات الهائلة من الموسيقيين وأفراد الكورال والمغنين والمغنيات المنفردين والممثلين الذين يؤدون عملا أوربيا له قيمته العالمية بمثل هذه المقدرة والجدارة والتفوق . وأسعدنى أن تصارحنى بأنها باتت مؤمنة أن هذه الفرقة تستطيع أن تخرج للعالم وتبهره حين يتوافر لها أوبريت مصرى الموضوع والموسيقى .

وحدثني المرحوم الدكتور محمد مندور بحرارة صادقة عن عمق المتعة التي أشاعها العرض في حواسه كلها ، إذ لم تكن الأنغام وحدها مصدر سعادته بل لقد شكّلت الأضواء والألوان والديكورات والمناظر والملابس أمامه سيمفونية بصرية رائعة الجمال . وكانت شاعرية النّص العربي الذي كتبه عبدالرحمن الخميسي والتواؤم بينه وبين الألحان أحد مصادر متعته . كما عبّر لي بأن أمنيته أن يتاح لأكبر عدد من أفراد الشعب رؤية هذا العمل الذي يثق في أنه سينعم بتذوقه ، فطمأنته إلى أنني قد أعددت الخطة لذلك فتلك أمنيتي أيضا منذ بدأ الإعداد لظهور هذا العمل الفني .

واقترب مني الإذاعي اللامع الأستاذ سعد لبيب كالمستيقظ من حلم لم يكن يريد له أن ينتهي مؤكدا أنه يحسّ بأن نسمة جديدة من الحضارة قد هبّت على بلادنا وأن حياتنا أصبحت أكثر ثراء وغنى ، وامتدح العناية الفائقة التي أعدّ بها كل عنصر من عناصر هذا العمل الكبير بما في ذلك أدق التفاصيل التي يتجلّى أنها عولجت بأناة وتريث بعد دراسة مستأنية وجادة .

واعترف الأستاذ أحمد بهاء الدين بأنه كان لايسيغ فن الأوبرا والأوبريت لأنه لايفهم لغة أغنياته فإذا بالأرملة الطروب بنصّها العربي الشاعري تفتح له عالم الأوبرا السحري وتتيح له الألفة معه ، وتتيحها في نفس الوقت لآلاف من المصريين ، كما تحفز المؤلفين المصريين على أن يبدعوا في هذا المجال الذي يتهيّبه الكثيرون .

ثم كانت كلمات الدكتور لويس عوض كلمات أستاذ قدير يدرك أبعاد الأمور حين كتب يقول : « إن (الثورة) أثبتت أنها (شعبية) لأنها أتاحت للشعب بكل فئاته أن ينعم بألوان الفن التي كان الاستمتاع بها حكرا على فئة مرفّهة من الطبقات العليا الحاكمة في ظل النظام الملكي . كما أثبت الشعب قدرته على تذوّق أرفع الفنون وأنه لا توجد أسوار للثقافة يستعصي اجتيازها على العامة » . والحق إن الدكتور لويس عوض كان من أكثر المحتفين بكل عمل جاد تنجح الوزارة في تقديمه ، ولكنه لم يكفّ عن حضّي سواء في حديثه معي أم في مقالاته على أن أذبّ الذباب الكثير المتجمّع في الوزارة وحولها ــ الكبير منه

والصغير على حد قوله ــ الذى يعوق فى بعض الأحيان مسيرة الوزارة من نجاح إلى نجاح .

وعلى امتداد ثلاثة أسابيع لم يخفت إقبال الجماهير على دار الأوبرا التى لم يكن يبقى فيها موضع لقدم لم يشغله المشاهدون ، ولم يفتر فيها التصفيق المشتعل إعجابا وسعادة وانتشاء وتقديرا للفنانين والفنانات وعلى رأسهم السيدة رتيبة الحفنى والممثلين والراقصين والموسيقيين . وهكذا أثبتت تجربة « الأرملة الطروب » حاجتنا إلى إحياء فن الأوبريت الذى وضع سيد درويش لبناته الأولى وإلى تشجيع المؤلفين ليقدموا لشعبنا متعة فنية ترقى بوجدانهم وتسرّى عنهم وتشحذ هممهم للإبداع والإنتاج .

وكم كان الكاتب أحمد رجب موفقا فى عبارته البليغة التى تقول : « نجحت الأرملة الطروب ونجح الجمهور. فالجمهور كان ينجح دائما وكانت الأوبريتات تسقط دائما . وغير صحيح أنه مطلوب جمهور ناجح للمسرح الغنائى عندنا .... ولكن الصحيح أنه مطلوب مسرحيات ناجحة للجمهور عندنا » .

* * *

وكان من بين المشروعات الطموحة التى تضمّنتها الخطة الخمسية إقامة دار جديدة للأوبرا بدل تلك الدار التى بدأت معالم الكهولة تدبّ فى أوصالها رغم ماتتميّز به من رقّة وجمال ، بل لقد كانت واحدة من أبدع منشآت القرن الماضى شيّدها الخديوى اسماعيل عام ١٨٦٩ للمشاركة فى احتفالات افتتاح قناة السويس ، وتم إنشاؤها على عجل لم يترك لها فرصة تسمح بتزويدها بكل مقوّمات دور الأوبرا الحديثة . وقد استخدم فى بنائها الخشب لا الحجر ، ولم يزوّد مسرحها الصغير بالآلات الميكانيكية الحديثة الموجودة فى معظم دور الأوبرا فى العالم بل وفى أغلب مسارحه ، لأنها صُمّمت لاستقبال الفرق الأجنبية التى تفد من الخارج ومعها كافة احتياجاتها ، فلم تقم بها قاعات مناسبة لتدريبات الموسيقيين والفنيين والراقصين والمخرجين ومهندسى الديكور ، ولم تزوّد بمكتبة للبحوث والدراسات ولا بقاعة للمحاضرات ، فأغلب الظن أن الذين أقاموها لم يجل

بخاطرهم التعمّق فى هذه الفنون، بل إن مقاعدها لا تستوعب أكثر من سبعمائة وخمسين مُشاهدا ، وهو عدد يقصر دخله عن الوفاء بنفقات العروض المسرحية أو الأوبرات الحافلة أو عروض الباليه التى يقدّمها عدد ضخم من الراقصين والراقصات ، ولايتسع مكان الأوركسترا إلا لخمسين عازفا فقط ، بينما لايقل أوركسترا الأوبرات العادية الآن عن ثمانين عازفا . هذا إلى أنها لم تكن تستغل فى أوقات الصيف إذ كانت تتعرض لدرجة من الحرارة مرتفعة ، وهو ما استحال علاجه ، إذ تبيّن لنا بعد استشارة الخبراء أن إدخال نظام تكييف الهواء يعرّض سلامة بنائها للخطر . ولقد أبدى جمال عبد الناصر حماسه لهذا المشروع ضمن مشروعات الثقافة والفنون ، وحين وافق على إدراج سبعة ملايين من الجنيهات للمشروعات الاستثمارية فى حقل الثقافة نال منها مشروع بناء دار الأوبرا الجديدة مبلغ مليون جنيه ضمن الخطة الخمسية فيما بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٦٥ أنفق منها حوالى ٣٥٥٠٠ من الجنيهات فى الدراسات والتصميمات الأولى التى قام بها المهندس الألمانى مصمّم الدار والمهندسون المصريون المساعدون .

كان أول ماشغل بالنا هو اختيار المواقع التى ستقام فيها المبانى الفنية الجديدة التى تضمّنتها خطة وزارة الثقافة الخمسية وعلى رأسها دار الأوبرا الجديدة والمتحف المصرى الجديد . وكان من الطبيعى أن نفكر فى أن تكون دار الأوبرا والمتحف لائقين بمركز مصر المرموق وأن نعدّهما ليكونا أبدع مراكز الفنون فى الشرق الأوسط ، وذلك بإقامتهما لوفق أحدث التصميمات المعمارية فى العالم واستكمالهما لأحدث الوسائل الفنية والمسرحية والمتحفية . لهذا رأينا أن نحشد لهما الخبرة اللازمة داخليا وخارجيا ، فكان أن اتصلت فى أغسطس ١٩٥٩ بمنظمة اليونسكو طامعا فى خبرتها فى هذا المجال ، فأوفدت على نفقتها بعثة من خبراء التخطيط والعمارة فى فبراير ١٩٦٠ ، وعلى رأسهم المعمارى العالمى الشهير وولتر جروبيوس مؤسس « مدرسة باوهاوس » والذى لايتنازع فى الاعتراف بعبقريته اثنان ومعه الأستاذ ريفيير مدير المجلس الدولى للمتاحف والدكتور پول مدير جامعة أمستردام وعددا آخر من الخبراء المتخصصين . وبعد البحث والدراسة واستعراض رقعات الأرض المتاحة التى وضعتها محافظة القاهرة تحت تصرف وزارة

الثقافة لاختيار موقعين من بينها لدار الأوبرا والمتحف الجديد ، رأت اللجنة المكونة من هؤلاء ومن نفر آخرين مختارين من أساطين علماء مصر ومهندسيها أن حديقة الحرية بمنطقة الجزيرة هي أنسب المناطق التي تصلح لتشييد دار الأوبرا ، وأن أرض المعارض بالجزيرة هي الأخرى أنسب المواقع لإقامة المتحف الجديد .

وكانت الخطوة التالية أن طلبت إلى منظمة اليونسكو في عام ١٩٦٠ ترشيح أفضل المؤسسات الهندسية العالمية ذات الخبرة في مجالي تصميم الأوبرات والمتاحف والتي سبق لها أن قامت فعلا بتنفيذ مثل هذه المشروعات في الخارج . وقامت المنظمة بترشيح بعض المهندسين العالميين المتخصصين في بناء دور الأوبرا هم المهندس جويرن أوزدن الذي قام بتصميم وتنفيذ أوبرا سيدني بأستراليا والمهندس فريتز بورنمان الذي قام بتصميم وتنفيذ أوبرا برلين والمهندس ويليام ريفان الذي نفّذ أوبرا كولونيا . وقد وقع اختيار لجنة الخبراء التي شكّلتها وزارة الثقافة على المهندس فريتز بورنمان الذي شيّد أوبرا برلين الغربية أحدث دور الأوبرا في أوربا كي يتولى تصميم مشروع أوبرا القاهرة ، ورأيت أن يشترك معه في التنفيذ المهندسان المصريان المرحوم أبوبكر خيرت ومحمد شريف نعمان ، وكان أولهما يدرك احتياجات دار الأوبرا الجديدة بفضل اشتغاله بالموسيقى إلى جانب خبرته الهندسية ، وكان الثاني عميداً لكلية الهندسة بجامعة القاهرة ، وكلاهما اتخذ من إقامة دار أوبرا القاهرة مادة لرسالته الجامعية في الخارج .

وقد رأت هذه المجموعة من المهندسين بدورها أن حديقة الحرية بمنطقة الجزيرة هي أنسب المناطق التي تصلح لتشييد الدار الجديدة لانفساح خضرتها وقلة ضوضائها ، كما أن انخفاض مستوى الحديقة عن مستوى الشارع ببضعة أمتار يسمح بإقامة بدروم للمسرح يستوعب كافة احتياجاته الميكانيكية والكهربائية اللازمة لتغيير المناظر في سرعة ويُسر ، بالإضافة إلى أن هذا الموقع يعتبر متوسطا بين مدينة الجيزة ومدينة القاهرة . وقد تم إعداد المشروع بالفعل على أن تكون الدار في الجزء الجنوبي من الحديقة [حيث يقوم الآن فندق شيراتون الجزيرة] في مواجهة نافورة النيل على مساحة قدرها عشرة آلاف متر مربع ، يتوسطها المبنى الرئيسي الذي تحيط به شرفة يبلغ عرضها خمسة أمتار ونصف ، وتتصدر الواجهة الرئيسة

بعرض المبنى تمتد على هيئة جسر حتى مياه النيل . و يبلغ مسطح هذه الشرفة خمسة عشر ألف متر مربع ، وطولها على النيل مائة وخمسة وعشرون مترا ، وتحتضن في أسفلها كافيتريا تلامس مستوى النيل ، تفتح أبوابها نهارا وليلا ، بينما يتيح مسطح هذه الشرفة التى يُصعد إليها من سلالم متعددة أن ينعم الزائر بمشاهدة الحدائق الممتدة فى المنطقة ويمدّ بصره إلى آفاق نهر النيل . أما المبنى نفسه فيرتفع عن سطح الأرض واحداً وعشرين مترا و بشكل مستطيل ومنتظم ، ويمتد من الشارع إلى داخل الحديقة حتى البركة الموجودة بها حاليا . و يعلو وسط المبنى الجزء المخصّص للمسرح الرئيسى عن الأرض بمقدار اثنين وثلاثين مترا ، وعن باقى المبنى بخمسة عشر مترا .

وقد أرسيتُ حجر الأساس لدار الأوبرا نيابة عن رئيس الجمهورية فى يوم ٢٣ يولية ١٩٦٢ ، وكان إعداد الدراسات الخاصة بالمشروع قد بدأ من قبل ذلك بمدة ، وأجريت الفحوص اللازمة لأرض المبنى ، وتم فرز العروض الابتدائية المختلفة التى تقدّمت بها الشركات المتخصصة فى التركيبات الميكانيكية للمسرح وملحقاته والأعمال الفنية للإضاءة المسرحية والإنارة وآلات تنبيه الحريق وساعات الحراسة والإشارات الإلكترونية وأعمال تكييف الهواء والتهوية الصناعية وأجهزة الإطفاء تمهيدا للبدء فى التنفيذ . غير أن تقديم استقالتى إلى الرئيس عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٦٢ قد غيّر مجرى المشروع على نحو ما سأورده تفصيلا .

— ٣ —

أما فى مجال السينما فكلنا يعرف أن صناعة السينما فى مصر ترجع إلى عام ١٩١٧ حين أنشئت « الشركة السينمائية المصرية » بالإسكندرية والتى سارت بخطى متعثّرة بالرغم من انفساح السوق وتزايد الطلب عليها ، ولعل مردّ هذا التعثّر التركيب العضوى لتلك الصناعة التى انعقدت السيطرة فيها لمجموعة من أصحاب الأموال الأجانب والمتمصّرين الذين لم يكن يعنيهم غير الحصول على الكسب السريع ، فضلا عن تجاهل الفن السينمائى القائم على الدراسة والتخصّص ، مما

جعل حقل السينما مجالا مفتوحا على مصراعيه للهواة من ناحية وللمحترفين غير المؤهّلين علميا من الناحية الأخرى ، وذلك باستثناء التجربة الرائدة لبنك مصر في هذا الميدان فكانت حين أنشأ « شركة مصر للتمثيل والسينما » عام ١٩٢٥ . ولقد كان في إمكان المسيطرين على السينما استغلال فرصة الرّواج الاستثنائي خلال الحرب العالمية الثانية والفترة التي تلتها لزيادة العناية بالإنتاج السينمائي ، غير أن مجهوداتهم كانت قاصرة إلى حد كبير. لأنها تركّزت في إنشاء الأستوديوهات والمعامل دون مواجهة النقص في النواحي الفنية أومجاراة التطور المحتوم ، فما إنْ أخذت موجة التضخم في الانحسار حتى أخذ ارتياد دور السينما يقلّ والإنتاج يضعف .

وقد تنبّهت حكومة الثورة مبكراً إلى أهمية السينما بجانبيها الفني والاقتصادي فأصدرت عام ١٩٥٤ تشريعا يقضي بدعم صناعتها ، وفرضت ضريبة إضافية تُخصّص حصيلتها لدعم السينما ، غير أن غياب الجهاز المتخصّص الواعي بأمور هذا الفن أدى إلى ذوبان تلك الحصيلة في ميزانية الدولة دون أن تحقق الهدف الذي فُرضت من أجله . وكان أن اتخذت الدولة بعد ذلك خطوة متقدمة في هذا المجال فأنشأت ضمن إطار وزارة الإرشاد القومي في عام ١٩٥٧ جهاز خدمات لتكوين نواة لتطوير هذه الصناعة على أساس سليم وأطلقت عليه اسم « **مؤسسة دعم السينما** » ، غير أن هذه المؤسسة لم تبدأ نشاطها الفعلي إلا في عام ١٩٥٩ حين اعتُمد لها في الميزانية مبلغ ٢٤١٣٠٠ جنيه لإنتاج الأفلام وتوزيع وتسويق وتقديم جوائز للأفلام الجيدة من القطاع الخاص والمهرجانات الدولية والدعاية استُغل جزء منها في بناء **معاهد أكاديمية الفنون** وشراء أجهزة ومعدات إنتاج ومعمل ألوان . وكان عدد العاملين بالمؤسسة آنذاك محدوداً للغاية ومتناسباً مع ما نيط بها من واجبات ، فلم يتجاوز مجموع مرتباتهم ٢٩٠٠٠ جنيه . وفي عام ١٩٦٠ اعتمد للمؤسسة مبلغ ٣٠٠٠٠٠ جنيه أنفق منها في نفس الأغراض مبلغ ٢٤٢٦٠٠ جنيه فقط ، وفي عام ١٩٦١ أعتمد لها مبلغ ٢١٤٣٠٠ جنيه أنفق منها مبلغ ٢١٢١١٠ جنيه في نفس الأغراض . ومن هذا المبلغ شاركت مؤسسة دعم السينما بالتمويل والخدمات في إنتاج فيلمين على درجة كبيرة من الجودة شكلا ومضمونا هما « **الناصر صلاح الدين** » و « **وإسلاماه** » . كذلك أعدّت المؤسسة خطة بعيدة

المدى لإنشاء معامل وأستوديوهات حديثة التصميم بمنطقة دار السلام ، تزوّد بإمكانيات تصوير المناظر الطبيعية تقام إلى جانبها فنادق صغيرة ومساكن مناسبة للإقامة بالمنطقة بما يمكن معه جذب الشركات العالمية لتنتج بعض أفلامها فى مصر غير أن هذا المشروع لم يتحقق على وجه ما .

كانت وزارة الثقافة تدير المؤسسة خلال المرحلة الأولى (١٩٥٩ ــ ١٩٦٢) وقد وضعت لها أهدافا محدّدة ، منها رفع المستوى الفنى والمهنى للسينما بزيادة الاهتمام بالمشتغلين بها ومنح الجوائز التشجيعية للأعمال الجيدة والمجيدين فى الحقل السينمائى وإيفاد البعثات الطويلة والقصيرة الأجل لدراسة الفن السينمائى فى الخارج وإعطاء الفرصة للعاملين فى السينما لتوسيع نطاق معارفهم عن طريق الاشتراك فى مؤتمرات ومهرجانات السينما الدولية وإقامة أسابيع الأفلام العربية والأجنبية فى الداخل والخارج ، ومنح التسهيلات المالية للعاملين بصناعة السينما بإقراض الإنتاج الهادف ، وتمويل الأستوديوهات بالقروض وضمانها لدى هيئات الائتمان ، وتشجيع عرض الأفلام المصرية داخل البلاد وخارجها . وفى ضوء هذه الأهداف وضعت الوزارة للمؤسسة خطة متدرّجة لإنتاج عدد محدود من الأفلام الروائية والتاريخية تم انتقاؤها بعناية لمعالجة بعض الموضوعات الجادة من خلال شركة مصر للتمثيل والسينما . كذلك أنتجت عددا محدودا من الأفلام التسجيلية اليسيرة التكاليف لتعبّر عن قيم المجتمع ولتعرّف المواطن ببلده وبتراثها الحضارى ، وجاء على رأسها فيلم « **ينابيع الشمس** » الذى أشرف على إخراجه المخرج الكندى چون فينى يعاونه جملة من الشباب المصرى الواعد ، ويشمل تاريخ نهر النيل من منبعه إلى مصبّه فى إيقاع فنى رائع وأسلوب شاعرى لم يُسبق إليه ، وكان الهدف منه التثقيف إلى جانب الدعاية وترويج السياحة .

وحرصت الوزارة على عدم دخول المؤسسة فى متاهة العمل السينمائى إلا فى حدود مرسومة ، بالاكتفاء بضم ستوديو مصر ورصد نصف مليون جنيه لتطويره والاهتمام برفع مستوى كفاءته على أساس أن جودة العمل السينمائى لا تقوم فقط على الموضوع أو الإخراج أو التمثيل فحسب ، ولكن على « التقنيّة » أيضا ، وهنا يمكن أن يفرض العمل الجيّد نفسه بل ويؤثر فى المنتجين الآخرين . وبالفعل تم تزويد أستوديو مصر بمعدّات حديثة للصوت والتصوير ومعامل لتحميض وطبع

الأفلام الملونة وغير الملونة .

وخلال هذه المرحلة [٥٨ ــ ١٩٦٢] أنشأت الوزارة « **نقابة للمهن التمثيلية والسينمائية والموسيقية** » ، وتكونت « **جمعية الفيلم** » فى عام ١٩٦٠ لعقد الندوات السينمائية الدورية لعرض الأفلام المختارة وتنظيم المحاضرات عن الفن السينمائى وتكوين مكتبة سينمائية . ووزّعت الوزارة لأول مرة خلال أعوام ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦١ جوائز مالية للسينما لتشجيع فروع الفن السينمائى من الفكرة إلى السينار يو إلى الحوار إلى الإخراج إلى الأداء والموسيقى والتصوير والتسجيل الصوتى والديكور ، ثم أضافت الوزارة إلى هذا النظام فى عام ١٩٦٢ مبدأ شراء نسخ من أجود الأفلام تشجيعا للمنتجين على تقديم الأعمال ذات المستوى بما أسفر عن إقبالهم على موضوعات لم تكن تُطرق من قبل ، وإلى الارتفاع بمستوى الفيلم المصرى إلى حد كبير ، فتبدّى مناخ من الاستقرار النسبى يسود قطاع السينما . ومع ذلك فقد كان من الواضح حاجة العمل السينمائى إلى تطوير أكبر وتشكيل جيل جديد من السينمائيين الأكفاء ، فأنشأنا « **المعهد العالى للسينما** » فى أغسطس ١٩٥٩ الذى فتح آفاقا جديدة لأصحاب المواهب التى كانت تتجه من قبل للدراسات التقليدية بغض النظر عن احتياجات المجتمع وتطوره ومواجة من الأساليب التقنية فى العالم . وفى تحرك متواز اختارت الوزارة أفضل الكتب السينمائية العالمية وعهدت إلى المتخصّصين بترجمتها ثم أحالتها إلى مؤسسة النشر التابعة لها لإصدارها ، وفرضت على دور عرض الدرجة الأولى التى كانت مخصّصة أصلا للفيلم الأجنبى أن تلتزم بعرض عدد مناسب من الأفلام المصرية الطويلة كى تتيح فرصة للمنافسة بين الفيلم المصرى والفيلم الأجنبى . وحتى سبتمبر ١٩٦٢ حين تركتُ وزارة الثقافة لم يكن هناك أى تفكير فى تأميم السينما أو أن تتولى الدولة الإنتاج السينمائى لما كان يعنيه ذلك من الانزلاق فى مشاكل لاحصر لها دون إعداد مسبق . ولعل المسارعة غير المدروسة للسيطرة على السينما بعد ذلك هى التى أدت إلى اقتحام الدولة ميدان الإنتاج السينمائى دون تحوّط . وكانت ثمة عوامل كثيرة مكّنت لهذا التيار من التغلّب ، فاندفع يجرف أمامه السينما المصرية إلى مرحلة جديدة هى المرحلة الثانية (١٩٦٣ ــ ١٩٦٦) .

وكانت الوزارة قد أعدّت من قبل مشروع « قانون التنظيم السينمائى » ، غير أنه لم يكن قد صدر حتى سبتمبر ١٩٦٢ ، بل أهمل شأنه تماما بعد ذلك على الرغم من أهميته القصوى وقتذاك ، وأعزو ذلك الى أن الاتجاه قد تغير من محاولة الدولة رفع شأن السينما وهى فى أيدى أصحابها من القطاع الخاص أساسا دون تدخل مباشر من الدولة إلا بالمشاركة فى الإنتاج أحيانا أو إنتاج عدد قليل من الأفلام الجيدة ، تغير ذلك الاتجاه رأسا على عقب إلى ضم السينما كلها إلى الدولة إنتاجا وتوزيعا وعرضا ، وهى فلسفة مغايرة تماما لما كنت أراه فى هذا الصدد.

وتنبع أهمية مشروع قانون التنظيم السينمائى من أنه كان يجعل من مؤسسة دعم السينما الجهاز القائم بإنهاض كافة أنواع العمل السينمائى ، ويوضح الشروط الواجب توافرها فى المنشآت السينمائية كالإنتاج والتوزيع والأستوديوهات ، والضمانات اللازمة لحماية الفنانين والفنيين حتى طبقة الكومبارس من الاستغلال وتطبيق العدالة بينهم ، كما وضع حلولا لاستيراد الفيلم وتوزيعه وتسويقه ، وكذا استيراد الأجهزة والآلات . كل ذلك تحت إشراف مؤسسة دعم السينما والوزير المشرف على الثقافة ، بلا حاجة إلى أية صيغة أخرى كالشراء أو نزع الملكية أو التأميم الشكلى.

— ٤ —

ثم ما أغنانا أمة تراثية حفلت بألوان من التراث أربعة : التراث الفرعونى واليونانى — الرومانى والقبطى والإسلامى ، فإن كثرة هذا التراث الأثرى وتنوّعه وتباعد مابين مواقعه يخلق مشكلة يتعذّر معها رغم الجهد المتواصل الإشراف عليه إشرافا تاما . وقد واجهنا أول ماواجهنا سؤال هام كان لابد من الإجابة عليه إجابة حاسمة . هل نستمر نتوسع فى سياسة الحفر لنستخرج كل يوم أثرا جديدا من جوف الأرض فنضيف إلى مالدينا من تراث ضخم ومتنوع آثارا جديدة لاشك فى روعتها ، أم أن الصالح العلمى والعملى يقتضى أن نتريّث قليلا لترميم مالدينا من آثار حفاظا عليها مع تحسين مواقعها وتسجيل مايحتاج منها إلى تسجيل ومع تناول بعضه بالنشر العلمى سواء فى الكتب أوالدوريات المتخصّصة ، حتى إذا فرغنا من هذه المهمة الرئيسة نعود إلى سياسة التنقيب من جديد ؟

ولم يكن الوقوف على إجابة لهذا السؤال أمرا هيّنا ، فقد كان أى كشف جديد وما فيه من إغراء تمليه رغبة إنسانية دفينة من العسير مقاومتها ، فضلا عما يمكن أن يحدثه قرار إرجاء أعمال الحفائر من تأويلات ضارّة فى بعض الدوائر العملية ، وانتهى بنا الأمر إلى الأخذ بسياستين متلازمتين : أولاهما إعطاء الأسبقية الأولى للترميم والتنظيف والتسجيل والنشر العلمى ، وثانيتهما تشجيع البعثات الأجنبية على مواصلة الحفائر والتنقيب تخفيفاً للحمل الواقع علينا من جانب ، وقطعا لأى تفسير سلبى من جانب آخر ، وحرصاً على أن يستمر تيار علم الآثار متجدّداً ومضطردا ، خاصة وأن أى كشف جديد قد يزيح ستارا عن غموض يكتنف ماتم اكتشافه فعلا ، وقد يضيف تفسيرات من الجائز أن تغيّر من تفسيرات سابقة .

كما أنى تطلعتُ إلى ربط الأثر بالناس حتى نضمن حمايته لأن وقوعه فى دائرة الاهتمام العام يمكّن من التعرف عليه ومراقبة ماقد يصيبه بقدر ما تتيح دراسته التزوّد بالمعلومات التى يصبو إليها الناس ، وهو ما يعين فى النهاية على الاستيحاء منه فى إنجازات فنية متعددة . على أنى سرعان ما تبيّنتُ أن هذا الربط ليس ميسّرا بالنسبة لكل أثر، فمن الآثار ما هو واقع فى أماكن مكدّسة بالسكان ، بل منها مابات يُستغل فى غير الأغراض التى ينبغى أن يُخصّص لها ، كما هو الحال فى الآثار الإسلامية بالقاهرة ورشيد على وجه الخصوص . ولم أتردّد حين طلبتُ إلى مصلحة الآثار حصر هذه الآثار حصرا علميا دقيقا ووضع برامج زمنية لترميمها وصيانتها فى طرح فكرة تكوين جمعيات ثقافية أو نواد فنية بالأحياء التى توجد بها آثار إسلامية بهدف إشاعة نوع من التوعية الفنية بهذه الآثار فى خلق حدٍّ أدنى من التذوّق لما تحويه من إبداع فنى لدى عامة الناس ، غير أن هذه الأمنية لم يتحقق منها شىء لتقاعس الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى من بعده عن مدّ يد العون لنا فى هذا المجال ، وقد كان ذلك فى تقديرى أحد سلبيات التنظيم السياسى تجاه وزارة الثقافة .

وقد حرصت قبل البت فى شئون الآثار على قضاء أسبوعين فى تفقّد مختلف المواقع الأثرية مستقلا طائرة هليكوبتر وضعتها القوات الجوية تحت تصرفى تجنبا لاستخدام المواصلات العادية فى زيارة المواقع النائية التى كانت ستستغرق وقتا أطول كان العمل الوزارى يقتضى أن أدّخره له . هذا فضلا عن أسبوعين آخرين أمضيتها بين معابد النوبة متنقلا بالباخرة مابين وادى حلفا جنوبا حتى أسوان شمالا ، ورافقنى فى هذه الرحلة الاستطلاعية المرحوم الدكتور أحمد بدوى مدير جامعة عين شمس والمرحوم المهندس محمد مهدى رئيس الإدارة الهندسية بمصلحة الآثار وقتذاك .

وأذكر أن أول قرار اتخذته فى مجال الآثار كان يتعلق بأحد العلماء الفرنسيين العاملين فى ترميم المجموعة الجنائزية للملك زوسر فى سقارة . وكان قد فوجىء بعد قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا بحرمانه من تجديد التصريح اللازم لمواصلة رسالته العلمية التى وهبها حياته كلها ، فسعى إلى لقائى نابض القلب بالعواطف الجياشة تغرورق عيناه المحمرتان بالدموع وهو يلتمس أن ينال التصريح الذى يتيح

له مواصلة مهمته العلمية التى تتطلب إشرافه الشخصى . و وجدت نفسى حائرا بين تطبيق القواعد المعمول بها و بين تحقيق رغبته التى لم أشك فى نبلها، ولم ألبث أن كسرت طوق الحيرة ودعوته إلى استئناف العمل فى نفس اليوم متحملا مسئولية قرارى . وقد أثبتت الأيام أنى كنت محقًا فى قرارى ، فالإنجازات التى قام بها المهندس چان فيليپ لو ير بسقارة تكتب لاسمه الخلود إلى جوار اسم المهندس إيمحوتب بعد أن أمضى حياته بقرب آثاره منقّبا وكاشفا ودارسا حتى كتابة هذه السطور.

وكانت مصلحة الآثار قد انتقلت عام ١٩٥٨ من وزارة التربية والتعليم إلى وزارة الثقافة ، فأضافت هذه العلاقة الجديدة مسئوليات ثقافية تفرضها طبيعة وزارة الثقافة إلى جوار العناية التقليدية بالمناطق الأثرية والمتاحف ، فنبضت عروق المصلحة بنشاط ثقافى تجلّى أكثر ماتجلّى فى **« مشروع الصوت والضوء »** الذى أدخلتُه بأهرامات الجيزة وبوالهول ، ثم فى قلعة صلاح الدين وأخيرا فى معبد الكرنك . وقد تم تنفيذ المشروعات الثلاثة على مستوى رفيع جمع بين النصّ التاريخى و بين الموسيقى والأداء الفنى فى صياغة جمالية تليق بجلال المكان الذى تدور فيه ، أتاح لآثارنا المصرية أن تجتذب إليها عيون العالم وتستحثّه على المشاركة فى **إنقاذ آثار النوبة** التى تشتمل على سبعة عشر معبدا حتى لا تغرقها مياه النيل عند إقامة السد العالى .

ولأول مرة منذ عهد الخديو إسماعيل أرسلت مصر بعض آثارها إلى الخارج فى مجموعتين : مجموعة **« معرض الـ ٥٠٠٠ سنة من التاريخ المصرى »** الذى طاف أوربا كلها ، ومجموعة **« معرض توت عنخ آمون »** الذى طاف الولايات المتحدة وكندا ثم اليابان و باريس ولندن .

وفى الحق إن المشكلة الجوهرية التى استولت على أغلب جهودى واستأثرت بمعظم اهتمامى فى مجال الآثار كانت مشكلة إنقاذ معابد النوبة نظرا للمصير المأساوى الذى كانت ستتعرض له معابد هذه المنطقة السبعة عشر مهدَّدة بطغيان المياه عليها وغمرها إلى آخرها فى وقت مرهون أجله بمراحل تشييد السدّ العالى . ولا أنكر أن انصرافى المطلق نحو إيجاد حلّ لهذه المشكلة جعلها تتمتع أكثر من

غيرها بالأسبقية ، فحين يتحمل المرء مسئولية ما ويحدّد الهدف الذى يبغى الوصول إليه عليه أن يتخذ القرار بتحديد الأولويات فى مشروعاته . فالمال والطاقة محدودان ، ولا يمكن للمرء أن يحقق كل شيء فى وقت واحد ، فضلا عن أن عنصر السباق مع الزمن ــ على نحو ما سأوضّحه تفصيلا فى فصل مستقل ــ كان ملزما فى تحديد هذه الأولويات وإرجاء مشروعات أثرية أخرى . ومع ذلك فلم نهمل الآثار الإسلامية بل فعلنا ما فى الإمكان حيالها فى حدود الوقت والمال والإمكانيات البشرية المتاحة ، تاركين للخلف المضى فى المسيرة .

* * *

ومنذ أن كنت ملحقا عسكريا بباريس عام ١٩٥٤ أدركت شأن العلاقة بين الآثار والناس حين شاهدت عروض الصوت والضوء بقصرى فرساى وڤانْسِنْ فى باريس وقصور اللوار التى تؤدى دورا تثقيفيا جذابا فتشدّ الناس إلى فهم الآثار وتذوّق أسرارها وربطها فى وجدانهم وذاكرتهم بالصورة والرواية التاريخية والأداء الفنى والموسيقى . فكلما تنوّعت أسباب الحضارة تنوّعت الوسائل التقنية المؤدية إليها ، فإذا نحن نشاهد كيف خرجت الآثار العظيمة والروائع الفنية التليدة مجلوّة فى النور ، فبعد أن ظلت آلاف السنين جامدة فى أماكنها لا تنطق أصبحت اليوم صفحة منشورة نقرؤها ونستمع إليها وكأنها صور حيّة تروح وتغدو فى ميدان الحياة حافلة بأصوات أبطال مسرحيين قوميين بل عالميين يخفّ لمشاهدتهم والاستماع إليهم الناس من هنا ومن هناك لافرق بين مقيم ونازح ، ولا غرو فالفن لغة العالم أجمع لاتحدّه حدود .

وما كدت أحمل على عاتقى عبء وزارة الثقافة عام ١٩٥٨ حتى ألحّ علىّ خاطرٌ بإقامة مثل هذه العروض فى مواقعنا الأثرية الخالدة ، ولم أتردّد فى استدعاء بعض الفنانين والمتخصّصين من باريس رغم أن العلاقات الدبلوماسية كانت ماتزال مقطوعة بين مصر وفرنسا ، وأمضينا عشرة أيام نتجوّل بين المواقع الأثرية فى القاهرة والجيزة وسقارة والأقصر حتى استقر الرأى على إمكان تحقيق هذا المشروع بدءاً بمنطقة أهرام الجيزة لتغطية التاريخ الفرعونى وقلعة صلاح الدين لتغطية التاريخ الإسلامى ، على أن ننتقل إلى الكرنك حين نفرغ من التجربة الأولى . فعهدت إلى لجنة من علماء الآثار والتاريخ بإعداد المادة العلمية للمشروعين

و بعثت بها إلى الأديب الفرنسي جاستون بونير لإعداد النص الفنى المصاحب للعرض ، فجاء نصّه ليصل الإنسان بتاريخه و يبعثه على التفكّر والتأمّل بعد أن آمن بمجدنا التليد فضلا عن خياله الفضفاض الذى أضفاه ، وإذا هو يتخيّر من اللفظ آنقه ومن العبارات أسماها مما جعل النصّ وكأنه شعر لانثر يوائم سكون الليل وهدأته . وعهدت إلى الفنان جاستون پاپلو بالإخراج الضوئى الذى به تبرز معالم الأثر وماوراءه من خلود وعقيدة وعراقة أحجاره العتيقة على وجه لايبعث على الملل . كما كلفت الموسيقار الشهير چورچ ديلرو بوضع الموسيقى المصاحبة ، وأشركت معه المؤلف الموسيقى المصرى حليم الضبع فأوفدته إلى باريس لمعايشة الموسيقار الفرنسي وتزو يده بالألحان القومية لإضفاء الطابع الأصيل على النص الموسيقى . فالموسيقى التى تصاحب هذه المشاهد لا تقل شأنا عن غيرها من العناصر ، إذ تصل المتفرّج باللوحات بعضها إلى بعض ، كما تجلو بين يديه المعانى فإذا هو يلقن عنها كما يلقن عن الصوت والضوء ، فهى حين تساير النص تكشف عما دقّ وغَمُض وتؤكد أغراضه ومقاصده ، وتبعث الرهبة فى النفوس شأنها شأن تراتيل الطقوس الدينية . والمستمع إلى الموسيقى التى وضعها ديلرو فى عَرْضَىْ الهرم والكرنك يحسّ مالها من جلال فى الفضاء المحيط بالأثر . وفى الحق لقد وفّق هذا الموسيقار فى أن يعيد إلى الخيال مجد الفراعنة التليد ، وحسبنا أن المشاهد لايكاد يغادر المكان بعد العرض حتى يردّد فى خاطره ما سمع من ألحان آسرة .

ولقد كنا نهدف من وراء هذا العرض أن نكشف للمواطن المصرى عن ذلك الماضى الزاخر بتراثه كى يباهى به و يفخر، ثم أن نجعل من تلك المشاهد الساحرة المنطوية على متعة للروح والعينَ والأذن مايجذب السائحين عن إعجاب ورضا . فما أبعد الأثر الذى تتركه تلك المشاهد فى نفوس المواطنين تثقيفا ، ثم ما أعظمها من وسيلة لجلب السائحين ، بعد أن هيأنا لهم متعة ليلية تخالف متع الملاهى ، إذ ينصتون لصوت التاريخ وهو يسرد عليهم أحداث السنين فى تتابع وفى سكون الليل وهدأته ، وقد لفّ الضوء بأثوابه المختلفة مابين البياض والزرقة الخافتة والحمرة الداكنة والصُّفرة البرتقالية تلك الآثار مع أنغام الموسيقى الشجية فيجارى السمعُ البصَر، فإذا الماضى السحيق حاضر حيٌّ بين يدى الرائى ، وإذا الناس فى

جو آخر غير ذلك الجو الذى كانوا يرون فيه هذه الآثار فى ظل الشمس اللافحة وبين صخب الجماهير وهى غادية رائحة .

وحين وصلنى النص الفرنسى للمشروعين عكفت على دراسته بعناية شديدة تدفعنى إليها رهبة الإقدام على مثل هذا المشروع الجديد كل الجدّة على المواطنين إلى الحد الذى ثارت معه حملة معادية وساخرة فى وسائل الإعلام ، فذهب أحد الكتاب إلى أنه يؤثر عليه الاستمتاع بمشاهدة أبى الهول فى سكون الليل وفى ضوء القمر ، غير أن الكثرة لم تلبث حين رأت ما أضفته الإضاءة الفنّية على أبى الهول من تأثير وماتدفّق فى نفوسهم من صوت أبى الهول الذى خرج من صمته بعد آلاف السنين ليحكى تاريخ أمة عاصر نهضتها الكبرى حتى نبضت الحماسة فى قلوبهم لهذا المشروع .

على أننى حين تسلّمت النصّين وجدت بعض المآخذ التى كان منبع أكثرها خفاء بعض الجوانب على الكاتب الأوربى ، فرددت النصّين إليه ليتعاون مع فنان النص الضوئى فى المراجعة والتعديل الضروريين لتواءم النصّين . وحين عادت الصياغة محقّقة لكل مطالبى عهدتُ إلى بعض أساتذة الجامعة الذين لهم خبرة واسعة باللغتين الفرنسية والعربية بترجمتها إلى العربية . وكان لابد بعدها من صياغة هذا النص صياغة شاعرية ، فوكلتُ هذا الأمر إلى الشاعر المرحوم صالح جودت ليصوغ النصّين صياغة فنية أولى . واستكمالا لأن يخرج النص سليما أدبيا وفنيا عهدتُ إلى لجنة يتمثل فيها من له إلمام واسع باللغة العربية ومن له إلمام بالآثار ومن له إلمام بالفن المسرحى أذكر من بينهم الأساتذة إبراهيم الأبيارى وأنور شكرى وعلى الراعى . وحين أقرّت هذه اللجنة النص فى صورته الأخيرة ، ولكى تطمئن نفسى أشركت معى من شاركوا فى إعداد النص لمشاهدة تجارب الضوء المتتابعة والمتناوبة على الأهرام الثلاث وأبى الهول ليلة بعد ليلة حتى تطمئن قلوبنا إلى خروج النص العربى موشّى بجلال اللفظ وجزالة العبارة . فجاء النص العربى تحفة رائعة تفاعلت فيها وتضافرت عليها بصدق جهود هذه الكوكبة اللامعة من الأدباء والشعراء والعلماء . وبعد الفراغ من إعداد النص قام نجوم فرقة « الكوميدى فرانسيز» بتأدية النص باللغة الفرنسية ، ونجوم فرقة « أولدڤيك »

باللغة الإنجليزية ، ونجوم المسرح الألمانى بها مبورج باللغة الألمانية ، ونخبة من نجوم « المسرح القومى » باللغة العربية .

وكان ثمة العديد من العقبات التى كان يمكن أن تؤجل المشروع إلى تاريخ لايعلم إلا الله مداه . ورغبة منى فى تذليل كافة هذه العقبات أعلنتُ تاريخ افتتاح المشروعين بادئا بمشروع أهرام الجيزة حتى يلتزم كل من الفريقين الأوربى والمصرى بالموعد المحدد . وكنت قد دعوت الرئيس عبدالناصر لافتتاح المشروعين ، ودعوت إلى جواره فضلا عن الأدباء والفنانين والمسئولين وأعضاء مجلس الأمة من المصريين بعض الضيوف الأجانب كان من بينهم ولىّ عهد اليونان وقتذاك الأمير قسطنطين والأمير صدرالدين خان وغيرهما من كبار الأدباء والدبلوماسيين الأجانب ورجالات العالم المعنيين بالثقافة والفنون . وحدّدت لافتتاح « **عرض الصوت والضوء بالهرم** » مساء الثالث عشر من أبريل ١٩٦٠ ، فلقى العرض تقديرا صفّق معه المشاهدون دقائق متصلة ، كانت كل دقيقة منها تضاعف الفرحة بالنجاح فى قلوب كل من شاركوا فى تنفيذ هذا المشروع الذى قفز إثر افتتاحه إلى صدارة المعالم السياحية فى بلادنا حتى بات الرئيس عبدالناصر لايزوره زائر من رؤساء الدول إلا صحبه لمشاهدة هذا العرض ، فبلغت هذه الزيارات سبع عشرة مرة فى رفقة سبعة عشر رئيس دولة ، ومايزال هذا المشروع إلى اليوم المشروع الحىّ الذى يستأثر بزيارة من يزور مصر من الضيوف والسائحين .

كان عرضا تعاونت فيه الوسائل العلمية الحديثة ، وكان للذوق الفنى فيه نصيب كما كان للجهد الفكرى نصيب آخر مما بعث فى هذا التراث الصامت روحا دافقة ، كما أعاد للناس اليوم مظاهر الحياة القديمة فى أسلوب يقرّب تلك الحياة من خيالهم ويربطها بعقولهم ويصلها بحواسهم ويمزجها بمشاعرهم بعد أن بقيت تلك الآثار على الزمن أكثر من أربعين قرنا لاتحسّ لها همساً . ومن هنا كان علينا وعلى العالم أجمع حق الإجلال لها ولمن شادوها ، فألقينا عليها الضوء الذى يُشرق معه تراثنا الخالد . ولم يكن ذلك سهلا ولا هيّنا : أن تُعد المادة التاريخية ، وأن تُصاغ صياغة فنية ، وأن توضع فى قالب جديد ، وأن تُحاط معالم منطقة الأهرام بكشّافات كهربائية وصلت إلى خمسمائة وثمانين كشّافا ، وأن تُربط بموصّلات للتيار بلغ طولها تسعة وعشرين كيلومترا ، وأن تُعد الأشرطة الصوتية

بلغات أربع لتنقل نتاج الفكر والفن . لم يكن سهلا ولا هيّنا أن تتكامل هذه العناصر كلها لتعرض أمامنا هذا التاريخ الحافل بأحداثه المليء بعظاته الزاهر بأمجاده فى وقت وجيز . ولقد كانت هذه هى الحلقة الأولى فى سلسلة البعث تلتها حلقة أخرى عن قلعة صلاح الدين ثم معبد الكرنك لتتصل حلقات تاريخنا القومى مُوقظة فينا إحساسنا بالأصالة والعزّة .

ومن طريف ما أذكره عن تلك الليلة أن كبير الأمناء جاءنى ليهمس فى أذنى خلال العرض الافتتاحى بأن فريقا من أعضاء مجلس الأمة قد اكتشفوا موقع البوفيه الذى كان مُعَدًّا للضيوف جميعا ببهو خوفو ـ الذى أنشىء خصيصا لخدمة المشروع ـ فاجتذبتهم ألوان الطعام الشّهية وكأنما خافوا أن ينكمش نصيبهم فى زحمة المدعوين فآثروا افتراس ما يستطيعون التهامه فى غيبة الكثرة . وكان منظرا متيرا أن أرى مندوب فندق الهيلتون يلطم خديه أسى على ما حاق بالمائدة من خسائر فادحة ، فبادرت بتهدئته وطلبت استخدام جميع مالدينا من سيارات لاستجلاب بديل لما استباحه بعض أعضاء المجلس لأنفسهم قبل انتقال الرئيس وضيوفه إلى المقصف .

ويهمّنى فى هذا المقام أن أسجل أن عرض الصوت والضوء بالهرم قد تكلّف مائتى ألف جنيه ـ هذا إلى مبلغ آخر زهيد شُيّد به مبنى « بهو خوفو » لخدمة زائرى المشروع ـ ، وأن عدد روّاد هذا العرض حتى يونيه عام ١٩٨٩ بلغ خمسة ملايين مشاهد ، وبلغ إيراد العرض عن نفس الفترة ما يربى على ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات . علما بأن هذا العرض لم يتوقف ليلة واحدة منذ افتتاحه حتى الآن سوى فى أضيق الحدود وقت الحروب وحظر التجول . ولم يتغير النص الأصلى الذى قدمناه منذ ماينيف عن ربع قرن عما كان عليه بلغاته الأربع ، وإن تكلّف تجديد المعدّات المستهلكة بعد خمسة عشر عاما ٣١٥ ألف دولار .

وفى يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٢ افتتح الرئيس جمال عبدالناصر **« عرض الصوت والضوء بقلعة صلاح الدين »** ، وكان المشروع قد تكلف مائة وخمسة وعشرين ألف جنيه . واستمر يقدم عروضه الى أن توقف فى ٥ يونيه ١٩٦٧ بسبب إغلاق المنطقة مساء لظروف الحرب(٤) . ولما كان مشروع القلعة

يتناول أموراً لمّا تغب بعد عن الأذهان لذا كان اختلاف الناس إليه قليلا ، على حين كان مشروع الهرم يتناول أمورا بعيدة كل البعد فى الماضى السحيق ، وكانت مطالعة الناس بها شيئا غريبا جذابا ليس فى ذاكرتهم منه إلا القليل ، لذا كان اختلاف الناس إليه كثيرا ، ولن ينقطع هذا الاختلاف إليه مع مرّ الأجيال .

وكان طول مشهد الهرم يُرْبى على طول نظائره فى العالم كله . ففى فرنسا لايزيد طول المعروض من أى قصر من قصور اللوار عن مائة متر ، وقصر فرساى عن خمسين وخمسمائة متر ، والپارثينون فى أثينا عن بضع عشرات من الأمتار ، على حين امتد مشهد الأهرام إلى كيلو مترين طولا وتسعمائة متر عمقا ، هذا إلى مايتميز به الهرم الأكبر من ارتفاع يبلغ خمسين ومائة متر. وكان لابد من أن نفسح للمتفرج أن يرى المشهد دون عائق ، فيجتمع له مايشاهد بنظرة واحدة ، الأمر الذى اقتضى إزالة بعض المبانى التى كانت تقف حجر عثرة فى سبيل تنفيذ العرض . فإذا نحن أمام هذا الباليه الليلى بين يدى مشهد حىّ حق يشارك فيه الصوت والموسيقى والمؤثرات الصوتية والأضواء والظلال التى تنسدل ملازمة لها . وأبطال هذا المشهد ليسوا بأناسى من لحم ودم ، بل هم خير ما أبدعته يد الإنسان من قبل ، فإذا هى تحكى حضارات اندثرت وعفّى عليها الزمن ، وتبدو فى أشكال لم تكن معهودة بالأمس سابحة فى ظلال كأمواج الخلود ، وماقد نراه فيها من كلوم من فعل الزمن يجعلها الصوت والضوء أشد عراقة ونفاسة .

وقد بدأت الوزارة فى الإعداد « لمشروع الصوت والضوء بالكرنك » منذ يناير ١٩٦٢ ، غير أنه توقّف بعد تركى لها . وبعد عودتى عام ١٩٦٦ استأنفت العمل فيه وأسندته إلى نفس الشخصيات التى سبق وتعاونت مع الوزارة فى المشروعين السابقين فى الخارج والداخل ، وقد فوّضت السيد فؤاد العرابى بتوقيع عقد تنفيذه بهولنده فى عام ١٩٦٩ . وثمة اختلاف هنا صاحب عروض الصوت والضوء بما يتواءم مع موقع وهندسة بناء المعبد ومساحته الممتدة . حيث يبدأ العرض من أمامه بعد طريق الكباش فيصغى المشاهدون عند المدخل الى مقدمة تاريخية وفنية تحت اللوحات الضوئية المعبرة مع صوت الموسيقى ، ثم ينتقلون بين صالة الأعمدة وجنبات المعبد فى طريق مرسوم يوضّح المراحل التاريخية لهذا المعبد العظيم ، حتى إذا

بلغوا البحيرة المقدسة وجدوا أماكنهم تنتظرهم حيث يُطلُّون على المعبد والبحيرة من هضبة مرتفعة يسمْعون منها بقية الرواية التاريخية إلى نهاية العرض الفنى . وما من شك فى أن هذا العرض كان يمثل تطورا جديدا فى تقديم عروض الصوت والضوء بصفة عامة حيث يتحرك مع المشاهدين ليشمل كل عناصر معبد الكرنك .

وقد اكتمل العمل فى هذا المشروع مع مطلع عام ١٩٧٠ ودعوت رئيس الدولة الى افتتاحه فى خريف العام نفسه ، غير أن المنيّة واتته رحمه الله قبل ذلك ، كما أنى خلّفت بدورى وزارة الثقافة فلم أشهد افتتاحه فى ١٩ ديسمبر ١٩٧٢ . وقد تكلف هذا المشروع مليونا من الجنيهات ، وبلغت إيراداته حتى نهاية شهر يونيه ١٩٨٩ ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات ، وبلغ عدد روّاده عن نفس الفترة أربعة ملايين مشاهد . ويدلّنا هذا على أن مشروعات الصوت والضوء كانت إلى جانب ماحقّقته من كسب أدبى وفنى . ذات كسب مادى أيضا . ومالبث « الصوت والضوء » أن جاوز هذه المناطق الى غيرها مما تولاّه غيرى بعدُ.*

وكنت قد أشرت بتسجيل النصوص كاملة على أسطوانات باللغات الأربع لبيعها إلى جمهور المشاهدين الذين توقّعتُ سلفا أنهم سيؤخذون بروعة العروض ولن يلبثوا حتى يطالبوا بمايذكّرهم به على مدى الحياة . كما طلبتُ طباعة كتيبات أنيقة باللغات الأربع تضم النص المنطوق . وقد أعيدت طباعة تلك الأسطوانات والكتيبات مرارا ، وحققت هى الأخرى كسبا ماديا كبيرا إلى جوار ماتنطوى عليه من مادة ثقافية .

على أن نجاحنا فى بعث الحياة فى الآثار بعروض الصوت والضوء والذى لم تعد معه هذه العاديات قطعا جافة صلدة خرساء بل باتت تنطق بصوت الزمن ولونه وطابعه وأسلوبه، كما تهمس بعادات أسلافنا المصريين القدماء وتقاليدهم وخلجات قلوبهم ونجواهم مما جعل مشاهديها يتخيّلون ملوكا ووزراء وكهنة ومهندسين وأطباء ومعلمين يجولون هنا وهناك بين تلك الآثار القائمة ؛ كل هذا

* بلغ إجمالى إيرادات الصوت والضوء عن العام المالى ٨٨ ـ ١٩٨٩ ثمانية ملايين و١٠٧ ألف جنيه مقابل ٦ ملايين و٨١٢ ألف جنيه العام الماضى ، كما حققت الشركة أرباحا هذا العام بلغت ٥ ملايين و٧٥٤ ألف جنيه مقابل ٤ ملايين و٥٥ ألف جنيه العام الماضى (تصريح رئيس الصوت والضوء . الأهرام فى ١٣ / ٩ / ١٩٨٩) .

دفعنا إلى التفكير فى إنشاء مسارح لإقامة المهرجانات الفنية فى الأماكن الأثرية .
وبدأنا تنفيذ الفكرة للمرة الأولى فى أغسطس ١٩٦١ بالمنطقة المجاورة لبوالهول حيث قدمت على مسرحها فرقة « **أولدفيك** » الإنجليزية الشهيرة خلال أربع حفلات مسرحيتى « **روميو وچولييت** » لشكسپير و« **سانت چان** » [**القديسة چان دارك**] لبرناردشو. وعلى الرغم من أن العرض وقع فى شهر أغسطس فقد كان الطريق الصحراوى من الإسكندرية للقاهرة يعجّ بأرتال السيارات تقلّ الوافدين للاستمتاع بهذا العرض. كذلك شدت فوقه السيدة أم كلثوم بأغنية « الأطلال » فى حفل أسهمت بدخله فى إنقاذ معبد فيلة عام ١٩٦٨ ، وأدت عليه فيما بعد فرقة « **باليه كوڤنت جاردن الملكية** » رقصاتها فى شهر سبتمبر ١٩٦٩ خلال الاحتفال بالعيد الألفى لمدينة القاهرة . كما جرى إعداد المسرح الرومانى بالإسكندرية بمعاونة البعثة البولندية التى كانت تقوم بالتنقيب فى المنطقة لعرض المسرحيات الكلاسيكية ، واستُخدم صحن **وكالة الغورى** لتقديم بعض المسرحيات والعروض الفولكلورية التى ظفرت بإقبال منقطع النظير ، كما استُغلت الوكالة فى الوقت نفسه مركزا لإحياء الصناعات التقليدية . وكنت قد وكلت إدارة مشروع الصوت والضوء منذ عام ١٩٥٩ إلى الأستاذ فؤاد العرابى فتولّاها بحماس وإخلاص على خير وجه وأكمله .

* * *

وحين أخذت أطوف بأرجاء متحف الآثار المصرية بدأ يراودنى الفكر فى إحياء تراثنا الحضارى العظيم الذى كان ولايزال جزء كبير منه مخبوءاً فى باطن التربة المصرية ، والذى كان دوما مصدرا سحريا يجتذب العلماء ومحبّى الآثار ويحفز الدولة إلى مواصلة أعمال الحفر حتى ازدادت كمية الآثار المكتشفة زيادة كبرى فاقت كل ما كان متوقعا عند إنشاء المتحف المصرى الحالى . وكنت أحسّ الأسى وأنا أشهد تراكم الآثار إلى حدّ يفقد الزائرون معه متعتهم ، بل وقد يثير فيهم شيئا من الضيق كما يشتّت أفكارهم ، وهو ما كان يحرّك فى وجدانى الرغبة فى اتخاذ اجراءات سريعة لتطوير المتحف القائم إلى أن يتم وضع تصميم لبناء متحف جديد وتشييده فى مكان مناسب بمدينة القاهرة مع بناء متحف ثان بالإسكندرية يكون صنواً لمتحف القاهرة ، فكان اتصالى الذى سبق أن ذكرته

عند الحديث عن دار الأوبرا بمنظمة اليونسكو وأسفر عن إيفادها بعثة على رأسها المهندس وولتر جروبيوس فى فبراير ١٩٦٠ ، ضممتُ إليها جملة من علماء مصر الأجلاّء . وانتهت هذه المجموعة بعد البحث والدراسة إلى استبعاد فكرة تطوير المتحف المصرى الحالى ، موصين بضرورة بناء متحف جديد بوصفه حلاّ حتميا لمشكلات المتحف الراهنة واحتمالات النمو فى المستقبل ، ورأوا أن أصلح المواقع التى اقترحتها الوزارة لإقامة المتحف هو أرض المعارض بالجزيرة نظرا لقربها ووقوعها وسط مساحة واسعة من الحدائق ، فضلا عن أن اتساع مساحتها يتيح توزيع أبنية المتحف بطريقة أكثر جمالا واتساقا .

ورشّح هؤلاء الخبراء للوزارة مهندسين عالميين من ذوى الخبرة العميقة فى هذا المضمار لاختيار واحد منهما لوضع تصميم متحفى القاهرة والإسكندرية أولهما المهندس الإيطالى فرانكو ألبينى الذى قام بعمل التصميمات الحديثة لمتاحف پاتروبيانكو وپلاتزو زوزو بمدينة جنوا ، كما قام بتصميم نفق كاتدرائية هذه المدينة الذى يعدّ تحفة فنية رائعة ، وبرهن فى مبانيه الحديثة على ذوق فنى رائع . وثانيهما المهندس الأمريكى چوزيه لوى سيرت عميد كلية الهندسة بجامعة هارڤارد المشهور بالخبرة الكبيرة والباع الطويل سواء فى أبنية المعارض أو أساليب إضاءتها أو أجهزة تكييف الهواء التى تزوّد بها .

وقد وكلت الوزارة إلى المهندس الإيطالى ألبينى وضع تصميم المتحف إذ كان أكثر من غيره موصولا بطابعنا المعمارى ، وأشركت معه نفرا من المتخصصين المصريين هما المهندس المرحوم على لبيب جبر الأستاذ بكلية الهندسة فى جامعة القاهرة والمهندس محمد عبدالمنعم هيكل عميد كلية الفنون الجميلة الأسبق ، وذلك لضمان خروج المشروع فى صورة تتناسب مع أرقى مستوى معمارى مع الالتزام بطابعنا القومى الأصيل(٥) .

وقد بلغ حرصنا على إتمام المشروع وتمكين المهندسين من العمل أن اتفقت

الوزارة مع الهيئة العامة للمعارض فى الخامس والعشرين من ديسمبر ١٩٦١ على أن تخلى الأرض فى موعد لا يتعدى منتصف مارس ١٩٦٢ ، وإن عادت الهيئة فى الرابع عشر من يونية تطالب بإرجاء تسليم الأرض إلى مطلع عام ١٩٦٥ وذلك حتى يتم استلامها لسوق القاهرة الدولية بمدينة نصر.

كذلك وضع المهندس فرانكوألبينى تصميم مشروع بناء «المتحف اليونانى الرومانى الجديد» بالإسكندرية لكى يضم بين معروضاته مجموعة التماثيل الصغيرة الحجم الدقيقة التفاصيل والمعروفة باسم «تناجرا» والتى تعدّ من التحف البديعة النادرة ذات الأهمية الأثرية والفنية الكبيرة ، وقطعا من أحجار المبانى الأثرية ولوحات الفسيفساء الملوّنة وبعض التماثيل ومجموعة صغيرة من آثار الفن الفرعونى والقبطى (7) .

وكان كل من يقف أمام مركب خوفو الذى بناه المصريون فى عهد خوفو منذ خمسة آلاف عام تعروه الدهشة أمام رهافة تصميمه وروعة مميزاته التقنية . وكان هذا الإحساس العام هو الدافع وراء فكرة إقامة متحف لهذا المركب يتيح للجمهور أن يراه كاملا للتعرّف على دقائقه ، بل لقد وُضع فى الاعتبار تشييد بناء معادل ومتناسب لمركب ثان مدفون إلى جانبه ، وإن لم يبدأ بعد الكشف عنه ، والذى يغلب على الظن أنه مشابه للأول تماما أو أن له على الأقل نفس مقاييسه وأبعاده . وكان أول ما فكر فيه العلماء المصريون هو بناء «متحف مركب خوفو» فى نفس المكان الذى عُثر عليه فيه ، ولم يكن ذلك إلا وليد إحساس بطبيعة المكان وارتباط المركب بالموقع ارتباطا عضويا وثيقا . ولو أنا تأملنا تخطيط موضع الحوضين اللذين حُفظ بهما المركبان اللذان لم يكتشف ثانيهما بعد - وإن أوحت بمكانه وأبعاده شواهد سطحية - لوجدنا أنهما قد وُضعا فى موضع يتّسق مع وضع الهرم نفسه ، فقد وُضعا على استقامة واحدة ومتوازيين مع ضلع الهرم الجنوبى . ثم إننا لو أغفلنا البواعث الدينية والطقوس الجنائزية التى حدّدت وضع المركبين على مقربة من قبر الملك فإن تأمل الموقع يكشف لنا عن أن الحوضين قد حُفرا قرب الهرم طبقا لفكرة هندسية وثيقة الارتباط بتصميم الهرم . ولو أنه كان قد تم نقل أجزاء المركب الخشبية بعد اكتشافها إلى مكان آخر لإعادة تكوينها لتخلّف عن ذلك

فراغ عديم الجدوى فى هذا الموقع ، ولتحتّم أيضا تشييد مبنى لحماية هذين الحوضين والكتل الكبيرة التى كانت تغطيهما والتى تمثل فى الواقع عناصر قيمة من حيث التقنية الأثرية ، ذلك لأن المعماريين القدماء كانوا قد خصّصوا لكل منها مكانا محددا طبقا لنظام موضوع لا يسمح بتحريك أى منها قبل تحريك الكتلة التى تعدّ بمثابة مفتاح للحوض كله . كما أن الاحتفاظ بهذين المركبين المعاد بناؤهما وعرضهما فى نفس موقعيهما الأصلى مع تزويدهما بالوثائق الخاصة بإصلاحهما وإعادة تكوينهما يمثّل عرضا رائعا وقيّما لبناء السفن نفسها واكتشافها المعجز بعد خمسة آلاف سنة . وكان أهم ما يشغل البال هو كيف نقيم هذا المركب فى بيئته تلك ذات الطابع الخاص وبحيث تقع عين المُشاهِد على كل جوانبه الأثرية والمعمارية التى لانظير لها(٧) .

وكان اختيارنا للموقع الحالى الذى أقيم عليه متحف مركب خوفو لأسباب ثلاثة ، أولها الحرص على ألا يصيب المركب تلف بنقله إلى مكان بعيد ، فقد نالت السنون من أخشاب هذا المركب فأصبحت هشّة لاتقوى على الانتقال . وثانيها أن هذا المركب يرتبط ارتباطا كليا بالمكان الذى عُثر عليه فيه إلى جوار الهرم الأكبر . وثالثها ما يُضفيه هذا المتحف بصغر مساحته على الهرم ، فيتجلّى الأخير بإزائه شامخا فى جلال .

* * *

ولقد تبين لى أثناء الإعداد للحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة فى سنة ١٩٥٩ متعاونا مع منظمة اليونسكو أن بين أيدينا مجموعة ضخمة من الآثار أشبه ماتكون بالسفراء لنا لدى الدول تنطق بلسان أفصح مايكون بيانا وإقناعا . فقد يختلف معنا الغير حول رأى أواتجاه ، لكن أحدا لن يختلف معنا على قيمة مانملك من تراث ، ولم أشك فى أننا لوأرسلناه للعرض الخارجى لحمل إلى العالم رسالة خلاصتها أن الناس الذين استطاعوا أن يقدموا للإنسانية هذا الجلال المهيب منذ آلاف السنين قادرون على استئناف الرحلة إلى التقدم والامتياز، واطمأنت نفسى إلى أن هذه السفارة تستحق العناية على مافيها من عناء . هكذا نشأت فكرة عرض آثارنا فى الخارج لأول مرة . غير أن مصاعب جمة وعقبات لا حصر لها أخذ يقيمها فى سبيلنا البعض ؛ منهم من أثار حملة على هذا المشروع فى الصحف ، ومنهم من كان له رأى مضاد فى المجلس الأعلى للآثار. ولكن على الرغم من هذا وذاك

فقد غلبت كلمتنا كلمتهم ، فأوفدنا سنة ١٩٦٠ أول معرض لآثارنا تحت اسم « ٥٠٠٠ سنة من الفن المصرى » طاف بعواصم أوربا ومدنها الكبرى بادئا ببروكسل. وحقق نجاحا لانظير له ، ومكّن الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة من أن تقول للناس : هذا نموذج للتراث الذى نناشدكم أن تتكاتفوا معنا لإنقاذه . وكانت لى مع هذه العروض المختلفة فى البلدان المختلفة فرصة بعد فرصة التقيت فيها برؤساء الدول والوزراء المعنيّين لأحفزهم على بذل مايمكن من عون لإنقاذ آثار النوبة على نحو ماسيأتى تفصيله فى الفصل السادس .

ونجح هذا السفير ونجحت سفارته ، الأمر الذى حفزنا إلى إرسال ثلاث وثلاثين قطعة من تحف « توت عنخ آمون » إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٦١ ، فطافت بالعديد من ولاياتها ، وكانت أصدق سفير حمل الولايات المتحدة على الرغم مما كان من خلاف سياسى بيننا على الإسهام فى إنقاذ آثار النوبة بإثنى عشر مليون دولار لأبى سمبل ، أضيف إليها مليون جنيه للمساهمة فى إنقاذ المعابد الصخرية ، هذا إلى ما اعتمدته للإنفاق على الحفائر والبحوث وأعمال التسجيل . ولا أغالى إذا قُلت إن معرض توت عنخ آمون كان واحدا من أنجح المعارض الفنية العظيمة التى أقيمت خلال القرن الحالى ، فبعد أكثر من ثلاثة آلاف عام من موت هذا الملك الشاب إذا هو يغزو أمريكا وقد شقّ طريقه عبر ولاياتها فى زهو وكبرياء وكأنه نجم من نجوم الفن المعاصرين أكثر منه ملكا تاريخيا ، وكان من اختلفوا إلى رؤيته يربون كثرة عمّن اختلفوا إلى غيره من المعارض ، وما من صحيفة ولا من مجلة إلا وكانت تطالع القراء بصورة وجهه الحالم الغضّ ، كما حفلت فترينات المحال عامة بصور له ونماذج من قناعه ، وكذا لم يفت التليفزيون عرض الكثير من المشاهد المتصلة به ، إذ كان الغموض الذى أحاط بسيرة هذا الملك قد استولى على خيال الأمريكيين وأثار فيهم الشوق إلى رؤية معرضه ، فإذا الحفلات تقام فى المدن مدينة بعد مدينة احتفاء بهذا الزائر « توت » ، وإذا قوائم الطعام تستحيل فى الكثير من المطاعم إلى حروف هيروغليفية ، وإذا نحن نرى سيارة مبتكرة أطلق عليها اسم « توت ـ موبيل » عجلة قيادتها تمثل الكوبرا ، وعلى سلّمها تماثيل أبى الهول ، وشبكتها الأمامية تمثّل رأس توت عنخ آمون . وكذا رأينا مدينة من المدن الأمريكية تطلى الشارع الرئيسى فيها باللون الأزرق الذى يحكى مياه

النيل وتعد فرقة موسيقية « للچاز » لتعزف ألحان الوداع الجنائزية وهى تشيّع توت عنخ آمون الراحل عنهم . وما إن انقضت بضعة شهور حتى رأينا « المولّهين بتوت » Tut maniacs ـ كما كانوا يدعون ـ قد أقبلوا بنهم على شراء الحلىّ والتماثيل والأوانى الممهورة بصورة توت عنخ آمون ، وكذلك الكتب والنشرات التى تروى سيرته . هذا إلى أربطة العنق والأوشحة والقمصان التى صوّرت عليها بعض النماذج التى امتلأ بها تابوته . وبلغت قيمة التمثال الجميل المُستنسخ للإلهة سِلْكِتْ ـ إحدى الإلهات الأربع الحارسات لمقبرة توت ـ ألف وخمسمائة دولار . وإذا مقدار ما أنفق فى هذا المجال يبلغ ثلاثة عشر مليونا من الدولارات خلال بضعة شهور . وكان إقبال الناس فى كل مكان أقيم فيه معرض الملك توت يعدّ من الخيال ، فكم لبث الناس فى انتظار دورهم ساعات وساعات بلغت فى المتوسط سبعا ، وبقيت المتاحف التى تُعرض بها هذه الكنوز مفتوحة الأبواب طيلة أيام الأسبوع .

ونظرا للنجاح الذى لقيه معرض ٥٠٠٠ سنة من الفن المصرى ومعرض توت عنخ آمون فقد تقرر نقلهما إلى اليابان حيث نجح كل منهما فى شدّ انتباه اليابانيين بشكل لم يتوقعه أحد . وأسفرت هذه السفارة الجديدة فى اليابان عن تحوّل جذرى فى موقف اليابان من الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة ، فضلا عما تركته المعروضات من أثر فى الدعوة للحضارة المصرية وتأثّر الأزياء بالتصميمات الفرعونية . وانتقل « توت » بعدها إلى أوربا ، حيث عُرض فى باريس سنة ١٩٦٧ ، ثم فى لندن سنة ١٩٧٢ ، فكان له فى كل من البلدين صدى عميق .

* * *

ـ ٥ ـ

ويمثل مشروع إقامة « أكاديمية الفنون » حجر الزاوية فى الخطة الطويلة المدى لوزارة الثقافة ، وكان النهوض بمسئوليات مثل هذه الرسالة يقتضى وفرة هائلة رفيعة المستوى فى القدرات والإمكانيات البشرية ، فوزارة الثقافة كانت تتطلب نوعية خاصة من الأفراد الذين اكتسبوا إلى جانب العلوم والمعارف ثراء الموهبة وخصوبتها وسعة القدرة ، فضلا عن حسن التعامل وذكاء التناول وسلامة

القيادة الإدارية مع تخصص عميق فى أحد فروع الآداب أو الفنون أو مجالات الفكر. وإذ كنت قد استشعرت هذا النقص فى الإمكانيات البشرية المتاحة كان لامناص من رسم سياسة طويلة المدى لإعداد هؤلاء الدعاة والرواد الذين سيضطلعون يوما ما فى المستقبل بالعمل الثقافى، والذى هو بطبيعته عمل يقتضى الريث والأناة والتحصيل والإتقان والجهد الدائب المتصل، فمحال أن تتم منجزات ثقافية أو تقام صروح للثقافة دون أن تؤسس على دعائم وطيدة راسخة نُحكم لها التخطيط. وإذ كنا نتحدث عن رفع مستوى الثقافة فلا شك أن أول ما نعنيه بذلك رفع مستوى المضمون الفكرى فى الأعمال الفنية والثقافية المختلفة دون أدنى إغفال للشكل التعبيرى. فالثقافة لا تكون رفيعة بمضمونها الفكرى وحده وإنما أيضا بوسائلها فى التعبير، أى بامتلاك أربابها لناصية الفن الذى يعبّرون به، وفهمهم الكامل لمقاييسه العلمية النقدية واستيعابهم لأسسه وخبراته العالمية، إلى الحد الذى يؤهل العمل الثقافى لكى يدلى بدلوه، فينشط لرفع المستوى الفنى للعاملين فى حقل الثقافة باعتبار ذلك شرطا للوصول إلى ثقافة رفيعة فنيا وفكريا.

ولذا فقد كانت إقامة المعاهد الفنية بالنسبة لوزارة الثقافة نقطة بدء ضرورية فى هذا الاتجاه، فاخترت مع نهاية عام ١٩٥٨ فريقا من رواد الفن فى مصر شكّلتُ منهم لجانا للدراسة، ومالبثوا أن عكفوا على مهمتهم بجدّ وحماسة حتى التقوا حول القواعد والأسس التى تنهض عليها المعاهد الأربعة لتلك الأكاديمية المنشودة [المعهد العالى للموسيقى ومعهد السينما ومعهد الباليه ومعهد الفنون المسرحية]. وحين أصبح إنشاء هذه المعاهد أمرا ممكنا عرضتُ مشروعها على مجلس الوزراء، غير أنه لم يلاق الترحيب المنشود، بل لقد أثارت وزارة التربية والتعليم مشكلة إنشاء المعهد العالى للموسيقى إذ رأت فيه ازدواجا مع معهدها العالى للموسيقى. فأوضحت أنه على حين أن الهدف من معاهد وزارة التربية والتعليم هو الوفاء باحتياجات المدارس من معلّمى الموسيقى والأناشيد فإن الكونسيرڤاتوار يقوم لتوفير متخصصين فى التأليف الموسيقى وقيادة الأوركسترا وإجادة العزف والغناء. وحرصا منى على طمأنة المجلس إلى سلامة هذا الإجراء شكلتُ لجنة من مسئولى الوزارتين أوصت فى شهر أغسطس ١٩٥٩ بسلامة المشروع. ومع ذلك أحسست

بفتور تجاه إنشاء هذه المعاهد داخل مجلس الوزراء ، فمضيتُ أستنجد بالرئيس الراحل جمال عبدالناصر الذى أعطانى أذنا صاغية وأنا أعرض تفاصيل المشروع وأبسط ماينتظر أن تحقّقه هذه المعاهد من خيرٍ مُؤسَّسٍ على علم أصيل ، وإذا هو فى النهاية يبدى اقتناعه و يطلب الىّ أن أظفر أولا بموافقة كتابية من عددٍ من الوزراء « المركز يين » الذين حدّدهم لى حتى يستند إلى هذه الموافقة فى إصدار قراره الجمهورى بإنشاء هذه المعاهد . وكان من بين هؤلاء الوزراء الزملاء عبد الحكيم عامر وزكر يا محيى الدين وحسين الشافعى وعبداللطيف البغدادى وكمال الدين حسين على ما أذكر ، ولما كنا فى فترة العطلات الصيفية فقد مررت بهم واحدا واحدا حيث يقيمون بالإسكندر ية للحصول على موافقتهم كسبا للوقت .

وصدر القرار الجمهورى رقم ١٤٣٩ فى الثانى والعشرين من أغسطس ١٩٥٩ بإنشاء « **المعهد القومى العالى للموسيقى** » [**الكونسير ڤاتوار**] ، وهو منشأة علمية مستحدثة وغير مسبوقة فى تار يخ الحركة الفنية بمصر ، و« **المعهد العالى للفنون المسرحية** » الذى صار بديلا لمعهد الفن المسرحى الذى كان قائما من قبل ولم تكن تتوافر له كل المقوّمات والمزايا التى أنشىء من أجلها المعهد الجديد ، و « **معهد الباليه** » الذى أصبح بديلا لفصل الباليه التدر يبى الذى أنشىء فى عهد الأستاذ فتحى رضوان ، وحين تولّيتُ أمر وزارة الثقافة دعوت الخبير السوڤييتى ألكسى چوكوف فى ديسمبر ١٩٥٨ ليتولى مسئولية التدر يب فيه . وفى أكتوبر ١٩٥٩ بدأ المعهد رسالته الفنية بعد أن استقدمتُ له من الخبراء السوڤييت من أثمرت جهودهم فى تكو ين فر يق مصرى للباليه بعد عشر سنوات(٨) ، و« **المعهد العالى للسينما** » ، وهو أيضا منشأة فنية علمية مستحدثة وغير مسبوقة فى مصر . وقد وكلتُ إلى المرحوم الفنان محمد كريم عمادة هذا المعهد ، وشاركه فى الإعداد المرحوم الفنان أحمد بدرخان ، فوضعا معا الأساس العلمى والإدارى السليم للمعهد فى قدرة فائقة وتفان مذهل ، وشاركهما كذلك الأستاذان أحمد كامل مرسى وعلى فهمى وغيرهم من كبار الفنانين السينمائيين . ثم استقدمتُ للمعهد فيما بعد الخبراء الفرنسيين الذين خرّجوا جيلا جديدا من المخرجين الشبان المؤهّلين تأهيلا فنيا عاليا فاحتلوا بعدُ مركز الصدارة فى حقل السينما فى فترة

وجيزة . وكنت قد أرسيت حجر الأساس لمبنى « المعهد العالى للسينما » فى الرابع من أغسطس ١٩٥٩ ، وبدأت الدراسة الفعلية فى موقع مؤقت فى الرابع والعشرين من أكتوبر من نفس العام . كما أرسيت حجر الأساس « للمعهد العالى للفنون المسرحية » فى الحادى والعشرين من يوليه ١٩٦٢ ، غير أن مشروع المبنى تعثر بعد ذلك شيئا ومضى بخطوات متثاقلة أوحت بأن فى النية صرف النظر عنه .

وأود أن أوضح أنه برغم صدور القرار الجمهورى بإنشاء هذه المعاهد فإن الدولة لم ترصد فى ميزانية عام ١٩٥٩ أى مبلغ لشراء الأرض التى تقام عليها هذه المعاهد أو لبنائها . وأمام هذا الموقف لجأت إلى الزميل الأستاذ أحمد طعيمة وزير الأوقاف التى تفضل مشكورا واستجاب لرجائى ومنح وزارة الثقافة قطعة الأرض التى أقيمت عليها المعاهد فى بداية طريق الهرم بشروط ميسّرة وعلى مدى طويل . كما أنى لجأت إلى مؤسسة دعم السينما التابعة للوزارة لأقترض مبلغا يكفى تكاليف بناء المعاهد وخروجها إلى الوجود ، وهو ما كانت اللوائح تسمح به . وقد انبثقت وسط أبنية هذه المعاهد **« قاعة سيد درويش للاستماع الموسيقى »** التى شكا

البعض فى البداية بُعدها عن وسط المدينة ، ولكن بناءها تم باعتبارها قاعة ملحقة بمبنى الكونسير فاتوار استفادة من مساحة الأرض المتاحة والقرض المالى المتيسر . . . ولعلها الآن إضافة قيّمة لقاعات الاستماع فى مصر ، ولم تعد بعيدة بأى مقياس .

وقد بدأت الدراسة فى هذه المعاهد جميعا فى أكتوبر ١٩٥٩ فى أماكن مؤقتة متفرقة إلى أن فرغت الوزارة من تشييد المبانى . وكان من حسن حظ « المعهد القومى العالى للموسيقى » أن بناءه أقيم وفق تصميم ملائم لمهمته من مبدأ الأمر ، وكنت قد أرسيت حجر الأساس له فى ٢١ يوليه ١٩٦٢ ، وإن كانت الدراسة به قد بدأت من أكتوبر ١٩٥٩ بفصول إعدادية وثانوية وفصل أول من المرحلة العليا ، وأسندتُ عمادته إلى المهندس الموسيقار أبوبكر خيرت الذى عهدت إليه أيضا بوضع التصميم المعمارى للمبنى كما أسلفت . وفى سنة ١٩٦٢ رأيت إعادة تقييم الدراسة فى المعهد ووضع مايستلزمه التقدم الفنى فيه وتطويره طبقا لأحدث النظم العالمية ، فاتفقت مع السلطات الإيطالية فى أغسطس ١٩٦٢ لإيفاد خبير

من معهد سانتا شيشيليا الموسيقى بروما ليعمل إلى جوار العميد المصرى ، غير أنى تركت الوزارة فى الشهر التالى .

كذلك أرسيت حجر الأساس « لمعهد الباليه » فى ٢١ يوليه ١٩٦٢ ، وكانت فكرة إنشاء هذا المعهد غريبة على بلادنا بلا جدال ، وكان طبيعيا أن يتهمها البعض بأنها فكرة مستوردة . والباليه فن شاق يحتاج التمكّن منه إلى جهد كبير وإعداد مُضْن طويل للراقصين والراقصات ، كما يحتاج إلى دراسات عالية لتخريج مصمّمى الرقصات والمخرجين ودارسى الديكور وتاريخ الباليه . ولما كان العالم كله يشهد للروس بأنهم أساتذة هذا الفن الرفيع ، فقد كان طبيعيا أن تعهد وزارة الثقافة إلى خبراء منهم بالإشراف على معهد الباليه منذ إنشائه . وكان هؤلاء الخبراء من فريق مسرح البولشوى بموسكو الذى وافق لأول مرة فى تاريخه على تدريب راقصين وراقصات من غير الاتحاد السوفييتي وعلى احتضان معهد نشأ فى غير بلاده .

وكان من أهم البذور الطيبة التى غرسها الأستاذ فتحى رضوان فى عالم الفن والثقافة « **مركز الفنون الشعبية** » الذى أنشأه عام ١٩٥٧ ليكون مؤسسة علمية لتسجيل التراث الشعبى بمختلف أنواعه . وقد اشتعلت حماستى أنا الآخر لرعاية هذا المركز منذ الخطة الخمسية الأولى [١٩٦٠ — ١٩٦٤] وتعجّلت إرسال الباحثين لجمع القصص والأغانى الشعبية ورصد العادات والممارسات الشعبية فى مختلف المناسبات والمواسم وتسجيل ذلك كله صورة وصوتا قبل أن يطمس الزمن طابعها الحىّ الأصيل تحت عجلات التطور الزاحف من المدينة إلى أعماق الريف . والفن الشعبى هو التعبير الصادق عن روح الجماعة والانعكاس الأمين لمشاعرها المختلفة عن لحظات انتصاراتها بما فيها من نشوة وزهو ولحظات محنتها بما فيها من إحباط وانطواء . ولقد كانت المقاومة الباسلة التى تميز بها شعب مصر مطبوعة دائما على صفحة الفن الشعبى ضد غزاته ممن أرادوا استغلاله وتسخيره لتحقيق مصالحهم ، ومداراته بالخديعة والحديث البراق والمصالحة الخبيثة ، فإذا هم يواجهون روحا مدركة ذكية قادرة دائما على كشف مايحاول الغزاة إخفاءه . ظهر ذلك كله فى الفن الشعبى قصصا وملاحم وأزجالا ومواويل وغناء وصورا تعبيرية رائعة خلّدت فترات حياة الشعب فى كفاحه وآماله ، كما سجلت عاداته وتقاليده وأعرافه وأساليب حياته وقيمه الفنية والجمالية .

غير أن الدكتور لويس عوض ما لبث أن أشار عليّ بإنشاء معهد للفنون الشعبية لما له من أهمية ، حيث إن ما يقوم به المركز من مسح وتسجيل وتوثيق لن تكون له صبغته العلمية إلا إذا أُعِدَّ من يقومون به إعدادا علميا نظريا . وحين اقتنعت بالفكرة رأيت أن فى إنشاء « **المعهد العالى للفنون الشعبية** » ما يمثّل إضافة ودعما لجهد سلفى الجليل للإمساك ببداية الخيط وليكوّن جيلا من الدارسين يعرف ماذا يجمع من هذه الفنون وكيف يجمعه ثم كيف يصنّفه ويدرسه بحيث يصبح مادة صالحة لدرس الدارسين ووجودا فنيا يستلهمه الفنانون فيجد الفن بذلك طريقه إلى الارتباط العضوى بين مبدع الفن ومتذوّقه من خلال التعبير الفنى الأصيل . فشكّلتُ لجنة من ذوى الخبرة لوضع أسس إنشاء المعهد ، فخطّطوا للدراسة فيه كما خطّطوا لإيجاد نماذج فنية ومعمارية للمواقع الأثرية الخصبة العامرة بالفنون الشعبية كمنطقة النوبة والواحات تمثّل روعة فنونها المعمارية ونماذج لصناعاتها وحرفها التقليدية وأزياءها وفنونها الشعبية . واستكمالا لهذه البحوث طلبت تقارير علمية من علماء متخصّصين فى الخارج من بينهم الأستاذ إيفانز پرتشارد من جامعة أكسفورد تولّى أمرها الدكتور لويس عوض لتتجمع بين أيدينا العناصر الفنية والعلمية الضرورية لإقامة معهد علمى على أرقى مستوى قادر على تطوير فنوننا الشعبية وتنقيتها من الشوائب وتخليصها من الجمود . وعلى هذا استقر الرأى على أن ينقسم برنامج المعهد إلى قسمين : أولهما للدراسات ومعامل تحليل الأصوات والألوان ، وثانيهما متحف مكشوف فى العراء ينمو مع الزمن ويعرض نماذج الحياة فى أنحاء البلاد من عمارة وتقاليد وعادات ، وقد عهدت إلى العالم الجليل والمعمارى العالمى حسن فتحى بإعداده ، فقام يعاونه الفنان النابه عبدالغنى أبوالعينين بتخطيط الأرض المخصّصة للمعهد والبالغ مساحتها سبعة عشر فدانا ، ثم وضع تصميمات مبنى المعهد والمتحف المفتوح الذى يمثّل العمارة المصرية من أسوان جنوبا إلى رشيد شمالا ، ويضمّ فى داخله الحرف البيئية والفنون الشعبية لكل إقليم ، بعد أن رفع ثمانية عشر بيتا من بيوت النوبة قبل أن تغمرها مياه السد العالى ، وانتهى من هذه التصميمات جميعا فى نهاية عام ١٩٦٢ . وها أنذا ألخّص رؤيته لمشروع المتحف المفتوح التى كان أساسها أن تتمثّل فيه أنواع العمارات وألوان الفنون الشعبية فى مصر عامة على نحو تُرتَّب فيه المعروضات ترتيبا تاريخيا وجغرافيا ليتمكن

الزائر من مسايرة التطور الذى عرض فى مجالات العمارة والفنون الزخرفية والتشكيلية الشعبية فى كل إقليم . فثمة فرق كبير بين مثل هذا المتحف المفتوح والمتاحف الأركيولوچية التى تُعرض فيها النماذج عرضا جُزافيا فلا يستطيع الزائر أن يعى التطور الذى أشرت إليه . واستملاء من الظروف البيئية كان لزاما أن يُقَسَّم هذا المتحف المفتوح إلى بيئات نوعية خمس ، هى النوبة والصعيد والوجه البحرى والصحارى بواحاتها والسواحل ، على أن يمثل كل بيئة شارع طولى . وتطبيقا للتقسيم الزمنى كانت ثمة شوارع عرضية ثلاث تتقاطع مع الشوارع الطولية . وهذه الشوارع العرضية الثلاث ينتظم أولها فترة ما قبل عام ١٩٠٠ وثانيها الفترة بين عام ١٩٠٠ وعام ١٩٤٠ وثالثها ما أُنشىء بعد عام ١٩٤٠ . والعِلَّة فى هذا الاختيار هى مسايرة تلك التقسيمات للحقبات الزمنية والعهود الفنية التى مرّت بها العمارة والفنون الشعبية فى كل إقليم .

ولقد خصّصتُ للمعهد قطعة أرض إلى جوار سائر المعاهد وأرسيتُ حجر الأساس له فى عيد الثورة العاشر عام ١٩٦٢ ، غير أن الظروف لم تشأ أن تتحقق هذه الأمنية على يدى وأرجىء افتتاح المعهد العالى للفنون الشعبية إلى مارس ١٩٨٢ ، إلا أنه جاء علىٰ غير المنهج الأول الذى رُسم له .

ومنذ عام ١٩٦١ راودتنى فكرة الارتفاع بمستوى التذوّق الفنى لهواة الفنون إلى المستوى الذى يتيح لهم استيعاب مايشاهدونه من عروض ومعارض فنية استيعاباً شاملا لما تنطوى عليه من قيم رفيعة فضلا عن منجزات الإبداع الفكرى والأدبى . وكنت أدرك أيضا أن نقطة الضعف فى مشروع قصور الثقافة الذى تنهض به الوزارة ليست هى المال الذى يمكن أن ندبّره يوما ما بل هى غيبة روّاد الثقافة القادرين على تبسيطها وتقريبها من قلوب الجماهير ووضع أيديهم على القيم الجمالية فى الفنون وإنماء قدرات الأفراد على الاستيعاب والفهم الصحيح والمناقشة الموضوعية والتذوق الواعى ، وكذلك الكشف عن المواهب الكامنة فيهم ، ثم تنسيق البرامج الثقافية طبقا لخطة محكمة تضع فى اعتبارها تفاوت مستويات عاشقى الثقافة واختلاف مناطق إقامتهم . كانت تنشئة هؤلاء الروّاد من الضرورة بمكان ، فبدونهم يتعذر توجيه الحركة الثقافية وإثراؤها بالنقد السليم القائم على الدراسة العلمية الموضوعية والتذوق السّوىّ للفنون ، فهم الطليعة التى ينبغى أن تعتمد عليهم وزارة الثقافة فى

وصلها بالجماهير وحمل رسالتها إلى مختلف الأقاليم ، وهم أخيرا الدعامة التى تقوم عليها رسالة قصور الثقافة وبيوتها . لهذا أخذت تشغلنى فكرة إقامة « **معهد للتذوق الفنى** » يتخرج فيه عدد مناسب من هؤلاء الرواد الذين تحتاجهم الوزارة فى مشروعاتها المختلفة فى المستقبل ، فدعوت لفيفا من أساتذة الفنون والمتخصصين

للأخذ فى تنفيذ هذه الفكرة فوضعوا الأسس وبرامج الدراسة كما حددوا الميزانية اللازمة للتنفيذ . وفى السادس والعشرين من يوليه ١٩٦٢ أصدرت قرارا بإنشاء فصل « **للتذوّق الفنى** » يُلحق بالمعهد العالى للفنون المسرحية ، تقدّم له لفرط دهشتى ألف وعشرون طالبا من خريجى الجامعات ، الأمر الذى كان يعكس مدى اللهفة والتعطش إلى مثل هذا النوع من الدراسات . وقد أسندت الإشراف على هذا القسم للمرحوم الدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس والجماليات بكلية الآداب يعاونه كل من المهندس عبدالمنعم هيكل عميد كلية الفنون الجميلة الأسبق والأديب الفنان المرحوم بشر فارس . على أنى مالبثت أن خلفت الوزارة بعد ذلك بشهور قليلة فلم يُكتب لهذا المشروع أن يرى النور عندها .

- ٦ -

وكانت ثمة حقيقية يعلمها كل المهتمين بالفنون هى أن كثرة من المصوّرين والنحاتين يعكفون على الإبداع فى حماسة ودأب جديرين بالإعجاب ، غير أنهم محاصرون بصعاب تعوق بلوغ الحركة الفنية قمة الازدهار . وإذ كنت مقتنعا بأنه ينبغى أن يكون لوزارة الثقافة دور مؤثر فى تيسير قيام نهضة فنية دافقة تملأ حياتنا بالإنتاج النابض بالحياة فقد طالبت بعمل دراسة كشفت عن مواجهة الفنانين لصعاب ثلاث : أولها ضيق فرصة عرض إنتاجهم على الجمهور ، وثانيها عجزهم عن تسويق أعمالهم وهو ما يحرمهم من جنى الثمار المادية لجهدهم ، وثالثها ضغط الظروف المعيشية إلى الحد الذى لا يجدون فيه الوقت الكافى للإنتاج والتواصل مع الإبداعات الفنية المنتجة داخل البلاد وخارجها .

والفنان لا يعمل لنفسه ولكنه يعمل للناس ، ولهذا فهو يشعر أن من حقه أن يتصل بجماهيره مباشرة ، يعرض عليهم إنتاجه ويرى وقع هذا الإنتاج فى

نفوسهم ؛ كيف تأثروا به ، وماذا لهم عليه ؟ وإن خير ما يصبو إليه الفنان أن يجد طريقه إلى عرض ما ينتجه ، وذلك حقه . وقد رأينا أن على وزارة الثقافة الاضطلاع بعبء ذلك ، فليس من المنطق أن ينتج الفنان ويكدّس ما أنتج فى مخازن لا ترى النور . كما لابد للمُشاهِد أن يعايش الفن دائما حتى يترك الأثر المطلوب فى نفسه ويرتفع بذوقه ويثرى وجدانه ، ولذا كان لتسويق الأعمال الفنية من الأهمية ما للعرض الفنى ، فإن فرص العرض تقدّم الفنان للناس ، لكن تسويق الأعمال الفنية يربط الناس بفن الفنان . ومن هنا رأينا أن نجعل تسويق العمل الفنى مما تضطلع به وزارة الثقافة حتى يحصل الفنان على ثمن ما ينتج ، كما رأينا أن وزارة الثقافة حين تتيح للجماهير أن يعايشوا الفن فى بيوتهم وغرف مكاتبهم فتقع عليه عيونهم صباح مساء وتكون ثمة معايشة دائمة للفن ، فإنها تتيح فرصة تطوير الذوق الفنى بين الناس . بل إنه ينبغى أن تبقى الأعمال الكبرى من حق المجتمع ، يعرضها بين القطع الشامخة فى متاحف الدولة . إذ هى ضرورية للفنان نفسه توقظ من إلهامه ، كما هى ضرورية لكافة الناس .

ومعنى هذا أن سياسة اقتناء الأعمال الكبرى فى متحف الفن الحديث وفى المتاحف المختلفة وفى قصور الثقافة هى ضرورة لتطور العمل الفنى ودفعه إلى النهوض . كذلك فإن عرض هذه الأعمال فى المرافق العامة له من الأهمية قدر كبير ، فهو أولا يدل على ذوق عام شفاف ومستنير يكسب النفس الإحساس بالحرص والاحترام لكل ما هو جميل أو مفيد مما ينعكس على تصرفات الفرد اليومية ويدفعه إلى المحافظة على مكان عمله أو على ما يستخدم فى عمله من أدوات وآلات ، وهذا فى ذاته وسيلة لحفزه إلى الحرص على الثروة القومية العامة ؛ فضلا عن أن أداء العمل فى مكان تظلّله الجماليات يزيد من الإنتاج ، وعلى هذا الأمر أجمع علماء النفس والاجتماع والجمال ورجال الأعمال الذين خطوا فى كثير من البلاد المتقدمة خطوات جادة نحو زيادة إنتاج الأفراد مستعينين بالفنون الجميلة كالموسيقى والفنون التشكيلية . ثم هو فوق ذلك وسيلة لترويج العمل الفنى ونشره على نطاق واسع فى أماكن يختلف إليها الناس لأعمالهم المختلفة . بل إن سفاراتنا فى الخارج وكذلك المرافق الكبرى داخل البلاد كالمطارات ومحطات السكك الحديدية وأماكن التجمعات ينبغى أن تزخر بهذه الأعمال بشرط أن تكون منتقاة

بعناية حتى لا نهبط بمستوى ما لدى الناس من حظ من الثقافة الفنية أو اختزان للمشاعر الفنية ، وأن تُعرض العروض الطيب الذى يقدمها فى أجمل إطار . ولا أزعم أن وزارة الثقافة كانت قادرة على ذلك كله فجأة أو بين يوم وليلة ، لكنها مع هذا لم تتخل عن مسئوليتها . ففى مجال تهيئة فرص عرض الأعمال الفنية استطعنا أن نوفر أربعة أماكن للعرض إلى جوار رعايتنا لقاعة أتلييه القاهرة واستئجارنا أبهاء الفنادق الكبرى لعرض الأعمال الفنية . وفضلا عن ذلك فقد وفّرنا فى كل قصر ثقافة قاعة لعرض الأعمال الفنية لنشر النهضة الفنيه فى القاهرة والأقاليم على حد سواء .

ثم كانت التفاتة نحو الفنانين أنفسهم الذين قد تضطرهم الحاجة والسعى وراء العيش إلى سلوك مختلف المسالك لتأمين حياتهم ، فقد يضطر البعض إلى بذل الجهد فى عمل مرهق غير مناسب يصرفه عن فنه ، وقد يقع فى أسر ظروف نفسية واجتماعية تحول بينه و بين الإبداع . وكان الدكتور لويس عوض قد تقدم الىّ فى مطلع عام ١٩٥٩ بمذكرة مستفيضة تتناول موضوع « تفرغ الفنانين » صادفت كل الهوى من نفسى، فتبنّيتها ورعيتها إذ كنت أشاركه رأيه الثاقب فى أن واجب وزارة الثقافة هو رعاية المواهب ، وذلك بأن تمنح الفنان الواعد فرصة التعبير عن نفسه بعيدا عن مشكلات الحياة ومواقفها ، ثم تقدّمه بعدها للجماهير، وعندها يكون عليه أن يستقل فى مسيرته الفنية بعد أن مُنح فرصة العمل بالتفرغ و بعد أن تم تقديمه للجماهير، فإن نجح بعدها فذلك كسب ، وإلا فإن وزارة الثقافة تكون قد أرضت ضميرها وصانت احتمالات الإبداع من أن تتبدّد . وهكذا أرسينا « نظام التفرغ » الذى تقدم فيه وزارة الثقافة راتبا شهريا للفنان مدة عام أو أعوام حسب تقييم لجنة من المتخصّصين والنقاد المشهود لهم فى هذا المجال عهدتُ بها إلى الفنان حامد سعيد حتى يتفرغ الفنان تفرغا كاملا لإبداعه الفنى .

ومما لاشك فيه أن نظام التفرغ كان تجربة رائدة تتيح للفنان عزلة يبدع فيها آمنا مطمئنا ، فقد أظلّ هذا النظام إلى أن تركت الوزارة تفرغ ثلاثة وثمانين فنانا تشكيليا وأربعة من الموسيقيين وأربعين كاتبا واثنين من المشتغلين بالفن السينمائى ، فدفع كثيرا من الطاقات لاسيما فى مجال الفنون التشكيلية نحو

الاكتمال ، بل كشف عن مواهب كان يمكن أن يجرفها تيار الحياة العاتى دون أن يتنبّه لها أحد أويلتفت إليها إنسان . وأعتقد أن هذه الحصيلة تؤكد أن ما كان يُنفق سنويا على التفرغ ــ وهو حوالي عشرين ألف من الجنيهات ــ لايعادل ما أضافه من إنتاج انضم إلى الثروة الفنية القومية . وكانت هذه التجربة التى أرسيتُ قواعدها والتى كان لها هذا النفع العظيم هى الأولى من نوعها فى مصر .

غير أن الأمر المثير للدهشة والرضا معا أن قراءة التاريخ قد كشفت لنا أن هذه التجربة التى تحمّسنا لها وتحمّس معنا الفنانون لم تكن جديدة كل الجدّة على مصر ، وأننا كنا نمضى فيها على هدى خطى أسلافنا ، إذ سبقنا متحف الإسكندرية إبان العصر البطلمى بمنح العلماء العاملين فى مكتبته الشهيرة مرتبات شهرية ليتفرغوا إلى أبحاثهم فى مجالات تخصّصهم .

وقد أدت سياسة التشجيع إلى إقامة المزيد من المعارض للفنانين المنفردين إلى جانب إقامة المعارض لمجموعات من الفنانين عن طريق اتحاداتهم وجمعيّاتهم . كما نظّمنا « معرضا عاما للفن التشكيلى » يقام سنويا ليكون فرصة تُقدّم من خلالها الأعمال الجديدة للفنانين جميعا . وحرصت على توفير مزيد من الاعتمادات المالية لاقتناء الأعمال الفنية ، كما اتفقت مع وزارة الخارجية على تخصيص مبلغ معين سنويا لاقتناء أعمال فنية تُعرض فى السفارات والقنصليات بالخارج ، ولا تزال إلى اليوم هذه الأعمال الفنية مفخرة سفاراتنا فى الخارج . ولوأن الوزارات الأخرى حذت هذا الحذو لتزايدت فرص التسويق والعرض مقابل مبالغ زهيدة تتنازل عنها فى سبيل خدمة عامة حيوية ولازمة . كما كشفت الدراسة عن أن لدى الناس الرغبة فى الاقتناء ، لكنهم لايعرفون الطريق إلى العمل الفنى ، فأقمنا فيما بعد سوقا لبيع الإنتاج الفنى سنة ١٩٦٧ و١٩٦٨ و١٩٦٩ ، ونجحت هذه السوق نجاحا كبيرا . ولعل أهم نجاح حققته أنها نقلت كثيرا من أعمال الفنانين إلى المنازل لتعايش الناس وتدور حولها المناقشات والتعليقات والمقارنات .

كذلك أنشأت الوزارة « متحف المثال محمود مختار » بحديقة الحرية جمعت

فيه أعمال هذا الفنان الرائد فى مبنى فريد وضع تصميمه المعمارى رمسيس ويصا واصف ، وافتتح مع العيد العاشر للثورة . *

وتنفيذا لوصية المرحوم محمد محمود خليل وحرمه قامت الوزارة بإعداد بيته ليكون متحفا يحمل اسمه واسم حرمه يضم مقتنياته الفنية الزاخرة بلوحات المدرسة الانطباعية الفرنسية وتم افتتاحه فى عيد الثورة العاشر فى يولية ١٩٦٢ .

وكذا أقامت الوزارة « متحف دار ابن لقمان التاريخى » بمدينة المنصورة الذى افتتحه الرئيس عبدالناصر فى شهر مايو ١٩٦٠ .

وإلى جوار هاتين الخطوتين الرئيستين بدأنا نتجه نحو إقامة المراسم الجديدة ، ورأينا أن بعض البيوت الأثرية تعتبر رؤوس أموال وطنية موروثة يجب أن تُستغل مثل مبنى « المسافرخانة » و« وكالة الغورى » و« بيت السحيمى » فجعلنا غرفها مراسم ومحارف للفنانين تكون لهم مقرّا دون أن يتكبّدوا أجرا ، يستملون من تلك البيئة الأثرية المشبعة فنا وجمالا . وكان هذا كله يجرى تحت رقابة الوزارة حتى لايُساء استخدامها فى غير الغرض المخصّصة له ، غير أن هذه الرقابة قد فُقدت بعدُ فلم تعد تلك المراسم تؤدى الغرض المنشود منها بل لأكاد أقول أنها أسيء استعمالها .

كانت هذه الأنشطة كلها فرصا كبيرة لكسب حضارى لاحدّ له مهّد الطريق لفكرة قديمة تختمر فى وجدانى منذ عام ١٩٦٠ حينما راودتنى الرغبة فى أن أعدّ العدّة لإنشاء « متحف للمستنسخات » فى فن التصوير العالمى مستعينا بالكتالوج القيّم الذى أعدّته منظمة اليونسكو فى مجلّدين أحدهما للصور الكلاسيكية منذ عصر النهضة والآخر للتصوير المعاصر . فقد كنت أومن أن من حق المواطن فى مصر أن يقف على الحضارات الإنسانية الأخرى ، وأن علينا أن نتيح للمثقف المصرى — فى القاهرة أولا ثم فى الأقاليم بعدُ — أن يستكمل دراسته بمشاهدة التراث الحضارى الإنسانى حين لايملك وسائل الانتقال إليه فى مواطنه

---

* ملقيت مؤخرا رساله رقيقة من رئيس جمعية أصدقاء متحف مختار يبلغنى فيها بقرار الجمعية العمومية فى اجتماعها يوم ٣١ أكتوبر ١٩٨٨ باختيارى عضو الشرف للجمعية : « اعترافا بالحق والفضل لصاحبه فى إنشاء متحف المثال الكبير محمود مختار والذى يعود شأنه إلى كرم أسرة المثال الكبير وإلى جهدكم ومبادرتكم خلال توليكم وزارة الثقافة بإنشاء وافتتاح هذا المتحف » .

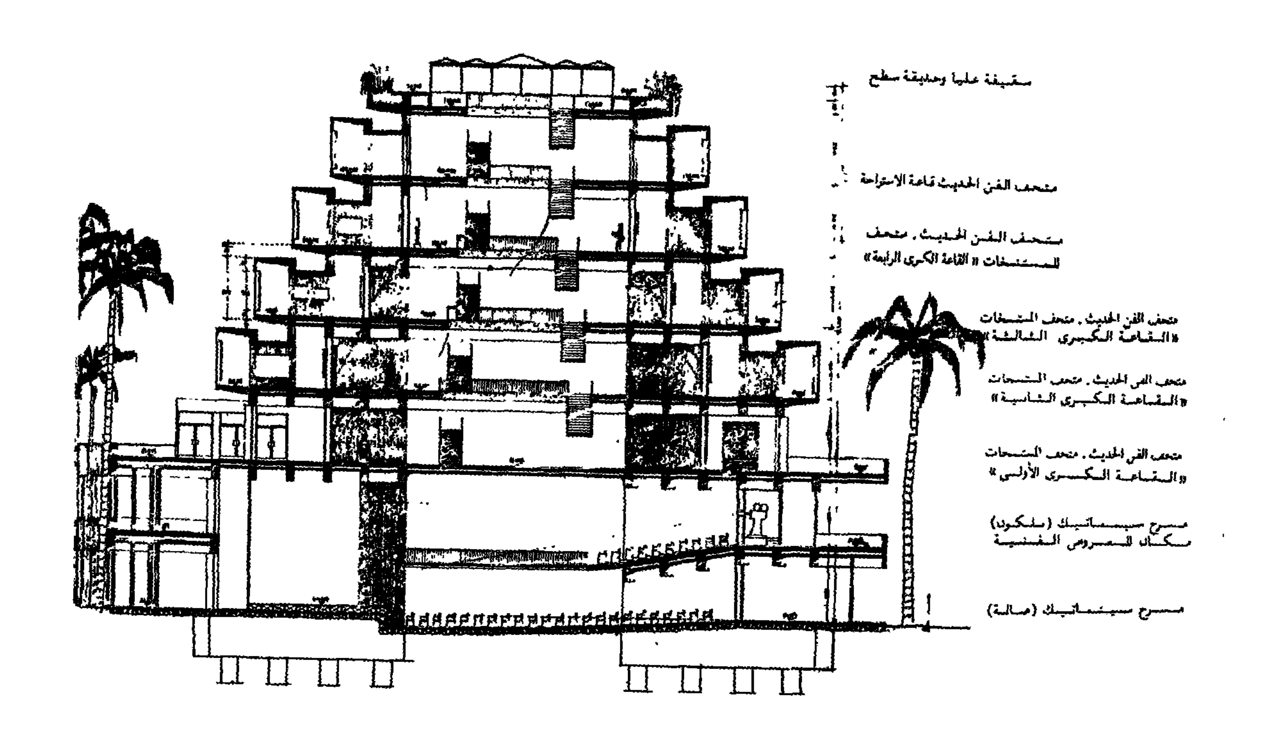
الأصلية وذلك من خلال نماذج من هذا التراث . وطلبت إلى سفراء الدول التى تمتلك هذه اللوحات فى متاحفها إهداءنا ماتستطيع من مستنسخات بشرط أن تكون من الطبعات التى أقرّها كتالوج منظمة اليونسكو ضمانا لجودة مستواها . ولم يخيّب السفراء ظنّى وانهالت علينا هذه المستنسخات التى ادّخرناها لعرضها فى متحف المستنسخات « بقصر الفنون » الذى كانت الوزارة تزمع تشييده . تلك كانت النواة الأولى للمشروع الذى كنا نملك إلى جواره أكبر مجموعة أثرية من العصر الفرعونى والعصر اليونانى الرومانى والعصر القبطى والعصر الإسلامى . غير أننى وجدت هذا المشروع مع البدء فى تجربتى الثانية وزيرللثقافة أثرا بعد عين ، ولا أدرى أين ذهبت تلك المستنسخات الفنية التى بذلنا الجهد فى جمعها من هنا ومن هناك .

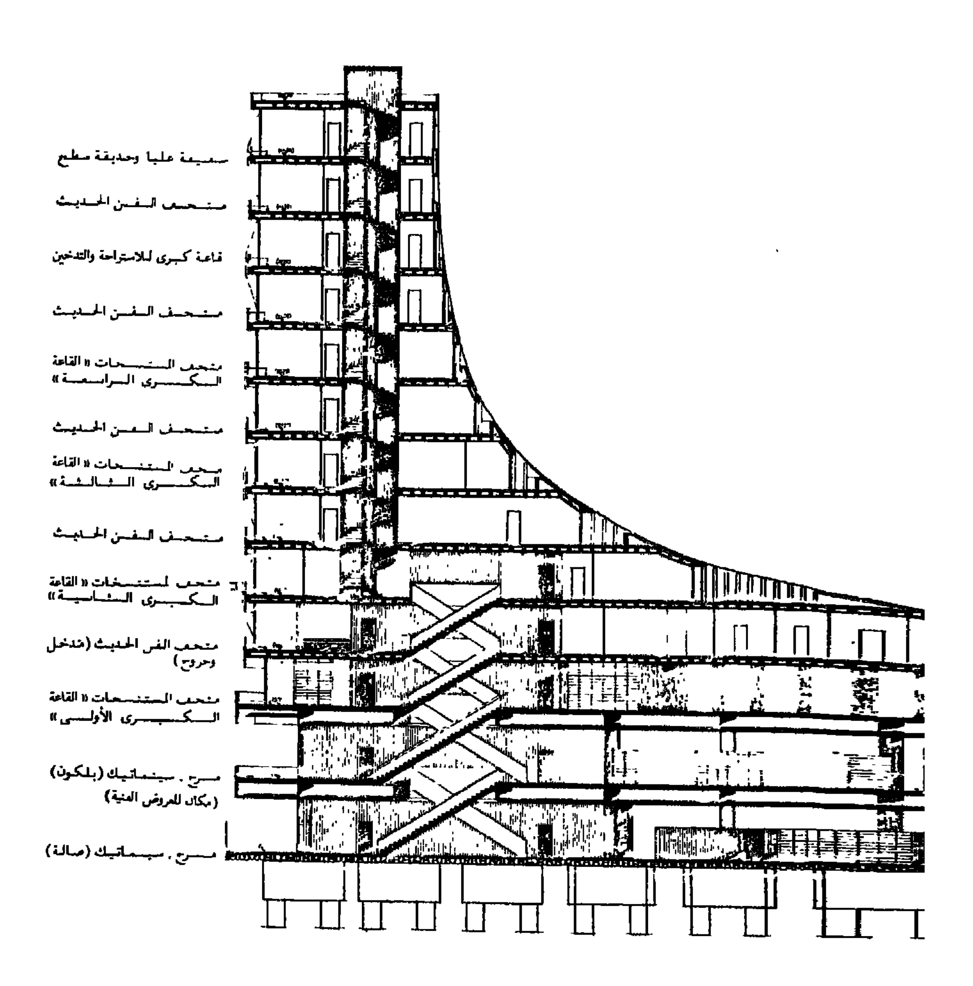
وعلى أية حال كان السؤال الذى ظل يراودنى دوما هو هل ستبقى أعمالنا الفنية وذخائرنا الموروثة التى جادت بها عشرات السنين خلال هذا القرن مخزونة يكاد يقضى عليها الإهمال وتنال منها الرطوبة أم تعرض على هذه الصورة المؤقتة ريثما تتيسّر الظروف للحل الأمثل ؟ ووجدت أن شيئا وإن قلّ خير من لاشىء . وكان الحل الحاسم والأوفق هو إقامة « قصر الفنون » الذى حشدتُ له كل إمكانيات الوزارة لنجعل منه مجمّعا فنيا يستوعب النشاط الفنى بالعاصمة وليصبح منطلقا إلى إشعاع شامل على الحركة الفنية التشكيلية والتعبيرية جميعا .

وكانت فكرة إقامة مبنى ثقافى ينتظم مكتبات ومتحفا فنيا و يعانق السينما والمسرح و ينفسح للعروض الموسيقية فكرة نابعة عن إيمانى بقيمة التقاء وسائل التعبير الفنى وقدرتها على فتح آفاق رحيبة فسيحة أمام الإنسان وإتاحة الفرصة للأجيال الجديدة أن تتشرّب آثار الماضى وتبدع فى حاضرها مايحدّث عنها فى المستقبل . وليس ثمة شك فى أن الكلمة الصادقة الشفّافة التى تكاد تكون كالوحى ، والخط الرقيق المعبّر الذى يطلق الخيال واللون والشكل واللحن ، كل ذلك يكوّن وحدة متكاملة تعبّر عن الإنسان وما فيه من قدرات تعقل وتشعر وتنفعل وتتحرك بإرادة الحياة . أحسست أثناء وضع الخطة أن جمهورنا القاهرى فى حاجة إلى منتدى ثقافى يضم تلك الوسائل التعبيرية فى مكان واحد وتحت سقف واحد فى مجمّع للفنون تحتشد فيه وسائل التعبير الفنى وتقوم فيه وحدة الإبداع الإنسانى

فى نوع من الدراسة والتطبيق وإشاعة التذوّق لدى المثقفين جميعا . وانتقلت فكرة إقامة قصر للفنون إلى مجال الواقع حين قمت بوضع حجره الأساسى فى يوليه ١٩٦٢ فى الأرض الواقعة خلف مبنى المتحف المصرى ، غير أن عقبات وقفت فى وجه هذا المشروع ، كان آخرها قرار لجنة تخطيط القاهرة الكبرى مدنهاية شارع رمسيس [كوبرى ٦ اكتوبر الآن] مما استتبع الإغضاء عن الأرض التى أرسى فيها حجر الأساس لامتداد الكوبرى عليها .

وقد اتجه تفكيرى بعد ذلك إلى الحديقة المستطيلة الفسيحة التى يستقر متحف محمد محمود خليل وحرمه فى طرفها والممتدة بين نهر النيل وشارع الجيزة على مقربة من كوبرى الجلاء لتكون مقر هذا القصر المرتقب . وعهدتُ إلى المهندس الإيطالى « فرانكو منيسى » مصمّم متحف مركب خوفو بوضع تصميم لقصر الفنون بحيث يضع فى اعتباره اجتذاب جماهير الشعب بجميع فئاته وطوائفه من مختلف سنوات العمر لكى يظفروا بنصيبهم من منابع الفنون المختلفة . وانتهى فى تصميمه إلى أن يجعل القصر يبدو وكأنه ذراعان مفتوحتان تحتضنان الروّاد محطّما بذلك جميع أشكال البناء التى تبعث الرهبة فى الشخص العادى وتباعد بينه وبينها حتى لاينفذ إلى حجراته وقاعاته المغلقة إلا فئة قليلة من المثقفين الجسورين . وقد صُمّم المشروع على أساس خلق جناحين كبيرين يوحيان للمتطلع إليهما من بعيد أنه يرنو إلى هرم خوفو قائما إلى جوار أبوالهول ، ويظل يشدّه هذا الشكل المحوّر حتى يجد نفسه أمام مبنيين ابتكرهما خيال معمارى عشّشت فى وجدانه آثار الحضارة المصرية الخالدة الإلهام ، يضم الجناح الأول منهما وهو هرمى الشكل متحفى « مستنسخات المدارس الفنية العالمية عبر التاريخ » مزوّدة بالإحصاءات والتواريخ ، و« الفن الحديث » الذى تتوزع مساحته على عدة مستويات تدور حول طوابق متحف المستنسخات ، ويتبع الزائر له اتجاها واحدا فى صعوده واتجاها واحدا فى هبوطه ، و« قاعة عرض الفنون المعاصرة » لإحتضان المعارض المعاصرة ، و« قاعة الحفلات » التى تتسع لماينيف عن ألف شخص مزوّدة مقاعدها بآلات استماع للترجمة الفورية ، وتستخدم لعروض نادى السينما والمسرحيات والحفلات الموسيقية والمحاضرات الفنية . ويضم الجناح الآخر « المكتبة الفنية » التى تتسع لحوالى سبعين ألف كتاب تتناول الموضوعات الفنية


سقيفة علوية وحديقة سطح
متحف الفن الحديث قاعة الاستراحة
متحف الفن الحديث . متحف
المستنسخات « القاعة الكبرى الرابعة »
متحف الفن الحديث . متحف المستنسخات
« القاعة الكبرى الثالثة »
متحف الفن الحديث . متحف المستنسخات
« القاعة الكبرى الثانية »
متحف الفن الحديث . متحف المستنسخات
« القاعة الكبرى الأولى »
مسرح سينماتيك (بلكون)
مكان العروض الفنية
مسرح سينماتيك (صالة)



سقيفة عليا وحديقة سطح
متحف الفن الحديث
قاعة كبرى للاستراحة والتدخين
متحف الفن الحديث
متحف المستنسخات « القاعة الكبرى الرابعة »
متحف الفن الحديث
متحف المستنسخات « القاعة الكبرى الثالثة »
متحف الفن الحديث
متحف المستنسخات « القاعة الكبرى الثانية »
متحف الفن الحديث (مدخل وخروج)
متحف المستنسخات « القاعة الكبرى الأولى »
مسرح . سينماتيك (بلكون)
(مكان للعروض الفنية)
مسرح . سينماتيك (صالة)

المختلفة ، وتتيح للمتردّد عليها أن يخدم نفسه بنفسه ، و« مكتبة الأسطوانات » التى يمكن أن تضم ثلاثين ألف أسطوانة تدار إما فى قاعة الاستماع الجماعى أوفى كبائن الاستماع الفردى . و يضم أيضا جناح الأطفال الذى يشمل متحفا للقصص والحكايات المصورة باللوحات والتماثيل ومكتبة وقسما للألعاب يحتوى على نماذج عديدة لمختلف اللعب منذ أقدم العصور مع بيان التطور الذى طرأ عليها ، فضلا عن قاعة لحفلات الأطفال تقدّم بها العروض السينمائية والمسرحية لايشترك فى أدائها غيرهم بعد توجيههم وتدريبهم ، ثم مسرح العرائس . ويحتوى هذا الجناح أيضا على معهد « التذوق الفنى » التابع لأكاديمية الفنون فضلا عن عشرة مراسم تطلّ على النيل يقيم بها الفنانون المتفرغون .

وكم كان هذا حلما جميلا يراود المثقفين جميعا ، وكم تمنّوا أن يتم فى يوم وليلة .

* * *

وكان الإيمان بالعدل الاجتماعى فى نشر النتاج الثقافى لاشىء غيره هو الذى حفزنى إلى الأخذ بنظام « **قصور الثقافة** » المطبّق فى الدول الاشتراكية . من أجل هذا زرت قصور الثقافة فى الاتحاد السوفييتى أثناء وجودى به فى ديسمبر ١٩٦٠ وكنت عندها أتولّى رياسة الوفد الثقافى المصرى . ومع إدراكى بأن تنفيذه فى مصر يتطلب جهدا غير يسير، فالحال عندنا غير الحال عند هؤلاء ، فإن هذا لم يثننى عن عزمى على تحقيقه قدر مانستطيع ، نلقد كنا بمصر فى حاجة ماسة إلى أن نجمع العقول عامة على ثقافة مشتركة ولانترك الجمهرة الكبرى من سكان مصر بعيدين كل البعد عن الإسهام فى الثقافة والارتشاف من منابعها الثرّة . وما إن استوت تلك الفكرة فى ذهنى على مافيها من صعوبات وعلى مايلزمها من جهد حتى أدرجت لها الميزانية المناسبة فى خطة التنمية الخمسية على نحو ما أسلفت ، وبدأنا تنفيذ مشروع نشر قصور الثقافة هنا وهناك بدءا بعواصم المحافظات ثم بالمدن والقرى على نحو ما يتاح لنا ، إن يكن ذلك قصرا للثقافة أوبيتا أو دوّارا ، فما من شك فى أن هذه القصور والبيوت والدوّارات سيكون وراء اتصالها بالجماهير الغفيرة بثّ للوعى وإيقاظ للفكر على اختلاف درجاته . وكانت مهمة هذه القصور فى مبدأ الأمر أن تقتحم على الناس مقارّهم وتدخل عليهم بيوتهم ومجتمعاتهم وأنديتهم تعرض نصيبا من الأنشطة الفنية التى تُزَاوَل فى العاصمة من مسرحيات وأفلام ومعارض فنية وعروض موسيقية وخدمة مكتبية . ولا نزاع فى أن رسالة قصور الثقافة وقوافلها تختلف الاختلاف كله عن رسالة التلفزيون ، فثمة فرق بين العرض الحىّ والعرض المصّور. هذا إلى أن قصور الثقافة قد أُعِدّت لحوار يدور بين الروّاد المختلفين إلى القصور وبين المشرفين على تلك القصور بما يوضّح لهم معالم قد تغيب عن أذهانهم . فالتلفزيون والإذاعة هما وسيلتان لنشر الوعى حقا ولكن ليستا وسيلتين كاملتين للتوعية وتمكين المثقفين مما يجول بخواطرهم ؛ فى حين أن قصور الثقافة بالأقاليم هى مدارس ثقافية إلى جانب المدارس التعليمية ، لهذه مهمّتها ولتلك مهمّتها لاتُغنى مُهمّة عن مُهمّة . بل إن هذه القصور الثقافية هى للريف المحروم والبعيد عن منابع الثقافة ألزم منها لساكنى العاصمة الذين فى متناول أيديهم كل مناهل الثقافة بفروعها المختلفة ولايعزّ عليهم منها شىء . ونحن

نعلم كم يعانى سكان القرى من حرمان من مكتبات خاصة أوعامة تكثر مثيلاتها فى العواصم ، فأنّى لساكن الريف قديما مايستمتع به ساكن الريف حديثا بعد أن ذلّلت له القصور الثقافية تلك المكتبات يختلف إليها متى شاء ؟ وتلك المسارح يُهرع إليها مع كل عرض ماكان أتوقه إلى أن يراه و يستمتع فيه بما يشاهده ؟ ثم أنّى له أن يشاهد تلك المعارض الفنية الحافلة بالفنون التشكيلية ، وأنّى له أن يشاهد تلك العروض السينمائية والغنائية والفنون الشعبية التى كان إذا تاقت نفسه إليها سعى أياما وليالى على أقدامه حتى تحفى ؟

كانت الخطة فى عام ١٩٦١ أن نُرسى فى عاصمة كل محافظة قصرا وأن نعدّ قوافل ثقافية لتجوب القرى وتشيع الثقافة بين سكانها ليكونوا أهلا لأن يصلوا حبلهم بحبل الثقافة فى المدينة ولكى يحطموا بذلك أسوار العزلة التى فرضتها عليهم عصور الجهالة . هكذا كان الغرض من إنشاء قصور الثقافة إيجاد مراكز إشعاع تشعّ بنورها الشقافى على من تظلّهم وتربط بين الثقافتين : ثقافة المدينة وثقافة الريف ، وبهذا تقرّب بين هؤلاء وهؤلاء ثقافة وفنا . وفى ظل هذا التمازج يمكن أن نجنى أثرا مزدوجا ، فكما يظفر فنان المدينة بوعى كامل وأعمق عن الريف ومشاكله ، كذلك سوف يظفر ساكن الريف بوعى عن ثقافة المدينة . وهذا العبء الكبير كان يقتضى إنشاء إدارة عامة تلى شئون هذا كله متعاونة مع مؤسسات الوزارة الرئيسية من مسرح وموسيقى وسينما وخدمة مكتبية وفنون جميلة وشعبية ، وتكون هذه الإدارة قد أخذت مكان الجامعة الشعبية قديما التى آلت إلى وزارة الثقافة من وزارة التربية والتعليم وكان نشاطها محصورا فى تعليم الفنون اليدوية والحرفية ، وأطلقنا على هذه الإدارة الجديدة التى تضمّ قصور الثقافة وقوافلها خلال تلك المرحلة جامعة الثقافة الحرة .

وقد راعينا فى تصميم قصور الثقافة أن يضمّ القصر قاعة للعروض السينمائية والمسرحية ومنتدى فكريا وأدبيا ومعرضا للفنون التشكيلية وقاعة استماع موسيقى وناديا للأطفال ومراكز لتلقّى فنون العرض والأداء الدرامية والشعبية والموسيقية ومكتبة . ولقد كنا نؤمن بأن قصور الثقافة فى مدن الأقاليم ليست إلا خطوة على الطريق الطويل من أجل بناء « بيت الثقافة » فى مراكز المحافظات ثم « دوّار الثقافة » فى سائر القرى يوما ما ، حتى يكون هناك منتدى ثقافى فى كل مكان

ترتفع به مدرسة ، فهو المكمّل لرسالتها فى بناء العقل البشرى حتى يعطى الأمة بقدر مايأخذ ، وحتى يغدو الإنسان المثقف المبدع هو نموذج الإنسان المصرى الحضارى فى كل مكان من ثرى مصر . أتُرانا قد حقّقنا ماكنا نصبو إليه من إنشاء قصور الثقافة ؟ ما أنكر أن تلك القصور الثقافية وما معها من قوافل قد حَبَتْ أول الأمر حَبْواً كان معه شيء من القصور ، وكذلك شأن كل تجربة ولاسيما تلك التجارب الجديدة على الريف وبصفة خاصة ريفنا المصرى . ولكننى أقول إلى هذا إنّا أفدنا من تلك الكبوات واستطعنا أن نتخفّف من قدرمنها ، والزمن ممتد وهو كفيل بأن نبلغ مع امتداده الغاية الكاملة مادمنا نستفيد من زلاّتنا . وما من شك فى أن قصور الثقافة قد أسهمت إسهاما حقا فى خلق جيل من كتاب القصة والمسرح والشعر والزجل والموسيقى من أبناء الأقاليم تبادل الزيارات فيما بينه ، وتنافس فى الحصول على الجوائز فى المسابقات التى كانت تعقد بين أفراده وفرقه ، مما أخصب التربة الفنية بعناصر جديدة من العاملين بالمسرح والموسيقى الشعبية والأدب الشعبى ، كما شجّع على تطور فنوننا الأصيلة وتجدّدها وإثرائها بالاحتكاك بينها وبين غيرها .

وبهذا كان اهتمامنا فى هذه المرحلة الأولى موجّها إلى تهيئة الوسائل المادية التى تعين على إنشاء قصور الثقافة وقوافلها كى تحمل رسالتها إلى الريف ، ثم إعداد من سيضطلعون بهذا العبء فى تلك القصور وما إليها من قوافل . وكنت أعلم مع هذه التجربة أن دولة عظمى وهى فرنسا عندما أخذت فى مشروع مماثل بدأت تخطّط لعشرين قصرا على حين دفعنا طموحنا إلى أن نبدأ تجربتنا بأربعة عشر قصر ثقافة بالعواصم وأحد عشر مركزا ثقافيا بالمدن ، هذا إلى إمدادها بسبع عشرة قافلة استوردناها من الخارج . وعندها بدأ الريف المصرى يتذوّق للمرة الأولى طعم الثقافة على أجنحة الأمسيات التى كان تقام فيه ، وهُرع الفلاحون لمشاهدة العروض المسرحية والسينمائية والمعارض الفنية لوفق ماواتتنا الفرصة فى ذلك . وكم أحسسنا من هذه التجربة مدى تعطش أهل القرى لهذه الألوان الثقافية العطش كله .

وكنت قد أدركت مع زياراتى لبلدان أوربا الشرقية التى سبقتنا فى هذا الميدان وكانت لها فيه خطوات أنّ أرسخها قدما وأصحّها منهجا هى يوغوسلافيا .

لهذا أوفدت مبعوثين مصريين إليها ليخبروا ما عندهم من خبرة و ينقلوها إلينا لنفيد منها فى تجربتنا . وكان أن وقع الاختيار على نفر من المتخصصين كل فى شعبته أو فنه من مسرح وسينما وموسيقى وفنون تشكيلية ومكتبات وتنظيم وإدارة . وأخذت هذه البعثة طريقها إلى يوغوسلافيا فى أواخر نوفبر ١٩٦١ وأمضت شهورا ثلاثة فى التلقى والدراسة وتطواف الريف اليوغوسلافى ليعرفوا أسباب نجاح تلك التجربة هناك . وقد وفقت تلك البعثة كل التوفيق فى مهمتها وشهدت لها الحكومة اليوغوسلافية بجديتها وحماستها ودأبها على العمل والتحصيل ، ورفع الىّ المستشار أحمد لطفى رئيس البعثة تقريرا عما يراه ورفاقه فى التطبيق هنا بعد استئناسهم بما رأوه هناك . ولم أنفرد بالبت فى هذا الأمر، بل جمعت إلى جانبى نفرا من المتخصصين فى كافة أجهزة الوزارة لاستخلاص خطة تنفيذية محكمة وتقدير ما هو جدير بالأخذ به .

و بعد هذا أخذنا نمضى على الطريق ؛ ففى الوقت الذى بدأت فيه الوزارة تصنيع المسارح والمكتبات المتنقلة على سيارات من نوع خاص ومجهزة لهذا الغرض لنقلها هى وآلات السينما إلى أعماق الريف ، بدأنا أيضا فى تدريب العاملين لوفق منهج مرسوم لكى نؤهلهم للمهمة التى سيضطلعون بها . وكانت ثمة ظروف سأتناولها بعض قليل اضطررت معها إلى ترك الوزارة فى سبتمبر ١٩٦٢ ، وكان هذا بعد أن تم بناء بعض قصور الثقافة فى عواصم المحافظات والشروع فى بناء بعضها الآخر وإعداد بعض مراكز الثقافة .

— ٨ —

وفى عام ١٩٦١ أسند إلىّ الرئيس عبد الناصر بالإضافة إلى عملى وزيرا للثقافة فى مصر وزارة الثقافة بسوريا . وانتهزت أول فرصة سنحت لى لزيارة « الإقليم الشمالى » كما كانت سوريا تسمى فى عهد الوحدة ، مصطحبا معى جمهرة من كبار المثقفين والفنانين من بينهم المرحوم أبوبكر خيرت والفنان حامد سعيد والمستشار أحمد لطفى وغيرهم للتعرف على الإقليم ولنزداد إيضاحا بالأحوال هناك . واستغرقت تلك الزيارة أسبوعين بدأناها فى ١٨ سبتمبر ١٩٦١ تعرفنا خلالها على المعالم الثقافية فى دمشق وحمص وسد الرستن وحماة والمعرة وحلب

وأدلب وصلنفة والحفة واللاذقية والمنطقة الأثرية برأس شمراء وغابة الفرنلق وطرطوس وجزيرة أرواد وقلعتها ودرعا وقلعة الحصن وبصرى الشام وقلعتها ومسرحها الروماني المدرّج والسويداء ودير الزور والقامشلي وتدمر. وقد صاحبنا في زيارة هذه المحافظات الخمس عشرة السيد يوسف شقرا الأمين العام لوزارة الثقافة السورية، فكان نعم الرفيق علما وثقافة وأدبا ولطفا وحفاوة.

وانتهينا من هذه الزيارات إلى البدء في إعداد فرقة موحّدة للفنون الشعبية للجمهورية العربية المتحدة، كما أسفرت لقاءاتي بالشخصيات السورية التي قابلتها في مختلف المواقع التي زرتها — وكانوا من البارزين ثقافة وفنا وحماسة — عن إلمام سليم بالواقع الثقافي هناك بعد أن بادلتهم الرأي وبادلوني. كما كانت لي اجتماعات شتى برجال وزارة الثقافة في سوريا انتهينا فيها إلى وضع خطة طموحة رُصد لها مبلغ مليون وثمانمائة ألف ليرة سورية لإنشاء ثلاثة مراكز ثقافية في دير الزور والسويداء ودرعا والإسهام في إنشاء مجمّع ثقافي بمدينة حمص، وشراء وتجهيز ثلاث وحدات ثقافية متنقلة للرقة والحسكة ودير الزور وإنشاء معهد للموسيقى بدمشق، وبناء مركز ثقافي في عين العرب، وتشييد مسرح في حلب، وإكمال مسرح العرائس بدمشق، وبناء متاحف إقليمية في كل من حلب ودمشق وتدمر. وكان أن تعهدت وزارة الأشغال السورية التي أسند إليها البناء المساهمة بإنشاء بعض هذه المؤسسات على نفقتها كاملة. وكنت قد حصلت على موافقة المشير عبد الحكيم عامر — بوصفه نائب رئيس الجمهورية في الإقليم الشمالي — قبل قيامي بالزيارة بشهرين على تخصيص مبلغ خمسة ملايين ليرة على عشر سنوات لإحياء مدينة تدمر وإجراء التنقيبات عن الآثار المطمورة، ظفرت الوزارة منها بنصف مليون ليرة عن ميزانية ٦١/١٩٦٢.

وفي مدينة حلب عاينتُ قلعتها الشامخة لإدخال مشروع الصوت والضوء بها، كما تفقدتُ قاعة العرش بالقلعة التي كان القائمون على الآثار بصدد إنشاء سقف لها بعد الذي تهدّم، فرأيت استشارة كبار المختصين في الآثار الإسلامية، وحددت بالفعل الدكتور فريد شافعي والأستاذ حسن عبد الوهاب، وتم هذا الاتصال واكتملت الخطة على أن تعرض على المجلس المتخصص بالوزارة.

وإذ كانت دار الكتب تحتل المكتبة الظاهرية التى شُيّدت منذ قرون سبعة وتحولت إلى مكتبة عامة منذ حوالى ثمانين سنة ، فقد انعقد الرأى على تشييد دار حديثة بدمشق تم إختيار موقعها بشارع بيروت ، خصّص منه ١٤٠٠٠ متر مربع للمبنى الذى تلتف حوله حديقة فسيحة ، على أن تتسع المكتبة لسبعمائة مطالع فى وقت واحد ، وتضم الدار قاعة كبرى للمحاضرات والسينما تتسع لأربعمائة شخص وصالة معارض وقاعة للاستماع الموسيقى . وقُدرت تكاليف المشروع بـ ٤٣٥٠٠٠٠ ليرة لم نستطع إدراج قدر منها فى ميزانية ٦١/١٩٦٢ ، فأدرج له مبلغ ٢٠٠٠٠٠ ليرة بميزانية ٦٣/١٩٦٤ ومثلها فى ميزانية ٦٤/١٩٦٥ لتنفيذها ضمن مشروع الخطة الخمسية التالية .

ومن دمشق أرسلت إلى رينيه ماهيه مدير عام اليونسكو أول رسالة لى وزيرا للثقافة فى سوريا أطلب إسهام منظمة اليونسكو فى ترميم قلعة الحصن ، كما عهدت إلى المثّال المصرى المعروف مصطفى نجيب بتصميم تمثال للمجاهد السورى ابراهيم هنانو لإهدائه إلى مدينة إدْلِب بمحافظة حلب .

كنا مدفوعين إلى هذا كله برغبة قوية وحميّة شديدة بأن ننهض بالقطرين معا نهضة صادقة تمكن لغيرها من نهضات أخرى مرجوّة ، إذ كان الأمل فى نفوسنا أن تتبع تلك الوحدة وحدات أخرى ، غير أنه ما كل ما تتمناه النفوس تدركه . ففى فجر يوم ٢٨ سبتمبر أيقظنى سكرتيرى ليخطرنى أن انقلابا وقع فى سوريا قرر القائمون به الانفصال وفصم عرى الوحدة . وكان مما صُدمت له صدمة عنيفة أن أسمع تلك الهتافات الموالية التى كانت تتردد أصداؤها بالأمس فى جو دمشق وغيرها فإذا هى تختفى فجأة بين يوم وليلة ، وإذا مكانها صرخات على الضد من الأولى تنادى بالانفصال وتقضى على أول تجربة رائدة تجمع بين بلدين عربيين فى ظل علم واحد .

كان الوقت يمرّ بطيئا متثاقلا ولا أدرى ماذا سيحلّ بنا ، فدعوت أعضاء البعثة المرافقين لى للانضمام إلىّ بفندق أورينت پالاس ، وطلبت من أبى بكر خيرت رحمه الله أن يحاول انتزاعنا مما نحن فيه من فراغ وقلق وترقّب لينجز لنا عملا إيجابيا ، وقُدته نحو البيانو الموجود فى بهو استقبال الفندق الخاوى ، مقترحا عليه أن

يحاول تحقيق أمنية طالبته بها من قبل ، وهى صياغة موشّح «لما بدا يتثنّى» وفقا لأساليب العلوم الموسيقية من هارمونية وكنتربنطية . وأخذ النهار يمضى لحظة بعد أخرى ونحن نصغى إلى محاولاته المتكررة بإعجاب وتقدير حتى فرغ منها قرب نهاية النهار ساعة جاءنى السيد يوسف شقرا ليبلغنى أنه يمكننا عبور الحدود الليلة إلى لبنان ، وأخذنا فتخطّى بنا جملة من تعقيدات بيروقراطية ثقيلة كانت تعترض طريقنا فذلّلها بلباقته وكريم سجاياه ، ووصلنا بيروت فى منتصف الليل حيث قضينا الليلة . وفى الصباح التالى استقللنا أول طائرة إلى القاهرة ووجدت إلى جانبى فيها المرحوم كمال رفعت . ومن المطار توجّهنا سويّا إلى مقر جمال عبد الناصر الذى كان وقع الانفصال عليه عميق الأثر فتردّدت أصداء الأسى فى نفسه . وما من شك فى أن الانفصال كانت له عواقبه بعدُ فى جلّ ما أخذ فيه من تصرف هنا وهناك ، إذ كانت هذه الوحدة مناط أمل كبير فى نفسه ، وكم بنى عليها من أمنيات جسام فإذا هى تنهار كلها فى طرفة عين حين انهار ذلك الأساس .

وطوال طريق العودة من سوريا كان يحزّ فى نفسى ماسمعت من هتافات محمومة تندّد بالقوانين الاشتراكية التى نالت من جم غفير من كبار الملاّك ثروة ونفوذا ، وبما كان يفعله رجال السلطة من السوريين الذين أسلمتهم القيادة السياسية فى مصر زمام الحكم فى سوريا فإذا هم ينكّلون بخصومهم باسم الوحدة فحملت وزرأهى منه بريئة ، فكان للاعتداءات على الحريات الشخصية أثرها فى زعزعة الوحدة فانفضّ عنها مؤيّدوها إلا القليل منهم . هذا إلى مابلغنى عن عبث بعض صغار الضباط المصريين غير المُعدّين لمثل هذه المهمة النبيلة التى تقتضيهم أن يسبلغوا الأعماق ليعرفوا أحاسيس الجماهير فيكون تصرّفهم سويّا . وما من شك أيضا فى أن بعض رجال البعث فى سوريا غير الراغبين فى الوحدة انتهزوها فرصة وأخذوا يؤلّبون الجماهير ضد الوحدة مصوّرين لهم مافى الوحدة من آثام وأنهم جاءوا ليخلّصوهم منها . وما أظن تلك الضربة التى ظن قواد الانفصال فى سوريا أنهم نكبوا بها جمال عبدالناصر نكبوه وحده بها ، بل لقد نكبوا الأمة العربية جمعاء حين وأدوا تلك التجربة فى مهدها .

وأعترف أنني طوال الساعات الثلاثين التي مرّت بين سماعي نبأ الإنفصال ولقائي بعبدالناصر لم يجد ذهني قيد أنملة عن التفكير في هذه المأساة وعن ظروفها وأسبابها . وكان قد أتيح لي في لقاءاتي بالمثقفين هنا وهناك أن أستمع إلى تلميحات توحي بأن أكثر السياسيين تقديرا لعبدالناصر وأشدّهم حماسة للوحدة قد باتوا يحسّون أن قنوات الاتصال بينهم وبين الرئيس قد سُدّت ، وأن الأمور في سوريا باتت تسير في غير المجرى الذي كان ينبغي أن تسلكه . وقد أدركت بمايشبه الحدس أن المحيطين بعبد الناصر لم يحملوا له من الحقائق إلا مايطيب له سماعه . ومن هنا فإنه حين أصدر القرارات الاشتراكية التي تَصَوَّر إسهامها في تصحيح الأوضاع الاقتصادية في سوريا قد أصدرها انطلاقا من وصف غير صادق وغير دقيق للأحوال المادية للفئات الاجتماعية ، بل ودون معرفة عميقة بالمواقف والارتباطات الفكرية بين مختلف التكتلات السياسية ، إذ كان أصحاب المشروعات الكبرى من السوريين أكثر حرصا على مصالحهم من ارتباطهم بدولة الوحدة ، ولو أنني علمت فيما بعد أن بعض الخبراء الاقتصاديين قد نصحوه بعدم الإقدام وتساءل عن هذه الخطوة لما تحمل من خطورة أكيدة . كما كانت الدولتان العظميان : الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ومجموعة الدول العربية المرتبطة بهذه الدولة أو تلك ، بل وفرنسا الغاضبة من دعم مصر لثورة الجزائر وأصدقاؤها في سوريا ، كانت قلوب هؤلاء جميعا تفيض عداء للوحدة .

وهكذا كان يكفي أن يتحرك أصحاب الشركات والمصانع التي تقرر تأميمها حتى ينضمّ إليهم أعداء الوحدة المرتبطون بالدول الكبرى ، و ينخرط معهم من خاب أملهم في أن تقدم لهم الوحدة خيرا كانوا يطمعون فيه ، بينما ينكص أنصار الوحدة الحقيقيون ممن خذلتهم مصر عن التصدّي للإعصار المدمّر لكل شيء يعترض طريقه . وعلى الرغم من الحزن الفادح الذي هزّ كيان عبدالناصر حتى أدق خلجات قلبه فقد كان يدرك أبعاد الأخطاء ، لكنه كان يدرك بالمثل أن التسرع في قبول الوحدة كان الخطأ الأساسي ، وأنه كان نذيرا بكل ما استتبعه من رزايا ونتائج مهلكة . وكان أقسى مايعانيه هو إحساسه بإجهاض أمل عزيز على العرب جميعا ، إذ كان يخشى من ردود فعل الانفصال في قلوب المتطلعين إلى

الوحدة الشاملة ، وكانت أمنيته ساعتها أن يستخلصوا من تجربة الوحدة والانفصال أعمق الدروس والدلالات .

* * *

وأخيرا فقد عملت خلال تجربتى الوزارية الأولى فى ظل اثنين من رؤساء الوزارات هما الدكتور نورالدين طراف الذى يشهد له الجميع بالكفاية العالية والنزاهة المطلقة والمواقف الوطنية المشهودة قبل الثورة وبعدها ، والأخ كمال الدين حسين رفيق الكفاح الطاهر السريرة النقىّ اليد ، والثائر الذى لايهدأ والوطنى الذى لا تخمد له حماسة . ثم كان أن حظيت بالعمل فى وزارة يرأسها جمال عبدالناصر الذى امتلأت صفحات هذا الكتاب بمآثره وقدره ومكانته .

(١) أنشأ شركة مصر للتمثيل والسينما وستوديو مصر ومسرح الازبكية ومطبعة مصر وغيرها من الأعمال الثقافية الخالصة .

(٢) مشكلات ثقافية . الأهرام فى ٧ ديسمبر ١٩٧٩ .

(٣) هى كونشيرتو البيانو والأوركسترا مقام دو صغير عزف المؤلف ، والمتتالية الشعبية من مقام دو ، والسيمفونية الثانية الشعبية من مقام صول الصغير ، والسيمفونية الثالثة من مقام دو الكبير .

(٤) بلغ عدد رواد هذا العرض فى الفترة من ٢٣ يوليه ١٩٦٢ حتى ٤ يونيه ١٩٦٧ قرابة ستين ألف مشاهد ، و بلغ ايراد العرض حوالى عشرة آلاف جنيه .

(٥) بادرت الوزارة إلى اتخاذ العدة لتنفيذ المشروع فخصصت مبلغ مليونى جنيه بميزانية خطة التنمية الخمسية لمتحف القاهرة ، ونصف مليون جنيه لمتحف الاسكندرية ، كما اتصلت بوزارات الخزانة والاقتصاد والشئون البلدية والقروية لتقدير قيمة المبانى فى أرض المعارض . وتبيّن من المناقشات والدراسات أن هذه المبانى لا تمثل عقبة اقتصادية تحول دون إقامة المتحف المصرى بعد أن كادت تستنفد أغراضها . واستقر الرأى على تعويض الجمعية الزراعية بمبلغ ٧٥ ألف جنيه هى قيمة مبانى الجمعية فى هذا الموقع . وفى شهر أبريل ١٩٦٢ تعاقدت الوزارة مع المهندس الإيطالى فرانكو ألبينى على تصميم متحفى القاهرة والإسكندرية ، وقام المهندس بإعداد تصميمات المتحفين مراعيا أن يكونا على أحدث مابلغه فن تصميم المتاحف .
وقد وضع تخطيط مشروع المتحف المصرى الجديد بأرض الجزيرة بحيث يضم ثلاثة مداخل رئيسية هى : مدخل الجمهور ومدخل الإدارة والخدمات ومدخل المعروضات والأدوات . و يقع مدخل الجمهور فى أقصى الجانب الشرقى عند رأس المثلث المواجه لكوبرى قصر النيل ، و يتصدره طريق مائل دائرى ذو اتجاه واحد يُفضى إلى البهو الكبير ، و ينطلق منه طريق آخر إلى موقف السيارات الخاصة بالبدروم ، و يقوم عنده مقصف مكوّن من طابقين ومكان يخصص لسيارات النقل العام وشركات السياحة الموجودة أسفل مبنى « المركز الثقافى » .

(٦) اختير موقع هذا المتحف بحديقة الشلالات التى يتوسطها سور حجرى قديم يبلغ ارتفاعه نحو سبعة أمتار احتضنه التصميم ليكون جزءا من المبنى الجديد ، على أن يقام جناح مستقل يضم الإدارة ومكاتبها فى الناحية القبلية من حديقة الشلالات . وقد وقع الاختيار على نظام القاعات الصغيرة المتتابعة التى يبلغ طول كل منها نحو تسعة أمتار بوصفه النظام الأمثل لمعروضات هذا المتحف التى تتميز كثرتها بدقة أحجامها . وقد وُزعت قاعات العرض

المتتابعة على ثلاثة طوابق ترتفع كل منها عن السابقة بمقدار متر واحد ، و يستمر الانتقال فى اتجاه واحد من قاعة إلى أخرى صعوداً حتى الطابق الأعلى ، ثم يعود الزائر فيهبط فى اتجاه عكسى ، و يستمر النزول فى اتجاه واحد حتى نقطة البداية عند قاعة مدخل المتحف على غرار متحف جوجنهايم للفن الحديث بنيو يورك . وتجرى إضاءة قاعات العرض بالطوابق العليا من السقف بمظلّة خاصة لإسقاط الضوء وتوزيعه منتظما ، بينما تضاء القاعات الأخرى بنوافذ رُكنية تحجب الظلال المتداخله وتُغطّى بعاكس للضوء مصنوع من الأسمنت وكسر الرخام يقوم بتنظيم الإضاءة غير المباشرة . وتوضع قطع أفقية من كسر الرخام والأسمنت فوق الجدران الخارجية بحيث تكون منفصلة عنها لحمايتها من أشعة الشمس المباشرة ولتجديد الهواء .
كما راعى المهندس أن تكون أجزاء المبانى ذات مظهر بسيط ، مقسّمة أفقيا ورأسيا تبعا للمناسيب المختلفة المتدرّجة لقاعات العرض ، وأن تؤدى الأضواء والظلال المنعكسة عليها من الأشجار العالية بالحديقة دورها فى جمال المبنى المتميز بشخصيته الفريدة النابعة من الطريقة المبتكرة التى عولج بها المشروع عمليا وعلميا وفنيا .

(٧) كانت قد أجريت خلال السنوات الأخيرة عدة تجارب لإضافة مبان جديدة إلى مواقع أثرية ، مثل مشروع بناء متحف على أكروبول أثينا ، ومثل مشروع حماية نقوش أبواب مدينة قرطبة القديمة ، وأخيرا مشروع «اللوفر الكبير» الذى بدأ تنفيذه فى عام ١٩٨٥ والذى يتضمن إقامة أهرامات زجاجية مشابهة للأهرامات المصرية القديمة لتتوسط أجنحة مبانى اللوفر التى ترجع إلى عهد لويس الرابع عشر .

وأكدت النتائج التى تحققت فى هذه المشروعات إيجابية التجارب ، وأتاحت الوسائل الحديثة إمكان خلق آثار متميزة فى مادتها وروحها عن كل ما يحيط بها ثم إدماجها فيما حولها فى تناسق يتجنب أية محاكاة أوتكرار زائف للأسلوب ، و يتحاشى أى ربط مصطنع بينها وبين الموقع التاريخى وآثاره القديمة .

وقد كلفت وزارة الثقافة المهندس الإيطالى فرانكو منيسى بناء على توصية منظمة اليونسكو بوضع مشروع بناء متحف خاص يحتضن جسد المركب الرشيق فى تناسق متناغم ، على أن تتحقق فيه أنسب الظروف لحماية هذه التحفة الأثرية الفريدة والمحافظة عليها محافظة كاملة ، مع إعداد ممشى داخلى يتيح للزائرين الاستمتاع بمشاهدة المركب مشاهدة كاملة وملاحظة أدق التفاصيل والقسمات المميزة من الناحيتين الشكلية والتقنية ، على أن يبقى الزائر على اتصال بصرى بالوسط الخارجى . وقد كان هذا التعايش البصرى بين المركب و بيئته الطبيعية هو الذى حسم مسألة إنشاء المتحف فى مكان المركب الأصلى .

و يضم المتحف قاعات تعرض جميع الوثائق الخاصة بمراحل اكتشاف القارب وإخراجه وإعادة تكوينه واحتضان الحوض الطويل الذى كان يضم المركب ، وكذلك كتل الأحجار السميكة التى كانت تغطى فتحته على ألا يحس الزائر خلال تجواله وسط هذه الأجزاء التى تضم الحوض والأحجار بانعزاله عن الجو المحيط به ، بل يحس على العكس من ذلك باندماجه فى هذا الوسط ، و يستشعر عبر الأسطح الشفافة الواقية بمنطقية اتصال الأشياء التى يشاهدها فى المتحف ببقية المصاطب المجاورة وانحدار جوانب الهرم الصاعدة .

وإذا كان أصعب ما واجهنا من ناحية التناسق الشكلى هو إضافة كيان جديد إلى مجموعة أثرية قديمة وإدماجه فيها دون أن يتنافر معها ، فقد كانت أشق المشاكل العملية هى ضيق المساحة المتروكة لتنفيذ المشروع ، ذلك أن المسافة بين قاعدة الهرم وحافة الحوض القريبة منه لاتزيد عن ثمانية عشر مترا ، كما أن المسافة بين حافة الحوض البعيدة عن الهرم و بين بقايا أقرب مصطبة لاتزيد عن ستين سنتيمترا . ومع ذلك فقد كان التفكير فى بناء متحف شامل من طابق واحد مستحيلا استحالة التفكير فى تجزئته بين طابقين متمايزين تماما أوطوابق عدة محدودة . وانتهى التفكير إلى تشكيل مبنى موحد توزع فيه الآثار وتربطها جميعا ممرات معلقة فى مستويات وأوضاع مختلفة تساعد على تنويع مواضع الرؤية للزائرين ، وتتيح أكبر قدر من الاستمتاع برؤية التحفة الفريدة فى مجموعها أوفى تفاصيلها . ولكن هذا كله لم يتم فى جولة أوجولتين بل استوعب جولات كثيرة استعنت فيها بآراء الخبراء المعدودين .

و يتكون الهيكل الذى يحمل المبنى من قاعدة من الخرسانة المسلحة ومن دعامات حديدية ، وقد شكل غطاء الطابق الأسفل من سقف من القرميد والخرسانة المسلحة مغطى بطبقة من الفلين العازل للحرارة والذى يحتضن غرفة هوائية فوق السقف . وشيدت الأجزاء غير الشفافة مزدوجة من جدار خارجى من الحجر الجيرى ومن جدار داخلى من قوالب القرميد المجوفة التى تشكل غرفة هوائية فى نفس الوقت الذى تحتوى فيه على مادة عازلة . وشكلت الجدران والأسطح غير الشفافة من طبقتين من ألواح الحديد التى يبلغ سمكها ملليمترا ونصفا بينهما طبقة من الصوف الصخرى مشكلة بطريقة تجعلها أكثر ماتكون كفاءة فى عزل الحرارة ، وقد غطيت الألواح الحديدية من الداخل والخارج بطلاء واق معتم اللون قليل الامتصاص ، بينما تكونت الجدران الشفافة من مربعات زجاجية مزدوجة من النوع العازل للحرارة تشدها الأحزمة المعدنية وتضم غرفات هوائية مجففة . وقد شكلت مربعات الجدران المائلة العليا والسفلى من بللور مسقى غير قابل للكسر لتجنب وقوع خسائر فادحة إذا تعرض أحد الألواح للكسر . وهكذا تتصل رؤية المركب فى مجموعها أو فى تفاصيلها منذ بداية الزيارة حتى نهايتها دون انقطاع ، بينما تسمح جميع مراكز الرؤية الأساسية برؤية جزء يختلف فى اتساعه أو ضيقه عن المشهد المحيط بالمتحف عبر جدرانه الشفافة .

(٨) ألكسى چوكوف ولودميلا تتيركاسوڤا وسيرجيه ياڤلوف وزينايدا ڤاسيليڤا وغيرهم .

فهرس

الترقيم الدولى ٨٨٧٨ ـ ١٩٨٩

ISBN ٩٧٧ ـ ١١٨ ـ ٤٥٩ ـ ٨



قالوا فى هذا الكتاب

* الدكتور ثروت عكاشة رجل له صوت وضوء ، أما الصوت فنسمعه فى « الكونسيرفاتوار » و« فرقة الموسيقى العربية » و« الأوركسترا السيمفونى » ، وفى غير ذلك من المؤسسات الرفيعة التى أنشأها بل أنجبها هذا الرجل ، وسوف تبقى ما بقيت مصر ، وأما الضوء فنحن نراه كل مساء مع آثارنا التى عاشت فى الظلام آلافا من الليالى بعد آلاف حتى جاءها ثروت عكاشة بالنور فأصبحت هذه الآثار مشرقة على الدوام ، لا يغيب عنها الضوء فى ليل أو نهار .

* كلنا نعرفه .. كل من قرأ كتابا جميلا فى جيلنا أو سمع لحنا ممتعا أو شاهد رقصة رفيعة من رقصات الباليه ، أو دخل أحد معارض الفنون أو وقف أمام معابد أبى سمبل فوجدها حية وناضرة كما كانت منذ آلاف السنين ، بعد أن خرجت هذه المعابد بمعجزة علمية حضارية من الماء الفائض والهادر من السد العالى ، وبعد أن كادت هذه المعابد الخالدة تغرق إلى الأبد ، وتصبح أثرا فى الذاكرة بعد أن كانت جبلا راسخا فوق الأرض .. كل هؤلاء .. وكل من شاهد فيلما يرتفع بالسينما فى مصر إلى مستوى العصر ، وكل من شاهد مسرحية ممثلوها ومخرجوها من أصحاب المواهب الذين تخرجوا من معاهد العلم الرفيعة .. كل هؤلاء يعرفون ثروت عكاشة لأنه هو الذى صنع التربة الثقافية الجديدة ، وأتى لها بالطمى والبذور الصالحة ، ورعاها بالجهد الدائب والحزم العظيم ، إيمانا منه ويقينا بأن أى تغيير لا قيمة له إذا لم يكن للوطن عقل مثقف وذوق جميل .

* ثروت عكاشة هو بطل الثورة الثقافية الشاملة فى مصر ، ففى وسط صعوبات ومنغصات كثيرة استطاع أن يحقق هذه الثورة على مدى ثمانى سنوات تولى فيها أمور الثقافة ، فقامت على يديه مؤسسات كبرى أهمها أكاديمية الفنون التى قدمت لنا أجيالا من الفنانين الدارسين المتعلمين الذين خرجوا من بين سائر طبقات الشعب ، ولن يستطيع أحد أن يهدم هذا الجيل أو يقضى على دوره إلا إذا استطاع أن يهدم الأهرام أو يسدّ مجرى النيل بالصخر والتراب .

* وهذه مذكرات ثروت عكاشة يقدمها إلينا وهو فى قمة نضجه واكتمال تجربته ، ولا نبالغ إذا قلنا إنها ملحمة بكل معنى الكلمة ، فيها ما فى الملحمة من اتساع وعمق وتنوع وجلال ، وهى مذكرات تحمل وجهة نظر جديدة ومتميزة فى أحداث كبرى عشناها ولم نفهمها بوضوح ودقة حتى الآن ، مئات الصفحات فى هذه المذكرات نقرأها بل ونلتهمها فى سرعة وسهولة من شدة ما توفر لها من الصدق والجمال والمعلومات الجديدة المذهلة .

* ليس لهذه المذكرات أو هذه الملحمة الكبرى مثيل بين المذكرات التى ظهرت فى ٣٥ سنة تمتد من ١٩٥٢ إلى ١٩٨٧ ، لأنها لم تتوقف عند الأشخاص والأحداث المادية فقط ، بل سجلت كفاحنا من أجل ترقية الروح وتنقية الذوق من شوائب الماضى وتحويل الفكر والفن إلى ضرورة ولقمة خبز فى حياة كل مواطن فوق أرض مصر .

* قرأت هذه المذكرات وقلبى ينبض بالدفء والفرح مع كل ما أطالعه من صور ومعارك وشخصيات ، وعلى كثير من الصفحات سالت دموعى ، لأن معارك الجهاد الثقافى والروحى التى يرويها صاحبها كانت فى خطورة معارك السلاح ، وسوف تثير هذه المذكرات عاصفة من ردود الفعل المختلفة ، ولكن أحدا من الذين يتفقون معها أو يختلفون حولها لن يستطيع أن ينكر عليها الصدق والأصالة والجمال والأمانة وغزارة ما تكشفه من حقائق ووثائق .. والحديث يطول عن هذه المذكرات وصاحبها ، ولكن لابد من السكوت عن أى كلام مباح لنسمع ثروت عكاشة نفسه فى مذكراته أو ملحمته الفريدة وسيمفونيته الفذة .

رجاء النقاش

١٠ جنيهات